فوائد

مدارج السالكين

بين منازل

إياك نعبد وإياك نستعين

للإمام العلامة ابن قيم الجوزية

اسم الكتاب: فوائد مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين
إعداد الشيخ: فيصل الحاشدي
رقم الإيداع: ٢٠١٧/١٦٧٥٤.
نوع الطباعة: لون واحد.
عدد الصفحات: ٥٢٨.
القياس: ١٧×٢٤.

تجهيزات فنية:
مكتب دار الإيمان للتجهيزات الفنية
أعمال فنية وتصميم الغلاف أ/ يسري حسن.

٢٠١٧

١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٤٤٦٤٩٦
١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٢٢٢٠٠٢
dar_aleman@hotmail.com

دار الإيمان المتحدة
أمام مستشفى الصوفي - أسفل مدارس اليمن الحديثة
مقابل بنك سبأ - شارع رداع - محافظة ذمار
جوال: ٧٧٥٣٠٩٩٣٥

فوائد
مدارج السالكين
بين منازل
إياك نعبد وإياك نستعين

للإمام العلامة ابن قيم الجوزية

تأليف

أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي

عفا الله عنه

المُقَدِّمَةُ

2

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَىٰ أَشْرَفِ المُرْسَلِيْن.

أَمَّا بَعْدُ ، عِشْتُ مَعَ كِتَاب «**مَدَارِجُ السَّالِكِيْن**» حِيْنًا مِنَ الدَّهْرِ ، وَبَيْنَنَا رَحِمٌ أَوْجَبَتْ صِلَتِي لَهُ ، فَكُلَّمَا قَسَا قَلْبِي أَعُودُ إِلَيْهِ فَأَجِدُ حَيَاةً بَعْدَ جَفَافٍ وَلِسَانُ حَالُهُ :

تَنْكَبُ بنيَّات الطَّرِيْق وَجُورهَا   فَإِنَّك فِي الدُّنْيَا غَرِيْبٌ مُسَافِرٌ (١)

وَقَدْ كَانَتْ الفَائِدَةُ مِنْ فَوائِدِه العِظَام لَتَسْتَوْقِفُنِي ، فَأُعَلِّمُ عَلَيْهَا ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ أَجِدُ غَيْرَهَا بِكْرًا دُونَهَا النَّجم ، فَأَصْنَعُ مَعَهَا مَا صَنَعْتُهُ بِغَيْرِهَا ، ثُمَّ قَيَّدتُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي كِتَابِي هَذَا وَسَمَّيْتُهُ :

« فَوَائِدُ مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ »

تَقْرِيْبًا لِلعِلْم ، وَتَسْهِيْلاً لِلوَقْتِ ، وَلأَنَّ فِي الكِتَاب الأَصْل مَا قَدْ يَشْكُلُ عَلَىٰ بَعْضِ طَلَبَةِ العِلْم ، فَضْلاً عَن المُبْتَدعَة أَو العَامِّي وَجُلَّهُ مِنْ كَلاَم الهروي -رَحِمَهُ اللهُ- فَكُنْ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا أَوْ «ذَرْ مُشْكِل القَوْل

(١) البَيْتُ لِمَحْمُود الوَرَّاق ، انْظُرْ : «ثِمَارُ القُلُوب» (٢٢) ، وَ«مُجَمَّعُ الأَمْثَال» (١/ ٢٩٤).

وَإِنْ كَانَ حَقًا »[١]، حَتَىٰ تَجِدُ مَنْ يَدُلُّكَ عَلَىٰ الطَّرِيْقِ الآمِنِ و« السَّلامَةُ إِحْدَىٰ الغَنِيْمَتَيْنِ»[٢].

فَإِلَىٰ مُحْتَوَيَاتِ الفَوَائِدِ، واللهُ المُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التُّكْلانُ.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ

وَكَتَبَهُ

أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي

عفا الله عنه

(١) «مُجَمَّعُ الأَمْثَال» (١/ ٣١٣).
(٢) « المَرْجِعُ السَّابِق» (١/ ٣٨٦).

تَرْجَمَةٌ مُخْتَصَرَةٌ لِلإِمَام ابْن القَيِّم

-رَحِمَهُ اللّهُ تَعالَى-

قَالَ العَلَّامَةُ ابْن الأَلُوسي البُغْدَادي في تَرْجَمَة مُخْتَصَرَة لِلإِمَام ابْن القَيِّم -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَىٰ- : (هُوَ العَلَّامَةُ شَمْسُ الدِّيْن أَبُو عَبْد الله مُحَمَّد ابْن أَبِي بَكْر بْن أَيُّوب بْنِ سَعْد الزَّرْعِي ثُمَّ الدِّمشْقِي ، الفَقِيْهُ الحَنْبَلِي ، المُفَسِّر النَّحوِي ، الأُصُولِي المُتَكَلِّم ، الشَّهِيْرُ بِابْن قَيِّم الجَوْزِيَّة) .

قَالَ في الشَّذَرات : بَلْ هُوَ المُجْتَهِدُ المُطْلَق ، قَالَ ابْنُ رَجَب : وُلِدَ شَيْخُنَا سَنَة إِحْدَىٰ وَتِسْعِيْن وَستِّمِائَة ، لاَزَمَ الشَّيْخُ تَقِي الدِّيْن بْن تَيْمِيَة، وَأَخَذَ عَنْهُ ، وَتَفَنَّنَ فِي كَافَّة عُلُوم الإِسْلاَم ، وَكَانَ عَارِفًا فِي التَّفْسِيْر لا يُجَارَىٰ فِيْه ، وَبِأُصُولِ الدِّيْن وإِلَيْه فِيْه المُنْتَهَىٰ ، وَبِالحَدِيْث ومَعَانِيْه وَفِقْهِه، وَدَقَائق الاسْتِنْبَاط فِيْه لاَ يُلْحَقُ فِي ذَلِكَ ، وَبِالفِقْه والأُصُول والعَرَبِيَّة، وَلَهُ فِيْهَا اليَد الطُّولَىٰ ، وَبِعِلْم الكَلاَم والتَّصَوف ، حُبِسَ مُدَّةً لإِنْكَاره «شَدُّ الرَّحِيْلُ إِلَىٰ قَبْر الخَلِيْل» .

وَكَانَ ذَا عِبَادَةٍ وَتَهَجُّدٍ وَطُول صَلاَةٍ إِلَىٰ الغَايَةِ القُصْوَىٰ ، وَلَمْ أُشَاهِدُ مِثْلَهُ فِي عِبَادَتِه وَعِلْمِهِ بِالقُرْآنِ والحَدِيْثِ وَحَقَائِقُ الإِيْمَانِ ،

وَلَيْسَ هُوَ المَعْصُوم ، وَلَكِنْ لَمْ أَرَ فِي مَعْنَاهُ مِثْلَهُ ، وَقَدْ امْتُحِنَ وَأُوذِيَ مَرَّات ، وَحُبِسَ مَعَ شَيْخِ الإِسْلام تَقِيِّ الدِّيْن فِي المَرَّة الأَخِيْرَة بِالقَلْعَة مُنْفَرِدًا عَنْهُ، وَلَمْ يُفْرَجْ عَنْهُ إِلَّا بَعْد مَوْت الشَّيْخ ، وَكَانَ فِي مُدَّةَ حَبْسِه مُشْتَغِلاً بِتِلاوَةِ القُرْآنِ ، وَبِالتَّدَبُّر وَالتَّفَكُّر ، فَفُتِحَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ خَيْرٌ كَثِيْر ، وَحَصَلَ لَهُ جَانِبٌ عَظِيْمٌ مِنَ الأَذْوَاق وَالمَوَاجِيْد الصَّحِيْحَة ، وَتَسَلَّطَ بِسَبَب ذَلِكَ عَلَىٰ الكَلام فِي عُلُوم أَهْل المَعَارِف ، وَالخَوْض فِي غَوَامِضِهِمْ، وَتَصَانِيْفُهُ مُمْتَلِئَةٌ بِذَلِكَ ، وَحَجَّ مَرَّاتٍ كَثِيْرَةٍ ، وَجَاوَرَ بِمَكَّة، وَكَانَ أَهْلُ مَكَّة يَتَعَجَّبُونَ مِنْ كَثْرَةِ طَوَافِهِ وَعِبَادَتِهِ ، وَسَمَّعْتُ عَلَيْهِ قَصِيْدَتَهُ النُّونِيَّةَ فِي السُّنَّة ، وَأَشْيَاءَ مِنْ تَصَانِيْفِهِ غَيْرَهَا ، وَأَخَذَ عَنْهُ خَلْقٌ كَثِيْرٌ فِي حَيَاةِ شَيْخِهِ ، وَإِلَىٰ أَنْ مَاتَ وَانْتَفَعُوا بِهِ .

قَالَ القَاضِي بُرْهَانُ الدِّيْن الزَّرْعِي : وَمَا تَحْتَ أَدِيْم السَّمَاءِ أَوْسَعُ عِلْمًا مِنْه ، وَدَرَس بِالصَّدْرِيَة ، وَأَمَّ بِالجَوْزِيَّة ، وَكَتَبَ بِخَطِّهِ مَا لاَ يُوصَفُ كَثْرَةً ، وَصَنَّفَ تَصَانِيْف كَثِيْرَةً جِدًا فِي أَنْوَاعِ العُلُوم ، وَحَصَلَ لَهُ مِنَ الكُتُبِ مَا لَمْ يَحْصُلُ لِغَيْرِهِ .

فَمِنْ تَصَانِيْفِهِ : تَهْذِيْبُ سُنَنِ أَبِي دَاود وَإِيْضَاحُ مُشْكِلاتِه ، وَسَفَرُ الهِجْرَتَيْن ، وَمَرَاحِلُ السَّائِرِيْن ، وَالكَلِمُ الطَّيِّبُ ، وَزَادُ المُسَافِرِيْن ، وَزَادُ المَعَاد - أَرْبَعُ مُجَلَّدَات- وَهُوَ كِتَابٌ جَلِيْلٌ - ، وَكِتَاب نَقْدُ المَنْقُول، وَكِتَابُ إِعْلامُ المُوَقِّعِيْن عَنْ رَبِّ العَالَمِيْن - ثَلاثُ مُجَلَّدَاتٍ - ،

وَكِتَابُ بَدَائِعُ الفَوَائِد – مُجَلَّدَان– ، والنُّونِيَّةُ الشَّهِيْرَة بالشَّافِيْة الكَافِيَة ، والصَّوَاعِقُ المُرْسَلَة عَلَىٰ الجَهْمِيَّة والمُعَطِّلَة ، وَحَادِي الأَرْوَاح إِلَىٰ بلادِ الأَفْرَاح ، وَنُزْهَةُ المَشْتَاقِيْن ، وَكِتَابُ الدَّاءُ والدَّوَاء ، وَكِتَابُ مُفْتَاحُ دَارُ السَّعَادَةِ – مُجَلَّد ضَخْم غَرِيْب الأَسْلُوب– ، وَاجْتِماع الجُيُوش الإِسْلاَمِيَّة، وَكِتَاب الطُّرُق الحَكْمِيَّة ، وَكِتَابُ عُدَّةُ الصَّابِرِيْن ، وَكِتَابُ إِغَاثَةُ اللَّهفَان ، وَكِتَابُ الرُّوْحُ ، وَكِتَابُ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيْمُ ، وَالفَتْحُ القُدْسي ، والتُّحْفَةُ المَكِّيَّة ، والفَتَاوَىٰ وَغَيْرُ ذَلِك .

تُوُفِّيَ ثَالث عَشْرَ رَجَبَ سَنَة إِحْدَىٰ وَخَمْسِيْنَ وسَبْعُمائَة ، وَدُفِنَ بمَقْبَرَة البَابُ الصَّغِيْر بَعْدَ أَنْ صُلِّيَ عَلَيْه بِمَوَاضِعَ عَدِيْدَة ، وَكَانَ قَدْ رَأَىٰ قَبْلَ مَوْتِه شَيْخَهُ تَقِيُّ الدِّيْن في النَّوْم وَسَأَلَهُ عَنْ مَنْزِلَتِه فَأَشَارَ إِلَىٰ عُلُوِّهَا فَوْقَ بَعْض الأَكَابِر –رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ – [1].

(١) جَلاَءُ العِيْنَيْن : للعَلَّامَةُ ابْن الأَلُوسي البُغْدَادِي – رَحِمَهُ اللهُ– (ص٤٤–٤٥).

تَرْجَمَةٌ مُوجزَةٌ للإمَام الهَروي صَاحِبُ المَنَازِلُ

-رَحِمَهُ اللّهُ تعالَى-

تَرْجَمَ لَهُ الذَّهَبِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَىٰ- في كِتَابه السِّيَر بقَوْلِهِ : الإمَامُ القُدْوَةُ ، الحَافِظُ الكَبِيْرُ، أَبُو إِسْمَاعِيل ، عَبْدُ اللهِ بْن مُحَمَّد بْن عَليِّ بْن مُحَمَّد بْن أَحْمَد بْن عَليِّ بْن جَعْفَر بْن مَنْصُور بْن متّ الأَنْصارِيُّ الهَروي، مُصَنِّف كتَاب «ذَمُّ الكَلَام» ، وَشَيْخُ خُرَاسَان مِنْ ذُرِيَّة صَاحِب النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَبِي أَيُّوبُ الأَنْصَارِيُّ - رَضيَ اللهُ عَنْهُ - .

مَوْلِدهُ فِي سَنَة سِتٍّ وَتِسْعِيْنَ وَثَلَاثِ مِئَة .

قَالَ السَّلَفِي : سَأَلْتُ المُؤْتَمَن السَّاجِي عَنْ أَبِي إِسْمَاعِيْل الأَنْصَارِي، فَقَالَ : كَانَ آيَةً فِي لِسَانِ التَّذْكِيْر والتَّصوُّف، مِنْ سَلاطِيْن العُلَمَاء ، سَمِع بِبَغْداد مِنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الحَسَن بْن مُحَمَّد الخلال ، وَغَيْره ، يَرْوِي فِي مَجَالِس وَعْظه الأَحَادِيْث بالإِسْنَاد ، وَيَنْهَىٰ عَنْ تَعْلِيْقها عَنْهُ ، قَالَ : وَكَانَ بَارِعًا فِي اللُّغَة ، حَافِظًا للحَدِيْث ، قَرَأْتُ عَلَيْهِ كِتَابَ «ذَمُّ الكَلام».

قَالَ المُؤْتَمن: كَانَ يَدْخُل عَلَىٰ الأُمَرَاء والجَبَابرَة ، فَمَا يُبَالِي ، وَيَرَىٰ الغَرِيْبَ مِنَ المُحَدِّثِيْن ، فَيُبَالِغُ فِي إِكْرَامِهِ ، قَالَ لِي مَرَّةً : هَذَا الشَّأْن شَأْنُ

مَنْ لَيْسَ لَهُ شَأْنٌ سُوَىٰ هَذَا الشَّأْن - يَعْنِي طَلَب الحَدِيْث - .

قَالَ الحُسَيْنُ بْن عَلي الكُتبي: خَرَّجَ شَيْخُ الإِسْلام لِجَمَاعَةٍ الفَوَائِدَ بخَطِّه إِلَىٰ أَنْ ذَهَبَ بَصَرُهُ ، فَكَانَ يَأْمُرُ فِيْمَا يُخَرِّجهُ لِمَنْ يَكْتُب ، وَيُصَحِّحُ هُوَ ، وَقَدْ تَوَاضَعَ بِأَنْ خَرَّجَ لِي فَوَائِدَهُ ، وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِمَّنْ خَرَّجَ لَهُ سِوَاي.

وَلَقَدْ بَالَغَ أَبُو إِسْمَاعِيْل فِي «ذَمِّ الكَلاَم» عَلَىٰ الاتِّبَاع فَأَجَادَ ، وَلَكِنَّهُ لَهُ نَفَسٌ عَجِيْبٌ لاَ يُشْبِهُ نَفَس أَئِمَّة السَّلَف فِي كِتَابه «مَنَازِلُ السَّائِرِيْن» ، فَفِيْهِ أَشْيَاءُ مُطْربَة ، وَفِيْهِ أَشْيَاءُ مُشكَلَةٌ ، وَمَنْ تَأَمَّلَهُ لاَحَ لَهُ مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ ، والسُّنَّةُ المُحَمَّدِيَّة صَلِفَة ، وَلاَ يَنْهَضُ الذَّوْقُ وَالوَجْدُ إِلَّا عَلَىٰ تَأْسِيْس الكِتَاب والسُّنَّة ، وَقَدْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ سَيْفًا مَسْلُولاً عَلَىٰ المُتَكَلِّمِيْنَ، لَهُ صَوْلَةٌ وَهَيْبَةٌ واسْتِيْلاَءٌ عَلَىٰ النُّفُوس بِبَلَدِه ، يُعَظِّمُونَهُ، وَيَتَغَالُونَ فِيْهِ، وَيَبْذُلُونَ أَرْوَاحَهُمْ فِيْمَا يَأْمُرُ بِهِ ، كَانَ عِنْدَهُمْ أَطْوَعَ وَأَرْفَعَ مِنَ السُّلْطَانِ بِكَثِيْر ، وَكَانَ طَوْدًا رَاسِيًا فِي السُّنَّة لاَ يَتَزَلْزَلُ وَلاَ يَلِيْن ، لَوْلاَ مَا كَدَّرَ كِتَابَهُ «الفَارُوق فِي الصِّفَات» ، بِذِكْرِ أَحَادِيْثَ بَاطِلَةٍ يَجِبُ بَيَانُهَا وَهَتْكُهَا ، واللهُ يَغْفِرُ لَهُ بِحُسْنِ قَصْده، وَصَنَّفَ «الأَرْبَعِيْنَ» فِي التَّوْحِيْدِ ، وَ«أَرْبَعِيْنَ» فِي السُّنَّةِ ، وَقَدْ امْتُحِنَ مَرَّاتٍ ، وَأُوْذِيَ وَنُفِيَ مِنْ بَلَدِهِ .

قَالَ ابْنُ طَاهِر: سَمِعْتُهُ يَقُولُ : عُرِضْتُ عَلَىٰ السَّيْف خَمْسَ مَرَّاتٍ ،

لَا يُقَالُ لِي : ارْجِعْ عَنْ مَذْهَبِكَ ، لَكِنْ يُقَالُ لِي : اسْكُتْ عَمَّنْ خَالَفَكَ، فَأَقُولُ : لا أَسْكُتُ ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : أَحْفَظُ اثْنَىْ عَشَرَ أَلْفَ حَدِيْثٍ أَسْرُدُهَا سَرْدًا .

قَالَ الحَافِظُ أَبُو النَّضْر الفَامِي : كَانَ شَيْخُ الإِسْلَامِ أَبُو إِسْمَاعِيْل بِكْرَ الزَّمَانِ، وَوَاسِطَةَ عِقْدِ المَعَانِي ، وَصُورَةُ الإِقْبَالِ فِي فُنُونِ الفَضَائِلِ وَأَنْوَاعِ المَحَاسِنِ ، مِنْهَا نُصْرَةُ الدِّيْنِ وَالسُّنَّةِ ، مِنْ غَيْرِ مُدَاهَنَةٍ وَلا مُرَاقَبَةٍ لِسُلْطَانٍ وَلاَ وَزِيْرٍ ، وَقَدْ قَاسَىٰ بِذَلِكَ قَصْدَ الحُسَّادِ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، وَسَعَوْا فِي رُوحِهِ مِرَارًا ، وَعَمَدُوا إِلَىٰ إِهْلَاكِهِ أَطْوَارًا ، فَوَقَاهُ اللهُ شَرَّهُمْ، وَجَعَلَ قَصْدَهُمْ أَقْوَىٰ سَبَبٍ لارْتِفَاعِ شَأْنِهِ .

قُلْتُ : قَدْ انْتَفَعَ بِهِ خَلْقٌ ، وَجَهِلَ آخَرُونَ ، فَإِنَّ طَائِفَةً مِنْ صُوفِيَّةِ الفَلْسَفَةِ وَالاتِّحَادِ يَخْضَعُونَ لِكَلَامِهِ فِي «مَنَازِلُ السَّائِرِيْنَ» ، وَيَنْتَحِلُونَهُ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ مُوَافِقُهُمْ ، كَلَّا ، بَلْ هُوَ رَجُلٌ أَثَرِيٌّ ، لَهِجٌ بِإِثْبَاتِ نُصُوصِ الصِّفَاتِ ، مُنَافِرٌ لِلكَلَامِ وَأَهْلَهُ جِدًّا ، وَفِي «مَنَازِلَهُ» إِشَارَاتٌ إِلَىٰ المَحْوِ والفَنَاءِ ، وَإِنَّمَا مُرَادَهُ بِذَلِكَ الفَنَاءِ هُوَ الغَيْبَةُ عَنْ شُهُودِ السِّوَىٰ ، وَلَمْ يُرِدْ مَحْوَ السِّوِي فِي الخَارِجِ ، وَيَالَيْتَهُ لا صَنَّفَ ذَلِكَ ، فَمَا أَحْلَىٰ تَصَوفَ الصَّحَابَةِ والتَّابِعِيْنَ !، مَا خَاضُوا فِي هَذِهِ الخَطَرَاتِ والوَسَاوِسِ ، بَلْ عَبَدُوا اللهَ ، وَذَلُّوا لَهُ وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ ، وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ، لِأَعْدَائِهِ مُجَاهِدُونَ ، وَفِي الطَّاعَةِ مُسَارِعُونَ ، وَعَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ،

والله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيْم .

وَقَدْ جَمَعَ هَذَا سِيْرَةً لِلإِمَام أَحْمَد فِي مُجَلَّد ، سَمِعْنَاهَا مِنْ أَبِي حَفْص ابْن القَوَّاس بِإِجَازَتِهِ مِنْ الكَنْدِي ، أَخْبَرَنَا الكَرُوخي ، أَخْبَرَنَا المُؤَلِّفُ.

قَالَ ابْنُ طَاهِر : حَكَىٰ لِي أَصْحَابُنَا أَنَّ السُّلْطَان أَلْب أَرْسَلَان قَدِمَ هَرَاةً وَمَعَهُ وَزِيْرهُ نِظَامُ المُلك، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ أَئِمَّةُ الحَنَفِيَّة وأَئِمَّةُ الشَّافِعيَّة لِلشَّكْوَىٰ مِنْ الأَنْصَارِي ، وَمُطَالَبَتِه بِالمُنَاظَرَة، فَاسْتَدْعَاهُ الوَزِيْرُ ، فَلَمَّا حَضَرَ قَالَ : إِنَّ هَؤُلاءِ قَدْ اجْتَمَعُوا لِمُنَاظَرَتِك ، فَإِنْ يَكُن الحَقُّ مَعَكَ ؛ رَجَعُوا إِلَىٰ مَذْهَبِكَ ، وَإِنْ يَكُن الحَقُّ مَعَهُمْ ، رَجَعْتَ أَوْ تَسْكُتَ عَنْهُم. فَوَثَبَ الأَنْصَارِيُّ وَقَالَ : أُنَاظِرُ عَلَىٰ مَا فِي كُمِّي ، قَالَ : وَمَا فِي كُمِّكَ؟، قَالَ : كِتَابُ الله – وَأَشَارَ إِلَىٰ كُمِّهِ اليَمِيْنَ – وَسُنَّةُ رَسُولُ الله –صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ، وَأَشَارَ إِلَىٰ كُمِّهِ اليَسَار – وَكَانَ فِيْهِ «الصَّحِيْحَان» .

فَنَظَرَ الوَزِيْرُ إِلَيْهِمْ مُسْتَفْهِمًا لَهُمْ ، فَلَمْ يَكُن فِيْهِم مَنْ نَاظَرَهُ مِنْ هَذَا الطَّرِيْقُ .

وَقَالَ عَبْدُ الغَافِر بْنُ إِسْمَاعِيْل : كَانَ أَبُو إِسْمَاعِيْل الأَنْصَارِيُّ عَلَىٰ حَظٍّ تَامٍّ مِنْ مَعْرِفَة العَرَبِيَّة والحَدِيْث والتَّوَارِيْخ والأَنْسَابُ ، إِمَامًا كَامِلاً فِي التَّفْسِيْر ، حَسَنَ السِّيْرَة فِي التَّصَوُّف ، غَيْرَ مُشْتَغِل بِكَسْب، مُكْتَفِيًّا بِمَا يُبَاسطُ بِهِ المُرِيْدِيْنَ والأَتْبَاعُ مِنْ أَهْلِ مَجْلِسِهِ فِي العَامِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ عَلَىٰ

رَأْس المَلأ ، فَيَحْصُل عَلَىٰ أُلُوف مِنَ الدَّنَانِيْر وَأَعْدَاد مِنَ الثِّيَاب والحُلِيِّ، فَيَأْخُذُهَا ، وَيُفَرِّقُهَا عَلَىٰ اللَّحَّام وَالخَبَّاز ، وَيُنْفِقُ مِنْهَا، وَلاَ يَأْخُذُ مِنَ السُّلْطَانِ ولَا مِنْ أَرْكَان الدَّوْلَة شَيْئًا ، وَقَلَّ مَا يُرَاعِيهُمْ، ولاَ يَدْخُل عَلَيْهِمْ ، وَلاَ يُبَالِي بِهِمْ ، فَبَقِيَ عَزِيْزًا مَقْبُولاً قُبُولاً أَتَمَّ مِنَ المَلِك ، مُطَاعَ الأَمْر نَحْوًا مِنْ سِتِّيْنَ سَنَةً مِن غَيْر مُزَاحَمَة ، وَكَانَ إِذَا حَضَرَ المَجْلِسَ لَبِسَ الثِّيَاب الفَاخِرَة ، وَرَكِبَ الدَّوَابَّ الثَّمِيْنَة ، وَيَقُولُ: إِنَّمَا أَفْعَلُ هَذَا إِعْزَازًا لِلدِّيْن ، وَرَغْمًا لأَعْدَائِه ، حَتَّىٰ يَنْظُرُوا إِلَىٰ عِزِّي وَتَجَمُّلي ، فَيَرْغَبُوا فِي الإِسْلام ، ثُمَّ إِذَا انْصَرَفَ إِلَىٰ بَيْتِه ؛ عَادَ إِلَىٰ المُرَقَّعَة والقُعُود مَعَ الصُّوفِيَةِ فِي الخَانقَاهُ يَأْكُلُ مَعَهُمْ ، وَلاَ يَتَمَيَّزُ بِحَال، وَعَنْهُ أَخَذَ أَهْلُ هَرَاة التَّبْكِيْرَ بِالفَجْرِ ، وَتَسْمِيَةَ الأَوْلاَد غَالِبًا بِعَبْدٍ المُضَاف إِلَىٰ أَسْمَاءِ اللهِ – تَعَالَىٰ – .

قَالَ أَبُو سَعْد السَّمْعَانِي: كَانَ أَبُو إِسْمَاعِيْل مُظْهِرًا لِلسُّنَّة ، دَاعِيًا إِلَيْهَا، مُحَرِّضًا عَلَيْهَا ، كَانَ مُكْتَفِيًا بِمَا يُبَاسِط بِهِ المُرِيْدِيْنَ ، مَا كَانَ يَأْخُذُ مِنَ الظَّلَمَ شَيْئًا ، وَمَا كَانَ يَتَعَدَّىٰ إِطْلاق مَا وَرَدَ فِي الظَّوَاهِر مِنَ الكِتَاب والسُّنَّة ، مُعْتَقِدًا مَا صَحَّ، غَيْر مُصَرَّح بِمَا يَقْتَضِيْه تَشْبِيْهٌ ، وَقَال مَرَّةً : مَنْ لَمْ يَرَ مَجْلِسِي وَتَذْكِيْرِي ، وَطَعَنَ فِيَّ فَهُوَ مِنِّي فِي حِلٍّ .

قُلْتُ : غَالِبُ مَا رَوَاهُ فِي كِتَابُ «الفَارُوق» صِحَاحٌ وَحِسَانٌ ، وَفِيْه بَابُ إِثْبَات اسْتِوَاءِ اللهِ عَلَىٰ عَرْشِهِ فَوْقَ السَّمَاء السَّابِعَة بَائِنًا مِنْ خَلْقِهِ

مِنَ الكتَابِ والسُّنَّة ، فَسَاقَ دَلائِلَ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ وَالأَحَادِيْث إِلَىٰ أَنْ قَالَ: وَفِي أَخْبَارٍ شَتَّىٰ أَنَّ اللهَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَة عَلَىٰ العَرْشِ ، وَعِلْمُهُ وَقُدْرَتُهُ واسْتِمَاعُهُ وَنَظَرُهُ وَرَحْمَتُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ .

قِيْلَ : إِنَّ شَيْخَ الإِسْلام عَقَدَ عَلَىٰ تَفْسِيْرُ قَوْلِهِ -تَعَالَى- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأَنْبِيَاء:١٠١]، ثَلاثَ مِئَةٍ وَسِتِّيْنَ مَجْلِسًا .

قَالَ أَبُو النَّضْر الفَامِي : « تُوفِّيَ شَيْخ الإِسْلام فِي ذِي الحِجَّة ، سَنَة إِحْدَىٰ وَثَمَانِيْنَ وَأَرْبَعِ مَائَة ، عَنْ أَرْبَعٍ وثَمَانِيْنَ سَنَةٍ وَأَشْهُرٍ »[1] .

(١) «سيَرُ أَعْلاَمِ النُّبَلاَءِ» (١٨/ ٥٠٣-٥١٥) باخْتِصَار ، وَمَا وَرَدَ فِي هَذِهِ التَّرْجَمَة مِنْ لَفْظَة (شَيْخُ الإِسْلاَم) فَالمُرَادُ بِهَا هُنَا الإِمَامُ الهَرَوي .

العِلْمُ

هِدايَةُ القُرْآنِ :

سُبْحَانَ اللهِ ! مَاذَا حُرِمَ الْمُعْرِضُونَ عَنْ نُصُوصِ الْوَحْيِ، وَاقْتِبَاسِ الْعِلْمِ مِنْ مِشْكَاتِهِ مِنْ كُنُوزِ الذَّخَائِرِ ؟ ! وَمَاذَا فَاتَهُمْ مِنْ حَيَاةِ الْقُلُوبِ وَاسْتِنَارَةِ الْبَصَائِرِ ؟ قَنِعُوا بِأَقْوَالٍ اسْتَنْبَطَتْهَا مَعَاوِلُ الْآرَاءِ فِكْرًا، وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ لِأَجْلِهَا زُبُرًا، وَأَوْحَىٰ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا، فَاتَّخَذُوا لِأَجْلِ ذَلِكَ الْقُرْآنَ مَهْجُورًا.

كَمَالُ الإِنْسَانِ بِالعِلْمِ النَّافِعُ :

كَمَالُ الْإِنْسَانِ إِنَّمَا هُوَ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَهُمَا الْهُدَىٰ وَدِينُ الْحَقِّ، وَبِتَكْمِيلِهِ لِغَيْرِهِ فِي هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر] ، أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ خَاسِرٌ إِلَّا مَنْ كَمَّلَ قُوَّتَهُ الْعِلْمِيَّةَ بِالْإِيمَانِ، وَقُوَّتَهُ الْعَمَلِيَّةَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَكَمَّلَ غَيْرَهُ بِالتَّوْصِيَةِ بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ، فَالْحَقُّ هُوَ الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ، وَلَا يَتِمَّانِ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَيْهِمَا، وَالتَّوَاصِي

بِهِمَا كَانَ حَقِيقًا بِالْإِنْسَانِ أَنْ يُنْفِقَ سَاعَاتِ عُمْرِهِ بَلْ أَنْفَاسَهُ فِيمَا يَنَالُ بِهِ الْمَطَالِبَ الْعَالِيَةَ، وَيَخْلُصُ بِهِ مِنَ الْخُسْرَانِ الْمُبِينِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا بِالْإِقْبَالِ عَلَىٰ الْقُرْآنِ وَتَفَهُّمِهِ وَتَدَبُّرِهِ وَاسْتِخْرَاجِ كُنُوزِهِ وَإِثَارَةِ دَفَائِنِهِ، وَصَرْفِ الْعِنَايَةِ إِلَيْهِ، وَالْعُكُوفِ بِالْهِمَّةِ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ الْكَفِيلُ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، وَالْمُوَصِّلُ لَهُمْ إِلَىٰ سَبِيلِ الرَّشَادِ، فَالْحَقِيقَةُ وَالطَّرِيقَةُ، وَالْأَذْوَاقُ وَالْمَـوَاجِيدُ الصَّحِيحَةُ، كُلُّهَا لَا تُقْتَبَسُ إِلَّا مِنْ مِشْكَاتِهِ، وَلَا تُسْتَثْمَرُ إِلَّا مِنْ شَجَرَاتِهِ.

أَمْثَالُ الْقُرْآنِ :

وَكَمْ فِي الْقُرْآنِ مِنْ مَثَلٍ عَقْلِيٍّ وَحِسِّيٍّ يُنَبِّهُ بِهِ الْعُقُولَ عَلَىٰ حُسْنِ مَا أَمَرَ بِهِ، وَقُبْحِ مَا نَهَىٰ عَنْهُ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِهِ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِضَرْبِ الْأَمْثَالِ لِلْعُقُولِ مَعْنًى، وَلَكَانَ إِثْبَاتُ ذَلِكَ بِمُجَرَّدِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ دُونَ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ، وَتَبْيِينِ جِهَةِ الْقُبْحِ الْمَشْهُودَةِ بِالْحُسْنِ وَالْعَقْلِ.

وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ بِهَذَا لِمَنْ تَدَبَّرَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرُّمُ: ٢٨] ، يَحْتَجُّ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ بِمَا فِي عُقُولِهِمْ مِنْ قُبْحِ كَوْنِ مَمْلُوكِ أَحَدِهِمْ شَرِيكًا لَهُ،

فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يَسْتَقْبِحُ أَنْ يَكُونَ مَمْلُوكُهُ شَرِيكَهُ، وَلَا يَرْضَىٰ بِذَلِكَ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَ لِي مِنْ عَبِيدِي شُرَكَاءَ تَعْبُدُونَهُمْ كَعِبَادَتِي ؟ وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ قُبْحَ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ تَعَالَىٰ مُسْتَقِرٌّ فِي الْعُقُولِ وَالْفِطَرِ، وَالسَّمْعُ نَبَّهَ الْعُقُولَ وَأَرْشَدَهَا إِلَىٰ مَعْرِفَةِ مَا أُودِعَ فِيهَا مِنْ قُبْحِ ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزُّمَر: ٢٩] ، احْتَجَّ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ قُبْحِ الشِّرْكِ بِمَا تَعْرِفُهُ الْعُقُولُ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ حَالِ مَمْلُوكٍ يَمْلِكُهُ أَرْبَابٌ مُتَعَاسِرُونَ سَيِّئُوا الْمَلَكَةِ، وَحَالِ عَبْدٍ يَمْلِكُهُ سَيِّدٌ وَاحِدٌ قَدْ سَلِمَ كُلُّهُ لَهُ، فَهَلْ يَصِحُّ فِي الْعُقُولِ اسْتِوَاءُ حَالِ الْعَبْدَيْنِ ؟ ، فَكَذَلِكَ حَالُ الْمُشْرِكِ وَالْمُوَحِّدِ الَّذِي قَدْ سَلِمَتْ عُبُودِيَّتُهُ لِإِلَهِهِ الْحَقِّ لَا يَسْتَوِيَانِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ مُمَثِّلًا لِقُبْحِ الرِّيَاءِ الْمُبْطِلِ لِلْعَمَلِ، وَالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ الْمُبْطِلِ لِلصَّدَقَاتِ بِـ ﴿ صَفْوَانٍ ﴾ وَهُوَ الْحَجَرُ الْأَمْلَسُ عَلَيْهِ تُرَابٌ غُبَارٌ قَدْ لَصِقَ بِهِ فَأَصَابَهُ مَطَرٌ شَدِيدٌ فَأَزَالَ مَا عَلَيْهِ مِنَ التُّرَابِ فَتَرَكَهُ صَلْدًا أَمْلَسَ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ، وَهَذَا الْمَثَلُ فِي غَايَةِ الْمُطَابَقَةِ لِمَنْ فَهِمَهُ، فَـ «الصَّفْوَانُ» وَهُوَ الْحَجَرُ، كَقَلْبِ الْمُرَائِي وَالْمَانِّ وَالْمُؤْذِي، وَالتُّرَابُ الَّذِي لَصِقَ بِهِ مَا تَعَلَّقَ بِهِ مِنْ أَثَرِ عَمَلِهِ وَصَدَقَتِهِ، وَالْوَابِلُ الْمَطَرُ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الْأَرْضِ، فَإِذَا صَادَفَهَا لَيِّنَةً قَابِلَةً نَبَتَ فِيهَا الْكَلَأُ، وَإِذَا صَادَفَ الصُّخُورَ

وَالْحِجَارَةَ الصُّمَّ لَمْ يُنْبِتْ فِيهَا شَيْئًا، فَجَاءَ هَذَا الْوَابِلُ إِلَىٰ التُّرَابِ الَّذِي عَلَىٰ الْحَجَرِ، فَصَادَفَهُ رَقِيقًا، فَأَزَالَهُ، فَأَفْضَىٰ إِلَىٰ حَجَرٍ غَيْرِ قَابِلٍ لِلنَّبَاتِ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ قُبْحَ الْمَنِّ، وَالأَذَىٰ ، وَالرِّيَاءِ مُسْتَقِرٌّ فِي الْعُقُولِ، فَلِذَلِكَ نَبَّهَهَا عَلَىٰ شِبْهِهِ وَمِثَالِهِ.

وَعَكْسُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ ﴿ **وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴿٢٦٥﴾ ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٥] ، فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْجَنَّةُ - الَّتِي بِمَوْضِعٍ عَالٍ، حَيْثُ لَا تُحْجَبُ عَنْهَا الشَّمْسُ وَالرِّيَاحُ، وَقَدْ أَصَابَهَا مَطَرٌ شَدِيدٌ، فَأَخْرَجَتْ ثَمَرَتَهَا ضِعْفَيْ مَا يُخْرِجُ غَيْرُهَا - إِنْ كَانَتْ مُسْتَحْسَنَةً فِي الْعَقْلِ وَالْحِسِّ، فَكَذَلِكَ نَفَقَةُ مَنْ أَنْفَقَ مَالَهُ لِوَجْهِ اللهِ، لَا لِجَزَاءٍ مِنَ الْخَلْقِ، وَلَا لِشُكُورٍ، بَلْ بِثَبَاتٍ مِنْ نَفْسِهِ، وَقُوَّةٍ عَلَىٰ الْإِنْفَاقِ، لَا يُخْرِجُ النَّفَقَةَ وَقَلْبُهُ يَرْجُفُ عَلَىٰ خُرُوجِهَا، وَيَدَاهُ تَرْتَعِشَانِ، وَيَضْعُفُ قَلْبُهُ، وَيَخُورُ عِنْدَ الْإِنْفَاقِ، بِخِلَافِ نَفَقَةِ صَاحِبِ التَّثْبِيتِ وَالْقُوَّةِ.

وَلَمَّا كَانَ النَّاسُ فِي الْإِنْفَاقِ عَلَىٰ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ كَانَ مَثَلُ نَفَقَةِ صَاحِبِ الْإِخْلَاصِ وَالْقُوَّةِ وَالتَّثْبِيتِ كَمَثَلِ الْوَابِلِ، وَمَثَلُ نَفَقَةِ الْآخَرِ كَمَثَلِ الطَّلِّ، وَهُوَ الْمَطَرُ الضَّعِيفُ، فَهَذَا بِحَسَبِ كَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ وَقِلَّتِهِ،

وَكَمَال الْإِخْلَاص وَالْقُوَّة وَالْيَقِين فِيهِ وَضَعْفه، أَفَلَا تَرَاهُ سُبْحَانَهُ نَبَّهَ الْعُقُولَ عَلَىٰ مَا فِيهَا مِن اسْتِحْسَانِ هَذَا، وَاسْتِقْبَاحِ فِعْلِ الْأَوَّلِ ؟.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٥]، فَنَبَّهَ سُبْحَانَهُ الْعُقُولَ عَلَىٰ مَا فِيهَا مِنْ قُبْحِ الْأَعْمَال السَّيِّئَة الَّتِي تُحْبِطُ ثَوَابَ الْحَسَنَات، وَشَبَّهَهَا بِحَالِ شَيْخ كَبِير لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ، بِحَيْثُ يَخْشَىٰ عَلَيْهِمُ الضَّيْعَةَ وَعَلَىٰ نَفْسِه، وَلَهُ بُسْتَانٌ هُوَ مَادَّةُ عَيْشِه وَعَيْش ذُرِّيَّتِه، فِيهِ النَّخِيلُ وَالْأَعْنَابُ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَات، فَأَرْجَىٰ وَأَفْقَرَ مَا هُوَ لَهُ وَأَسَرَّ مَا كَانَ بِه إِذْ أَصَابَهُ نَارٌ شَدِيدَةٌ فَأَحْرَقَتْهُ، فَنَبَّهَ الْعُقُول عَلَىٰ أَنَّ قُبْحَ الْمَعَاصِي الَّتِي تُغْرِقُ الطَّاعَاتِ كَقُبْح هَذِه الْحَال، وَبِهَذَا فَسَّرَهَا عُمَرُ، وَابْنُ عَبَّاس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- لِرَجُل غَنِيٍّ عَمِلَ بِطَاعَة الله زَمَانًا، فَبَعَثَ اللهُ لَهُ الشَّيْطَانَ، فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّىٰ أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ، ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِه.

أَفَلَا تَرَاهُ نَبَّهَ الْعُقُولَ عَلَىٰ قُبْحِ الْمَعْصِيَةِ بَعْدَ الطَّاعَةِ، وَضَرَبَ لِقُبْحِهَا هَذَا الْمَثَلَ ؟.

لاَ يُسْتَحِبُّ لِلمُعْتَكِفِ نَشْرُ العِلْمِ :

حَقِيقَةُ الاعْتِكَافِ الْمَشْرُوعِ، وَهُوَ جَمْعِيَّةُ الْعَبْدِ عَلَىٰ رَبِّهِ وَخَلْوَتُهُ بِهِ، وَكَانَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَحْتَجِرُ بِحَصِيرٍ فِي الْمَسْجِدِ فِي اعْتِكَافِهِ، يَخْلُو بِهِ مَعَ رَبِّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- ، وَلَمْ يَكُنْ يَشْتَغِلُ بِتَعْلِيمِ الصَّحَابَةِ وَتَذْكِيرِهِمْ فِي تِلْكَ الْحَالِ، وَلِهَذَا كَانَ الْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ لاَ يُسْتَحَبُّ لِلْمُعْتَكِفِ إِقْرَاءُ الْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ، وَخَلْوَتُهُ لِلذِّكْرِ وَالْعِبَادَةِ أَفْضَلُ لَهُ، وَاحْتَجُّوا بِفِعْلِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

فَوائِدُ تَدَبُّرُ القُرْآنِ :

وَأَمَّا التَّأَمُّلُ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ تَحْدِيقُ نَاظِرِ الْقَلْبِ إِلَىٰ مَعَانِيهِ، وَجَمْعُ الْفِكْرِ عَلَىٰ تَدَبُّرِهِ وَتَعَقُّلِهِ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِإِنْزَالِهِ، لاَ مُجَرَّدُ تِلاَوَتِهِ بِلاَ فَهْمٍ وَلاَ تَدَبُّرٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾[ص:٢٩] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [مُحَمَّد:٢٤] ،وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المُؤْمِنُونَ:٦٨] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الزُّخْرف:٣] ، وَقَالَ الْحَسَنُ: نَزَلَ الْقُرْآنُ لِيُتَدَبَّرَ وَيُعْمَلَ بِهِ ، فَاتَّخِذُوا تِلاَوَتَهُ عَمَلاً.

فَلَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، وَأَقْرَبَ إِلَىٰ نَجَاتِهِ مِنْ تَدَبُّرِ

الْقُرْآنِ، وَإِطَالَةِ التَّأَمُّلِ فِيهِ، وَجَمْعِ الْفِكْرِ عَلَىٰ مَعَانِي آيَاتِهِ، فَإِنَّهَا تُطْلِعُ الْعَبْدَ عَلَىٰ مَعَالِمِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِحَذَافِيرِهِمَا، وَعَلَىٰ طُرُقَاتِهِمَا وَأَسْبَابِهِمَا وَغَايَاتِهِمَا وَثَمَرَاتِهِمَا، وَمَآلِ أَهْلِهِمَا، وَتَتُلُّ فِي يَدِهِ مَفَاتِيحَ كُنُوزِ السَّعَادَةِ وَالْعُلُومِ النَّافِعَةِ، وَتُثَبِّتُ قَوَاعِدَ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، وَتُشَيِّدُ بُنْيَانَهُ وَتُوَطِّدُ أَرْكَانَهُ، وَتُرِيهِ صُورَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي قَلْبِهِ، وَتُحْضِرُهُ بَيْنَ الْأُمَمِ، وَتُرِيهِ أَيَّامَ اللهِ فِيهِمْ، وَتُبَصِّرُهُ مَوَاقِعَ الْعِبَرِ، وَتُشْهِدُهُ عَدْلَ اللهِ وَفَضْلَهُ، وَتُعَرِّفُهُ ذَاتَهُ، وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالَهُ، وَمَا يُحِبُّهُ وَمَا يُبْغِضُهُ، وَصِرَاطَهُ الْمُوصِلَ إِلَيْهِ، وَمَا لِسَالِكِيهِ بَعْدَ الْوُصُولِ وَالْقُدُومِ عَلَيْهِ، وَقَوَاطِعَ الطَّرِيقِ وَآفَاتِهَا، وَتُعَرِّفُهُ النَّفْسَ وَصِفَاتِهَا، وَمُفْسِدَاتِ الْأَعْمَالِ وَمُصَحِّحَاتِهَا وَتُعَرِّفُهُ طَرِيقَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ وَأَعْمَالَهُمْ، وَأَحْوَالَهُمْ وَسِيمَاهُمْ، وَمَرَاتِبَ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَهْلِ الشَّقَاوَةِ، وَأَقْسَامَ الْخَلْقِ وَاجْتِمَاعَهُمْ فِيمَا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، وَافْتِرَاقَهُمْ فِيمَا يَفْتَرِقُونَ فِيهِ.

وَبِالْجُمْلَةِ تُعَرِّفُهُ الرَّبَّ الْمَدْعُوَّ إِلَيْهِ، وَطَرِيقَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَمَا لَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِ.

وَتُعَرِّفُهُ فِي مُقَابِلِ ذَلِكَ ثَلَاثَةً أُخْرَىٰ: مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ، وَالطَّرِيقَ الْمُوصِلَةَ إِلَيْهِ، وَمَا لِلْمُسْتَجِيبِ لِدَعْوَتِهِ مِنَ الْإِهَانَةِ وَالْعَذَابِ بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

مَعَانِي القُرْآنِ :

فَإِنَّ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ دَائِرَةٌ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ وَبَرَاهِينِهِ، وَالْعِلْمِ بِاللهِ وَمَا لَهُ مِنْ أَوْصَافِ الْكَمَالِ، وَمَا يُنَزَّهُ عَنْهُ مِنْ سِمَاتِ النَّقْصِ، وَعَلَىٰ الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ، وَذِكْرِ بَرَاهِينِ صِدْقِهِمْ، وَأَدِلَّةِ صِحَّةِ نُبُوَّتِهِمْ، وَالتَّعْرِيفِ بِحُقُوقِهِمْ، وَحُقُوقِ مُرْسِلِهِمْ، وَعَلَىٰ الْإِيمَانِ بِمَلَائِكَتِهِ، وَهُمْ رُسُلُهُ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، وَتَدْبِيرِهِمُ الْأُمُورَ بِإِذْنِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَا جُعِلُوا عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ، وَمَا يَخْتَصُّ بِالنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ مِنْهُمْ، مِنْ حِينِ يَسْتَقِرُّ فِي رَحِمِ أُمِّهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُوَافِي رَبَّهُ وَيُقْدِمُ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أَعَدَّ اللهُ فِيهِ لِأَوْلِيَائِهِ مِنْ دَارِ النَّعِيمِ الْمُطْلَقِ الَّتِي لَا يَشْعُرُونَ فِيهَا بِأَلَمٍ وَلَا نَكَدٍ وَتَنْغِيصٍ، وَمَا أَعَدَّ لِأَعْدَائِهِ مِنْ دَارِ الْعِقَابِ الْوَبِيلِ الَّتِي لَا يُخَالِطُهَا سُرُورٌ وَلَا رَخَاءٌ وَلَا رَاحَةٌ وَلَا فَرَحٌ ، وَتَفَاصِيلِ ذَلِكَ أَتَمَّ تَفْصِيلٍ وَأَبْيَنَهُ، وَعَلَىٰ تَفَاصِيلِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالشَّرْعِ وَالْقَدَرِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالْمَوَاعِظِ وَالْعِبَرِ، وَالْقَصَصِ وَالْأَمْثَالِ، وَالْأَسْبَابِ وَالْحِكَمِ، وَالْمَبَادِئِ وَالْغَايَاتِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ.

فَلَا تَزَالُ مَعَانِيهِ تُنْهِضُ الْعَبْدَ إِلَىٰ رَبِّهِ بِالْوَعْدِ الْجَمِيلِ، وَتُحَذِّرُهُ وَتُخَوِّفُهُ بِوَعِيدِهِ مِنَ الْعَذَابِ الْوَبِيلِ، وَتَحُثُّهُ عَلَىٰ التَّضَمُّرِ وَالتَّخَفُّفِ لِلِقَاءِ الْيَوْمِ الثَّقِيلِ، وَتَهْدِيهِ فِي ظُلَمِ الْآرَاءِ وَالْمَذَاهِبِ إِلَىٰ سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَتَصُدُّهُ عَنِ اقْتِحَامِ طُرُقِ الْبِدَعِ وَالْأَضَالِيلِ وَتَبْعَثُهُ عَلَىٰ الِازْدِيَادِ مِنَ النِّعَمِ

بِشُكْرِ رَبِّهِ الْجَلِيلِ، وَتُبَصِّرُهُ بِحُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَتُوقِفُهُ عَلَيْهَا لِئَلَّا يَتَعَدَّاهَا فَيَقَعَ فِي الْعَنَاءِ الطَّوِيلِ، وَتُثَبِّتُ قَلْبَهُ عَنِ الزَّيْغِ وَالْمَيْلِ عَنِ الْحَقِّ وَالتَّحْوِيلِ، وَتُسَهِّلُ عَلَيْهِ الأُمُورَ الصِّعَابَ وَالْعَقَبَاتِ الشَّاقَّةَ غَايَةَ التَّسْهِيلِ، وَتُنَادِيهِ كُلَّمَا فَتَرَتْ عَزَمَاتُهُ وَوَنَىٰ فِي سَيْرِهِ تَقَدَّمَ الرَّكْبُ وَفَاتَكَ الدَّلِيلُ، فَاللِّحَاقَ اللِّحَاقَ، وَالرَّحِيلَ الرَّحِيلَ، وَتَحْدُو بِهِ وَتَسِيرُ أَمَامَهُ سَيْرَ الدَّلِيلِ، وَكُلَّمَا خَرَجَ عَلَيْهِ كَمِينٌ مِنْ كَمَائِنِ الْعَدُوِّ، أَوْ قَاطِعٌ مِنْ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ نَادَتْهُ: الْحَذَرَ الْحَذَرَ ! فَاعْتَصِمْ بِاللهِ، وَاسْتَعِنْ بِهِ، وَقُلْ: حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

وَفِي تَأَمُّلِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ، وَتَفَهُّمِهِ، أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْحِكَمِ وَالْفَوَائِدِ.

وَبِالْجُمْلَةِ فَهُوَ أَعْظَمُ الْكُنُوزِ، طَلْسَمُهُ الْغَوْصُ بِالْفِكْرِ إِلَىٰ قَرَارِ مَعَانِيهِ.

أَخْذُ العِلْمِ مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ :

مَنْ أَخَذَ الْعِلْمَ مِنْ عَيْنِ الْعِلْمِ ثَبَتَ ، وَمَنْ أَخَذَهُ مِنْ جَرَيَانِهِ أَخَذَتْهُ أَمْوَاجُ الشُّبَهِ، وَمَالَتْ بِهِ الْعِبَارَاتُ، وَاخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ الأَقْوَالُ.

فَضْلُ العِلْمِ :

وَالْعِلْمُ مَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ ، وَالنَّافِعُ مِنْهُ : مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ، وَالْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْحَالِ : الْعِلْمُ حَاكِمٌ ، وَالْحَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ ، وَالْعِلْمُ هَادٍ ، وَالْحَالُ تَابِعٌ ، وَالْعِلْمُ آمِرٌ نَاهٍ ، وَالْحَالُ مُنَفِّذٌ قَابِلٌ ، وَالْحَالُ سَيْفٌ، إِنْ لَمْ يَصْحَبْهُ الْعِلْمُ فَهُوَ مِخْرَاقٌ فِي يَدِ لَاعِبٍ ، الْحَالُ مَرْكَبٌ لَا يُجَارَىٰ ، فَإِنْ لَمْ يَصْحَبْهُ عِلْمٌ أَلْقَىٰ صَاحِبَهُ فِي الْمَهَالِكِ وَالْمَتَالِفِ ، وَالْحَالُ كَالْمَالِ يُؤْتَاهُ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ، فَإِنْ لَمْ يَصْحَبْهُ نُورُ الْعِلْمِ كَانَ وَبَالًا عَلَىٰ صَاحِبِهِ .

الْحَالُ بِلَا عِلْمٍ كَالسُّلْطَانِ الَّذِي لَا يَزَعُهُ عَنْ سَطْوَتِهِ وَازِعٌ .

الْحَالُ بِلَا عِلْمٍ كَالنَّارِ الَّتِي لَا سَائِسَ لَهَا .

نَفْعُ الْحَالِ لَا يَتَعَدَّىٰ صَاحِبَهُ ، وَنَفْعُ الْعِلْمِ كَالْغَيْثِ يَقَعُ عَلَىٰ الظِّرَابِ وَالْآكَامِ وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ .

دَائِرَةُ الْعِلْمِ تَسَعُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، وَدَائِرَةُ الْحَالِ تَضِيقُ عَنْ غَيْرِ صَاحِبِهِ ، وَرُبَّمَا ضَاقَتْ عَنْهُ .

الْعِلْمُ هَادٍ وَالْحَالُ الصَّحِيحُ مُهْتَدٍ بِهِ ، وَهُوَ تَرِكَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَتُرَاثُهُمْ ، وَأَهْلُهُ عُصْبَتُهُمْ وَوُرَّاثُهُمْ ، وَهُوَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ ، وَنُورُ الْبَصَائِرِ ، وَشِفَاءُ الصُّدُورِ ، وَرِيَاضُ الْعُقُولِ ، وَلَذَّةُ الْأَرْوَاحِ ، وَأُنْسُ الْمُسْتَوْحِشِينَ ،

وَدَلِيلُ الْمُتَحَيِّرِينَ ، وَهُوَ الْمِيزَانُ الَّذِي بِهِ تُوزَنُ الْأَقْوَالُ وَالْأَعْمَالُ وَالْأَحْوَالُ .

وَهُوَ الْحَاكِمُ الْمُفَرِّقُ بَيْنَ الشَّكِّ وَالْيَقِينِ ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ ، وَالْهُدَىٰ وَالضَّلَالِ .

بِهِ يُعْرَفُ اللهُ وَيُعْبَدُ ، وَيُذْكَرُ وَيُوَحَّدُ ، وَيُحْمَدُ وَيُمَجَّدُ ، وَبِهِ اهْتَدَىٰ إِلَيْهِ السَّالِكُونَ ، وَمِنْ طَرِيقِهِ وَصَلَ إِلَيْهِ الْوَاصِلُونَ ، وَمِنْ بَابِهِ دَخَلَ عَلَيْهِ الْقَاصِدُونَ .

بِهِ تُعْرَفُ الشَّرَائِعُ وَالْأَحْكَامُ ، وَيَتَمَيَّزُ الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ ، وَبِهِ تُوصَلُ الْأَرْحَامُ وَبِهِ تُعْرَفُ مَرَاضِي الْحَبِيبِ ، وَبِمَعْرِفَتِهَا وَمُتَابَعَتِهَا يُوصَلُ إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ .

وَهُوَ إِمَامٌ ، وَالْعَمَلُ مَأْمُومٌ ، وَهُوَ قَائِدٌ ، وَالْعَمَلُ تَابِعٌ ، وَهُوَ الصَّاحِبُ فِي الْغُرْبَةِ وَالْمُحَدِّثُ فِي الْخَلْوَةِ ، وَالْأَنِيسُ فِي الْوَحْشَةِ ، وَالْكَاشِفُ عَنِ الشُّبْهَةِ ، وَالْغِنَىٰ الَّذِي لَا فَقْرَ عَلَىٰ مَنْ ظَفِرَ بِكَنْزِهِ ، وَالْكَنَفُ الَّذِي لَا ضَيْعَةَ عَلَىٰ مَنْ آوَىٰ إِلَىٰ حِرْزِهِ .

مُذَاكَرَتُهُ تَسْبِيحٌ ، وَالْبَحْثُ عَنْهُ جِهَادٌ ، وَطَلَبُهُ قُرْبَةٌ ، وَبَذْلُهُ صَدَقَةٌ ، وَمُدَارَسَتُهُ تَعْدِلُ بِالصِّيَامِ وَالْقِيَامِ ، وَالْحَاجَةُ إِلَيْهِ أَعْظَمُ مِنْهَا إِلَى الشَّرَابِ وَالطَّعَامِ .

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- : النَّاسُ إِلَىٰ الْعِلْمِ أَحْوَجُ مِنْهُمْ إِلَىٰ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، لِأَنَّ الرَّجُلَ يَحْتَاجُ إِلَىٰ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فِي الْيَوْمِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ، وَحَاجَتُهُ إِلَىٰ الْعِلْمِ بِعَدَدِ أَنْفَاسِهِ .

أَقْسَامُ الْعُلَمَاءِ :

وَالْعُلَمَاءُ ثَلَاثَةٌ : عَالِمٌ اسْتَنَارَ بِنُورِهِ وَاسْتَنَارَ بِهِ النَّاسُ ، فَهَذَا مِنْ خُلَفَاءِ الرُّسُلِ وَوَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَعَالِمٌ اسْتَنَارَ بِنُورِهِ ، وَلَمْ يَسْتَنِرْ بِهِ غَيْرُهُ، فَهَذَا إِنْ لَمْ يُفَرِّطْ كَانَ نَفْعُهُ قَاصِرًا عَلَىٰ نَفْسِهِ ، فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَوَّلِ مَا بَيْنَهُمَا ، وَعَالِمٌ لَمْ يَسْتَنِرْ بِنُورِهِ وَلَا اسْتَنَارَ بِهِ غَيْرُهُ ، فَهَذَا عِلْمُهُ وَبَالٌ عَلَيْهِ ، وَبَسْطَتُهُ لِلنَّاسِ فِتْنَةٌ لَهُمْ ، وَبَسْطَةُ الْأَوَّلِ رَحْمَةٌ لَهُمْ .

الرِّحْلَةُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ :

وَلَقَدْ رَحَلَ كَلِيمُ الرَّحْمَنِ مُوسَىٰ بْنُ عِمْرَانَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فِي طَلَبِ الْعِلْمِ هُوَ وَفَتَاهُ ، حَتَّىٰ مَسَّهُمَا النَّصَبُ فِي سَفَرِهِمَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ ، حَتَّىٰ ظَفِرَ بِثَلَاثِ مَسَائِلَ ، وَهُوَ مِنْ أَكْرَمِ الْخَلْقِ عَلَىٰ اللهِ وَأَعْلَمِهِمْ بِهِ .

اشْتِمَالُ الْفَاتِحَةِ عَلَى أُمَّهاتِ الْمَطَالِبِ

اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ أُمَّهَاتِ الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ أَتَمَّ اشْتِمَالٍ، وَتَضَمَّنَتْهَا أَكْمَلَ تَضَمُّنٍ.

فَاشْتَمَلَتْ عَلَىٰ التَّعْرِيفِ بِالْمَعْبُودِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِثَلَاثَةِ أَسْمَاءٍ، مَرْجِعُ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَىٰ وَالصِّفَاتِ الْعُلْيَا إِلَيْهَا، وَمَدَارُهَا عَلَيْهَا، وَهِيَ: اللهُ، وَالرَّبُّ، وَالرَّحْمَنُ، وَبُنِيَتِ السُّورَةُ عَلَىٰ الْإِلَهِيَّةِ، وَالرُّبُوبِيَّةِ، وَالرَّحْمَةِ، فَـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ الْإِلَهِيَّةِ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عَلَىٰ الرُّبُوبِيَّةِ، وَطَلَبُ الْهِدَايَةِ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ بِصِفَةِ الرَّحْمَةِ، وَالْحَمْدُ يَتَضَمَّنُ الْأُمُورَ الثَّلَاثَةَ، فَهُوَ الْمَحْمُودُ فِي إِلَهِيَّتِهِ، وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَالثَّنَاءُ وَالْمَجْدُ كَمَالَانِ لِجَدِّهِ.

إِثْبَاتُ الْمَعَادِ:

وَتَضَمَّنَتْ إِثْبَاتَ الْمَعَادِ، وَجَزَاءَ الْعِبَادِ بِأَعْمَالِهِمْ، حَسَنِهَا وَسَيِّئِهَا، وَتَفَرُّدَ الرَّبِّ تَعَالَىٰ بِالْحُكْمِ إِذْ ذَاكَ بَيْنَ الْخَلَائِقِ، وَكَوْنَ حُكْمِهِ بِالْعَدْلِ، وَكُلُّ هَذَا تَحْتَ قَوْلِهِ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾.

إِثْبَاتُ النُّبُوَّاتِ:

وَتَضَمَّنَتْ إِثْبَاتَ النُّبُوَّاتِ مِنْ جِهَاتٍ عَدِيدَةٍ:

أَحَدُهَا: كَوْنُهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ، فَلَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَتْرُكَ عِبَادَهُ سُدًى هَمَلًا لَا يُعَرِّفُهُمْ مَا يَنْفَعُهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ فِيهِمَا، فَهَذَا هَضْمٌ لِلرُّبُوبِيَّةِ، وَنِسْبَةُ الرَّبِّ تَعَالَىٰ إِلَىٰ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَمَا قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ نَسَبَهُ إِلَيْهِ.

الثَّانِي: أَخْذُهَا مِنَ اسْمِ اللهِ، وَهُوَ الْمَأْلُوهُ الْمَعْبُودُ، وَلَا سَبِيلَ لِلْعِبَادِ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ عِبَادَتِهِ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ رُسُلِهِ.

الْمَوْضِعُ الثَّالِثُ: مِن اسْمِهِ الرَّحْمَنِ فَإِنَّ رَحْمَتَهُ تَمْنَعُ إِهْمَالَ عِبَادِهِ، وَعَدَمَ تَعْرِيفِهِمْ مَا يَنَالُونَ بِهِ غَايَةَ كَمَالِهِمْ، فَمَنْ أَعْطَىٰ اسْمَ الرَّحْمَنِ حَقَّهُ عَرَفَ أَنَّهُ مُتَضَمِّنٌ لِإِرْسَالِ الرُّسُلِ، وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ، أَعْظَمَ مِنْ تَضَمُّنِهِ إِنْزَالَ الْغَيْثِ، وَإِنْبَاتَ الْكَلَأِ، وَإِخْرَاجَ الْحَبِّ، فَاقْتِضَاءُ الرَّحْمَةِ لِمَا تَحْصُلُ بِهِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ وَالْأَرْوَاحِ أَعْظَمُ مِن اقْتِضَائِهَا لِمَا تَحْصُلُ بِهِ حَيَاةُ الْأَبْدَانِ وَالْأَشْبَاحِ، لَكِن الْمَحْجُوبُونَ إِنَّمَا أَدْرَكُوا مِنْ هَذَا الِاسْمِ حَظَّ الْبَهَائِمِ وَالدَّوَابِّ، وَأَدْرَكَ مِنْهُ أُولُو الْأَلْبَابِ أَمْرًا وَرَاءَ ذَلِكَ.

الْمَوْضِعُ الرَّابِعُ: مِنْ ذِكْرِ يَوْمِ الدِّينِ فَإِنَّهُ الْيَوْمُ الَّذِي يُدِينُ اللهُ الْعِبَادَ فِيهِ بِأَعْمَالِهِمْ، فَيُثِيبُهُمْ عَلَىٰ الْخَيْرَاتِ، وَيُعَاقِبُهُمْ عَلَىٰ الْمَعَاصِي وَالسَّيِّئَاتِ،

وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَ أَحدًا قَبْلَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، وَالْحُجَّةُ إِنَّما قَامَتْ بِرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ، وَبِهِمُ اسْتُحِقَّ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَبِهِمْ قَامَ سُوقُ يَوْمِ الدِّينِ، وَسِيقَ الْأَبْرَارُ إِلَىٰ النَّعِيمِ، وَالْفُجَّارُ إِلَىٰ الْجَحِيمِ.

الْمَوْضِعُ الْخَامِسُ: مِنْ قَوْلِهِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فَإِنَّ مَا يُعْبَدُ بِهِ الرَّبُّ تَعَالَىٰ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَىٰ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَعِبَادَتُهُ وَهِيَ شُكْرُهُ وَحُبُّهُ وَخَشْيَتُهُ فِطْرِيٌّ وَمَعْقُولٌ لِلْعُقُولِ السَّلِيمَةِ، لَكِنَّ طَرِيقَ التَّعَبُّدِ وَمَا يُعْبَدُ بِهِ لَا سَبِيلَ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ إِلَّا بِرُسُلِهِ وَبَيَانِهِمْ، وَفِي هَذَا بَيَانُ أَنَّ إِرْسَالَ الرُّسُلِ أَمْرٌ مُسْتَقِرٌّ فِي الْعُقُولِ، يَسْتَحِيلُ تَعْطِيلُ الْعَالَمِ عَنْهُ، كَمَا يَسْتَحِيلُ تَعْطِيلُهُ عَنِ الصَّانِعِ، فَمَنْ أَنْكَرَ الرَّسُولَ فَقَدْ أَنْكَرَ الْمُرْسِلَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ، وَلِهَذَا جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ الْكُفْرَ بِرُسُلِهِ كُفْرًا بِهِ.

الْمَوْضِعُ السَّادِسُ: مِنْ قَوْلِهِ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ فَالْهِدَايَةُ: هِيَ الْبَيَانُ وَالدَّلَالَةُ، ثُمَّ التَّوْفِيقُ وَالْإِلْهَامُ، وَهُوَ بَعْدَ الْبَيَانِ وَالدَّلَالَةِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ الْبَيَانِ وَالدَّلَالَةِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الرُّسُلِ، فَإِذَا حَصَلَ الْبَيَانُ وَالدَّلَالَةُ وَالتَّعْرِيفُ تَرَتَّبَ عَلَيْهِ هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ، وَجَعْلُ الْإِيمَانِ فِي الْقَلْبِ، وَتَحْبِيبُهُ إِلَيْهِ، وَتَزْيِينُهُ فِي الْقَلْبِ، وَجَعْلُهُ مُؤْثِرًا لَهُ، رَاضِيًا بِهِ، رَاغِبًا فِيهِ.

وَهُمَا هِدَايَتَانِ مُسْتَقِلَّتَانِ، لَا يَحْصُلُ الْفَلَاحُ إِلَّا بِهِمَا، وَهُمَا مُتَضَمِّنَتَانِ

تَعْرِيفَ مَا لَمْ نَعْلَمْهُ مِنَ الْحَقِّ تَفْصِيلًا وَإِجْمَالًا، وَإِلْهَامَنَا لَهُ، وَجَعْلَنَا مُرِيدِينَ لاتِّبَاعِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، ثُمَّ خَلْقُ الْقُدْرَةِ لَنَا عَلَىٰ الْقِيَامِ بِمُوجَبِ الْهُدَىٰ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَالْعَزْمِ، ثُمَّ إِدَامَةُ ذَلِكَ لَنَا وَتَثْبِيتُنَا عَلَيْهِ إِلَىٰ الْوَفَاةِ.

وَمِنْ هُنَا يُعْلَمُ اضْطِرَارُ الْعَبْدِ إِلَىٰ سُؤَالِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ فَوْقَ كُلِّ ضَرُورَةٍ، وَبُطْلَانُ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ: إِذَا كُنَّا مُهْتَدِينَ، فَكَيْفَ نَسْأَلُ الْهِدَايَةَ؟، فَإِنَّ الْمَجْهُولَ لَنَا مِنَ الْحَقِّ أَضْعَافُ الْمَعْلُومِ، وَمَا لَا نُرِيدُ فِعْلَهُ تَهَاوُنًا وَكَسَلًا مِثْلُ مَا نُرِيدُهُ أَوْ أَكْثَرُ مِنْهُ أَوْ دُونَهُ، وَمَا لَا نَقْدِرُ عَلَيْهِ مِمَّا نُرِيدُهُ كَذَلِكَ، وَمَا نَعْرِفُ جُمْلَتَهُ وَلَا نَهْتَدِي لِتَفَاصِيلِهِ فَأَمْرٌ يَفُوتُ الْحَصْرَ، وَنَحْنُ مُحْتَاجُونَ إِلَىٰ الْهِدَايَةِ التَّامَّةِ، فَمَنْ كَمُلَتْ لَهُ هَذِهِ الْأُمُورُ كَانَ سُؤَالُ الْهِدَايَةِ لَهُ سُؤَالَ التَّثْبِيتِ وَالدَّوَامِ.

أَعْظَمُ مَرَاتِبِ الهِدَايَةِ:

وَلِلْهِدَايَةِ مَرْتَبَةٌ أُخْرَىٰ وَهِيَ آخِرُ مَرَاتِبِهَا وَهِيَ الْهِدَايَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَىٰ طَرِيقِ الْجَنَّةِ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُوَصِّلُ إِلَيْهَا، فَمَنْ هُدِيَ فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَىٰ صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيمِ، الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ، هُدِيَ هُنَاكَ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، الْمُوَصِّلِ إِلَىٰ جَنَّتِهِ وَدَارِ ثَوَابِهِ، وَعَلَىٰ قَدْرِ ثُبُوتِ قَدَمِ الْعَبْدِ عَلَىٰ هَذَا الصِّرَاطِ الَّذِي نَصَبَهُ اللهُ لِعِبَادِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ

يَكُونُ ثُبُوتُ قَدَمِهِ عَلَىٰ الصِّرَاطِ الْمَنْصُوبِ عَلَىٰ مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَعَلَىٰ قَدْرِ سَيْرِهِ عَلَىٰ هَذِهِ الصِّرَاطِ يَكُونُ سَيْرُهُ عَلَىٰ ذَاكَ الصِّرَاطِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالطَّرْفِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الرِّكَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْعَىٰ سَعْيًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْبُو حَبْوًا، وَمِنْهُمُ الْمَخْدُوشُ الْمُسَلَّمُ، وَمِنْهُمُ الْمُكَرْدَسُ فِي النَّارِ، فَلْيَنْظُرِ الْعَبْدُ سَيْرَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ الصِّرَاطِ مِنْ سَيْرِهِ عَلَىٰ هَذَا، حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، جَزَاءً وِفَاقًا هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

وَلْيَنْظُرِ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ الَّتِي تَعُوقُهُ عَنْ سَيْرِهِ عَلَىٰ هَذَا الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَإِنَّهَا الْكَلَالِيبُ الَّتِي بِجَنْبَتَيْ ذَاكَ الصِّرَاطِ، تَخْطَفُهُ وَتَعُوقُهُ عَنِ الْمُرُورِ عَلَيْهِ، فَإِنْ كَثُرَتْ هُنَا وَقَوِيَتْ فَكَذَلِكَ هِيَ هُنَاكَ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

فَسُؤَالُ الْهِدَايَةِ مُتَضَمِّنٌ لِحُصُولِ كُلِّ خَيْرٍ، وَالسَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ شَرٍّ.

الْمَوْضِعُ السَّابِعُ: مِنْ مَعْرِفَةِ نَفْسِ الْمَسْئُولِ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ وَلَا تَكُونُ الطَّرِيقُ صِرَاطًا حَتَّىٰ تَتَضَمَّنَ خَمْسَةَ أُمُورٍ: الِاسْتِقَامَةَ، وَالْإِيصَالَ إِلَىٰ الْمَقْصُودِ، وَالْقُرْبَ، وَسَعَتَهُ لِلْمَارِّينَ عَلَيْهِ، وَتَعَيُّنَهُ طَرِيقًا لِلْمَقْصُودِ، وَلَا يَخْفَىٰ تَضَمُّنُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ لِهَذِهِ الْأُمُورِ الْخَمْسَةِ.

فَوَصْفُهُ بِالِاسْتِقَامَةِ يَتَضَمَّنُ قُرْبَهُ، لِأَنَّ الْخَطَّ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ أَقْرَبُ خَطٍّ

فَاصل بَيْنَ نُقْطَتَيْن، وَكُلَّما تعَوَّجَ طَالَ وبعُدَ، وَاسْتِقَامَتُه تتَضَمَّنُ إيصالَهُ إلَىٰ الْمَقْصُودِ، وَنَصْبُهُ لِجَمِيع مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ يَسْتَلْزِمُ سَعَتَهُ، وَإضَافَتُهُ إلَىٰ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ وَوَصْفُهُ بِمُخَالَفَةِ صِرَاطِ أَهْلِ الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ يَسْتَلْزِمُ تَعَيُّنَهُ طَرِيقًا.

وَالصِّرَاطُ تَارَةً يُضَافُ إلَىٰ اللهِ، إذْ هُوَ الَّذي شَرَعَهُ وَنَصبَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأَنْعَام: ١٥٣]، وَقَولِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشُّورَىٰ: ٥٢]، ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ وَتَارَةً يُضَافُ إلَىٰ الْعِبَادِ كَمَا فِي الْفَاتِحَةِ، لِكَوْنِهِمْ أَهْلَ سُلُوكِهِ، وَهُوَ الْمَنْسُوبُ لَهُمْ، وَهُمُ الْمَارُّونَ عَلَيْهِ.

الْمَوْضِعُ الثَّامِنُ: مِنْ ذِكْرِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ، وَتَمْيِيزِهِمْ عَنْ طَائِفَتَي الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ.

فَانْقَسَمَ النَّاسُ بِحَسَبِ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالْعَمَلِ بِهِ إلَىٰ هَذِهِ الأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ، لأَنَّ الْعَبْدَ إمَّا أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِالْحَقِّ، وَإمَّا جَاهِلًا بِهِ، وَالْعَالِمُ بِالْحَقِّ إمَّا أَنْ يَكُونَ عَامِلًا بِمُوجَبِهِ أَوْ مُخَالِفًا لَهُ، فَهَذِهِ أَقْسَامُ الْمُكَلَّفِينَ لَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا الْبَتَّةَ، فَالْعَالِمُ بِالْحَقِّ الْعَامِلُ بِهِ هُوَ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الَّذِي زَكَّىٰ نَفْسَهُ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَهُوَ الْمُفْلِحُ، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشَّمْس: ٩]، وَالْعَالِمُ بِهِ الْمُتَّبِعُ هَوَاهُ هُوَ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِ،

وَالْجَاهِلُ بِالْحَقِّ هُوَ الضَّالُّ، وَالْمَغْضُوبُ عَلَيْهِ ضَالٌّ عَنْ هِدَايَةِ الْعَمَلِ، وَالضَّالُّ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ لِضَلَالِهِ عَنِ الْعِلْمِ الْمُوجِبِ لِلْعَمَلِ، فَكُلٌّ مِنْهُمَا ضَالٌّ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ تَارِكَ الْعَمَلِ بِالْحَقِّ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ بِهِ أَوْلَىٰ بِوَصْفِ الْغَضَبِ وَأَحَقُّ بِهِ، وَمِنْ هُنَا كَانَ الْيَهُودُ أَحَقَّ بِهِ، وَهُوَ مُتَغَلِّظٌ فِي حَقِّهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي حَقِّهِمْ ﴿ **بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ** ﴾ [البَقَرَة :٩٠] ، وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ **قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾** ﴾ [المَائِدَة :٦٠] .

وَالْجَاهِلُ بِالْحَقِّ أَحَقُّ بِاسْمِ الضَّلَالِ، وَمِنْ هُنَا وُصِفَتِ النَّصَارَىٰ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ ﴿ **قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾** ﴾ [المَائِدَة :٧٧]، فَالْأُولَىٰ فِي سِيَاقِ الْخِطَابِ مَعَ الْيَهُودِ، وَالثَّانِيَةُ فِي سِيَاقِهِ مَعَ النَّصَارَى، وَفِي التِّرْمِذِيِّ وَصَحِيحِ ابْنِ حَبَّانَ مِنْ حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ،**

وَالنَّصَارَىٰ ضَالُّونَ » (١) .

فَفِي ذِكْرِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ وَهُمْ مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ وَاتَّبَعَهُ وَالْمَغْضُوب عَلَيْهِمْ وَهُمْ مَنْ عَرَفَهُ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَالضَّالِّينَ وَهُمْ مَنْ جَهِلَهُ مَا يَسْتَلْزِمُ ثُبُوتَ الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ، لأَنَّ انْقِسَامَ النَّاسِ إِلَىٰ ذَلِكَ هُوَ الْوَاقِعُ الْمَشْهُودُ، وَهَذِهِ الْقِسْمَةُ إِنَّمَا أَوْجَبَهَا ثُبُوتُ الرِّسَالَةِ.

إِسْنَادُ النِّعْمَةِ للهِ دُونَ الغَضَبِ:

وَأَضَافَ النِّعْمَةَ إِلَيْهِ، وَحَذَفَ فَاعِلَ الْغَضَبِ لِوُجُوهٍ:

مِنْهَا: أَنَّ النِّعْمَةَ هِيَ الْخَيْرُ وَالْفَضْلُ، وَالْغَضَبَ مِنْ بَابِ الانْتِقَامِ وَالْعَدْلِ، وَالرَّحْمَةَ تَغْلِبُ الْغَضَبَ، فَأَضَافَ إِلَىٰ نَفْسِهِ أَكْمَلَ الأَمْرَيْنِ، وَأَسْبَقَهُمَا وَأَقْوَاهُمَا، وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ فِي إِسْنَادِ الْخَيْرَاتِ وَالنِّعَمِ إِلَيْهِ، وَحَذْفِ الْفَاعِلِ فِي مُقَابَلَتِهِمَا، كَقَوْلِ مُؤْمِنِي الْجِنِّ ﴿ **وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا** ﴿١٠﴾ ﴾ [الجنّ: ١٠]، وَمِنْهُ قَوْلُ الْخَضِرِ فِي شَأْنِ الْجِدَارِ وَالْيَتِيمَيْنِ ﴿ **فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا** ﴾ [الكهف: ٨٢]، وَقَالَ فِي خَرْقِ السَّفِينَةِ ﴿ **فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا** ﴾ [الكهف: ٧٩]، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿ **وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى** ﴾ [الكهف: ٨٢]، وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ ﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ**

---

(١) (صَحِيحٌ): صَحَّحَهُ العَلَّامَةُ الأَلْبَانِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ– فِي «صَحِيحِ الجَامِعِ» (٨٢٠٢).

﴿ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ ﴾ [البَقَرَةُ :١٨٧] ، وَقَوْلَهُ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ [المَائِدَة :٣] ، وَقَوْلَهُ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾ [النِّسَاء :٢٣] ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ [النِّسَاء :٢٤] .

النِّعْمَةُ الْمُطْلَقَةُ وَمُطلَقُ النِّعْمَةِ:

وَفِي تَخْصِيصِهِ لِأَهْلِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ بِالنِّعْمَةِ مَا دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ النِّعْمَةَ الْمُطْلَقَةَ هِيَ الْمُوجِبَةُ لِلْفَلَاحِ الدَّائِمِ، وَأَمَّا مُطْلَقُ النِّعْمَةِ فَعَلَىٰ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، فَكُلُّ الْخَلْقِ فِي نِعْمَةٍ، وَهَذَا فَصْلُ النِّزَاعِ فِي مَسْأَلَةِ : هَلْ لِلهِ عَلَىٰ الْكَافِرِ مِنْ نِعْمَةٍ أَمْ لَا ؟.

فَالنِّعْمَةُ الْمُطْلَقَةُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ، وَمُطْلَقُ النِّعْمَةِ تَكُونُ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤ ﴾ [إِبْرَاهِيمُ :٣٤] .

وَالنِّعْمَةُ مِنْ جِنْسِ الْإِحْسَانِ، بَلْ هِيَ الْإِحْسَانُ، وَالرَّبُّ تَعَالَىٰ إِحْسَانُهُ عَلَىٰ الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَالْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ.

وَأَمَّا الْإِحْسَانُ الْمُطْلَقُ فَلِلَّذِينِ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالنِّعَمِ ؛ ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ﴾ [النَّحل :٥٣] ، فَأُضِيفَ إِلَيْهِ مَا هُوَ مُنْفَرِدٌ بِهِ، وَإِنْ أُضِيفَ

إِلَىٰ غَيْرِهِ فَلِكَوْنِهِ طَرِيقًا وَمَجْرًى لِلنِّعْمَةِ، وَأَمَّا الْغَضَبُ عَلَىٰ أَعْدَائِهِ فَلَا يَخْتَصُّ بِهِ تَعَالَى، بَلْ مَلَائِكَتُهُ وَأَنْبِيَاؤُهُ وَرُسُلُهُ وَأَوْلِيَاؤُهُ يَغْضَبُونَ لِغَضَبِهِ، فَكَانَ فِي لَفْظَةِ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بِمُوَافَقَةِ أَوْلِيَائِهِ لَهُ مِنَ الدِّلَالَةِ عَلَىٰ تَفَرُّدِهِ بِالْإِنْعَامِ، وَأَنَّ النِّعْمَةَ الْمُطْلَقَةَ مِنْهُ وَحْدَهُ، هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِهَا مَا لَيْسَ فِي لَفْظَةِ «الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ».

الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنَّ فِي حَذْفِ فَاعِلِ الْغَضَبِ مِنَ الْإِشْعَارِ بِإِهَانَةِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِ، وَتَحْقِيرِهِ وَتَصْغِيرِ شَأْنِهِ مَا لَيْسَ فِي ذِكْرِ فَاعِلِ النِّعْمَةِ مِنْ إِكْرَامِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ وَالْإِشَادَةِ بِذِكْرِهِ، وَرَفْعِ قَدْرِهِ مَا لَيْسَ فِي حَذْفِهِ، فَإِذَا رَأَيْتَ مَنْ قَدْ أَكْرَمَهُ مَلِكٌ وَشَرَّفَهُ وَرَفَعَ قَدْرَهُ، فَقُلْتَ: هَذَا الَّذِي أَكْرَمَهُ السُّلْطَانُ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مَا تَمَنَّاهُ، كَانَ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ وَالتَّعْظِيمِ مِنْ قَوْلِكَ: هَذَا الَّذِي أُكْرِمَ وَخُلِعَ عَلَيْهِ وَشُرِّفَ وَأُعْطِيَ.

وَتَأَمَّلْ سِرًّا بَدِيعًا فِي ذِكْرِ السَّبَبِ وَالْجَزَاءِ لِلطَّوَائِفِ الثَّلَاثَةِ بِأَوْجَزِ لَفْظٍ وَأَخْصَرِهِ، فَإِنَّ الْإِنْعَامَ عَلَيْهِمْ يَتَضَمَّنُ إِنْعَامَهُ بِالْهِدَايَةِ الَّتِي هِيَ الْعِلْمُ النَّافِعُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَهِيَ الْهُدَىٰ وَدِينُ الْحَقِّ، وَيَتَضَمَّنُ كَمَالَ الْإِنْعَامِ بِحُسْنِ الثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ، فَهَذَا تَمَامُ النِّعْمَةِ ، وَلَفْظُ ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يَتَضَمَّنُ الْأَمْرَيْنِ.

وَذِكْرُ غَضَبِهِ عَلَىٰ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ يَتَضَمَّنُ أَيْضًا أَمْرَيْنِ: الْجَزَاءُ

بِالْغَضَبِ الَّذِي مُوجَبُهُ غَايَةُ الْعَذَابِ وَالْهَوَانِ، وَالسَّبَبُ الَّذِي اسْتَحَقُّوا بِهِ غَضَبَهُ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّهُ أَرْحَمُ وَأَرْأَفُ مِنْ أَنْ يَغْضَبَ بِلَا جِنَايَةٍ مِنْهُمْ وَلَا ضَلَالٍ، فَكَأَنَّ الْغَضَبَ عَلَيْهِمْ مُسْتَلْزِمٌ لِضَلَالِهِمْ، وَذِكْرُ الضَّالِّينَ مُسْتَلْزِمٌ لِغَضَبِهِ عَلَيْهِمْ وَعِقَابِهِ لَهُمْ، فَإِنَّ مَنْ ضَلَّ اسْتَحَقَّ الْعُقُوبَةَ الَّتِي هِيَ مُوجَبُ ضَلَالِهِ وَغَضَبِ اللهُ عَلَيْهِ.

فَاسْتَلْزَمَ وَصْفُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الطَّوَائِفِ الثَّلَاثِ لِلسَّبَبِ وَالْجَزَاءِ أَبْيَنَ اسْتِلْزَامٍ، وَاقْتَضَاهُ أَكْمَلَ اقْتِضَاءٍ فِي غَايَةِ الْإِيجَازِ وَالْبَيَانِ وَالْفَصَاحَةِ، مَعَ ذِكْرِ الْفَاعِلِ فِي أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَحَذْفِهِ فِي أَهْلِ الْغَضَبِ، وَإِسْنَادِ الْفِعْلِ إِلَىٰ السَّبَبِ فِي أَهْلِ الضَّلَالِ.

وَتَأَمَّلِ الْمُقَابَلَةَ بَيْنَ الْهِدَايَةِ وَالنِّعْمَةِ، وَالْغَضَبِ وَالضَّلَالِ، فَذِكْرُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ فِي مُقَابَلَةِ الْمُهْتَدِينَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، يَقْرِنُ بَيْنَ الضَّلَالِ وَالشَّقَاءِ، وَبَيْنَ الْهُدَىٰ وَالْفَلَاحِ، فَالثَّانِي كَقَوْلِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البَقَرَةُ:٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأَنْعَام:٥]، وَالْأَوَّلُ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [القَمَر:٤٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البَقَرَةُ:٧]، وَقَدْ جَمَعَ سُبْحَانَهُ بَيْنَ

الأُمُورِ الأَرْبَعَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣] ، فَهَذَا الْهُدَىٰ وَالسَّعَادَةُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦] ، فَذَكَرَ الضَّلَالَ وَالشَّقَاءَ.

فَالْهُدَىٰ وَالسَّعَادَةُ مُتَلَازِمَانِ، وَالضَّلَالُ وَالشَّقَاءُ مُتَلَازِمَانِ.

اشْتِمَالُ الْفَاتِحَةِ عَلَى جَمِيعِ مَعَانِي الْقُرْآنِ

وَسِرُّ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، وَالْكُتُبِ وَالشَّرَائِعِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ انْتَهَىٰ إِلَىٰ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ، وَعَلَيْهِمَا مَدَارُ الْعُبُودِيَّةِ وَالتَّوْحِيدِ، حَتَّىٰ قِيلَ: أَنْزَلَ اللهُ مِائَةَ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةَ كُتُبٍ، جَمَعَ مَعَانِيَهَا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَجَمَعَ مَعَانِيَ هَذِهِ الْكُتُبِ الثَّلَاثَةِ فِي الْقُرْآنِ، وَجَمَعَ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ فِي الْمُفَصَّلِ، وَجَمَعَ مَعَانِيَ الْمُفَصَّلِ فِي الْفَاتِحَةِ، وَمَعَانِيَ الْفَاتِحَةِ فِي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وَهُمَا الْكَلِمَتَانِ الْمَقْسُومَتَانِ بَيْنَ الرَّبِّ وَبَيْنَ عَبْدِهِ نِصْفَيْنِ، فَنِصْفُهُمَا لَهُ تَعَالَىٰ، وَهُوَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وَنِصْفُهُمَا لِعَبْدِهِ وَهُوَ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وَسَيَأْتِي سِرُّ هَذَا وَمَعْنَاهُ إِنْ شَاءَ اللهُ فِي مَوْضِعِهِ.

وَالْعِبَادَةُ تَجْمَعُ أَصْلَيْنِ: غَايَةُ الْحُبِّ بِغَايَةِ الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ أَيْ مُذَلَّلٌ، وَالتَّعَبُّدُ: التَّذَلُّلُ وَالْخُضُوعُ، فَمَنْ أَحْبَبْتَهُ وَلَمْ تَكُنْ خَاضِعًا لَهُ، لَمْ تَكُنْ عَابِدًا لَهُ، وَمَنْ خَضَعْتَ لَهُ بِلَا مَحَبَّةٍ لَمْ تَكُنْ عَابِدًا لَهُ حَتَّىٰ تَكُونَ مُحِبًّا خَاضِعًا، وَمِنْ هَاهُنَا كَانَ الْمُنْكِرُونَ مَحَبَّةَ الْعِبَادِ لِرَبِّهِمْ مُنْكِرِينَ حَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ، وَالْمُنْكِرُونَ لِكَوْنِهِ مَحْبُوبًا لَهُمْ، بَلْ هُوَ

غَايَةُ مَطْلُوبِهِمْ، وَوَجْهُهُ الأَعْلَىٰ نِهَايَةُ بُغْيَتِهِمْ مُنْكِرِينَ لِكَوْنِهِ إِلَهًا، وَإِنْ أَقَرُّوا بِكَوْنِهِ رَبًّا لِلْعَالَمِينَ وَخَالِقًا لَهُمْ، فَهَذَا غَايَةُ تَوْحِيدِهِمْ، وَهُوَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ الَّذِي اعْتَرَفَ بِهِ مُشْرِكُو الْعَرَبِ، وَلَمْ يَخْرُجُوا بِهِ عَنِ الشِّرْكِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزُّخْرُف:٨٧]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لُقْمَانُ:٢٥]، ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ٨٤]، إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ٨٩]، وَلِهَذَا يُحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِهِ عَلَىٰ تَوْحِيدِ إِلَهِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْبَدَ غَيْرُهُ، كَمَا أَنَّهُ لَا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

وَالاسْتِعَانَةُ تَجْمَعُ أَصْلَيْنِ: الثِّقَةُ بِاللهِ، وَالاعْتِمَادُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَثِقُ بِالْوَاحِدِ مِنَ النَّاسِ، وَلَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي أُمُورِهِ مَعَ ثِقَتِهِ بِهِ لِاسْتِغْنَائِهِ عَنْهُ، وَقَدْ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ مَعَ عَدَمِ ثِقَتِهِ بِهِ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ، وَلِعَدَمِ مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ، فَيَحْتَاجُ إِلَىٰ اعْتِمَادِهِ عَلَيْهِ، مَعَ أَنَّهُ غَيْرُ وَاثِقٍ بِهِ.

وَالتَّوَكُّلُ مَعْنًى يَلْتَئِمُ مِنْ أَصْلَيْنِ: مِنَ الثِّقَةِ، وَالاعْتِمَادِ، وَهُوَ حَقِيقَةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ وَهَذَانِ الأَصْلَانِ وَهُمَا التَّوَكُّلُ، وَالْعِبَادَةُ قَدْ ذُكِرَا فِي الْقُرْآنِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ، قَرَنَ بَيْنَهُمَا فِيهَا، هَذَا أَحَدُهَا.

الثَّاني: قَوْلُ شُعَيْبٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هُود : ٨٨] .

الثَّالِثُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ ﴾ [هُود : ١٢٣] .

الرَّابِعُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ حِكَايَةً عَنِ الْمُؤْمِنِينَ : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الْمُمْتَحِنَة : ٤] .

الْخَامِسُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [الْمُزَّمِّل : ٨-٩] .

السَّادِسُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الرَّعْد : ٣٠].

فَهَذِهِ سِتَّةُ مَوَاضِعَ يُجْمَعُ فِيهَا بَيْنَ الْأَصْلَيْنِ، وَهُمَا ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

وَتَقْدِيمُ « الْعِبَادَةِ » عَلَىٰ « الاسْتِعَانَةِ » فِي الْفَاتِحَةِ مِنْ بَابِ تَقْدِيمِ الْغَايَاتِ عَلَىٰ الْوَسَائِلِ، إِذِ « الْعِبَادَةُ » غَايَةُ الْعِبَادِ الَّتِي خُلِقُوا لَهَا، وَ« الاسْتِعَانَةُ » وَسِيلَةٌ إِلَيْهَا، وَلِأَنَّ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِأُلُوهِيَّتِهِ وَاسْمِهِ « اللهِ » ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَاسْمِهِ « الرَّبِّ » فَقَدَّمَ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ عَلَىٰ ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ كَمَا قَدَّمَ اسْمَ « اللهِ »

عَلَىٰ « الرَّبِّ » فِي أَوَّلِ السُّورَةِ، وَلِأَنَّ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ قَسْمُ « الرَّبِّ »، فَكَانَ مِنَ الشَّطْرِ الْأَوَّلِ، الَّذِي هُوَ ثَنَاءٌ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَى، لِكَوْنِهِ أَوْلَىٰ بِهِ، ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قَسْمُ الْعَبْدِ، فَكَانَ مِنَ الشَّطْرِ الَّذِي لَهُ، وَهُوَ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ إِلَىٰ آخِرِ السُّورَةِ.

وَلِأَنَّ « الْعِبَادَةَ » الْمُطْلَقَةَ تَتَضَمَّنُ « الاسْتِعَانَةَ » مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ، فَكُلُّ عَابِدٍ لِلَّهِ عُبُودِيَّةً تَامَّةً مُسْتَعِينٌ بِهِ وَلَا يَنْعَكِسُ، لِأَنَّ صَاحِبَ الْأَغْرَاضِ وَالشَّهَوَاتِ قَدْ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَىٰ شَهَوَاتِهِ، فَكَانَتِ الْعِبَادَةُ أَكْمَلَ وَأَتَمَّ، وَلِهَذَا كَانَتْ قَسْمَ الرَّبِّ.

وَلِأَنَّ « الاسْتِعَانَةَ » جُزْءٌ مِنَ « الْعِبَادَةِ » مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ، وَلِأَنَّ « الاسْتِعَانَةَ » طَلَبٌ مِنْهُ، وَ « الْعِبَادَةَ » طَلَبٌ لَهُ.

وَلِأَنَّ « الْعِبَادَةَ » لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ مُخْلِصٍ، وَ « الاسْتِعَانَةَ » تَكُونُ مِنْ مُخْلِصٍ وَمِنْ غَيْرِ مُخْلِصٍ.

وَلِأَنَّ « الْعِبَادَةَ » حَقُّهُ الَّذِي أَوْجَبَهُ عَلَيْكَ، وَ « الاسْتِعَانَةُ » طَلَبُ الْعَوْنِ عَلَىٰ « الْعِبَادَةِ »، وَهُوَ بَيَانُ صَدَقَتِهِ الَّتِي تَصَدَّقَ بِهَا عَلَيْكَ، وَأَدَاءُ حَقِّهِ أَهَمُّ مِنَ التَّعَرُّضِ لِصَدَقَتِهِ.

وَلِأَنَّ « الْعِبَادَةَ » شُكْرُ نِعْمَتِهِ عَلَيْكَ، وَاللهُ يُحِبُّ أَنْ يُشْكَرَ، وَالْإِعَانَةُ فِعْلُهُ بِكَ وَتَوْفِيقُهُ لَكَ، فَإِذَا الْتَزَمْتَ عُبُودِيَّتَهُ، وَدَخَلْتَ تَحْتَ رِقِّهَا

أَعَانَكَ عَلَيْهَا، فَكَانَ الْتِزَامُهَا وَالدُّخُولُ تَحْتَ رِقِّهَا سَبَبًا لِنَيْلِ الْإِعَانَةِ، وَكُلَّمَا كَانَ الْعَبْدُ أَتَمَّ عُبُودِيَّةً كَانَتِ الْإِعَانَةُ مِنَ اللهِ لَهُ أَعْظَمَ.

وَالْعُبُودِيَّةُ مَحْفُوفَةٌ بِإِعَانَتَيْنِ: إِعَانَةٌ قَبْلَهَا عَلَىٰ الْتِزَامِهَا وَالْقِيَامِ بِهَا، وَإِعَانَةٌ بَعْدَهَا عَلَىٰ عُبُودِيَّةٍ أُخْرَى، وَهَكَذَا أَبَدًا، حَتَّىٰ يَقْضِيَ الْعَبْدُ نَحْبَهُ.

وَلِأَنَّ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لَهُ، وَ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بِهِ، وَمَا لَهُ مُقَدَّمٌ عَلَىٰ مَا بِهِ، لِأَنَّ مَا لَهُ مُتَعَلِّقٌ بِمَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ، وَمَا بِهِ مُتَعَلِّقٌ بِمَشِيئَتِهِ، وَمَا تَعَلَّقَ بِمَحَبَّتِهِ أَكْمَلُ مِمَّا تَعَلَّقَ بِمُجَرَّدِ مَشِيئَتِهِ، فَإِنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِمَشِيئَتِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ وَالشَّيَاطِينُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْكُفَّارُ، وَالطَّاعَاتُ وَالْمَعَاصِي، وَالْمُتَعَلِّقُ بِمَحَبَّتِهِ: طَاعَتُهُمْ وَإِيمَانُهُمْ، فَالْكُفَّارُ أَهْلُ مَشِيئَتِهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ أَهْلُ مَحَبَّتِهِ، وَلِهَذَا لَا يَسْتَقِرُّ فِي النَّارِ شَيْءٌ لِلَّهِ أَبَدًا، وَكُلُّ مَا فِيهَا فَإِنَّهُ بِهِ تَعَالَىٰ وَبِمَشِيئَتِهِ.

فَهَذِهِ الْأَسْرَارُ يَتَبَيَّنُ بِهَا حِكْمَةُ تَقْدِيمِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ عَلَىٰ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وَأَمَّا تَقْدِيمُ الْمَعْبُودِ وَالْمُسْتَعَانِ عَلَىٰ الْفِعْلَيْنِ، فَفِيهِ: أَدَبُهُمْ مَعَ اللهِ بِتَقْدِيمِ اسْمِهِ عَلَىٰ فِعْلِهِمْ، وَفِيهِ الِاهْتِمَامُ وَشِدَّةُ الْعِنَايَةِ بِهِ، وَفِيهِ الْإِيذَانُ بِالِاخْتِصَاصِ، الْمُسَمَّىٰ بِالْحَصْرِ، فَهُوَ فِي قُوَّةِ: لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ، وَلَا نَسْتَعِينُ إِلَّا بِكَ، وَالْحَاكِمُ فِي ذَلِكَ ذَوْقُ الْعَرَبِيَّةِ وَالْفِقْهُ فِيهَا،

وَاسْتِقْرَاءُ مَوَارِدِ اسْتِعْمَالِ ذَلِكَ مُقَدَّمًا، وَسِيبَوَيْهِ نَصَّ عَلَىٰ الِاهْتِمَامِ، وَلَمْ يَنْفِ غَيْرَهُ.

وَلِأَنَّهُ يَقْبُحُ مِنَ الْقَائِلِ أَنْ يُعْتِقَ عَشَرَةَ أَعْبُدٍ مَثَلًا، ثُمَّ يَقُولُ لِأَحَدِهِمْ: إِيَّاكَ أَعْتَقْتُ، وَمَنْ سَمِعَهُ أَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَقَالَ: وَغَيْرَهُ أَيْضًا أَعْتَقْتَ، وَلَوْلَا فَهْمُ الِاخْتِصَاصِ لَمَا قُبِّحَ هَذَا الْكَلَامُ، وَلَا حَسُنَ إِنْكَارُهُ.

وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البَقَرَةُ: ٤٠]، ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البَقَرَةُ: ٤١]، كَيْفَ تَجِدُهُ فِي قُوَّةِ: لَا تَرْهَبُوا غَيْرِي، وَلَا تَتَّقُوا سِوَايَ، وَكَذَلِكَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ هُوَ فِي قُوَّةِ: لَا نَعْبُدُ غَيْرَكَ، وَلَا نَسْتَعِينُ بِسِوَاكَ، وَكُلُّ ذِي ذَوْقٍ سَلِيمٍ يَفْهَمُ هَذَا الِاخْتِصَاصَ مِنْ عِلَّةِ السِّيَاقِ.

وَلَا عِبْرَةَ بِجَدَلِ مَنْ قَلَّ فَهْمُهُ، وَفُتِحَ عَلَيْهِ بَابُ الشَّكِّ وَالتَّشْكِيكِ، فَهَؤُلَاءِ هُمْ آفَةُ الْعُلُومِ، وَبَلِيَّةُ الْأَذْهَانِ وَالْفُهُومِ، مَعَ أَنَّ فِي ضَمِيرِ ﴿إِيَّاكَ﴾ مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَىٰ نَفْسِ الذَّاتِ وَالْحَقِيقَةِ مَا لَيْسَ فِي الضَّمِيرِ الْمُتَّصِلِ، فَفِي: إِيَّاكَ قَصَدْتُ وَأَحْبَبْتُ مِنَ الدِّلَالَةِ عَلَىٰ مَعْنَىٰ حَقِيقَتِكَ وَذَاتِكَ قَصْدِي، مَا لَيْسَ فِي قَوْلِكَ: قَصَدْتُكَ وَأَحْبَبْتُكَ، وَإِيَّاكَ أَعْنِي فِيهِ مَعْنَى: نَفْسَكَ وَذَاتَكَ وَحَقِيقَتَكَ أَعْنِي.

وَمِنْ هَاهُنَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنَ النُّحَاةِ: إِنَّ «إِيَّا» اسْمٌ ظَاهِرٌ مُضَافٌ إِلَىٰ

الضَّمِيرِ الْمُتَّصِلِ، وَلَمْ يُرَدَّ عَلَيْهِ بِرَدٍّ شَافٍ.

وَلَوْلَا أَنَّا فِي شَأْنٍ وَرَاءَ هَذَا لَأَشْبَعْنَا الْكَلَامَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَذَكَرْنَا مَذَاهِبَ النُّحَاةِ فِيهَا، وَنَصَرْنَا الرَّاجِحَ، وَلَعَلَّنَا أَنْ نَعْطِفَ عَلَىٰ ذَلِكَ بِعَوْنِ اللهِ.

وَفِي إِعَادَةِ ﴿ إِيَّاكَ ﴾ مَرَّةً أُخْرَىٰ دَلَالَةٌ عَلَىٰ تَعَلُّقِ هَذِهِ الْأُمُورِ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفِعْلَيْنِ، فَفِي إِعَادَةِ الضَّمِيرِ مِنْ قُوَّةِ الاقْتِضَاءِ لِذَلِكَ مَا لَيْسَ فِي حَذْفِهِ، فَإِذَا قُلْتَ لِمَلِكٍ مَثَلًا: إِيَّاكَ أُحِبُّ، وَإِيَّاكَ أَخَافُ، كَانَ فِيهِ مِنَ اخْتِصَاصِ الْحُبِّ وَالْخَوْفِ بِذَاتِهِ وَالِاهْتِمَامِ بِذِكْرِهِ، مَا لَيْسَ فِي قَوْلِكَ: إِيَّاكَ أُحِبُّ وَأَخَافُ.

عَقِيدَةٌ

أَفْعَالُ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ كُلُّهَا حِكَمٌ:

وَفِي دُعَائِه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَىٰ تَفْسِيرِ مَنْ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: وَالشَّرُّ لَا يُتَقَرَّبُ بِه إِلَيْكَ، أَوْ لَا يَصْعَدُ إِلَيْكَ، فَإِنَّ الْمَعْنَىٰ أَجَلُّ مِنْ ذَلِكَ، وَأَكْبَرُ وَأَعْظَمُ قَدْرًا، فَإِنَّ مَنْ أَسْمَاؤُهُ كُلُّهَا حُسْنَى، وَأَوْصَافُهُ كُلُّهَا كَمَالٌ، وَأَفْعَالُهُ كُلُّهَا كَمَالٌ، وَأَقْوَالُهُ كُلُّهَا صِدْقٌ وَعَدْلٌ يَسْتَحِيلُ دُخُولُ الشَّرِّ فِي أَسْمَائِهِ أَوْ أَوْصَافِهِ، أَوْ أَفْعَالِهِ أَوْ أَقْوَالِهِ، فَطَابِقْ بَيْنَ هَذَا الْمَعْنَىٰ وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هُود: ٥٦].

وَتَأَمَّلْ كَيْفَ ذَكَرَ هَذَا عَقِيبَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ [هُود: ٥٦]، أَيْ هُوَ رَبِّي، فَلَا يُسَلِّمُنِي وَلَا يُضَيِّعُنِي، وَهُوَ رَبُّكُمْ فَلَا يُسَلِّطُكُمْ عَلَيَّ وَلَا يُمَكِّنُكُمْ مِنِّي، فَإِنَّ نَوَاصِيَكُمْ بِيَدِهِ، لَا تَفْعَلُونَ شَيْئًا بِدُونِ مَشِيئَتِهِ، فَإِنَّ نَاصِيَةَ كُلِّ دَابَّةٍ بِيَدِهِ، لَا يُمْكِنُهَا أَنْ تَتَحَرَّكَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا، وَمَعَ هَذَا فَهُوَ فِي تَصَرُّفِهِ فِيهَا وَتَحْرِيكِهِ لَهَا، وَنُفُوذِ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ فِيهَا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، لَا يَفْعَلُ

مَا يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِحِكْمَةٍ وَعَدْلٍ وَمَصْلَحَةٍ، وَلَوْ سَلَّطَكُمْ عَلَيَّ فَلَهُ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي ذَلِكَ مَا لَهُ الْحَمْدُ عَلَيْهِ، لأَنَّهُ تَسْلِيطُ مَنْ هُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، لَا يَظْلِمُ وَلَا يَفْعَلُ شَيْئًا عَبَثًا بِغَيْرِ حِكْمَةٍ.

فَهَكَذَا تَكُونُ الْمَعْرِفَةُ بِاللهِ، لَا مَعْرِفَةَ الْقَدَرِيَّةِ الْمَجُوسِيَّةِ، وَالْقَدَرِيَّةِ الْجَبْرِيَّةِ، نُفَاةِ الْحُكْمِ وَالْمَصَالِحِ وَالتَّعْلِيلِ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ سُبْحَانَهُ.

فِي التَّوَسُّلِ إِلَى اللهِ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَتَوْحِيدِهِ :

وَلَمَّا كَانَ سُؤَالُ اللهِ الْهِدَايَةَ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ أَجَلَّ الْمَطَالِبِ، وَنَيْلُهُ أَشْرَفَ الْمَوَاهِبِ: عَلَّمَ اللهُ عِبَادَهُ كَيْفِيَّةَ سُؤَالِهِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْهِ حَمْدَهُ وَالثَّنَاءَ عَلَيْهِ، وَتَمْجِيدَهُ، ثُمَّ ذَكَرَ عُبُودِيَّتَهُمْ وَتَوْحِيدَهُمْ، فَهَاتَانِ وَسِيلَتَانِ إِلَىٰ مَطْلُوبِهِمْ، تَوَسُّلٌ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَتَوَسُّلٌ إِلَيْهِ بِعُبُودِيَّتِهِ، وَهَاتَانِ الْوَسِيلَتَانِ لَا يَكَادُ يُرَدُّ مَعَهُمَا الدُّعَاءُ، وَيُؤَيِّدُهُمَا الْوَسِيلَتَانِ الْمَذْكُورَتَانِ فِي حَدِيثَيِ الاسْمِ الأَعْظَمِ اللَّذَيْنِ رَوَاهُمَا ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ وَ التِّرْمِذِيُّ.

أَحَدُهُمَا: حَدِيثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ « سَمِعَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَجُلًا يَدْعُو، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، فَقَالَ: « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِهِ**

الأَعْظَم، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَىٰ » [١] ، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

فَهَذَا تَوَسُّلٌ إِلَىٰ اللهِ بِتَوْحِيدِهِ، وَشَهَادَةِ الدَّاعِي لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَثُبُوتِ صِفَاتِهِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهَا بِاسْمِ الصَّمَدِ وَهُوَ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - : « الْعَالِمُ الَّذِي كَمُلَ عِلْمُهُ، الْقَادِرُ الَّذِي كَمُلَتْ قُدْرَتُهُ » ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: « هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِيهِ جَمِيعُ أَنْوَاعِ السُّؤْدُدِ » ، وَقَالَ أَبُو وَائِلٍ: «هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي انْتَهَىٰ سُؤْدَدُهُ » ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُوَ الْكَامِلُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، وَبِنَفْيِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإِخْلَاص:٤]، وَهَذِهِ تَرْجَمَةُ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَالتَّوَسُّلُ بِالْإِيمَانِ بِذَلِكَ، وَالشَّهَادَةُ بِهِ هُوَ الِاسْمُ الْأَعْظَمُ.

وَالثَّانِي: حَدِيثُ أَنَسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سَمِعَ رَجُلًا يَدْعُو: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْمَنَّانُ، بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، فَقَالَ: « **لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ** » [٢] ، فَهَذَا تَوَسُّلٌ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

---

(١) (صَحِيحٌ): صَحَّحَهُ العَلَّامَةُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيحِ التِّرْمِذِيّ» (٢٧٦٣)، و «صَحِيح ابْن مَاجَهْ» (٣١١١).
(٢) (صَحِيحٌ): صَحَّحَهُ العَلَّامَةُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيحِ ابْن مَاجَهْ» (٣١١٢).

وَقَدْ جَمَعَتِ الْفَاتِحَةُ الْوَسِيلَتَيْنِ، وَهُمَا التَّوَسُّلُ بِالْحَمْدِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَتَمْجِيدِهِ، وَالتَّوَسُّلُ إِلَيْهِ بِعُبُودِيَّتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، ثُمَّ جَاءَ سُؤَالُ أَهَمِّ الْمَطَالِبِ، وَأَنْجَحِ الرَّغَائِبِ وَهُوَ الْهِدَايَةُ بَعْدَ الْوَسِيلَتَيْنِ، فَالدَّاعِي بِهِ حَقِيقٌ بِالْإِجَابَةِ.

وَنَظِيرُ هَذَا دُعَاءُ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الَّذِي كَانَ يَدْعُو بِهِ إِذَا قَامَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - : « **اللهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيُّومُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ، اللهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَلَكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ** » [(١)]، فَذَكَرَ التَّوَسُّلَ إِلَيْهِ بِحَمْدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَبِعُبُودِيَّتِهِ لَهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ الْمَغْفِرَةَ.

اشْتِمَالُ الْفَاتِحَةِ عَلَى أَنْوَاعِ التَّوْحِيدِ الثَّلَاثَةِ :

فِي اشْتِمَالِ هَذِهِ السُّورَةِ عَلَىٰ أَنْوَاعِ التَّوْحِيدِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهَا الرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ.

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٨٤٢)، وَمُسْلِمٌ (١٢٨٨)، وَ التِّرْمِذِيّ (٤٣١٨).

التَّوْحِيدُ نَوْعَانِ: نَوْعٌ فِي الْعِلْمِ وَالِاعْتِقَادِ، وَنَوْعٌ فِي الْإِرَادَةِ وَالْقَصْدِ، وَيُسَمَّىٰ الْأَوَّلُ: التَّوْحِيدَ الْعِلْمِيَّ، وَالثَّانِي: التَّوْحِيدَ الْقَصْدِيَّ الْإِرَادِيَّ، لِتَعَلُّقِ الْأَوَّلِ بِالْأَخْبَارِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَالثَّانِي بِالْقَصْدِ وَالْإِرَادَةِ، وَهَذَا الثَّانِي أَيْضًا نَوْعَانِ: تَوْحِيدٌ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَوْحِيدٌ فِي الْإِلَهِيَّةِ، فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ.

فَأَمَّا تَوْحِيدُ الْعِلْمِ: فَمَدَارُهُ عَلَىٰ إِثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَعَلَىٰ نَفْيِ التَّشْبِيهِ وَالْمِثَالِ، وَالتَّنْزِيهِ عَنِ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ هَذَا شَيْئَانِ: مُجْمَلٌ، وَمُفَصَّلٌ.

أَمَّا الْمُجْمَلُ: فَإِثْبَاتُ الْحَمْدِ لَهُ سُبْحَانَهُ، وَأَمَّا الْمُفَصَّلُ: فَذِكْرُ صِفَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ، وَالرَّحْمَةِ وَالْمُلْكِ، وَعَلَىٰ هَذِهِ الْأَرْبَعِ مَدَارُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

فِي دِلَالَةِ الْأَسْمَاءِ الْخَمْسَةِ عَلَى أَوْصَافِ كَمَالٍ :

وَأَمَّا دِلَالَةُ الْأَسْمَاءِ الْخَمْسَةِ عَلَيْهَا، وَهِيَ « اللهُ، وَالرَّبُّ، وَالرَّحْمَنُ، وَالرَّحِيمُ، وَالْمَلِكُ » فَمَبْنِيٌّ عَلَىٰ أَصْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ أَسْمَاءَ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ دَالَّةٌ عَلَىٰ صِفَاتِ كَمَالِهِ، فَهِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الصِّفَاتِ، فَهِيَ أَسْمَاءٌ، وَهِيَ أَوْصَافٌ، وَبِذَلِكَ كَانَتْ حُسْنَى، إِذْ لَوْ كَانَتْ أَلْفَاظًا لَا مَعَانِيَ فِيهَا لَمْ تَكُنْ حُسْنَى، وَلَا كَانَتْ دَالَّةً عَلَىٰ مَدْحٍ وَلَا كَمَالٍ، وَلَسَاغَ وُقُوعُ أَسْمَاءِ الِانْتِقَامِ وَالْغَضَبِ فِي مَقَامِ

الرَّحْمَة وَالْإِحْسَان، وَبِالْعَكْس، فَيُقَالُ: اللهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَاغْفِرْ لِي إِنَّكَ أَنْتَ الْمُنْتَقِمُ، وَاللهُمَّ أَعْطِنِي، فَإِنَّكَ أَنْتَ الضَّارُّ الْمَانِعُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَنَفْيُ مَعَانِي أَسْمَائِه الْحُسْنَىٰ مِنْ أَعْظَم الْإِلْحَادِ فِيهَا، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأَعْرَاف: ١٨٠]، وَلِأَنَّهَا لَوْ لَمْ تَدُلَّ عَلَىٰ مَعَانٍ وَأَوْصَافٍ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُخْبَرَ عَنْهَا بِمَصَادِرِهَا وَيُوصَفُ بِهَا، لَكِنَّ اللهَ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ بِمَصَادِرِهَا، وَأَثْبَتَهَا لِنَفْسِه، وَأَثْبَتَهَا لَهُ رَسُولُهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ ﴾ [الذَّارِيَات: ٥٨]، فَعلِمَ أَنَّ الْقَوِيَّ مِنْ أَسْمَائِه، وَمَعْنَاهُ الْمَوْصُوفُ بِالْقُوَّة، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ ﴾ [فَاطِر: ١٠]، فَالْعَزِيزُ مَنْ لَهُ الْعِزَّةُ، فَلَوْلَا ثُبُوتُ الْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ لَهُ لَمْ يُسَمَّ قَوِيًّا وَلَا عَزِيزًا، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ ﴾ [النِّسَاء: ١٦٦]، ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ [هُود: ١٤]، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥].

وَفِي الصَّحِيح عَن النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ**

سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » [١] ، فَأُثْبِتَ الْمَصْدَرُ الَّذِي اشْتُقَّ مِنْهُ اسْمُهُ الْبَصِيرُ.

حَقِيقَةُ الْإِلْحَادِ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ :

وَحَقِيقَةُ الْإِلْحَادِ فِيهَا الْعُدُولُ بِهَا عَنِ الصَّوَابِ فِيهَا، وَإِدْخَالُ مَا لَيْسَ مِنْ مَعَانِيهَا فِيهَا، وَإِخْرَاجُ حَقَائِقِ مَعَانِيهَا عَنْهَا، هَذَا حَقِيقَةُ الْإِلْحَادِ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ كَذَبَ عَلَىٰ اللهِ، فَفَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- الْإِلْحَادَ بِالْكَذِبِ، أَوْ هُوَ غَايَةُ الْمُلْحِدِ فِي أَسْمَائِهِ تَعَالَىٰ، فَإِنَّهُ إِذَا أَدْخَلَ فِي مَعَانِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا، وَخَرَجَ بِهَا عَنْ حَقَائِقِهَا، أَوْ بَعْضِهَا، فَقَدْ عَدَلَ بِهَا عَنِ الصَّوَابِ وَالْحَقِّ، وَهُوَ حَقِيقَةُ الْإِلْحَادِ.

فَالْإِلْحَادُ إِمَّا بِجَحْدِهَا وَإِنْكَارِهَا، وَإِمَّا بِجَحْدِ مَعَانِيهَا وَتَعْطِيلِهَا، وَإِمَّا بِتَحْرِيفِهَا عَنِ الصَّوَابِ، وَإِخْرَاجِهَا عَنِ الْحَقِّ بِالتَّأْوِيلَاتِ الْبَاطِلَةِ، وَإِمَّا بِجَعْلِهَا أَسْمَاءً لِهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْمَصْنُوعَاتِ، كَإِلْحَادِ أَهْلِ الِاتِّحَادِ، فَإِنَّهُمْ جَعَلُوهَا أَسْمَاءَ هَذَا الْكَوْنِ، مَحْمُودِهَا وَمَذْمُومِهَا، حَتَّىٰ قَالَ زَعِيمُهُمْ: وَهُوَ الْمُسَمَّىٰ بِكُلِّ اسْمٍ مَمْدُوحٍ عَقْلًا، وَشَرْعًا وَعُرْفًا، وَبِكُلِّ اسْمٍ مَذْمُومٍ عَقْلًا وَشَرْعًا وَعُرْفًا، تَعَالَىٰ اللهُ عَمَّا يَقُولُ الْمُلْحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

---

(١)(صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٦٣) .

في دَلالَةِ الأَسْمَاءِ الخَمْسَةِ عَلَى الذَّاتِ والصِّفاتِ :

الْأَصْلُ الثَّانِي: أَنَّ الاسْمَ مِنْ أَسْمَائِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كَمَا يَدُلُّ عَلَىٰ الذَّاتِ وَالصِّفَةِ الَّتِي اشْتُقَّ مِنْهَا بِالْمُطَابَقَةِ، فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَيْهِ دَلَالَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ بِالتَّضَمُّنِ وَاللُّزُومِ، فَيَدُلُّ عَلَىٰ الصِّفَةِ بِمُفْرَدِهَا بِالتَّضَمُّنِ، وَكَذَلِكَ عَلَىٰ الذَّاتِ الْمُجَرَّدَةِ عَنِ الصِّفَةِ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ الصِّفَةِ الْأُخْرَىٰ بِاللُّزُومِ، فَإِنَّ اسْمَ السَّمِيعِ يَدُلُّ عَلَىٰ ذَاتِ الرَّبِّ وَسَمْعِهِ بِالْمُطَابَقَةِ، وَعَلَىٰ الذَّاتِ وَحْدَهَا، وَعَلَىٰ السَّمْعِ وَحْدَهُ بِالتَّضَمُّنِ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ اسْمِ الْحَيِّ وَصِفَةِ الْحَيَاةِ بِالالْتِزَامِ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَلَكِنْ يَتَفَاوَتُ النَّاسُ فِي مَعْرِفَةِ اللُّزُومِ وَعَدَمِهِ، وَمِنْ هَاهُنَا يَقَعُ اخْتِلَافُهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَالْأَحْكَامِ، فَإِنَّ مَنْ عَلِمَ أَنَّ الْفِعْلَ الاخْتِيَارِيَّ لَازِمٌ لِلْحَيَاةِ، وَأَنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ لَازِمٌ لِلْحَيَاةِ الْكَامِلَةِ، وَأَنَّ سَائِرَ الْكَمَالِ مِنْ لَوَازِمِ الْحَيَاةِ الْكَامِلَةِ أَثْبَتَ مِنْ أَسْمَاءِ الرَّبِّ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ مَا يُنْكِرُهُ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ لُزُومَ ذَلِكَ، وَلَا عَرِفَ حَقِيقَةَ الْحَيَاةِ وَلَوَازِمَهَا، وَكَذَلِكَ سَائِرُ صِفَاتِهِ.

فَإِنَّ اسْمَ الْعَظِيمِ لَهُ لَوَازِمُ يُنْكِرُهَا مَنْ لَمْ يَعْرِفْ عَظْمَةَ اللهِ وَلَوَازِمَهَا.

وَكَذَلِكَ اسْمُ الْعَلِيِّ، وَاسْمُ الْحَكِيمِ وَسَائِرُ أَسْمَائِهِ، فَإِنَّ مِنْ لَوَازِمِ اسْمِ الْعَلِيِّ الْعُلُوَّ الْمُطْلَقَ بِكُلِّ اعْتِبَارٍ، فَلَهُ الْعُلُوُّ الْمُطْلَقُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ: عُلُوَّ

الْقَدْرِ، وَعُلُوُّ الْقَهْرِ، وَعُلُوُّ الذَّاتِ، فَمَنْ جَحَدَ عُلُوَّ الذَّاتِ فَقَدْ جَحَدَ لَوَازِمَ اسْمِهِ الْعَلِيِّ.

وَكَذَلِكَ اسْمُهُ «الظَّاهِرُ» مِنْ لَوَازِمِهِ: أَنْ لَا يَكُونَ فَوْقَهُ شَيْءٌ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- « **وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ** »[١]، بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، فَمَنْ جَحَدَ فَوْقِيَّتَهُ سُبْحَانَهُ فَقَدْ جَحَدَ لَوَازِمَ اسْمِهِ الظَّاهِرِ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الظَّاهِرُ هُوَ مَنْ لَهُ فَوْقِيَّةُ الْقَدْرِ فَقَطْ، كَمَا يُقَالُ: الذَّهَبُ فَوْقَ الْفِضَّةِ، وَالْجَوْهَرُ فَوْقَ الزُّجَاجِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْفَوْقِيَّةَ تَتَعَلَّقُ بِالظُّهُورِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ الْمُفَوَّقُ أَظْهَرَ مِنَ الْفَائِقِ فِيهَا، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ ظُهُورُ الْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ فَقَطْ، وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ ظَاهِرًا بِالْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ، لِمُقَابَلَةِ الِاسْمِ بِـ « الْبَاطِنِ » وَهُوَ الَّذِي لَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ ، كَمَا قَابَلَ الْأَوَّلَ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، بِـ «الْآخِرِ» الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ.

وَكَذَلِكَ اسْمُ «الْحَكِيمِ» مِنْ لَوَازِمِهِ ثُبُوتُ الْغَايَاتِ الْمَحْمُودَةِ الْمَقْصُودَةِ لَهُ بِأَفْعَالِهِ، وَوَضْعُهُ الْأَشْيَاءَ فِي مَوْضِعِهَا، وَإِيقَاعُهَا عَلَىٰ أَحْسَنِ الْوُجُوهِ، فَإِنْكَارُ ذَلِكَ إِنْكَارٌ لِهَذَا الِاسْمِ وَلَوَازِمِهِ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى.

---

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٤٨٨٨)، وَ التِّرْمِذْيُّ (٣٤٨١) وَأَبو دَاوُد (٥٠٥١) .

فِي دَلالَةِ اسْمِ (اللهِ) عَلَى الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ :

إِذَا تَقَرَّرَ هَذَانِ الأَصْلَانِ، فَاسْمُ (الله) دَالٌّ عَلَىٰ جَمِيعِ الأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَالصِّفَاتِ الْعُلْيَا بِالدِّلَالَاتِ الثَّلَاثِ، فَإِنَّهُ دَالٌّ عَلَىٰ إِلَهِيَّتِهِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِثُبُوتِ صِفَاتِ الإِلَهِيَّةِ لَهُ مَعَ نَفْيِ أَضْدَادِهَا عَنْهُ.

وَصِفَاتُ الإِلَهِيَّةِ: هِيَ صِفَاتُ الْكَمَالِ، الْمُنَزَّهَةُ عَنِ التَّشْبِيهِ وَالْمِثَالِ، وَعَنِ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ، وَلِهَذَا يُضِيفُ اللهُ تَعَالَىٰ سَائِرَ الأَسْمَاءِ الْحُسْنَىٰ إِلَىٰ هَذَا الاسْمِ الْعَظِيمِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَيُقَالُ: الرَّحْمَنُ وَالرَّحِيمُ، وَالْقُدُّوسُ، وَالسَّلَامُ، وَالْعَزِيزُ، وَالْحَكِيمُ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ، وَلَا يُقَالُ: اللهُ مِنْ أَسْمَاءِ الرَّحْمَنِ، وَلَا مِنْ أَسْمَاءِ الْعَزِيزِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

فَعُلِمَ أَنَّ اسْمَهُ (اللهُ) مُسْتَلْزِمٌ لِجَمِيعِ مَعَانِي الأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، دَالٌّ عَلَيْهَا بِالإِجْمَالِ، وَالأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ تَفْصِيلٌ وَتَبْيِينٌ لِصِفَاتِ الإِلَهِيَّةِ الَّتِي اشْتُقَّ مِنْهَا اسْمُ (الله)، وَاسْمُ (اللهِ) دَالٌّ عَلَىٰ كَوْنِهِ مَأْلُوهًا مَعْبُودًا، تُؤَلِّهُهُ الْخَلَائِقُ مَحَبَّةً وَتَعْظِيمًا وَخُضُوعًا، وَفَزَعًا إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ وَالنَّوَائِبِ، وَذَلِكَ مُسْتَلْزِمٌ لِكَمَالِ رُبُوبِيَّتِهِ وَرَحْمَتِهِ، الْمُتَضَمِّنَيْنِ لِكَمَالِ الْمُلْكِ وَالْحَمْدِ، وَإِلَهِيَّتُهُ وَرُبُوبِيَّتُهُ وَرَحْمَانِيَّتُهُ وَمُلْكُهُ مُسْتَلْزِمٌ لِجَمِيعِ صِفَاتِ كَمَالِهِ، إِذْ يَسْتَحِيلُ ثُبُوتُ ذَلِكَ لِمَنْ لَيْسَ بِحَيٍّ، وَلَا سَمِيعٍ، وَلَا بَصِيرٍ، وَلَا قَادِرٍ، وَلَا مُتَكَلِّمٍ، وَلَا فَعَّالٍ لِمَا يُرِيدُ، وَلَا حَكِيمٍ فِي أَفْعَالِهِ.

وَصِفَاتُ الْجَلَالِ وَالْجَمَالِ: أَخَصُّ بِاسْمِ (اللهِ) .

وَصِفَاتُ الْفِعْلِ وَالْقُدْرَةِ، وَالتَّفَرُّدِ بِالضُّرِّ وَالنَّفْعِ، وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ، وَنُفُوذِ الْمَشِيئَةِ وَكَمَالِ الْقُوَّةِ، وَتَدْبِيرِ أَمْرِ الْخَلِيقَةِ أَخَصُّ بِاسْمِ (الرَّبِّ) .

وَصِفَاتُ الْإِحْسَانِ، وَالْجُودِ وَالْبِرِّ، وَالْحَنَانِ وَالْمِنَّةِ، وَالرَّأْفَةِ وَاللُّطْفِ أَخَصُّ بِاسْمِ (الرَّحْمَنِ) ، وَكُرِّرَ إِيذَانًا بِثُبُوتِ الْوَصْفِ، وَحُصُولِ أَثَرِهِ، وَتَعَلُّقِهِ بِمُتَعَلِّقَاتِهِ.

فَالرَّحْمَنُ الَّذِي الرَّحْمَةُ وَصْفُهُ، وَ(الرَّحِيمُ) الرَّاحِمُ لِعِبَادِهِ، وَلِهَذَا يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وَلَمْ يَجِئْ: رَحْمَنٌ بِعِبَادِهِ، وَلَا رَحْمَنٌ بِالْمُؤْمِنِينَ، مَعَ مَا فِي اسْمِ (الرَّحْمَنِ) الَّذِي هُوَ عَلَىٰ وَزْنِ فَعْلَانِ مِنْ سِعَةِ هَذَا الْوَصْفِ، وَثُبُوتِ جَمِيعِ مَعْنَاهُ الْمَوْصُوفِ بِهِ.

أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: غَضْبَانُ، لِلْمُمْتَلِئِ غَضَبًا، وَنَدْمَانُ وَحَيْرَانُ وَسَكْرَانُ وَلَهْفَانُ لِمَنْ مُلِئَ بِذَلِكَ، فَبِنَاءُ فَعْلَانِ لِلسَّعَةِ وَالشُّمُولِ، وَلِهَذَا يَقْرِنُ اسْتِوَاءَهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ بِهَذَا الِاسْمِ كَثِيرًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣]، الرَّحْمَنُ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ عَرْشِهِ بِاسْمِ الرَّحْمَنِ، لِأَنَّ الْعَرْشَ مُحِيطٌ بِالْمَخْلُوقَاتِ قَدْ وَسِعَهَا، وَالرَّحْمَةُ مُحِيطَةٌ بِالْخَلْقِ وَاسِعَةٌ لَهُمْ، كَمَا قَالَ

تَعَالَىٰ : ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾ [الأعراف : ١٥٦]، فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ أَوْسَعِ الْمَخْلُوقَاتِ بِأَوْسَعِ الصِّفَاتِ، فَلِذَلِكَ وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **لَمَّا قَضَىٰ اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ مَوْضُوعٌ عَلَىٰ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي** »[1]، وَفِي لَفْظٍ « **فَهُوَ عِنْدَهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ** »[2].

فَتَأَمَّلِ اخْتِصَاصَ هَذَا الْكِتَابِ بِذِكْرِ الرَّحْمَةِ، وَوَضْعَهُ عِنْدَهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ، وَطَابِقْ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ قَوْلِهِ ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ٥٩ ﴾ [الفرقان : ٥٩]، يَنْفَتِحُ لَكَ بَابٌ عَظِيمٌ مِنْ مَعْرِفَةِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِنْ لَمْ يُغْلِقْهُ عَنْكَ التَّعْطِيلُ وَالتَّجَهُّمُ.

وَصِفَاتُ الْعَدْلِ، وَالْقَبْضِ وَالْبَسْطِ، وَالْخَفْضِ وَالرَّفْعِ، وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ، وَالْإِعْزَازِ وَالْإِذْلَالِ، وَالْقَهْرِ وَالْحُكْمِ، وَنَحْوُهَا أَخَصُّ بِاسْمِ الْمَلِكِ وَخَصَّهُ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَهُوَ الْجَزَاءُ بِالْعَدْلِ، لِتَفَرُّدِهِ بِالْحُكْمِ فِيهِ وَحْدَهُ، وَلِأَنَّهُ الْيَوْمُ الْحَقُّ، وَمَا قَبْلَهُ كَسَاعَةٍ، وَلِأَنَّهُ الْغَايَةُ، وَأَيَّامُ الدُّنْيَا مَرَاحِلُ إِلَيْهِ.

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٧٥٥٣)، وَمُسْلِمٌ (٢٧٥١) .
(٢) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ .

فِي ارْتِبَاطُ الخَلْق والأمْر بِأَسْمَائِهِ (الله ـ الرَّبُّ ـ الرَّحْمَنُ) :

وَتَأَمَّلِ ارْتِبَاطَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ، وَهِيَ اللهُ، وَالرَّبُّ، وَالرَّحْمَنُ كَيْفَ نَشَأَ عَنْهَا الْخَلْقُ، وَالْأَمْرُ، وَالثَّوَابُ، وَالْعِقَابُ ؟ وَكَيْفَ جَمَعَتِ الْخَلْقَ وَفَرَّقَتْهُمْ ؟ فَلَهَا الْجَمْعُ، وَلَهَا الْفَرْقُ.

فَاسْمُ (الرَّبِّ) لَهُ الْجَمْعُ الْجَامِعُ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ، وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ، لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ رُبُوبِيَّتِهِ، وَكُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَبْدٌ لَهُ فِي قَبْضَتِهِ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ، فَاجْتَمَعُوا بِصِفَةِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَافْتَرَقُوا بِصِفَةِ الْإِلَهِيَّةِ، فَأَلَّهَهُ وَحْدَهُ السُّعَدَاءُ، وَأَقَرُّوا لَهُ طَوْعًا بِأَنَّهُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّجَاءُ وَالْخَوْفُ، وَالْحُبُّ وَالْإِنَابَةُ وَالْإِخْبَاتُ وَالْخَشْيَةُ، وَالتَّذَلُّلُ وَالْخُضُوعُ إِلَّا لَهُ.

وَهُنَا افْتَرَقَ النَّاسُ، وَصَارُوا فَرِيقَيْنِ: فَرِيقًا مُشْرِكِينَ فِي السَّعِيرِ، وَفَرِيقًا مُوَحِّدِينَ فِي الْجَنَّةِ.

فَالْإِلَهِيَّةُ هِيَ الَّتِي فَرَّقَتْهُمْ، كَمَا أَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ هِيَ الَّتِي جَمَعَتْهُمْ.

فَالدِّينُ وَالشَّرْعُ، وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ مَظْهَرُهُ، وَقِيَامُهُ مِنْ صِفَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَالْخَلْقُ وَالْإِيجَادُ وَالتَّدْبِيرُ وَالْفِعْلُ مِنْ صِفَةِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالْجَزَاءُ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ مِنْ صِفَةِ الْمُلْكِ، وَهُوَ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ، فَأَمَرَهُمْ

بِإِلَهِيَّتِه، وَأَعَانَهُمْ وَوَفَّقَهُمْ وَهَدَاهُمْ وَأَضَلَّهُمْ بِرُبُوبِيَّتِه، وَأَثَابَهُمْ وَعَاقَبَهُمْ بِمُلْكِهِ وَعَدْلِهِ، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ لَا تَنْفَكُّ عَنِ الأُخْرَى.

وَأَمَّا الرَّحْمَةُ فَهِيَ التَّعَلُّقُ، وَالسَّبَبُ الَّذِي بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، فَالتَّأْلِيهُ مِنْهُمْ لَهُ، وَالرُّبُوبِيَّةُ مِنْهُ لَهُمْ، وَالرَّحْمَةُ سَبَبٌ وَاصِلٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، بِهَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ، وَبِهَا هَدَاهُمْ، وَبِهَا أَسْكَنَهُمْ دَارَ ثَوَابِهِ، وَبِهَا رَزَقَهُمْ وَعَافَاهُمْ وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، فَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ سَبَبُ الْعُبُودِيَّةِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ سَبَبُ الرَّحْمَةِ.

وَاقْتِرَانُ رُبُوبِيَّتِهِ بِرَحْمَتِهِ كَاقْتِرَانِ اسْتِوَائِهِ عَلَىٰ عَرْشِهِ بِرَحْمَتِهِ، فَـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة: ٢-٣]، فَإِنَّ شُمُولَ الرُّبُوبِيَّةِ وَسَعَتَهَا بِحَيْثُ لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْهَا أَقْصَىٰ شُمُولِ الرَّحْمَةِ وَسَعَتِهَا، فَوَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ بِرَحْمَتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ، مَعَ أَنَّ فِي كَوْنِهِ رَبًّا لِلْعَالَمِينَ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ عُلُوِّهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَكَوْنِهِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، كَمَا يَأْتِي بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ.

إِيقَاعُ الحَمْدِ عَلَى مَضْمُونِ هَذِهِ الأَسْمَاءِ :

فِي ذِكْرِ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ بَعْدَ الْحَمْدِ، وَإِيقَاعِ الْحَمْدِ عَلَىٰ مَضْمُونِهَا وَمُقْتَضَاهَا مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ مَحْمُودٌ فِي إِلَهِيَّتِهِ، مَحْمُودٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، مَحْمُودٌ

فِي رَحْمَانِيَّتِهِ، مَحْمُودٌ فِي مُلْكِهِ، وَأَنَّهُ إِلَهٌ مَحْمُودٌ، وَرَبٌّ مَحْمُودٌ، وَرَحْمَنٌ مَحْمُودٌ، وَمَلِكٌ مَحْمُودٌ، فَلَهُ بِذَلِكَ جَمِيعُ أَقْسَامِ الْكَمَالِ: كَمَالٌ مِنْ هَذَا الاسْمِ بِمُفْرَدِهِ، وَكَمَالٌ مِنَ الآخَرِ بِمُفْرَدِهِ، وَكَمَالٌ مِنِ اقْتِرَانِ أَحَدِهِمَا بِالآخَرِ.

مِثَالُ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ [التَّغَابُن: ٦]، ﴿**وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [النِّسَاءُ: ٢٦]، ﴿**وَٱللَّهُ قَدِيرٌ**﴾ [المُمْتَحنَة: ٧]، ﴿**وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢١٨**﴾ [البَقَرَة: ٢١٨] فَالْغِنَى صِفَةُ كَمَالٍ، وَالْحَمْدُ صِفَةُ كَمَالٍ، وَاقْتِرَانُ غِنَاهُ بِحَمْدِهِ كَمَالٌ أَيْضًا، وَعِلْمُهُ كَمَالٌ، وَحِكْمَتُهُ كَمَالٌ، وَاقْتِرَانُ الْعِلْمِ بِالْحِكْمَةِ كَمَالٌ أَيْضًا، وَقُدْرَتُهُ كَمَالٌ وَمَغْفِرَتُهُ كَمَالٌ، وَاقْتِرَانُ الْقُدْرَةِ بِالْمَغْفِرَةِ كَمَالٌ، وَكَذَلِكَ الْعَفْوُ بَعْدَ الْقُدْرَةِ ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا**﴾ [النِّسَاءُ: ٤٣]، وَاقْتِرَانُ الْعِلْمِ بِالْحِلْمِ ﴿**وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ**﴾ [النِّسَاءُ: ١٢].

وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ أَرْبَعَةٌ: اثْنَانِ يَقُولَانِ: « **سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى حِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ، وَاثْنَانِ يَقُولَانِ: سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ** »[1]، فَمَا كُلُّ مَنْ قَدَرَ عَفَا، وَلَا كُلُّ مَنْ عَفَا يَعْفُو عَنْ قُدْرَةٍ، وَلَا كُلُّ مَنْ عَلِمَ يَكُونُ حَلِيمًا،

---

(١) ذَكَرَ الْبَيْهَقِيُّ هَذَا الأَثَرَ فِي شُعَبِ الإِيمَانِ (١/ ٣٢٧)، وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي الحِلْيَةِ (٣/ ٥٥ - ٦/ ٧٤)، وَالذَّهَبِيُّ فِي السِّيَرِ (٥/ ٢٦٤).

وَلَا كُلُّ حَلِيمٍ عَالِمٌ، فَمَا قُرِنَ شَيْءٌ إِلَىٰ شَيْءٍ أَزْيَنُ مِنْ حِلْمٍ إِلَىٰ عِلْمٍ، وَمِنْ عَفْوٍ إِلَىٰ قُدْرَةٍ، وَمِنْ مُلْكٍ إِلَىٰ حَمْدٍ، وَمِنْ عِزَّةٍ إِلَىٰ رَحْمَةٍ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ وَمِنْ هَاهُنَا كَانَ قَوْلُ الْمَسِيحِ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المَائِدَة :١١٨] ، أَحْسَنُ مِنْ أَنْ يَقُولَ: وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، أَيْ إِنْ غَفَرْتَ لَهُمْ كَانَ مَصْدَرُ مَغْفِرَتِكَ عَنْ عِزَّةٍ، وَهِيَ كَمَالُ الْقُدْرَةِ، وَعَنْ حِكْمَةٍ، وَهِيَ كَمَالُ الْعِلْمِ، فَمَنْ غَفَرَ عَنْ عَجْزٍ وَجَهْلٍ بِجُرْمِ الْجَانِي، فَأَنْتَ لَا تَغْفِرُ إِلَّا عَنْ قُدْرَةٍ تَامَّةٍ، وَعِلْمٍ تَامٍّ، وَحِكْمَةٍ تَضَعُ بِهَا الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، فَهَذَا أَحْسَنُ مِنْ ذِكْرِ الْغَفُورِ الرَّحِيمِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، الدَّالِّ ذِكْرُهُ عَلَىٰ التَّعْرِيضِ بِطَلَبِ الْمَغْفِرَةِ فِي غَيْرِ حِينِهَا، وَقَدْ فَاتَتْ، فَإِنَّهُ لَوْ قَالَ: وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، كَانَ فِي هَذَا مِنَ الِاسْتِعْطَافِ وَالتَّعْرِيضِ بِطَلَبِ الْمَغْفِرَةِ لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا مَا يُنَزَّهُ عَنْهُ مَنْصِبُ الْمَسِيحِ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- ، لَا سِيَّمَا وَالْمَوْقِفُ مَوْقِفُ عَظَمَةٍ وَجَلَالٍ، وَمَوْقِفُ انْتِقَامٍ مِمَّنْ جَعَلَ لِلَّهِ وَلَدًا، وَاتَّخَذَهُ إِلَهًا مِنْ دُونِهِ، فَذِكْرُ الْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ فِيهِ أَلْيَقُ مِنْ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، وَهَذَا بِخِلَافِ قَوْلِ الْخَلِيلِ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- : ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [إِبْرَاهِيمُ : ٣٥-٣٦] ، وَلَمْ يَقُلْ: فَإِنَّكَ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ، لأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ اسْتِعْطَافٍ وَتَعْرِيضٍ بِالدُّعَاءِ، أَيْ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ وَتَرْحَمْهُمْ، بِأَنْ تُوَفِّقَهُمْ لِلرُّجُوعِ مِنَ الشِّرْكِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَمِنَ الْمَعْصِيَةِ إِلَىٰ الطَّاعَةِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»[(١)].

وَفِي هَذَا أَظْهَرُ الدِّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ أَسْمَاءَ الرَّبِّ تَعَالَىٰ مُشْتَقَّةٌ مِنْ أَوْصَافٍ وَمَعَانٍ قَامَتْ بِهِ، وَأَنَّ كُلَّ اسْمٍ يُنَاسِبُ مَا ذُكِرَ مَعَهُ، وَاقْتَرَنَ بِهِ، مِنْ فِعْلِهِ وَأَمْرِهِ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ.

مَرَاتِبُ الهِدَايَةِ:

فِي مَرَاتِبِ الْهِدَايَةِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَهِيَ عَشْرُ مَرَاتِبَ:

الْمَرْتَبَةُ الأُولَى: مَرْتَبَةُ تَكْلِيمِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- لِعَبْدِهِ يَقَظَةً بِلَا وَاسِطَةٍ، بَلْ مِنْهُ إِلَيْهِ، وَهَذِهِ أَعْلَىٰ مَرَاتِبِهَا، كَمَا كَلَّمَ مُوسَىٰ بْنَ عِمْرَانَ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا**﴾ [النِّسَاء: ١٦٤]، فَذَكَرَ فِي أَوَّلِ الآيَةِ وَحْيَهُ إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ، ثُمَّ خَصَّ مُوسَىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- مِنْ بَيْنِهِمْ بِالإِخْبَارِ بِأَنَّهُ كَلَّمَهُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ التَّكْلِيمَ الَّذِي حَصَلَ لَهُ أَخَصُّ مِنْ مُطْلَقِ الْوَحْيِ الَّذِي ذُكِرَ فِي أَوَّلِ الآيَةِ، ثُمَّ أَكَّدَهُ بِالْمَصْدَرِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ كَلَّمَ وَهُوَ التَّكْلِيمُ رَفْعًا لِمَا يَتَوَهَّمُهُ الْمُعَطِّلَةُ وَالْجَهْمِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ

(١) (صَحِيحٌ) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي «كِتَابِ الأَنْبِيَاءِ» (٦٠)، وباب حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَان (٥٤).

وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَنَّهُ إِلْهَامٌ، أَوْ إِشَارَةٌ، أَوْ تَعْرِيفٌ لِلْمَعْنَىٰ النَّفْسِيِّ بِشَيْءٍ غَيْرِ التَّكْلِيمِ، فَأَكَّدَهُ بِالْمَصْدَرِ الْمُفِيدِ تَحْقِيقَ النِّسْبَةِ وَرَفْعَ تَوَهُّمِ الْمَجَازِ .

قَالَ الْفَرَّاءُ -رحمه الله- : الْعَرَبُ تُسَمِّي مَا يُوصَلُ إِلَىٰ الْإِنْسَانِ كَلَامًا بِأَيِّ طَرِيقٍ وَصَلَ، وَلَكِنْ لَا تُحَقِّقُهُ بِالْمَصْدَرِ، فَإِذَا حَقَّقَتْهُ بِالْمَصْدَرِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا حَقِيقَةَ الْكَلَامِ، كَالْإِرَادَةِ، يُقَالُ: فُلَانٌ أَرَادَ إِرَادَةً، يُرِيدُونَ حَقِيقَةَ الْإِرَادَةِ، وَيُقَالُ: أَرَادَ الْجِدَارُ، وَلَا يُقَالُ: إِرَادَةً، لِأَنَّهُ مَجَازٌ غَيْرُ حَقِيقَةٍ، هَذَا كَلَامُهُ، وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ **وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ** ﴾[الأَعْرَافُ : ١٤٣] ، وَهَذَا التَّكْلِيمُ غَيْرُ التَّكْلِيمِ الْأَوَّلِ الَّذِي أَرْسَلَهُ بِهِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ، وَفِي هَذَا التَّكْلِيمِ الثَّانِي سَأَلَ النَّظَرَ لَا فِي الْأَوَّلِ، وَفِيهِ أُعْطِيَ الْأَلْوَاحَ، وَكَانَ عَنْ مُوَاعَدَةٍ مِنَ اللهِ لَهُ، وَالتَّكْلِيمُ الْأَوَّلُ لَمْ يَكُنْ عَنْ مُوَاعَدَةٍ، وَفِيهِ قَالَ اللهُ لَهُ : ﴿ **يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي** ﴾[الأَعْرَافُ : ١٤٤]،أَيْ بِتَكْلِيمِي لَكَ بِإِجْمَاعِ السَّلَفِ.

وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ أَنَّهُ نَادَاهُ وَنَاجَاهُ، فَالنِّدَاءُ مِنْ بُعْدٍ، وَالنِّجَاءُ مِنْ قُرْبٍ، تَقُولُ الْعَرَبُ: إِذَا كَبُرَتِ الْحَلْقَةُ فَهُوَ نِدَاءٌ، أَوْ نِجَاءٌ، وَقَالَ لَهُ أَبُوهُ آدَمُ فِي مُحَاجَّتِهِ: أَنْتَ مُوسَىٰ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ ؟.

وَكَذَلِكَ يَقُولُ لَهُ أَهْلُ الْمَوْقِفِ إِذَا طَلَبُوا مِنْهُ الشَّفَاعَةَ إِلَىٰ رَبِّهِ، وَكَذَلِكَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ فِي رُؤْيَةِ مُوسَىٰ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ أَوِ السَّابِعَةِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ الرِّوَايَةِ، قَالَ: وَذَلِكَ بِتَفْضِيلِهِ بِكَلَامِ اللهِ، وَلَوْ كَانَ التَّكْلِيمُ الَّذِي حَصَلَ لَهُ مِنْ جِنْسِ مَا حَصَلَ لِغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَمْ يَكُنْ لِهَذَا التَّخْصِيصِ لَهُ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ مَعْنًى، وَلَا كَانَ يُسَمَّىٰ كَلِيمَ الرَّحْمَنِ وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ** ﴾ [الشُّورَىٰ: ٥١] ، فَفَرَّقَ بَيْنَ تَكْلِيمِ الْوَحْيِ، وَالتَّكْلِيمِ بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ، وَالتَّكْلِيمِ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ.

الوَحْيُ :

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ مَرْتَبَةُ الْوَحْيِ الْمُخْتَصِّ بِالْأَنْبِيَاءِ:

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [النِّسَاء: ١٦٣] ، وَقَالَ ﴿ ۞ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ** ﴾ [الشُّورَىٰ: ٥١] ، فَجَعَلَ الْوَحْيَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قِسْمًا مِنْ أَقْسَامِ التَّكْلِيمِ، وَجَعَلَهُ فِي آيَةِ النِّسَاءِ قَسِيمًا لِلتَّكْلِيمِ، وَذَلِكَ بِاعْتِبَارَيْنِ، فَإِنَّهُ قَسِيمُ التَّكْلِيمِ الْخَاصِّ الَّذِي هُوَ بِلَا وَاسِطَةٍ، وَقِسْمٌ مِنَ التَّكْلِيمِ الْعَامِّ الَّذِي هُوَ إِيصَالُ الْمَعْنَىٰ بِطُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ.

وَالْوَحْيُ فِي اللُّغَةِ هُوَ: الْإِعْلَامُ السَّرِيعُ الْخَفِيُّ، وَيُقَالُ فِي فِعْلِه: وَحى، وَأَوْحى، قَالَ رُؤْبَةُ: وَحَىٰ لَهَا الْقَرَارُ فَاسْتَقَرَّتْ ، وَهُوَ أَقْسَامٌ، كَما سَنَذْكُرُهُ.

إِرْسَالُ الرُّسُلِ:

الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ :**إِرْسَالُ الرَّسُولِ الْمَلَكِيِّ إِلَى الرَّسُولِ الْبَشَرِيِّ**:

فَيُوحَىٰ إِلَيْهِ عَنِ اللهِ مَا أَمَرَهُ أَنْ يُوَصِّلَهُ إِلَيْهِ.

فَهَذِهِ الْمَرَاتِبُ الثَّلَاثُ خَاصَّةٌ بِالْأَنْبِيَاءِ لَا تَكُونُ لِغَيْرِهِمْ.

ثُمَّ هَذَا الرَّسُولُ الْمَلَكِيُّ قَدْ يَتَمَثَّلُ لِلرَّسُولِ الْبَشَرِيِّ رَجُلًا، يَرَاهُ عِيَانًا وَيُخَاطِبُهُ، وَقَدْ يَرَاهُ عَلَىٰ صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا، وَقَدْ يَدْخُلُ فِيهِ الْمَلَكُ، وَيُوحِي إِلَيْهِ مَا يُوحِيهِ، ثُمَّ يَفْصِمُ عَنْهُ، أَيْ يُقْلِعُ، وَالثَّلَاثَةُ حَصَلَتْ لِنَبِيِّنَا -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

التَّحْدِيْثُ :

الْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ : مَرْتَبَةُ التَّحْدِيْثِ:

وَهَذِهِ دُونَ مَرْتَبَةِ الْوَحْيِ الْخَاصِّ، وَتَكُونُ دُونَ مَرْتَبَةِ الصِّدِّيقِينَ، كَمَا كَانَتْ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- ، كَما قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **إِنَّهُ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي هَذِهِ**

الْأُمَّةِ فَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ»[١] .

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ تَقِيَّ الدِّينِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ- يَقُولُ: جَزَمَ بِأَنَّهُمْ كَائِنُونَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَنَا، وَعَلَّقَ وُجُودَهُمْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ بِـ«إِنْ» الشَّرْطِيَّةِ، مَعَ أَنَّهَا أَفْضَلُ الْأُمَمِ، لِاحْتِيَاجِ الْأُمَمِ قَبْلَنَا إِلَيْهِمْ، وَاسْتِغْنَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَنْهُمْ بِكَمَالِ نَبِيِّهَا وَرِسَالَتِهِ، فَلَمْ يُحْوِجِ اللهُ الْأُمَّةَ بَعْدَهُ إِلَىٰ مُحَدَّثٍ وَلَا مُلْهَمٍ، وَلَا صَاحِبِ كَشْفٍ وَلَا مَنَامٍ، فَهَذَا التَّعْلِيقُ لِكَمَالِ الْأُمَّةِ وَاسْتِغْنَائِهَا لَا لِنَقْصِهَا.

وَالْمُحَدَّثُ: هُوَ الَّذِي يُحَدَّثُ فِي سِرِّهِ وَقَلْبِهِ بِالشَّيْءِ، فَيَكُونُ كَمَا يُحَدَّثُ بِهِ.

قَالَ شَيْخُنَا: وَالصِّدِّيقُ أَكْمَلُ مِنَ الْمُحَدَّثِ، لِأَنَّهُ اسْتَغْنَىٰ بِكَمَالِ صِدِّيقِيَّتِهِ وَمُتَابَعَتِهِ عَنِ التَّحْدِيثِ وَالْإِلْهَامِ وَالْكَشْفِ، فَإِنَّهُ قَدْ سَلَّمَ قَلْبَهُ كُلَّهُ وَسِرَّهُ وَظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ لِلرَّسُولِ، فَاسْتَغْنَىٰ بِهِ عَمَّا مِنْهُ.

قَالَ: وَكَانَ هَذَا الْمُحَدَّثُ يَعْرِضُ مَا يُحَدَّثُ بِهِ عَلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، فَإِنْ وَافَقَهُ قَبِلَهُ، وَإِلَّا رَدَّهُ، فَعُلِمَ أَنَّ مَرْتَبَةَ الصِّدِّيقِيَّةِ فَوْقَ مَرْتَبَةِ التَّحْدِيثِ.

قَالَ: وَأَمَّا مَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِ الْخَيَالَاتِ وَالْجَهَالَاتِ: حَدَّثَنِي قَلْبِي عَنْ رَبِّي، فَصَحِيحٌ أَنَّ قَلْبَهُ حَدَّثَهُ، وَلَكِنْ عَمَّنْ ؟ ، عَنْ شَيْطَانِهِ، أَوْ

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٣٩٨) .

عَنْ رَبِّه ؟ فَإِذَا قَالَ: حَدَّثَنِي قَلْبِي عَنْ رَبِّي، كَانَ مُسْنَدًا الْحَدِيثَ إِلَىٰ مَنْ لَمْ يُعْلَمْ أَنَّهُ حَدَّثَهُ بِهِ، وَذَلِكَ كَذِبٌ، قَالَ: وَمُحَدَّثُ الْأُمَّةِ لَمْ يَكُنْ يَقُولُ ذَلِكَ، وَلَا تَفَوَّهَ بِهِ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ، وَقَدْ أَعَاذَهُ اللهُ مِنْ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ، بَلْ كَتَبَ كَاتِبُهُ يَوْمًا: هَذَا مَا أَرَىٰ اللهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، فَقَالَ: لَا، امْحُهُ وَاكْتُبْ: هَذَا مَا رَأَىٰ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَإِنْ كَانَ صَوَابًا فَمِنَ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَطَأً فَمِنْ عُمَرَ وَاللهُ وَرَسُولُهُ مِنْهُ بَرِيءٌ، وَقَالَ فِي الْكَلَالَةِ: أَقُولُ فِيهَا بِرَأْيِي، فَإِنْ يَكُنْ صَوَابًا فَمِنَ اللهِ، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ، فَهَذَا قَوْلُ الْمُحَدَّثِ بِشَهَادَةِ الرَّسُولِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَأَنْتَ تَرَىٰ الِاتِّحَادِيَّ وَالْحُلُولِيَّ وَالْإِبَاحِيَّ الشَّطَّاحَ، وَالسَّمَاعِيَّ مُجَاهِرًا بِالْقِحَةِ وَالْفِرْيَةِ، يَقُولُ: « حَدَّثَنِي قَلْبِي عَنْ رَبِّي ».

فَانْظُرْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ الْقَائِلَيْنِ وَالْمَرْتَبَتَيْنِ وَالْقَوْلَيْنِ وَالْحَالَيْنِ، وَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَلَا تَجْعَلِ الزَّغَلَ وَالْخَالِصَ شَيْئًا وَاحِدًا.

الإِفْهَامُ :

الْمَرْتَبَةُ الْخَامِسَةُ : مَرْتَبَةُ الْإِفْهَامِ:

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ [الأنبياء : ٧٨-٧٩] ، فَذَكَرَ هَذَيْنِ

النَّبِيَّيْنِ الْكَرِيمَيْنِ، وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِمَا بِالْعِلْمِ وَالْحُكْمِ، وَخَصَّ سُلَيْمَانَ بِالْفَهْمِ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ الْمُعَيَّنَةِ، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَقَدْ سُئِلَ «هَلْ خَصَّكُمْ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِشَيْءٍ دُونَ النَّاسِ؟» فَقَالَ: لَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِلَّا فَهْمًا يُؤْتِيهِ اللهُ عَبْدًا فِي كِتَابِهِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَكَانَ فِيهَا الْعَقْلُ، وَهُوَ الدِّيَاتُ، وَفِكَاكُ الْأَسِيرِ، وَأَنْ لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ »(١) .

وَفِي كِتَابِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِأَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- : وَالْفَهْمَ الْفَهْمَ فِيمَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ ، فَالْفَهْمُ نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ، وَنُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ فِي قَلْبِهِ، يَعْرِفُ بِهِ، وَيُدْرِكُ مَا لَا يُدْرِكُهُ غَيْرُهُ وَلَا يَعْرِفُهُ، فَيَفْهَمُ مِنَ النَّصِّ مَا لَا يَفْهَمُهُ غَيْرُهُ، مَعَ اسْتِوَائِهِمَا فِي حِفْظِهِ، وَفَهْمِ أَصْلِ مَعْنَاهُ.

فَالْفَهْمُ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ عُنْوَانُ الصِّدِّيقِيَّةِ، وَمَنْشُورُ الْوِلَايَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَفِيهِ تَفَاوَتَتْ مَرَاتِبُ الْعُلَمَاءِ، حَتَّىٰ عُدَّ أَلْفٌ بِوَاحِدٍ، فَانْظُرْ إِلَىٰ فَهْمِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَدْ سَأَلَهُ عُمَرُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَ -، وَمَنْ حَضَرَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ وَغَيْرِهِمْ عَنْ سُورَةِ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ وَمَا خُصَّ بِهِ ابْنُ عَبَّاسٍ مِنْ فَهْمِهِ مِنْهَا أَنَّهَا نَعْيُ اللهِ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ وَإِعْلَامُهُ بِحُضُورِ أَجَلِهِ، وَمُوَافَقَةِ عُمَرَ لَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَخَفَائِهِ عَنْ غَيْرِهِمَا

---

(١)(صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٠٤٧) ،وَالنَّسَائِيُّ (٤٧٤٤) وَابْن مَاجَهْ(٢٦٥٨).

مِنَ الصَّحَابَةِ وَابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَ - إِذْ ذَاكَ أَحْدَثُهُمْ سِنًّا، وَأَيْنَ تَجِدُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْإِعْلَامَ بِأَجَلِهِ، لَوْلَا الْفَهْمُ الْخَاصُّ؟، وَيَدِقُّ هَذَا حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَىٰ مَرَاتِبَ تَتَقَاصَرُ عَنْهَا أَفْهَامُ أَكْثَرِ النَّاسِ، فَيُحْتَاجُ مَعَ النَّصِّ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَلَا يَقَعُ الِاسْتِغْنَاءُ بِالنُّصُوصِ فِي حَقِّهِ، وَأَمَّا فِي حَقِّ صَاحِبِ الْفَهْمِ فَلَا يُحْتَاجُ مَعَ النُّصُوصِ إِلَىٰ غَيْرِهَا.

الْبَيَانُ الْعَامُّ:

الْمَرْتَبَةُ السَّادِسَةُ: مَرْتَبَةُ الْبَيَانِ الْعَامِّ:

وَهُوَ تَبْيِينُ الْحَقِّ وَتَمْيِيزُهُ مِنَ الْبَاطِلِ بِأَدِلَّتِهِ وَشَوَاهِدِهِ وَأَعْلَامِهِ، بِحَيْثُ يَصِيرُ مَشْهُودًا لِلْقَلْبِ، كَشُهُودِ الْعَيْنِ لِلْمَرْئِيَّاتِ.

وَهَذِهِ الْمَرْتَبَةُ هِيَ حُجَّةُ اللهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ، الَّتِي لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا وَلَا يُضِلُّهُ إِلَّا بَعْدَ وُصُولِهِ إِلَيْهَا، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾[التَّوْبَة: ١١٥]، فَهَذَا الْإِضْلَالُ عُقُوبَةٌ مِنْهُ لَهُمْ، حِينَ بَيَّنَ لَهُمْ فَلَمْ يَقْبَلُوا مَا بَيَّنَهُ لَهُمْ، وَلَمْ يَعْمَلُوا بِهِ، فَعَاقَبَهُمْ بِأَنْ أَضَلَّهُمْ عَنِ الْهُدَى، وَمَا أَضَلَّ اللهُ سُبْحَانَهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ.

وَإِذَا عَرَفْتَ هَذَا عَرَفْتَ سِرَّ الْقَدَرِ، وَزَالَتْ عَنْكَ شُكُوكٌ كَثِيرَةٌ، وَشُبُهَاتٌ فِي هَذَا الْبَابِ، وَعَلِمْتَ حِكْمَةَ اللهِ فِي إِضْلَالِهِ مَنْ يُضِلُّهُ مِنْ

عِبَاده، وَالْقُرْآنُ يُصَرِّحُ بِهَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِع، كَقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصَّفُ: ٥]، وَقَوْلِهِمْ ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البَقَرَةُ: ٨٨]، فَالأَوَّلُ: كُفْرُ عِنَاد، وَالثَّانِي: كُفْرُ طَبْع، وَقَوْلِه تَعَالَىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١١٠﴾ [الأَنْعَام:١١٠]، فَعَاقَبَهُمْ عَلَىٰ تَرْكِ الْإِيمَانِ بِهِ حِينَ تَيَقَّنُوهُ وَتَحَقَّقُوهُ، بِأَنْ قَلَّبَ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ فَلَمْ يَهْتَدُوا لَهُ.

فَتَأَمَّلْ هَذَا الْمَوْضِعَ حَقَّ التَّأَمُّلِ، فَإِنَّهُ مَوْضِعٌ عَظِيمٌ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فُصِّلَت: ١٧]، فَهَذَا هُدًىٰ بَعْدَ الْبَيَانِ وَالدِّلَالَة، وَهُوَ شَرْطٌ لَا مُوجِبٌ، فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يَقْتَرِنْ بِه هُدًىٰ آخَرُ بَعْدَهُ لَمْ يَحْصُلْ بِهِ كَمَالُ الاهْتِدَاءِ، وَهُوَ هُدَىٰ التَّوْفِيقِ وَالْإِلْهَامِ.

وَهَذَا الْبَيَانُ نَوْعَانِ: بَيَانٌ بِالْآيَاتِ الْمَسْمُوعَةِ الْمَتْلُوَّةِ، وَبَيَانٌ بِالْآيَاتِ الْمَشْهُودَةِ الْمَرْئِيَّةِ، وَكِلَاهُمَا أَدِلَّةٌ وَآيَاتٌ عَلَىٰ تَوْحِيدِ الله وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَكَمَالِهِ، وَصِدْقِ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ رُسُلُهُ عَنْهُ، وَلِهَذَا يَدْعُو عِبَادَهُ بِآيَاتِهِ الْمَتْلُوَّةِ إِلَىٰ التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِهِ الْمَشْهُودَةِ وَيَحُضُّهُمْ عَلَىٰ التَّفْكِيرِ فِي هَذِهِ وَهَذِهِ، وَهَذَا الْبَيَانُ هُوَ الَّذِي بُعِثَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَجُعِلَ إِلَيْهِمْ وَإِلَىٰ الْعُلَمَاءِ بَعْدَهُمْ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن

رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤]، فَالرُّسُلُ تُبَيِّنُ، وَاللهُ هُوَ الَّذِي يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِعِزَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ.

البَيَانُ الخَاصُّ:

المَرْتَبَةُ السَّابِعَةُ: الْبَيَانُ الْخَاصُّ:

وَهُوَ الْبَيَانُ الْمُسْتَلْزِمُ لِلْهِدَايَةِ الْخَاصَّةِ، وَهُوَ بَيَانٌ تُقَارِنُهُ الْعِنَايَةُ وَالتَّوْفِيقُ وَالاجْتِبَاءُ، وَقَطْعُ أَسْبَابِ الْخِذْلَانِ وَمَوَادِّهَا عَنِ الْقَلْبِ، فَلا تَتَخَلَّفُ عَنْهُ الْهِدَايَةُ الْبَتَّةَ، قَالَ تَعَالَىٰ فِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ: ﴿ **إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ** ﴾ [النحل: ٣٧]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ** ﴾ [القصص: ٥٦]، فَالْبَيَانُ الأَوَّلُ شَرْطٌ، وَهَذَا مُوجِبٌ.

الإِسْمَاعُ:

الْمَرْتَبَةُ الثَّامِنَةُ: **مَرْتَبَةُ الإِسْمَاعِ**:

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾** ﴾ [النحل: ٣٧]، وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ**

وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [فاطر :١٩: ٢٣] .

وَهَذَا الْإِسْمَاعُ أَخَصُّ مِنْ إِسْمَاعِ الْحُجَّةِ وَالتَّبْلِيغِ، فَإِنَّ ذَلِكَ حَاصِلٌ لَهُمْ، وَبِهِ قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، لَكِنَّ ذَاكَ إِسْمَاعُ الْآذَانِ، وَهَذَا إِسْمَاعُ الْقُلُوبِ، فَإِنَّ الْكَلَامَ لَهُ لَفْظٌ وَمَعْنًى، وَلَهُ نِسْبَةٌ إِلَىٰ الْأُذُنِ وَالْقَلْبِ وَتَعَلُّقٌ بِهِمَا، فَسَمَاعُ لَفْظِهِ حَظُّ الْأُذُنِ، وَسَمَاعُ حَقِيقَةِ مَعْنَاهُ وَمَقْصُودِهِ حَظُّ الْقَلْبِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ نَفَىٰ عَنِ الْكُفَّارِ سَمَاعَ الْمَقْصُودِ وَالْمُرَادِ الَّذِي هُوَ حَظُّ الْقَلْبِ، وَأَثْبَتَ لَهُمْ سَمَاعَ الْأَلْفَاظِ الَّذِي هُوَ حَظُّ الْأُذُنِ فِي قَوْلِهِ ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ ﴾ [الأَنْبِيَاءُ : ٢-٣] .

وَهَذَا السَّمَاعُ لَا يُفِيدُ السَّامِعَ إِلَّا قِيَامَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، أَوْ تَمَكُّنُهُ مِنْهَا، وَأَمَّا مَقْصُودُ السَّمَاعِ وَثَمَرَتُهُ، وَالْمَطْلُوبُ مِنْهُ فَلَا يَحْصُلُ مَعَ لَهْوِ الْقَلْبِ وَغَفْلَتِهِ وَإِعْرَاضِهِ، بَلْ يَخْرُجُ السَّامِعُ قَائِلًا لِلْحَاضِرِ مَعَهُ ﴿ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [مُحَمَّد : ١٣] .

وَالْفَرْقُ بَيْنَ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ وَمَرْتَبَةِ الْإِفْهَامِ ، أَنَّ هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِوَاسِطَةِ الْأُذُنِ، وَمَرْتَبَةُ الْإِفْهَامِ أَعَمُّ، فَهِيَ أَخَصُّ مِنْ مَرْتَبَةِ الْفَهْمِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَمَرْتَبَةُ الْفَهْمِ أَخَصُّ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، وَهِيَ أَنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِالْمَعْنَىٰ

الْمُرَادِ وَلَوَازِمِهِ وَمُتَعَلَّقَاتِهِ وَإِشَارَاتِهِ، وَمَرْتَبَةُ السَّمَاعِ مَدَارُهَا عَلَىٰ إِيصَالِ الْمَقْصُودِ بِالْخِطَابِ إِلَىٰ الْقَلْبِ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَىٰ هَذَا السَّمَاعِ سَمَاعُ الْقَبُولِ.

فَهُوَ إِذَنْ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ: سَمَاعُ الْأُذُنِ، وَسَمَاعُ الْقَلْبِ، وَسَمَاعُ الْقَبُولِ وَالْإِجَابَةِ.

الْإِلْهَامُ:

الْمَرْتَبَةُ التَّاسِعَةُ: مَرْتَبَةُ الْإِلْهَامِ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾** ﴾ [الشَّمْسُ: ٧-٨]، وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِحُصَيْنِ بْنِ مُنْذِرٍ الْخُزَاعِيِّ لَمَّا أَسْلَمَ قُلِ: «**اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَقِنِي شَرَّ نَفْسِي**»[١].

وَقَدْ جَعَلَ صَاحِبُ الْمَنَازِلِ الْإِلْهَامَ هُوَ مَقَامُ الْمُحَدَّثِينَ، قَالَ: وَهُوَ فَوْقَ مَقَامِ الْفِرَاسَةِ، لِأَنَّ الْفِرَاسَةَ رُبَّمَا وَقَعَتْ نَادِرَةً، وَاسْتُصْعِبَتْ عَلَىٰ صَاحِبِهَا وَقْتًا، أَوِ اسْتَعْصَتْ عَلَيْهِ، وَالْإِلْهَامُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي مَقَامٍ عَتِيدٍ.

قُلْتُ: التَّحْدِيثُ أَخَصُّ مِنَ الْإِلْهَامِ، فَإِنَّ الْإِلْهَامَ عَامٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ بِحَسَبِ إِيمَانِهِمْ فَكُلُّ مُؤْمِنٍ فَقَدْ أَلْهَمَهُ اللهُ رُشْدَهُ الَّذِي حَصَلَ لَهُ بِهِ الْإِيمَانُ، فَأَمَّا التَّحْدِيثُ فَالنَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ فِيهِ: «**إِنْ يَكُنْ فِي هَذِهِ**

---

(١) (ضَعِيفٌ): ضَعَّفَهُ الْأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «ضَعِيفِ الْجَامِعِ» (٤٠٩٨)، وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ (٣٤٠٥).

الأُمَّةِ أَحَدٌ فَعُمَرُ »[١]، يَعْنِي مِنَ الْمُحَدَّثِينَ، فَالتَّحْدِيثُ إِلْهَامٌ خَاصٌّ، وَهُوَ الْوَحْيُ إِلَىٰ غَيْرِ الأَنْبِيَاءِ إِمَّا مِنَ الْمُكَلَّفِينَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ** ﴾ [القصص: ٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿ **وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا** ﴾ [المائدة: ١١١]، وَإِمَّا مِنْ غَيْرِ الْمُكَلَّفِينَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ ﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾** ﴾ [النحل: ٦٨]، فَهَذَا كُلُّهُ وَحْيُ إِلْهَامٍ.

الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ:

الْمَرْتَبَةُ الْعَاشِرَةُ مِنْ مَرَاتِبِ الْهِدَايَةِ: الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ:

وَهِيَ مِنْ أَجْزَاءِ النُّبُوَّةِ كَمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: « **الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ** »[٢].

وَقَدْ قِيلَ فِي سَبَبِ هَذَا التَّخْصِيصِ الْمَذْكُورِ: إِنَّ أَوَّلَ مُبْتَدَأِ الْوَحْيِ كَانَ هُوَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ، وَذَلِكَ نِصْفُ سَنَةٍ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَىٰ وَحْيِ الْيَقَظَةِ مُدَّةَ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً، مِنْ حِينِ بُعِثَ إِلَىٰ أَنْ تُوُفِّيَ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، فَنِسْبَةُ مُدَّةِ الْوَحْيِ فِي الْمَنَامِ مِنْ ذَلِكَ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا، وَهَذَا حَسَنٌ، لَوْلَا مَا جَاءَ فِي الرِّوَايَةِ الأُخْرَىٰ الصَّحِيحَةِ « **إِنَّهَا جُزْءٌ مِنْ**

(١)(صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٣٩٨).
(٢)(صَحِيحٌ) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٩٨٣)، (٦٩٨٩)، وَمُسْلِمٌ (٢٢٦٣).

سَبْعِينَ جُزْءًا »[1] .

وَقَدْ قِيلَ فِي الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا: إِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ حَالِ الرَّائِي، فَإِنَّ رُؤْيَا الصِّدِّيقِيْنَ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ ، وَرُؤْيَا عُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقَةَ مِنْ سَبْعِينَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَالرُّؤْيَا مَبْدَأُ الْوَحْيِ، وَصِدْقُهَا بِحَسَبِ صِدْقِ الرَّائِي، وَأَصْدَقُ النَّاسِ رُؤْيَا أَصْدَقُهُمْ حَدِيثًا، وَهِيَ عِنْدَ اقْتِرَابِ الزَّمَانِ لَا تَكَادُ تُخْطِئُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَذَلِكَ لِبُعْدِ الْعَهْدِ بِالنُّبُوَّةِ وَآثَارِهَا، فَيَتَعَوَّضُ الْمُؤْمِنُونَ بِالرُّؤْيَا، وَأَمَّا فِي زَمَنِ قُوَّةِ نُورِ النُّبُوَّةِ فَفِي ظُهُورِ نُورِهَا وَقُوَّتِهِ مَا يُغْنِي عَنِ الرُّؤْيَا.

فِي حَقِيْقَةِ إِصَابَةِ الْعَبْدِ :

وَأَمَّا شَهَادَةُ قَوَاعِدِ الطِّبِّ بِذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّدْغَةَ تَكُونُ مِنْ ذَوَاتِ الْحُمَاتِ وَالسُّمُومِ ، وَهِيَ ذَوَاتُ الْأَنْفُسِ الْخَبِيثَةِ الَّتِي تَتَكَيَّفُ بِكَيْفِيَّةٍ غَضَبِيَّةٍ ، تُثِيرُ فِيهَا سُمِيَّةً نَارِيَّةً ، يَحْصُلُ بِهَا اللَّدْغُ ، وَهِيَ مُتَفَاوِتَةٌ بِحَسَبِ تَفَاوُتِ خُبْثِ تِلْكَ النُّفُوسِ وَقُوَّتِهَا وَكَيْفِيَّتِهَا ، فَإِذَا تَكَيَّفَتْ أَنْفُسُهَا الْخَبِيثَةُ بِتِلْكَ الْكَيْفِيَّةِ الْغَضَبِيَّةِ أَحْدَثَ لَهَا ذَلِكَ طَبِيعَةً سُمِّيَّةً ، تَجِدُ رَاحَةً وَلَذَّةً فِي إِلْقَائِهَا إِلَى الْمَحَلِّ الْقَابِلِ ، كَمَا يَجِدُ الشِّرِّيرُ مِنَ النَّاسِ رَاحَةً وَلَذَّةً فِي إِيصَالِ شَرِّهِ إِلَى مَنْ يُوَصِّلُهُ إِلَيْهِ ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَا يَهْنَأُ لَهُ عَيْشٌ فِي

(١)(صَحِيْحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٩٨٣) ، (٦٩٨٩) ، وَمُسْلِمٌ (٢٢٦٣) .

يَوْم لَا يُؤْذِي فِيه أَحَدًا مِنْ بَنِي جِنْسِه ، وَيَجِدُ فِي نَفْسِه تَأَذِّيًا بِحَمْلِ تِلْكَ السُّمِّيَّةِ وَالشَّرِّ الَّذِي فِيهِ ، حَتَّىٰ يُفَرِّغَهُ فِي غَيْرِهِ ، فَيَبْرُدَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنِينُهُ، وَتَسْكُنَ نَفْسُهُ ، وَيُصِيبُهُ فِي ذَلِكَ نَظِيرُ مَا يُصِيبُ مَن اشْتَدَّتْ شَهْوَتُهُ إِلَىٰ الْجِمَاعِ ، فَيَسُوءُ خُلُقُهُ ، وَتَثْقُلُ نَفْسُهُ حَتَّىٰ يَقْضِيَ وَطَرَهُ ، هَذَا فِي قُوَّةِ الشَّهْوَةِ ، وَذَاكَ فِي قُوَّةِ الْغَضَبِ .

وَقَدْ أَقَامَ اللهُ تَعَالَىٰ بِحِكْمَتِه السُّلْطَانَ وَازِعًا لِهَذِه النُّفُوسِ الْغَضَبِيَّةِ، فَلَوْلَا هُوَ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَخَرِبَتْ ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البَقَرَة: ٢٥١] ، وَأَبَاحَ اللهُ بِلُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ لِهَذِهِ النُّفُوسِ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَمِلْكِ الْيَمِينِ مَا يَكْسِرُ حِدَّتَهَا.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَذِهِ النُّفُوسَ الْغَضَبِيَّةَ إِذَا اتَّصَلَتْ بِالْمَحَلِّ الْقَابِلِ أَثَّرَتْ فِيهِ ، وَمِنْهَا مَا يُؤَثِّرُ فِي الْمَحَلِّ بِمُجَرَّدِ مُقَابَلَتِهِ لَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَمَسَّهُ ، فَمِنْهَا مَا يَطْمِسُ الْبَصَرَ ، وَيُسْقِطُ الْحَبَلَ .

وَمِنْ هَذَا نَظَرُ الْعَائِنِ ، فَإِنَّهُ إِذَا وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَىٰ الْمَعِينِ حَدَثَتْ فِي نَفْسِهِ كَيْفِيَّةٌ سُمِّيَّةٌ أَثَّرَتْ فِي الْمَعِينِ بِحَسَبِ عَدَمِ اسْتِعْدَادِهِ ، وَكَوْنِهِ أَعْزَلَ مِنَ السِّلَاحِ ، وَبِحَسَبِ قُوَّةِ تِلْكَ النَّفْسِ ، وَكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ النُّفُوسِ يُؤَثِّرُ فِي الْمَعِينِ إِذَا وُصِفَ لَهُ ، فَتَتَكَيَّفُ نَفْسُهُ وَتُقَابِلُهُ عَلَىٰ الْبُعْدِ فَيَتَأَثَّرُ بِهِ،

وَمُنْكرُ هَذَا لَيْسَ مَعْدُودًا منْ بَنِي آدَمَ إِلَّا بِالصُّورَةِ وَالشَّكْلِ ، فَإِذَا قَابَلَتِ النَّفْسُ الزَّكِيَّةُ الْعَلَوِيَّةُ الشَّرِيفَةُ الَّتِي فِيهَا غَضَبٌ وَحَمِيَّةٌ لِلْحَقِّ هَذِهِ النُّفُوسَ الْخَبِيثَةَ السُّمِّيَّةَ ، وَتَكَيَّفَتْ بِحَقَائِقِ الْفَاتِحَةِ وَأَسْرَارِهَا وَمَعَانِيهَا، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالتَّوَكُّلِ ، وَالثَّنَاءِ عَلَىٰ اللهِ ، وَذِكْرِ أُصُولِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ ، وَذِكْرِ اسْمِهِ الَّذِي مَا ذُكِرَ عَلَىٰ شَرٍّ إِلَّا أَزَالَهُ وَمَحَقَهُ ، وَلَا عَلَىٰ خَيْرٍ إِلَّا نَمَّاهُ وَزَادَهُ ، دَفَعَتْ هَذِهِ النَّفْسُ بِمَا تَكَيَّفَتْ بِهِ مِنْ ذَلِكَ أَثَرَ تِلْكَ النَّفْسِ الْخَبِيثَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ ، فَحَصَلَ الْبُرْءُ ، فَإِنَّ مَبْنَىٰ الشِّفَاءِ وَالْبُرْءِ عَلَىٰ دَفْعِ الضِّدِّ بِضِدِّهِ ، وَحِفْظِ الشَّيْءِ بِمِثْلِهِ ، فَالصِّحَّةُ تُحْفَظُ بِالْمِثْلِ ، وَالْمَرَضُ يُدْفَعُ بِالضِّدِّ ، أَسْبَابٌ رَبَطَهَا بِمُسَبِّبَاتِهَا الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ خَلْقًا وَأَمْرًا ، وَلَا يَتِمُّ هَذَا إِلَّا بِقُوَّةٍ مِنَ النَّفْسِ الْفَاعِلَةِ ، وَقَبُولٍ مِنَ الطَّبِيعَةِ الْمُنْفَعِلَةِ ، فَلَوْ لَمْ تَنْفَعِلْ نَفْسُ الْمَلْدُوغِ لِقَبُولِ الرُّقْيَةِ ، وَلَمْ تَقْوَ نَفْسُ الرَّاقِي عَلَىٰ التَّأْثِيرِ ، لَمْ يَحْصُلِ الْبُرْءُ .

فَهُنَا أُمُورٌ ثَلَاثَةٌ : مُوَافَقَةُ الدَّوَاءِ لِلدَّاءِ ، وَبَذْلُ الطَّبِيبِ لَهُ ، وَقَبُولُ طَبِيعَةِ الْعَلِيلِ ، فَمَتَىٰ تَخَلَّفَ وَاحِدٌ مِنْهَا لَمْ يَحْصُلِ الشِّفَاءُ ، وَإِذَا اجْتَمَعَتْ حَصَلَ الشِّفَاءُ وَلَا بُدَّ بِإِذْنِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ .

وَمَنْ عَرَفَ هَذَا كَمَا يَنْبَغِي تَبَيَّنَ لَهُ أَسْرَارُ الرُّقَىٰ ، وَمَيَّزَ بَيْنَ النَّافِعِ مِنْهَا وَغَيْرِهِ ، وَرَقَىٰ الدَّاءَ بِمَا يُنَاسِبُهُ مِنَ الرُّقَىٰ ، وَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ الرُّقْيَةَ بِرَاقِيهَا

وَقَبُولِ الْمَحَلِّ ، كَمَا أَنَّ السَّيْفَ بِضَارِبِهِ مَعَ قَبُولِ الْمَحَلِّ لِلْقَطْعِ ، وَهَذِهِ إِشَارَةٌ مُطْلِعَةٌ عَلَىٰ مَا وَرَاءَهَا لِمَنْ دَقَّ نَظَرُهُ ، وَحَسُنَ تَأَمُّلُهُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَأَمَّا شَهَادَةُ التَّجَارِبِ بِذَلِكَ فَهِيَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ ، وَذَلِكَ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَقَدْ جَرَّبْتُ أَنَا مِنْ ذَلِكَ فِي نَفْسِي وَفِي غَيْرِي أُمُورًا عَجِيبَةً ، وَلَا سِيَّمَا مُدَّةَ الْمُقَامِ بِمَكَّةَ ، فَإِنَّهُ كَانَ يَعْرِضُ لِي آلَامٌ مُزْعِجَةٌ ، بِحَيْثُ تَكَادُ تَقْطَعُ الْحَرَكَةَ مِنِّي ، وَذَلِكَ فِي أَثْنَاءِ الطَّوَافِ وَغَيْرِهِ ، فَأُبَادِرُ إِلَىٰ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ ، وَأَمْسَحُ بِهَا عَلَىٰ مَحَلِّ الْأَلَمِ فَكَأَنَّهُ حَصَاةٌ تَسْقُطُ ، جَرَّبْتُ ذَلِكَ مِرَارًا عَدِيدَةً ، وَكُنْتُ آخُذُ قَدَحًا مِنْ مَاءِ زَمْزَمٍ فَأَقْرَأُ عَلَيْهِ الْفَاتِحَةَ مِرَارًا، فَأَشْرَبُهُ فَأَجِدُ بِهِ مِنَ النَّفْعِ وَالْقُوَّةِ مَا لَمْ أَعْهَدْ مِثْلَهُ فِي الدَّوَاءِ ، وَالْأَمْرُ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ بِحَسَبِ قُوَّةِ الْإِيمَانِ ، وَصِحَّةِ الْيَقِينِ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ .

فِي اشْتِمَالِ الْفَاتِحَةِ عَلَى الرَّدِّ عَلَى جَمِيعِ الْمُبْطِلِينَ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ :

وَهَذَا يُعْلَمُ بِطَرِيقَيْنِ ، مُجْمَلٍ وَمُفَصَّلٍ :

أَمَّا الْمُجْمَلُ : فَهُوَ أَنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ مُتَضَمِّنٌ مَعْرِفَةَ الْحَقِّ، وَإِيثَارَهُ، وَتَقْدِيمَهُ عَلَىٰ غَيْرِهِ، وَمَحَبَّتَهُ وَالِانْقِيَادَ لَهُ، وَالدَّعْوَةَ إِلَيْهِ، وَجِهَادَ أَعْدَائِهِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ.

وَالْحَقُّ: هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَصْحَابُهُ، وَمَا جَاءَ بِهِ عِلْمًا وَعَمَلًا فِي بَابِ صِفَاتِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ، وَأَسْمَائِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، وَفِي حَقَائِقِ الْإِيمَانِ، الَّتِي هِيَ مَنَازِلُ السَّائِرِينَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَى، وَكُلُّ ذَلِكَ مُسَلَّمٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، دُونَ آرَاءِ الرِّجَالِ وَأَوْضَاعِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ وَاصْطِلَاحَاتِهِمْ.

فَكُلُّ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ أَوْ حَقِيقَةٍ، أَوْ حَالٍ أَوْ مَقَامٍ خَرَجَ مِنْ مِشْكَاةِ نُبُوَّتِهِ، وَعَلَيْهِ السِّكَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ، بِحَيْثُ يَكُونُ مِنْ ضَرْبِ الْمَدِينَةِ، فَهُوَ مِنَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَمَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَهُوَ مِنْ صِرَاطِ أَهْلِ الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ، فَمَا ثَمَّ خُرُوجٌ عَنْ هَذِهِ الطُّرُقِ الثَّلَاثِ: طَرِيقِ الرَّسُولِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَمَا جَاءَ بِهِ، وَطَرِيقِ أَهْلِ الْغَضَبِ، وَهِيَ طَرِيقُ مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ وَعَانَدَهُ، وَطَرِيقِ أَهْلِ الضَّلَالِ وَهِيَ طَرِيقُ مَنْ أَضَلَّهُ اللهُ عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ-: « الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ: هُوَ الْإِسْلَامُ » .

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: «هُوَ الْقُرْآنُ » ، وَفِيهِ حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ فِي التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ ، وَقَالَ سَهْلُ ابْنُ عَبْدِ اللهِ: « طَرِيقُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ»، وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْمُزَنِيُّ: «طَرِيقُ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -».

وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَصْحَابُهُ عِلْمًا وَعَمَلًا وَهُوَ مَعْرِفَةُ الْحَقِّ وَتَقْدِيمُهُ، وَإِيثَارُهُ عَلَىٰ غَيْرِهِ، فَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ.

وَكُلُّ هَذِهِ الأَقْوَالِ الْمُتَقَدِّمَةِ دَالَّةٌ عَلَيْهِ جَامِعَةٌ لَهُ.

فَبِهَذَا الطَّرِيقِ الْمُجْمَلِ يُعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا خَالَفَهُ فَبَاطِلٌ، وَهُوَ مِنْ صِرَاطِ الْأُمَّتَيْنِ: الأُمَّةِ الْغَضَبِيَّةِ، وَأُمَّةِ أَهْلِ الضَّلَالِ.

إِثْبَاتُ الرُّبُوبِيَّةِ :

وَأَمَّا الْمُفَصَّلُ: فَبِمَعْرِفَةِ الْمَذَاهِبِ الْبَاطِلَةِ، وَاشْتِمَالِ كَلِمَاتِ الْفَاتِحَةِ عَلَىٰ إِبْطَالِهَا، فَنَقُولُ:

النَّاسُ قِسْمَانِ: مُقِرٌّ بِالْحَقِّ تَعَالَى، وَجَاحِدٌ لَهُ، فَتَضَمَّنَتِ الْفَاتِحَةُ إِثْبَاتَ الْخَالِقِ تَعَالَى، وَالرَّدَّ عَلَىٰ مَنْ جَحَدَهُ، بِإِثْبَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ تَعَالَىٰ لِلْعَالَمِينَ.

وَتَأَمَّلْ حَالَ الْعَالَمِ كُلِّهِ، عُلْوِيِّهِ وَسُفْلِيِّهِ، بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ: تَجِدُهُ شَاهِدًا بِإِثْبَاتِ صَانِعِهِ وَفَاطِرِهِ وَمَلِيكِهِ، فَإِنْكَارُ صَانِعِهِ وَجَحْدُهُ فِي الْعُقُولِ وَالْفِطَرِ بِمَنْزِلَةِ إِنْكَارِ الْعِلْمِ وَجَحْدِهِ، لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا، بَلْ دَلَالَةُ الْخَالِقِ عَلَىٰ الْمَخْلُوقِ، وَالْفَعَّالِ عَلَىٰ الْفِعْلِ، وَالصَّانِعِ عَلَىٰ أَحْوَالِ الْمَصْنُوعِ عِنْدَ الْعُقُولِ الزَّكِيَّةِ الْمُشْرِقَةِ الْعُلْوِيَّةِ، وَالْفِطَرِ الصَّحِيحَةِ أَظْهَرُ مِنَ الْعَكْسِ.

فَالْعَارِفُونَ أَرْبَابُ الْبَصَائِرِ يَسْتَدِلُّونَ بِاللهِ عَلَىٰ أَفْعَالِهِ وَصُنْعِهِ، إِذَا

اسْتَدَلَّ النَّاسُ بِصُنْعِهِ وَأَفْعَالِهِ عَلَيْهِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّهُمَا طَرِيقَانِ صَحِيحَانِ، كُلٌّ مِنْهُمَا حَقٌّ، وَالْقُرْآنُ مُشْتَمِلٌ عَلَيْهِمَا.

فَأَمَّا الاسْتِدْلَالُ بِالصَّنْعَةِ فَكَثِيرٌ، وَأَمَّا الاسْتِدْلَالُ بِالصَّانِعِ فَلَهُ شَأْنٌ، وَهُوَ الَّذِي أَشَارَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ بِقَوْلِهِمْ لِأُمَمِهِمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ أَيْ أَيُشَكُّ فِي اللهِ حَتَّىٰ يُطْلَبَ إِقَامَةُ الدَّلِيلِ عَلَىٰ وُجُودِهِ ؟ ، وَأَيُّ دَلِيلٍ أَصَحُّ وَأَظْهَرُ مِنْ هَذَا الْمَدْلُولِ ؟ ، فَكَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَىٰ الْأَظْهَرِ بِالْأَخْفَىٰ ؟، ثُمَّ نَبَّهُوا عَلَىٰ الدَّلِيلِ بِقَوْلِهِمْ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ تَقِيَّ الدِّينِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ -قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ- يَقُولُ: كَيْفَ يُطْلَبُ الدَّلِيلُ عَلَىٰ مَنْ هُوَ دَلِيلٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ؟ ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَتَمَثَّلُ بِهَذَا الْبَيْتِ:

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الْأَذْهَانِ شَيْءٌ ... إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَىٰ دَلِيلٍ

وَمَعْلُومٌ أَنَّ وُجُودَ الرَّبِّ تَعَالَىٰ أَظْهَرُ لِلْعُقُولِ وَالْفِطَرِ مِنْ وُجُودِ النَّهَارِ، وَمَنْ لَمْ يَرَ ذَلِكَ فِي عَقْلِهِ وَفِطْرَتِهِ فَلْيَتَّهِمْهُمَا.

وَإِذَا بَطَلَ قَوْلُ هَؤُلَاءِ بَطَلَ قَوْلُ أَهْلِ الْإِلْحَادِ، الْقَائِلِينَ بِوَحْدَةِ الْوُجُودِ، وَأَنَّهُ مَا ثَمَّ وُجُودٌ قَدِيمٌ خَالِقٌ وَوُجُودٌ حَادِثٌ مَخْلُوقٌ، بَلْ وُجُودُ هَذَا الْعَالَمِ هُوَ عَيْنُ وُجُودِ اللهِ، وَهُوَ حَقِيقَةُ وُجُودِ هَذَا الْعَالَمِ،

فَلَيْسَ عِنْدَ الْقَوْمِ رَبٌّ وَعَبْدٌ، وَلَا مَالِكٌ وَمَمْلُوكٌ، وَلَا رَاحِمٌ وَمَرْحُومٌ، وَلَا عَابِدٌ وَمَعْبُودٌ، وَلَا مُسْتَعِينٌ وَمُسْتَعَانٌ بِهِ، وَلَا هَادٍ وَلَا مَهْدِيٌّ، وَلَا مُنْعِمٌ وَلَا مُنْعَمٌ عَلَيْهِ، وَلَا غَضْبَانُ وَمَغْضُوبٌ عَلَيْهِ، بَلِ الرَّبُّ هُوَ نَفْسُ الْعَبْدِ وَحَقِيقَتُهُ، وَالْمَالِكُ هُوَ عَيْنُ الْمَمْلُوكِ، وَالرَّاحِمُ هُوَ عَيْنُ الْمَرْحُومِ، وَالْعَابِدُ هُوَ نَفْسُ الْمَعْبُودِ، وَإِنَّمَا التَّغَايُرُ أَمْرٌ اعْتِبَارِيٌّ بِحَسَبِ مَظَاهِرِ الذَّاتِ وَتَجَلِّيَّاتِهَا، فَتَظْهَرُ تَارَةً فِي صُورَةِ مَعْبُودٍ، كَمَا ظَهَرَتْ فِي صُورَةِ فِرْعَوْنَ، وَفِي صُورَةِ عَبْدٍ، كَمَا ظَهَرَتْ فِي صُورَةِ الْعَبِيدِ، وَفِي صُورَةِ هَادٍ، كَمَا فِي صُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَالْعُلَمَاءِ، وَالْكُلُّ مِنْ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ هُوَ الْعَيْنُ الْوَاحِدَةُ، فَحَقِيقَةُ الْعَابِدِ وَوُجُودُهُ أَوْ أَنِّيَّتُهُ: هِيَ حَقِيقَةُ الْمَعْبُودِ وَوُجُودُهُ وأَنِّيَّتُهُ.

وَالْفَاتِحَةُ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَىٰ آخِرِهَا تُبَيِّنُ بُطْلَانَ قَوْلِ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةِ وَضَلَالَهُمْ.

فِي بَيَانِ تَضَمُّنِهَا الرَّدَّ عَلَى الرَّافِضَةِ :

وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ إِلَىٰ آخِرِهَا.

وَوَجْهُ تَضَمُّنِهِ إِبْطَالَ قَوْلِهِمْ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَسَّمَ النَّاسَ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: «**مُنْعَمٌ عَلَيْهِمْ**» وَهُمْ أَهْلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَاتَّبَعُوهُ، «**وَمَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ**» وَهُمُ الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَرَفَضُوهُ، «**وَضَالُّونَ**»

وَهُمُ الَّذِينَ جَهِلُوهُ فَأَخْطَئُوهُ.

فَكُلُّ مَنْ كَانَ أَعْرَفَ لِلْحَقِّ، وَأَتْبَعَ لَهُ كَانَ أَوْلَىٰ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَرَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَٰذِهِ الصِّفَةِ مِنَ الرَّوَافِضِ، فَإِنَّهُ مِنَ الْمُحَالِ أَنْ يَكُونَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَرَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ جَهِلُوا الْحَقَّ وَعَرَفَهُ الرَّوَافِضُ، أَوْ رَفَضُوهُ وَتَمَسَّكَ بِهِ الرَّوَافِضُ.

ثُمَّ إِنَّا رَأَيْنَا آثَارَ الْفَرِيقَيْنِ تَدُلُّ عَلَىٰ أَهْلِ الْحَقِّ مِنْهُمَا، فَرَأَيْنَا أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَتَحُوا بِلَادَ الْكُفْرِ، وَقَلَبُوهَا بِلَادَ إِسْلَامٍ، وَفَتَحُوا الْقُلُوبَ بِالْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ وَالْهُدَى، فَآثَارُهُمْ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ هُمْ أَهْلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَرَأَيْنَا الرَّافِضَةَ بِالْعَكْسِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، فَإِنَّهُ قَطُّ مَا قَامَ لِلْمُسْلِمِينَ عَدُوٌّ مِنْ غَيْرِهِمْ إِلَّا كَانُوا أَعْوَانَهُمْ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ، وَكَمْ جَرُّوا عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مِنْ بَلِيَّةٍ ؟ ، وَهَلْ عَاثَتْ سُيُوفُ الْمُشْرِكِينَ عُبَّادِ الْأَصْنَامِ مِنْ عَسْكَرِ هُولَاكُو وَذَوِيهِ مِنَ التَّتَارِ إِلَّا مِنْ تَحْتِ رُءُوسِهِمْ ؟، وَهَلْ عُطِّلَتِ الْمَسَاجِدُ، وَحُرِّقَتِ الْمَصَاحِفُ، وَقُتِلَ سَرَوَاتُ الْمُسْلِمِينَ وَعُلَمَاؤُهُمْ وَعُبَّادُهُمْ وَخَلِيفَتُهُمْ، إِلَّا بِسَبَبِهِمْ وَمِنْ جَرَّائِهِمْ ؟، وَمُظَاهَرَتُهُمْ لِلْمُشْرِكِينَ وَالنَّصَارَىٰ مَعْلُومَةٌ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَآثَارُهُمْ فِي الدِّينِ مَعْلُومَةٌ.

فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؟ ، وَأَيُّهُمْ أَحَقُّ بِالْغَضَبِ وَالضَّلَالِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ .

وَلِهَذَا فَسَّرَ السَّلَفُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وَأَهْلَهُ: بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَرَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وَهُوَ كَمَا فَسَّرُوهُ، فَإِنَّهُ صِرَاطُهُمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ، وَهُوَ عَيْنُ صِرَاطِ نَبِيِّهِمْ، وَهُمُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَغَضِبَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَحَكَمَ لِأَعْدَائِهِمْ بِالضَّلَالِ .

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ رَفِيعٌ الرِّيَاحِيُّ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَهُمَا مِنْ أَجَلِّ التَّابِعِينَ : « ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ : رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَصَاحِبَاهُ » ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ : « هُمْ آلُ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ » ، وَهَذَا حَقٌّ، فَإِنَّ آلَهُ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ عَلَى طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ، وَمُوَالَاةُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَثَنَاؤُهُمْ عَلَيْهِمَا، وَمُحَارَبَةُ مَنْ حَارَبَا، وَمُسَالَمَةُ مَنْ سَالَمَا مَعْلُومَةٌ عِنْدَ الْأُمَّةِ خَاصِّهَا وَعَامِّهَا، وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ هُمْ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُنْعَمَ عَلَيْهِمْ هُمْ أَتْبَاعُهُ، وَالْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ هُمْ

الْخَارِجُونَ عَنِ اتِّبَاعِهِ، وَأَتْبَعُ الْأُمَّةِ لَهُ وَأَطْوَعُهُمْ أَصْحَابُهُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ، وَأَتْبَعُ الصَّحَابَةِ لَهُ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ، أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَأَشَدُّ الْأُمَّةِ مُخَالَفَةً لَهُ هُمُ الرَّافِضَةُ، فَخِلَافُهُمْ لَهُ مَعْلُومٌ عِنْدَ جَمِيعِ فِرَقِ الْأُمَّةِ، وَلِهَذَا يُبْغِضُونَ السُّنَّةَ وَأَهْلَهَا، وَيُعَادُونَهَا وَيُعَادُونَ أَهْلَهَا، فَهُمْ أَعْدَاءُ سُنَّتِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَأَتْبَاعُهُ مِنْ بَنِيهِمْ أَكْمَلُ مِيرَاثًا ؟، بَلْ هُمْ وَرَثَتُهُ حَقًّا.

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ طَرِيقُ أَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَطَرِيقُ أَهْلِ الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ طَرِيقُ الرَّافِضَةِ.

وَبِهَذِهِ الطَّرِيقِ بِعَيْنِهَا يُرَدُّ عَلَى الْخَوَارِجِ، فَإِنَّ مُعَادَاتَهُمُ الصَّحَابَةَ مَعْرُوفَةٌ.

أَنْقِسَامُ النَّاسِ فِي الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ:

إِذَا عَرَفْتَ هَذَا، فَالنَّاسُ فِي هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ وَهُمَا الْعِبَادَةُ وَالِاسْتِعَانَةُ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ:

أَجَلُّهَا وَأَفْضَلُهَا: أَهْلُ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ عَلَيْهَا، فَعِبَادَةُ اللهِ غَايَةُ مُرَادِهِمْ، وَطَلَبُهُمْ مِنْهُ أَنْ يُعِينَهُمْ عَلَيْهَا، وَيُوَفِّقَهُمْ لِلْقِيَامِ بِهَا، وَلِهَذَا كَانَ مِنْ أَفْضَلِ مَا يُسْأَلُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْإِعَانَةُ عَلَى مَرْضَاتِهِ، وَهُوَ الَّذِي عَلَّمَهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِحِبِّهِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ

اللهُ عَنْهُ، فَقَالَ « يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، فَلَا تَنْسَ أَنْ تَقُولَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ: اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَىٰ ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ »[(١)] .

فَأَنْفَعُ الدُّعَاءِ طَلَبُ الْعَوْنِ عَلَىٰ مَرْضَاتِهِ، وَأَفْضَلُ الْمَوَاهِبِ إِسْعَافُهُ بِهَذَا الْمَطْلُوبِ، وَجَمِيعُ الْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ مَدَارُهَا عَلَىٰ هَذَا، وَعَلَىٰ دَفْعِ مَا يُضَادُّهُ، وَعَلَىٰ تَكْمِيلِهِ وَتَيْسِيرِ أَسْبَابِهِ، فَتَأَمَّلْهَا.

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ -: تَأَمَّلْتُ أَنْفَعَ الدُّعَاءِ فَإِذَا هُوَ سُؤَالُ الْعَوْنِ عَلَىٰ مَرْضَاتِهِ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ فِي الْفَاتِحَةِ فِي ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾.

وَمُقَابِلُ هَؤُلَاءِ الْقِسْمُ الثَّانِي، وَهُمُ الْمُعْرِضُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ، فَلَا عِبَادَةَ وَلَا اسْتِعَانَةَ، بَلْ إِنْ سَأَلَهُ أَحَدُهُمْ وَاسْتَعَانَ بِهِ فَعَلَىٰ حُظُوظِهِ وَشَهَوَاتِهِ، لَا عَلَىٰ مَرْضَاةِ رَبِّهِ وَحُقُوقِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَسْأَلُهُ أَوْلِيَاؤُهُ وَأَعْدَاؤُهُ وَيَمُدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، وَأَبْغَضُ خَلْقِهِ عَدُوُّهُ إِبْلِيسُ وَمَعَ هَذَا فَقَدْ سَأَلَهُ حَاجَةً فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا، وَمَتَّعَهُ بِهَا، وَلَكِنْ لَمَّا لَمْ تَكُنْ عَوْنًا لَهُ عَلَىٰ مَرْضَاتِهِ، كَانَتْ زِيَادَةً لَهُ فِي شِقْوَتِهِ، وَبُعْدِهِ عَنِ اللهِ وَطَرْدِهِ عَنْهُ، وَهَكَذَا كُلُّ مَنِ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَىٰ أَمْرٍ وَسَأَلَهُ إِيَّاهُ، وَلَمْ يَكُنْ عَوْنًا عَلَىٰ طَاعَتِهِ كَانَ مُبْعِدًا لَهُ عَنْ مَرْضَاتِهِ، قَاطِعًا

---

(١) (صَحِيحٌ) : صَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيحِ الجَامِعِ» (٧٩١٩)، وَرَوَاهُ النَّسَائِي (١٣٠٣)، وَأَبُو دَاوُد (١٥٢٢) .

لَهُ عَنْهُ وَلَا بُدَّ.

وَلْيَتَأَمَّلِ الْعَاقِلُ هَذَا فِي نَفْسِهِ وَفِي غَيْرِهِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ إِجَابَةَ اللهِ لِسَائِلِيهِ لَيْسَتْ لِكَرَامَةِ السَّائِلِ عَلَيْهِ، بَلْ يَسْأَلُهُ عَبْدُهُ الْحَاجَةَ فَيَقْضِيهَا لَهُ، وَفِيهَا هَلَاكُهُ وَشِقْوَتُهُ، وَيَكُونُ قَضَاؤُهُ لَهُ مِنْ هَوَانِهِ عَلَيْهِ، وَسُقُوطِهِ مِنْ عَيْنِهِ، وَيَكُونُ مَنْعُهُ مِنْهَا لِكَرَامَتِهِ عَلَيْهِ وَمَحَبَّتِهِ لَهُ، فَيَمْنَعُهُ حِمَايَةً وَصِيَانَةً وَحِفْظًا لَا بُخْلًا، وَهَذَا إِنَّمَا يَفْعَلُهُ بِعَبْدِهِ الَّذِي يُرِيدُ كَرَامَتَهُ وَمَحَبَّتَهُ، وَيُعَامِلُهُ بِلُطْفِهِ، فَيَظُنُّ بِجَهْلِهِ أَنَّ اللهَ لَا يُحِبُّهُ وَلَا يُكْرِمُهُ، وَيَرَاهُ يَقْضِي حَوَائِجَ غَيْرِهِ، فَيُسِيءُ ظَنَّهُ بِرَبِّهِ، وَهَذَا حَشْوُ قَلْبِهِ وَلَا يَشْعُرُ بِهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ، وَالْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَعَلَامَةُ هَذَا حَمْلُهُ عَلَىٰ الْأَقْدَارِ وَعِتَابُهُ الْبَاطِنُ لَهَا، كَمَا قِيلَ:

وَعَاجِزُ الرَّأْيِ مِضْيَاعٌ لِفُرْصَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَاتَ أَمْرٌ عَاتَبَ الْقَدَرَا

فَوَاللهِ لَوْ كَشَفَ عَنْ حَاصِلِهِ وَسِرِّهِ لَرَأَىٰ هُنَاكَ مُعَاتَبَةَ الْقَدَرِ وَاتِّهَامَهُ، وَأَنَّهُ قَدْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ مَا حِيلَتِي، وَالْأَمْرُ لَيْسَ إِلَيَّ ؟ ، وَالْعَاقِلُ خَصْمُ نَفْسِهِ، وَالْجَاهِلُ خَصْمُ أَقْدَارِ رَبِّهِ.

فَاحْذَرْ كُلَّ الْحَذَرِ أَنْ تَسْأَلَهُ شَيْئًا مُعَيَّنًا خِيرَتُهُ وَعَاقِبَتُهُ مُغَيَّبَةٌ عَنْكَ، وَإِذَا لَمْ تَجِدْ مِنْ سُؤَالِهِ بُدًّا، فَعَلِّقْهُ عَلَىٰ شَرْطِ عِلْمِهِ تَعَالَىٰ فِيهِ الْخِيَرَةَ، وَقَدِّمْ بَيْنَ يَدَيْ سُؤَالِكَ الِاسْتِخَارَةَ، وَلَا تَكُنِ اسْتِخَارَةٌ بِاللِّسَانِ بِلَا

مَعْرِفَةٍ، بَلِ اسْتِخَارَةُ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِمَصَالِحِهِ، وَلَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهَا، وَلَا اهْتِدَاءَ لَهُ إِلَىٰ تَفَاصِيلِهَا، وَلَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضُرًّا وَلَا نَفْعًا، بَلْ إِنْ وُكِّلَ إِلَىٰ نَفْسِهِ هَلَكَ كُلَّ الْهَلَاكِ، وَانْفَرَطَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ.

وَإِذَا أَعْطَاكَ مَا أَعْطَاكَ بِلَا سُؤَالٍ تَسْأَلُهُ أَنْ يَجْعَلَهُ عَوْنًا لَكَ عَلَىٰ طَاعَتِهِ وَبَلَاغًا إِلَىٰ مَرْضَاتِهِ، وَلَا يَجْعَلَهُ قَاطِعًا لَكَ عَنْهُ، وَلَا مُبْعِدًا عَنْ مَرْضَاتِهِ، وَلَا تَظُنَّ أَنَّ عَطَاءَهُ كُلَّ مَا أَعْطَىٰ لِكَرَامَةِ عَبْدِهِ عَلَيْهِ، وَلَا مَنْعَهُ كُلَّ مَا يَمْنَعُهُ لِهَوَانِ عَبْدِهِ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ عَطَاءَهُ وَمَنْعَهُ ابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ، يَمْتَحِنُ بِهِمَا عِبَادَهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفَجْرُ: ١٥-١٧]، أَيْ لَيْسَ كُلُّ مَنْ أَعْطَيْتُهُ وَنَعَّمْتُهُ وَخَوَّلْتُهُ فَقَدْ أَكْرَمْتُهُ، وَمَا ذَاكَ لِكَرَامَتِهِ عَلَيَّ، وَلَكِنَّهُ ابْتِلَاءٌ مِنِّي، وَامْتِحَانٌ لَهُ أَيَشْكُرُنِي فَأُعْطِيَهُ فَوْقَ ذَلِكَ، أَمْ يَكْفُرُنِي فَأَسْلُبَهُ إِيَّاهُ، وَأُخَوِّلَ فِيهِ غَيْرَهُ؟، وَلَيْسَ كُلُّ مَنِ ابْتَلَيْتُهُ فَضَيَّقْتُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، وَجَعَلْتُهُ بِقَدَرٍ لَا يُفَضَّلُ عَنْهُ، فَذَلِكَ مِنْ هَوَانِهِ عَلَيَّ، وَلَكِنَّهُ ابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ مِنِّي لَهُ أَيَصْبِرُ فَأُعْطِيَهُ أَضْعَافَ أَضْعَافِ مَا فَاتَهُ مِنْ سَعَةِ الرِّزْقِ، أَمْ يَتَسَخَّطُ فَيَكُونَ حَظُّهُ السُّخْطَ؟.

فَرَدَّ اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ مَنْ ظَنَّ أَنَّ سَعَةَ الرِّزْقِ إِكْرَامٌ، وَأَنَّ الْفَقْرَ إِهَانَةٌ، فَقَالَ: لَمْ أَبْتَلِ عَبْدِي بِالْغِنَىٰ لِكَرَامَتِهِ عَلَيَّ، وَلَمْ أَبْتَلِهِ بِالْفَقْرِ لِهَوَانِهِ عَلَيَّ،

فَأَخْبَرَ أَنَّ الْإِكْرَامَ وَالْإِهَانَةَ لَا يَدُورَانِ عَلَىٰ الْمَالِ وَسَعَةِ الرِّزْقِ وَتَقْدِيرِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يُوَسِّعُ عَلَىٰ الْكَافِرِ لَا لِكَرَامَتِهِ، وَيُقَتِّرُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِ لَا لِإِهَانَتِهِ، إِنَّمَا يُكْرِمُ مَنْ يُكْرِمُهُ بِمَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَطَاعَتِهِ، وَيُهِينُ مَنْ يُهِينُهُ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ وَمَعْصِيَتِهِ، فَلَهُ الْحَمْدُ عَلَىٰ هَذَا وَعَلَىٰ هَذَا، وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

فَعَادَتْ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

مَنْ لَهُ عِبَادَةٌ بِلَا اسْتِعَانَةٍ :

الْقِسْمُ الثَّالِثُ : مَنْ لَهُ نَوْعُ عِبَادَةٍ بِلَا اسْتِعَانَةٍ ، وَهَؤُلَاءِ نَوْعَانِ :

أَحَدُهُمَا : الْقَدَرِيَّةُ الْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ قَدْ فَعَلَ بِالْعَبْدِ جَمِيعَ مَقْدُورِهِ مِنَ الْأَلْطَافِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي مَقْدُورِهِ إِعَانَةٌ لَهُ عَلَىٰ الْفِعْلِ ، فَإِنَّهُ قَدْ أَعَانَهُ بِخَلْقِ الْآلَاتِ وَسَلَامَتِهَا، وَتَعْرِيفِ الطَّرِيقِ، وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ ، وَتَمْكِينِهِ مِنَ الْفِعْلِ ، فَلَمْ يَبْقَ بَعْدَ هَذَا إِعَانَةٌ مَقْدُورَةٌ يَسْأَلُهُ إِيَّاهَا ، بَلْ قَدْ سَاوَىٰ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ فِي الْإِعَانَةِ ، فَأَعَانَ هَؤُلَاءِ كَمَا أَعَانَ هَؤُلَاءِ ، وَلَكِنَّ أَوْلِيَاءَهُ اخْتَارُوا لِنُفُوسِهِمُ الْإِيمَانَ ، وَأَعْدَاءَهُ اخْتَارُوا لِنُفُوسِهِمُ الْكُفْرَ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَفَّقَ هَؤُلَاءِ بِتَوْفِيقٍ زَائِدٍ أَوْجَبَ لَهُمُ الْإِيمَانَ ، وَخَذَلَ هَؤُلَاءِ بِأَمْرٍ آخَرَ أَوْجَبَ لَهُمُ الْكُفْرَ ، فَهَؤُلَاءِ لَهُمْ نَصِيبٌ مَنْقُوصٌ مِنَ الْعِبَادَةِ ، لَا اسْتِعَانَةَ مَعَهُ ، فَهُمْ مَوْكُولُونَ إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ،

مَسْدُودٌ عَلَيْهِمْ طَرِيقُ الاسْتِعَانَةِ وَالتَّوْحِيدِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- : « الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ نِظَامُ التَّوْحِيدِ ، فَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَكَذَّبَ بِقَدَرِهِ نَقَضَ تَكْذِيبُهُ تَوْحِيدَهُ » .

النَّوْعُ الثَّانِي : مَنْ لَهُمْ عِبَادَاتٌ وَأَوْرَادٌ ، وَلَكِنَّ حَظَّهُمْ نَاقِصٌ مِنَ التَّوَكُّلِ وَالِاسْتِعَانَةِ ، لَمْ تَتَّسِعْ قُلُوبُهُمْ لِارْتِبَاطِ الْأَسْبَابِ بِالْقَدَرِ ، وَتَلَاشِيهَا فِي ضِمْنِهِ ، وَقِيَامِهَا بِهِ ، وَأَنَّهَا بِدُونِ الْقَدَرِ كَالْمَوَاتِ الَّذِي لَا تَأْثِيرَ لَهُ ، بَلْ كَالْعَدَمِ الَّذِي لَا وُجُودَ لَهُ ، وَأَنَّ الْقَدَرَ كَالرُّوحِ الْمُحَرِّكِ لَهَا، وَالْمُعَوَّلُ عَلَى الْمُحَرِّكِ الْأَوَّلِ .

فَلَمْ تَنْفُذْ قُوَى بَصَائِرِهِمْ مِنَ الْمُتَحَرِّكِ إِلَى الْمُحَرِّكِ ، وَمِنَ السَّبَبِ إِلَى الْمُسَبَّبِ ، وَمِنَ الْآلَةِ إِلَى الْفَاعِلِ ، فَضَعُفَتْ عَزَائِمُهُمْ وَقَصُرَتْ هِمَمُهُمْ، فَقَلَّ نَصِيبُهُمْ مِنْ ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وَلَمْ يَجِدُوا ذَوْقَ التَّعَبُّدِ بِالتَّوَكُّلِ وَالِاسْتِعَانَةِ ، وَإِنْ وَجَدُوا ذَوْقَهُ بِالْأَوْرَادِ وَالْوَظَائِفِ .

فَهَؤُلَاءِ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ التَّوْفِيقِ وَالنُّفُوذِ وَالتَّأْثِيرِ ، بِحَسَبِ اسْتِعَانَتِهِمْ وَتَوَكُّلِهِمْ ، وَلَهُمْ مِنَ الْخُذْلَانِ وَالضَّعْفِ وَالْمَهَانَةِ وَالْعَجْزِ بِحَسَبِ قِلَّةِ اسْتِعَانَتِهِمْ وَتَوَكُّلِهِمْ ، وَلَوْ تَوَكَّلَ الْعَبْدُ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ فِي إِزَالَةِ جَبَلٍ عَنْ مَكَانِهِ وَكَانَ مَأْمُورًا بِإِزَالَتِهِ لَأَزَالَهُ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا مَعْنَى التَّوَكُّلِ وَالِاسْتِعَانَةِ ؟ .

قُلْتُ : هُوَ حَالٌ لِلْقَلْبِ يَنْشَأُ عَنْ مَعْرِفَتِه بِالله ، وَالْإِيمَانِ بِتَفَرُّدِه بِالْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ وَالضُّرِّ وَالنَّفْعِ ، وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَإِنْ لَمْ يَشَأَ النَّاسُ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَإِنْ شَاءَهُ النَّاسُ ، فَيُوجِبُ لَهُ هَذَا اعْتِمَادًا عَلَيْهِ ، وَتَفْوِيضًا إِلَيْهِ ، وَطُمَأْنِينَةً بِه ، وَثِقَةً بِهِ ، وَيَقِينًا بِكِفَايَتِهِ لِمَا تَوَكَّلَ عَلَيْهِ فِيهِ ، وَأَنَّهُ مَلِيٌّ بِهِ ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ ، شَاءَهُ النَّاسُ أَمْ أَبَوْهُ .

فَتُشْبِهُ حَالَتُهُ حَالَةَ الطِّفْلِ مَعَ أَبَوَيْهِ فِيمَا يَنْوِيهِ مِنْ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ هُمَا مَلِيَّانِ بِهِمَا ، فَانْظُرْ فِي تَجَرُّدِ قَلْبِهِ عَنِ الِالْتِفَاتِ إِلَىٰ غَيْرِ أَبَوَيْهِ ، وَحَبْسِ هَمِّهِ عَلَىٰ إِنْزَالِ مَا يَنْوِيهِ بِهِمَا ، فَهَذِهِ حَالُ الْمُتَوَكِّلِ ، وَمَنْ كَانَ هَكَذَا مَعَ الله فَاللهُ كَافِيهِ وَلَا بُدَّ ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطَّلَاقُ : ٣] ، أَيْ كَافِيهِ ، وَالْحَسْبُ الْكَافِي ، فَإِنْ كَانَ مَعَ هَذَا مِنْ أَهْلِ التَّقْوَىٰ كَانَتْ لَهُ الْعَاقِبَةُ الْحَمِيدَةُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ التَّقْوَىٰ فَهُوَ .

الْقِسْمُ الرَّابِعُ : وَهُوَ مَنْ شَهِدَ تَفَرُّدَ الله بِالنَّفْعِ وَالضُّرِّ ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَلَمْ يَدْرِ مَعَ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، فَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ ، وَاسْتَعَانَ بِهِ عَلَىٰ حُظُوظِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَأَغْرَاضِهِ ، وَطَلَبَهَا مِنْهُ ، وَأَنْزَلَهَا بِهِ ، فَقُضِيَتْ لَهُ ، وَأُسْعِفَ بِهَا ، سَوَاءٌ كَانَتْ أَمْوَالًا أَوْ رِيَاسَةً أَوْ جَاهًا عِنْدَ الْخَلْقِ ، أَوْ أَحْوَالًا مِنْ كَشْفٍ وَتَأْثِيرٍ وَقُوَّةٍ وَتَمْكِينٍ ، وَلَكِنْ لَا عَاقِبَةَ لَهُ ، فَإِنَّهَا مِنْ جِنْسِ الْمُلْكِ الظَّاهِرِ ، وَالْأَمْوَالُ لَا تَسْتَلْزِمُ الْإِسْلَامَ ، فَضْلًا عَنِ الْوِلَايَةِ وَالْقُرْبِ مِنَ الله ، فَإِنَّ الْمُلْكَ وَالْجَاهَ وَالْمَالَ وَالْحَالَ مُعْطَاةٌ

لِلْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ، وَالْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ، فَمَنِ اسْتَدَلَّ بِشَيْءٍ مِنْ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَحَبَّةِ اللهِ لِمَنْ آتَاهُ إِيَّاهُ وَرِضَاهُ عَنْهُ ، وَأَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُقَرَّبِينَ ، فَهُوَ مِنْ أَجْهَلِ الْجَاهِلِينَ ، وَأَبْعَدِهِمْ عَنْ مَعْرِفَةِ اللهِ وَمَعْرِفَةِ دِينِهِ ، وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، وَيَكْرَهُهُ وَيُسْخِطُهُ ، فَالْحَالُ مِنَ الدُّنْيَا ، فَهُوَ كَالْمُلْكِ وَالْمَالِ إِنْ أَعَانَ صَاحِبَهُ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ وَمَرْضَاتِهِ ، وَتَنْفِيذِ أَوَامِرِهِ أَلْحَقَهُ بِالْمُلُوكِ الْعَادِلِينَ الْبَرَرَةِ ، وَإِلَّا فَهُوَ وَبَالٌ عَلَىٰ صَاحِبِهِ ، وَمُبْعِدٌ لَهُ عَنِ اللهِ، وَمُلْحِقٌ لَهُ بِالْمُلُوكِ الظَّلَمَةِ ، وَالْأَغْنِيَاءِ الْفَجَرَةِ .

عَقِيدَتُنَا فِي الأَسْمَاءِ والصِّفَاتِ :

وَالْعِصْمَةُ النَّافِعَةُ فِي هَذَا الْبَابِ:أَنْ يُوصَفَ اللهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ ، بَلْ تُثْبِتُ لَهُ الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ، وَتُنْفَىٰ عَنْهُ مُشَابَهَةُ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَيَكُونُ إِثْبَاتُكَ مُنَزَّهًا عَنِ التَّشْبِيهِ، وَنَفْيُكَ مُنَزَّهًا عَنِ التَّعْطِيلِ ، فَمَنْ نَفَىٰ حَقِيقَةَ الاسْتِوَاءِ فَهُوَ مُعَطِّلٌ، وَمَنْ شَبَّهَهُ بِاسْتِوَاءِ الْمَخْلُوقِ عَلَىٰ الْمَخْلُوقِ فَهُوَ مُمَثِّلٌ ، وَمَنْ قَالَ: اسْتِوَاءٌ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، فَهُوَ الْمُوَحِّدُ الْمُنَزِّهُ.

دَعْوَةُ الرُّسُلِ إِلَى التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ العِبَادَةِ :

وَجَمِيعُ الرُّسُلِ إِنَّمَا دَعَوْا إِلَىٰ ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ﴾

فَإِنَّهُمْ كُلَّهُمْ دَعَوْا إِلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ وَإِخْلَاصِ عِبَادَتِهِ، مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَىٰ آخِرِهِمْ، فَقَالَ نُوحٌ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لِقَوْمِهِ: ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأَعْرَافُ: ٥٩]، وَكَذَلِكَ قَالَ هُودٌ وَصَالِحٌ وَشُعَيْبٌ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- وَإِبْرَاهِيمُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النَّحْلُ: ٣٦]، وَقَالَ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأَنْبِيَاءُ: ٢٥]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المُؤْمِنُون: ٥١-٥٢].

مَرَاتِبُ إِيَّاكَ نَعْبُدُ عِلْمًا وَعَمَلًا:

لِلْعُبُودِيَّةِ مَرَاتِبُ، بِحَسَبِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، فَأَمَّا مَرَاتِبُهَا الْعِلْمِيَّةُ فَمَرْتَبَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: الْعِلْمُ بِاللهِ، وَالثَّانِيَةُ: الْعِلْمُ بِدِينِهِ.

فَأَمَّا الْعِلْمُ بِهِ سُبْحَانَهُ، فَخَمْسُ مَرَاتِبَ: الْعِلْمُ بِذَاتِهِ، وَصِفَاتِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَأَسْمَائِهِ، وَتَنْزِيهِهِ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ.

وَالْعِلْمُ بِدِينِهِ مَرْتَبَتَانِ، إِحْدَاهُمَا: دِينُهُ الْأَمْرِيُّ الشَّرْعِيُّ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الْمُوصِلُ إِلَيْهِ.

وَالثَّانِيَةُ: دِينُهُ الْجَزَائِيُّ، الْمُتَضَمِّنُ ثَوَابَهُ وَعِقَابَهُ، وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذَا

الْعِلْمِ الْعِلْمُ بِمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ.

وَأَمَّا مَرَاتِبُهَا الْعِلْمِيَّةُ، فَمَرْتَبَتَانِ: مَرْتَبَةٌ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَمَرْتَبَةٌ لِلسَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ.

فَأَمَّا مَرْتَبَةُ أَصْحَابِ الْيَمِينِ: فَأَدَاءُ الْوَاجِبَاتِ، وَتَرْكُ الْمُحَرَّمَاتِ، مَعَ ارْتِكَابِ الْمُبَاحَاتِ، وَبَعْضِ الْمَكْرُوهَاتِ، وَتَرْكِ بَعْضِ الْمُسْتَحَبَّاتِ.

وَأَمَّا رُتْبَةُ الْمُقَرَّبِينَ: فَالْقِيَامُ بِالْوَاجِبَاتِ وَالْمَنْدُوبَاتِ، وَتَرْكُ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ، زَاهِدِينَ فِيمَا لَا يَنْفَعُهُمْ فِي مَعَادِهِمْ، مُتَوَرِّعِينَ عَمَّا يَخَافُونَ ضَرَرَهُ.

وَخَاصَّتُهُمْ قَدِ انْقَلَبَتِ الْمُبَاحَاتُ فِي حَقِّهِمْ طَاعَاتٍ وَقُرُبَاتٍ بِالنِّيَّةِ فَلَيْسَ فِي حَقِّهِمْ مُبَاحٌ مُتَسَاوِي الطَّرَفَيْنِ، بَلْ كُلُّ أَعْمَالِهِمْ رَاجِحَةٌ، وَمَنْ دُونَهُمْ يَتْرُكُ الْمُبَاحَاتِ مُشْتَغِلًا عَنْهَا بِالْعِبَادَاتِ، وَهَؤُلَاءِ يَأْتُونَهَا طَاعَاتٍ وَقُرُبَاتٍ، وَلِأَهْلِ هَاتَيْنِ الْمَرْتَبَتَيْنِ دَرَجَاتٌ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللهُ.

الِاعْتِذَارُ بِالْقَدَرِ فَهُوَ مُخَاصَمَةٌ لِلَّهِ

وَأَمَّا الِاعْتِذَارُ بِالْقَدَرِ فَهُوَ مُخَاصَمَةٌ للهِ، وَاحْتِجَاجٌ مِنَ الْعَبْدِ عَلَى الرَّبِّ، وَحَمْلٌ لِذَنْبِهِ عَلَى الْأَقْدَارِ، وَهَذَا فِعْلُ خُصَمَاءِ اللهِ .

مَا حُكْمِ الِاعْتِذَارُ بِالْقَدَرِ؟:

فَالْجَوَابُ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ يُقَالَ: الْعُذْرُ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَقْبُولًا لَمْ يَكُنْ نَافِعًا، وَالِاعْتِذَارُ بِالْقَدَرِ غَيْرُ مَقْبُولٍ، وَلَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِهِ، وَلَو اعْتَذَرَ فَهُوَ كَلَامٌ بَاطِلٌ لَا يُفِيدُ شَيْئًا الْبَتَّةَ، بَلْ يَزِيدُ فِي ذَنْبِ الْجَانِي، وَيَغْضَبُ الرَّبُّ عَلَيْهِ، وَمَا هَذَا شَأْنُهُ لَا يَشْتَغِلُ بِهِ عَاقِلٌ.

الثَّانِي: أَنَّ الِاعْتِذَارَ بِالْقَدَرِ يَتَضَمَّنُ تَنْزِيهَ الْجَانِي نَفْسَهُ، وَتَنْزِيهَ سَاحَتِهِ، وَهُوَ الظَّالِمُ الْجَاهِلُ، وَالْجَهْلُ عَلَى الْقَدَرِ نِسْبَةُ الذَّنْبِ إِلَيْهِ، وَتَظْلِيمُهُ بِلِسَانِ الْحَالِ وَالْقَالِ، بِتَحْسِينِ الْعِبَارَةِ وَتَلْطِيفِهَا، وَرُبَّمَا غَلَبَهُ الْحَالُ، فَصَرَّحَ بِالْوَجْدِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ خُصَمَاءِ اللهِ:

أَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ مَكْتُوفًا، وَقَالَ لَهُ: إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالْمَاءِ

أَسْمَاءُ اللهِ تَقْتَضِي آثَارَهَا :

إِنَّ أَسْمَاءَهُ الْحُسْنَىٰ تَقْتَضِي آثَارَهَا اقْتِضَاءَ الْأَسْبَابِ التَّامَّةِ لِمُسَبَّبَاتِهَا، فَاسْمُ السَّمِيعِ، الْبَصِيرِ يَقْتَضِي مَسْمُوعًا وَمُبْصَرًا، وَاسْمُ الرَّزَّاقِ يَقْتَضِي مَرْزُوقًا، وَاسْمُ الرَّحِيمِ يَقْتَضِي مَرْحُومًا، وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ الْغَفُورِ، وَالْعَفُوِّ، وَالتَّوَّابِ، وَالْحَلِيمِ يَقْتَضِي مَنْ يَغْفِرُ لَهُ، وَيَتُوبُ عَلَيْهِ، وَيَعْفُو عَنْهُ، وَيَحْلُمُ، وَيَسْتَحِيلُ تَعْطِيلُ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، إِذْ هِيَ أَسْمَاءٌ حُسْنَىٰ وَصِفَاتُ كَمَالٍ، وَنُعُوتُ جَلَالٍ، وَأَفْعَالُ حِكْمَةٍ وَإِحْسَانٍ

وَجُودٍ، فَلَا بُدَّ مِنْ ظُهُورِ آثَارِهَا فِي الْعَالَمِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَىٰ هَذَا أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِاللهِ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، حَيْثُ يَقُولُ: « **لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ** »(١) .

وَأَنْتَ إِذَا فَرَضْتَ الْحَيَوَانَ بِجُمْلَتِهِ مَعْدُومًا، فَمَنْ يَرْزُقُ الرَّزَّاقُ سُبْحَانَهُ ؟، وَإِذَا فَرَضْتَ الْمَعْصِيَةَ وَالْخَطِيئَةَ مُنْتَفِيَةً مِنَ الْعَالَمِ، فَلِمَنْ يَغْفِرُ؟، وَعَمَّنْ يَعْفُو ؟، وَعَلَىٰ مَنْ يَتُوبُ وَيَحْلُمُ ؟، وَإِذَا فَرَضْتَ الْفَاقَاتِ كُلَّهَا قَدْ سُدَّتْ، وَالْعَبِيدُ أَغْنِيَاءُ مُعَافَوْنَ، فَأَيْنَ السُّؤَالُ وَالتَّضَرُّعُ وَالابْتِهَالُ ؟، وَالْإِجَابَةُ وَشُهُودُ الْفَضْلِ وَالْمِنَّةِ، وَالتَّخْصِيصُ بِالْإِنْعَامِ وَالْإِكْرَامِ ؟.

فَسُبْحَانَ مَنْ تَعَرَّفَ إِلَىٰ خَلْقِهِ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ التَّعَرُّفَاتِ، وَدَلَّهُمْ عَلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الدَّلَالَاتِ، وَفَتَحَ لَهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعَ الطُّرُقَاتِ، ثُمَّ نَصَبَ إِلَيْهِ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَعَرَّفَهُمْ بِهِ وَدَلَّهُمْ عَلَيْهِ ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤٢] .

الرِّضَا بِالقَضَاءِ والقدَر :

---

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٧٤٩) .

وَأَمَّا حَدِيثُ الرِّضَا بِالْقَضَاءِ فَيُقَالُ:

أَوَّلًا: بِأَيِّ كِتَابٍ، أَمْ بِأَيِّ سُنَّةٍ، أَمْ بِأَيِّ مَعْقُولٍ عَلِمْتُمْ وُجُوبَ الرِّضَا بِكُلِّ مَا يَقْضِيهِ وَيُقَدِّرُهُ؟، بَلْ بِجَوَازِ ذَلِكَ، فَضْلًا عَنْ وُجُوبِهِ؟ هَذَا كِتَابُ اللهِ، وَسُنَّةُ رَسُولِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَأَدِلَّةُ الْعُقُولِ، لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا الْأَمْرُ بِذَلِكَ، وَلَا إِبَاحَتُهُ.

بَلْ مِنَ الْمَقْضِيِّ مَا يَرْضَىٰ بِهِ، وَمِنْهُ مَا يُسْخِطُهُ وَيَمْقُتُهُ، فَلَا نَرْضَىٰ بِكُلِّ قَضَاءٍ كَمَا لَا يَرْضَىٰ بِهِ الْقَاضِي لِأَقْضِيَتِهِ سُبْحَانَهُ، بَلْ مِنَ الْقَضَاءِ مَا يُسْخِطُهُ، كَمَا أَنَّ مِنَ الْأَعْيَانِ الْمَقْضِيَّةِ مَا يَغْضَبُ عَلَيْهِ، وَيَمْقُتُ عَلَيْهِ، وَيَلْعَنُ وَيَذُمُّ.

وَيُقَالُ ثَانِيًا: هَاهُنَا أَمْرَانِ قَضَاءٌ وَهُوَ فِعْلٌ قَائِمٌ بِذَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى، وَمَقْضِيٌّ وَهُوَ الْمَفْعُولُ الْمُنْفَصِلُ عَنْهُ، فَالْقَضَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ، وَعَدْلٌ وَحِكْمَةٌ، فَيَرْضَىٰ بِهِ كُلِّهِ، وَالْمَقْضِيُّ قِسْمَانِ: مِنْهُ مَا يَرْضَىٰ بِهِ، وَمِنْهُ مَا لَا يَرْضَىٰ بِهِ.

وَهَذَا جَوَابُ مَنْ يَقُولُ: الْفِعْلُ غَيْرُ الْمَفْعُولِ، وَالْقَضَاءُ غَيْرُ الْمَقْضِيِّ.

وَأَمَّا مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الْفِعْلَ هُوَ عَيْنُ الْمَفْعُولِ، وَالْقَضَاءَ هُوَ عَيْنُ الْمَقْضِيِّ، فَلَا يُمْكِنُهُ أَنْ يُجِيبَ بِهَذَا الْجَوَابِ.

وَيُقَالُ ثَالِثًا: الْقَضَاءُ لَهُ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: تَعَلُّقُهُ بِالرَّبِّ تَعَالَى، وَنِسْبَتُهُ إِلَيْهِ، فَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ يَرْضَىٰ بِهِ كُلِّهِ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: تَعَلُّقُهُ بِالْعَبْدِ وَنِسْبَتُهُ إِلَيْهِ فَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ يَنْقَسِمُ إِلَىٰ مَا يَرْضَىٰ بِهِ، وَإِلَىٰ مَا لَا يَرْضَىٰ بِهِ.

مِثَالُ ذَلِكَ: قَتْلُ النَّفْسِ - مَثَلًا - لَهُ اعْتِبَارَانِ، فَمِنْ حَيْثُ إِنَّهُ قَدَّرَهُ اللهُ وَقَضَاهُ وَكَتَبَهُ وَشَاءَهُ، وَجَعَلَهُ أَجَلًا لِلْمَقْتُولِ، وَنِهَايَةً لِعُمْرِهِ يَرْضَىٰ بِهِ، وَمِنْ حَيْثُ إِنَّهُ صَدَرَ مِنَ الْقَاتِلِ، وَبَاشَرَهُ وَكَسَبَهُ، وَأَقْدَمَ عَلَيْهِ بِاخْتِيَارِهِ، وَعَصَىٰ اللهَ بِفِعْلِهِ يَسْخَطُهُ وَلَا يَرْضَىٰ بِهِ.

فَهَذِهِ نِهَايَةُ أَقْدَامِ الْعَالَمِ، الْمُقِرِّينَ بِالنُّبُوَّاتِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَمُفْتَرَقُ طُرُقِهِمْ، قَدْ حَصَرْتُ لَكَ أَقْوَالَهُمْ وَمَآخِذَهُمْ، وَأُصُولَ تِلْكَ الْأَقْوَالِ، بِحَيْثُ لَا يَشِذُّ مِنْهَا شَيْءٌ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ.

وَلَا تُنْكِرِ الْإِطَالَةَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، فَإِنَّهُ مَزَلَّةُ أَقْدَامِ الْخَلْقِ، وَمَا نَجَا مِنْ مَعَاطِبِهِ إِلَّا أَهْلُ الْبَصَائِرِ وَالْمَعْرِفَةِ بِاللهِ وَصِفَاتِهِ وَأَمْرِهِ وَشَرَائِعِهِ.

حَقِيْقَةُ كَلِمَةِ التَّوْحِيْدِ :

وَلَيْسَ التَّوْحِيدُ مُجَرَّدَ إِقْرَارِ الْعَبْدِ بِأَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ اللهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، كَمَا كَانَ عُبَّادُ الْأَصْنَامِ مُقِرِّينَ بِذَلِكَ وَهُمْ مُشْرِكُونَ، بَلِ التَّوْحِيدُ يَتَضَمَّنُ - مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ، وَالْخُضُوعِ لَهُ، وَالذُّلِّ لَهُ، وَكَمَالِ الِانْقِيَادِ لِطَاعَتِهِ، وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ، وَإِرَادَةِ وَجْهِهِ الْأَعْلَىٰ بِجَمِيعِ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ، وَالْمَنْعِ، وَالْعَطَاءِ، وَالْحُبِّ، وَالْبُغْضِ - مَا يَحُولُ بَيْنَ صَاحِبِهِ وَبَيْنَ الْأَسْبَابِ الدَّاعِيَةِ إِلَى الْمَعَاصِي، وَالْإِصْرَارِ عَلَيْهَا، وَمَنْ عَرَفَ هَذَا عَرَفَ قَوْلَ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**[1] -وَقَوْلَهُ-: **لَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ** »[2] .

وَمَا جَاءَ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي أَشْكَلَتْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، حَتَّىٰ ظَنَّهَا بَعْضُهُمْ مَنْسُوخَةً، وَظَنَّهَا بَعْضُهُمْ قِيلَتْ قَبْلَ وُرُودِ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَاسْتِقْرَارِ الشَّرْعِ، وَحَمَلَهَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ نَارِ الْمُشْرِكِينَ وَالْكُفَّارِ، وَأَوَّلَ بَعْضُهُمُ الدُّخُولَ بِالْخُلُودِ، وَقَالَ: الْمَعْنَىٰ لَا يَدْخُلُهَا خَالِدًا، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ التَّأْوِيلَاتِ الْمُسْتَكْرَهَةِ.

---

(١)(صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٢٥) ، وَمُسْلِمٌ (٣٣) ، (٢٦٣) .

(٢)(صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٤٨) ، وَأَبُو دَاوُد (٤٠٩١) ، بِلَفْظِ : « **لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ** » .

وَالشَّارِعُ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ حَاصِلًا بِمُجَرَّدِ قَوْلِ اللِّسَانِ فَقَطْ، فَإِنَّ هَذَا خِلَافُ الْمَعْلُومِ بِالاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّ الْمُنَافِقِينَ يَقُولُونَهَا بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَهُمْ تَحْتَ الْجَاحِدِينَ لَهَا فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، فَلَا بُدَّ مِنْ قَوْلِ الْقَلْبِ، وَقَوْلِ اللِّسَانِ، وَقَوْلُ الْقَلْبِ يَتَضَمَّنُ مِنْ مَعْرِفَتِهَا، وَالتَّصْدِيقِ بِهَا، وَمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ مَا تَضَمَّنَتْهُ- مِنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْمَنْفِيَّةِ عَنْ غَيْرِ اللهِ، الْمُخْتَصَّةِ بِهِ، الَّتِي يَسْتَحِيلُ ثُبُوتُهَا لِغَيْرِهِ، وَقِيَامُ هَذَا الْمَعْنَىٰ بِالْقَلْبِ عِلْمًا وَمَعْرِفَةً وَيَقِينًا، وَحَالًا - مَا يُوجِبُ تَحْرِيمَ قَائِلِهَا عَلَىٰ النَّارِ، وَكُلُّ قَوْلٍ رَتَّبَ الشَّارِعُ مَا رَتَّبَ عَلَيْهِ مِنَ الثَّوَابِ، فَإِنَّمَا هُوَ الْقَوْلُ التَّامُّ، كَقَوْلِهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَنْ قَالَ فِي يَوْمٍ: « **سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ - أَوْ غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ - وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ** » [1] ، وَلَيْسَ هَذَا مُرَتَّبًا عَلَىٰ مُجَرَّدِ قَوْلِ اللِّسَانِ.

نَعَمْ مَنْ قَالَهَا بِلِسَانِهِ، غَافِلًا عَنْ مَعْنَاهَا، مُعْرِضًا عَنْ تَدَبُّرِهَا، وَلَمْ يُوَاطِئْ قَلْبُهُ لِسَانَهُ، وَلَا عَرَفَ قَدْرَهَا وَحَقِيقَتَهَا، رَاجِيًا مَعَ ذَلِكَ ثَوَابَهَا، حَطَّتْ مِنْ خَطَايَاهُ بِحَسَبِ مَا فِي قَلْبِهِ، فَإِنَّ الْأَعْمَالَ لَا تَتَفَاضَلُ بِصُوَرِهَا وَعَدَدِهَا، وَإِنَّمَا تَتَفَاضَلُ بِتَفَاضُلِ مَا فِي الْقُلُوبِ، فَتَكُونُ صُورَةُ الْعَمَلَيْنِ وَاحِدَةً، وَبَيْنَهُمَا فِي التَّفَاضُلِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالرَّجُلَانِ يَكُونُ

---

(١)(صَحِيْحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٦٩١) ، وَالتِّرْمِذِيِّ (٥١٢) ، وَقَالَ : حَسَنٌ صَحِيْحٌ .

مَقَامُهُمَا فِي الصَّفِّ وَاحِدًا، وَبَيْنَ صَلَاتَيْهِمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

وَتَأَمَّلْ حَدِيثَ الْبِطَاقَةِ الَّتِي تُوضَعُ فِي كِفَّةٍ، وَيُقَابِلُهَا تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِنْهَا مَدُّ الْبَصَرِ، فَتَثْقُلُ الْبِطَاقَةُ وَتَطِيشُ السِّجِلَّاتُ، فَلَا يُعَذَّبُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ مُوَحِّدٍ لَهُ مِثْلُ هَذِهِ الْبِطَاقَةِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَدْخُلُ النَّارَ بِذُنُوبِهِ، وَلَكِنَّ السِّرَّ الَّذِي ثَقَّلَ بِطَاقَةَ ذَلِكَ الرَّجُلِ، وَطَاشَتْ لِأَجْلِهِ السِّجِلَّاتُ لَمَّا لَمْ يَحْصُلْ لِغَيْرِهِ مِنْ أَرْبَابِ الْبِطَاقَاتِ، انْفَرَدَتْ بِطَاقَتُهُ بِالثِّقَلِ وَالرَّزَانَةِ.

وَإِذَا أَرَدْتَ زِيَادَةَ الْإِيضَاحِ لِهَذَا الْمَعْنَى، فَانْظُرْ إِلَىٰ ذِكْرِ مَنْ قَلْبُهُ مَلْآنٌ بِمَحَبَّتِكَ، وَذِكْرِ مَنْ هُوَ مُعْرِضٌ عَنْكَ غَافِلٌ سَاهٍ، مَشْغُولٌ بِغَيْرِكَ، قَدِ انْجَذَبَتْ دَوَاعِي قَلْبِهِ إِلَىٰ مَحَبَّةِ غَيْرِكَ، وَإِيثَارِهِ عَلَيْكَ، هَلْ يَكُونُ ذِكْرُهُمَا وَاحِدًا ؟ أَمْ هَلْ يَكُونُ وَلَدَاكَ اللَّذَانِ هُمَا بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ، أَوْ عَبْدَاكَ، أَوْ زَوْجَتَاكَ، عِنْدَكَ سَوَاءً ؟.

وَتَأَمَّلْ مَا قَامَ بِقَلْبِ قَاتِلِ الْمِائَةِ مِنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ الَّتِي لَمْ تَشْغَلْهُ عِنْدَ السِّيَاقِ عَنِ السَّيْرِ إِلَىٰ الْقَرْيَةِ، وَحَمَلَتْهُ - وَهُوَ فِي تِلْكَ الْحَالِ - عَلَىٰ أَنْ جَعَلَ يَنُوءُ بِصَدْرِهِ، وَيُعَالِجُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، فَهَذَا أَمْرٌ آخَرُ، وَإِيمَانٌ آخَرُ، وَلَا جَرَمَ أَنْ أُلْحِقَ بِالْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ، وَجُعِلَ مِنْ أَهْلِهَا.

وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا مَا قَامَ بِقَلْبِ الْبَغِيِّ الَّتِي رَأَتْ ذَلِكَ الْكَلْبَ - وَقَدِ اشْتَدَّ بِهِ الْعَطَشُ يَأْكُلُ الثَّرَىٰ - فَقَامَ بِقَلْبِهَا ذَلِكَ الْوَقْتَ - مَعَ عَدَمِ الْآلَةِ، وَعَدَمِ الْمُعِينِ وَعَدَمِ مَنْ تُرَائِيهِ بِعَمَلِهَا - مَا حَمَلَهَا عَلَىٰ أَنْ غَرَّرَتْ بِنَفْسِهَا فِي نُزُولِ الْبِئْرِ، وَمَلْءِ الْمَاءِ فِي خُفِّهَا، وَلَمْ تَعْبَأْ بِتَعَرُّضِهَا لِلتَّلَفِ، وَحَمْلِهَا خُفَّهَا بِفِيهَا، وَهُوَ مَلْآنٌ، حَتَّىٰ أَمْكَنَهَا الرُّقِيُّ مِنَ الْبِئْرِ، ثُمَّ تَوَاضُعُهَا لِهَذَا الْمَخْلُوقِ الَّذِي جَرَتْ عَادَةُ النَّاسِ بِضَرْبِهِ، فَأَمْسَكَتْ لَهُ الْخُفَّ بِيَدِهَا حَتَّىٰ شَرِبَ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تَرْجُوَ مِنْهُ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا، فَأَحْرَقَتْ أَنْوَارُ هَذَا الْقَدْرِ مِنَ التَّوْحِيدِ مَا تَقَدَّمَ مِنْهَا مِنَ الْبِغَاءِ، فَغُفِرَ لَهَا.

فَهَكَذَا الْأَعْمَالُ وَالْعُمَّالُ عِنْدَ اللهِ، وَالْغَافِلُ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا الْإِكْسِيرِ الْكِيمَاوِيِّ، الَّذِي إِذَا وُضِعَ مِنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ عَلَىٰ قَنَاطِيرَ مِنْ نُحَاسِ الْأَعْمَالِ قَلَبَهَا ذَهَبًا، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

حَاجَةُ العَبْدِ لِلرَّجَاءِ :

فَالرَّجَاءُ ضَرُورِيٌّ لِلْمُرِيدِ السَّالِكِ، وَالْعَارِفُ لَوْ فَارَقَهُ لَحْظَةً لَتَلِفَ أَوْ كَادَ ، فَإِنَّهُ دَائِرٌ بَيْنَ ذَنْبٍ يَرْجُو غُفْرَانَهُ، وَعَيْبٍ يَرْجُو إِصْلَاحَهُ، وَعَمَلٍ صَالِحٍ يَرْجُو قَبُولَهُ، وَاسْتِقَامَةٍ يَرْجُو حُصُولَهَا وَدَوَامَهَا، وَقُرْبٍ مِنَ اللهِ وَمَنْزِلَةٍ عِنْدَهُ يَرْجُو وُصُولَهُ إِلَيْهَا، وَلَا يَنْفَكُّ أَحَدٌ مِنَ السَّالِكِينَ عَنْ هَذِهِ الْأُمُورِ أَوْ بَعْضِهَا.

التَّوَكُّلُ نِصْفُ الدِّيْن :

التَّوَكُّلُ نِصفُ الدِّينِ ، وَالنِّصْفُ الثَّاني الْإِنَابَةُ ، فَإِنَّ الدِّينَ اسْتِعَانَةٌ وَعِبَادَةٌ ، فَالتَّوَكُّلُ هُوَ الاِسْتِعَانَةُ ، وَالْإِنَابَةُ هِيَ الْعِبَادَةُ.

أَقْسَامُ النَّاسِ فِي التَّوَكُلِ :

فَأَوْلِيَاؤُهُ وَخَاصَّتُهُ يَتَوَكَّلُونَ عَلَيْهِ فِي الْإِيمَانِ ، وَنُصْرَةِ دِينِهِ ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ ، وَجِهَادِ أَعْدَائِهِ ، وَفِي مَحَابِّهِ وَتَنْفِيذِ أَوَامِرِهِ.

وَدُونَ هَؤُلَاءِ مَنْ يَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ فِي اسْتِقَامَتِهِ فِي نَفْسِهِ ، وَحِفْظِ حَالِهِ مَعَ اللهِ ، فَارِغًا عَنِ النَّاسِ.

وَدُونَ هَؤُلَاءِ مَنْ يَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ فِي مَعْلُوم يَنَالُهُ مِنْهُ، مِنْ رِزْقٍ أَوْ عَافِيَةٍ، أَوْ نَصْرٍ عَلَىٰ عَدُوٍّ ، أَوْ زَوْجَةٍ أَوْ وَلَدٍ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَدُونَ هَؤُلَاءِ مَنْ يَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ فِي حُصُولِ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ، فَإِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الْمَطَالِبِ لَا يَنَالُونَهَا غَالِبًا إِلَّا بِاسْتِعَانَتِهِمْ بِاللهِ ، وَتَوَكُّلِهِمْ عَلَيْهِ ، بَلْ قَدْ يَكُونُ تَوَكُّلُهُمْ أَقْوَىٰ مِنْ تَوَكُّلِ كَثِيرٍ مِنْ أَصْحَابِ الطَّاعَاتِ ، وَلِهَذَا يُلْقُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي الْمَتَالِفِ وَالْمَهَالِكِ ، مُعْتَمِدِينَ عَلَىٰ اللهِ أَنْ يُسَلِّمَهُمْ ، وَيُظْفِرَهُمْ بِمَطَالِبِهِمْ.

مِمَّنْ يَصِحُ التَّوَكُل :

كُلُّ مَنْ كَانَ بِاللهِ وَصِفَاتِهِ أَعْلَمُ وَأَعْرَفُ كَانَ تَوَكُّلُهُ أَصَحَّ وَأَقْوَى ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

عَدَمُ الرُّكُونِ إِلَى الأَسْبَابِ :

مِنْ تَمَامِ التَّوَكُّلِ عَدَمَ الرُّكُونِ إِلَىٰ الْأَسْبَابِ ، وَقَطْعَ عَلَاقَةِ الْقَلْبِ بِهَا؛ فَيَكُونُ حَالُ قَلْبِهِ قِيَامَهُ بِاللهِ لَا بِهَا ، وَحَالُ بَدَنِهِ قِيَامَهُ بِهَا.

التَّوَكُلُ مِنْ أَعْظَمِ التَّوْحِيْدِ:

فَالْأَسْبَابُ مَحَلُّ حِكْمَةِ اللهِ وَأَمْرِهِ وَدِينِهِ ، وَالتَّوَكُّلُ مُتَعَلِّقٌ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ، فَلَا تَقُومُ عُبُودِيَّةُ الْأَسْبَابِ إِلَّا عَلَىٰ سَاقِ التَّوَكُّلِ ، وَلَا يَقُومُ سَاقُ التَّوَكُّلِ إِلَّا عَلَىٰ قَدَمِ الْعُبُودِيَّةِ ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

التَّوَكُّلُ رُسُوخُ القَلْبِ فِي مَقَامِ التَّوْحِيْدِ :

فَإِنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ تَوَكُّلُ الْعَبْدِ حَتَّىٰ يَصِحَّ لَهُ تَوْحِيدُهُ، بَلْ حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ تَوْحِيدُ الْقَلْبِ، فَمَا دَامَتْ فِيهِ عَلَائِقُ الشِّرْكِ ، فَتَوَكُّلُهُ مَعْلُولٌ مَدْخُولٌ، وَعَلَىٰ قَدْرِ تَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ تَكُونُ صِحَّةُ التَّوَكُّلِ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ مَتَىٰ الْتَفَتَ إِلَىٰ غَيْرِ اللهِ أَخَذَ ذَلِكَ الِالْتِفَاتُ شُعْبَةً مِنْ شُعَبِ قَلْبِهِ، فَنَقَصَ مِنْ تَوَكُّلِهِ عَلَىٰ اللهِ بِقَدْرِ ذَهَابِ تِلْكَ الشُّعْبَةِ وَمِنْ هَاهُنَا ظَنَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ التَّوَكُّلَ لَا

يَصِحُّ إِلَّا بِرَفْضِ الْأَسْبَابِ، وَهَذَا حَقٌّ، لَكِنَّ رَفْضَهَا عَنِ الْقَلْبِ لَا عَنِ الْجَوَارِحِ.

فَالتَّوَكُّلُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِرَفْضِ الْأَسْبَابِ عَنِ الْقَلْبِ ، وَتَعَلُّقِ الْجَوَارِحِ بِهَا، فَيَكُونُ مُنْقَطِعًا مِنْهَا مُتَّصِلًا بِهَا ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

التَّوَكُلُ حُسْنُ الظَّنِّ بِاللهِ :

فَعَلَىٰ قَدْرِ حُسْنِ ظَنِّكَ بِرَبِّكَ وَرَجَائِكَ لَهُ ، يَكُونُ تَوَكُّلُكَ عَلَيْهِ،وَلِذَلِكَ فَسَّرَ بَعْضُهُمُ التَّوَكُّلَ بِحُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ.

وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِهِ يَدْعُوهُ إِلَىٰ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ، إِذْ لَا يُتَصَوَّرُ التَّوَكُّلُ عَلَىٰ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ ، وَلَا التَّوَكُّلُ عَلَىٰ مَنْ لَا تَرْجُوهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

الرِّضَا مِنْ ثِمَارِ التَّوَكُلِ :

وَهِيَ ثَمَرَةُ التَّوَكُّلِ، وَمَنْ فَسَّرَ التَّوَكُّلَ بِهَا فَإِنَّمَا فَسَّرَهُ بِأَجَلِّ ثَمَرَاتِهِ ، وَأَعْظَمِ فَوَائِدِهِ ، فَإِنَّهُ إِذَا تَوَكَّلَ حَقَّ التَّوَكُّلِ رَضِيَ بِمَا يَفْعَلُهُ وَكِيلُهُ.

وَكَانَ شَيْخُنَا – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – يَقُولُ: الْمَقْدُورُ يَكْتَنِفُهُ أَمْرَانِ: التَّوَكُّلُ قَبْلَهُ ، وَالرِّضَا بَعْدَهُ ، فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ قَبْلَ الْفِعْلِ، وَرَضِيَ بِالْمَقْضِيِّ لَهُ بَعْدَ الْفِعْلِ فَقَدْ قَامَ بِالْعُبُودِيَّةِ ، أَوْ مَعْنَىٰ هَذَا.

قُلْتُ: وَهَذَا مَعْنَىٰ قَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي دُعَاءِ الاسْتِخَارَةِ: « **اللهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ**- فَهَذَا تَوَكُّلٌ وَتَفْوِيضٌ- **ثُمَّ قَالَ: فَإِنَّكَ تَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ ، وَتَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ** »[(١)].

فَهَذَا تَبَرُّؤٌ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ ، وَتَوَسُّلٌ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِصِفَاتِهِ الَّتِي هِيَ أَحَبُّ مَا تَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِهَا الْمُتَوَسِّلُونَ، ثُمَّ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَقْضِيَ لَهُ ذَلِكَ الأَمْرَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَصْلَحَتُهُ ، عَاجِلًا أَوْ آجِلًا ، وَأَنْ يَصْرِفَهُ عَنْهُ إِنْ كَانَ فِيهِ مَضَرَّتُهُ ، عَاجِلًا أَوْ آجِلًا، فَهَذَا هُوَ حَاجَتُهُ الَّتِي سَأَلَهَا، فَلَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ إِلَّا الرِّضَا بِمَا يَقْضِيهِ لَهُ ، فَقَالَ: وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ.

فَقَدِ اشْتَمَلَ هَذَا الدُّعَاءُ عَلَىٰ هَذِهِ الْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَالْحَقَائِقِ الْإِيمَانِيَّةِ، الَّتِي مِنْ جُمْلَتِهَا التَّوَكُّلُ وَالتَّفْوِيضُ ، قَبْلَ وُقُوعِ الْمَقْدُورِ ، وَالرِّضَا بَعْدَهُ، وَهُوَ ثَمَرَةُ التَّوَكُّلِ ، وَالتَّفْوِيضُ عَلَامَةُ صِحَّتِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَرْضَ بِمَا قُضِيَ لَهُ، فَتَفْوِيضُهُ مَعْلُولٌ فَاسِدٌ.

الاعْتِمَادُ عَلَى الرَّاتِبِ :

وَأَكْثَرُ الْمُتَوَكِّلِينَ سُكُونُهُمْ وَطُمَأْنِينَتُهُمْ إِلَىٰ الْمَعْلُومِ، وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُ

(١)(صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٣٨٢) ، وَالتِّرْمِذِيُّ (٤٨٠) .

إِلَىٰ اللهِ ، وَعَلَامَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ مَتَىٰ انْقَطَعَ مَعْلُومُ أَحَدِهِمْ حَضَرَهُ هَمُّهُ وَبَثُّهُ وَخَوْفُهُ ، فَعَلِمَ أَنَّ طُمَأْنِينَتَهُ وَسُكُونَهُ لَمْ يَكُنْ إِلَىٰ اللهِ.

تَعَلُّقُ التَّوَكُّل بِالأَسْمَاءِ الحُسْنَى :

التَّوَكُّلُ مِنْ أَعَمِّ الْمَقَامَاتِ تَعَلُّقًا بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى.

فَإِنَّ لَهُ تَعَلُّقًا خَاصًّا بِعَامَّةِ أَسْمَاءِ الْأَفْعَالِ ، وَأَسْمَاءِ الصِّفَاتِ.

فَلَهُ تَعَلُّقٌ بِاسْمِ الْغَفَّارِ ، وَالتَّوَّابِ ، وَالْعَفُوِّ ، وَالرَّءُوفِ ، وَالرَّحِيمِ وَتَعَلُّقٌ بَاسِمِ الْفَتَّاحِ ، وَالْوَهَّابِ ، وَالرَّزَّاقِ ، وَالْمُعْطِي ، وَالْمُحْسِنِ ، وَتَعَلُّقٌ بِاسْمِ الْمُعِزِّ الْمُذِلِّ ، الْخَافِضِ الرَّافِعِ ، الْمَانِعِ ، مِنْ جِهَةِ تَوَكُّلِهِ عَلَيْهِ فِي إِذْلَالِ أَعْدَاءِ دِينِهِ ، وَخَفْضِهِمْ وَمَنْعِهِمْ أَسْبَابَ النَّصْرِ ، وَتَعَلُّقٌ بِأَسْمَاءِ الْقُدْرَةِ ، وَالْإِرَادَةِ وَلَهُ تَعَلُّقٌ عَامٌّ بِجَمِيعِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى ، وَلِهَذَا فَسَّرَهُ مَنْ فَسَّرَهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ بِأَنَّهُ الْمَعْرِفَةُ بِاللهِ.

وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّهُ بِحَسَبِ مَعْرِفَةِ الْعَبْدِ يَصِحُّ لَهُ مَقَامُ التَّوَكُّلِ ، وَكُلَّمَا كَانَ بِاللهِ أَعْرَفَ ، كَانَ تَوَكُّلُهُ عَلَيْهِ أَقْوَى.

مَقْصُودُ التَّوَكُّل :

قِيلَ : لَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَلَيْسَ لِلْعَبْدِ فِيهِ شَيْءٌ أَلْبَتَّةَ ، كَانَ تَوَكُّلُهُ عَلَىٰ اللهِ تَسْلِيمَ الْأَمْرِ إِلَىٰ مَنْ هُوَ لَهُ ، وَعَزْلَ نَفْسِهِ عَنْ مُنَازَعَاتِ مَالِكِهِ

وَاعْتِمادَهُ عَلَيْهِ فِيهِ ، وَخُرُوجَهُ عَنْ تَصَرُّفِهِ بِنَفْسِهِ وَحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ وَكَوْنِهِ بِهِ ، إِلَىٰ تَصَرُّفِهِ بِرَبِّهِ وَكَوْنِهِ بِهِ سُبْحَانَهُ دُونَ نَفْسِهِ ، وَهَذَا مَقْصُودُ التَّوَكُّلِ.

سُؤالُ الخَلْقِ مُنافٍ لِلتَّوكُّلِ :

فَإِنَّ الطَّلَبَ مِنَ الْخَلْقِ فِي الْأَصْلِ مَحْظُورٌ ، وَغَايَتُهُ: أَنْ يُبَاحَ لِلضَّرُورَةِ، كَإِبَاحَةِ الْمَيْتَةِ لِلْمُضْطَرِّ ، وَنَصَّ أَحْمَدُ عَلَىٰ أَنَّهُ لا يَجِبُ ، وَكَذَلِكَ كَانَ شَيْخُنَا يُشِيرُ إِلَىٰ أَنَّهُ لَا يَجِبُ الطَّلَبُ وَالسُّؤَالُ.

وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي السُّؤَالِ: هُوَ ظُلْمٌ فِي حَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ ، وَظُلْمٌ فِي حَقِّ الْخَلْقِ ، وَظُلْمٌ فِي حَقِّ النَّفْسِ.

أَمَّا فِي حَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ فَلِمَا فِيهِ مِنَ الذُّلِّ لِغَيْرِ اللهِ ، وَإِرَاقَةِ مَاءِ الْوَجْهِ لِغَيْرِ خَالِقِهِ ، وَالتَّعَوُّضِ عَنْ سُؤَالِهِ بِسُؤَالِ الْمَخْلُوقِينَ ، وَالتَّعَرُّضِ لِمَقْتِهِ إِذَا سَأَلَ وَعِنْدَهُ مَا يَكْفِيهِ يَوْمَهُ.

وَأَمَّا فِي حَقِّ النَّاسِ فَبِمُنَازَعَتِهِمْ مَا فِي أَيْدِيهِمْ بِالسُّؤَالِ ، وَاسْتِخْرَاجِهِ مِنْهُمْ ، وَأَبْغَضُ مَا إِلَيْهِمْ مَنْ يَسْأَلُهُمْ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَأَحَبُّ مَا إِلَيْهِمْ مَنْ لَا يَسْأَلُهُمْ، فَإِنَّ أَمْوَالَهُمْ مَحْبُوبَاتُهُمْ ، وَمَنْ سَأَلَكَ مَحْبُوبَكَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِمَقْتِكَ وَبُغْضِكَ.

وَأَمَّا ظُلْمُ السَّائِلِ نَفْسَهُ فَحَيْثُ امْتَهَنَهَا ، وَأَقَامَهَا فِي مَقَامِ ذُلِّ السُّؤَالِ، وَرَضِيَ لَهَا بِذُلِّ الطَّلَبِ مِمَّنْ هُوَ مِثْلُهُ ، أَوْ لَعَلَّ السَّائِلَ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَعْلَىٰ

قَدْرًا ، وَتَرَكَ سُؤَالَ مِنْ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشُّورَىٰ : ١١] ، فَقَدْ أَقَامَ السَّائِلُ نَفْسَهُ مَقَامَ الذُّلِّ ، وَأَهَانَهَا بِذَلِكَ ، وَرَضِيَ أَنْ يَكُونَ شَحَّاذًا مِنْ شَحَّاذٍ مِثْلِهِ ، فَإِنَّ مَنْ تَشْحَذُهُ فَهُوَ أَيْضًا شَحَّاذٌ مِثْلُكَ ، وَاللهُ وَحْدَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

فَسُؤَالُ الْمَخْلُوقِ لِلْمَخْلُوقِ سُؤَالُ الْفَقِيرِ لِلْفَقِيرِ ، وَالرَّبُّ تَعَالَىٰ كُلَّمَا سَأَلْتَهُ كَرُمْتَ عَلَيْهِ ، وَرَضِيَ عَنْكَ ، وَأَحَبَّكَ ، وَالْمَخْلُوقُ كُلَّمَا سَأَلْتَهُ هُنْتَ عَلَيْهِ وَأَبْغَضَكَ وَمَقَتَكَ وَقَلَاكَ ، كَمَا قِيلَ:

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبَنِيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

وَقَبِيحٌ بِالْعَبْدِ الْمُرِيدِ: أَنْ يَتَعَرَّضَ لِسُؤَالِ الْعَبِيدِ ، وَهُوَ يَجِدُ عِنْدَ مَوْلَاهُ كُلَّ مَا يُرِيدُهُ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: « **كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تِسْعَةً - أَوْ ثَمَانِيَةً، أَوْ سَبْعَةً - فَقَالَ: أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟ ، وَكُنَّا حَدِيثِي عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ، فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟ فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا وَقُلْنَا : قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ ، فَعَلَامَ نُبَايِعُكَ؟ فَقَالَ: أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ - وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً - وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا. قَالَ: وَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ**

يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا أَنْ يُنَاوِلَهُ إِيَّاهُ »[١].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: « **لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّىٰ يَلْقَىٰ اللهَ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مِزْعَةُ لَحْمٍ** »[٢].

وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ - وَهُوَ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ ، وَذَكَرَ الصَّدَقَةَ وَالتَّعَفُّفَ عَنِ الْمَسْأَلَةِ - : « **وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَالْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ ، وَالسُّفْلَىٰ هِيَ السَّائِلَةُ** »[٣].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: « **مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تَكَثُّرًا فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا، فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ** »[٤].

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الزَّكَاةِ بَاب كَرَاهِيَةُ الْمَسْأَلَةُ لِلنَّاسِ (١٠٤٣) ، وَأَبُو دَاوُد فِي الزَّكَاةِ بَاب الْبَيْعَة عَلَىٰ الصَّلَوَات الْخَمْس (١٦٤٢) .

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الزَّكَاة بَاب مَنْ سَأَلَ النَّاس تَكْثِيرًا (١٤٧٤) ، ورَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الزَّكَاة بَاب كَرَاهِيَةُ الْمَسْأَلَةُ لِلنَّاسِ (١٠٤٠) .

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الزَّكَاة بَاب لَا صَدَقَةَ إِلَّا عَنْ ظَهْرِ غِنَىٰ (١٤٢٩) ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الزَّكَاة بَاب أَنَّ الْيَد الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَد السُّفْلَىٰ (١٠٤٠) .

(٤) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الزَّكَاة بَاب كَرَاهِيَةُ الْمَسْأَلَةُ لِلنَّاسِ (١٠٤١) ، وَابْنُ مَاجَةُ فِي الزَّكَاةِ بَاب مَنْ سَأَلَ عَنْ ظَهْرِ غِنَىٰ (١٨٣٨) .

تَوكُّل النَّبِيِّ -صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- :

فَحَالُ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَحَالُ أَصْحَابِه محَكُّ الْأَحْوَالِ وَميزَانُهَا ، بهَا يُعْلَمُ صَحيحُهَا منْ سَقيمهَا، فَإِنَّ هِمَمَهُمْ كَانَتْ في التَّوَكُّلِ أَعْلَىٰ منْ هِمَمِ مَنْ بَعْدَهُمْ ، فَإِنَّ تَوكُّلَهُمْ كَانَ في فَتْح بَصَائِرِ الْقُلُوب ، وَأَنْ يُعْبَدَ اللهُ في جَميع الْبلَادِ ، وَأَنْ يُوَحِّدَهُ جَميعُ الْعبَادِ ، وَأَنْ تُشْرِقَ شُمُوسُ الدِّينِ الْحَقِّ عَلَىٰ قُلُوب الْعبَادِ ، فَمَلَئُوا بذَلكَ التَّوَكُّل الْقُلُوبَ هُدًىٰ وَإِيمَانًا ، وَفَتَحُوا بلَادَ الْكُفْر وَجَعَلُوهَا دَارَ إِيمَانٍ، وَهَبَّتْ رِيَاحُ رَوْح نَسَمَاتِ التَّوَكُّلِ عَلَىٰ قُلُوبِ أَتْبَاعِهِمْ فَمَلأَتْهَا يَقِينًا وَإِيمَانًا.

فَكَانَتْ هِمَمُ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - أَعْلَىٰ وَأَجلُّ مِنْ أَنْ يَصْرفَ أَحَدُهُمْ قُوَّةَ تَوكُّلِه وَاعْتمَادِه عَلَىٰ الله في شَيْءٍ يحْصُلُ بأَدْنَىٰ حِيْلَةٍ وَسَعْيٍ ، فَيَجْعَلُهُ نُصبَ عَيْنَيْهِ ، وَيحْمِلُ عَلَيْهِ قُوَىٰ تَوكُّله.

مَعِيَّةُ الله لِعَبْدِهِ :

فَإِنَّ الْمعِيَّةَ نَوْعَانِ : عَامَّةٌ : وَهِيَ : مَعيَّةُ الْعِلْم وَالْإِحَاطَة ، كَقَوْلِه تَعَالَىٰ: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحَديْد : ٤] ، وَقَوْلِه : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ﴾ [المُجادَلَة : ٧].

وَخَاصَّةٌ : وَهِيَ مَعِيَّةُ الْقُرْبِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ

ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النَّحلُ : ١٢٨] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البَقَرَةُ : ١٥٣] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العَنْكَبُوت : ٦٩] .

فَهَذِهِ مَعِيَّةُ قُرْبٍ، تَتَضَمَّنُ الْمُوَالَاةَ ، وَالنَّصْرَ ، وَالْحِفْظَ ، وَكِلَا الْمَعْنَيَيْنِ مُصَاحَبَةٌ مِنْهُ لِلْعَبْدِ ، لَكِنَّ هَذِهِ مُصَاحَبَةُ اطِّلَاعٍ وَإِحَاطَةٍ ، وَهَذِهِ مُصَاحَبَةُ مُوَالَاةٍ وَنَصْرٍ وَإِعَانَةٍ، فَـ ﴿ مَعَ ﴾ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ تُفِيدُ الصُّحْبَةَ اللَّائِقَةَ، لَا تُشْعِرُ بِامْتِزَاجٍ وَلَا اخْتِلَاطٍ ، وَلَا مُجَاوَرَةٍ ، وَلَا مُجَانَبَةٍ ، فَمَنْ ظَنَّ مِنْهَا شَيْئًا مِنْ هَذَا فَمِنْ سُوءِ فَهْمِهِ أُتِيَ .

أَهَمِيَّةُ التَّوْحِيدِ :

إِذَا طَلَعَتْ شَمْسُ التَّوْحِيدِ ، وَبَاشَرَتْ جَوَانِبُهَا الْأَرْوَاحَ ، وَنُورُهَا الْبَصَائِرَ ، تَجَلَّتْ بِهَا ظُلُمَاتُ النَّفْسِ وَالطَّبْعِ ، وَتَحَرَّكَتْ بِهَا الْأَرْوَاحُ فِي طَلَبِ مَنْ ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشُّورَىٰ : ١١] ، فَسَافَرَ الْقَلْبُ فِي بَيْدَاءِ الْأَمْرِ ، وَنَزَلَ مَنَازِلَ الْعُبُودِيَّةِ ، مَنْزِلًا مَنْزِلًا ، فَهُوَ يَنْتَقِلُ مِنْ عِبَادَةٍ إِلَىٰ عِبَادَةٍ ، مُقِيمٌ عَلَىٰ مَعْبُودٍ وَاحِدٍ ، فَلَا تَزَالُ شَوَاهِدُ الصِّفَاتِ قَائِمَةً بِقَلْبِهِ ، تُوقِظُهُ إِذَا رَقَدَ ، وَتُذَكِّرُهُ إِذَا غَفَلَ ، وَتَحْدُو بِهِ إِذَا سَارَ ، وَتُقِيمُهُ إِذَا قَعَدَ .

الأَرْوَاحُ خُلِقَتْ لِلبَقَاءِ لاَ لِلفَنَاء :

وَأَمَّا الْحَقُّ الَّذِي اتَّفَقَتْ عَلَيْه الرُّسُلُ وَأَتْبَاعُهُمْ : فَهُوَ أَنَّ هَذه الأَرْوَاحَ بَاقِيَةٌ بَعْدَ مُفَارَقَة أَبْدَانهَا ، لا تَفْنَىٰ وَلَا تُعْدَمُ ، وَأَنَّهَا مُنَعَّمَةٌ أَوْ مُعَذَّبَةٌ في الْبَرْزَخ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْمَعَادِ رُدَّتْ إِلَىٰ أَبْدَانِهَا ، فَتُنَعَّمُ مَعَهَا أَوْ تُعَذَّبُ ، وَلَا تُعْدَمُ وَلا تَفْنَىٰ .

المُعَطِّلُ شَرٌّ مِنَ المُشْرِك :

وَلَمَّا كَانَ أَحَبُّ الْأَشْيَاء إِلَيْه حَمْدَهُ وَمَدْحَهُ ، وَالثَّنَاءَ عَلَيْه بِأَسْمَائِه وَصِفَاته وَأَفْعَاله ؛ كَانَ إِنْكَارُهَا وَجَحْدُهَا أَعْظَمَ الإِلْحَادِ وَالْكُفْرِ بِه ، وَهُوَ شَرٌّ مِنَ الشِّرْك ، فَالْمُعَطِّلُ شَرٌّ مِنَ الْمُشْرِك ، فَإِنَّهُ لا يَسْتَوِي جَحْدُ صِفَاتِ الْمَلِك وَحَقِيقَةُ مُلْكه وَالطَّعْنُ في أَوْصَافه هُوَ وَالتَّشْرِيكُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْره في الْمُلْك ، فَالْمُعَطِّلُونَ أَعْدَاءُ الرُّسُل بِالذَّات ، بَلْ كُلُّ شِرْك في الْعَالَم فَأَصْلُهُ التَّعْطِيلُ ، فَإِنَّهُ لَوْلَا تَعْطِيلُ كَمَاله - أَوْ بَعْضِه - وَظَنُّ السَّوْءِ بِه : لَمَا أُشْرِكَ بِه ، كَمَا قَالَ إِمَامُ الْحُنَفَاءِ وَأَهْلِ التَّوْحِيد لِقَوْمه ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الصَّافَّات : ٨٦-٨٧] ،أَيْ فَمَا ظَنُّكُم بِه أَنْ يُجَازِيَكُمْ ، وَقَدْ عَبَدْتُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ؟ وَمَا الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِه حَتَّىٰ جَعَلْتُمْ مَعَهُ شُرَكَاءَ ؟ أَظَنَنْتُمْ : أَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ الشُّرَكَاءِ وَالأَعْوَانِ ؟ أَمْ ظَنَنْتُمْ : أَنَّهُ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ عِبَادِه ،

حَتَّىٰ يَحْتَاجَ إِلَىٰ شُرَكَاءَ تُعَرِّفُهُ بِهَا كَالْمُلُوكِ ؟ ، أَمْ ظَنَنْتُمْ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ وَحْدَهُ عَلَىٰ اسْتِقْلَالِهِ بِتَدْبِيرِهِمْ وَقَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ ، أَمْ هُوَ قَاسٍ ؛ فَيَحْتَاجَ إِلَىٰ شُفَعَاءَ يَسْتَعْطِفُونَهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ ؟ أَمْ ذَلِيلٌ ؛ فَيَحْتَاجَ إِلَىٰ وَلِيٍّ يَتَكَثَّرُ بِهِ مِنَ الْقِلَّةِ ، وَيَتَعَزَّزُ بِهِ مِنَ الذِّلَّةِ ؟ ، أَمْ يَحْتَاجُ إِلَىٰ الْوَلَدِ ؛ فَيَتَّخِذَ صَاحِبَةً يَكُونُ الْوَلَدُ مِنْهَا وَمِنْهُ ؟ ، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ عُلُوًّا كَبِيرًا .

وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ التَّعْطِيلَ مَبْدَأُ الشِّرْكِ وَأَسَاسُهُ ، فَلَا تَجِدُ مُعَطِّلًا إِلَّا وَشِرْكُهُ عَلَىٰ حَسَبِ تَعْطِيلِهِ ، فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ .

الإِيمَانُ بِالصِّفَاتِ :

فَالْإِيمَانُ بِالصِّفَاتِ وَمَعْرِفَتُهَا ، وَإِثْبَاتُ حَقَائِقِهَا ، وَتَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِهَا ، وَشُهُودُهُ لَهَا : هُوَ مَبْدَأُ الطَّرِيقِ وَوَسَطُهُ وَغَايَتُهُ ، وَهُوَ رُوحُ السَّالِكِينَ ، وَحَادِيهِمْ إِلَىٰ الْوُصُولِ ، وَمُحَرِّكُ عَزَمَاتِهِمْ إِذَا فَتَرُوا ، وَمُثِيرُ هِمَمِهِمْ إِذَا قَصَرُوا ، فَإِنَّ سَيْرَهُمْ إِنَّمَا هُوَ عَلَىٰ الشَّوَاهِدِ ، فَمَنْ كَانَ لَا شَاهِدَ لَهُ فَلَا سَيْرَ لَهُ ، وَلَا طَلَبَ وَلَا سُلُوكَ لَهُ ، وَأَعْظَمُ الشَّوَاهِدِ : صِفَاتُ مَحْبُوبِهِمْ ، وَنِهَايَةُ مَطْلُوبِهِمْ ، وَذَلِكَ هُوَ الْعَلَمُ الَّذِي رُفِعَ لَهُمْ فِي السَّيْرِ فَشَمَّرُوا إِلَيْهِ ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- : مَنْ رَأَىٰ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَدْ رَآهُ غَادِيًا رَائِحًا ، لَمْ يَضَعْ لَبِنَةً عَلَىٰ لَبِنَةٍ ، وَلَكِنْ رُفِعَ لَهُ عَلَمٌ فَشَمَّرَ إِلَيْهِ ، وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ فِي التَّوَانِي وَالْفُتُورِ وَالْكَسَلِ ،

حَتَّىٰ يَرْفَعَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- لَهُ - بِفَضْلِهِ وَمَنِّهِ - عَلَمًا يُشَاهِدُهُ بِقَلْبِهِ ، فَيُشَمِّرُ إِلَيْهِ ، وَيَعْمَلُ عَلَيْهِ .

أَسْمَاءُ اللهِ وَصِفَاتِهِ هِي الجَاذِبِيَّة للقُلُوبِ إلى مَحَبَّتِهِ :

فَإِنْ عُطِّلَتْ شَوَاهِدُ الصِّفَاتِ ، وَوُضِعَتْ أَعْلَامُهَا عَنِ الْقُلُوبِ، وَطُمِسَتْ آثَارُهَا، وَضُرِبَتْ بِسِيَاطِ الْبُعْدِ، وَأُسْبِلَ دُونَهَا حِجَابُ الطَّرْدِ، وَتَخَلَّفَتْ مَعَ الْمُتَخَلِّفِينَ ، وَأَوْحَىٰ إِلَيْهَا الْقَدَرُ : أَنِ اقْعُدِي مَعَ الْقَاعِدِينَ ، فَإِنَّ أَوْصَافَ الْمَدْعُوِّ إِلَيْهِ ، وَنُعُوتَ كَمَالِهِ ، وَحَقَائِقَ أَسْمَائِهِ : هِيَ الْجَاذِبَةُ لِلْقُلُوبِ إِلَىٰ مَحَبَّتِهِ ، وَطَلَبِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ ؛ لأَنَّ الْقُلُوبَ إِنَّمَا تُحِبُّ مَنْ تَعْرِفُهُ ، وَتَخَافُهُ وَتَرْجُوهُ وَتَشْتَاقُ إِلَيْهِ ، وَتَلْتَذُّ بِقُرْبِهِ ، وَتَطْمَئِنُّ إِلَىٰ ذِكْرِهِ، بِحَسَبِ مَعْرِفَتِهَا بِصِفَاتِهِ ، فَإِذَا ضُرِبَ دُونَهَا حِجَابُ مَعْرِفَةِ الصِّفَاتِ وَالْإِقْرَارِ بِهَا : امْتَنَعَ مِنْهَا - بَعْدَ ذَلِكَ - مَا هُوَ مَشْرُوطٌ بِالْمَعْرِفَةِ، وَمَلْزُومٌ لَهَا ، إِذْ وُجُودُ الْمَلْزُومِ بِدُونِ لَازِمِهِ ، وَالْمَشْرُوطِ بِدُونِ شَرْطِهِ ، مُمْتَنِعٌ .

فَحَقِيقَةُ الْمَحَبَّةِ ، وَالْإِنَابَةِ ، وَالتَّوَكُّلِ ، وَمَقَامِ الْإِحْسَانِ مُمْتَنِعٌ عَلَىٰ الْمُعَطِّلِ امْتِنَاعَ حُصُولِ الْمُغَلِ مِنْ مُعَطِّلِ الْبَذْرِ ، بَلْ أَعْظَمُ امْتِنَاعًا .

السُّنَّةُ فَصَّلَتْ الصِّفَاتِ أَتمَّ التَّفْصِيْلِ :

فَأَمَّا الرِّسَالَةُ : فَإِنَّهَا جَاءَتْ بِإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ إِثْبَاتًا مُفَصَّلًا عَلَىٰ وَجْهٍ أَزَالَ الشُّبْهَةَ ، وَكَشَفَ الْغِطَاءِ ، وَحَصَلَ الْعِلْمُ الْيَقِينِيُّ ، وَرُفِعَ

الشَّكُّ وَالرَّيْبُ ؛ فَثَلَجَتْ لَهُ الصُّدُور ، وَاطْمَأَنَّتْ بِهِ الْقُلُوبُ ، وَاسْتَقَرَّ بِهِ الْإِيمَانُ فِي نِصَابِه، فَفَصَّلَت الرِّسَالَةُ الصِّفَات وَالنُّعُوتَ وَالْأَفْعَالَ أَعْظَمَ مِنْ تَفْصِيلِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَقَرَّرَتْ إِثْبَاتَهَا أَكْمَلَ تَقْرِيرٍ فِي أَبْلَغِ لَفْظٍ ، وَأَبْعَده مِنَ الْإِجْمَالِ وَالاحْتِمَالِ ، وَأَمْنَعه مِنْ قَبُولِ التَّأْوِيل ، وَكَذَلِكَ كَانَ تَأْوِيلُ آيَاتِ الصِّفَاتِ وَأَحَادِيثِهَا بِمَا يُخْرِجُهَا عَنْ حَقَائِقِهَا مِنْ جِنْسِ تَأْوِيلِ آيَاتِ الْمَعَادِ وَأَخْبَارِهِ ، بَلْ أَبْعَدُ مِنْهُ لِوُجُوهٍ كَثِيرَةٍ ، ذَكَرْتُهَا فِي كِتَابِ « الصَّوَاعِق الْمُرْسَلَةِ عَلَىٰ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعَطِّلَةِ » ، بَلْ تَأْوِيلُ آيَاتِ الصِّفَاتِ - بِمَا يُخْرِجُهَا عَنْ حَقَائِقِهَا - كَتَأْوِيلِ آيَاتِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ سَوَاءً ، فَالْبَابُ كُلُّهُ بَابٌ وَاحِدٌ ، وَمَصْدَرُهُ وَاحِدٌ ، وَمَقْصُودُهُ وَاحِدٌ ، وَهُوَ إِثْبَاتُ حَقَائِقِهِ وَالْإِيمَانُ بِهَا .

تَأْوِيلُ الصِّفَاتِ أَصْلُ فَسَادِ الدُّنْيَا والدِّيْنِ :

وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي كِتَابِ الصَّوَاعِقِ أَنَّ تَأْوِيلَ آيَاتِ الصِّفَاتِ وَأَخْبَارِهَا - بِمَا يُخْرِجُهَا عَنْ حَقَائِقِهَا - هُوَ أَصْلُ فَسَادِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ ، وَزَوَالُ الْمَمَالِك ، وَتَسْلِيطُ أَعْدَاءِ الْإِسْلَام عَلَيْهِ ؛ إِنَّمَا كَانَ بِسَبَبِ التَّأْوِيل ، وَيَعْرِفُ هَذَا مَنْ لَهُ اطِّلَاعٌ وَخِبْرَةٌ بِمَا جَرَىٰ فِي الْعَالَمِ ، وَلِهَذَا يُحَرِّمُ عُقَلَاءُ الْفَلَاسِفَةِ التَّأْوِيلَ مَعَ اعْتِقَادِهِمْ لِصِحَّتِهِ ؛ لِأَنَّهُ سَبَبٌ لِفَسَادِ الْعَالَمِ ، وَتَعْطِيلِ الشَّرَائِعِ .

وَمَنْ تَأَمَّلَ كَيْفِيَّةَ وُرُودِ آيَاتِ الصِّفَاتِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ : عَلِمَ قَطْعًا بُطْلَانَ تَأْوِيلِهَا بِمَا يُخْرِجُهَا عَنْ حَقَائِقِهَا ، فَإِنَّهَا وَرَدَتْ عَلَىٰ وَجْهٍ لَا يُحْتَمَلُ مَعَهُ التَّأْوِيلُ بِوَجْهٍ .

فَانْظُرْ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ** ﴾ [الأَنْعَام: ١٥٨] ، هَلْ يَحْتَمِلُ هَذَا التَّقْسِيمُ وَالتَّنْوِيعُ : تَأْوِيلَ إِتْيَانِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ بِإِتْيَانِ مَلَائِكَتِهِ أَوْ آيَاتِهِ؟ وَهَلْ يَبْقَىٰ مَعَ هَذَا السِّيَاقِ شُبْهَةٌ أَصْلًا: أَنَّهُ إِتْيَانُهُ بِنَفْسِهِ؟ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ ﴿ **إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ** ﴾ - إِلَىٰ أَنْ قَالَ- ﴿ **وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾** ﴾ [النِّسَاء: ١٦٣-١٦٤] ، فَفَرَّقَ بَيْنَ الْإِيحَاءِ الْعَامِّ ، وَالتَّكْلِيمِ الْخَاصِّ ، وَجَعَلَهُمَا نَوْعَيْنِ ، ثُمَّ أَكَّدَ فِعْلَ التَّكْلِيمِ بِالْمَصْدَرِ الرَّافِعِ لِتَوَهُّمِ مَا يَقُولُهُ الْمُحَرِّفُونَ .

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ ۞ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا** ﴾ [الشُّورَىٰ : ٥١] ، فَنَوَّعَ تَكْلِيمَهُ إِلَىٰ تَكْلِيمٍ بِوَاسِطَةٍ ، وَتَكْلِيمٍ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ لِمُوسَىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- ﴿ **إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى** ﴾ [النِّسَاء : ١٤٤] ، فَفَرَّقَ بَيْنَ الرِّسَالَةِ وَالْكَلَامِ ، وَالرِّسَالَةُ إِنَّمَا هِيَ بِكَلَامِهِ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « **إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا ، كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فِي الصَّحْوِ ، لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ ، وَكَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ**

فِي الظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ »[١] ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا الْبَيَانَ وَالْكَشْفَ وَالاحْتِرَازَ : يُنَافِي إِرَادَةَ التَّأْوِيلِ قَطْعًا ، وَلَا يَرْتَابُ فِي هَذَا مَنْ لَهُ عَقْلٌ وَدِينٌ .

المَخْلُوقَاتُ شَوَاهِدُ صِفَاتُ الرَّبِّ ـ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى ـ :

وَإِذَا اعْتَبَرْتَ الْمَخْلُوقَاتِ وَالْمَأْمُورَاتِ، وَجَدْتَهَا بِأَسْرِهَا كُلِّهَا دَالَّةً عَلَىٰ النُّعُوتِ وَالصِّفَاتِ، وَحَقَائِقِ الأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَعَلِمْتَ أَنَّ الْمُعَطِّلَةَ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ عَمًىٰ بِمُكَابَرَةٍ، وَيَكْفِي ظُهُورُ شَاهِدِ الصُّنْعِ فِيكَ خَاصَّةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذَّارِيَات : ٢١] ، فَالْمَوْجُودَاتُ بِأَسْرِهَا شَوَاهِدُ صِفَاتِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَنُعُوتِهِ وَأَسْمَائِهِ، فَهِيَ كُلُّهَا تُشِيرُ إِلَىٰ الأَسْمَاءِ الْحُسْنَىٰ وَحَقَائِقِهَا، وَتُنَادِي عَلَيْهَا، وَتَدُلُّ عَلَيْهَا ، وَتُخْبِرُ بِهَا بِلِسَانِ النُّطْقِ وَالْحَالِ ، كَمَا قِيلَ :

تَأَمَّلْ سُطُورَ الْكَائِنَاتِ فَإِنَّهَا ... مِنَ الْمَلِكِ الأَعْلَىٰ إِلَيْكَ رَسَائِلُ

وَقَدْ خَطَّ فِيهَا لَوْ تَأَمَّلْتَ خَطَّهَا ... أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ

تُشِيرُ بِإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ لِرَبِّهَا ... فَصَامِتُهَا يَهْدِي وَمَنْ هُوَ قَائِلُ

فَلَسْتَ تَرَىٰ شَيْئًا أَدَلَّ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ دَلَالَةِ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَىٰ صِفَاتِ خَالِقِهَا ، وَنُعُوتِ كَمَالِهِ ، وَحَقَائِقِ أَسْمَائِهِ ، وَقَدْ تَنَوَّعَتْ أَدِلَّتُهَا بِحَسَبِ

---

(١)(صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٧٤٣٩) ، وَمُسْلِمٌ (١٨٢) .

تَنَوُّعِهَا ، فَهِيَ تَدُلُّ عَقْلًا وَحِسًّا ، وَفِطْرَةً وَنَظَرًا ، وَاعْتِبَارًا .

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ :

الثَّالِثُ : عَدَمُ تَشْبِيهِهَا بِمَا لِلْمَخْلُوقِ ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، لَا فِي ذَاتِهِ ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ ، فَالْعَارِفُونَ بِهِ ، الْمُصَدِّقُونَ لِرُسُلِهِ ، الْمُقِرُّونَ بِكَمَالِهِ : يُثْبِتُونَ لَهُ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ ، وَيَنْفُونَ عَنْهُ مُشَابَهَةَ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَيَجْمَعُونَ بَيْنَ الْإِثْبَاتِ وَنَفْيِ التَّشْبِيهِ ، وَبَيْنَ التَّنْزِيهِ وَعَدَمِ التَّعْطِيلِ ، فَمَذْهَبُهُمْ حَسَنَةٌ بَيْنَ سَيِّئَتَيْنِ ، وَهُدًى بَيْنَ ضَلَالَتَيْنِ ، فَصِرَاطُهُمْ صِرَاطُ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ ، وَصِرَاطُ غَيْرِهِمْ صِرَاطُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ : لَا نُزِيلُ عَنِ اللهِ صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ ، لِأَجْلِ شَنَاعَةِ الْمُشَنِّعِينَ ، وَقَالَ : التَّشْبِيهُ : أَنْ تَقُولَ يَدٌ كَيَدِي ، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

الْعَمَلُ بِالْأَسْبَابِ :

وَنَحْنُ نَقُولُ : إِنَّ الدِّينَ هُوَ إِثْبَاتُ الْأَسْبَابِ، وَالْوُقُوفُ مَعَهَا ، وَالنَّظَرُ إِلَيْهَا ، وَالِالْتِفَاتُ إِلَيْهَا ، وَإِنَّهُ لَا دِينَ إِلَّا بِذَلِكَ .

بِالْأَسْبَابِ عُرِفَ اللهُ :

وَبِالْأَسْبَابِ عُرِفَ اللهُ ، وَبِهَا عُبِدَ اللهُ ، وَبِهَا أُطِيعَ اللهُ ، وَبِهَا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ الْمُتَقَرِّبُونَ ، وَبِهَا نَالَ أَوْلِيَاؤُهُ رِضَاهُ وَجِوَارَهُ فِي جَنَّتِهِ ، وَبِهَا نُصِرَ حِزْبُهُ

وَدِينُهُ ، وَأَقَامُوا دَعْوَتَهُ ، وَبِهَا أَرْسَلَ رُسُلَهُ وَشَرَعَ شَرَائِعَهُ ، وَبِهَا انْقَسَمَ النَّاسُ إِلَىٰ سَعِيدٍ وَشَقِيٍّ ، وَمُهْتَدٍ وَغَوِيٍّ ، فَالْوُقُوفُ مَعَهَا وَالالْتِفَاتُ إِلَيْهَا وَالنَّظَرُ إِلَيْهَا : هُوَ الْوَاجِبُ شَرْعًا ، كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ قَدَرًا ، وَلَا تَكُنْ مِمَّنْ غَلُظَ حِجَابُهُ ، وَكَثُفَ طَبْعُهُ فَيَقُولُ : لَا نَقِفُ مَعَهَا وُقُوفَ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهَا مُسْتَقِلَّةٌ بِالْإِحْدَاثِ وَالتَّأْثِيرِ ، وَأَنَّهَا أَرْبَابٌ مِنْ دُونِ اللهِ، فَإِنْ وَجَدْتَ أَحَدًا يَزْعُمُ ذَلِكَ ، وَيَظُنُّ أَنَّهَا أَرْبَابٌ ، وَآلِهَةٌ مَعَ اللهِ مُسْتَقِلَّةٌ بِالْإِيجَادِ ، أَوْ أَنَّهَا عَوْنٌ للهِ يَحْتَاجُ فِي فِعْلِهِ إِلَيْهَا ، أَوْ أَنَّهَا شُرَكَاءُ لَهُ : فَشَأْنُكَ بِهِ ، فَمَزِّقْ أَدِيمَهُ ، وَتَقَرَّبْ إِلَىٰ اللهِ بِعَدَاوَتِهِ مَا اسْتَطَعْتَ ، وَإِلَّا فَمَا هَذَا النَّفْيُ لِمَا أَثْبَتَهُ اللهُ ؟ وَالْإِلْغَاءُ لِمَا اعْتَبَرَهُ ؟ ، وَالْإِهْدَارُ لِمَا حَقَّقَهُ ؟، وَالْحَطُّ وَالْوَضْعُ لِمَا نَصَبَهُ ؟ ، وَالْمَحْوُ لِمَا كَتَبَهُ ؟ ، وَالْعَزْلُ لِمَا وَلَّاهُ ؟ ، فَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّكَ تَعْزِلُهَا عَنْ رُتْبَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، فَسُبْحَانَ اللهِ مَنْ وَلَّاهَا هَذِهِ الرُّتْبَةَ حَتَّىٰ تَجْعَلَ سَعْيَكَ فِي عَزْلِهَا عَنْهَا ؟.

وَيَاللهِ مَا أَجْهَلَ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالتَّصَوُّفِ ، حَيْثُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ إِلَّا بِإِلْغَائِهَا وَمَحْوِهَا ، وَإِهْدَارِهَا بِالْكُلِّيَّةِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ فِي الْمَخْلُوقَاتِ قُوًى وَلَا طَبَائِعَ ، وَلَا غَرَائِزَ لَهَا تَأْثِيرٌ مُوجِبَةٍ مَا، وَلَا فِي النَّارِ حَرَارَةً وَلَا إِحْرَاقًا ، وَلَا فِي الدَّوَاءِ قُوَّةً مُذْهِبَةً لِلدَّاءِ ، وَلَا فِي الْخُبْزِ قُوَّةً مُشْبِعَةً ، وَلَا فِي الْمَاءِ قُوَّةً مُرَوِّيَةً ، وَلَا فِي الْعَيْنِ قُوَّةً بَاصِرَةً، وَلَا فِي الْأَنْفِ قُوَّةً شَامَّةً ، وَلَا فِي السُّمِّ قُوَّةً قَاتِلَةً ، وَلَا فِي الْحَدِيدِ قُوَّةً

قَاطِعَةً؟ ، وَأَنَّ اللهَ لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا بِشَيْءٍ ، وَلَا فَعَلَ شَيْئًا لِأَجْلِ شَيْءٍ .

فَهَذَا غَايَةُ تَوْحِيدِهِمُ الَّذِي يَحُومُونَ حَوْلَهُ ، وَيُبَالِغُونَ فِي تَقْرِيرِهِ .

فَلَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ أَضْحَكُوا عَلَيْهِمُ الْعُقَلَاءَ ، وَأَشْمَتُوا بِهِمُ الْأَعْدَاءَ ، وَنَهَجُوا لِأَعْدَاءِ الرُّسُلِ طَرِيقَ إِسَاءَةِ الظَّنِّ بِهِمْ ، وَجَنَوْا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْقُرْآنِ أَعْظَمَ جِنَايَةٍ ، وَقَالُوا : نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ وَرَسُولِهِ ، الْمُوَكَّلُونَ بِكَسْرِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ وَأَعْدَاءِ الرُّسُلِ ، وَلَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ كَسَرُوا الدِّينَ وَسَلَّطُوا عَلَيْهِ الْمُبْطِلِينَ ، وَقَدْ قِيلَ : إِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ الْجَاهِلِ ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرُّكَ .

التَّوْحِيدُ أَوَّلُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ ، وَأَوَّلُ مَنَازِلِ الطَّرِيقِ ، وَأَوَّلُ مَقَامٍ يَقُومُ فِيهِ السَّالِكُ إِلَى اللهِ تَعَالَى : قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأَعْرَافُ :٥٩] ، وَقَالَ هُودٌ لِقَوْمِهِ : ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأَعْرَافُ :٦٥] ، وَقَالَ صَالِحٌ لِقَوْمِهِ : ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأَعْرَافُ :٧٣] ، وَقَالَ شُعَيْبٌ لِقَوْمِهِ : ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأَعْرَافُ :٨٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النَّحْلُ :٣٦] .

التَّوْحِيدُ مِفْتَاحُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ :

فَالتَّوْحِيدُ: مِفْتَاحُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِرَسُولِهِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وَقَدْ بَعَثَهُ إِلَىٰ الْيَمَنِ-: « **إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ ، فَإِذَا شَهِدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ**»[1]، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ** »[2] .

وَلِهَذَا كَانَ الصَّحِيحُ : أَنَّ أَوَّلَ وَاجِبٍ يَجِبُ عَلَىٰ الْمُكَلَّفِ : شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، لَا النَّظَرُ ، وَلَا الْقَصْدُ إِلَىٰ النَّظَرِ ، وَلَا الشَّكُّ -كَمَا هِيَ أَقْوَالٌ لِأَرْبَابِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ .

فَالتَّوْحِيدُ : أَوَّلُ مَا يَدْخُلُ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَآخِرُ مَا يَخْرُجُ بِهِ مِنَ الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ** »[3] ، فَهُوَ أَوَّلُ وَاجِبٍ ، وَآخِرُ وَاجِبٍ ، فَالتَّوْحِيدُ

---

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٤) ، وَمُسْلِمٌ (١١) .
(٢) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٥) ، وَمُسْلِمٌ (٢٢) .
(٣) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سُنَنِهِ (٣١١٦) وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيْحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُد» (٢٦٧٣) .

: أَوَّلُ الْأَمْرِ وَآخِرُهُ .

التَّعَلُّقُ بِالأَسْبَابِ تَعَلُّقًا زَائِدًا نَوْعٌ مِنَ الشِّرْكِ :

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : الالْتِفَاتُ إِلَىٰ الْأَسْبَاب شِرْكٌ فِي التَّوْحِيد، وَمَحْوُ الْأَسْبَابِ - أَنْ تَكُونَ أَسْبَابًا - تَغْيِيرٌ فِي وَجْهِ الْعَقْلِ ، وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الْأَسْبَابِ بِالْكُلِّيَّةِ : قَدْحٌ فِي الشَّرْعِ ، وَالتَّوَكُّلُ مَعْنًىٰ يَلْتَئِمُ مِنْ مَعْنَىٰ التَّوْحِيدِ وَالْعَقْلِ وَالشَّرْعِ .

وَهَذَا الْكَلَامُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ شَرْحٍ وَتَقْيِيدٍ، فَالِالْتِفَاتُ إِلَىٰ الْأَسْبَاب ضَرْبَانِ، أَحَدُهُمَا : شِرْكٌ ، وَالْآخَرُ : عُبُودِيَّةٌ وَتَوْحِيدٌ ، فَالشِّرْكُ : أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَيْهَا وَيَطْمَئِنَّ إِلَيْهَا ، وَيَعْتَقِدَ أَنَّهَا بِذَاتِهَا مُحَصِّلَةٌ لِلْمَقْصُودِ ، فَهُوَ مُعْرِضٌ عَنِ السَّبَبِ لَهَا ، وَيَجْعَلُ نَظَرَهُ وَالْتِفَاتَهُ مَقْصُورًا عَلَيْهَا ، وَأَمَّا إِنِ الْتَفَتَ إِلَيْهَا الْتِفَاتَ امْتِثَالٍ وَقِيَامٍ بِهَا وَأَدَاءٍ لِحَقِّ الْعُبُودِيَّةِ فِيهَا ، وَإِنْزَالِهَا مَنَازِلَهَا : فَهَذَا الِالْتِفَاتُ عُبُودِيَّةٌ وَتَوْحِيدٌ ، إِذْ لَمْ يَشْغَلْهُ عَنِ الِالْتِفَاتِ إِلَىٰ الْمُسَبِّبِ .

حَالُ المُتَوَكِّلِ مَعَ الأَسْبَابِ :

الْمُتَوَكِّلُ : لَا يَلْتَفِتُ إِلَىٰ الْأَسْبَابِ ، بِمَعْنَىٰ أَنَّهُ لَا يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا ، وَلَا يَرْجُوهَا وَلَا يَخَافُهَا ، فَلَا يَرْكَنُ إِلَيْهَا ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا - بِمَعْنَىٰ أَنَّهُ لَا

يُسْقِطُهَا وَلَا يُهْمِلُهَا وَيُلْغِيهَا - بَلْ يَكُونُ قَائِمًا بِهَا ، مُلْتَفِتًا إِلَيْهَا ، نَاظِرًا إِلَىٰ مُسَبِّبِهَا سُبْحَانَهُ وَمُجْرِيهَا ، فَلَا يَصِحُّ التَّوَكُّلُ - شَرْعًا وَعَقْلًا - إِلَّا عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَحْدَهُ .

الاعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ

لِمَنْ ضُمِنَتْ النَّجَاةُ:

وَإِنَّمَا ضُمِنَتِ النَّجَاةُ لِمَنْ حَكَّمَ هُدَىٰ اللهِ عَلَىٰ غَيْرِهِ، وَتَزَوَّدَ التَّقْوَىٰ وَائْتَمَّ بِالدَّلِيلِ، وَسَلَكَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَاسْتَمْسَكَ مِنَ الْوَحْيِ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ الَّتِي لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ صِرَاطُ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ:

وَلَمَّا كَانَ طَالِبُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ طَالِبَ أَمْرٍ أَكْثَرُ النَّاسِ نَاكِبُونَ عَنْهُ، مُرِيدًا لِسُلُوكِ طَرِيقٍ مُرَافِقُهُ فِيهَا فِي غَايَةِ الْقِلَّةِ وَالْعِزَّةِ، وَالنُّفُوسُ مَجْبُولَةٌ عَلَىٰ وَحْشَةِ التَّفَرُّدِ، وَعَلَىٰ الْأُنْسِ بِالرَّفِيقِ، نَبَّهَ اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ الرَّفِيقِ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ، وَأَنَّهُمْ هُمْ ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ٦٩﴾ [النِّسَاء: ٦٩]، فَأَضَافَ الصِّرَاطَ إِلَىٰ الرَّفِيقِ السَّالِكِينَ لَهُ، وَهُمُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ، لِيَزُولَ عَنِ الطَّالِبِ لِلْهِدَايَةِ وَسُلُوكِ الصِّرَاطِ وَحْشَةُ تَفَرُّدِهِ عَنْ أَهْلِ زَمَانِهِ وَبَنِي جِنْسِهِ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّ رَفِيقَهُ فِي هَذَا الصِّرَاطِ هُمُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَلَا يَكْتَرِثُ بِمُخَالَفَةِ النَّاكِبِينَ عَنْهُ لَهُ، فَإِنَّهُمْ

هُمُ الْأَقَلُّونَ قَدْرًا، وَإِنْ كَانُوا الْأَكْثَرِينَ عَدَدًا، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: « عَلَيْكَ بِطَرِيقِ الْحَقِّ، وَلَا تَسْتَوْحِشْ لِقِلَّةِ السَّالِكِينَ، وَإِيَّاكَ وَطَرِيقَ الْبَاطِلِ، وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْهَالِكِينَ » ، وَكُلَّمَا اسْتَوْحَشْتَ فِي تَفَرُّدِكَ فَانْظُرْ إِلَىٰ الرَّفِيقِ السَّابِقِ، وَاحْرِصْ عَلَىٰ اللَّحَاقِ بِهِمْ، وَغُضَّ الطَّرْفَ عَمَّنْ سِوَاهُمْ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَإِذَا صَاحُوا بِكَ فِي طَرِيقِ سَيْرِكَ فَلَا تَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّكَ مَتَىٰ الْتَفَتَّ إِلَيْهِمْ أَخَذُوكَ وَعَاقُوكَ.

وَقَدْ ضَرَبْتُ لِذَلِكَ مَثَلَيْنِ، فَلْيَكُونَا مِنْكَ عَلَى بَالٍ:

الْمَثَلُ الْأَوَّلُ: رَجُلٌ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، لَا يُرِيدُ غَيْرَهَا، فَعَرَضَ لَهُ فِي طَرِيقِهِ شَيْطَانٌ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ، فَأَلْقَىٰ عَلَيْهِ كَلَامًا يُؤْذِيهِ، فَوَقَفَ وَرَدَّ عَلَيْهِ، وَتَمَاسَكَا، فَرُبَّمَا كَانَ شَيْطَانُ الْإِنْسِ أَقْوَىٰ مِنْهُ، فَقَهَرَهُ، وَمَنَعَهُ عَنِ الْوُصُولِ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ، حَتَّىٰ فَاتَتْهُ الصَّلَاةُ، وَرُبَّمَا كَانَ الرَّجُلُ أَقْوَىٰ مِنْ شَيْطَانِ الْإِنْسِ، وَلَكِنِ اشْتَغَلَ بِمُهَاوَشَتِهِ عَنِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ، وَكَمَالِ إِدْرَاكِ الْجَمَاعَةِ، فَإِنِ الْتَفَتَ إِلَيْهِ أَطْمَعَهُ فِي نَفْسِهِ، وَرُبَّمَا فَتَرَتْ عَزِيمَتُهُ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَعْرِفَةٌ وَعِلْمٌ زَادَ فِي السَّعْيِ وَالْجَمْزِ بِقَدْرِ الْتِفَاتِهِ أَوْ أَكْثَرَ، فَإِنْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَاشْتَغَلَ لِمَا هُوَ بِصَدَدِهِ، وَخَافَ فَوْتَ الصَّلَاةِ أَوِ الْوَقْتِ لَمْ يَبْلُغْ عَدُوُّهُ مِنْهُ مَا شَاءَ.

الْمَثَلُ الثَّانِي: الظَّبْيُ أَشَدُّ سَعْيًا مِنَ الْكَلْبِ، وَلَكِنَّهُ إِذَا أَحَسَّ بِهِ الْتَفَتَ

إِلَيْهِ فَيَضْعُفُ سَعْيُهُ، فَيُدْرِكُهُ الْكَلْبُ فَيَأْخُذُهُ.

وَالْقَصْدُ: أَنَّ فِي ذِكْرِ هَذَا الرَّفِيقِ مَا يُزِيلُ وَحْشَةَ التَّفَرُّدِ، وَيَحُثُّ عَلَىٰ السَّيْرِ وَالتَّشْمِيرِ لِلَّحَاقِ بِهِمْ.

الْفَائِدَةُ الأُولَى : وَهَذِهِ إِحْدَىٰ الْفَوَائِدِ فِي دُعَاءِ الْقُنُوتِ « **اللهُمَّ اهْدِنِـي فِيمَنْ هَدَيْتَ**» [(١)] أَيْ أَدْخِلْنِي فِي هَذِهِ الزُّمْرَةِ، وَاجْعَلْنِي رَفِيقًا لَهُمْ وَمَعَهُمْ.

وَالْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ تَوَسُّلٌ إِلَىٰ اللهِ بِنِعَمِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَىٰ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالْهِدَايَةِ ، أَيْ: قَدْ أَنْعَمْتَ بِالْهِدَايَةِ عَلَىٰ مَنْ هَدَيْتَ، وَكَانَ ذَلِكَ نِعْمَةً مِنْكَ، فَاجْعَلْ لِي نَصِيبًا مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَاجْعَلْنِي وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ، فَهُوَ تَوَسُّلٌ إِلَىٰ اللهِ بِإِحْسَانِهِ.

وَالْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: كَمَا يَقُولُ السَّائِلُ لِلْكَرِيمِ: تَصَدَّقْ عَلَيَّ فِي جُمْلَةِ مَنْ تَصَدَّقْتَ عَلَيْهِمْ، وَعَلِّمْنِي فِي جُمْلَةِ مَنْ عَلَّمْتَهُ، وَأَحْسِنْ إِلَيَّ فِي جُمْلَةِ مَنْ شَمِلْتَهُ بِإِحْسَانِكَ.

أَسْبَابُ ظُهُورِ الكَرَامَاتِ بَعْدَ عَصْرِ الصَّحَابَةِ :

وَنَظِيرُ هَذَا الْكَرَامَاتُ الَّتِي ظَهَرَتْ بَعْدَ عَصْرِ الصَّحَابَةِ، وَلَمْ تَظْهَرْ

---

(١) (صَحِيْحٌ) صَحَحَهُ الأَلْبَانِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ– فِي «صَحِيْحِ ابْنِ مَاجَهْ» (٩٦٧) وَ«صَحِيْحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُد » (١٢٦٣) .

عَلَيْهِمْ، لاسْتِغْنَائِهِمْ عَنْهَا بِقُوَّةِ إِيمَانِهِمْ، وَاحْتِيَاجِ مَنْ بَعْدَهُمْ إِلَيْهَا لِضَعْفِ إِيمَانِهِمْ، وَقَدْ نَصَّ أَحْمَدُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، وَقَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ: رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ كَلامٌ يُكَلِّمُ بِهِ الرَّبُّ عَبْدَهُ فِي الْمَنَامِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ**، قِيلَ: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ **قَالَ: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ أَوْ تُرَى لَهُ** » [(١)] ، وَإِذَا تَوَاطَأَتْ رُؤْيَا الْمُسْلِمِينَ لَمْ تَكْذِبْ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِأَصْحَابِهِ لَمَّا أُرُوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، قَالَ : «**أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَحَرِّيَهَا فَلْيَتَحَرَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ** » [(٢)] .

أَقْسَامُ الرُّؤْيَا :

وَالرُّؤْيَا كَالْكَشْفِ، مِنْهَا رَحْمَانِيٌّ، وَمِنْهَا نَفْسَانِيٌّ، وَمِنْهَا شَيْطَانِيٌّ، وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **الرُّؤْيَا ثَلَاثَةٌ: رُؤْيَا مِنَ اللهِ، وَرُؤْيَا تَحْزِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ بِهِ الرَّجُلُ نَفْسَهُ فِي الْيَقْظَةِ، فَيَرَاهُ فِي الْمَنَامِ** » [(٣)] .

---

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٩٩٠) ، بِدُونِ «**يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ أَوْ تُرَى لَهُ** » وَمَالِكٌ فِي الْمُوَطَّأ (٢/ ٩٥٧) .
(٢) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١١٥٨) ، وَمُسْلِمٌ (١١٦٥) .
(٣) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٧٠١٧) ، وَمُسْلِمٌ (٢٢٦٣) .

وَالَّذِي هُوَ مِنْ أَسْبَابِ الْهِدَايَةِ: هُوَ الرُّؤْيَا الَّتِي مِنَ اللهِ خَاصَّةً.

وَرُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ، فَإِنَّهَا مَعْصُومَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَهَذَا بِاتِّفَاقِ الْأُمَّةِ، وَلِهَذَا أَقْدَمَ الْخَلِيلُ عَلَىٰ ذَبْحِ ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- بِالرُّؤْيَا.

وَأَمَّا رُؤْيَا غَيْرِهِمْ فَتُعْرَضُ عَلَىٰ الْوَحْيِ الصَّرِيحِ، فَإِنْ وَافَقَتْهُ وَإِلَّا لَمْ يُعْمَلْ بِهَا.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا تَقُولُونَ إِذَا كَانَتْ رُؤْيَا صَادِقَةٌ، أَوْ تَوَاطَأَتْ ؟.

قُلْنَا: مَتَّىٰ كَانَتْ كَذَلِكَ اسْتَحَالَ مُخَالَفَتُهَا لِلْوَحْيِ، بَلْ لَا تَكُونُ إِلَّا مُطَابِقَةً لَهُ، مُنَبِّهَةً عَلَيْهِ، أَوْ مُنَبِّهَةً عَلَىٰ انْدِرَاجِ قَضِيَّةٍ خَاصَّةٍ فِي حُكْمِهِ، لَمْ يَعْرِفِ الرَّائِي انْدِرَاجَهَا فِيهِ، فَيَتَنَبَّهُ بِالرُّؤْيَا عَلَىٰ ذَلِكَ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ تُصَدَّقَ رُؤْيَاهُ فَلْيَتَحَرَّ الصِّدْقَ وَأَكْلَ الْحَلَالِ، وَالْمُحَافَظَةَ عَلَىٰ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَلْيَنَمْ عَلَىٰ طَهَارَةٍ كَامِلَةٍ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، وَيَذْكُرُ اللهَ حَتَّىٰ تَغْلِبَهُ عَيْنَاهُ، فَإِنَّ رُؤْيَاهُ لَا تَكَادُ تَكْذِبُ الْبَتَّةَ.

أَصْدَقُ الرُّؤْيَا :

وَأَصْدَقُ الرُّؤْيَا: رُؤْيَا الْأَسْحَارِ، فَإِنَّهُ وَقْتُ النُّزُولِ الْإِلَهِيِّ، وَاقْتِرَابِ الرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، وَسُكُونِ الشَّيَاطِينِ، وَعَكْسُهُ رُؤْيَا الْعَتْمَةِ، عِنْدَ انْتِشَارِ الشَّيَاطِينِ وَالْأَرْوَاحِ الشَّيْطَانِيَّةِ، وَقَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ -رَضِيَ اللهُ

عَنْهُ- : رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ كَلَامٌ يُكَلِّمُ بِهِ الرَّبُّ عَبْدَهُ فِي الْمَنَامِ.

لَا يُعَبِّرُ الرُّؤْيَا إِلَّا عَالِمٌ بِالتَّأْوِيلِ:

وَلِلرُّؤْيَا مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِهَا، يُرِيهَا الْعَبْدَ فِي أَمْثَالٍ تُنَاسِبُهُ وَتُشَاكِلُهُ، فَيَضْرِبُهَا لِكُلِّ أَحَدٍ بِحَسَبِهِ، وَقَالَ مَالِكٌ: «الرُّؤْيَا مِنَ الْوَحْيِ وَحْيٌ»، وَزَجَرَ عَنْ تَفْسِيرِهَا بِلَا عِلْمٍ، وَقَالَ: أَتَتَلَاعَبُ بِوَحْيِ اللهِ ؟ .

وَلِذِكْرِ الرُّؤْيَا وَأَحْكَامِهَا وَتَفَاصِيلِهَا وَطُرُقِ تَأْوِيلِهَا مَظَانٌّ مَخْصُوصَةٌ بِهَا، يُخْرِجُنَا ذِكْرُهَا عَنِ الْمَقْصُودِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

أَهْلُ الْإِخْلَاصِ وَالْمُتَابَعَةِ:

إِذَا عُرِفَ هَذَا فَلَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُتَحَقِّقًا بِـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إِلَّا بِأَصْلَيْنِ عَظِيمَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مُتَابَعَةُ الرَّسُولِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وَالثَّانِي: الْإِخْلَاصُ لِلْمَعْبُودِ، فَهَذَا تَحْقِيقُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ .

وَالنَّاسُ مُنْقَسِمُونَ بِحَسَبِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ أَيْضًا إِلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ:

أَحَدُهَا: أَهْلُ الْإِخْلَاصِ لِلْمَعْبُودِ وَالْمُتَابَعَةِ، وَهُمْ أَهْلُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حَقِيقَةً، فَأَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا لِلَّهِ، وَأَقْوَالُهُمْ لِلَّهِ، وَعَطَاؤُهُمْ لِلَّهِ، وَمَنْعُهُمْ لِلَّهِ، وَحُبُّهُمْ لِلَّهِ، وَبُغْضُهُمْ لِلَّهِ، فَمُعَامَلَتُهُمْ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا لِوَجْهِ

الله وَحْدَهُ، لَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ مِنَ النَّاسِ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا، وَلَا ابْتِغَاءَ الْجَاهِ عِنْدَهُمْ، وَلَا طَلَبَ الْمَحْمَدَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَلَا هَرَبًا مِنْ ذَمِّهِمْ، بَلْ قَدْ عَدُّوا النَّاسَ بِمَنْزِلَةِ أَصْحَابِ الْقُبُورِ، ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفُرْقان :٣] ، فَالْعَمَلُ لِأَجْلِ النَّاسِ، وَابْتِغَاءُ الْجَاهِ وَالْمَنْزِلَةِ عِنْدَهُمْ، وَرَجَاؤُهُمْ لِلضُّرِّ وَالنَّفْعِ مِنْهُمْ لَا يَكُونُ مِنْ عَارِفٍ بِهِمُ الْبَتَّةَ، بَلْ مِنْ جَاهِلٍ بِشَأْنِهِمْ، وَجَاهِلٍ بِرَبِّهِ، فَمَنْ عَرَفَ النَّاسَ أَنْزَلَهُمْ مَنَازِلَهُمْ، وَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ أَخْلَصَ لَهُ أَعْمَالَهُ وَأَقْوَالَهُ، وَعَطَاءَهُ وَمَنْعَهُ وَحُبَّهُ وَبُغْضَهُ، وَلَا يُعَامِلُ أَحَدَ الْخَلْقِ دُونَ اللهِ إِلَّا لِجَهْلِهِ بِاللهِ وَجَهْلِهِ بِالْخَلْقِ، وَإِلَّا فَإِذَا عَرَفَ اللَّهَ وَعَرَفَ النَّاسَ آثَرَ مُعَامَلَةَ اللهِ عَلَىٰ مُعَامَلَتِهِمْ.

وَكَذَلِكَ أَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا وَعِبَادَتُهُمْ مُوَافِقَةٌ لِأَمْرِ اللهِ، وَلِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَهَذَا هُوَ الْعَمَلُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ عَامِلٍ سِوَاهُ، وَهُوَ الَّذِي بَلَىٰ عِبَادَهُ بِالْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ لِأَجْلِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك :٢] ، وَجَعَلَ مَا عَلَىٰ الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَخْتَبِرَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .

قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ -رَحِمَهُ اللَّه- :

الْعَمَلُ الْحَسَنُ هُوَ أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ، قَالُوا : يَا أَبَا عَلِيٍّ مَا أَخْلَصُهُ

وَأَصْوَبُهُ ؟ ، قَالَ: إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا، وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ ، حَتَّىٰ يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ: مَا كَانَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ: مَا كَانَ عَلَىٰ السُّنَّةِ ، وَهَذَا هُوَ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف :١١٠] ، وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ** ﴾ [النِّسَاء :١٢٥] ، فَلَا يَقْبَلُ اللهُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ، عَلَىٰ مُتَابَعَةِ أَمْرِهِ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَىٰ عَامِلِهِ، يُرَدُّ عَلَيْهِ أَحْوَجَ مَا هُوَ إِلَيْهِ هَبَاءً مَنْثُورًا .

وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- « **كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ** » (١) ، وَكُلُّ عَمَلٍ بِلَا اقْتِدَاءٍ فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ عَامِلَهُ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ إِنَّمَا يُعْبَدُ بِأَمْرِهِ، لَا بِالْآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ.

مَنْ لا إِخْلاصَ لَهُ وَلا مُتَابَعَةَ:

الضَّرْبُ الثَّانِي: مَنْ لَا إِخْلَاصَ لَهُ وَلَا مُتَابَعَةَ، فَلَيْسَ عَمَلُهُ مُوَافِقًا لِشَرْعٍ، وَلَيْسَ هُوَ خَالِصًا لِلْمَعْبُودِ، كَأَعْمَالِ الْمُتَزَيِّنِينَ لِلنَّاسِ، الْمُرَائِينَ لَهُمْ بِمَا لَمْ يَشْرَعْهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَهَؤُلَاءِ شِرَارُ الْخَلْقِ، وَأَمْقَتُهُمْ إِلَىٰ اللهِ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٦٩٧) ، وَمُسْلِمٌ (١٧١٨) .

-عَزَّ وَجَلَّ-، وَلَهُمْ أَوْفَرُ نَصِيبٍ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عِمْرَان:١٨٨]، يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا مِنَ الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ وَالشِّرْكِ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ وَالْإِخْلَاصِ.

وَهَذَا الضَّرْبُ يَكْثُرُ فِيمَنِ انْحَرَفَ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَىٰ الْعِلْمِ وَالْفَقْرِ وَالْعِبَادَةِ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَإِنَّهُمْ يَرْتَكِبُونَ الْبِدَعَ وَالضَّلَالَاتِ، وَالرِّيَاءَ وَالسُّمْعَةَ وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوهُ مِنَ الِاتِّبَاعِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْعِلْمِ، فَهُمْ أَهْلُ الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ.

مَنْ أَخْلَصَ فِي أَعْمَالِهِ بِلَا مُتَابَعَةٍ:

الضَّرْبُ الثَّالِثُ: مَنْ هُوَ مُخْلِصٌ فِي أَعْمَالِهِ، لَكِنَّهَا عَلَىٰ غَيْرِ مُتَابَعَةِ الْأَمْرِ، كَجُهَّالِ الْعُبَّادِ، وَالْمُنْتَسِبِينَ إِلَىٰ طَرِيقِ الزُّهْدِ وَالْفَقْرِ، وَكُلِّ مَنْ عَبَدَ اللهَ بِغَيْرِ أَمْرِهِ، وَاعْتَقَدَ عِبَادَتَهُ هَذِهِ قُرْبَةً إِلَىٰ اللهِ فَهَذَا حَالُهُ، كَمَنْ يَظُنُّ أَنَّ سَمَاعَ الْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ قُرْبَةٌ، وَأَنَّ الْخَلْوَةَ الَّتِي يَتْرُكُ فِيهَا الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ قُرْبَةٌ، وَأَنَّ مُوَاصَلَةَ صَوْمِ النَّهَارِ بِاللَّيْلِ قُرْبَةٌ، وَأَنَّ صِيَامَ يَوْمِ فِطْرِ النَّاسِ كُلِّهِمْ قُرْبَةٌ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ.

مَنْ أَعْمَالهُ عَلَى مُتَابعَةِ الأَمْرِ والنَّهْيِ لَكِنَّهَا لِغَيْرِ اللهِ:

الضَّرْبُ الرَّابِعُ: مَنْ أَعْمَالُهُ عَلَىٰ مُتَابَعَةِ الأَمْرِ، لَكِنَّهَا لِغَيْرِ اللهِ، كَطَاعَةِ الْمُرَائِينَ، وَكَالرَّجُلِ يُقَاتِلُ رِيَاءً وَحَمِيَّةً وَشَجَاعَةً، وَيَحُجُّ لِيُقَالَ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ، فَهَؤُلَاءِ أَعْمَالُهُمْ ظَاهِرُهَا أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ مَأْمُورٌ بِهَا، لَكِنَّهَا غَيْرُ صَالِحَةٍ، فَلَا تُقْبَلُ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البَيِّنَةُ: ٥]، فَكُلُّ أَحَدٍ لَمْ يُؤْمَرْ إِلَّا بِعِبَادَةِ اللهِ بِمَا أَمَرَ، وَالْإِخْلَاصِ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ، وَهُمْ أَهْلُ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾.

القَوْلُ عَلَى اللهِ بِلاَ عِلْمٍ:

وَأَمَّا الْقَوْلُ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ فَهُوَ أَشَدُّ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ تَحْرِيمًا، وَأَعْظَمُهَا إِثْمًا، وَلِهَذَا ذُكِرَ فِي الْمَرْتَبَةِ الرَّابِعَةِ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهَا الشَّرَائِعُ وَالْأَدْيَانُ، وَلَا تُبَاحُ بِحَالٍ، بَلْ لَا تَكُونُ إِلَّا مُحَرَّمَةً، وَلَيْسَتْ كَالْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ، الَّذِي يُبَاحُ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ.

فَإِنَّ الْمُحَرَّمَاتِ نَوْعَانِ: مُحَرَّمٌ لِذَاتِهِ لَا يُبَاحُ بِحَالٍ، وَمُحَرَّمٌ تَحْرِيمًا عَارِضًا فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ، قَالَ اللهُ -تَعَالَى- فِي الْمُحَرَّمِ لِذَاتِهِ: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأَعْرَافُ: ٣٣]، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إِلَىٰ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ فَقَالَ: ﴿وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأَعْرَافُ: ٣٣]، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إِلَىٰ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، فَقَالَ: ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا

﴿ لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ [الأعْرَافُ : ٣٣] ، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إِلَىٰ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، فَقَالَ: ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعْرَافُ : ٣٣] ، فَهَذَا أَعْظَمُ الْمُحَرَّمَاتِ عِنْدَ اللهِ وَأَشَدُّهَا إِثْمًا، فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ الْكَذِبَ عَلَىٰ اللهِ، وَنِسْبَتَهُ إِلَىٰ مَا لا يَلِيقُ بِهِ، وَتَغْيِيرَ دِينِهِ وَتَبْدِيلَهُ، وَنَفْيَ مَا أَثْبَتَهُ وَإِثْبَاتَ مَا نَفَاهُ، وَتَحْقِيقَ مَا أَبْطَلَهُ وَإِبْطَالَ مَا حَقَّقَهُ، وَعَدَاوَةَ مَنْ وَالاهُ وَمُوَالاَةَ مَنْ عَادَاهُ، وَحُبَّ مَا أَبْغَضَهُ وَبُغْضَ مَا أَحَبَّهُ، وَوَصَفَهُ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ.

فَلَيْسَ فِي أَجْنَاسِ الْمُحَرَّمَاتِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْهُ، وَلَا أَشَدُّ إِثْمًا، وَهُوَ أَصْلُ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ، وَعَلَيْهِ أُسِّسَتِ الْبِدَعُ وَالضَّلَالَاتُ، فَكُلُّ بِدْعَةٍ مُضِلَّةٍ فِي الدِّينِ أَسَاسُهَا الْقَوْلُ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ.

التَّحْذِيرُ مِنَ البِدَعِ:

وَلِهَذَا اشْتَدَّ نَكِيرُ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ لَهَا، وَصَاحُوا بِأَهْلِهَا مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، وَحَذَّرُوا فِتْنَتَهُمْ أَشَدَّ التَّحْذِيرِ، وَبَالَغُوا فِي ذَلِكَ مَا لَمْ يُبَالِغُوا مِثْلَهُ فِي إِنْكَارِ الْفَوَاحِشِ، وَالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ ، إِذْ مَضَرَّةُ الْبِدَعِ وَهَدْمُهَا لِلدِّينِ وَمُنَافَاتُهَا لَهُ أَشَدُّ، وَقَدْ أَنْكَرَ -تَعَالَىٰ- عَلَىٰ مَنْ نَسَبَ إِلَىٰ دِينِهِ تَحْلِيلَ شَيْءٍ أَوْ تَحْرِيمَهُ مِنْ عِنْدِهِ، بِلَا بُرْهَانٍ مِنَ اللهِ، فَقَالَ -تَعَالَىٰ- : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ

لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ ﴾ [النَّحل: ١١٦].

فَكَيْفَ بِمَنْ نَسَبَ إِلَىٰ أَوْصَافِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَا لَمْ يَصِفْ بِهِ نَفْسَهُ؟ أَوْ نَفَىٰ عَنْهُ مِنْهَا مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ؟.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لِيَحْذَرْ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقُولَ: أَحَلَّ اللهُ كَذَا، وَحَرَّمَ اللهُ كَذَا، فَيَقُولُ اللهُ: كَذَبْتَ، لَمْ أُحِلَّ هَذَا، وَلَمْ أُحَرِّمْ هَذَا.

يَعْنِي التَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَ بِالرَّأْيِ الْمُجَرَّدِ، بِلَا بُرْهَانٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ.

القَوْلُ عَلَى اللهِ بِلاَ عِلْمٍ أَصْلُ الشِّرْكِ:

وَأَصْلُ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ هُوَ الْقَوْلُ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ، فَإِنَّ الْمُشْرِكَ يَزْعُمُ أَنَّ مَنِ اتَّخَذَهُ مَعْبُودًا مِنْ دُونِ اللهِ، يُقَرِّبُهُ إِلَىٰ اللهِ، وَيَشْفَعُ لَهُ عِنْدَهُ، وَيَقْضِي حَاجَتَهُ بِوَاسِطَتِهِ، كَمَا تَكُونُ الْوَسَائِطُ عِنْدَ الْمُلُوكِ، فَكُلُّ مُشْرِكٍ قَائِلٌ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ، دُونَ الْعَكْسِ، إِذِ الْقَوْلُ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ قَدْ يَتَضَمَّنُ التَّعْطِيلَ وَالِابْتِدَاعَ فِي دِينِ اللهِ، فَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الشِّرْكِ، وَالشِّرْكُ فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِهِ.

وَلِهَذَا كَانَ الْكَذِبُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مُوجِبًا لِدُخُولِ النَّارِ، وَاتِّخَاذِ مَنْزِلَةٍ مِنْهَا مُبَوَّءًا، وَهُوَ الْمَنْزِلُ اللَّازِمُ الَّذِي لَا يُفَارِقُهُ صَاحِبُهُ، لِأَنَّهُ مُتَضَمِّنٌ لِلْقَوْلِ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ، كَصَرِيحِ الْكَذِبِ عَلَيْهِ، لِأَنَّ مَا انْضَافَ إِلَىٰ الرَّسُولِ فَهُوَ مُضَافٌ إِلَىٰ الْمُرْسِلِ، وَالْقَوْلُ عَلَىٰ

اللهِ بِلَا عِلْمٍ صَرِيحِ افْتِرَاءُ الْكَذِبِ عَلَيْهِ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٢١] .

التَّوْبَةُ مِنَ البِدَعِ :

فَذُنُوبُ أَهْلِ الْبِدَعِ كُلُّهَا دَاخِلَةٌ تَحْتَ هَذَا الْجِنْسِ فَلَا تَتَحَقَّقُ التَّوْبَةُ مِنْهُ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنَ الْبِدَعِ.

وَأَنَّىٰ بِالتَّوْبَةِ مِنْهَا لِمَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهَا بِدْعَةٌ، أَوْ يَظُنُّهَا سُنَّةً، فَهُوَ يَدْعُو إِلَيْهَا، وَيَحُضُّ عَلَيْهَا ؟ فَلَا تَنْكَشِفُ لِهَذَا ذُنُوبُهُ الَّتِي تَجِبُ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ مِنْهَا إِلَّا بِتَضَلُّعِهِ مِنَ السُّنَّةِ، وَكَثْرَةِ اطِّلَاعِهِ عَلَيْهَا، وَدَوَامِ الْبَحْثِ عَنْهَا وَالتَّفْتِيشِ عَلَيْهَا، وَلَا تَرَىٰ صَاحِبَ بِدْعَةٍ كَذَلِكَ أَبَدًا.

فَإِنَّ السُّنَّةَ بِالذَّاتِ تَمْحَقُ الْبِدْعَةَ، وَلَا تَقُومُ لَهَا، وَإِذَا طَلَعَتْ شَمْسُهَا فِي قَلْبِ الْعَبْدِ قَطَعَتْ مِنْ قَلْبِهِ ضَبَابَ كُلِّ بِدْعَةٍ، وَأَزَالَتْ ظُلْمَةَ كُلِّ ضَلَالَةٍ، إِذْ لَا سُلْطَانَ لِلظُّلْمَةِ مَعَ سُلْطَانِ الشَّمْسِ، وَلَا يَرَىٰ الْعَبْدُ الْفَرْقَ بَيْنَ السُّنَّةِ وَالْبِدْعَةِ، وَيُعِينُهُ عَلَىٰ الْخُرُوجِ مِنْ ظُلْمَتِهَا إِلَىٰ نُورِ السُّنَّةِ إِلَّا الْمُتَابَعَةُ، وَالْهِجْرَةُ بِقَلْبِهِ كُلَّ وَقْتٍ إِلَىٰ اللهِ، بِالاسْتِعَانَةِ وَالْإِخْلَاصِ، وَصِدْقِ اللَّجْإِ إِلَىٰ اللهِ، وَالْهِجْرَةِ إِلَىٰ رَسُولِهِ، بِالْحِرْصِ عَلَىٰ الْوُصُولِ إِلَىٰ أَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ وَهَدْيِهِ وَسُنَّتِهِ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ هَاجَرَ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ حَظُّهُ وَنَصِيبُهُ فِي

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

الإِعْتِصَامُ بِاللهِ :

وَأَمَّا الاعْتِصَامُ بِهِ : فَهُوَ التَّوَكُّلُ عَلَيْهِ ، والامْتِنَاع بِهِ ، وَالاحْتِمَاءُ بِهِ، وَسُؤَالُهُ أَنْ يَحْمِي العَبْد وَيَمْنَعَهُ ، وَيَعْصِمَهُ وَيُدَافِعُ عَنْه ، فَإِنَّ ثَمَرَةِ الاعْتِصَامُ بِهِ : هُوَ الدَّفْعُ عَنِ العَبْد ، واللهُ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ، فَيَدْفَعُ عَنْ عَبْدِهِ الْمُؤْمِن إِذَا اعْتَصَمَ بِهِ ، كُلَّ سَبَبٍ يُفْضِي بِهِ إِلَىٰ العَطَب، وَيَحْمِيْهِ مِنْهُ ، فَيَدْفَعُ عَنْهُ الشُّبُهَاتِ والشَّهَوَات ، وَكَيْد عَدُوْهُ الظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ، وَشَرَّ نَفْسِهِ ، وَيَدْفَعُ عَنْهُ مُوجِبُ أَسْبَاب الشَّرِّ بَعْدَ انْعِقَادِهَا، بِحَسْبِ قُوَّة الاعْتِصَام بِهِ وَتَمَكُّنُهُ ، فَتَفَقَّدْ فِي حَقِّهِ أَسْبَاب العَطَب، فَيَدْفَعُ عَنْهُ مُوجَبَاتِهَا وَمُسَبِّبَاتِهَا ، وَيَدْفَعُ عَنْهُ قَدَرَهُ بِقَدَره ، وَإِرَادَتِهِ بِإِرَادَتِهِ ، وَيُعِيْذُهُ بِهِ مِنْهُ .

تَحْكِيْمُ الوَحْي :

أَنَّهُ إِذَا وَقَعَ النِّزَاعُ فِي حُكْم فِعْلٍ مِنَ الْأَفْعَال، أَوْ حَال مِنَ الْأَحْوَال، أَوْ ذَوْقٍ مِنَ الْأَذْوَاق، هَلْ هُوَ صَحِيحٌ أَوْ فَاسِدٌ ؟ ، وَحَقٌّ أَوْ بَاطِلٌ ؟، وَجَبَ الرُّجُوعُ فِيهِ إِلَىٰ الْحُجَّةِ الْمَقْبُولَةِ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهِيَ وَحْيُهُ الَّذِي تُتَلَقَّىٰ أَحْكَامُ النَّوَازِلِ وَالْأَحْوَالِ وَالْوَارِدَاتِ مِنْهُ، وَتُعْرَضُ عَلَيْهِ وَتُوزَنُ بِهِ، فَمَا زَكَّاهُ مِنْهَا وَقَبِلَهُ وَرَجَّحَهُ وَصَحَّحَهُ فَهُوَ

الْمَقْبُولُ، وَمَا أَبْطَلَهُ وَرَدَّهُ فَهُوَ الْبَاطِلُ الْمَرْدُودُ، وَمَنْ لَمْ يَبْنِ عَلَىٰ هَذَا الْأَصْلِ عِلْمَهُ وَسُلُوكَهُ وَعَمَلَهُ فَلَيْسَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ، وَإِنْ وَإِنْ، وَإِنَّمَا مَعَهُ خُدَعٌ وَغُرُورٌ ﴿ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النُّور: ٣٩].

الحُكْمُ فِيمَا لا نَصَّ فِيهِ :

إِذَا أَشْكَلَ عَلَىٰ النَّاظِرِ أَوِ السَّالِكِ حُكْمُ شَيْءٍ هَلْ هُوَ الْإِبَاحَةُ أَوِ التَّحْرِيمُ ؟ ، فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ مَفْسَدَتِهِ وَثَمَرَتِهِ وَغَايَتِهِ، فَإِنْ كَانَ مُشْتَمِلًا عَلَىٰ مَفْسَدَةٍ رَاجِحَةٍ ظَاهِرَةٍ، فَإِنَّهُ يَسْتَحِيلُ عَلَىٰ الشَّارِعِ الْأَمْرُ بِهِ أَوْ إِبَاحَتُهُ، بَلِ الْعِلْمُ بِتَحْرِيمِهِ مِنْ شَرْعِهِ قَطْعِيٌّ .

الاقْتِصَادُ في العَمَلِ والاعْتِصَامُ بِالسُّنَّة :

وَالسَّلَفُ يَذْكُرُونَ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ كَثِيرًا- وَهُمَا الاقْتِصَادُ فِي الْأَعْمَالِ، وَالاعْتِصَامُ بالسُّنَّةِ - فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَشُمُّ قَلْبَ الْعَبْدِ وَيَخْتَبِرُهُ ، فَإِنْ رَأَىٰ فِيهِ دَاعِيَةً لِلْبِدْعَةِ ، وَإِعْرَاضًا عَنْ كَمَالِ الانْقِيَادِ لِلسُّنَّةِ: أَخْرَجَهُ عَنِ الاعْتِصَامِ بِهَا ، وَإِنْ رَأَىٰ فِيهِ حِرْصًا عَلَىٰ السُّنَّةِ ، وَشِدَّةَ طَلَبٍ لَهَا: لَمْ يَظْفَرْ بِهِ مِنْ بَابِ اقْتِطَاعِهِ عَنْهَا ، فَأَمَرَهُ بِالاجْتِهَادِ ، وَالْجَوْرِ عَلَىٰ النَّفْسِ، وَمُجَاوَزَةِ حَدِّ الاقْتِصَادِ فِيهَا ، قَائِلًا لَهُ: إِنَّ هَذَا خَيْرٌ وَطَاعَةٌ.

وَالزِّيَادَةُ وَالاجْتِهَادُ فِيهَا أَكْمَلُ ، فَلَا تَفْتُرْ مَعَ أَهْلِ الْفُتُورِ ، وَلَا تَنَمْ مَعَ أَهْلِ النَّوْمِ، فَلَا يَزَالُ يَحُثُّهُ وَيُحَرِّضُهُ ، حَتَّىٰ يُخْرِجَهُ عَنِ الاقْتِصَادِ فِيهَا، فَيَخْرُجَ عَنْ حَدِّهَا ، كَمَا أَنَّ الْأَوَّلَ خَارِجُ هَذَا الْحَدِّ ، فَكَذَا هَذَا الْآخَرُ خَارِجٌ عَنِ الْحَدِّ الْآخَرِ.

وَهَذَا حَالُ الْخَوَارِجِ الَّذِينَ يَحْقِرُ أَهْلُ الاسْتِقَامَةِ صَلَاتَهُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَقِرَاءَتَهُمْ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ خُرُوجٌ عَنِ السُّنَّةِ إِلَىٰ الْبِدْعَةِ، لَكِنَّ هَذَا إِلَىٰ بِدْعَةِ التَّفْرِيطِ ، وَالْإِضَاعَةِ ، وَالْآخَرَ إِلَىٰ بِدْعَةِ الْمُجَاوَزَةِ وَالْإِسْرَافِ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا أَمَرَ اللهُ بِأَمْرٍ إِلَّا وَلِلشَّيْطَانِ فِيهِ نَزْعَتَانِ ، إِمَّا إِلَىٰ تَفْرِيطٍ ، وَإِمَّا إِلَىٰ مُجَاوَزَةٍ ، وَهِيَ الْإِفْرَاطُ ، وَلَا يُبَالِي بِأَيِّهِمَا ظَفَرَ: زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ.

الطَّرِيقُ إِلَى الحِكْمَةِ :

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ النَّيْسَابُورِيُّ -رَحِمَهُ اللّهُ-:

مَنْ أَمَّرَ السُّنَّةَ عَلَىٰ نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا : نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ ، وَمَنْ أَمَّرَ الْهَوَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا : نَطَقَ بِالْبِدْعَةِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ **وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا** ﴾ [النُّور:٥٤] .

طَرِيْقُ الحَقِّ :

قَالَ أَبُو حَمْزَةَ الْبَغْدَادِيُّ - مِنْ أَكَابِرِ الشُّيُوخِ - : وَكَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ يَقُولُ لَهُ فِي الْمَسَائِلِ : مَا تَقُولُ يَا صُوفِيُّ - مَنْ عَلِمَ طَرِيقَ الْحَقِّ سَهُلَ عَلَيْهِ سُلُوكُهُ ، وَلَا دَلِيلَ عَلَىٰ الطَّرِيقِ إِلَىٰ اللهِ إِلَّا مُتَابَعَةُ الرَّسُولِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي أَحْوَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ .

مَنْ فَارَقَ الدَّلِيْلَ ضَلَّ السَّبِيْلَ :

مَنْ أَحَالَكَ عَلَىٰ غَيْرِ « أَخْبَرَنَا » وَ « حَدَّثَنَا » فَقَدْ أَحَالَكَ : إِمَّا عَلَىٰ خَيَالٍ صُوفِيٍّ ، أَوْ قِيَاسٍ فَلْسَفِيٍّ ، أَوْ رَأْيٍ نَفْسِيٍّ ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْقُرْآنِ « أَخْبَرَنَا » وَ« حَدَّثَنَا » إِلَّا شُبُهَاتُ الْمُتَكَلِّمِينَ ، وَآرَاءُ الْمُنْحَرِفِينَ ، وَخَيَالَاتُ الْمُتَصَوِّفِينَ، وَقِيَاسُ الْمُتَفَلْسِفِينَ ، وَمَنْ فَارَقَ الدَّلِيلَ ، ضَلَّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ، وَلَا دَلِيلَ إِلَىٰ اللهِ وَالْجَنَّةِ ، سِوَىٰ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَكُلُّ طَرِيقٍ لَمْ يَصْحَبْهَا دَلِيلُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فَهِيَ مِنْ طُرُقِ الْجَحِيمِ وَالشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ .

الدِّيْنُ وَسَطٌ بَيْنَ الغُلُوِّ وَالجَفَاءِ :

وَمَا أَمَرَ اللهُ بِأَمْرٍ إِلَّا وَلِلشَّيْطَانِ فِيهِ نَزْعَتَانِ : إِمَّا إِلَىٰ تَفْرِيطٍ وَإِضَاعَةٍ، وَإِمَّا إِلَىٰ إِفْرَاطٍ وَغُلُوٍّ ، وَدِينُ اللهِ وَسَطٌ بَيْنَ الْجَافِي عَنْهُ وَالْغَالِي فِيهِ ، كَالْوَادِي بَيْنَ جَبَلَيْنِ ، وَالْهُدَىٰ بَيْنَ ضَلَالَتَيْنِ ، وَالْوَسَطِ بَيْنَ طَرَفَيْنِ

ذَمِيمَيْنِ ، فَكَمَا أَنَّ الْجَافِيَ عَنِ الأَمْرِ مُضَيِّعٌ لَهُ ، فَالْغَالِي فِيهِ : مُضَيِّعٌ لَهُ ، هَذَا بِتَقْصِيرِهِ عَنِ الْحَدِّ ، وَهَذَا بِتَجَاوُزِهِ الْحَدَّ .

النَّهْيُ عَنْ الغُلُو :

نَهَىٰ اللهُ عَنِ الْغُلُوِّ بِقَوْلِهِ -تَعَالَى- : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ﴾ [المَائِدَة : ٧٧] .

وَالْغُلُوُّ نَوْعَانِ : نَوْعٌ يُخْرِجُهُ عَنْ كَوْنِهِ مُطِيعًا ، كَمَنْ زَادَ فِي الصَّلَاةِ رَكْعَةً ، أَوْ صَامَ الدَّهْرَ مَعَ أَيَّامِ النَّهْيِ ، أَوْ رَمَىٰ الْجَمَرَاتِ بِالصَّخْرَاتِ الْكِبَارِ الَّتِي يُرْمَىٰ بِهَا فِي الْمَنْجَنِيقِ ، أَوْ سَعَىٰ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ عَشْرًا ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ عَمْدًا .

وَغُلُوٌّ يُخَافُ مِنْهُ الانْقِطَاعُ وَالِاسْتِحْسَارُ ، كَقِيَامِ اللَّيْلِ كُلِّهِ ، وَسَرْدِ الصِّيَامِ الدَّهْرَ أَجْمَعَ ، بِدُونِ صَوْمِ أَيَّامِ النَّهْيِ، وَالْجَوْرِ عَلَىٰ النُّفُوسِ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْأَوْرَادِ ، الَّذِي قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَيَسِّرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْغُدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ** »[1]، يَعْنِي: اسْتَعِينُوا عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ بِالأَعْمَالِ فِي هَذِهِ الأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةِ ، فَإِنَّ الْمُسَافِرَ يَسْتَعِينُ عَلَىٰ قَطْعِ مَسَافَةِ السَّفَرِ بِالسَّيْرِ فِيهَا .

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٣٩) ، وَأَحْمَدُ (٢/ ٥١٤)،وَالنَّسَائِي(٨/ ١٢١-١٢٢) .

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَرْقُدْ** »[1] ، رَوَاهُمَا الْبُخَارِيُّ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ : « **هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ** »[2] ،- قَالَهَا ثَلَاثًا - وَهُمُ الْمُتَعَمِّقُونَ الْمُتَشَدِّدُونَ .

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ ، فَوَاللهِ لَا يَمَلُّ اللهُ حَتَّىٰ تَمَلُّوا** »[3] .

وَفِي السُّنَنِ عَنْهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ : « **إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ ، وَلَا تُبَغِّضَنَّ إِلَىٰ نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللهِ** »[4] .

---

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١١٥٠) ، وَأَبو دَاوُد (١٣١٢) .
(٢) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ وَمُسْلِمٌ (٢٦٧٠) ، وَأَبو دَاوُد (٤٦٠٨) .
(٣) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١١٥١) ، وَمُسْلِمٌ (٧٨٥) .
(٤) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ أَحْمَدُ (٢/ ١٩٩)،صَحَّحَهُ العَلَّامَةُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيْحِ الجَامِعِ» (٢٢٤٦).

رَقَائِقُ

اشْتِمَالِ الْفَاتِحَةِ عَلَى الشِفَاءَيْنِ: شِفَاءِ الْقُلُوبِ وَشِفَاءِ الْأَبْدَانِ:

فَأَمَّا اشْتِمَالُهَا عَلَى شِفَاءِ الْقُلُوبِ:

فَإِنَّهَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَتَمَّ اشْتِمَالٍ، فَإِنَّ مَدَارَ اعْتِلَالِ الْقُلُوبِ وَأَسْقَامِهَا عَلَىٰ أَصْلَيْنِ: فَسَادِ الْعِلْمِ، وَفَسَادِ الْقَصْدِ.

وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِمَا دَاءَانِ قَاتِلَانِ، وَهُمَا الضَّلَالُ وَالْغَضَبُ، فَالضَّلَالُ نَتِيجَةُ فَسَادِ الْعِلْمِ، وَالْغَضَبُ نَتِيجَةُ فَسَادِ الْقَصْدِ، وَهَذَانَ الْمَرَضَانِ هُمَا مِلَاكُ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ جَمِيعِهَا، فَهِدَايَةُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ تَتَضَمَّنُ الشِّفَاءَ مِنْ مَرَضِ الضَّلَالِ، وَلِذَلِكَ كَانَ سُؤَالُ هَذِهِ الْهِدَايَةِ أَفْرَضَ دُعَاءٍ عَلَىٰ كُلِّ عَبْدٍ، وَأَوْجَبَهُ عَلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فِي كُلِّ صَلَاةٍ، لِشِدَّةِ ضَرُورَتِهِ وَفَاقَتِهِ إِلَىٰ الْهِدَايَةِ الْمَطْلُوبَةِ، وَلَا يَقُومُ غَيْرُ هَذَا السُّؤَالِ مَقَامَهُ.

وَالتَّحَقُّقُ بِـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ عِلْمًا وَمَعْرِفَةً، وَعَمَلًا وَحَالًا يَتَضَمَّنُ الشِّفَاءَ مِنْ مَرَضِ فَسَادِ الْقَلْبِ وَالْقَصْدِ، فَإِنَّ فَسَادَ الْقَصْدِ يَتَعَلَّقُ بِالْغَايَاتِ وَالْوَسَائِلِ، فَمَنْ طَلَبَ غَايَةً مُنْقَطِعَةً مُضْمَحِلَّةً فَانِيَةً، وَتَوَسَّلَ إِلَيْهَا بِأَنْوَاعِ الْوَسَائِلِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَيْهَا كَانَ

كِلَا نَوْعِي قَصْدِهِ فَاسِدًا، وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ مَنْ كَانَ غَايَةُ مَطْلُوبِهِ غَيْرَ اللهِ وَعُبُودِيَّتِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَمُتَّبِعِي الشَّهَوَاتِ، الَّذِينَ لَا غَايَةَ لَهُمْ وَرَاءَهَا، وَأَصْحَابِ الرِّيَاسَاتِ الْمُتَّبِعِينَ لِإِقَامَةِ رِيَاسَتِهِمْ بِأَيِّ طَرِيقٍ كَانَ مِنْ حَقٍّ أَوْ بَاطِلٍ، فَإِذَا جَاءَ الْحَقُّ مُعَارِضًا فِي طَرِيقِ رِيَاسَتِهِمْ طَحَنُوهُ وَدَاسُوهُ بِأَرْجُلِهِمْ، فَإِنْ عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ دَفَعُوهُ دَفْعَ الصَّائِلِ، فَإِنْ عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ حَبَسُوهُ فِي الطَّرِيقِ، وَحَادُوا عَنْهُ إِلَىٰ طَرِيقٍ أُخْرَى، وَهُمْ مُسْتَعِدُّونَ لِدَفْعِهِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ، فَإِذَا لَمْ يَجِدُوا مِنْهُ بُدًّا أَعْطَوْهُ السِّكَّةَ وَالْخُطْبَةَ وَعَزَلُوهُ عَنِ التَّصَرُّفِ وَالْحُكْمِ وَالتَّنْفِيذِ، وَإِنْ جَاءَ الْحَقُّ نَاصِرًا لَهُمْ وَكَانَ لَهُمْ صَالُوا بِهِ وَجَالُوا، وَأَتَوْا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ، لَا لِأَنَّهُ حَقٌّ، بَلْ لِمُوَافَقَتِهِ غَرَضَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ، وَانْتِصَارِهِمْ بِهِ ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النُّور: ٥٠].

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ قَصْدَ هَؤُلَاءِ فَاسِدٌ فِي غَايَاتِهِمْ وَوَسَائِلِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ إِذَا بَطَلَتِ الْغَايَاتُ الَّتِي طَلَبُوهَا، وَاضْمَحَلَّتْ وَفَنِيَتْ، حَصَلُوا عَلَىٰ أَعْظَمِ الْخُسْرَانِ وَالْحَسَرَاتِ، وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ نَدَامَةً وَتَحَسُّرًا إِذَا حَقَّ الْحَقُّ وَبَطَلَ الْبَاطِلُ، وَتَقَطَّعَتْ بِهِمْ أَسْبَابُ الْوَصْلِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ، وَتَيَقَّنُوا انْقِطَاعَهُمْ عَنْ رَكْبِ الْفَلَاحِ وَالسَّعَادَةِ، وَهَذَا يَظْهَرُ كَثِيرًا فِي

الدُّنْيَا، وَيَظْهَرُ أَقْوَىٰ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ الرَّحِيلِ مِنْهَا وَالْقُدُومِ عَلَىٰ اللهِ، وَيَشْتَدُّ ظُهُورُهُ وَتَحَقُّقُهُ فِي الْبَرْزَخِ، وَيَنْكَشِفُ كُلَّ الانْكِشَافِ يَوْمَ اللِّقَاءِ، إِذَا حَقَّتِ الْحَقَائِقُ، وَفَازَ الْمُحِقُّونَ وَخَسِرَ الْمُبْطِلُونَ، وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ، وَكَانُوا مَخْدُوعِينَ مَغْرُورِينَ، فَيَالَهُ هُنَاكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ عَالِمَهُ، وَيَقِينٍ لَا يُنْجِي مُسْتَيْقِنَهُ.

وَكَذَلِكَ مَنْ طَلَبَ الْغَايَةَ الْعُلْيَا وَالْمَطْلَبَ الْأَسْمَى، وَلَكِنْ لَمْ يَتَوَسَّلْ إِلَيْهِ بِالْوَسِيلَةِ الْمُوَصِّلَةِ لَهُ وَإِلَيْهِ، بَلْ تَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِوَسِيلَةٍ ظَنَّهَا مُوَصِّلَةً إِلَيْهِ، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ الْقَوَاطِعِ عَنْهُ، فَحَالُهُ أَيْضًا كَحَالِ هَذَا، وَكِلَاهُمَا فَاسِدُ الْقَصْدِ، وَلَا شِفَاءَ مِنْ هَذَا الْمَرَضِ إِلَّا بِدَوَاءِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

فَإِنَّ هَذَا الدَّوَاءَ مُرَكَّبٌ مِنْ سِتَّةِ أَجْزَاءٍ:

(١) عُبُودِيَّةِ اللهِ لَا غَيْرِهِ.

(٢) بِأَمْرِهِ وَشَرْعِهِ.

(٣) لَا بِالْهَوَىٰ.

(٤) وَلَا بِآرَاءِ الرِّجَالِ وَأَوْضَاعِهِمْ، وَرُسُومِهِمْ، وَأَفْكَارِهِمْ.

(٥) بِالِاسْتِعَانَةِ عَلَىٰ عُبُودِيَّتِهِ بِهِ.

(٦) لَا بِنَفْسِ الْعَبْدِ وَقُوَّتِهِ وَحَوْلِهِ وَلَا بِغَيْرِهِ.

فَهَذِهِ هِيَ أَجْزَاءُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فَإِذَا رَكَّبَهَا الطَّبِيبُ اللَّطِيفُ، الْعَالِمُ بِالْمَرَضِ، وَاسْتَعْمَلَهَا الْمَرِيضُ، حَصَلَ بِهَا الشِّفَاءُ التَّامُّ، وَمَا نَقَصَ مِنَ الشِّفَاءِ فَهُوَ لِفَوَاتِ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهَا، أَوِ اثْنَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ.

مَا يَعْرِضُ لِلْقَلْبِ مِنْ الأَمْرَاضِ :

ثُمَّ إِنَّ الْقَلْبَ يَعْرِضُ لَهُ مَرَضَانِ عَظِيمَانِ، إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُمَا الْعَبْدُ تَرَامَيَا بِهِ إِلَىٰ التَّلَفِ وَلَا بُدَّ، وَهُمَا الرِّيَاءُ، وَالْكِبْرُ، فَدَوَاءُ الرِّيَاءِ بِـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وَدَوَاءُ الْكِبْرِ بِ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وَكَثِيرًا مَا كُنْتُ أَسْمَعُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ -قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ- يَقُولُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تَدْفَعُ الرِّيَاءَ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَدْفَعُ الْكِبْرِيَاءَ.

فَإِذَا عُوفِيَ مِنْ مَرَضِ الرِّيَاءِ بِـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وَمِنْ مَرَضِ الْكِبْرِيَاءِ وَالْعُجْبِ بِـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وَمِنْ مَرَضِ الضَّلَالِ وَالْجَهْلِ بِـ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ عُوفِيَ مِنْ أَمْرَاضِهِ وَأَسْقَامِهِ، وَرَفَلَ فِي أَثْوَابِ الْعَافِيَةِ، وَتَمَّتْ عَلَيْهِ النِّعْمَةُ، وَكَانَ مِنَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وَهُمْ أَهْلُ فَسَادِ الْقَصْدِ، الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَعَدَلُوا عَنْهُ وَالضَّالِّينَ وَهُمْ أَهْلُ فَسَادِ الْعِلْمِ، الَّذِينَ جَهِلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ.

وَحُقَّ لِسُورَةٍ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ هَذَيْنِ الشِّفَاءَيْنِ أَنْ يُسْتَشْفَىٰ بِهَا مِنْ كُلِّ مَرَضٍ، وَلِهَذَا لَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ هَذَا الشِّفَاءِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الشِّفَاءَيْنِ، كَانَ حُصُولُ الشِّفَاءِ الْأَدْنَىٰ بِهَا أَوْلَى، كَمَا سَنُبَيِّنُهُ، فَلَا شَيْءَ أَشْفَىٰ لِلْقُلُوبِ الَّتِي عَقَلَتْ عَنِ اللهِ وَكَلَامِهِ، وَفَهِمَتْ عَنْهُ فَهْمًا خَاصًّا، اخْتَصَّهَا بِهِ مِنْ مَعْنَىٰ هَذِهِ السُّورَةِ.

وَسَنُبَيِّنُ - إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى- تَضَمُّنَهَا لِلرَّدِّ عَلَىٰ جَمِيعِ أَهْلِ الْبِدَعِ بِأَوْضَحِ الْبَيَانِ وَأَحْسَنِ الطُّرُقِ.

اشْتِمَالِ الْفَاتِحَةِ عَلَى شِفَاءِ الْأَبْدَانِ :

وَأَمَّا تَضَمُّنُهَا لِشِفَاءِ الْأَبْدَانِ فَنَذْكُرُ مِنْهُ مَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ، وَمَا شَهِدَتْ بِهِ قَوَاعِدُ الطِّبِّ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ التَّجْرِبَةُ.

فَأَمَّا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ: فَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الْمُتَوَكِّلِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَرُّوا بِحَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ، فَلَمْ يُقْرُوهُمْ، وَلَمْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلُدِغَ سَيِّدُ الْحَيِّ، فَأَتَوْهُمْ، فَقَالُوا: هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ رُقْيَةٍ، أَوَ هَلْ فِيكُمْ مِنْ رَاقٍ ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، وَلَكِنَّكُمْ لَمْ تُقْرُونَا، فَلَا نَفْعَلُ حَتَّىٰ تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا، فَجَعَلُوا لَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ قَطِيعًا مِنَ الْغَنَمِ، فَجَعَلَ رَجُلٌ مِنَّا يَقْرَأُ عَلَيْهِ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَقَامَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ قَلْبَةٌ، فَقُلْنَا: لَا تَعْجَلُوا

حَتَّىٰ نَأْتِيَ النَّبِيَّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَأَتَيْنَاهُ، فَذَكَرْنَا لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: «**مَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ ؟ ، كُلُوا، وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ**»(١).

فَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَا الْحَدِيثُ حُصُولَ شِفَاءِ هَذَا اللَّدِيغِ بِقِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ عَلَيْهِ، فَأَغْنَتْهُ عَنِ الدَّوَاءِ، وَرُبَّمَا بَلَغَتْ مِنْ شِفَائِهِ مَا لَمْ يَبْلُغْهُ الدَّوَاءُ.

هَذَا مَعَ كَوْنِ الْمَحَلِّ غَيْرَ قَابِلٍ، إِمَّا لِكَوْنِ هَؤُلَاءِ الْحَيِّ غَيْرَ مُسْلِمِينَ، أَوْ أَهْلَ بُخْلٍ وَلُؤْمٍ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْمَحَلُّ قَابِلًا.

أَفْضَلُ العِبَادَةِ وَأَنْفَعُهَا :

إِنَّ أَفْضَلَ الْعِبَادَةِ الْعَمَلُ عَلَىٰ مَرْضَاةِ الرَّبِّ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِمَا هُوَ مُقْتَضَىٰ ذَلِكَ الْوَقْتِ وَوَظِيفَتُهُ، فَأَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ فِي وَقْتِ الْجِهَادِ: الْجِهَادُ، وَإِنْ آلَ إِلَىٰ تَرْكِ الْأَوْرَادِ، مِنْ صَلَاةِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ، بَلْ وَمِنْ تَرْكِ إِتْمَامِ صَلَاةِ الْفَرْضِ، كَمَا فِي حَالَةِ الْأَمْنِ.

وَالْأَفْضَلُ : فِي وَقْتِ حُضُورِ الضَّيْفِ مَثَلًا الْقِيَامُ بِحَقِّهِ، وَالِاشْتِغَالُ بِهِ عَنِ الْوِرْدِ الْمُسْتَحَبِّ، وَكَذَلِكَ فِي أَدَاءِ حَقِّ الزَّوْجَةِ وَالْأَهْلِ.

وَالْأَفْضَلُ : فِي أَوْقَاتِ السَّحَرِ الِاشْتِغَالُ بِالصَّلَاةِ وَالْقُرْآنِ، وَالدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ وَالِاسْتِغْفَارِ.

وَالْأَفْضَلُ : فِي وَقْتِ اسْتِرْشَادِ الطَّالِبِ، وَتَعْلِيمِ الْجَاهِلِ الْإِقْبَالُ عَلَىٰ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٥٧٤٩)، وَمُسْلِمٌ (٢٢٠١).

تَعْلِيمِهِ وَالِاشْتِغَالِ بِهِ.

وَالْأَفْضَلُ : فِي أَوْقَاتِ الْأَذَانِ تَرْكُ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ وِرْدِهِ، وَالِاشْتِغَالُ بِإِجَابَةِ الْمُؤَذِّنِ.

وَالْأَفْضَلُ : فِي أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ الْجِدُّ وَالنُّصْحُ فِي إِيقَاعِهَا عَلَىٰ أَكْمَلِ الْوُجُوهِ، وَالْمُبَادَرَةُ إِلَيْهَا فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ، وَالْخُرُوجُ إِلَىٰ الْجَامِعِ، وَإِنْ بَعُدَ كَانَ أَفْضَلَ.

وَالْأَفْضَلُ : فِي أَوْقَاتِ ضَرُورَةِ الْمُحْتَاجِ إِلَىٰ الْمُسَاعَدَةِ بِالْجَاهِ، أَوِ الْبَدَنِ، أَوِ الْمَالِ الِاشْتِغَالُ بِمُسَاعَدَتِهِ، وَإِغَاثَةُ لَهْفَتِهِ، وَإِيثَارُ ذَلِكَ عَلَىٰ أَوْرَادِكَ وَخَلْوَتِكَ.

وَالْأَفْضَلُ : فِي وَقْتِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ جَمْعِيَّةُ الْقَلْبِ وَالْهِمَّةِ عَلَىٰ تَدَبُّرِهِ وَتَفَهُّمِهِ، حَتَّىٰ كَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ يُخَاطِبُكَ بِهِ، فَتَجْمَعُ قَلْبَكَ عَلَىٰ فَهْمِهِ وَتَدَبُّرِهِ، وَالْعَزْمُ عَلَىٰ تَنْفِيذِ أَوَامِرِهِ أَعْظَمُ مِنْ جَمْعِيَّةِ قَلْبِ مَنْ جَاءَهُ كِتَابٌ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَىٰ ذَلِكَ.

وَالْأَفْضَلُ : فِي وَقْتِ الْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ الِاجْتِهَادُ فِي التَّضَرُّعِ وَالدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ دُونَ الصَّوْمِ الْمُضْعِفِ عَنْ ذَلِكَ.

وَالْأَفْضَلُ : فِي أَيَّامِ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ الْإِكْثَارُ مِنَ التَّعَبُّدِ، لَاسِيَّمَا التَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ وَالتَّحْمِيدُ، فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْجِهَادِ غَيْرِ الْمُتَعَيِّنِ.

وَالْأَفْضَلُ : فِي الْعُشْرِ الْأَخِيرِ مِنْ رَمَضَانَ لُزُومُ الْمَسْجِدِ فِيهِ وَالْخَلْوَةِ وَالاعْتِكَافِ دُونَ التَّصَدِّي لِمُخَالَطَةِ النَّاسِ وَالاشْتِغَالِ بِهِمْ، حَتَّىٰ إِنَّهُ أَفْضَلُ مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَىٰ تَعْلِيمِهِمُ الْعِلْمَ، وَإِقْرَائِهِمُ الْقُرْآنَ، عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

وَالْأَفْضَلُ : فِي وَقْتِ مَرَضِ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ أَوْ مَوْتِهِ عِيَادَتُهُ، وَحُضُورُ جِنَازَتِهِ وَتَشْيِيعُهُ، وَتَقْدِيمُ ذَلِكَ عَلَىٰ خَلْوَتِكَ وَجَمْعِيَّتِكَ.

وَالْأَفْضَلُ : فِي وَقْتِ نُزُولِ النَّوَازِلِ وَأَذَاةِ النَّاسِ لَكَ أَدَاءُ وَاجِبِ الصَّبْرِ مَعَ خُلْطَتِكَ بِهِمْ، دُونَ الْهَرَبِ مِنْهُمْ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ لِيَصْبِرَ عَلَىٰ أَذَاهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ وَلَا يُؤْذُونَهُ.

وَالْأَفْضَلُ : خُلْطَتُهُمْ فِي الْخَيْرِ، فَهِيَ خَيْرٌ مِنَ اعْتِزَالِهِمْ فِيهِ، وَاعْتِزَالُهُمْ فِي الشَّرِّ، فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ خُلْطَتِهِمْ فِيهِ، فَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ إِذَا خَالَطَهُمْ أَزَالَهُ أَوْ قَلَّلَهُ فَخُلْطَتُهُمْ حِينَئِذٍ أَفْضَلُ مِنِ اعْتِزَالِهِمْ.

فَالْأَفْضَلُ : فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحَالٍ إِيثَارُ مَرْضَاةِ اللهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَالْحَالِ، وَالِاشْتِغَالُ بِوَاجِبِ ذَلِكَ الْوَقْتِ وَوَظِيفَتِهِ وَمُقْتَضَاهُ.

سِرُّ العِبَادَةِ :

فَاعْلَمْ أَنَّ سِرَّ الْعُبُودِيَّةِ، وَغَايَتَهَا وَحِكْمَتَهَا إِنَّمَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا مَنْ عَرَفَ صِفَاتِ الرَّبِّ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَلَمْ يُعَطِّلْهَا، وَعَرَفَ مَعْنَىٰ الْإِلَهِيَّةِ وَحَقِيقَتَهَا،

وَمَعْنَىٰ كَوْنه إلهًا، بَلْ هُوَ الإلَهُ الحَقُّ، وَكُلُّ إلَه سواهُ فَبَاطلٌ، بَلْ أَبْطَلُ البَاطل، وَأَنَّ حَقيقَةَ الإلَهيَّة لَا تَنْبَغي إلَّا لَهُ، وَأَنَّ العبَادَةَ مُوجَبُ إلَهيَّته وَأَثَرُهَا وَمُقْتَضَاهَا، وَارْتبَاطُهَا بهَا كَارْتبَاط مُتَعَلِّق الصِّفَات بالصِّفَات، وَكَارْتبَاط المَعْلُوم بالعلْم، وَالمَقْدُور بالقُدْرَة، وَالأَصْوَات بالسَّمْع، وَالإحْسَان بالرَّحْمَة، وَالعَطَاء بالجُود.

فَمَنْ أَنْكَرَ حَقيقَةَ الإلَهيَّة وَلَمْ يَعْرفْهَا كَيْفَ يَسْتَقيمُ لَهُ مَعْرفَةُ حكْمَة العبَادَات وَغَايَاتهَا وَمَقَاصدهَا وَمَا شُرعَتْ لأَجْله ؟ ، كَيْفَ يَسْتَقيمُ لَهُ العلْمُ بأَنَّهَا هيَ الغَايَةُ المَقْصُودَةُ بالخَلْق، وَالَّتي لَهَا خُلقُوا، وَلَهَا أُرْسلَت الرُّسُلُ، وَأُنْزلَت الكُتُبُ، وَلأَجْلهَا خُلقَت الجَنَّةُ وَالنَّارُ ؟ ، وَأَنَّ فَرْضَ تَعْطيل الخَليقَة عَنْهَا نسْبَةٌ للهِ إلَىٰ مَا لَا يَليقُ به، وَيَتَعَالَىٰ عَنْهُ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ بالحَقِّ، وَلَمْ يَخْلُقْهُمَا بَاطلًا، وَلَمْ يَخْلُق الإنْسَانَ عَبَثًا وَلَمْ يَتْرُكْهُ سُدًىٰ مُهمَلًا، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ** ﴿١١٥﴾ ﴾ [المُؤْمنُونَ :١١٥] ،أَي لغَيْر شَيْءٍ وَلَا حكْمَة، وَلَا لعبَادَتي وَمُجَازَاتي لَكُمْ، وَقَدْ صَرَّحَ تَعَالَىٰ بهَذَا في قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذَّاريَات:٥٦]، فَالعبَادَةُ هيَ الغَايَةُ الَّتي خَلَقَ لَهَا الجنَّ وَالإنْسَ وَالخَلَائقَ كُلَّهَا، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ **أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى** ﴿٣٦﴾ ﴾ [القيَامَة:٣٦] ، أَيْ مُهْمَلًا .

قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - : لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى، وَقَالَ غَيْرُهُ: لَا يُثَابُ وَلَا يُعَاقَبُ، وَالْصَحِيحُ الأَمْرَانِ، فَإِنَّ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ مُتَرَتِّبَانِ عَلَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالأَمْرُ وَالنَّهْيُ طَلَبُ الْعِبَادَةِ وَإِرَادَتُهَا، وَحَقِيقَةُ الْعِبَادَةِ امْتِثَالُهُمَا، وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ **وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١** ﴾[آل عِمْرَان: ١٩١]، وَقَالَ: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ** ﴾ [الحِجْرُ:٨٥] ،وَقَالَ: ﴿ **وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ٢٢** ﴾ [الجَاثِيَة:٢٢] .

فَأَخْبَرَ أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ الْمُتَضَمِّنِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، وَثَوَابَهُ وَعِقَابَهُ.

فَإِذَا كَانَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا خُلِقَتْ لِهَذَا، وَهُوَ غَايَةُ الْخَلْقِ، فَكَيْفَ يُقَالُ إِنَّهُ لَا عِلَّةَ لَهُ، وَلَا حِكْمَةَ مَقْصُودَةٌ هِيَ غَايَتُهُ ؟ أَوْ إِنَّ ذَلِكَ لِمُجَرَّدِ اسْتِئْجَارِ الْعِبَادِ حَتَّىٰ لَا يُنَكَّدَ عَلَيْهِمُ الثَّوَابُ بِالْمِنَّةِ، أَوْ لِمُجَرَّدِ اسْتِعْدَادِ النُّفُوسِ لِلْمَعَارِفِ الْعَقْلِيَّةِ، وَارْتِيَاضِهَا بِمُخَالَفَةِ الْعَوَائِدِ ؟.

فَلْيَتَأَمَّلِ اللَّبِيبُ الْفُرْقَانَ بَيْنَ هَذِهِ الأَقْوَالِ، وَبَيْنَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ صَرِيحُ الْوَحْيِ يَجِدْ أَنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الأَقْوَالِ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَلَا

عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ.

فَاللهُ تَعَالَىٰ إِنَّمَا خَلَقَ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ، الْجَامِعَةِ لِكَمَالِ مَحَبَّتِهِ، مَعَ الْخُضُوعِ لَهُ وَالانْقِيَادِ لِأَمْرِهِ.

فَأَصْلُ الْعِبَادَةِ: مَحَبَّةُ اللهِ، بَلْ إِفْرَادُهُ بِالْمَحَبَّةِ، وَأَنْ يَكُونَ الْحُبُّ كُلُّهُ لِلَّهِ، فَلَا يُحِبُّ مَعَهُ سِوَاهُ، وَإِنَّمَا يُحِبُّ لِأَجْلِهِ وَفِيهِ، كَمَا يُحِبُّ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ، فَمَحَبَّتُنَا لَهُمْ مِنْ تَمَامِ مَحَبَّتِهِ، وَلَيْسَتْ مَحَبَّةً مَعَهُ، كَمَحَبَّةِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّهِ.

وَإِذَا كَانَتِ الْمَحَبَّةُ لَهُ هِيَ حَقِيقَةَ عُبُودِيَّتِهِ وَسِرَّهَا، فَهِيَ إِنَّمَا تَتَحَقَّقُ بِاتِّبَاعِ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ، فَعِنْدَ اتِّبَاعِ الْأَمْرِ وَاجْتِنَابِ النَّهْيِ تَتَبَيَّنُ حَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ وَالْمَحَبَّةِ، وَلِهَذَا جَعَلَ تَعَالَىٰ اتِّبَاعَ رَسُولِهِ عَلَمًا عَلَيْهَا، وَشَاهِدًا لِمَنِ ادَّعَاهَا، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** ﴾ [آل عمران: ٣١]، فَجَعَلَ اتِّبَاعَ رَسُولِهِ مَشْرُوطًا بِمَحَبَّتِهِمْ لِلَّهِ، وَشَرْطًا لِمَحَبَّةِ اللهِ لَهُمْ، وَوُجُودُ الْمَشْرُوطِ مُمْتَنِعٌ بِدُونِ وُجُودِ شَرْطِهِ وَتَحَقُّقُهُ بِتَحَقُّقِهِ فَعُلِمَ انْتِفَاءُ الْمَحَبَّةِ عِنْدَ انْتِفَاءِ الْمُتَابَعَةِ، فَانْتِفَاءُ مَحَبَّتِهِمْ لِلَّهِ لَازِمٌ لِانْتِفَاءِ الْمُتَابَعَةِ لِرَسُولِهِ، وَانْتِفَاءُ الْمُتَابَعَةِ مَلْزُومٌ لِانْتِفَاءِ مَحَبَّةِ اللهِ لَهُمْ، فَيَسْتَحِيلُ إِذًا ثُبُوتُ مَحَبَّتِهِمْ لِلَّهِ، وَثُبُوتُ مَحَبَّةِ اللهِ لَهُمْ بِدُونِ الْمُتَابَعَةِ لِرَسُولِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ مُتَابَعَةَ الرَّسُولِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هِيَ حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَطَاعَةُ أَمْرِهِ، وَلَا يَكْفِي ذَلِكَ فِي الْعُبُودِيَّةِ حَتَّىٰ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَىٰ الْعَبْدِ مِمَّا سِوَاهُمَا، فَلَا يَكُونُ عِنْدَهُ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَتَىٰ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْهُمَا فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللهُ لِصَاحِبِهِ الْبَتَّةَ ، وَلَا يَهْدِيهِ اللهُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى:
﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

[التَّوْبَة : ٢٤] .

فَكُلُّ مَنْ قَدَّمَ طَاعَةَ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ، أَوْ قَوْلَ أَحَدٍ مِنْهُمْ عَلَىٰ قَوْلِ اللهِ وَرَسُولِهِ، أَوْ مَرْضَاةَ أَحَدٍ مِنْهُمْ عَلَىٰ مَرْضَاةِ اللهِ وَرَسُولِهِ، أَوْ خَوْفَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَرَجَاءَهُ وَالتَوَكُّلَ عَلَيْهِ عَلَىٰ خَوْفِ اللهِ وَرَجَائِهِ وَالتَوَكُّلِ عَلَيْهِ، أَوْ مُعَامَلَةَ أَحَدِهِمْ عَلَىٰ مُعَامَلَةِ اللهِ فَهُوَ مِمَّنْ لَيْسَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَإِنْ قَالَهُ بِلِسَانِهِ فَهُوَ كَذِبٌ مِنْهُ، وَإِخْبَارٌ بِخِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ مَنَّ قَدَّمَ حُكْمَ أَحَدٍ عَلَىٰ حُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ، فَذَلِكَ الْمُقَدَّمُ عِنْدَهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ، لَكِنْ قَدْ يَشْتَبِهُ الْأَمْرُ عَلَىٰ مَنْ يُقَدِّمُ قَوْلَ أَحَدٍ أَوْ حُكْمَهُ، أَوْ طَاعَتَهُ أَوْ مَرْضَاتَهُ،

ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ لَا يَأْمُرُ وَلَا يَحْكُمُ وَلَا يَقُولُ إِلَّا مَا قَالَهُ الرَّسُولُ، فَيُطِيعُهُ، وَيُحَاكِمُ إِلَيْهِ، وَيَتَلَقَّىٰ أَقْوَالَهُ كَذَلِكَ، فَهَذَا مَعْذُورٌ إِذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، وَأَمَّا إِذَا قَدَرَ عَلَىٰ الْوُصُولِ إِلَىٰ الرَّسُولِ، وَعَرَفَ أَنَّ غَيْرَ مَنِ اتَّبَعَهُ هُوَ أَوْلَىٰ بِهِ مُطْلَقًا، أَوْ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَىٰ الرَّسُولِ وَلَا إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَوْلَىٰ بِهِ، فَهَذَا الَّذِي يُخَافُ عَلَيْهِ، وَهُوَ دَاخِلٌ تَحْتَ الْوَعِيدِ، فَإِنِ اسْتَحَلَّ عُقُوبَةَ مَنْ خَالَفَهُ وَأَذَلَّهُ، وَلَمْ يُوَافِقْهُ عَلَىٰ اتِّبَاعِ شَيْخِهِ، فَهُوَ مِنَ الظَّلَمَةِ الْمُعْتَدِينَ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا.

القَوَاعِدُ الأَرْبَع لِلعِبَادَة التَّامَّة :

وَبَنَىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ عَلَىٰ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ: التَّحَقُّقُ بِمَا يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَيَرْضَاهُ، مِنْ قَوْلِ اللِّسَانِ وَالْقَلْبِ، وَعَمَلِ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ.

فَالْعُبُودِيَّةُ: اسْمٌ جَامِعٌ لِهَذِهِ الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعِ ، فَأَصْحَابُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حَقًّا هُمْ أَصْحَابُهَا.

فَقَوْلُ الْقَلْبِ: هُوَ اعْتِقَادُ مَا أَخْبَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ، وَعَنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَلِقَائِهِ عَلَىٰ لِسَانِ رُسُلِهِ.

وَقَوْلُ اللِّسَانِ: الْإِخْبَارُ عَنْهُ بِذَلِكَ، وَالدَّعْوَةُ إِلَيْهِ، وَالذَّبُّ عَنْهُ، وَتَبْيِينُ بُطْلَانِ الْبِدَعِ الْمُخَالِفَةِ لَهُ، وَالْقِيَامُ بِذِكْرِهِ، وَتَبْلِيغُ أَوَامِرِهِ.

وَعَمَلُ الْقَلْبِ: كَالْمَحَبَّةِ لَهُ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالْخَوْفِ مِنْهُ

وَالرَّجَاءِ لَهُ، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ، وَالصَّبْرِ عَلَىٰ أَوَامِرِهِ، وَعَنْ نَوَاهِيهِ، وَعَلَىٰ أَقْدَارِهِ، وَالرِّضَىٰ بِهِ وَعَنْهُ، وَالْمُوَالَاةِ فِيهِ، وَالْمُعَادَاةِ فِيهِ، وَالذُّلِّ لَهُ وَالْخُضُوعِ، وَالْإِخْبَاتِ إِلَيْهِ، وَالطُّمَأْنِينَةِ بِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ الَّتِي فَرْضُهَا أَفْرَضُ مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ، وَمُسْتَحَبُّهَا أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنْ مُسْتَحَبِّهَا، وَعَمَلُ الْجَوَارِحِ بِدُونِهَا إِمَّا عَدِيمُ الْمَنْفَعَةِ أَوْ قَلِيلُ الْمَنْفَعَةِ.

وَأَعْمَالُ الْجَوَارِحِ: كَالصَّلَاةِ وَالْجِهَادِ، وَنَقْلِ الْأَقْدَامِ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَاتِ، وَمُسَاعَدَةِ الْعَاجِزِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَىٰ الْخَلْقِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

فَـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ الْتِزَامٌ لِأَحْكَامِ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ، وَإِقْرَارٌ بِهَا، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ طَلَبٌ لِلْإِعَانَةِ عَلَيْهَا وَالتَّوْفِيقِ لَهَا، وَ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ مُتَضَمِّنٌ لِلتَّعْرِيفِ بِالْأَمْرَيْنِ عَلَىٰ التَّفْصِيلِ، وَإِلْهَامِ الْقِيَامِ بِهِمَا، وَسُلُوكِ طَرِيقِ السَّالِكِينَ إِلَىٰ اللهِ بِهَا.

مَقَامُ الْعُبُودِيَّةِ:

وَاللهُ تَعَالَىٰ جَعَلَ الْعُبُودِيَّةَ وَصْفَ أَكْمَلِ خَلْقِهِ، وَأَقْرَبِهِمْ إِلَيْهِ، فَقَالَ ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۝١٧٢﴾ [المائدة: ١٧٢].

وَقَالَ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ٢٠٦ ﴾ [الأعراف :٢٠٦] ، وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ الْوَقْفَ التَّامَّ فِي قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ:١٩] ، هَاهُنَا، ثُمَّ يَبْتَدِئُ ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ٢٠ ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ:١٩-٢٠] ، فَهُمَا جُمْلَتَانِ تَامَّتَانِ مُسْتَقِلَّتَانِ، أَيْ إِنَّ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ عَبِيدًا وَمِلْكًا، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ جُمْلَةً أُخْرَىٰ فَقَالَ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ يَعْنِي أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ يَعْنِي لَا يَأْنَفُونَ عَنْهَا، وَلَا يَتَعَاظَمُونَ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ، فَيَعْيَوْنَ وَيَنْقَطِعُونَ يُقَالُ: حَسَرَ وَاسْتَحْسَرَ، إِذَا تَعِبَ وَأَعْيَا بَلْ عِبَادَتُهُمْ وَتَسْبِيحُهُمْ كَالنَّفَسِ لِبَنِي آدَمَ، فَالْأَوَّلُ وَصْفٌ لِعَبِيدِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَالثَّانِي وَصْفٌ لِعَبِيدِ إِلَهِيَّتِهِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ [الفُرْقَان:٦٣] ، إِلَىٰ آخِرِ السُّورَةِ.

وَقَالَ : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ٦ ﴾ [الإِنْسَان:٦]، وَقَالَ: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ﴾ [ص:١٧] ،وَقَالَ: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ ﴾ [ص:٤١] ،وَقَالَ: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [ص:٤٥] ، وَقَالَ عَنْ سُلَيْمَانَ ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:٣٠] ،وَقَالَ عَنِ

الْمَسِيح : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [الزُّخْرُف:٥٩] ،فَجَعَلَ غَايَتَهُ الْعُبُودِيَّةَ لَا الْإِلَهِيَّةَ، كَمَا يَقُولُ أَعْدَاؤُهُ النَّصَارَى، وَوَصَفَ أَكْرَمَ خَلْقِهِ عَلَيْهِ، وَأَعْلَاهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً بِالْعُبُودِيَّةِ فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهِ .

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البَقَرَةُ:٢٣]، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [الفُرْقَان:١]، وَقَالَ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الكَهْفُ:١] ، فَذَكَرَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ فِي مَقَامِ إِنْزَالِ الْكِتَابِ عَلَيْهِ، وَفِي مَقَامِ التَّحَدِّي بِأَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، وَقَالَ: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الجنّ:١٩] ،فَذَكَرَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ فِي مَقَامِ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَقَالَ ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ [الْإِسْرَاءُ:١] ،فَذَكَرَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ فِي مَقَامِ الْإِسْرَاءِ .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ : « **لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ** » (١)، وَفِي الْحَدِيثِ : « **أَنَا عَبْدٌ، آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ** » (٢) .

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٤٤٥) .

(٢) رَوَاهُ ابْنُ سَعْد فِي «الطَّبَقَات» (١/ ٢٨٨)، وَقَالَ الأَرْنَاؤُط فِي تَحْقِيقِه لِزَاد المَعَاد: لَهُ شَاهِدٌ عَنْ أَحْمَد فِي «الزُّهْد» ص (٥) ، وَإِسْنَاده صَحِيحٌ : فَيَتَقَوَّىٰ الحَدِيث وَيصح . انْظُرْ : زَادُ المِعَادِ (٤/ ٢٢١) .

وَفي صَحيح الْبُخَاريِّ عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو قَالَ: « **قَرَأْتُ في التَّوْرَاة صفَةَ مُحَمَّد -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ-: مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله، عَبْدي وَرَسُولي، سَمَّيْتُهُ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بفَظٍّ وَلَا غَليظ، وَلَا صَخَّابٍ بِالْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكنْ يَعْفُو وَيَغْفرُ** »(١) .

وَجَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ البِشَارَةُ المُطْلَقَة لِعِبَادِهِ ، فَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزُّمر:١٧-١٨]، وَجَعَلَ الأَمْنُ المُطْلَق، فَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[الزُّخْرُف:٦٨-٦٩]،وَعَزَلَ الشَّيْطَان عَنْ سُلْطَانه عَلَيْهِمْ خَاصَّة، وَجَعَلَ سُلْطَانَهُ عَلَىٰ مَنْ تَوَلَّاهُ وَأَشْرَكَ بِهِ ، فَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحِجْرُ : ٤٢] ، وقَال تَعَالَىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [النَّحْلُ : ٩٩-١٠٠] .

وَجَعَلَ النَّبيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِحْسَانَ العُبُودِيَّةِ أَعْلَىٰ مَرَاتِبِ

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٢١٢٥) .

الدِّين، وَهُوَ الإِحْسَان ، فَقَالَ فِي حَدِيْث جبْرِيل - وَقَدْ سَأَلَهُ عَنِ الإِحْسَانِ : « **أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** » (١).

لُزُومِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ لِكُلِّ عَبْدٍ إِلَى الْمَوْتِ

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : ﴿ **وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ** ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحِجْرُ : ٩٩] ، وَقَالَ أَهْلُ النَّارِ ﴿ **وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ** ﴿٤٦﴾ **حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ** ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحِجْرُ : ٤٦-٤٧] ،وَالْيَقِينُ هَاهُنَا هُوَ الْمَوْتُ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ التَّفْسِير، وَفِي الصَّحِيح فِي قِصَّةِ مَوْت عُثْمَانَ بْن مَظْعُون- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: « **أَمَّا عُثْمَانُ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ مِنْ رَبِّهِ** » (٢) ، أَي الْمَوْتُ وَمَا فِيه، فَلَا يَنْفَكُّ الْعَبْدُ مِنَ الْعُبُودِيَّة مَا دَامَ فِي دَارِ التَّكْلِيفِ، بَلْ عَلَيْهِ فِي الْبَرْزَخِ عُبُودِيَّةٌ أُخْرَىٰ لَمَّا يَسْأَلُهُ الْمَلَكَانِ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ ؟ وَمَا يَقُولُ فِي رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؟ وَيَلْتَمِسَانِ مِنْهُ الْجَوَابَ، وَعَلَيْهِ عُبُودِيَّةٌ أُخْرَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَوْمَ يَدْعُو اللهُ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ إِلَىٰ السُّجُود، فَيَسْجُدُ الْمُؤْمِنُونَ، وَيَبْقَىٰ الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ السُّجُودَ، فَإِذَا دَخَلُوا دَارَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ انْقَطَعَ التَّكْلِيفُ هُنَاكَ، وَصَارَتْ عُبُودِيَّةُ أَهْلِ الثَّوَابِ تَسْبِيحًا مَقْرُونًا بِأَنْفَاسِهِمْ لَا يَجِدُونَ لَهُ تَعَبًا وَلَا نَصَبًا.

---

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٠) ، وَمُسْلِمٌ (٩-١٠) .
(٢) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٢٤٣) .

وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَصِلُ إِلَىٰ مَقَامٍ يَسْقُطُ عَنْهُ فِيهِ التَّعَبُّدُ، فَهُوَ زِنْدِيقٌ كَافِرٌ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ، وَإِنَّمَا وَصَلَ إِلَىٰ مَقَامِ الْكُفْرِ بِاللهِ، وَالانْسِلَاخِ مِنْ دِينِهِ، بَلْ كُلَّمَا تَمَكَّنَ الْعَبْدُ فِي مَنَازِلِ الْعُبُودِيَّةِ كَانَتْ عُبُودِيَّتُهُ أَعْظَمَ، وَالْوَاجِبُ عَلَيْهِ مِنْهَا أَكْبَرَ وَأَكْثَرَ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَىٰ مَنْ دُونَهُ، وَلِهَذَا كَانَ الْوَاجِبُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَلْ عَلَىٰ جَمِيعِ الرُّسُلِ أَعْظَمَ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَىٰ أُمَمِهِمْ، وَالْوَاجِبُ عَلَىٰ أُولِي الْعَزْمِ أَعْظَمَ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَىٰ مَنْ دُونَهُمْ، وَالْوَاجِبُ عَلَىٰ أُولِي الْعِلْمِ أَعْظَمَ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَىٰ مَنْ دُونَهُمْ، وَكُلُّ أَحَدٍ بِحَسَبِ مَرْتَبَتِهِ.

مَدَارُ الْعُبُودِيَّةِ عَلَى خَمْسَ عَشْرَةَ قَاعِدَةً :

وَرَحَىٰ الْعُبُودِيَّةِ تَدُورُ عَلَىٰ خَمْسَ عَشْرَةَ قَاعِدَةً، مَنْ كَمَّلَهَا كَمَّلَ مَرَاتِبَ الْعُبُودِيَّةِ.

وَبَيَانُهَا أَنَّ الْعُبُودِيَّةَ مُنْقَسِمَةٌ عَلَىٰ الْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وَالْجَوَارِحِ، وَعَلَىٰ كُلٍّ مِنْهَا عُبُودِيَّةٌ تَخُصُّهُ.

وَالْأَحْكَامُ الَّتِي لِلْعُبُودِيَّةِ خَمْسَةٌ: وَاجِبٌ ، وَمُسْتَحَبٌّ ، وَحَرَامٌ ، وَمَكْرُوهٌ، وَمُبَاحٌ، وَهِيَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وَالْجَوَارِحِ.

فَوَاجِبُ الْقَلْبِ مِنْهُ مُتَّفَقٌ عَلَىٰ وُجُوبِهِ، وَمُخْتَلَفٌ فِيهِ.

فَالْمُتَّفَقُ عَلَىٰ وُجُوبِهِ كَالْإِخْلَاصِ، وَالتَّوَكُّلِ، وَالْمَحَبَّةِ، وَالْبِرِّ، وَالْإِنَابَةِ،

وَالْخَوْف، وَالرَّجَاءِ، وَالتَّصْدِيق الْجَازِم، وَالنِّيَّة فِي الْعِبَادَة، وَهَذِهِ قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَىٰ الْإِخْلَاصِ، فَإِنَّ الْإِخْلَاصَ هُوَ إِفْرَادُ الْمَعْبُودِ عَنْ غَيْرِه.

وَنِيَّةُ الْعِبَادَةِ لَهَا مَرْتَبَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: تَمْيِيزُ الْعِبَادَةِ عَنِ الْعَادَةِ.

وَالثَّانِيَةُ: تَمْيِيزُ مَرَاتِبِ الْعِبَادَاتِ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ.

وَالْأَقْسَامُ الثَّلَاثَةُ وَاجِبَةٌ:

وَكَذَلِكَ الصِّدْقُ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِخْلَاصِ أَنَّ لِلْعَبْدِ مَطْلُوبًا وَطَلَبًا، فَالْإِخْلَاصُ تَوْحِيدُ مَطْلُوبِهِ، وَالصِّدْقُ تَوْحِيدُ طَلَبِه.

فَالْإِخْلَاصُ: أَنْ لَا يَكُونَ الْمَطْلُوبُ مُنْقَسِمًا، وَالصِّدْقُ: أَنْ لَا يَكُونَ الطَّلَبُ مُنْقَسِمًا، فَالصِّدْقُ بَذْلُ الْجُهْدِ، وَالْإِخْلَاصُ إِفْرَادُ الْمَطْلُوبِ.

وَاتَّفَقَتِ الْأُمَّةُ عَلَىٰ وُجُوبِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ عَلَىٰ الْقَلْبِ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةِ.

وَكَذَلِكَ النُّصْحُ فِي الْعُبُودِيَّةِ، وَمَدَارُ الدِّينِ عَلَيْه، وَهُوَ بَذْلُ الْجُهْدِ فِي إِيقَاعِ الْعُبُودِيَّةِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الْمَحْبُوبِ لِلرَّبِّ الْمَرْضِيِّ لَهُ، وَأَصْلُ هَذَا وَاجِبٌ، وَكَمَالُهُ مَرْتَبَةُ الْمُقَرَّبِينَ.

وَكَذَلِكَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْوَاجِبَاتِ الْقَلْبِيَّةِ لَهُ طَرَفَانِ، وَاجِبٌ

مُسْتَحَقٌّ، وَهُوَ مَرْتَبَةُ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَكَمَالٌ مُسْتَحَبٌّ، وَهُوَ مَرْتَبَةُ الْمُقَرَّبِينَ.

وَكَذَلِكَ الصَّبْرُ وَاجِبٌ بِاتِّفَاقِ الْأُمَّةِ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: ذَكَرَ اللهُ الصَّبْرَ فِي تِسْعِينَ مَوْضِعًا مِنَ الْقُرْآنِ، أَوْ بِضْعًا وَتِسْعِينَ، وَلَهُ طَرَفَانِ أَيْضًا: وَاجِبٌ مُسْتَحَقٌّ، وَكَمَالٌ مُسْتَحَبٌّ.

وَأَمَّا الْمُخْتَلَفُ فِيهِ فَكَالرِّضَا، فَإِنَّ فِي وُجُوبِهِ قَوْلَيْنِ لِلْفُقَهَاءِ وَالصُّوفِيَّةِ، وَالْقَوْلَانِ لِأَصْحَابِ أَحْمَدَ، فَمَنْ أَوْجَبَهُ قَالَ: السُّخْطُ حَرَامٌ، وَلَا خَلَاصَ عَنْهُ إِلَّا بِالرِّضَا، وَمَا لَا خَلَاصَ عَنِ الْحَرَامِ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ.

وَاحْتَجُّوا بِأَثَرِ « **مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى بَلَائِي، وَلَمْ يَرْضَ بِقَضَائِي، فَلْيَتَّخِذْ رَبًّا سِوَايَ** » (١) .

وَمَنْ قَالَ: هُوَ مُسْتَحَبٌّ، قَالَ: لَمْ يَجِئِ الْأَمْرُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ، بِخِلَافِ الصَّبْرِ، فَإِنَّ اللهَ أَمَرَ بِهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ، وَكَذَلِكَ التَّوَكُّلُ، قَالَ: ﴿ **إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ** ﴾ [يُونُس:٨٤] ، وَأَمَرَ بِالْإِنَابَةِ، فَقَالَ : ﴿ **وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ** ﴾ [الزُّمُر:٥٤]، وَأَمَرَ بِالْإِخْلَاصِ كَقَوْلِهِ : ﴿ **وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ**

(١) (ضَعِيفٌ) ضَعَّفَهُ العَلَّامَةُ الأَلْبَانِيّ -رَحِمَهُ اللهُ- وَقَالَ : ضَعِيفٌ جِدًا بِرَقَم (٥٠٥).

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البَيِّنَةُ:٥]، وَكَذَلِكَ الْخَوْفُ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمْرَان :١٧٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البَقَرَةُ :١٥٠]، وَقَوْلِهِ ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البَقَرَةُ:٤٠]، وَكَذَلِكَ الصِّدْقُ، قَالَ تَعَالَىٰ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التَّوْبَةُ: ١١٩]، وَكَذَلِكَ الْمَحَبَّةُ، وَهِيَ أَفْرَضُ الْوَاجِبَاتِ، إِذْ هِيَ قَلْبُ الْعِبَادَةِ الْمَأْمُورِ بِهَا، وَمُخُّهَا وَرُوحُهَا.

وَأَمَّا الرِّضَا فَإِنَّمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مَدْحُ أَهْلِهِ، وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِمْ، لَا الْأَمْرُ بِهِ.

قَالُوا: وَأَمَّا الْأَثَرُ الْمَذْكُورُ فَإِسْرَائِيلِيٌّ، لَا يُحْتَجُّ بِهِ.

قَالُوا: وَفِي الْحَدِيثِ الْمَعْرُوفِ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ الرِّضَا مَعَ الْيَقِينِ فَافْعَلْ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَىٰ مَا تَكْرَهُ النَّفْسُ خَيْرًا كَثِيرًا**»[1]، وَهُوَ فِي بَعْضِ السُّنَنِ.

قَالُوا: وَأَمَّا قَوْلُكُمْ «لَا خَلَاصَ عَنِ السُّخْطِ إِلَّا بِهِ» فَلَيْسَ بِلَازِمٍ، فَإِنَّ مَرَاتِبَ النَّاسِ فِي الْمَقْدُورِ ثَلَاثَةٌ: الرِّضَا، وَهُوَ أَعْلَاهَا، وَالسُّخْطُ، وَهُوَ أَسْفَلُهَا، وَالصَّبْرُ عَلَيْهِ بِدُونِ الرِّضَا بِهِ، وَهُوَ أَوْسَطُهَا، فَالْأُولَىٰ لِلْمُقَرَّبِينَ السَّابِقِينَ، وَالثَّالِثَةُ لِلْمُقْتَصِدِينَ، وَالثَّانِيَةُ لِلظَّالِمِينَ، وَكَثِيرٌ مِنَ

(١) ذَكَرَهُ الحَاكِمُ فِي المُسْتَدْرَكِ (٣/ ٦٢٣)، والبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الإِيْمَانِ» (٧/ ٢٠٣)، وَبِلَفْظٍ آخَرَ عِنْدَ أَحْمَدَ فِي حَدِيثِ «**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ**» (١/ ٣٠٧).

النَّاسِ يَصْبِرُ عَلَىٰ الْمَقْدُورِ فَلَا يَسْخَطُ ، وَهُوَ غَيْرُ رَاضٍ بِهِ ، فَالرِّضَا أَمْرٌ آخَرُ.

وَقَدْ أُشْكِلَ عَلَىٰ بَعْضِ النَّاسِ اجْتِمَاعُ الرِّضَا مَعَ التَّأَلُّمِ، وَظَنَّ أَنَّهُمَا مُتَبَايِنَانِ، وَلَيْسَ كَمَا ظَنَّهُ، فَالْمَرِيضُ الشَّارِبُ لِلدَّوَاءِ الْكَرِيهِ مُتَأَلِّمٌ بِهِ رَاضٍ بِهِ، وَالصَّائِمُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ مُتَأَلِّمٌ بِصَوْمِهِ رَاضٍ بِهِ، وَالْبَخِيلُ مُتَأَلِّمٌ بِإِخْرَاجِ زَكَاةِ مَالِهِ رَاضٍ بِهَا، فَالتَّأَلُّمُ كَمَا لَا يُنَافِي الصَّبْرَ لَا يُنَافِي الرِّضَا بِهِ.

وَهَذَا الْخِلَافُ بَيْنَهُمْ إِنَّمَا هُوَ فِي الرِّضَا بِقَضَائِهِ الْكَوْنِيِّ، وَأَمَّا الرِّضَا بِهِ رَبًّا وَإِلَهًا، وَالرِّضَا بِأَمْرِهِ الدِّينِيِّ فَمُتَّفَقٌ عَلَىٰ فَرْضِيَّتِهِ، بَلْ لَا يَصِيرُ الْعَبْدُ مُسْلِمًا إِلَّا بِهَذَا الرِّضَا أَنْ يَرْضَىٰ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَسُولًا .

وَمِنْ هَذَا أَيْضًا اخْتِلَافُهُمْ فِي الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ، وَفِيهِ قَوْلَانِ لِلْفُقَهَاءِ، وَهُمَا فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ.

وَعَلَىٰ الْقَوْلَيْنِ اخْتِلَافُهُمْ فِي وُجُوبِ الْإِعَادَةِ عَلَىٰ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْوَسْوَاسُ فِي صَلَاتِهِ، فَأَوْجَبَهَا ابْنُ حَامِدٍ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ، وَأَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ فِي إِحْيَائِهِ، وَلَمْ يُوجِبْهَا أَكْثَرُ الْفُقَهَاءِ.

وَاحْتَجُّوا بِأَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَمَرَ مَنْ سَهَا فِي صَلَاتِهِ

بِسَجْدَتَي السَّهْو وَلَمْ يَأْمُرْهُ بالْإِعَادَة مَعَ قَوْله : « **إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتي أَحَدَكُمْ فِي صلَاته، فَيَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا لَمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتَّىٰ يَضِلَّ الرَّجُلُ أَنْ يَدْرِيَ كَمْ صَلَّىٰ** » (١) ، وَلَكِنْ لَا نزَاعَ أَنَّ هَذه الصَّلَاةَ لَا يُثَابُ عَلَىٰ شَيْءٍ منْهَا إِلَّا بقَدْر حُضُور قَلْبِه وَخُضُوعه، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- : « **إِنَّ الْعَبْدَ لَيَنْصَرفُ منَ الصَّلَاةِ وَلَمْ يُكْتَبْ لَهُ إِلَّا نِصْفُهَا، ثُلُثُهَا، رُبْعُهَا حَتَّىٰ بَلَغَ عُشْرَهَا** » (٢) ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: لَيْسَ لَكَ منْ صَلَاتكَ إِلَّا مَا عَقَلْتَ منْهَا، فَلَيْسَتْ صَحِيحَةً باعْتبَار تَرَتُّب كَمَال مَقْصُودهَا عَلَيْهَا، وَإِنْ سُمِّيَتْ صَحِيحَةً باعْتبَار أَنَّا لَا نَأْمُرُهُ بالْإِعَادَة وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَلَّقَ لَفْظُ الصِّحَّةِ عَلَيْهَا، فَيُقَالُ صَلَاةٌ صَحِيحَةٌ مَعَ أَنَّهُ لَا يُثَابُ عَلَيْهَا فَاعِلُهَا.

وَالْقَصْدُ أَنَّ هَذه الْأَعْمَالَ وَاجبَهَا وَمُسْتَحَبَّهَا هِيَ عُبُوديَّةُ الْقَلْب، فَمَنْ عَطَّلَهَا فَقَدْ عَطَّلَ عُبُوديَّةَ الْمَلِك، وَإِنْ قَامَ بِعُبُوديَّة رَعِيَّته منَ الْجَوَارِح.

وَالْمَقْصُودُ أَنْ يَكُونَ مَلكُ الْأَعْضَاءِ وَهُوَ الْقَلْبُ قَائِمًا بِعُبُوديَّتِه لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، هُوَ وَرَعِيَّتُهُ.

---

(١) (صَحِيحٌ) جُزْءٌ منْ حَديث أَوَّلُهُ : « **إِذَا نُودِىَ للصَّلَاة ...** » وَهُوَ عِنْدَ البُخَارِيّ (٦٠٨) ، وَعنْدَ مُسْلم (٣٨٩) .

(٢) هُوَ بلَفْظ آخَرَ عِنْدَ أَبِي دَاوُد وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي صَحِيحِ سُنَن أَبِي دَاوُد رَقْم (٧١٤) .

وَأَمَّا الْمُحَرَّمَاتُ الَّتِي عَلَيْهِ: فَالْكِبْرُ، وَالرِّيَاءُ، وَالْعُجْبُ، وَالْحَسَدُ، وَالْغَفْلَةُ، وَالنِّفَاقُ، وَهِيَ نَوْعَانِ: كُفْرٌ، وَمَعْصِيَةٌ.

فَالْكُفْرُ: كَالشَّكِّ، وَالنِّفَاقِ، وَالشِّرْكِ، وَتَوَابِعِهَا.

وَالْمَعْصِيَةُ نَوْعَانِ: كَبَائِرُ، وَصَغَائِرُ.

فَالْكَبَائِرُ: كَالرِّيَاءِ، وَالْعُجْبِ، وَالْكِبْرِ، وَالْفَخْرِ، وَالْخُيَلَاءِ، وَالْقُنُوطِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَالْيَأْسِ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَالْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللهِ، وَالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ بِأَذَىٰ الْمُسْلِمِينَ، وَالشَّمَاتَةِ بِمُصِيبَتِهِمْ، وَمَحَبَّةِ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِيهِمْ، وَحَسَدِهِمْ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَتَمَنِّي زَوَالِ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَتَوَابِعِ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ أَشَدُّ تَحْرِيمًا مِنَ الزِّنَا، وَشُرْبِ الْخَمْرِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْكَبَائِرِ الظَّاهِرَةِ، وَلَا صَلَاحَ لِلْقَلْبِ وَلَا لِلْجَسَدِ إِلَّا بِاجْتِنَابِهَا، وَالتَّوْبَةِ مِنْهَا، وَإِلَّا فَهُوَ قَلْبٌ فَاسِدٌ، وَإِذَا فَسَدَ الْقَلْبُ فَسَدَ الْبَدَنُ.

وَهَذِهِ الْآفَاتُ إِنَّمَا تَنْشَأُ مِنَ الْجَهْلِ بِعُبُودِيَّةِ الْقَلْبِ، وَتَرْكِ الْقِيَامِ بِهَا.

فَوَظِيفَةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ عَلَىٰ الْقَلْبِ قَبْلَ الْجَوَارِحِ، فَإِذَا جَهِلَهَا وَتَرَكَ الْقِيَامَ بِهَا امْتَلَأَ بِأَضْدَادِهَا وَلَا بُدَّ، وَبِحَسَبِ قِيَامِهِ بِهَا يَتَخَلَّصُ مِنْ أَضْدَادِهَا.

وَهَذِهِ الْأُمُورُ وَنَحْوُهَا قَدْ تَكُونُ صَغَائِرَ فِي حَقِّهِ، وَقَدْ تَكُونُ كَبَائِرَ،

بِحَسَبِ قُوَّتِهَا وَغِلَظِهَا، وَخِفَّتِهَا وَدِقَّتِهَا.

وَمِنَ الصَّغَائِرِ أَيْضًا: شَهْوَةُ الْمُحَرَّمَاتِ وَتَمَنِّيهَا، وَتَفَاوُتُ دَرَجَاتِ الشَّهْوَةِ فِي الْكِبَرِ وَالصِّغَرِ بِحَسَبِ تَفَاوُتِ دَرَجَاتِ الْمُشْتَهَى، فَشَهْوَةُ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ كُفْرٌ، وَشَهْوَةُ الْبِدْعَةِ فِسْقٌ، وَشَهْوَةُ الْكَبَائِرِ مَعْصِيَةٌ، فَإِنْ تَرَكَهَا للهِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهَا أُثِيبَ، وَإِنْ تَرَكَهَا عَجْزًا بَعْدَ بَذْلِهِ مَقْدُورِهِ فِي تَحْصِيلِهَا اسْتَحَقَّ عُقُوبَةَ الْفَاعِلِ، لِتَنْزِيلِهِ مَنْزِلَتَهُ فِي أَحْكَامِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَإِنْ لَمْ يَنْزِلْ مَنْزِلَتَهُ فِي أَحْكَامِ الشَّرْعِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- « **إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ**، قَالُوا: هَذَا الْقَاتِلُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ ؟، **قَالَ: إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ** » (١) ، فَنَزَّلَهُ مَنْزِلَةَ الْقَاتِلِ، لِحِرْصِهِ عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ، فِي الْإِثْمِ دُونَ الْحُكْمِ، وَلَهُ نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ فِي الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

وَقَدْ عُلِمَ بِهَذَا مُسْتَحَبُّ الْقَلْبِ وَمُبَاحُهُ.

عُبُودِيَّةُ اللِّسَانِ الْخَمْسُ:

وَأَمَّا عُبُودِيَّاتُ اللِّسَانِ الْخَمْسُ، فَوَاجِبُهَا النُّطْقُ بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَتِلَاوَةُ مَا يَلْزَمُهُ تِلَاوَتُهُ مِنَ الْقُرْآنِ، وَهُوَ مَا تَتَوَقَّفُ صِحَّةُ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ، وَتَلَفُّظُهُ بِالْأَذْكَارِ الْوَاجِبَةِ فِي الصَّلَاةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا وَرَسُولُهُ، كَمَا أَمَرَ بِالتَّسْبِيحِ

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣١)، وَمُسْلِمٌ (٢٨٨٨).

فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَأَمَرَ بِقَوْلِ « رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ » بَعْدَ الِاعْتِدَالِ، وَأَمَرَ بِالتَّشَهُّدِ، وَأَمَرَ بِالتَّكْبِيرِ.

وَمِنْ وَاجِبِهِ رَدُّ السَّلَامِ، وَفِي ابْتِدَائِهِ قَوْلَانِ.

وَمِنْ وَاجِبِهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَعْلِيمُ الْجَاهِلِ، وَإِرْشَادُ الضَّالِّ، وَأَدَاءُ الشَّهَادَةِ الْمُتَعَيِّنَةِ، وَصِدْقُ الْحَدِيثِ.

وَأَمَّا مُسْتَحَبُّهُ فَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ، وَدَوَامُ ذِكْرِ اللهِ، وَالْمُذَاكَرَةُ فِي الْعِلْمِ النَّافِعِ، وَتَوَابِعُ ذَلِكَ.

وَأَمَّا مُحَرَّمُهُ فَهُوَ النُّطْقُ بِكُلِّ مَا يُبْغِضُهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، كَالنُّطْقِ بِالْبِدَعِ الْمُخَالِفَةِ لِمَا بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ، وَالدُّعَاءِ إِلَيْهَا، وَتَحْسِينِهَا وَتَقْوِيَتِهَا، وَكَالْقَذْفِ وَسَبِّ الْمُسْلِمِ وَأَذَاهُ بِكُلِّ قَوْلٍ، وَالْكَذِبِ، وَشَهَادَةِ الزُّورِ، وَالْقَوْلِ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ، وَهُوَ أَشَدُّهَا تَحْرِيمًا.

وَمَكْرُوهُهُ التَّكَلُّمُ بِمَا تَرْكُهُ خَيْرٌ مِنَ الْكَلَامِ بِهِ، مَعَ عَدَمِ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهِ.

وَقَدِ اخْتَلَفَ السَّلَفُ هَلْ فِي حَقِّهِ كَلَامٌ مُبَاحٌ، مُتَسَاوِي الطَّرَفَيْنِ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، ذَكَرَهُمَا ابْنُ الْمُنْذِرِ وَغَيْرُهُ، أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ لَا يَخْلُو كُلُّ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ فِي حَقِّهِ شَيْءٌ لَا لَهُ وَلَا عَلَيْهِ.

وَاحْتَجُّوا بِالْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ، وَهُوَ « **كُلُّ كَلَامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَا لَهُ، إِلَّا**

مَا كَانَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَا وَالَاهُ » [(١)] .

وَاحْتَجُّوا بِأَنَّهُ يُكْتَبُ عَلَيْهِ كَلَامُهُ كُلُّهُ، وَلَا يُكْتَبُ إِلَّا الْخَيْرُ وَالشَّرُّ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: بَلْ هَذَا الْكَلَامُ مُبَاحٌ، لَا لَهُ وَلَا عَلَيْهِ، كَمَا فِي حَرَكَاتِ الْجَوَارِحِ.

قَالُوا: لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْكَلَامِ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ، وَهَذَا شَأْنُ الْمُبَاحِ.

وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّ حَرَكَةَ اللِّسَانِ بِالْكَلَامِ لَا تَكُونُ مُتَسَاوِيَةَ الطَّرَفَيْنِ، بَلْ إِمَّا رَاجِحَةً وَإِمَّا مَرْجُوحَةً، لِأَنَّ لِلِّسَانِ شَأْنًا لَيْسَ لِسَائِرِ الْجَوَارِحِ، وَإِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ، تَقُولُ: اتَّقِ اللهَ، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا، وَأَكْثَرُ مَا يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ، وَكُلُّ مَا يَتَلَفَّظُ بِهِ اللِّسَانُ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّا يُرْضِي اللهَ وَرَسُولَهُ أَوْ لَا، فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ الرَّاجِحُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَهُوَ الْمَرْجُوحُ، وَهَذَا بِخِلَافِ حَرَكَاتِ سَائِرِ الْجَوَارِحِ، فَإِنَّ صَاحِبَهَا يَنْتَفِعُ بِتَحْرِيكِهَا فِي الْمُبَاحِ الْمُسْتَوِي الطَّرَفَيْنِ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الرَّاحَةِ وَالْمَنْفَعَةِ، فَأُبِيحَ لَهُ اسْتِعْمَالُهَا فِيمَا فِيهِ مَنْفَعَةٌ لَهُ، وَلَا مَضَرَّةَ عَلَيْهِ فِيهِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا حَرَكَةُ اللِّسَانِ بِمَا لَا يُنْتَفَعُ بِهِ فَلَا يَكُونُ إِلَّا مَضَرَّةً، فَتَأَمَّلْهُ.

(١) (ضَعِيفٌ) ضَعَّفَهُ العَلَّامَةُ الأَلْبَانِيّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي ضَعِيف الجَامع (٤٢٨٣).

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ يَتَحَرَّكُ بِمَا فِيهِ مَنْفَعَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ مُبَاحَةٌ مُسْتَوِيَةُ الطَّرَفَيْنِ، فَيَكُونُ حُكْمُ حَرَكَتِهِ حُكْمَ ذَلِكَ الْفِعْلِ.

قِيلَ: حَرَكَتُهُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا رَاجِحَةٌ، وَعِنْدَ عَدَمِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا مَرْجُوحَةٌ لَا تُفِيدُهُ، فَتَكُونُ عَلَيْهِ لَا لَهُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا كَانَ الْفِعْلُ مُتَسَاوِيَ الطَّرَفَيْنِ، كَانَتْ حَرَكَةُ اللِّسَانِ الَّتِي هِيَ الْوَسِيلَةُ إِلَيْهِ كَذَلِكَ، إِذِ الْوَسَائِلُ تَابِعَةٌ لِلْمَقْصُودِ فِي الْحُكْمِ.

قِيلَ: لَا يَلْزَمُ ذَلِكَ، فَقَدْ يَكُونُ الشَّيْءُ مُبَاحًا، بَلْ وَاجِبًا، وَوَسِيلَتُهُ مَكْرُوهَةٌ كَالْوَفَاءِ بِالطَّاعَةِ الْمَنْذُورَةِ هُوَ وَاجِبٌ، مَعَ أَنَّ وَسِيلَتَهُ وَهُوَ النَّذْرُ مَكْرُوهٌ مَنْهِيٌّ عَنْهُ، وَكَذَلِكَ الْحَلِفُ الْمَكْرُوهُ مَرْجُوحٌ، مَعَ وُجُوبِ الْوَفَاءِ بِهِ أَوِ الْكَفَّارَةِ، وَكَذَلِكَ سُؤَالُ الْخَلْقِ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَكْرُوهٌ، وَيُبَاحُ لَهُ الِانْتِفَاعُ بِمَا أَخْرَجَتْهُ لَهُ الْمَسْأَلَةُ، وَهَذَا كَثِيرٌ جِدًّا، فَقَدْ تَكُونُ الْوَسِيلَةُ مُتَضَمِّنَةً مَفْسَدَةً تُكْرَهُ أَوْ تُحَرَّمُ لِأَجْلِهَا، وَمَا جُعِلَتْ وَسِيلَةً إِلَيْهِ لَيْسَ بِحَرَامٍ وَلَا مَكْرُوهٍ.

عُبُودِيَّةُ الْجَوَارِحِ الْخَمْسُ:

وَأَمَّا الْعُبُودِيَّاتُ الْخَمْسُ عَلَى الْجَوَارِحِ فَعَلَى خَمْسٍ وَعِشْرِينَ مَرْتَبَةً أَيْضًا، إِذِ الْحَوَاسُّ خَمْسَةٌ، وَعَلَى كُلِّ حَاسَّةٍ خَمْسُ عُبُودِيَاتٍ.

فَعَلَى السَّمْعِ وُجُوبُ الْإِنْصَاتِ وَالِاسْتِمَاعِ لِمَا أَوْجَبَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ

عَلَيْهِ، مِنَ اسْتِمَاعِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَفُرُوضِهِمَا، وَكَذَلِكَ اسْتِمَاعُ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ إِذَا جَهَرَ بِهَا الْإِمَامُ، وَاسْتِمَاعُ الْخُطْبَةِ لِلْجُمْعَةِ فِي أَصَحِّ قَوْلَيِ الْعُلَمَاءِ.

وَيَحْرُمُ عَلَيْهِ اسْتِمَاعُ الْكُفْرِ وَالْبِدَعِ، إِلَّا حَيْثُ يَكُونُ فِي اسْتِمَاعِهِ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ مِنْ رَدِّهِ، أَوِ الشَّهَادَةِ عَلَى قَائِلِهِ، أَوْ زِيَادَةِ قُوَّةِ الْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ بِمَعْرِفَةِ ضِدِّهِمَا مِنَ الْكُفْرِ وَالْبِدْعَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَكَاسْتِمَاعِ أَسْرَارِ مَنْ يَهْرُبُ عَنْكَ بِسِرِّهِ، وَلَا يُحِبُّ أَنْ يُطْلِعَكَ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يَكُنْ مُتَضَمِّنًا لِحَقِّ لِلَّهِ يَجِبُ الْقِيَامُ بِهِ، أَوْ لِأَذًى مُسْلِمٍ يَتَعَيَّنُ نُصْحُهُ، وَتَحْذِيرُهُ مِنْهُ.

وَكَذَلِكَ اسْتِمَاعُ أَصْوَاتِ النِّسَاءِ الْأَجَانِبِ الَّتِي تُخْشَى الْفِتْنَةُ بِأَصْوَاتِهِنَّ، إِذَا لَمْ تَدْعُ إِلَيْهِ حَاجَةٌ مِنْ شَهَادَةٍ، أَوْ مُعَامَلَةٍ، أَوِ اسْتِفْتَاءٍ، أَوْ مُحَاكَمَةٍ، أَوْ مُدَاوَاةٍ وَنَحْوِهَا.

وَكَذَلِكَ اسْتِمَاعُ الْمَعَازِفِ، وَآلَاتِ الطَّرَبِ وَاللَّهْوِ، كَالْعُودِ وَالطُّنْبُورِ وَالْيَرَاعِ وَنَحْوِهَا، وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ سَدُّ أُذُنِهِ إِذَا سَمِعَ الصَّوْتَ، وَهُوَ لَا يُرِيدُ اسْتِمَاعَهُ، إِلَّا إِذَا خَافَ السُّكُونَ إِلَيْهِ وَالْإِنْصَاتَ، فَحِينَئِذٍ يَجِبُ لِتَجَنُّبِ سَمَاعِهَا وُجُوبُ سَدِّ الذَّرَائِعِ.

وَنَظِيرُ هَذَا: الْمُحْرِمُ لَا يَجُوزُ لَهُ تَعَمُّدُ شَمِّ الطِّيبِ، وَإِذَا حَمَلَتِ الرِّيحُ رَائِحَتَهُ وَأَلْقَتْهَا فِي مَشَامِّهِ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ سَدُّ أَنْفِهِ.

وَنَظِيرُ هَذَا : نَظْرَةُ الْفُجَاءَةِ لَا تَحْرُمُ عَلَىٰ النَّاظِرِ، وَتَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّظْرَةُ الثَّانِيَةُ إِذَا تَعَمَّدَهَا.

وَأَمَّا السَّمْعُ الْمُسْتَحَبُّ فَكَاسْتِمَاعِ الْمُسْتَحَبِّ مِنَ الْعِلْمِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَذِكْرِ اللهِ، وَاسْتِمَاعِ كُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ، وَلَيْسَ بِفَرْضٍ.

وَالْمَكْرُوهُ عَكْسُهُ، وَهُوَ اسْتِمَاعُ كُلِّ مَا يُكْرَهُ وَلَا يُعَاقَبُ عَلَيْهِ.

وَالْمُبَاحُ ظَاهِرٌ.

وَأَمَّا النَّظَرُ الْوَاجِبُ: فَالنَّظَرُ فِي الْمُصْحَفِ وَكُتُبِ الْعِلْمِ عِنْدَ تَعَيُّنِ تَعَلُّمِ الْوَاجِبِ مِنْهَا، وَالنَّظَرُ إِذَا تَعَيَّنَ لِتَمْييزِ الْحَلَالِ مِنَ الْحَرَامِ فِي الْأَعْيَانِ الَّتِي يَأْكُلُهَا أَوْ يُنْفِقُهَا أَوْ يَسْتَمْتِعُ بِهَا، وَالْأَمَانَاتِ الَّتِي يُؤَدِّيهَا إِلَىٰ أَرْبَابِهَا لِيُمَيِّزَ بَيْنَهَا، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَالنَّظَرُ الْحَرَامُ النَّظَرُ إِلَىٰ الْأَجْنَبِيَّاتِ بِشَهْوَةٍ مُطْلَقًا، وَبِغَيْرِهَا إِلَّا لِحَاجَةٍ، كَنَظَرِ الْخَاطِبِ،وَالْمُسْتَامِ وَالْمُعَامِلِ،وَالشَّاهِدِ،وَالْحَاكِمِ، وَالطَّبِيبِ، وَذِي الْمَحْرَمِ.

وَالْمُسْتَحَبُّ النَّظَرُ فِي كُتُبِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ الَّتِي يَزْدَادُ بِهَا الرَّجُلُ إِيمَانًا وَعِلْمًا، وَالنَّظَرُ فِي الْمُصْحَفِ، وَوُجُوهِ الْعُلَمَاءِ الصَّالِحِينَ وَالْوَالِدَيْنِ، وَالنَّظَرُ فِي آيَاتِ اللهِ الْمَشْهُودَةِ لِيُسْتَدَلَّ بِهَا عَلَىٰ تَوْحِيدِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَحِكْمَتِهِ.

وَالْمَكْرُوهُ فُضُولُ النَّظَرِ الَّذِي لَا مَصْلَحَةَ فِيهِ، فَإِنَّ لَهُ فُضُولًا كَمَا

لِلِّسَانِ فُضُولًا، وَكَمْ قَادَ فُضُولُهَا إِلَىٰ فُضُولٍ عَزَّ التَّخَلُّصُ مِنْهَا، وَأَعْيَىٰ دَوَاؤُهَا، وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: كَانُوا يَكْرَهُونَ فُضُولَ النَّظَرِ، كَمَا يَكْرَهُونَ فُضُولَ الْكَلَامِ.

وَالْمُبَاحُ النَّظَرُ الَّذِي لَا مَضَرَّةَ فِيهِ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ وَلَا مَنْفَعَةَ.

وَمِنَ النَّظَرِ الْحَرَامِ: النَّظَرُ إِلَى الْعَوْرَاتِ، وَهِيَ قِسْمَانِ:

عَوْرَةٌ وَرَاءَ الثِّيَابِ، وَعَوْرَةٌ وَرَاءَ الْأَبْوَابِ.

وَلَوْ نَظَرَ فِي الْعَوْرَةِ الَّتِي وَرَاءَ الْأَبْوَابِ فَرَمَاهُ صَاحِبُ الْعَوْرَةِ فَفَقَأَ عَيْنَهُ، لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَذَهَبَتْ هَدْرًا بِنَصِّ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَىٰ صِحَّتِهِ، وَإِنْ ضَعَّفَهُ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ لِكَوْنِهِ لَمْ يَبْلُغْهُ النَّصُّ، أَوْ تَأَوَّلَهُ.

وَهَذَا إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلنَّاظِرِ سَبَبٌ يُبَاحُ النَّظَرُ لِأَجْلِهِ، كَعَوْرَةٍ لَهُ هُنَاكَ يَنْظُرُهَا، أَوْ رِيبَةٍ هُوَ مَأْمُورٌ أَوْ مَأْذُونٌ لَهُ فِي الِاطِّلَاعِ عَلَيْهَا.

وَأَمَّا الذَّوْقُ الْوَاجِبُ: فَتَنَاوُلُ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ عِنْدَ الِاضْطِرَارِ إِلَيْهِ وَخَوْفِ الْمَوْتِ، فَإِنْ تَرَكَهُ حَتَّىٰ مَاتَ، مَاتَ عَاصِيًا قَاتِلًا لِنَفْسِهِ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَ طَاوُسٌ: مَنِ اضْطُرَّ إِلَىٰ أَكْلِ الْمَيْتَةِ فَلَمْ يَأْكُلْ حَتَّىٰ مَاتَ، دَخَلَ النَّارَ.

وَمِنْ هَذَا تَنَاوُلُ الدَّوَاءِ إِذَا تَيَقَّنَ النَّجَاةَ بِهِ مِنَ الْهَلَاكِ، عَلَىٰ أَصَحِّ

الْقَوْلَيْنِ، وَإِنْ ظَنَّ الشِّفَاءَ بِهِ، فَهَلْ هُوَ مُسْتَحَبٌّ مُبَاحٌ، أَوِ الْأَفْضَلُ تَرْكُهُ؟، فِيهِ نِزَاعٌ مَعْرُوفٌ بَيْنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ.

وَالذَّوْقُ الْحَرَامُ: كَذَوْقِ الْخَمْرِ، وَالسُّمُومِ الْقَاتِلَةِ، وَالذَّوْقِ الْمَمْنُوعِ مِنْهُ لِلصَّوْمِ الْوَاجِبِ.

وَأَمَّا الْمَكْرُوهُ: فَكَذَوْقِ الْمُشْتَبِهَاتِ، وَالْأَكْلِ فَوْقَ الْحَاجَةِ، وَذَوْقِ طَعَامِ الْفُجَاءَةِ، وَهُوَ الطَّعَامُ الَّذِي تَفَجَّأَ آكِلُهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَدْعُوكَ إِلَيْهِ، وَكَأَكْلِ أَطْعِمَةِ الْمُرَائِينَ فِي الْوَلَائِمِ وَالدَّعَوَاتِ وَنَحْوِهَا، وَفِي السُّنَنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- « **نَهَى عَنْ طَعَامِ الْمُتَبَارِيَيْنِ** »[1] ، وَذَوْقُ طَعَامِ مَنْ يُطْعِمُكَ حَيَاءً مِنْكَ لَا بِطِيبَةِ نَفْسٍ.

وَالذَّوْقُ الْمُسْتَحَبُّ: أَكْلُ مَا يُعِينُكَ عَلَى طَاعَةِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، مِمَّا أَذِنَ اللهُ فِيهِ، وَالْأَكْلُ مَعَ الضَّيْفِ لِيَطِيبَ لَهُ الْأَكْلُ، فَيَنَالَ مِنْهُ غَرَضَهُ، وَالْأَكْلُ مِنْ طَعَامِ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ الْوَاجِبِ إِجَابَتُهَا أَوِ الْمُسْتَحَبِّ.

وَقَدْ أَوْجَبَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ الْأَكْلَ مِنَ الْوَلِيمَةِ الْوَاجِبِ إِجَابَتُهَا لِلْأَمْرِ بِهِ عَنِ الشَّارِعِ.

وَالذَّوْقُ الْمُبَاحُ: مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِثْمٌ وَلَا رُجْحَانٌ.

وَأَمَّا تَعَلُّقُ الْعُبُودِيَّاتِ الْخَمْسِ بِحَاسَّةِ الشَّمِّ، فَالشَّمُّ الْوَاجِبُ: كُلُّ

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيّ فِي «صَحِيحِ الجَامع» (٦٩٦٥).

شَمٍّ تَعَيَّنَ طَرِيقًا لِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، كَالشَّمِّ الَّذِي تُعْلَمُ بِهِ هَذِهِ الْعَيْنُ هَلْ هِيَ خَبِيثَةٌ أَوْ طَيِّبَةٌ ؟ ، وَهَلْ هِيَ سُمٌّ قَاتِلٌ أَوْ لَا مَضَرَّةَ فِيهِ؟، أَوْ يُمَيِّزُ بِهِ بَيْنَ مَا يَمْلِكُ الانْتِفَاعَ بِهِ، وَمَا لَا يَمْلِكُ ؟ ، وَمِنْ هَذَا شَمُّ الْمُقَوِّمِ، وَرَبِّ الْخِبْرَةِ عِنْدَ الْحُكْمِ بِالتَّقْوِيمِ، وَشَمُّ الْعَبِيدِ وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الشَّمُّ الْحَرَامُ: فَالتَّعَمُّدُ لِشَمِّ الطِّيبِ فِي الْإِحْرَامِ، وَشَمِّ الطِّيبِ الْمَغْصُوبِ وَالْمَسْرُوقِ، وَتَعَمُّدُ شَمِّ الطِّيبِ مِنَ النِّسَاءِ الْأَجْنَبِيَّاتِ خَشْيَةَ الِافْتِتَانِ بِمَا وَرَاءَهُ.

وَأَمَّا الشَّمُّ الْمُسْتَحَبُّ: فَشَمُّ مَا يُعِينُكَ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ، وَيُقَوِّي الْحَوَاسَّ، وَيَبْسُطُ النَّفْسَ لِلْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَمِنْ هَذَا هَدِيَّةُ الطِّيبِ وَالرَّيْحَانِ إِذَا أُهْدِيَتْ لَكَ، فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ رَيْحَانٌ فَلَا يَرُدَّهُ، فَإِنَّهُ طَيِّبُ الرِّيحِ، خَفِيفُ الْمَحْمَلِ**»[١].

وَالْمَكْرُوهُ: كَشَمِّ طِيبِ الظَّلَمَةِ، وَأَصْحَابِ الشُّبُهَاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَالْمُبَاحُ: مَا لَا مَنْعَ فِيهِ مِنَ اللهِ وَلَا تَبِعَةَ، وَلَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ دِينِيَّةٌ، وَلَا تَعَلُّقُ لَهُ بِالشَّرْعِ.

وَأَمَّا تَعَلُّقُ هَذِهِ الْخَمْسَةِ بِحَاسَّةِ اللَّمْسِ: فَاللَّمْسُ الْوَاجِبُ كَلَمْسِ

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٢٥٣)، وَالتِّرْمِذِيّ (٢٧٩١) .

الزَّوْجَةِ حِينَ يَجِبُ جِمَاعُهَا، وَالْأَمَةِ الْوَاجِبِ إِعْفَافُهَا.

وَالْحَرَامُ: لَمْسُ مَا لَا يَحِلُّ مِنَ الْأَجْنَبِيَّاتِ.

وَالْمُسْتَحَبُّ: إِذَا كَانَ فِيهِ غَضُّ بَصَرِهِ، وَكَفُّ نَفْسِهِ عَنِ الْحَرَامِ، وَإِعْفَافُ أَهْلِهِ.

وَالْمَكْرُوهُ: لَمْسُ الزَّوْجَةِ فِي الْإِحْرَامِ لِلَذَّةٍ، وَكَذَلِكَ فِي الِاعْتِكَافِ، وَفِي الصِّيَامِ إِذَا لَمْ يَأْمَنْ عَلَىٰ نَفْسِهِ.

وَمِنْ هَذَا لَمْسُ بَدَنِ الْمَيِّتِ لِغَيْرِ غَاسِلِهِ لِأَنَّ بَدَنَهُ قَدْ صَارَ بِمَنْزِلَةِ عَوْرَةِ الْحَيِّ تَكْرِيمًا لَهُ، وَلِهَذَا يُسْتَحَبُّ سَتْرُهُ عَنِ الْعُيُونِ وَتَغْسِيلُهُ فِي قَمِيصِهِ فِي أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ، وَلَمْسُ فَخِذِ الرَّجُلِ إِذَا قُلْنَا هِيَ عَوْرَةٌ.

وَالْمُبَاحُ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَفْسَدَةٌ وَلَا مَصْلَحَةٌ دِينِيَّةٌ.

وَهَذِهِ الْمَرَاتِبُ أَيْضًا مُرَتَّبَةٌ عَلَىٰ الْبَطْشِ بِالْيَدِ، وَالْمَشْيِ بِالرِّجْلِ، وَأَمْثِلَتُهَا لَا تَخْفَى.

فَالتَّكَسُّبُ الْمَقْدُورُ لِلنَّفَقَةِ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَعِيَالِهِ وَاجِبٌ، وَفِي وُجُوبِهِ لِقَضَاءِ دَيْنِهِ خِلَافٌ، وَالصَّحِيحُ وُجُوبُهُ لِيُمَكِّنَهُ مِنْ أَدَاءِ دَيْنِهِ، وَلَا يَجِبُ لِإِخْرَاجِ الزَّكَاةِ، وَفِي وُجُوبِهِ لِأَدَاءِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ نَظَرٌ، وَالْأَقْوَىٰ فِي الدَّلِيلِ وُجُوبُهُ لِدُخُولِهِ فِي الِاسْتِطَاعَةِ وَتَمَكُّنِهِ بِذَلِكَ مِنْ أَدَاءِ النُّسُكِ، وَالْمَشْهُورُ عَدَمُ وُجُوبِهِ.

وَمِنَ الْبَطْشِ الْوَاجِبِ: إِعَانَةُ الْمُضْطَرِّ، وَرَمْيُ الْجِمَارِ، وَمُبَاشَرَةُ الْوُضُوءِ وَالتَّيَمُّمِ.

وَالْحَرَامُ: كَقَتْلِ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ قَتْلَهَا، وَنَهْبُ الْمَالِ الْمَعْصُوم، وَضَرْبُ مَنْ لَا يَحِلُّ ضَرْبُهُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَكَأَنْوَاعِ اللَّعِبِ الْمُحَرَّمِ بِالنَّصِّ كَالنَّرْدِ، أَوْ مَا هُوَ أَشَدُّ تَحْرِيمًا مِنْهُ عِنْدَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ كَالشِّطْرَنْجِ، أَوْ مِثْلِهِ عِنْدَ فُقَهَاءِ الْحَدِيثِ كَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِ، أَوْ دُونَهُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ، وَنَحوِ كِتَابَةِ الْبِدَعِ الْمُخَالِفَةِ لِلسُّنَّةِ تَصْنِيفًا أَوْ نَسْخًا، إِلَّا مَقْرُونًا بِرَدِّهَا وَنَقْضِهَا، وَكِتَابَةِ الزُّورِ وَالظُّلْمِ، وَالْحُكْمِ الْجَائِرِ، وَالْقَذْفِ وَالتَّشْبِيبِ بِالنِّسَاءِ الْأَجَانِبِ، وَكِتَابَةِ مَا فِيهِ مَضَرَّةٌ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ فِي دِينِهِمْ أَوْ دُنْيَاهُمْ، وَلَاسِيَّمَا إِنْ كَسَبْتَ عَلَيْهِ مَالًا ﴿**فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ**﴾ [البَقَرَة: ٧٩]، مِمَّا يَكْسِبُونَ وَكَذَلِكَ كِتَابَةُ الْمُفْتِي عَلَىٰ الْفَتْوَىٰ مَا يُخَالِفُ حُكْمَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا، فَالْإِثْمُ مَوْضُوعٌ عَنْهُ.

وَأَمَّا الْمَكْرُوهُ: فَكَالْعَبَثِ وَاللَّعِبِ الَّذِي لَيْسَ بِحَرَامٍ، وَكِتَابَةِ مَا لَا فَائِدَةَ فِي كِتَابَتِهِ، وَلَا مَنْفَعَةَ فِيهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَالْمُسْتَحَبُّ: كِتَابَةُ كُلِّ مَا فِيهِ مَنْفَعَةٌ فِي الدِّينِ، أَوْ مَصْلَحَةٌ لِمُسْلِم، وَالْإِحْسَانُ بِيَدِهِ بِأَنْ يَعِينَ صَانِعًا، أَوْ يَصْنَعَ لِأَخْرَقَ، أَوْ يُفْرِغَ مِنْ دَلْوِهِ

فِي دَلْوِ الْمُسْتَسْقِي، أَوْ يَحْمِلَ لَهُ عَلَىٰ دَابَّتِهِ، أَوْ يُمْسِكَهَا حَتَّىٰ يَحْمِلَ عَلَيْهَا، أَوْ يُعَاوِنَهُ بِيَدِهِ فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَمِنْهُ لَمْسُ الرُّكْنِ بِيَدِهِ فِي الطَّوَافِ، وَفِي تَقْبِيلِهَا بَعْدَ اللَّمْسِ قَوْلَانِ.

وَالْمُبَاحُ مَا لَا مَضَرَّةَ فِيهِ وَلَا ثَوَابَ.

وَأَمَّا الْمَشْيُ الْوَاجِبُ: فَالْمَشْيُ إِلَىٰ الْجُمُعَاتِ وَالْجَمَاعَاتِ فِي أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ لِبِضْعَةٍ وَعِشْرِينَ دَلِيلًا مَذْكُورَةٍ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَالْمَشْيُ حَوْلَ الْبَيْتِ لِلطَّوَافِ الْوَاجِبِ، وَالْمَشْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ بِنَفْسِهِ أَوْ بِمَرْكُوبِهِ، وَالْمَشْيُ إِلَىٰ حُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِذَا دُعِيَ إِلَيْهِ، وَالْمَشْيُ إِلَىٰ صِلَةِ رَحِمِهِ، وَبِرِّ وَالِدَيْهِ، وَالْمَشْيُ إِلَىٰ مَجَالِسِ الْعِلْمِ الْوَاجِبِ طَلَبُهُ وَتَعَلُّمُهُ، وَالْمَشْيُ إِلَىٰ الْحَجِّ إِذَا قَرُبَتِ الْمَسَافَةُ وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ فِيهِ ضَرَرٌ.

وَالْحَرَامُ: الْمَشْيُ إِلَىٰ مَعْصِيَةِ اللهِ، وَهُوَ مِنْ رَجِلِ الشَّيْطَانِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء:٦٤]، قَالَ مُقَاتِلٌ: اسْتَعِنْ عَلَيْهِمْ بِرُكْبَانِ جُنْدِكَ وَمُشَاتِهِمْ، فَكُلُّ رَاكِبٍ وَمَاشٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ فَهُوَ مِنْ جُنْدِ إِبْلِيسَ.

وَكَذَلِكَ تَتَعَلَّقُ هَذِهِ الْأَحْكَامُ الْخَمْسُ بِالرُّكُوبِ أَيْضًا.

فَوَاجِبُهُ: فِي الرُّكُوبِ فِي الْغَزْوِ، وَالْجِهَادِ، وَالْحَجِّ الْوَاجِبِ.

وَمُسْتَحَبُّهُ: فِي الرُّكُوبِ الْمُسْتَحَبِّ مِنْ ذَلِكَ، وَلِطَلَبِ الْعِلْمِ، وَصِلَةِ

الرَّحم، وَبرِّ الْوَالِدَيْن، وَفِي الْوُقُوف بعَرَفَةَ نِزَاعٌ هَل الرُّكُوبُ فِيهِ أَفْضَلُ، أَمْ عَلَىٰ الأَرْض؟، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الرُّكُوبَ أَفْضَلُ إِذَا تَضَمَّنَ مَصْلَحَةً مِنْ تَعْلِيم لِلْمَنَاسِكِ، وَاقْتِدَاءٍ بِهِ، وَكَانَ أَعْوَنَ عَلَىٰ الدُّعَاءِ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ ضَرَرٌ عَلَىٰ الدَّابَّةِ.

وَحَرَامُهُ: الرُّكُوبُ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- .

وَمَكْرُوهُهُ: الرُّكُوبُ لِلَّهْوِ وَاللَّعِبِ، وَكُلُّ مَا تَرْكُهُ خَيْرٌ مِنْ فِعْلِهِ.

وَمُبَاحُهُ: الرُّكُوبُ لِمَا لَمْ يَتَضَمَّنْ فَوْتَ أَجْرٍ، وَلَا تَحْصِيلَ وِزْرٍ.

فَهَذِهِ خَمْسُونَ مَرْتَبَةً عَلَىٰ عَشَرَةِ أَشْيَاءَ: الْقَلْبُ، وَاللِّسَانُ، وَالسَّمْعُ، وَالْبَصَرُ، وَالأَنْفُ، وَالْفَمُ، وَالْيَدُ، وَالرِّجْلُ، وَالْفَرْجُ، وَالِاسْتِوَاءُ عَلَىٰ ظَهْرِ الدَّابَّةِ.

مَرَاتِبُ التَّمْحِيصِ:

وَهَذَا التَّمْحِيصُ يَكُونُ فِي دَارِ الدُّنْيَا بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ:

بِالتَّوْبَةِ، وَالِاسْتِغْفَارِ، وَعَمَلِ الْحَسَنَاتِ الْمَاحِيَةِ، وَالْمَصَائِبِ الْمُكَفِّرَةِ، فَإِنْ مَحَّصَتْهُ هَذِهِ الأَرْبَعَةُ وَخَلَّصَتْهُ كَانَ مِنَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ، يُبَشِّرُونَهُمْ بِالْجَنَّةِ، وَكَانَ مِنَ الَّذِينَ ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ

أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾ [فُصِّلَت: ٣٠-٣٢].

وَإِنْ لَمْ تَفِ هَذِهِ الْأَرْبَعَةُ بِتَمْحِيصِهِ وَتَخْلِيصِهِ، فَلَمْ تَكُنِ التَّوْبَةُ نَصُوحًا وَهِيَ الْعَامَّةُ الشَّامِلَةُ الصَّادِقَةُ وَلَمْ يَكُنِ الِاسْتِغْفَارُ النَّافِعُ، لَا اسْتِغْفَارَ مَنْ فِي يَدِهِ قَدَحُ السُّكْرِ، وَهُوَ يَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، ثُمَّ يَرْفَعُهُ إِلَىٰ فِيهِ، وَلَمْ تَكُنِ الْحَسَنَاتُ فِي كَمِّيَّتِهَا وَكَيْفِيَّتِهَا وَافِيَةً بِالتَّكْفِيرِ، وَلَا الْمَصَائِبُ، وَهَذَا إِمَّا لِعِظَمِ الْجِنَايَةِ، وَإِمَّا لِضَعْفِ الْمُمَحِّصِ، وَإِمَّا لَهُمَا - مُحِّصَ فِي الْبَرْزَخِ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا: صَلَاةُ أَهْلِ الْإِيمَانِ الْجِنَازَةَ عَلَيْهِ، وَاسْتِغْفَارُهُمْ لَهُ، وَشَفَاعَتُهُمْ فِيهِ.

الثَّانِي: تَمْحِيصُهُ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَرَوْعَةِ الْفَتَّانِ، وَالْعَصْرَةِ وَالِانْتِهَارِ، وَتَوَابِعِ ذَلِكَ.

الثَّالِثُ: مَا يُهْدِي إِخْوَانُهُ الْمُسْلِمُونَ إِلَيْهِ مِنْ هَدَايَا الْأَعْمَالِ، مِنَ الصَّدَقَةِ عَنْهُ، وَالْحَجِّ، وَالصِّيَامِ عَنْهُ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عَنْهُ، وَالصَّلَاةِ، وَجَعْلِ ثَوَابِ ذَلِكَ لَهُ، وَقَدْ أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَىٰ وُصُولِ الصَّدَقَةِ وَالدُّعَاءِ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: لَا يَخْتَلِفُونَ فِي ذَلِكَ، وَمَا عَدَاهُمَا فِيهِ اخْتِلَافٌ، وَالْأَكْثَرُونَ يَقُولُونَ بِوُصُولِ الْحَجِّ، وَأَبُو حَنِيفَةَ يَقُولُ: إِنَّمَا يَصِلُ إِلَيْهِ ثَوَابُ الْإِنْفَاقِ،

وَأَحْمَدُ وَمَنْ وَافَقَهُ مَذْهَبُهُمْ فِي ذَلِكَ أَوْسَعُ الْمَذَاهِبِ، يَقُولُونَ: يَصِلُ إِلَيْهِ ثَوَابُ جَمِيعِ الْقُرَبِ، بِدَنِيِّهَا وَمَالِيِّهَا، وَالْجَامِعُ لِلأَمْرَيْنِ .

وَاحْتَجُّوا بِأَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ لِمَنْ سَأَلَهُ « يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا ؟، قَالَ: «**نَعَمْ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ** »[1] ، وَقَدْ قَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ**»[2] .

فَإِنْ لَمْ تَفِ هَذِهِ بِالتَّمْحِيصِ، مُحِّصَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ فِي الْمَوْقِفِ بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ: أَهْوَالُ الْقِيَامَةِ، وَشِدَّةُ الْمَوْقِفِ، وَشَفَاعَةُ الشُّفَعَاءِ، وَعَفْوُ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

فَإِنْ لَمْ تَفِ هَذِهِ الثَّلَاثَةُ بِتَمْحِيْصِهِ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ دُخُولِ الْكِيرِ، رَحْمَةً فِي حَقِّهِ لِيَتَخَلَّصَ وَيَتَمَحَّصَ، وَيَتَطَهَّرَ فِي النَّارِ، فَتَكُونَ النَّارُ طُهْرَةً لَهُ وَتَمْحِيْصًا لِخَبَثِهِ، وَيَكُونَ مُكْثُهُ فِيهَا عَلَىٰ حَسَبِ كَثْرَةِ الْخَبَثِ وَقِلَّتِهِ، وَشِدَّتِهِ وَضَعْفِهِ وَتَرَاكُمِهِ، فَإِذَا خَرَجَ خَبَثُهُ وَصُفِّيَ ذَهَبُهُ، وَصَارَ خَالِصًا طَيِّبًا، أُخْرِجَ مِنَ النَّارِ، وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ .

---

(١) (ضَعِيْفٌ) ضَعَّفَهُ العَلَّامَةُ الأَلْبَانِيّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُد (١١٠١).
(٢) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (١٩٥٢) ، وَمُسْلِمٌ (١١٤٧) .

تَأمَّلْ إِلى عَظَمَةِ مَنْ عَصَيْتَ:

مَنْ كَمُلَتْ عَظَمَةُ الْحَقِّ تَعَالَىٰ فِي قَلْبِهِ عَظُمَتْ عِنْدَهُ مُخَالَفَتُهُ، لأَنَّ مُخَالَفَةَ الْعَظِيمِ لَيْسَتْ كَمُخَالَفَةِ مَنْ هُوَ دُونَهُ، وَمَنْ عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ وَحَقِيقَتَهَا، وَفَقْرَهَا الذَّاتِيَّ إِلَىٰ مَوْلَاهَا الْحَقِّ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَنَفَسٍ، وَشِدَّةَ حَاجَتِهَا إِلَيْهِ، عَظُمَتْ عِنْدَهُ جِنَايَةُ الْمُخَالَفَةِ لِمَنْ هُوَ شَدِيدُ الضَّرُورَةِ إِلَيْهِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَنَفَسٍ.

وَأَيْضًا فَإِذَا عَرَفَ حَقَارَتَهَا مَعَ عِظَمِ قَدْرِ مَنْ خَالَفَهُ عَظُمَتِ الْجِنَايَةُ عِنْدَهُ، فَشَمَّرَ فِي التَّخَلُّصِ مِنْهَا، وَبِحَسَبِ تَصْدِيقِهِ بِالْوَعِيدِ وَيَقِينِهِ بِهِ، يَكُونُ تَشْمِيرُهُ فِي التَّخَلُّصِ مِنَ الْجِنَايَةِ الَّتِي تَلْحَقُ بِهِ.

الْمُنْتَفِعُونَ بِالآيَاتِ:

وَمَدَارُ السَّعَادَةِ، وَقُطْبُ رَحَاهَا عَلَىٰ التَّصْدِيقِ بِالْوَعِيدِ، فَإِذَا تَعَطَّلَ مِنْ قَلْبِهِ التَّصْدِيقُ بِالْوَعِيدِ خَرِبَ خَرَابًا لَا يُرْجَىٰ مَعَهُ فَلَاحٌ الْبَتَّةَ، وَاللهُ تَعَالَىٰ أَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا تَنْفَعُ الآيَاتُ وَالنُّذُرُ لِمَنْ صَدَّقَ بِالْوَعِيدِ، وَخَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمَقْصُودُونَ بِالإِنْذَارِ، وَالْمُنْتَفِعُونَ بِالآيَاتِ دُونَ مَنْ عَدَاهُمْ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ [هُود: ١٠٣] ،وَقَالَ : ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النَّازِعَات: ٤٥] ، وَقَالَ : ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] ،

وَأَخبرَ تعالَىٰ أَنَّ أَهلَ النَّجاةِ في الدُّنْيا وَالآخرةِ هُمُ المُصدِّقُونَ بالوَعيد، الخَائِفُونَ منْهُ، فقالَ تعالَى: ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [إبْراهِيم: ١٤] .

التَّوْبَةُ وَسَطٌ بَيْنَ مُحاسَبتَيْن:

التَّوْبَةَ بَيْنَ مُحَاسَبَتَيْن، مُحَاسَبَةٍ قَبْلَهَا، تَقْتَضي وُجُوبَهَا، وَمُحَاسَبَةٍ بَعْدَهَا، تَقْتَضي حِفْظَهَا، فَالتَّوْبَةُ مَحْفُوفَةٌ بِمُحَاسَبَتَيْنِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ المُحَاسَبَةِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحَشْرُ: ١٨] ، فَأَمَرَ سُبْحَانَهُ العَبْدَ أَنْ يَنْظُرَ مَا قَدَّمَ لِغَد، وَذلك يَتَضَمَّنُ مُحَاسَبَةَ نَفْسِهِ عَلَىٰ ذَلكَ، وَالنَّظَرَ هَلْ يَصْلُحُ مَا قَدَّمَهُ أَنْ يَلْقَىٰ اللهَ بِهِ أَوْ لَا يَصْلُحُ ؟.

وَالمَقْصُودُ مِنْ هَذَا النَّظَرِ مَا يُوجِبُهُ وَيَقْتَضِيهِ، مِنْ كَمَالِ الاسْتِعْدَادِ لِيَوْمِ المَعَادِ، وَتَقْدِيمِ مَا يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَيُبَيِّضُ وَجْهَهُ عِنْدَ اللهِ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- : «**حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ** ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾[الحَاقَّة: ١٨] ، أَوْ قَالَ: **عَلَىٰ مَنْ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ أَعْمَالُكُمْ**»[1].

---

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي صِفَةِ القِيَامَة بَاب « **الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ...** » .

سُوءُ الظَّنِّ بالنَّفْس:

وَأَمَّا سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّفْس فَإِنَّمَا احْتَاجَ إِلَيْه؛ لأَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بالنَّفْس يَمْنَعُ مِنْ كَمَالِ التَّفْتِيش وَيُلَبِّسُ عَلَيْه، فَيَرَىٰ الْمَسَاوِئَ مَحَاسِنَ، وَالْعُيُوبَ كَمَالًا، فَإِنَّ الْمُحِبَّ يَرَىٰ مَسَاوِئَ مَحْبُوبِه وَعُيُوبَهُ كَذَلِكَ.

فَعَيْنُ الرِّضَىٰ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا

وَلَا يُسِيءُ الظَّنَّ بِنَفْسِهِ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا، وَمَنْ أَحْسَنَ ظَنَّهُ بِنَفْسِهِ فَهُوَ مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ بِنَفْسِهِ.

الرِّضَا بِالطَّاعَةِ:

رِضَاءُ الْعَبْدِ بِطَاعَتِه دَلِيلٌ عَلَىٰ حُسْنِ ظَنِّه بِنَفْسِه، وَجَهْلِه بِحُقُوقِ الْعُبُودِيَّةِ، وَعَدَمِ عَمَلِهِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ وَيَلِيقُ أَنْ يُعَامَلَ بِهِ.

وَحَاصِلُ ذَلِكَ أَنَّ جَهْلَهُ بِنَفْسِه وَصِفَاتِهَا وَآفَاتِهَا وَعُيُوبِ عَمَلِه، وَجَهْلَهُ بِرَبِّه وَحُقُوقِه وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَامَلَ بِه، يَتَوَلَّدُ مِنْهُمَا رِضَاهُ بِطَاعَتِه، وَإِحْسَانُ ظَنِّه بِهَا، وَيَتَوَلَّدُ مِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعُجْبِ وَالْكِبْرِ وَالآفَاتِ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْكَبَائِرِ الظَّاهِرَةِ مِنَ الزِّنَا، وَشُرْبِ الْخَمْرِ، وَالْفِرَارِ مِنَ الزَّحْفِ وَنَحْوِهَا.

فَالرِّضَا بِالطَّاعَةِ مِنْ رَعُونَاتِ النَّفْسِ وَحَمَاقَتِهَا.

وَأَرْبَابُ الْعَزَائِمِ وَالْبَصَائِرِ أَشَدُّ مَا يَكُونُونَ اسْتِغْفَارًا عُقَيْبَ الطَّاعَاتِ، لِشُهُودِهِمْ تَقْصِيرَهُمْ فِيهَا، وَتَرْكَ الْقِيَامِ لِلَّهِ بِهَا كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ، وَأَنَّهُ لَوْلَا الْأَمْرُ لَمَا أَقْدَمَ أَحَدُهُمْ عَلَىٰ مِثْلِ هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ، وَلَا رَضِيَهَا لِسَيِّدِهِ.

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَىٰ وَفْدَهُ وَحُجَّاجَ بَيْتِهِ بِأَنْ يَسْتَغْفِرُوهُ عُقَيْبَ إِفَاضَتِهِمْ مِنْ عَرَفَاتٍ، وَهُوَ أَجَلُّ الْمَوَاقِفِ وَأَفْضَلُهَا، فَقَالَ ﴿ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [البَقَرَة: ١٩٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ ﴿ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٧].

قَالَ الْحَسَنُ: مَدُّوا الصَّلَاةَ إِلَىٰ السَّحَرِ، ثُمَّ جَلَسُوا يَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ إِذَا سَلَّمَ مِنَ الصَّلَاةِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: « **اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ** »[1]، وَأَمَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالِاسْتِغْفَارِ بَعْدَ أَدَاءِ الرِّسَالَةِ، وَالْقِيَامِ بِمَا عَلَيْهِ مِنْ أَعْبَائِهَا، وَقَضَاءِ

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٥٩١)، وَأَبُو دَاوُد (١٥١٣).

فَرْض الْحَجِّ، وَاقْتِرَاب أَجَلِه، فَقَالَ فِي آخِر سُورَةٍ أُنْزِلَتْ عَلَيْه ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣ ﴾ [النَّصر].

وَمِنْ هَاهُنَا فَهِمَ عُمَرُ، وَابْنُ عَبَّاس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - أَنَّ هَذَا أَجَلُ رَسُولِ الله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- أَعْلَمَهُ بِه، فَأَمَرَهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَهُ عُقَيْبَ أَدَاءِ مَا كَانَ عَلَيْه، فَكَأَنَّهُ إِعْلَامٌ بِأَنَّكَ قَدْ أَدَّيْتَ مَا عَلَيْكَ، وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْكَ شَيْءٌ، فَاجْعَلْ خَاتِمَتَهُ الاسْتِغْفَارَ، كَمَا كَانَ خَاتِمَةَ الصَّلَاة وَالْحَجِّ وَقِيَام اللَّيْل، وَخَاتِمَةُ الْوُضُوءِ أَيْضًا أَنْ يَقُولَ بَعْدَ فَرَاغِه « **سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ** »[1].

« **اللهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ** »[2].

فَهَذَا شَأْنُ مَنْ عَرَفَ مَا يَنْبَغِي لِلَّهِ، وَيَلِيقُ بِجَلَالِهِ مِنْ حُقُوقِ الْعُبُودِيَّةِ وَشَرَائِطِهَا، لَا جَهْلَ أَصْحَابِ الدَّعَاوِي وَشَطَحَاتِهِمْ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِين: مَتَىٰ رَضِيتَ نَفْسَكَ وَعَمَلَكَ لِلَّهِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ غَيْرُ

---

(١) (صَحِيْحٌ): رَوَاهُ النِّسَائِي وصَحَّحَهُ العَلَّامَةُ الأَلْبَانِيُّ-رَحِمَهُ اللهُ- فِي«صَحِيْحِ الجَامع» (٢٠٥٩).

(٢) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وصَحَّحَهُ العَلَّامَةُ الأَلْبَانِيُّ-رَحِمَهُ اللهُ- فِي«صَحِيْحِ سُنَن التِّرْمِذِيّ » (٤٨).

رَاضٍ بِهِ، وَمَنْ عَرَفَ أَنَّ نَفْسَهُ مَأْوَىٰ كُلِّ عَيْبٍ وَشَرٍّ، وَعَمَلَهُ عُرْضَةٌ لِكُلِّ آفَةٍ وَنَقْصٍ، كَيْفَ يَرْضَىٰ لِلَّهِ نَفْسَهُ وَعَمَلَهُ؟.

وَلِلَّهِ دَرُّ الشَّيْخِ أَبِي مَدْيَنَ حَيْثُ يَقُولُ: مَنْ تَحَقَّقَ بِالْعُبُودِيَّةِ نَظَرَ أَفْعَالَهُ بِعَيْنِ الرِّيَاءِ، وَأَحْوَالَهُ بِعَيْنِ الدَّعْوَى، وَأَقْوَالَهُ بِعَيْنِ الافْتِرَاءِ، وَكُلَّمَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ فِي قَلْبِكَ، صَغُرَتْ نَفْسُكَ عِنْدَكَ، وَتَضَاءَلَتِ الْقِيمَةُ الَّتِي تَبْذُلُهَا فِي تَحْصِيلِهِ، وَكُلَّمَا شَهِدْتَ حَقِيقَةَ الرُّبُوبِيَّةِ وَحَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ، وَعَرَفْتَ اللَّهَ، وَعَرَفْتَ النَّفْسَ، وَتَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ مَا مَعَكَ مِنَ الْبِضَاعَةِ لَا يَصْلُحُ لِلْمَلِكِ الْحَقِّ، وَلَوْ جِئْتَ بِعَمَلِ الثَّقَلَيْنِ خَشِيتَ عَاقِبَتَهُ وَإِنَّمَا يَقْبَلُهُ بِكَرَمِهِ وَجُودِهِ وَتَفَضُّلِهِ، وَيُثِيبُكَ عَلَيْهِ أَيْضًا بِكَرَمِهِ وَجُودِهِ وَتَفَضُّلِهِ.

التَّعْيِيرُ بِالمَعْصِيَةِ:

أَنَّ تَعْيِيرَكَ لِأَخِيكَ بِذَنْبِهِ أَعْظَمُ إِثْمًا مِنْ ذَنْبِهِ وَأَشَدُّ مِنْ مَعْصِيَتِهِ، لِمَا فِيهِ مِنْ صَوْلَةِ الطَّاعَةِ، وَتَزْكِيَةِ النَّفْسِ، وَشُكْرِهَا، وَالْمُنَادَاةِ عَلَيْهَا بِالْبَرَاءَةِ مِنَ الذَّنْبِ، وَأَنَّ أَخَاكَ بَاءَ بِهِ، وَلَعَلَّ كَسْرَتَهُ بِذَنْبِهِ، وَمَا أَحْدَثَ لَهُ مِنَ الذِّلَّةِ وَالْخُضُوعِ، وَالْإِزْرَاءِ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَالتَّخَلُّصِ مِنْ مَرَضِ الدَّعْوَى، وَالْكِبْرِ وَالْعُجْبِ، وَوُقُوفَهُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ نَاكِسَ الرَّأْسِ، خَاشِعَ الطَّرْفِ، مُنْكَسِرَ الْقَلْبِ أَنْفَعُ لَهُ، وَخَيْرٌ مِنْ صَوْلَةِ طَاعَتِكَ، وَتَكَثُّرِكَ بِهَا وَالاعْتِدَادِ بِهَا، وَالْمِنَّةِ عَلَىٰ اللَّهِ وَخَلْقِهِ بِهَا، فَمَا أَقْرَبَ هَذَا الْعَاصِيَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ؟!.

وَمَا أَقْرَبَ هَذَا الْمُدِلَّ مِنْ مَقْتِ اللَّهِ، فَذَنْبٌ تَذِلُّ بِهِ لَدَيْهِ، أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ طَاعَةٍ تُدِلُّ بِهَا عَلَيْهِ، وَإِنَّكَ أَنْ تَبِيتَ نَائِمًا وَتُصْبِحَ نَادِمًا، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَبِيتَ قَائِمًا وَتُصْبِحَ مُعْجَبًا، فَإِنَّ الْمُعْجَبَ لَا يَصْعَدُ لَهُ عَمَلٌ، وَإِنَّكَ إِنْ تَضْحَكْ وَأَنْتَ مُعْتَرِفٌ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَبْكِيَ وَأَنْتَ مُدِلٌّ، وَأَنِينُ الْمُذْنِبِينَ أَحَبُّ إِلَىٰ اللَّهِ مِنْ زَجَلِ الْمُسَبِّحِينَ الْمُدِلِّينَ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَسْقَاهُ بِهَذَا الذَّنْبِ دَوَاءً اسْتَخْرَجَ بِهِ دَاءً قَاتِلًا هُوَ فِيكَ وَلَا تَشْعُرُ.

فَلِلَّهِ فِي أَهْلِ طَاعَتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ أَسْرَارٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَلَا يُطَالِعُهَا إِلَّا أَهْلُ الْبَصَائِرِ، فَيَعْرِفُونَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا تَنَالُهُ مَعَارِفُ الْبَشَرِ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ مَا لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ الْكِرَامُ الْكَاتِبُونَ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**إِذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ، فَلْيُقِمْ عَلَيْهَا الْحَدَّ وَلَا يُثَرِّبْ**»[1]، أَيْ: لَا يُعَيِّرْ، مِنْ قَوْلِ يُوسُفَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لِإِخْوَتِهِ: ﴿**قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ**﴾ [يوسف:٩٢]، فَإِنَّ الْمِيزَانَ بِيَدِ اللَّهِ، وَالْحُكْمَ لِلَّهِ، فَالسَّوْطُ الَّذِي ضُرِبَ بِهِ هَذَا الْعَاصِي بِيَدِ مُقَلِّبِ الْقُلُوبِ، وَالْقَصْدُ إِقَامَةُ الْحَدِّ لَا التَّعْيِيرُ وَالتَّثْرِيبُ، وَلَا يَأْمَنُ كَرَّاتِ الْقَدَرِ وَسَطْوَتَهُ إِلَّا أَهْلُ الْجَهْلِ بِاللَّهِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ لِأَعْلَمِ الْخَلْقِ بِهِ، وَأَقْرَبِهِمْ إِلَيْهِ وَسِيلَةً: ﴿**وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾**﴾ [الإسراء:٧٤].

وَقَالَ يُوسُفُ الصِّدِّيقُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿**وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ**

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢١٥٢)، وَمُسْلِمٌ (١٧٠٣).

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف: ٣٣].

وَكَانَتَ عامَّةُ يَمِينِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- :**" لا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ"** (١) .

وَقَالَ: **"مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ -عَزَّ وَجَلَّ-،إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ"** (٢) ، ثُمَّ قَالَ: **" اللَّهُمَّ مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ"** (٣) ، **"اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ"** (٤) .

حَاجَةُ النَّاسِ إِلَى التَّوْبَةِ :

وَمَنْزِلُ التَّوْبَةِ أَوَّلُ الْمَنَازِلِ، وَأَوْسَطُهَا، وَآخِرُهَا، فَلَا يُفَارِقُهُ الْعَبْدُ السَّالِكُ، وَلَا يَزَالُ فِيهِ إِلَى الْمَمَاتِ، وَإِنِ ارْتَحَلَ إِلَى مَنْزِلٍ آخَرَ ارْتَحَلَ بِهِ، وَاسْتَصْحَبَهُ مَعَهُ وَنَزَلَ بِهِ، فَالتَّوْبَةُ هِيَ بِدَايَةُ الْعَبْدِ وَنِهَايَتُهُ، وَحَاجَتُهُ إِلَيْهَا فِي النِّهَايَةِ ضَرُورِيَّةٌ، كَمَا أَنَّ حَاجَتَهُ إِلَيْهَا فِي الْبِدَايَةِ كَذَلِكَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٣١﴾ [النُّور:٣١] ، وَهَذِهِ الْآيَةُ فِي سُورَةٍ مَدَنِيَّةٍ، خَاطَبَ

---

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٦١٧-٦٦٢٨) .

(٢) (صَحِيْحٌ) صَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي«صَحِيح ابْنُ مَاجَهْ » (١٦٥) .

(٣) (صَحِيْحٌ) صَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي«صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيّ » (١٧٣٩) .

(٤) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٦٥٤) .

اللهُ بِهَا أَهْلَ الْإِيمَانِ وَخِيَارَ خَلْقِهِ أَنْ يَتُوبُوا إِلَيْهِ، بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَصَبْرِهِمْ، وَهِجْرَتِهِمْ وَجِهَادِهِمْ، ثُمَّ عَلَّقَ الْفَلَاحَ بِالتَّوْبَةِ تَعْلِيقَ الْمُسَبَّبِ بِسَبَبِهِ، وَأَتَىٰ بِأَدَاةِ لَعَلَّ الْمُشْعِرَةِ بِالتَّرَجِّي، إِيذَانًا بِأَنَّكُمْ إِذَا تُبْتُمْ كُنْتُمْ عَلَىٰ رَجَاءِ الْفَلَاحِ، فَلَا يَرْجُو الْفَلَاحَ إِلَّا التَّائِبُونَ، جَعَلَنَا اللهُ مِنْهُمْ.

وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ:

قَالَ تَعَالَىٰ ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحُجُرَات:١١]، قَسَّمَ الْعِبَادَ إِلَىٰ تَائِبٍ وَظَالِمٍ، وَمَا ثَمَّ قِسْمٌ ثَالِثٌ الْبَتَّةَ، وَأَوْقَعَ اسْمَ الظَّالِمِ عَلَىٰ مَنْ لَمْ يَتُبْ، وَلَا أَظْلَمَ مِنْهُ، لِجَهْلِهِ بِرَبِّهِ وَبِحَقِّهِ، وَبِعَيْبِ نَفْسِهِ وَآفَاتِ أَعْمَالِهِ، وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَىٰ اللهِ، فَوَاللهِ إِنِّي لَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**»(١)، وَكَانَ أَصْحَابُهُ يَعُدُّونَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ** -مِائَةَ مَرَّةٍ- »(٢)، وَمَا صَلَّىٰ صَلَاةً قَطُّ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ إِلَىٰ آخِرِهَا، إِلَّا قَالَ فِيهَا: «**سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي**»(٣).

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٧٠٢)، وَأَبُو دَاوُد (١٥١٥).
(٢) (صَحِيحٌ) صَحَّحَهُ العَلَّامَةُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (٢٧٣١).
(٣) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٤٩٦٩).

وَصَحَّ عَنْهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: « **لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ**، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ ، قَالَ: **وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ** »[1].

تَعْرِيفُ التَّوْفِيقِ وَالخُذْلَانِ:

أَجْمَعَ الْعَارِفُونَ بِاللهِ عَلَىٰ أَنَّ الخِذْلَانَ: أَنْ يَكِلَكَ اللهُ إِلَىٰ نَفْسِكَ، وَيُخَلِّيَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا، وَالتَّوْفِيقَ: أَنْ لَا يَكِلَكَ اللهُ إِلَىٰ نَفْسِكَ، وَلَهُ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ التَّخْلِيَةِ - بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذَّنْبِ وَخِذْلَانِكَ حَتَّىٰ وَاقَعْتَهُ - حِكَمٌ وَأَسْرَارٌ.

الْفَرَحُ بِالْمَعْصِيَةِ:

الْفَرَحُ بِالْمَعْصِيَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ شِدَّةِ الرَّغْبَةِ فِيهَا، وَالْجَهْلِ بِقَدْرِ مَنْ عَصَاهُ، وَالْجَهْلِ بِسُوءِ عَاقِبَتِهَا وَعِظَمِ خَطَرِهَا، فَفَرَحُهُ بِهَا غَطَّىٰ عَلَيْهِ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَفَرَحُهُ بِهَا أَشَدُّ ضَرَرًا عَلَيْهِ مِنْ مُوَاقَعَتِهَا، وَالْمُؤْمِنُ لَا تَتِمُّ لَهُ لَذَّةٌ بِمَعْصِيَةٍ أَبَدًا، وَلَا يَكْمُلُ بِهَا فَرَحُهُ، بَلْ لَا يُبَاشِرُهَا إِلَّا وَالْحُزْنُ مُخَالِطٌ لِقَلْبِهِ، وَلَكِنَّ سُكْرَ الشَّهْوَةِ يَحْجُبُهُ عَنِ الشُّعُورِ بِهِ، وَمَتَىٰ خَلَّىٰ قَلْبَهُ مِنْ هَذَا الْحُزْنِ، وَاشْتَدَّتْ غِبْطَتُهُ وَسُرُورُهُ فَلْيَتَّهِمْ إِيمَانَهُ، وَلْيَبْكِ عَلَىٰ مَوْتِ قَلْبِهِ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ حَيًّا لَأَحْزَنَهُ ارْتِكَابُهُ لِلذَّنْبِ، وَغَاظَهُ وَصَعُبَ عَلَيْهِ، وَلَا يُحِسُّ الْقَلْبُ بِذَلِكَ، فَحَيْثُ لَمْ يُحِسَّ بِهِ فَمَا لِجُرْحٍ

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٧٧٣)، وَمُسْلِمٌ (٢٨١٦) بِلَفْظٍ آخَرَ.

بِمَيِّتٍ إِيلَامٌ.

الْإِصْرَارُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ مَعْصِيَةٌ أُخْرَى:

الْإِصْرَارُ: هُوَ الاسْتِقْرَارُ عَلَى الْمُخَالَفَةِ، وَالْعَزْمُ عَلَى الْمُعَاوَدَةِ، وَذَلِكَ ذَنْبٌ آخَرُ، لَعَلَّهُ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الْأَوَّلِ بِكَثِيرٍ، وَهَذَا مِنْ عُقُوبَةِ الذَّنْبِ أَنَّهُ يُوجِبُ ذَنْبًا أَكْبَرَ مِنْهُ، ثُمَّ الثَّانِي كَذَلِكَ، ثُمَّ الثَّالِثُ كَذَلِكَ، حَتَّى يَسْتَحْكِمَ الْهَلَاكُ.

فَالْإِصْرَارُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ مَعْصِيَةٌ أُخْرَى، وَالْقُعُودُ عَنْ تَدَارُكِ الْفَارِطِ مِنَ الْمَعْصِيَةِ إِصْرَارٌ وَرِضًا بِهَا، وَطُمَأْنِينَةٌ إِلَيْهَا، وَذَلِكَ عَلَامَةُ الْهَلَاكِ، وَأَشَدُّ مِنْ هَذَا كُلِّهِ الْمُجَاهَرَةُ بِالذَّنْبِ مَعَ تَيَقُّنِ نَظَرِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ إِلَيْهِ، فَإِنْ آمَنَ بِنَظَرِهِ إِلَيْهِ وَأَقْدَمَ عَلَى الْمُجَاهَرَةِ فَعَظِيمٌ، وَإِنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِنَظَرِهِ إِلَيْهِ وَاطِّلَاعِهِ عَلَيْهِ فَكُفْرٌ، وَانْسِلَاخٌ مِنَ الْإِسْلَامِ بِالْكُلِّيَّةِ.

فَهُوَ دَائِرٌ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ: بَيْنَ قِلَّةِ الْحَيَاءِ وَمُجَاهَرَةِ نَظَرِ اللهِ إِلَيْهِ، وَبَيْنَ الْكُفْرِ وَالانْسِلَاخِ مِنَ الدِّينِ، فَلِذَلِكَ يُشْتَرَطُ فِي صِحَّةِ التَّوْبَةِ تَيَقُّنُهُ أَنَّ اللهَ كَانَ نَاظِرًا - وَلَا يَزَالُ - إِلَيْهِ مُطَّلِعًا عَلَيْهِ، يَرَاهُ جَهْرَةً عِنْدَ مُوَاقَعَةِ الذَّنْبِ، لِأَنَّ التَّوْبَةَ لَا تَصِحُّ إِلَّا مِنْ مُسْلِمٍ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَافِرًا بِنَظَرِ اللهِ إِلَيْهِ جَاحِدًا لَهُ، فَتَوْبَتُهُ دُخُولُهُ فِي الْإِسْلَامِ، وَإِقْرَارُهُ بِصِفَاتِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ.

حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ :

فَحَقِيقَةُ التَّوْبَةِ: هِيَ النَّدَمُ عَلَىٰ مَا سَلَفَ مِنْهُ فِي الْمَاضِي، وَالْإِقْلَاعُ عَنْهُ فِي الْحَالِ، وَالْعَزْمُ عَلَىٰ أَنْ لَا يُعَاوِدَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

وَالثَّلَاثَةُ تَجْتَمِعُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَقَعُ فِيهِ التَّوْبَةُ، فَإِنَّهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ يَنْدَمُ، وَيُقْلِعُ، وَيَعْزِمُ.

فَحِينَئِذٍ يَرْجِعُ إِلَىٰ الْعُبُودِيَّةِ الَّتِي خُلِقَ لَهَا، وَهَذَا الرُّجُوعُ هُوَ حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ.

عَلَامَاتُ قُبُولِ التَّوْبَةِ :

فَالتَّوْبَةُ الْمَقْبُولَةُ الصَّحِيحَةُ لَهَا عَلَامَاتٌ:

مِنْهَا: أَنْ يَكُونَ بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْرًا مِمَّا كَانَ قَبْلَهَا.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ لَا يَزَالُ الْخَوْفُ مُصَاحِبًا لَهُ لَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، فَخَوْفُهُ مُسْتَمِرٌّ إِلَىٰ أَنْ يَسْمَعَ قَوْلَ الرُّسُلِ لِقَبْضِ رُوحِهِ أَنْ ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٠]، فَهُنَاكَ يَزُولُ الْخَوْفُ.

وَمِنْهَا: انْخِلَاعُ قَلْبِهِ،وَتَقَطُّعُهُ نَدَمًا وَخَوْفًا ، وَهَذَا عَلَىٰ قَدْرِ عِظَمِ الْجِنَايَةِ وَصِغَرِهَا،وَهَذَا تَأْوِيلُ ابْنِ عُيَيْنَةَ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ لَا يَزَالُ

بُنْيَانُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾[التَّوْبَةُ: ١١٠] ، قَالَ: تَقَطُّعُهَا بِالتَّوْبَةِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْخَوْفَ الشَّدِيدَ مِنَ الْعُقُوبَةِ الْعَظِيمَةِ يُوجِبُ انْصِدَاعَ الْقَلْبِ وَانْخِلَاعَهُ، وَهَذَا هُوَ تَقَطُّعُهُ، وَهَذَا حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ، لِأَنَّهُ يَتَقَطَّعُ قَلْبُهُ حَسْرَةً عَلَىٰ مَا فَرَطَ مِنْهُ، وَخَوْفًا مِنْ سُوءِ عَاقِبَتِهِ، فَمَنْ لَمْ يَتَقَطَّعْ قَلْبُهُ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ مَا فَرَّطَ حَسْرَةً وَخَوْفًا، تَقَطَّعَ فِي الْآخِرَةِ إِذَا حَقَّتِ الْحَقَائِقُ، وَعَايَنَ ثَوَابَ الْمُطِيعِينَ، وَعِقَابَ الْعَاصِينَ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَقَطُّعِ الْقَلْبِ إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ.

وَمِنْ مُوجِبَاتِ التَّوْبَةِ الصَّحِيحَةِ أَيْضًا: كَسْرَةٌ خَاصَّةٌ تَحْصُلُ لِلْقَلْبِ لَا يُشْبِهُهَا شَيْءٌ، وَلَا تَكُونُ لِغَيْرِ الْمُذْنِبِ، لَا تَحْصُلُ بِجُوعٍ، وَلَا رِيَاضَةٍ، وَلَا حُبٍّ مُجَرَّدٍ، وَإِنَّمَا هِيَ أَمْرٌ وَرَاءَ هَذَا كُلِّهِ، تَكْسِرُ الْقَلْبَ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ كَسْرَةً تَامَّةً، قَدْ أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ، وَأَلْقَتْهُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ طَرِيحًا ذَلِيلًا خَاشِعًا، كَحَالِ عَبْدٍ جَانٍ آبِقٍ مِنْ سَيِّدِهِ، فَأُخِذَ فَأُحْضِرَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَمْ يَجِدْ مَنْ يُنْجِيهِ مِنْ سَطْوَتِهِ، وَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ بُدًّا وَلَا عَنْهُ غَنَاءً، وَلَا مِنْهُ مَهْرَبًا، وَعَلِمَ أَنَّ حَيَاتَهُ وَسَعَادَتَهُ وَفَلَاحَهُ وَنَجَاحَهُ فِي رِضَاهُ عَنْهُ، وَقَدْ عَلِمَ إِحَاطَةَ سَيِّدِهِ بِتَفَاصِيلِ جِنَايَاتِهِ، هَذَا مَعَ حُبِّهِ لِسَيِّدِهِ، وَشِدَّةِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ، وَعِلْمِهِ بِضَعْفِهِ وَعَجْزِهِ وَقُوَّةِ سَيِّدِهِ، وَذُلِّهِ وَعِزِّ سَيِّدِهِ.

الحَذَرُ مِنَ الاعْتِدادِ بِالطَّاعَةِ :

وَأَكْثَرُ النَّاسِ مِنَ الْمُتَنَزِّهِينَ عَنِ الْكَبَائِرِ الْحِسِّيَّةِ وَالْقَاذُورَاتِ فِي كَبَائِرَ مِثْلِهَا أَوْ أَعْظَمَ مِنْهَا أَوْ دُونَهَا، وَلَا يَخْطُرُ بِقُلُوبِهِمْ أَنَّهَا ذُنُوبٌ لِيَتُوبُوا مِنْهَا، فَعِنْدَهُمْ - مِنَ الْإِزْرَاءِ عَلَىٰ أَهْلِ الْكَبَائِرِ وَاحْتِقَارِهِمْ، وَصَوْلَةِ طَاعَاتِهِمْ، وَمِنَّتِهِمْ عَلَىٰ الْخَلْقِ بِلِسَانِ الْحَالِ، وَاقْتِضَاءِ بَوَاطِنِهِمْ لِتَعْظِيمِ الْخَلْقِ لَهُمْ عَلَىٰ طَاعَاتِهِمْ، اقْتِضَاءً لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ أَحَدٍ غَيْرِهِمْ، وَتَوَابِعِ ذَلِكَ - مَا هُوَ أَبْغَضُ إِلَىٰ اللهِ، وَأَبْعَدُ لَهُمْ عَنْ بَابِهِ مِنْ كَبَائِرِ أُولَئِكَ، فَإِنْ تَدَارَكَ اللهُ أَحَدَهُمْ بِقَاذُورَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ يُوقِعُهُ فِيهَا لِيَكْسِرَ بِهَا نَفْسَهُ، وَيُعَرِّفَهُ قَدْرَهُ، وَيُذِلَّهُ بِهَا، وَيُخْرِجَ بِهَا صَوْلَةَ الطَّاعَةِ مِنْ قَلْبِهِ، فَهِيَ رَحْمَةٌ فِي حَقِّهِ، كَمَا أَنَّهُ إِذَا تَدَارَكَ أَصْحَابَ الْكَبَائِرِ بِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ، وَإِقْبَالٍ بِقُلُوبِهِمْ إِلَيْهِ، فَهُوَ رَحْمَةٌ فِي حَقِّهِمْ، وَإِلَّا فَكِلَاهُمَا عَلَىٰ خَطَرٍ.

مِنْ لَطَائِفِ التَّوْبَةِ :

اعْلَمْ أَنَّ صَاحِبَ الْبَصِيرَةِ إِذَا صَدَرَتْ مِنْهُ الْخَطِيئَةُ فَلَهُ نَظَرٌ إِلَى خَمْسَةِ أُمُورٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ، فَيُحْدِثَ لَهُ ذَلِكَ الِاعْتِرَافَ بِكَوْنِهَا خَطِيئَةً، وَالْإِقْرَارَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِالذَّنْبِ.

الثَّانِي: أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، فَيُحْدِثَ لَهُ ذَلِكَ خَوْفًا وَخَشْيَةً، تَحْمِلُهُ عَلَىٰ التَّوْبَةِ.

الثَّالِثُ: أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ تَمْكِينِ الله لَهُ مِنْهَا، وَتَخْلِيَتِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا، وَتَقْدِيرِهَا عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَعَصَمَهُ مِنْهَا، فَيُحدِثُ لَهُ ذَلِكَ أَنْوَاعًا مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِالله وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَحِكْمَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَمَغْفِرَتِهِ وَعَفْوِهِ، وَحِلْمِهِ وَكَرَمِهِ، وَتُوجِبُ لَهُ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ عُبُودِيَّةً بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ، لَا تَحْصُلُ بِدُونِ لَوَازِمِهَا الْبَتَّةَ .

الرَّابِعُ: النَّظَرُ إِلَىٰ مَحَلِّ الْجِنَايَةِ وَمَصْدَرِهَا، وَهُوَ النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، وَيُفِيدُهُ نَظَرُهُ إِلَيْهَا أُمُورًا.

مِنْهَا: أَنْ يَعْرِفَ أَنَّهَا جَاهِلَةٌ ظَالِمَةٌ،وَأَنَّ الْجَهْلَ وَالظُّلْمَ يَصْدُرُ عَنْهُمَا كُلُّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ قَبِيحٍ،وَمَنْ وَصْفِهِ الْجَهْلَ وَالظُّلْمَ لا مَطْمَعَ فِي اسْتِقَامَتِهِ وَاعْتِدَالِهِ الْبَتَّةَ، فَيُوجِبُ لَهُ ذَلِكَ بَذْلَ الْجُهْدِ فِي الْعِلْمِ النَّافِعِ الَّذِي يُخْرِجُهَا بِهِ عَنْ وَصْفِ الْجَهْلِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يُخْرِجُهَا بِهِ عَنْ وَصْفِ الظُّلْمِ، وَمَعَ هَذَا فَجَهْلُهَا أَكْثَرُ مِنْ عِلْمِهَا، وَظُلْمُهَا أَعْظَمُ مِنْ عَدْلِهَا.

فَحَقِيقٌ بِمَنْ هَذَا شَأْنُهُ أَنْ يَرْغَبَ إِلَىٰ خَالِقِهَا وَفَاطِرِهَا أَنْ يَقِيَهَا شَرَّهَا، وَأَنْ يُؤْتِيَهَا تَقْوَاهَا وَيُزَكِّيَهَا، فَهُوَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، فَإِنَّهُ رَبُّهَا وَمَوْلَاهَا، وَأَنْ لَا يَكِلَهُ إِلَيْهَا طَرْفَةَ عَيْنٍ، فَإِنَّهُ إِنْ وَكَلَهُ إِلَيْهَا هَلَكَ، فَمَا هَلَكَ مَنْ هَلَكَ إِلَّا حَيْثُ وُكِلَ إِلَىٰ نَفْسِهِ.

الخَامِسُ : نَظَرُهُ إِلَىٰ الآمر لَهُ بِالْمَعْصِيَةِ ، الْمُزَيِّنِ لَهُ فِعْلَهَا ، الْحَاضِّ لَهُ عَلَيْهَا ، وَهُوَ شَيْطَانُهُ الْمُوَكَّلُ بِهِ .

فَيُفِيدُهُ النَّظَرُ إِلَيْهِ وَمُلَاحَظَتُهُ ، اتِّخَاذَهُ عَدُوًّا ، وَكَمَالَ الاحْتِرَازِ مِنْهُ، وَالتَّحَفُّظِ وَالْيَقَظَةِ ، وَالانْتِبَاهِ لِمَا يُرِيدُ مِنْهُ عَدُوُّهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَظْفَرَ بِهِ فِي عُقْبَةٍ مِنْ سَبْعِ عُقْبَاتٍ ، بَعْضُهَا أَصْعَبُ مِنْ بَعْضٍ، لَا يَنْزِلُ مِنْهُ مِنَ الْعَقْبَةِ الشَّاقَّةِ إِلَىٰ مَا دُونَهَا إِلَّا إِذَا عَجَزَ عَنِ الظَّفَرِ بِهِ فِيهَا .

الإِشْتِغَالُ بِاللهِ :

الاشْتِغَالَ بِاللهِ وَالْغَفْلَةَ عَمَّا سِوَاهُ؛هُوَ الْمَطْلَبُ الأَعْلَىٰ،وَالْمَقْصِدُ الأَسْنَى.

فَرَحُ اللهِ بِتَوْبَةِ التَّائِبِ :

وَمِنْهَا: السِّرُّ الأَعْظَمُ، الَّذِي لَا تَقْتَحِمُهُ الْعِبَارَةُ، وَلَا تَجْسُرُ عَلَيْهِ الإِشَارَةُ، وَلَا يُنَادِي عَلَيْهِ مُنَادِي الإِيمَانِ عَلَىٰ رُءُوسِ الأَشْهَادِ، بَلْ شَهِدَتْهُ قُلُوبُ خَوَاصِّ الْعِبَادِ، فَازْدَادَتْ بِهِ مَعْرِفَةً لِرَبِّهَا وَمَحَبَّةً لَهُ، وَطُمَأْنِينَةً بِهِ وَشَوْقًا إِلَيْهِ، وَلَهَجًا بِذِكْرِهِ، وَشُهُودًا لِبِرِّهِ، وَلُطْفِهِ وَكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَمُطَالَعَةً لِسِرِّ الْعُبُودِيَّةِ، وَإِشْرَافًا عَلَىٰ حَقِيقَةِ الإِلَهِيَّةِ، وَهُوَ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– : « **لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ – حِينَ**

يَتُوبُ إِلَيْهِ - مِنْ أَحَدِكُمْ، كَانَ عَلَىٰ رَاحِلَةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَىٰ شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ - مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ - اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ» (١) ، هَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ.

وَفِي الْحَدِيثِ مِنْ قَوَاعِدِ الْعِلْمِ: أَنَّ اللَّفْظَ الَّذِي يَجْرِي عَلَىٰ لِسَانِ الْعَبْدِ خَطَأً مِنْ فَرَحٍ شَدِيدٍ، أَوْ غَيْظٍ شَدِيدٍ، وَنَحْوِهِ، لَا يُؤَاخَذُ بِهِ، وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ هَذَا كَافِرًا بِقَوْلِهِ: «**أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ**» .

وَمَعْلُومٌ أَنَّ تَأْثِيرَ الْغَضَبِ فِي عَدَمِ الْقَصْدِ يَصِلُ إِلَىٰ هَذِهِ الْحَالِ، أَوْ أَعْظَمَ مِنْهَا، فَلَا يَنْبَغِي مُؤَاخَذَةُ الْغَضْبَانِ بِمَا صَدَرَ مِنْهُ فِي حَالِ شِدَّةِ غَضَبِهِ مِنْ نَحْوِ هَذَا الْكَلَامِ، وَلَا يَقَعُ طَلَاقُهُ بِذَلِكَ، وَلَا رِدَّتُهُ، وَقَدْ نَصَّ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَلَىٰ تَفْسِيرِ الإِغْلَاقِ فِي قَوْلِهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **لَا طَلَاقَ فِي إِغْلَاقٍ**» (٢)، بِأَنَّهُ الْغَضَبُ، وَفَسَّرَهُ بِهِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ، وَفَسَّرُوهُ بِالْإِكْرَاهِ وَالْجُنُونِ.

قَالَ شَيْخُنَا: وَهُوَ يَعُمُّ هَذَا كُلَّهُ، وَهُوَ مِنَ الْغَلَقِ، لِانْغِلَاقِ قَصْدِ الْمُتَكَلِّمِ عَلَيْهِ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يَنْفَتِحْ قَلْبُهُ لِمَعْنَىٰ مَا قَالَهُ.

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٣٠٩) ، وَمُسْلِمٌ (٢٧٤٧) .

(٢) (حَسَنٌ) حَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُد» (١٩١٩).

وَالْقَصْدُ: أَنَّ هَذَا الْفَرَحَ لَهُ شَأْنٌ لَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ إِهْمَالُهُ وَالْإِعْرَاضُ عَنْهُ وَلَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ لَهُ مَعْرِفَةٌ خَاصَّةٌ بِاللهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَمَا يَلِيقُ بِعِزِّ جَلَالِهِ.

عِنَايَةُ اللهِ بِالنَّوْعِ الإِنْسَانِي :

فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– اخْتَصَّ نَوْعَ الْإِنْسَانِ مِنْ بَيْنِ خَلْقِهِ بِأَنْ كَرَّمَهُ وَفَضَّلَهُ، وَشَرَّفَهُ، وَخَلَقَهُ لِنَفْسِهِ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَهُ، وَخَصَّهُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَقُرْبِهِ وَإِكْرَامِهِ بِمَا لَمْ يُعْطِهِ غَيْرَهُ، وَسَخَّرَ لَهُ مَا فِي سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ وَمَا بَيْنَهُمَا، حَتَّىٰ مَلَائِكَتَهُ - الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ قُرْبِهِ - اسْتَخْدَمَهُمْ لَهُ، وَجَعَلَهُمْ حَفَظَةً لَهُ فِي مَنَامِهِ وَيَقَظَتِهِ، وَظَعْنِهِ وَإِقَامَتِهِ، وَأَنْزَلَ إِلَيْهِ وَعَلَيْهِ كُتُبَهُ، وَأَرْسَلَهُ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، وَخَاطَبَهُ وَكَلَّمَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ، وَاتَّخَذَ مِنْهُمُ الْخَلِيلَ وَالْكَلِيمَ، وَالْأَوْلِيَاءَ وَالْخَوَاصَّ وَالْأَحْبَارَ، وَجَعَلَهُمْ مَعْدِنَ أَسْرَارِهِ، وَمَحَلَّ حِكْمَتِهِ، وَمَوْضِعَ حُبِّهِ، وَخَلَقَ لَهُمُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَخَلَقَ الْأَمْرَ، وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ مَدَارُهُ عَلَىٰ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ، فَإِنَّهُ خُلَاصَةُ الْخَلْقِ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَعَلَيْهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ.

فَلِلْإِنْسَانِ شَأْنٌ لَيْسَ لِسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَقَدْ خَلَقَ أَبَاهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَظْهَرَ فَضْلَهُ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ فَمَنْ دُونَهُمْ مِنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَطَرَدَ إِبْلِيسَ عَنْ

قُرْبِهِ، وَأَبْعَدَهُ عَنْ بَابِهِ، إِذْ لَمْ يَسْجُدْ لَهُ مَعَ السَّاجِدِينَ، وَاتَّخَذَهُ عَدُوًّا لَهُ.

فَالْمُؤْمِنُ مِنْ نَوْعِ الْإِنْسَانِ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ، وَخِيرَةُ اللهِ مِنَ الْعَالَمِينَ، فَإِنَّهُ خَلَقَهُ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ، وَلِيَتَوَاتَرَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، وَلِيَخُصَّهُ مِنْ كَرَامَتِهِ وَفَضْلِهِ بِمَا لَمْ تَنَلْهُ أُمْنِيَّتُهُ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَىٰ بَالِهِ وَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ، لِيَسْأَلَهُ مِنَ الْمَوَاهِبِ وَالْعَطَايَا الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، الَّتِي لَا تُنَالُ إِلَّا بِمَحَبَّتِهِ، وَلَا تُنَالُ مَحَبَّتُهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، وَإِيثَارِهِ عَلَىٰ مَا سِوَاهُ.

جُودُ اللهِ وَكَرَمُهُ :

فَهُوَ الْجَوَادُ لِذَاتِهِ، وَجُودُ كُلِّ جَوَادٍ خَلَقَهُ اللهُ، وَيَخْلُقُهُ أَبَدًا أَقَلُّ مِنْ ذَرَّةٍ بِالْقِيَاسِ إِلَىٰ جُودِهِ، فَلَيْسَ الْجَوَادُ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ إِلَّا هُوَ، وَجُودُ كُلِّ جَوَادٍ فَمِنْ جُودِهِ، وَمَحَبَّتُهُ لِلْجُودِ وَالْإِعْطَاءِ وَالْإِحْسَانِ، وَالْبِرِّ وَالْإِنْعَامِ وَالْإِفْضَالِ فَوْقَ مَا يَخْطُرُ بِبَالِ الْخَلْقِ، أَوْ يَدُورُ فِي أَوْهَامِهِمْ، وَفَرَحُهُ بِعَطَائِهِ وَجُودِهِ وَإِفْضَالِهِ أَشَدُّ مِنْ فَرَحِ الْآخِذِ بِمَا يُعْطَاهُ وَيَأْخُذُهُ، أَحْوَجَ مَا هُوَ إِلَيْهِ أَعْظَمَ مَا كَانَ قَدْرًا .

رَحْمَةُ اللهِ بِعِبَادِهِ :

وَهَذَا مَوْضِعُ الْحِكَايَةِ الْمَشْهُورَةِ عَنْ بَعْضِ الْعَارِفِينَ أَنَّهُ حَصَلَ لَهُ شُرُودٌ وَإِبَاقٌ مِنْ سَيِّدِهِ، فَرَأَىٰ فِي بَعْضِ السِّكَكِ بَابًا قَدْ فُتِحَ، وَخَرَجَ مِنْهُ صَبِيٌّ يَسْتَغِيثُ وَيَبْكِي، وَأُمُّهُ خَلْفَهُ تَطْرُدُهُ، حَتَّىٰ خَرَجَ، فَأَغْلَقَتِ

الْبَابَ فِي وَجْهِهِ وَدَخَلَتْ، فَذَهَبَ الصَّبِيُّ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ وَقَفَ مُفَكِّرًا، فَلَمْ يَجِدْ لَهُ مَأْوَىٰ غَيْرَ الْبَيْتِ الَّذِي أُخْرِجَ مِنْهُ، وَلَا مَنْ يُئْوِيهِ غَيْرَ وَالِدَتِهِ، فَرَجَعَ مَكْسُورَ الْقَلْبِ حَزِينًا، فَوَجَدَ الْبَابَ مُرْتَجًا، فَتَوَسَّدَهُ وَوَضَعَ خَدَّهُ عَلَىٰ عَتَبَةِ الْبَابِ وَنَامَ، فَخَرَجَتْ أُمُّهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ عَلَىٰ تِلْكَ الْحَالِ لَمْ تَمْلِكْ أَنْ رَمَتْ نَفْسَهَا عَلَيْهِ، وَالْتَزَمَتْهُ تُقَبِّلُهُ وَتَبْكِي، وَتَقُولُ: يَا وَلَدِي، أَيْنَ تَذْهَبُ عَنِّي ؟ ، وَمَنْ يُئْوِيكَ سِوَايَ ؟ ، أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: لَا تُخَالِفْنِي، وَلَا تَحْمِلْنِي بِمَعْصِيَتِكَ لِي عَلَىٰ خِلَافِ مَا جُبِلْتُ عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَةِ بِكَ، وَالشَّفَقَةِ عَلَيْكَ، وَإِرَادَتِي الْخَيْرَ لَكَ ؟، ثُمَّ أَخَذَتْهُ وَدَخَلَتْ.

فَتَأَمَّلْ قَوْلَ الْأُمِّ: لَا تَحْمِلْنِي بِمَعْصِيَتِكَ لِي عَلَىٰ خِلَافِ مَا جُبِلْتُ عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ.

وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «**للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا**» [١] ، وَأَيْنَ تَقَعُ رَحْمَةُ الْوَالِدَةِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ؟.

فَإِذَا أَغْضَبَهُ الْعَبْدُ بِمَعْصِيَتِهِ فَقَدِ اسْتَدْعَىٰ مِنْهُ صَرْفَ تِلْكَ الرَّحْمَةِ عَنْهُ، فَإِذَا تَابَ إِلَيْهِ فَقَدِ اسْتَدْعَىٰ مِنْهُ مَا هُوَ أَهْلُهُ وَأَوْلَىٰ بِهِ .

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٩٩٩) ، وَمُسْلِمٌ (٢٧٥٤) .

العُقُوبَةُ بَعْدَ إقَامَةُ الحُجَّةِ :

اعْتِرَافُ الْعَبْدِ بِقِيَامِ حُجَّةِ اللهِ عَلَيْهِ مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ ، أَطَاعَ أَمْ عَصَى، فَإِنَّ حُجَّةَ اللهِ قَامَتْ عَلَىٰ الْعَبْدِ بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ ، وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ ، وَبُلُوغِ ذَلِكَ إِلَيْهِ ، وَتَمَكُّنِهِ مِنَ الْعِلْمِ بِهِ ، سَوَاءً عَلِمَ أَمْ جَهِلَ ، فَكُلُّ مَنْ تَمَكَّنَ مِنْ مَعْرِفَةِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَنَهَىٰ عَنْهُ ، فَقَصَّرَ عَنْهُ وَلَمْ يَعْرِفْهُ ، فَقَدْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ ، فَإِذَا عَاقَبَهُ عَلَىٰ ذَنْبِهِ عَاقَبَهُ بِحُجَّتِهِ عَلَىٰ ظُلْمِهِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإِسْرَاءُ:١٥] ، وَقَالَ: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [المُلْك:٨-٩] ، وَقَالَ : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هُود:١١٧] .

تَدَرُّجُ الشَّيْطَانِ فِي الإِغْوَاءِ
وَلَهُ سَبْعُ عَقَبَاتٍ

عَقَبَةُ الْكُفْرِ :

الْعَقَبَةُ الأُولَى : عَقَبَةُ الْكُفْرِ بِاللهِ وَبِدِينِهِ وَلِقَائِهِ ، وَبِصِفَاتِ كَمَالِهِ ، وَبِمَا أَخْبَرَتْ بِهِ رُسُلُهُ عَنْهُ ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَفِرَ بِهِ فِي هَذِهِ الْعَقَبَةِ بَرُدَتْ نَارُ عَدَاوَتِهِ وَاسْتَرَاحَ ، فَإِنِ اقْتَحَمَ هَذِهِ الْعَقَبَةَ وَنَجَا مِنْهَا بِبَصِيرَةِ الْهِدَايَةِ ، وَسَلِمَ مَعَهُ نُورُ الإِيمَانِ طَلَبَهُ عَلَىٰ .

عَقَبَةُ الْبِدْعَةِ :

الْعَقَبَةُ الثَّانِيَةُ : وَهِيَ عَقَبَةُ الْبِدْعَةِ ، إِمَّا بِاعْتِقَادِ خِلَافِ الْحَقِّ الَّذِي أَرْسَلَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ ، وَأَنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ ، وَإِمَّا بِالتَّعَبُّدِ بِمَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ مِنَ الأَوْضَاعِ وَالرُّسُومِ الْمُحْدَثَةِ فِي الدِّينِ، الَّتِي لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهَا شَيْئًا، وَالْبِدْعَتَانِ فِي الْغَالِبِ مُتَلَازِمَتَانِ ، قَلَّ أَنْ تَنْفَكَّ إِحْدَاهُمَا عَنِ الأُخْرَى، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ : تَزَوَّجَتْ بِدْعَةُ الأَقْوَالِ بِبِدْعَةِ الأَعْمَالِ ، فَاشْتَغَلَ الزَّوْجَانِ بِالْعُرْسِ، فَلَمْ يَفْجَأْهُمْ إِلَّا وَأَوْلَادُ الزِّنَا يَعِيشُونَ فِي بِلَادِ الإِسْلَامِ ، تَضِجُّ مِنْهُمُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ .

وَقَالَ شَيْخُنَا : تَزَوَّجَتِ الْحَقِيقَةُ الْكَافِرَةُ بِالْبِدْعَةِ الْفَاجِرَةِ ، فَتَوَلَّدَ بَيْنَهُمَا خُسْرَانُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَإِنْ قَطَعَ هَذِهِ الْعُقْبَةَ ، وَخَلَصَ مِنْهَا بِنُورِ السُّنَّةِ ، وَاعْتَصَمَ مِنْهَا بِحَقِيقَةِ الْمُتَابَعَةِ ، وَمَا مَضَىٰ عَلَيْهِ السَّلَفُ الْأَخْيَارُ ، مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، وَهَيْهَاتَ أَنْ تَسْمَحَ الْأَعْصَارُ الْمُتَأَخِّرَةُ بِوَاحِدٍ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ ! فَإِنْ سَمَحَتْ بِهِ نَصَبَ لَهُ أَهْلُ الْبِدَعِ الْحَبَائِلَ ، وَبَغَوْهُ الْغَوَائِلَ ، وَقَالُوا : مُبْتَدِعٌ مُحْدِثٌ ، فَإِذَا وَفَّقَهُ اللهُ لِقَطْعِ هَذِهِ الْعَقَبَةِ طَلَبَهُ عَلَىٰ :

عَقَبَةُ الْكَبَائِرِ :

الْعَقَبَةُ الثَّالِثَةُ : وَهِيَ عَقَبَةُ الْكَبَائِرِ ، فَإِنْ ظَفِرَ بِهِ فِيهَا زَيَّنَهَا لَهُ ، وَحَسَّنَهَا فِي عَيْنِهِ ، وَسَوَّفَ بِهِ ، وَفَتَحَ لَهُ بَابَ الْإِرْجَاءِ ، وَقَالَ لَهُ : الْإِيمَانُ هُوَ نَفْسُ التَّصْدِيقِ ، فَلَا تَقْدَحُ فِيهِ الْأَعْمَالُ ، وَرُبَّمَا أَجْرَىٰ عَلَىٰ لِسَانِهِ وَأُذُنِهِ كَلِمَةً طَالَمَا أَهْلَكَ بِهَا الْخَلْقَ ، وَهِيَ قَوْلُهُ : لَا يَضُرُّ مَعَ التَّوْحِيدِ ذَنْبٌ ، كَمَا لَا يَنْفَعُ مَعَ الشِّرْكِ حَسَنَةٌ ، وَالظُّفْرُ بِهِ فِي عُقْبَةِ الْبِدْعَةِ أَحَبُّ إِلَيْهِ ، لِمُنَاقَضَتِهَا الدِّينَ ، وَدَفْعِهَا لِمَا بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ ، وَصَاحِبُهَا لَا يَتُوبُ مِنْهَا ، وَلَا يَرْجِعُ عَنْهَا ، بَلْ يَدْعُو الْخَلْقَ إِلَيْهَا ، وَلِتَضَمُّنِهَا الْقَوْلَ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ ، وَمُعَادَاةَ صَرِيحِ السُّنَّةِ ، وَمُعَادَاةَ أَهْلِهَا ، وَالِاجْتِهَادَ عَلَىٰ

إِطْفَاءِ نُورِ السُّنَّةِ ، وَتَوْلِيَةِ مَنْ عَزَلَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَعَزْلِ مَنْ وَلَّاهُ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَاعْتِبَارَ مَا رَدَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَرَدَّ مَا اعْتَبَرَهُ ، وَمُوالاةَ مَنْ عَادَاهُ ، وَمُعَادَاةَ مَنْ وَالاهُ ، وَإِثْبَاتَ مَا نَفَاهُ ، وَنَفْيَ مَا أَثْبَتَهُ ، وَتَكْذِيبَ الصَّادِقِ ، وَتَصْدِيقَ الْكَاذِبِ ، وَمُعَارَضَةَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ ، وَقَلْبَ الْحَقَائِقِ بِجَعْلِ الْحَقِّ بَاطِلًا ، وَالْبَاطِلِ حَقًّا ، وَالإِلْحَادَ فِي دِينِ اللهِ ، وَتَعْمِيَةَ الْحَقِّ عَلَىٰ الْقُلُوبِ ، وَطَلَبَ الْعِوَجِ لِصِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَفَتْحَ بَابِ تَبْدِيلِ الدِّينِ جُمْلَةً .

فَإِنَّ الْبِدَعَ تَسْتَدْرِجُ بِصَغِيرِهَا إِلَىٰ كَبِيرِهَا ، حَتَّىٰ يَنْسَلِخَ صَاحِبُهَا مِنَ الدِّينِ ، كَمَا تَنْسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ الْعَجِينِ ، فَمَفَاسِدُ الْبِدَعِ لَا يَقِفُ عَلَيْهَا إِلَّا أَرْبَابُ الْبَصَائِرِ ، وَالْعِمْيَانُ ضَالُّونَ فِي ظُلْمَةِ الْعَمَىٰ ﴿ **وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ** ﴾ [النُّور: ٤٠] .

فَإِنْ قَطَعَ هَذِهِ الْعُقْبَةَ بِعِصْمَةٍ مِنَ اللهِ ، أَوْ بِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ تُنْجِيهِ مِنْهَا ، طَلَبَهُ عَلَىٰ :

عقبة الصغائر :

الْعَقَبَةِ الرَّابِعَةِ : وَهِيَ عَقَبَةُ الصَّغَائِرِ ، فَكَالَ لَهُ مِنْهَا بِالْقُفْزَانِ ، وَقَالَ: مَا عَلَيْكَ إِذَا اجْتَنَبْتَ الْكَبَائِرَ مَا غَشِيتَ مِنَ اللَّمَمِ ، أَوَ مَا عَلِمْتَ بِأَنَّهَا تُكَفَّرُ بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ وَبِالْحَسَنَاتِ ، وَلَا يَزَالُ يُهَوِّنُ عَلَيْهِ أَمْرَهَا حَتَّىٰ

يُصرَّ عَلَيْهَا ، فَيَكُونُ مُرْتَكِبُ الْكَبِيرَةِ الْخَائِفُ الْوَجِلُ النَّادِمُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُ ، فَالْإِصْرَارُ عَلَىٰ الذَّنْبِ أَقْبَحُ مِنْهُ ، وَلَا كَبِيرَةَ مَعَ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَلَا صَغِيرَةَ مَعَ الْإِصْرَارِ ، وَقَدْ قَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ ، ثُمَّ ضَرَبَ لِذَلِكَ مَثَلًا بِقَوْمٍ نَزَلُوا بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ ، فَأَعْوَزَهُمُ الْحَطَبُ ، فَجَعَلَ هَذَا يَجِيءُ بِعُودٍ، وَهَذَا بِعُودٍ، حَتَّىٰ جَمَعُوا حَطَبًا كَثِيرًا ، فَأَوْقَدُوا نَارًا ، وَأَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ ، فَكَذَلِكَ فَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ تَجْتَمِعُ عَلَىٰ الْعَبْدِ وَهُوَ يَسْتَهِينُ بِشَأْنِهَا حَتَّىٰ تُهْلِكَهُ** »[1] .

عَقَبَةُ الْمُبَاحَاتِ :

الْعَقَبَةُ الْخَامِسَةُ : وَهِيَ عَقَبَةُ الْمُبَاحَاتِ الَّتِي لَا حَرَجَ عَلَىٰ فَاعِلِهَا ، فَشَغَلَهُ بِهَا عَنْ الِاسْتِكْثَارِ مِنَ الطَّاعَاتِ ، وَعَنْ الِاجْتِهَادِ فِي التَّزَوُّدِ لِمَعَادِهِ، ثُمَّ طَمَّعَ فِيهِ أَنْ يَسْتَدْرِجَهُ مِنْهَا إِلَىٰ تَرْكِ السُّنَنِ ، ثُمَّ مِنْ تَرْكِ السُّنَنِ إِلَىٰ تَرْكِ الْوَاجِبَاتِ ، وَأَقَلُّ مَا يُنَالُ مِنْهُ تَفْوِيتُهُ الْأَرْبَاحَ ، وَالْمَكَاسِبَ الْعَظِيمَةَ ، وَالْمَنَازِلَ الْعَالِيَةَ ، وَلَوْ عَرَفَ السِّعْرَ لَمَا فَوَّتَ عَلَىٰ نَفْسِهِ شَيْئًا مِنَ الْقُرُبَاتِ ، وَلَكِنَّهُ جَاهِلٌ بِالسِّعْرِ .

فَإِنْ نَجَا مِنْ هَذِهِ الْعَقَبَةِ بِبَصِيرَةٍ تَامَّةٍ وَنُورٍ هَادٍ ، وَمَعْرِفَةٍ بِقَدْرِ الطَّاعَاتِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهَا ، وَقِلَّةِ الْمُقَامِ عَلَىٰ الْمِينَاءِ ، وَخَطَرِ التِّجَارَةِ،

---

(١)(صَحِيحٌ) صَحَّحَهُ العَلَّامَةُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «السِّلْسِلَةِ الصَحِيِّحَة »(٣٨٩).

وَكَرَم الْمُشْتَرِي ، وَقَدْر مَا يُعَوِّضُ بِهِ التُّجَّارَ ، فَبَخِلَ بِأَوْقَاتِهِ ، وَضَنَّ بِأَنْفَاسِهِ أَنْ تَذْهَبَ فِي غَيْرِ رِبْحٍ ، طَلَبَهُ الْعَدُوُّ عَلَىٰ :

عَقْبَةُ الْأَعْمَالِ الْمَرْجُوحَةِ الْمَفْضُولَةِ:

الْعَقَبَةُ السَّادِسَةُ : وَهِيَ عَقَبَةُ الْأَعْمَالِ الْمَرْجُوحَةِ الْمَفْضُولَةِ مِنَ الطَّاعَاتِ ، فَأَمَرَهُ بِهَا ، وَحَسَّنَهَا فِي عَيْنِهِ ، وَزَيَّنَهَا لَهُ ، وَأَرَاهُ مَا فِيهَا مِنَ الْفَضْلِ وَالرِّبْحِ ، لِيَشْغَلَهُ بِهَا عَمَّا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا ، وَأَعْظَمُ كَسْبًا وَرِبْحًا، لِأَنَّهُ لَمَّا عَجَزَ عَنْ تَخْسِيرِهِ أَصْلَ الثَّوَابِ ، طَمِعَ فِي تَخْسِيرِهِ كَمَالَهُ وَفَضْلَهُ، وَدَرَجَاتِهِ الْعَالِيَةَ ، فَشَغَلَهُ بِالْمَفْضُولِ عَنِ الْفَاضِلِ ، وَبِالْمَرْجُوحِ عَنِ الرَّاجِحِ ، وَبِالْمَحْبُوبِ لِلَّهِ عَنِ الْأَحَبِّ إِلَيْهِ ، وَبِالْمَرْضِيِّ عَنِ الْأَرْضَىٰ لَهُ .

وَلَكِنْ أَيْنَ أَصْحَابُ هَذِهِ الْعَقَبَةِ ؟ ، فَهُمُ الْأَفْرَادُ فِي الْعَالَمِ ، وَالْأَكْثَرُونَ قَدْ ظَفِرَ بِهِمْ فِي الْعُقْبَاتِ الْأُوَلِ .

فَإِنْ نَجَا مِنْهَا بِفِقْهٍ فِي الْأَعْمَالِ وَمَرَاتِبِهَا عِنْدَ اللهِ ، وَمَنَازِلِهَا فِي الْفَضْلِ، وَمَعْرِفَةِ مَقَادِيرِهَا ، وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ عَالِيهَا وَسَافِلِهَا ، وَمَفْضُولِهَا وَفَاضِلِهَا، وَرَئِيسِهَا وَمَرْءُوسِهَا ، وَسَيِّدِهَا وَمَسُودِهَا ، فَإِنَّ فِي الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ سَيِّدًا وَمَسُودًا ، وَرَئِيسًا وَمَرْءُوسًا ، وَذِرْوَةً وَمَا دُونَهَا ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ، أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: « **اللهُمَّ أَنْتَ رَبِّي ، لَا إِلَهَ إِلَّا**

أَنْتَ »⁽¹⁾ الْحَدِيثَ ، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ « **الْجِهَادُ ذِرْوَةُ سَنَامِ الْأَمْرِ** »[2]، وَفِي الْأَثَرِ الْآخَرِ « **إِنَّ الْأَعْمَالَ تَفَاخَرَتْ** »[3] ، فَذَكَرَ كُلُّ عَمَلٍ مِنْهَا مَرْتَبَتَهُ وَفَضْلَهُ ، وَكَانَ لِلصَّدَقَةِ مَزِيَّةٌ فِي الْفَخْرِ عَلَيْهِنَّ، وَلَا يَقْطَعُ هَذِهِ الْعُقْبَةَ إِلَّا أَهْلُ الْبَصَائِرِ وَالصِّدْقِ مِنْ أُولِي الْعِلْمِ ، السَّائِرِينَ عَلَىٰ جَادَّةِ التَّوْفِيقِ ، قَدْ أَنْزَلُوا الْأَعْمَالَ مَنَازِلَهَا ، وَأَعْطَوْا كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ .

فَإِذَا نَجَا مِنْهَا لَمْ يَبْقَ هُنَاكَ عُقْبَةٌ يَطْلُبُهُ الْعَدُوُّ عَلَيْهَا سِوَىٰ وَاحِدَةٍ لَا بُدَّ مِنْهَا ، وَلَوْ نَجَا مِنْهَا أَحَدٌ لَنَجَا مِنْهَا رُسُلُ اللهِ وَأَنْبِيَاؤُهُ ، وَأَكْرَمُ الْخَلْقِ عَلَيْهِ .

عَقْبَةُ تَسْلِيطِ جُنْدِهِ عَلَيْهِ :

الْعَقَبَةُ السَّابِعَةُ : وَهِيَ عَقْبَةُ تَسْلِيطِ جُنْدِهِ عَلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْأَذَىٰ ، بِالْيَدِ وَاللِّسَانِ وَالْقَلْبِ ، عَلَىٰ حَسَبِ مَرْتَبَتِهِ فِي الْخَيْرِ ، فَكُلَّمَا عَلَتْ مَرْتَبَتُهُ أَجْلَبَ عَلَيْهِ الْعَدُوُّ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ ، وَظَاهَرَ عَلَيْهِ بِجُنْدِهِ ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِ حِزْبَهُ وَأَهْلَهُ بِأَنْوَاعِ التَّسْلِيطِ ، وَهَذِهِ الْعَقْبَةُ لَا حِيلَةَ لَهُ فِي التَّخَلُّصِ مِنْهَا، فَإِنَّهُ كُلَّمَا جَدَّ فِي الِاسْتِقَامَةِ وَالدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ ، وَالْقِيَامِ لَهُ بِأَمْرِهِ، جَدَّ الْعَدُوُّ فِي إِغْرَاءِ السُّفَهَاءِ بِهِ ، فَهُوَ فِي هَذِهِ الْعَقْبَةِ قَدْ لَبِسَ لَأْمَةَ الْحَرْبِ، وَأَخَذَ

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٣٠٦) .
(٢)(صَحِيحٌ) صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي«صَحِيح مُسْنَد التِّرمذِيّ » (٢١١٠).
(٣)(صَحِيحٌ) رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرك وَقَالَ : صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ .

فِي مُحَارَبَةِ الْعَدُوِّ للهِ وَبِاللهِ ، فَعُبُودِيَّتُهُ فِيهَا عُبُودِيَّةُ خَوَاصِّ الْعَارِفِينَ، وَهِيَ تُسَمَّىٰ عُبُودِيَّةَ الْمُرَاغَمَةِ ، وَلَا يَنْتَبِهُ لَهَا إِلَّا أُولُو الْبَصَائِرِ التَّامَّةِ ، وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنْ مُرَاغَمَةِ وَلِيِّهِ لِعَدُوِّهِ ، وَإِغَاظَتِهِ لَهُ ، وَقَدْ أَشَارَ سُبْحَانَهُ إِلَىٰ هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ :

أَحَدُهَا : قَوْلُهُ : ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النِّسَاء : ١٠٠] ، سَمَّىٰ الْمُهَاجِرَ الَّذِي يُهَاجِرُ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ مُرَاغِمًا يُرَاغِمُ بِهِ عَدُوُّ اللهِ وَعَدُوُّهُ ، وَاللهُ يُحِبُّ مِنْ وَلِيِّهِ مُرَاغَمَةَ عَدُوِّهِ، وَإِغَاظَتَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [التَّوْبَة : ١٢٠] ، وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي مِثْلِ رَسُولِ اللهِ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَأَتْبَاعِهِ ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ [الفَتْح : ٢٩] ، فَمُغَايَظَةُ الْكُفَّارِ غَايَةٌ مَحْبُوبَةٌ لِلرَّبِّ مَطْلُوبَةٌ لَهُ ، فَمُوَافَقَتُهُ فِيهَا مِنْ كَمَالِ الْعُبُودِيَّةِ ، وَشَرَعَ النَّبِيُّ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لِلْمُصَلِّي إِذَا سَهَا فِي صَلَاتِهِ سَجْدَتَيْنِ ، وَقَالَ : « **إِنْ كَانَتْ صَلَاتُهُ تَامَّةً كَانَتَا تُرْغِمَانِ أَنْفَ الشَّيْطَانِ** » (١) –وَفِي

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٥٧١) .

رِوَايَةٍ- «**تَرْغِيمًا لِلشَّيْطَانِ**»[(١)]، وَسَمَّاهَا الْمُرْغِمَتَيْنِ.

فَمَنْ تَعَبَّدَ اللهَ بِمُرَاغَمَةِ عَدُوِّهِ، فَقَدْ أَخَذَ مِنَ الصِّدِّيقِيَّةِ بِسَهْمٍ وَافِرٍ، وَعَلَىٰ قَدْرِ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ وَمُوَالَاتِهِ وَمُعَادَاتِهِ لِعَدُوِّهِ يَكُونُ نَصِيبُهُ مِنْ هَذِهِ الْمُرَاغَمَةِ، وَلِأَجْلِ هَذِهِ الْمُرَاغَمَةِ حُمِدَ التَّبَخْتُرُ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ، وَالْخُيَلَاءُ وَالتَّبَخْتُرُ عِنْدَ صَدَقَةِ السِّرِّ، حَيْثُ لَا يَرَاهُ إِلَّا اللهُ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ إِرْغَامِ الْعَدُوِّ، وَبَذْلِ مَحْبُوبِهِ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ للهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

وَهَذَا بَابٌ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ النَّاسِ، وَمَنْ ذَاقَ طَعْمَهُ وَلَذَّتَهُ بَكَىٰ عَلَىٰ أَيَّامِهِ الْأُوَلِ.

وَبِاللهِ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

وَصَاحِبُ هَذَا الْمَقَامِ إِذَا نَظَرَ إِلَىٰ الشَّيْطَانِ، وَلَاحَظَهُ فِي الذَّنْبِ، رَاغَمَهُ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ، فَأَحْدَثَتْ لَهُ هَذِهِ الْمُرَاغَمَةُ عُبُودِيَّةً أُخْرَىٰ.

فَهَذِهِ نُبْذَةٌ مِنْ بَعْضِ لَطَائِفِ أَسْرَارِ التَّوْبَةِ لَا تَسْتَهْزِئْ بِهَا، فَلَعَلَّكَ لَا تَظْفَرُ بِهَا فِي مُصَنَّفٍ آخَرَ الْبَتَّةَ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ.

اسْتِقْلَالُ المَعْصِيَةِ واسْتِكْثَارُ الطَّاعَةِ:

اسْتِقْلَالُ الْمَعْصِيَةِ ذَنْبٌ، كَمَا أَنَّ اسْتِكْثَارَ الطَّاعَةِ ذَنْبٌ، وَالْعَارِفُ مَنْ صَغُرَتْ حَسَنَاتُهُ فِي عَيْنِهِ، وَعَظُمَتْ ذُنُوبُهُ عِنْدَهُ، وَكُلَّمَا صَغُرَتِ

---

(١) (صَحِيْحٌ) صَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيْحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُد» (٩٠١).

الْحَسَنَاتُ فِي عَيْنِكَ كَبُرَتْ عِنْدَ اللهِ، وَكُلَّمَا كَبُرَتْ وَعَظُمَتْ فِي قَلْبِكَ قَلَّتْ وَصَغُرَتْ عِنْدَ اللهِ، وَسَيِّئَاتُكَ بِالْعَكْسِ، وَمَنْ عَرَفَ اللهَ وَحَقَّهُ وَمَا يَنْبَغِي لِعَظَمَتِهِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ تَلَاشَتْ حَسَنَاتُهُ عِنْدَهُ، وَصَغُرَتْ جِدًّا فِي عَيْنِهِ، وَعَلِمَ أَنَّهَا لَيْسَتْ مِمَّا يَنْجُو بِهَا مِنْ عَذَابِهِ، وَأَنَّ الَّذِي يَلِيقُ بِعِزَّتِهِ، وَيَصْلُحُ لَهُ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ أَمْرٌ آخَرُ، وَكُلَّمَا اسْتَكْثَرَ مِنْهَا اسْتَقَلَّهَا وَاسْتَصْغَرَهَا، لِأَنَّهُ كُلَّمَا اسْتَكْثَرَ مِنْهَا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ وَالْقُرْبِ مِنْهُ، فَشَاهَدَ قَلْبُهُ مِنْ عَظَمَتِهِ سُبْحَانَهُ وَجَلَالِهِ مَا يَسْتَصْغِرُ مَعَهُ جَمِيعَ أَعْمَالِهِ، وَلَوْ كَانَتْ أَعْمَالَ الثَّقَلَيْنِ، وَإِذَا كَثُرَتْ فِي عَيْنِهِ وَعَظُمَتْ دَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ مَحْجُوبٌ عَنِ اللهِ، غَيْرُ عَارِفٍ بِهِ وَبِمَا يَنْبَغِي لَهُ، وَبِحَسَبِ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ وَمَعْرِفَتِهِ بِنَفْسِهِ يَسْتَكْثِرُ ذُنُوبَهُ وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِهِ، لِمُشَاهَدَتِهِ الْحَقَّ وَمُسْتَحَقَّهُ، وَتَقْصِيرِهِ فِي الْقِيَامِ بِهِ، وَإِيقَاعِهِ عَلَىٰ الْوَجْهِ اللَّائِقِ الْمُوَافِقِ لِمَا يُحِبُّهُ الرَّبُّ وَيَرْضَاهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

إِذَا عَرَفَ هَذَا، فَاسْتِقْلَالُ الْعَبْدِ الْمَعْصِيَةَ عَيْنُ الْجُرْأَةِ عَلَىٰ اللهِ، وَجَهْلٌ بِقَدْرِ مَنْ عَصَاهُ وَبِقَدْرِ حَقِّهِ، وَإِنَّمَا كَانَ مُبَارَزَةً لِأَنَّهُ إِذَا اسْتَصْغَرَ الْمَعْصِيَةَ وَاسْتَقَلَّهَا هَانَ عَلَيْهِ أَمْرُهَا، وَخَفَّتْ عَلَىٰ قَلْبِهِ، وَذَلِكَ نَوْعُ مُبَارَزَةٍ.

إِضَاعَةُ الوَقْتِ:

وَالْقَصْدُ أَنَّ إِضَاعَةَ الْوَقْتِ الصَّحِيحِ يَدْعُو إِلَىٰ دَرْكِ النَّقِيصَةِ، إِذْ

صَاحِبُ حِفْظِهِ مُتَرَقٍّ عَلَىٰ دَرَجَاتِ الْكَمَالِ، فَإِذَا أَضَاعَهُ لَمْ يَقِفْ مَوْضِعَهُ، بَلْ يَنْزِلُ إِلَىٰ دَرَجَاتٍ مِنَ النَّقْصِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي تَقَدُّمٍ فَهُوَ مُتَأَخِّرٌ وَلَا بُدَّ، فَالْعَبْدُ سَائِرٌ لَا وَاقِفٌ، فَإِمَّا إِلَىٰ فَوْقٍ، وَإِمَّا إِلَىٰ أَسْفَلَ، إِمَّا إِلَىٰ أَمَامٍ وَإِمَّا إِلَىٰ وَرَاءٍ، وَلَيْسَ فِي الطَّبِيعَةِ وَلَا فِي الشَّرِيعَةِ وُقُوفُ الْبَتَّةَ، مَا هُوَ إِلَّا مَرَاحِلُ تُطْوَىٰ أَسْرَعَ طَيٍّ إِلَىٰ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ، فَمُسْرِعٌ وَمُبْطِئٌ، وَمُتَقَدِّمٌ وَمُتَأَخِّرٌ، وَلَيْسَ فِي الطَّرِيقِ وَاقِفٌ الْبَتَّةَ، وَإِنَّمَا يَتَخَالَفُونَ فِي جِهَةِ الْمَسِيرِ، وَفِي السُّرْعَةِ وَالْبُطْءِ ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ [المُدَّثر:٣٥-٣٧] ، وَلَمْ يَذْكُرْ وَاقِفًا، إِذْ لَا مَنْزِلَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَلَا طَرِيقَ لِسَالِكٍ إِلَىٰ غَيْرِ الدَّارَيْنِ الْبَتَّةَ، فَمَنْ لَمْ يَتَقَدَّمْ إِلَىٰ هَذِهِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَهُوَ مُتَأَخِّرٌ إِلَىٰ تِلْكَ بِالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كُلُّ مُجِدٍّ فِي طَلَبِ شَيْءٍ لَا بُدَّ أَنْ يَعْرِضَ لَهُ وَقْفَةٌ وَفُتُورٌ، ثُمَّ يَنْهَضَ إِلَىٰ طَلَبِهِ.

قُلْتُ: لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ صَاحِبَ الْوَقْفَةِ لَهُ حَالَانِ: إِمَّا أَنْ يَقِفَ لِيُجِمَّ نَفْسَهُ، وَيُعِدَّهَا لِلسَّيْرِ، فَهَذَا وَقْفَتُهُ سَيْرٌ، وَلَا تَضُرُّهُ الْوَقْفَةُ، فَإِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ.

وَإِمَّا أَنْ يَقِفَ لِدَاعٍ دَعَاهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَجَاذِبٍ جَذَبَهُ مِنْ خَلْفِهِ، فَإِنْ أَجَابَهُ أَخَّرَهُ وَلَا بُدَّ، فَإِنْ تَدَارَكَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ، وَأَطْلَعَهُ عَلَىٰ سَبْقِ الرَّكْبِ لَهُ

وَعَلَىٰ تَأَخُّرِهِ، نَهَضَ نَهْضَةَ الْغَضْبَانِ الْآسِفِ عَلَى الانْقِطَاعِ، وَوَثَبَ وَجَمَزَ وَاشْتَدَّ سَعْيًا لِيَلْحَقَ الرَّكْبَ، وَإِنِ اسْتَمَرَّ مَعَ دَاعِي التَّأَخُّرِ، وَأَصْغَىٰ إِلَيْهِ لَمْ يَرْضَ بِرَدِّهِ إِلَىٰ حَالَتِهِ الْأُولَىٰ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَإِجَابَةِ دَاعِي الْهَوَى، حَتَّىٰ يَرُدَّهُ إِلَىٰ أَسْوَأَ مِنْهَا وَأَنْزَلَ دَرَكًا، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ النَّكْسَةِ الشَّدِيدَةِ عُقَيْبَ الْإِبْلَالِ مِنَ الْمَرَضِ، فَإِنَّهَا أَخْطَرُ مِنْهُ وَأَصْعَبُ.

وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنْ تَدَارَكَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هَذَا الْعَبْدَ بِجَذْبَةٍ مِنْهُ مِنْ يَدِ عَدُوِّهِ وَتَخْلِيصِهِ، وَإِلَّا فَهُوَ فِي تَأَخُّرٍ إِلَى الْمَمَاتِ، رَاجِعُ الْقَهْقَرَى، نَاكِصٌ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ، أَوْ مُولٍ ظَهْرَهُ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ.

لا شَيْءَ أَضَرُّ عَلَى العَبْدِ مِنْ إِضَاعَةِ وَقْتِهِ مَعَ اللهِ:

الْمُرَاقَبَةُ تُعْطِي نُورًا كَاشِفًا لِحَقَائِقِ الْمَعْرِفَةِ وَالْعُبُودِيَّةِ، وَإِضَاعَةَ الْوَقْتِ تُغَطِّي ذَلِكَ النُّورَ، وَتُكَدِّرُ عَيْنَ الصُّحْبَةِ مَعَ اللهِ، فَإِنَّ صَاحِبَ الْوَقْتِ مَعَ صُحْبَةِ اللهِ، وَلَهُ مَعَ اللهِ مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ، بِحَسَبِ حِفْظِهِ وَقْتَهُ مَعَ اللهِ، فَإِنْ كَانَ مَعَ اللهِ كَانَ اللهُ مَعَهُ، فَإِذَا أَضَاعَ وَقْتَهُ كَدَّرَ عَيْنَ هَذِهِ الْمَعِيَّةِ الْخَاصَّةِ، وَتَعَرَّضَ لِقَطْعِ هَذِهِ الصُّحْبَةِ، فَلَا شَيْءَ أَضَرُّ عَلَى الْعَارِفِ بِاللهِ مِنْ إِضَاعَةِ وَقْتِهِ مَعَ اللهِ، وَيُخْشَىٰ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ بِالرُّجُوعِ أَنْ تَسْتَمِرَّ الْإِضَاعَةُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَتَكُونَ حَسْرَتُهُ وَنَدَامَتُهُ أَعْظَمَ مِنْ حَسْرَةِ غَيْرِهِ وَنَدَامَتِهِ، وَحِجَابُهُ عَنِ اللهِ أَشَدَّ مِنْ حِجَابِ مَنْ سِوَاهُ، وَيَكُونَ

حَالُهُ شَبِيهًا بِحَالِ قَوْمٍ يُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ، حَتَّىٰ إِذَا عَايَنُوهَا وَشَاهَدُوا مَا فِيهَا، صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ عَنْهَا إِلَىٰ النَّارِ، فَإِذَنْ تَوْبَةُ الْخَوَاصِّ تكُونُ مِنْ تَضْيِيعِ أَوْقَاتِهِمْ مَعَ اللهِ الَّتِي تَدْعُو إِلَىٰ هَذِهِ الْأُمُورِ .

تَأْخِيرُ التَّوْبَةُ ذَنْبٌ تَجِبُ التَّوْبَةُ مِنْهُ :

وَنَذْكُرُ نُبَذًا تَتَعَلَّقُ بِأَحْكَامِ التَّوْبَةِ، تَشْتَدُّ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا، وَلَا يَلِيقُ بِالْعَبْدِ جَهْلُهَا.

مِنْهَا: أَنَّ الْمُبَادَرَةَ إِلَىٰ التَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ فَرْضٌ عَلَىٰ الْفَوْرِ، وَلَا يَجُوزُ تَأْخِيرُهَا، فَمَتَىٰ أَخَّرَهَا عَصَىٰ بِالتَّأْخِيرِ، فَإِذَا تَابَ مِنَ الذَّنْبِ بَقِيَ عَلَيْهِ تَوْبَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ تَوْبَتُهُ مِنْ تَأْخِيرِ التَّوْبَةِ، وَقَلَّ أَنْ تَخْطُرَ هَذِه بِبَالِ التَّائِبِ، بَلْ عِنْدَهُ أَنَّهُ إِذَا تَابَ مِنَ الذَّنْبِ لَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ شَيْءٌ آخَرُ، وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ مِنْ تَأْخِيرِ التَّوْبَةِ، وَلَا يُنْجِي مِنْ هَذَا إِلَّا تَوْبَةٌ عَامَّةٌ، مِمَّا يَعْلَمُ مِنْ ذُنُوبِهِ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُ، فَإِنَّ مَا لَا يَعْلَمُهُ الْعَبْدُ مِنْ ذُنُوبِهِ أَكْثَرُ مِمَّا يَعْلَمُهُ، وَلَا يَنْفَعُهُ فِي عَدَمِ الْمُؤَاخَذَةِ بِهَا جَهْلُهُ إِذَا كَانَ مُتَمَكِّنًا مِنَ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ عَاصٍ بِتَرْكِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، فَالْمَعْصِيَةُ فِي حَقِّهِ أَشَدُّ .

وَفِي صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «**الشِّرْكُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَخْفَىٰ مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَكَيْفَ الْخَلَاصُ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ ، **قَالَ: أَنْ تَقُولَ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ**

أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ» [١] .

فَهَذَا طَلَبُ الِاسْتِغْفَارِ مِمَّا يَعْلَمُهُ اللهُ أَنَّهُ ذَنْبٌ، وَلَا يَعْلَمُهُ الْعَبْدُ.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ: **«اللهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَأَي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ إِلَهِيٌّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»** [٢] .

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: « **اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، خَطَأَهُ وَعَمْدَهُ، سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ، أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ** » [٣] .

فَهَذَا التَّعْمِيمُ وَهَذَا الشُّمُولُ لِتَأْتِيَ التَّوْبَةُ عَلَىٰ مَا عَلِمَهُ الْعَبْدُ مِنْ ذُنُوبِهِ وَمَا لَمْ يَعْلَمْهُ.

التَّوْبَةُ مِنْ ذَنْبٍ دُونَ آخَرَ :

وَالَّذِي عِنْدِي فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ التَّوْبَةَ لَا تَصِحُّ مِنْ ذَنْبٍ، مَعَ الْإِصْرَارِ عَلَىٰ آخَرَ مِنْ نَوْعِهِ، وَأَمَّا التَّوْبَةُ مِنْ ذَنْبٍ، مَعَ مُبَاشَرَةِ آخَرَ

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمُفْرَد (٧١٦) ، وَأَبُو يَعْلَىٰ (٥٨) ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيحِ الجَامِع » (٣٧٣١).

(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٣٩٨) ، وَمُسْلِمٌ (٢٧١٩) .

(٣) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٤٨٣) وَأَبُو دَاوُد (٨٧٨) .

لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِهِ، وَلَا هُوَ مِنْ نَوْعِهِ فَتَصِحُّ، كَمَا إِذَا تَابَ مِنَ الرِّبَا، وَلَمْ يَتُبْ مَنْ شُرْبِ الْخَمْرِ مَثَلًا، فَإِنَّ تَوْبَتَهُ مِنَ الرِّبَا صَحِيحَةٌ، وَأَمَّا إِذَا تَابَ مِنْ رِبَا الْفَضْلِ، وَلَمْ يَتُبْ مِنْ رِبَا النَّسِيئَةِ وَأَصَرَّ عَلَيْهِ، أَوْ بِالْعَكْسِ، أَوْ تَابَ مِنْ تَنَاوُلِ الْحَشِيشَةِ وَأَصَرَّ عَلَىٰ شُرْبِ الْخَمْرِ، أَوْ بِالْعَكْسِ فَهَذَا لَا تَصِحُّ تَوْبَتُهُ، وَهُوَ كَمَنْ يَتُوبُ عَنِ الزِّنَا بِامْرَأَةٍ، وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَىٰ الزِّنَا بِغَيْرِهَا غَيْرَ تَائِبٍ مِنْهَا، أَوْ تَابَ مِنْ شُرْبِ عَصِيرِ الْعِنَبِ الْمُسْكِرِ، وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَىٰ شُرْبِ غَيْرِهِ مِنَ الْأَشْرِبَةِ الْمُسْكِرَةِ، فَهَذَا فِي الْحَقِيقَةِ لَمْ يَتُبْ مِنَ الذَّنْبِ، وَإِنَّمَا عَدَلَ عَنْ نَوْعٍ مِنْهُ إِلَىٰ نَوْعٍ آخَرَ، بِخِلَافِ مَنْ عَدَلَ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلَىٰ مَعْصِيَةٍ أُخْرَىٰ غَيْرِهَا فِي الْجِنْسِ.

لَا يُبْطِلُ الذَّنْبُ اللَّاحِقُ التَّوْبَةَ السَّابِقَةَ :

أَنَّ التَّوْبَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ حَسَنَةٌ، وَمُعَاوَدَةَ الذَّنْبِ سَيِّئَةٌ، فَلَا تُبْطِلُ مُعَاوَدَتُهُ هَذِهِ الْحَسَنَةَ، كَمَا لَا تُبْطِلُ مَا قَارَنَهَا مِنَ الْحَسَنَاتِ.

قَالُوا: وَهَذَا عَلَىٰ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ أَظْهَرُ، فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَىٰ أَنَّ الشَّخْصَ الْوَاحِدَ يَكُونُ فِيهِ وَلَايَةٌ لِلَّهِ وَعَدَاوَةٌ مِنْ وَجْهَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، وَيَكُونُ مَحْبُوبًا لِلَّهِ مَبْغُوضًا لَهُ مِنْ وَجْهَيْنِ أَيْضًا، بَلْ يَكُونُ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، وَإِيمَانٌ وَكُفْرٌ، وَيَكُونُ إِلَىٰ أَحَدِهِمَا أَقْرَبَ مِنْهُ إِلَىٰ الْآخَرِ، فَيَكُونُ مِنْ أَهْلِهِ، كَمَا قَالَ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ

﴿مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]، أَثْبَتَ لَهُمُ الْإِيمَانَ بِهِ مَعَ مُقَارَنَةِ الشِّرْكِ، فَإِنْ كَانَ مَعَ هَذَا الشِّرْكِ تَكْذِيبٌ لِرُسُلِهِ لَمْ يَنْفَعْهُمْ مَا مَعَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ، وَإِنْ كَانَ مَعَهُ تَصْدِيقٌ لِرُسُلِهِ، وَهُمْ مُرْتَكِبُونَ لِأَنْوَاعٍ مِنَ الشِّرْكِ لَا تُخْرِجُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَهَؤُلَاءِ مُسْتَحِقُّونَ لِلْوَعِيدِ أَعْظَمَ مِنِ اسْتِحْقَاقِ أَرْبَابِ الْكَبَائِرِ.

وَشِرْكُهُمْ قِسْمَانِ: شِرْكٌ خَفِيٌّ، وَشِرْكٌ جَلِيٌّ، فَالْخَفِيُّ قَدْ يُغْفَرُ، وَأَمَّا الْجَلِيُّ فَلَا يَغْفِرُهُ اللهُ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنْهُ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ.

وَبِهَذَا الْأَصْلِ أَثْبَتَ أَهْلُ السُّنَّةِ دُخُولَ أَهْلِ الْكَبَائِرِ النَّارَ ثُمَّ خُرُوجَهُمْ مِنْهَا وَدُخُولَهُمُ الْجَنَّةَ، لِمَا قَامَ بِهِمْ مِنَ السَّبَبَيْنِ.

فَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَمُعَاوِدُ الذَّنْبِ مَبْغُوضٌ لِلَّهِ مِنْ جِهَةِ مُعَاوَدَةِ الذَّنْبِ، مَحْبُوبٌ لَهُ مِنْ جِهَةِ تَوْبَتِهِ وَحَسَنَاتِهِ السَّابِقَةِ، فَيُرَتِّبُ اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ سَبَبٍ أَثَرَهُ وَمُسَبَّبَهُ بِالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ، وَلَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

تَوْبَةُ الْعَاجِزِ عَنِ الذَّنْبِ :

وَمِنْ أَحْكَامِهَا أَنَّ الْعَاصِيَ إِذَا حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَسْبَابِ الْمَعْصِيَةِ، وَعَجَزَ عَنْهَا بِحَيْثُ يَتَعَذَّرُ وُقُوعُهَا مِنْهُ، هَلْ تَصِحُّ تَوْبَتُهُ ؟، وَهَذَا كَالْكَاذِبِ

وَالْقَاذِف ، وَشَاهِد الزُّور إِذَا قُطِعَ لِسَانُهُ ، وَالزَّانِي إِذَا جُبَّ ، وَالسَّارِق إِذَا أُتِيَ عَلَىٰ أَطْرَافِهِ الْأَرْبَعَةِ ، وَالْمُزَوِّر إِذَا قُطِعَتْ يَدُهُ ، وَمَنْ وَصَلَ إِلَىٰ حَدٍّ بَطَلَتْ مَعَهُ دَوَاعِيهِ إِلَىٰ مَعْصِيَةٍ كَانَ يَرْتَكِبُهَا .

فَفِي هَذَا قَوْلَانِ لِلنَّاسِ :

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : لَا تَصِحُّ تَوْبَتُهُ ، لِأَنَّ التَّوْبَةَ إِنَّمَا تَكُونُ مِمَّنْ يُمْكِنُهُ الْفِعْلُ وَالتَّرْكُ ، فَالتَّوْبَةُ مِنَ الْمُمْكِنِ ، لَا مِنَ الْمُسْتَحِيلِ ، وَلِهَذَا لَا تُتَصَوَّرُ التَّوْبَةُ مِنْ نَقْلِ الْجِبَالِ عَنْ أَمَاكِنِهَا ، وَتَنْشِيفِ الْبِحَارِ ، وَالطَّيَرَانِ إِلَىٰ السَّمَاءِ ، وَنَحْوِهِ .

قَالُوا : وَلِأَنَّ التَّوْبَةَ مُخَالَفَةُ دَاعِي النَّفْسِ ، وَإِجَابَةُ دَاعِي الْحَقِّ ، وَلَا دَاعِيَ لِلنَّفْسِ هُنَا ، إِذْ يُعْلَمُ اسْتِحَالَةُ الْفِعْلِ مِنْهَا .

قَالُوا : وَلِأَنَّ هَذَا كَالْمُكْرَهِ عَلَىٰ التَّرْكِ ، الْمَحْمُولِ عَلَيْهِ قَهْرًا ، وَمِثْلُ هَذَا لَا تَصِحُّ تَوْبَتُهُ .

قَالُوا : وَمِنَ الْمُسْتَقَرِّ فِي فِطَرِ النَّاسِ وَعُقُولِهِمْ أَنَّ تَوْبَةَ الْمَفَالِيس وَأَصْحَابِ الْجَوَائِحِ تَوْبَةٌ غَيْرُ مُعْتَبَرَةٍ ، وَلَا يُحْمَدُونَ عَلَيْهَا ، بَلْ يُسَمُّونَهَا تَوْبَةَ إِفْلَاسٍ ، وَتَوْبَةَ جَائِحَةٍ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

وَرُحْتُ عَنْ تَوْبَةٍ سَائِلاً ... وَجَدْتُهَا تَوْبَةَ إِفْلَاسِ

التَّحَلُّلِ مِنَ المَظَالِمِ :

وَمِنْ أَحْكَامِهَا : أَنَّهَا إِذَا كَانَتْ مُتَضَمِّنَةً لِحَقِّ آدَمِيٍّ أَنْ يَخْرُجَ التَّائِبُ إِلَيْهِ مِنْهُ ، إِمَّا بِأَدَائِهِ وَإِمَّا بِاسْتِحْلَالِهِ مِنْهُ بَعْدَ إِعْلَامِهِ بِهِ ، وَإِنْ كَانَ حَقًّا مَالِيًّا أَوْ جِنَايَةً عَلَىٰ بَدَنِهِ أَوْ بَدَنِ مَوْرُوثِهِ ، كَمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: « **مَنْ كَانَ لِأَخِيهِ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ مِنْ مَالٍ أَوْ عِرْضٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ الْيَوْمَ ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِلَّا الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ** » [١] .

لا يُشْتَرَطُ فِي التَّوْبَةِ إِعْلَامُ الأَخِ بِمَا نَالَ مِنْ عِرْضِهِ :

وَالْقَوْلُ الآخَرُ : أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ الإِعْلَامُ بِمَا نَالَ مِنْ عِرْضِهِ وَقَذْفِهِ وَاغْتِيَابِهِ ، بَلْ يَكْفِي تَوْبَتُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ ، وَأَنْ يَذْكُرَ الْمُغْتَابَ وَالْمَقْذُوفَ فِي مَوَاضِعِ غِيبَتِهِ وَقَذْفِهِ بِضِدِّ مَا ذَكَرَهُ بِهِ مِنَ الْغِيبَةِ ، فَيُبَدِّلُ غِيبَتَهُ بِمَدْحِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، وَذِكْرِ مَحَاسِنِهِ ، وَقَذْفَهُ بِذِكْرِ عِفَّتِهِ وَإِحْصَانِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُ لَهُ بِقَدْرِ مَا اغْتَابَهُ .

وَهَذَا اخْتِيَارُ شَيْخِنَا أَبِي الْعَبَّاسِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ - .

وَاحْتَجَّ أَصْحَابُ هَذِهِ الْمَقَالَةِ بِأَنَّ إِعْلَامَهُ مَفْسَدَةٌ مَحْضَةٌ لَا تَتَضَمَّنُ مَصْلَحَةً ، فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُهُ إِلَّا أَذًىٰ وَحَنَقًا وَغَمًّا ، وَقَدْ كَانَ مُسْتَرِيحًا قَبْلَ

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٤٤٩) ، وَمُسْلِمٌ (٦٥٣٤) .

سَمَاعِه ، فَإِذَا سَمِعَهُ رُبَّمَا لَمْ يَصْبِرْ عَلَىٰ حَمْلِهِ ، وَأَوْرَثَتْهُ ضَرَرًا فِي نَفْسِهِ أَوْ بَدَنِهِ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

فَإِنَّ الَّذِي يُؤْذِيكَ مِنْهُ سَمَاعُهُ وَإِنَّ الَّذِي قَالُوا وَرَاءَكَ لَمْ يُقَلْ

وَمَا كَانَ هَكَذَا فَإِنَّ الشَّارِعَ لَا يُبِيحُهُ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُوجِبَهُ وَيَأْمُرَ بِهِ .

قَالُوا : وَرُبَّمَا كَانَ إِعْلَامُهُ بِهِ سَبَبًا لِلْعَدَاوَةِ وَالْحَرْبِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَائِلِ ، فَلَا يَصْفُو لَهُ أَبَدًا ، وَيُورِثُهُ عِلْمُهُ بِهِ عَدَاوَةً وَبَغْضَاءَ مُوَلِّدَةً لِشَرٍّ أَكْبَرَ مِنْ شَرِّ الْغِيبَةِ وَالْقَذْفِ ، وَهَذَا ضِدُّ مَقْصُودِ الشَّارِعِ مِنْ تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ ، وَالتَّرَاحُمِ وَالتَّعَاطُفِ وَالتَّحَابُبِ .

قَالُوا : وَالْفَرْقُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ الْحُقُوقِ الْمَالِيَّةِ وَجِنَايَاتِ الْأَبْدَانِ مِنْ وَجْهَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ قَدْ يَنْتَفِعُ بِهَا إِذَا رَجَعَتْ إِلَيْهِ ، فَلَا يَجُوزُ إِخْفَاؤُهَا عَنْهُ ، فَإِنَّهُ مَحْضُ حَقِّهِ ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَدَاؤُهُ إِلَيْهِ ، بِخِلَافِ الْغِيبَةِ وَالْقَذْفِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ يَنْفَعُهُ يُؤَدِّيهِ إِلَيْهِ إِلَّا إِضْرَارُهُ وَتَهْيِيجُهُ فَقَطْ ، فَقِيَاسُ أَحَدِهِمَا عَلَىٰ الْآخَرِ مِنْ أَفْسَدِ الْقِيَاسِ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُ إِذَا أَعْلَمَهُ بِهَا لَمْ تُؤْذِهِ ، وَلَمْ تَهِجْ مِنْهُ غَضَبًا وَلَا عَدَاوَةً ، بَلْ رُبَّمَا سَرَّهُ ذَلِكَ وَفَرِحَ بِهِ ، بِخِلَافِ إِعْلَامِهِ بِمَا مَزَّقَ بِهِ عِرْضَهُ طُولَ عُمُرِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، مِنْ أَنْوَاعِ الْقَذْفِ وَالْغِيبَةِ وَالْهَجْوِ ، فَاعْتِبَارُ أَحَدِهِمَا

بِالْآخَرِ اعْتِبَارٌ فَاسِدٌ ، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي الْقَوْلَيْنِ كَمَا رَأَيْتَ ، واللهُ أَعْلَمُ .

إِذَا نَزَلَ العَبْدُ بِالذَّنْبِ ارْتَقَى بِالتَّوْبَة :

وَمِنْ أَحْكَامِهَا : أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَابَ مِنَ الذَّنْبِ فَهَلْ يَرْجِعُ إِلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ الذَّنْبِ مِنَ الدَّرَجَةِ الَّتِي حَطَّهُ عَنْهَا الذَّنْبُ ، أَوْ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا؟ اخْتُلِفَ فِي ذَلِكَ .

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : يَرْجِعُ إِلَىٰ دَرَجَتِهِ ، لِأَنَّ التَّوْبَةَ تَجُبُّ الذَّنْبَ بِالْكُلِّيَّةِ، وَتُصَيِّرُهُ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ ، وَالْمُقْتَضِي لِدَرَجَتِهِ مَا مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، فَعَادَ إِلَيْهَا بِالتَّوْبَةِ .

قَالُوا : لِأَنَّ التَّوْبَةَ حَسَنَةٌ عَظِيمَةٌ وَعَمَلٌ صَالِحٌ ، فَإِذَا كَانَ ذَنْبُهُ قَدْ حَطَّهُ عَنْ دَرَجَتِهِ ، فَحَسَنَتُهُ بِالتَّوْبَةِ رَقَّتْهُ إِلَيْهَا ، وَهَذَا كَمَنْ سَقَطَ فِي بِئْرٍ ، وَلَهُ صَاحِبٌ شَفِيقٌ ، أَدْلَىٰ إِلَيْهِ حَبْلًا تَمَسَّكَ بِهِ حَتَّىٰ رَقِيَ مِنْهُ إِلَىٰ مَوْضِعِهِ ، فَهَكَذَا التَّوْبَةُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ مِثْلُ هَذَا الْقَرِينِ الصَّالِحِ ، وَالْأَخِ الشَّفِيقِ .

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : لَا يَعُودُ إِلَىٰ دَرَجَتِهِ وَحَالِهِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي وُقُوفٍ ، وَإِنَّمَا كَانَ فِي صُعُودٍ ، فَبِالذَّنْبِ صَارَ فِي نُزُولٍ وَهُبُوطٍ ، فَإِذَا تَابَ نَقَصَ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْقَدْرُ الَّذِي كَانَ مُسْتَعِدًّا بِهِ لِلتَّرَقِّي .

قَالُوا : وَمِثْلُ هَذَا مِثْلُ رَجُلَيْنِ سَائِرَيْنِ عَلَىٰ طَرِيقٍ سَيْرًا وَاحِدًا ، ثُمَّ عَرَضَ لِأَحَدِهِمَا مَا رَدَّهُ عَلَىٰ عَقِبِهِ أَوْ أَوْقَفَهُ ، وَصَاحِبُهُ سَائِرٌ ، فَإِذَا اسْتَقَالَ هَذَا رُجُوعَهُ وَوَقْفَتَهُ ، وَسَارَ بِإِثْرِ صَاحِبِهِ لَمْ يَلْحَقْهُ أَبَدًا ، لِأَنَّهُ كُلَّمَا سَارَ مَرْحَلَةً تَقَدَّمَ ذَاكَ أُخْرَىٰ .

قَالُوا : وَالْأَوَّلُ يَسِيرُ بِقُوَّةِ أَعْمَالِهِ وَإِيمَانِهِ ، وَكُلَّمَا ازْدَادَ سَيْرًا ازْدَادَتْ قُوَّتُهُ ، وَذَلِكَ الْوَاقِفُ الَّذِي رَجَعَ قَدْ ضَعُفَتْ قُوَّةُ سَيْرِهِ وَإِيمَانِهِ بِالْوُقُوفِ وَالرُّجُوعِ .

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللهُ - يَحْكِي هَذَا الْخِلَافَ ، ثُمَّ قَالَ : وَالصَّحِيحُ أَنَّ مِنَ التَّائِبِينَ مَنْ لَا يَعُودُ إِلَىٰ دَرَجَتِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعُودُ إِلَيْهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعُودُ إِلَىٰ أَعْلَىٰ مِنْهَا ، فَيَصِيرُ خَيْرًا مِمَّا كَانَ قَبْلَ الذَّنْبِ ، وَكَانَ دَاوُدُ بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْرًا مِنْهُ قَبْلَ الْخَطِيئَةِ .

قَالَ : وَهَذَا بِحَسَبِ حَالِ التَّائِبِ بَعْدَ تَوْبَتِهِ ، وَجِدِّهِ وَعَزْمِهِ ، وَحَذَرِهِ وَتَشْمِيرِهِ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ أَعْظَمَ مِمَّا كَانَ لَهُ قَبْلَ الذَّنْبِ عَادَ خَيْرًا مِمَّا كَانَ وَأَعْلَىٰ دَرَجَةً ، وَإِنْ كَانَ مِثْلَهُ عَادَ إِلَىٰ مِثْلِ حَالِهِ ، وَإِنْ كَانَ دُونَهُ لَمْ يَعُدْ إِلَىٰ دَرَجَتِهِ ، وَكَانَ مُنْحَطًّا عَنْهَا ، وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ فَصْلُ النِّزَاعِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ .

تَفْضِيلُ الطَّائِعِ عَلَى التَّائِبِ تَوْبَةً نَصُوحًا :

الذَّنْبُ بِمَنْزِلَةِ شُرْبِ السُّمِّ ، وَالتَّوْبَةَ تِرْيَاقُهُ وَدَوَاؤُهُ ، وَالطَّاعَةُ هِيَ الصِّحَّةُ وَالْعَافِيَةُ ، وَصِحَّةٌ وَعَافِيَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ خَيْرٌ مِنْ صِحَّةٍ تَخَلَّلَهَا مَرَضٌ وَشُرْبُ سُمٍّ أَفَاقَ مِنْهُ ، وَرُبَّمَا أَدَّيَا بِهِ إِلَىٰ التَّلَفِ أَوِ الْمَرَضِ أَبَدًا .

الذَّنْبُ قَدْ يَكُونُ سَبَبًا فِي دُخُولِ الجَنَّةِ :

الذَّنْبُ قَدْ يَكُونُ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ إِذَا اقْتَرَنَتْ بِهِ التَّوْبَةُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَهَذَا مَعْنَىٰ قَوْلِ بَعْضِ السَّلَفِ: قَدْ يَعْمَلُ الْعَبْدُ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ ، وَيَعْمَلُ الطَّاعَةَ فَيَدْخُلُ بِهَا النَّارَ ، قَالُوا : وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ : يَعْمَلُ الذَّنْبَ فَلَا يَزَالُ نُصبَ عَيْنَيْهِ ، إِنْ قَامَ وَإِنْ قَعَدَ وَإِنْ مَشَىٰ ذَكَرَ ذَنْبَهُ ، فَيُحْدِثُ لَهُ انْكِسَارًا ، وَتَوْبَةً ، وَاسْتِغْفَارًا ، وَنَدَمًا، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ نَجَاتِهِ ، وَيَعْمَلُ الْحَسَنَةَ ، فَلَا تَزَالُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ ، إِنْ قَامَ وَإِنْ قَعَدَ وَإِنْ مَشَىٰ ، كُلَّمَا ذَكَرَهَا أَوْرَثَتْهُ عُجْبًا وَكِبْرًا وَمِنَّةً ، فَتَكُونُ سَبَبَ هَلَاكِهِ ، فَيَكُونُ الذَّنْبُ مُوجِبًا لِتَرَتُّبِ طَاعَاتٍ وَحَسَنَاتٍ، وَمُعَامَلَاتٍ قَلْبِيَّةٍ ، مِنْ خَوْفِ اللهِ وَالْحَيَاءِ مِنْهُ ، وَالْإِطْرَاقِ بَيْنَ يَدَيْهِ مُنَكِّسًا رَأْسَهُ خَجَلًا، بَاكِيًا نَادِمًا ، مُسْتَقِيلًا رَبَّهُ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْآثَارِ أَنْفَعُ لِلْعَبْدِ مِنْ طَاعَةٍ تُوجِبُ لَهُ صَوْلَةً ، وَكِبْرًا ، وَازْدِرَاءً بِالنَّاسِ ، وَرُؤْيَتَهُمْ بِعَيْنِ الِاحْتِقَارِ ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا الذَّنْبَ خَيْرٌ عِنْدَ اللهِ ، وَأَقْرَبُ إِلَىٰ

النَّجَاةِ وَالْفَوْزِ مِنْ هَذَا الْمُعْجَبِ بِطَاعَتِهِ ، الصَّائِلِ بِهَا، الْمَانِّ بِهَا ، وَبِحَالِهِ عَلَىٰ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَعِبَادِهِ ، وَإِنْ قَالَ بِلِسَانِهِ خِلَافَ ذَلِكَ ، فَاللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ، وَيَكَادُ يُعَادِي الْخَلْقَ إِذَا لَمْ يُعَظِّمُوهُ وَيَرْفَعُوهُ ، وَيَخْضَعُوا لَهُ ، وَيَجِدُ فِي قَلْبِهِ بَغْضَةً لِمَنْ لَمْ يَفْعَلْ بِهِ ذَلِكَ ، وَلَوْ فَتَّشَ نَفْسَهُ حَقَّ التَّفْتِيشِ لَرَأَىٰ فِيهَا ذَلِكَ كَامِنًا ، وَلِهَذَا تَرَاهُ عَاتِبًا عَلَىٰ مَنْ لَمْ يُعَظِّمْهُ وَيَعْرِفْ لَهُ حَقَّهُ ، مُتَطَلِّبًا لِعَيْبِهِ فِي قَالَبِ حَمِيَّةٍ لِلَّهِ ، وَغَضَبٍ لَهُ ، وَإِذَا قَامَ بِمَنْ يُعَظِّمُهُ وَيَحْتَرِمُهُ ، وَيَخْضَعُ لَهُ مِنَ الذُّنُوبِ أَضْعَافَ مَا قَامَ بِهَذَا فَتَحَ لَهُ بَابَ الْمَعَاذِيرِ وَالرَّجَاءِ ، وَأَغْمَضَ عَنْهُ عَيْنَهُ وَسَمْعَهُ، وَكَفَّ لِسَانَهُ وَقَلْبَهُ ، وَقَالَ : بَابُ الْعِصْمَةِ عَنْ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ مَسْدُودٌ ، وَرُبَّمَا ظَنَّ أَنَّ ذُنُوبَ مَنْ يُعَظِّمُهُ تُكَفَّرُ بِإِجْلَالِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَإِكْرَامِهِ إِيَّاهُ .

التَّوْبَةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ :

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِنَّمَا يُفَسِّرُ التَّوْبَةَ بِالْعَزْمِ عَلَىٰ أَنْ لَا يُعَاوِدَ الذَّنْبَ ، وَبِالْإِقْلَاعِ عَنْهُ فِي الْحَالِ ، وَبِالنَّدَمِ عَلَيْهِ فِي الْمَاضِي ، وَإِنْ كَانَ فِي حَقِّ آدَمِيٍّ فَلَا بُدَّ مِنْ أَمْرٍ رَابِعٍ ، وَهُوَ التَّحَلُّلُ مِنْهُ .

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرُوهُ بَعْضُ مُسَمَّىٰ التَّوْبَةِ بَلْ شَرْطُهَا ، وَإِلَّا فَالتَّوْبَةُ فِي كَلَامِ اللهِ وَرَسُولِهِ - كَمَا تَتَضَمَّنُ ذَلِكَ - تَتَضَمَّنُ الْعَزْمَ عَلَىٰ فِعْلِ الْمَأْمُورِ وَالْتِزَامِهِ فَلَا يَكُونُ بِمُجَرَّدِ الْإِقْلَاعِ وَالْعَزْمِ وَالنَّدَمِ تَائِبًا ، حَتَّىٰ

يُوجَدَ مِنْهُ الْعَزْمُ الْجَازِمُ عَلَىٰ فِعْلِ الْمَأْمُور ، وَالْإِتْيَان بِه ، هَذَا حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ ، وَهِيَ اسْمٌ لِمَجْمُوعِ الْأَمْرَيْنِ ، لَكِنَّهَا إِذَا قُرِنَتْ بِفِعْلِ الْمَأْمُور كَانَتْ عِبَارَةً عَمَّا ذَكَرُوهُ ، فَإِذَا أُفْرِدَتْ تَضَمَّنَت الْأَمْرَيْن ، وَهِيَ كَلَفْظَةِ التَّقْوَىٰ الَّتِي تَقْتَضِي عِنْدَ إِفْرَادِهَا فِعْلَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ ، وَتَرْكَ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ ، وَتَقْتَضِي عِنْدَ اقْتِرَانِهَا بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ الانْتِهَاءَ عَنِ الْمَحْظُورِ .

فَإِنَّ حَقِيقَةَ التَّوْبَةِ الرُّجُوعُ إِلَىٰ اللهِ بِالْتِزَامِ فَعْلِ مَا يُحِبُّ ، وَتَرْكِ مَا يَكْرَهُ ، فَهِيَ رُجُوعٌ مِنْ مَكْرُوهِ إِلَىٰ مَحْبُوبٍ ، فَالرُّجُوعُ إِلَىٰ الْمَحْبُوبِ جُزْءُ مُسَمَّاهَا ، وَالرُّجُوعُ عَنِ الْمَكْرُوهِ الْجُزْءُ الآخَرُ ، وَلِهَذَا عَلَّقَ سُبْحَانَهُ الْفَلاحَ الْمُطْلَقَ عَلَىٰ فِعْلِ الْمَأْمُورِ وَتَرْكِ الْمَحْظُورِ بِهَا ، فَقَالَ ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النُّور : ٣١] ، فَكُلُّ تَائِبٍ مُفْلِحٌ ، وَلَا يَكُونُ مُفْلِحًا إِلَّا مَنْ فَعَلَ مَا أُمِرَ بِهِ وَتَرَكَ مَا نُهِيَ عَنْهُ ، وَقَالَ تَعَالَىٰ ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[الْحُجُرَات : ١١]، وَتَارِكُ الْمَأْمُورِ ظَالِمٌ ، كَمَا أَنَّ فَاعِلَ الْمَحْظُورِ ظَالِمٌ، وَزَوَالُ اسْمِ الظُّلْمِ عَنْهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالتَّوْبَةِ الْجَامِعَةِ لِلأَمْرَيْنِ ، فَالنَّاسُ قِسْمَانِ : تَائِبٌ وَظَالِمٌ لَيْسَ إِلَّا ، فَالتَّائِبُونَ هُمُ ﴿ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [التَّوْبَة : ١١٢] ، فَحِفْظُ حُدُودِ اللهِ جُزْءُ التَّوْبَةِ، وَالتَّوْبَةُ هِيَ مَجْمُوعُ هَذِهِ

الْأُمُورِ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ تَائِبًا لِرُجُوعِهِ إِلَىٰ أَمْرِ اللهِ مِنْ نَهْيِهِ، وَإِلَىٰ طَاعَتِهِ مِنْ مَعْصِيَتِهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ .

التَّوْبَةُ هِيَ الدِّينُ كُلُّهُ :

فَإِذَا التَّوْبَةُ هِيَ حَقِيقَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ ، وَالدِّينُ كُلُّهُ دَاخِلٌ فِي مُسَمَّىٰ التَّوْبَةِ وَبِهَذَا اسْتَحَقَّ التَّائِبُ أَنْ يَكُونَ حَبِيبَ اللهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ، وَإِنَّمَا يُحِبُّ اللهُ مَنْ فَعَلَ مَا أَمَرَ بِهِ ، وَتَرَكَ مَا نَهَىٰ عَنْهُ .

فَإِذَا التَّوْبَةُ هِيَ الرُّجُوعُ مِمَّا يَكْرَهُهُ اللهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا إِلَىٰ مَا يُحِبُّهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، وَيَدْخُلُ فِي مُسَمَّاهَا الْإِسْلَامُ ، وَالْإِيمَانُ ، وَالْإِحْسَانُ ، وَتَتَنَاوَلُ جَمِيعَ الْمَقَامَاتِ ، وَلِهَذَا كَانَتْ غَايَةَ كُلِّ مُؤْمِنٍ ، وَبِدَايَةَ الْأَمْرِ وَخَاتِمَتَهُ ، كَمَا تَقَدَّمَ ، وَهِيَ الْغَايَةُ الَّتِي وُجِدَ لِأَجْلِهَا الْخَلْقُ ، وَالْأَمْرُ وَالتَّوْحِيدُ جُزْءٌ مِنْهَا ، بَلْ هُوَ جُزْؤُهَا الْأَعْظَمُ الَّذِي عَلَيْهِ بِنَاؤُهَا .

وَأَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْرِفُونَ قَدْرَ التَّوْبَةِ وَلَا حَقِيقَتَهَا ، فَضْلًا عَنِ الْقِيَامِ بِهَا عِلْمًا وَعَمَلًا وَحَالًا ، وَلَمْ يَجْعَلِ اللهُ تَعَالَىٰ مَحَبَّتَهُ لِلتَّوَّابِينَ إِلَّا وَهُمْ خَوَاصُّ الْخَلْقِ لَدَيْهِ .

وَلَوْلَا أَنَّ التَّوْبَةَ اسْمٌ جَامِعٌ لِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَحَقَائِقِ الْإِيمَانِ لَمْ يَكُنِ الرَّبُّ تَعَالَىٰ يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ ذَلِكَ الْفَرَحَ الْعَظِيمَ ، فَجَمِيعُ مَا يَتَكَلَّمُ فِيهِ النَّاسُ مِنَ الْمَقَامَاتِ وَالْأَحْوَالِ هُوَ تَفَاصِيلُ التَّوْبَةِ وَآثَارُهَا .

التَّوْبَةُ وَالإِسْتِغْفَارُ :

وَأَمَّا الاسْتِغْفَارُ فَهُوَ نَوْعَانِ : مُفْرَدٌ، وَمَقْرُونٌ بِالتَّوْبَةِ، فَالْمُفْرَدُ: كَقَوْلِ نُوحٍ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لِقَوْمِهِ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ [نوح:١٠-١١]، وَكَقَوْلِ صَالِحٍ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لِقَوْمِهِ: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النَّمل:٤٦]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البَقَرَةُ:١٩٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأَنْفَال: ٣٣]، وَالْمَقْرُونُ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هُود:٣]، وَقَوْلِ هُودٍ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لِقَوْمِهِ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هُود: ٥٢]، وَقَوْلِ صَالِحٍ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لِقَوْمِهِ: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هُود:٦١]، وَقَوْلِ شُعَيْبٍ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هُود:٩٠].

فَالاسْتِغْفَارُ الْمُفْرَدُ كَالتَّوْبَةِ ، بَلْ هُوَ التَّوْبَةُ بِعَيْنِهَا ، مَعَ تَضَمُّنه طَلَبَ الْمَغْفِرَةِ مِنَ اللهِ، وَهُوَ مَحْوُ الذَّنْبِ، وَإِزَالَةُ أَثَرِه ، وَوقَايَةُ شَرِّه، لا كَما ظَنَّهُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهَا السَّتْرُ، فَإِنَّ اللهَ يَسْتُرُ عَلَىٰ مَنْ يَغْفِرُ لَهُ وَمَنْ لا يَغْفِرُ لَهُ، وَلَكِنَّ السَّتْرَ لَازِمُ مُسَمَّاهَا أَوْ جُزْؤُهُ، فَدَلالَتُها عَلَيْهِ إِمَّا بِالتَّضَمُّنِ وَإِمَّا بِاللُّزُومِ.

وَحَقِيقَتُهَا وِقَايَةُ شَرِّ الذَّنْبِ ، وَمِنْهُ الْمِغْفَرُ ، لِمَا يَقِي الرَّأْسَ مِنَ الْأَذَى، وَالسَّتْرُ لَازِمٌ لِهَذَا الْمَعْنَىٰ ، وَإِلَّا فَالْعِمَامَةُ لا تُسَمَّىٰ مِغْفَرًا ، وَلَا الْقُبَّعُ وَنَحْوُهُ مَعَ سَتْرِه ، فَلَا بُدَّ فِي لَفْظِ الْمِغْفَرِ مِنَ الْوِقَايَةِ ، وَهَذَا الاسْتِغْفَارُ هُوَ الَّذِي يَمْنَعُ الْعَذَابَ فِي قَوْلِه : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣] ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ مُسْتَغْفِرًا ، وَأَمَّا مَنْ أَصَرَّ عَلَىٰ الذَّنْبِ ، وَطَلَبَ مِنَ اللهِ مَغْفِرَتَهُ ، فَهَذَا لَيْسَ بِاسْتِغْفَارٍ مُطْلَقٍ، وَلِهَذَا لَا يَمْنَعُ الْعَذَابَ ، فَالاسْتِغْفَارُ يَتَضَمَّنُ التَّوْبَةَ ، وَالتَّوْبَةُ تَتَضَمَّنُ الاسْتِغْفَارَ ، وَكُلٌّ مِنْهُما يَدْخُلُ فِي مُسَمَّىٰ الْآخَرِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ .

وَأَمَّا عِنْدَ اقْتِرَانِ إِحْدَىٰ اللَّفْظَتَيْنِ بِالْأُخْرَىٰ ، فَالاسْتِغْفَارُ : طَلَبُ وِقَايَةِ شَرِّ مَا مَضَىٰ ، وَالتَّوْبَةُ : الرُّجُوعُ وَطَلَبُ وِقَايَةِ شَرِّ مَا يَخَافُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِه .

فَهَاهُنَا ذَنْبَانِ : ذَنْبٌ قَدْ مَضَىٰ ، فَالِاسْتِغْفَارُ مِنْهُ : طَلَبُ وِقَايَةِ شَرِّه ،

وَذَنْبٌ يُخَافُ وُقُوعُهُ ، فَالتَّوْبَةُ : الْعَزْمُ عَلَىٰ أَنْ لَا يَفْعَلَهُ ، وَالرُّجُوعُ إِلَىٰ اللهِ يَتَنَاوَلُ النَّوْعَيْنِ رُجُوعٌ إِلَيْهِ لِيَقِيَهُ شَرَّ مَا مَضَىٰ ، وَرُجُوعٌ إِلَيْهِ لِيَقِيَهُ شَرَّ مَا يُسْتَقْبَلُ مِنْ شَرِّ نَفْسِهِ وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِ .

وَأَيْضًا فَإِنَّ الْمُذْنِبَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ رَكِبَ طَرِيقًا تُؤَدِّيهِ إِلَىٰ هَلَاكِهِ ، وَلَا تَوَصِّلُهُ إِلَىٰ الْمَقْصُودِ ، فَهُوَ مَأْمُورٌ أَنْ يُوَلِّيَهَا ظَهْرَهُ ، وَيَرْجِعَ إِلَىٰ الطَّرِيقِ الَّتِي فِيهَا نَجَاتُهُ ، وَالَّتِي تُوصِلُهُ إِلَىٰ مَقْصُودِهِ ، وَفِيهَا فَلَاحُهُ .

فَهَاهُنَا أَمْرَانِ لَا بُدَّ مِنْهُمَا : مُفَارَقَةُ شَيْءٍ ، وَالرُّجُوعُ إِلَىٰ غَيْرِهِ ، فَخُصَّتِ التَّوْبَةُ بِالرُّجُوعِ ، وَالِاسْتِغْفَارُ بِالْمُفَارَقَةِ ، وَعِنْدَ إِفْرَادِ أَحَدِهِمَا يَتَنَاوَلُ الْأَمْرَيْنِ ، وَلِهَذَا جَاءَ - وَاللهُ أَعْلَمُ - الْأَمْرُ بِهِمَا مُرَتَّبًا بِقَوْلِهِ : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ ﴾ [هُود:٩٠] فَإِنَّهُ الرُّجُوعُ إِلَىٰ طَرِيقِ الْحَقِّ بَعْدَ مُفَارَقَةِ الْبَاطِلِ .

وَأَيْضًا فَالِاسْتِغْفَارُ مِنْ بَابِ إِزَالَةِ الضَّرَرِ، وَالتَّوْبَةُ طَلَبُ جَلْبِ الْمَنْفَعَةِ ، فَالْمَغْفِرَةُ أَنْ يَقِيَهُ شَرَّ الذَّنْبِ ، وَالتَّوْبَةُ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ بَعْدَ هَذِهِ الْوِقَايَةِ مَا يُحِبُّهُ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَسْتَلْزِمُ الْآخَرَ عِنْدَ إِفْرَادِهِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

حَقِيْقَةُ التَّوْبَةِ النَّصُوْحِ :

وَهَذَا يَتَبَيَّنُ بِذِكْرِ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ وَحَقِيقَتِهَا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ

عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ [التَّحْرِيْمُ :٨] ، فَجعَلَ وقَايَةَ شَرِّ السَّيِّئَاتِ - وَهُوَ تكْفيرُهَا - بزَوَال مَا يكْرَهُ الْعَبْدُ، وَدُخول الْجَنَّاتِ - وَهُوَ حُصُولُ مَا يُحِبُّ الْعَبْدُ - مَنُوطًا بحُصُولِ التَّوْبَةِ النَّصُوح، وَالنَّصُوحُ عَلَىٰ وَزْنِ فَعُولِ الْمَعْدُولِ بِهِ عَنْ فَاعِلٍ قَصْدًا لِلْمُبَالَغَة، كَالشَّكُورِ وَالصَّبُورِ، وَأَصْلُ مَادَّةِ (ن ص ح) لخَلَاصِ الشَّيْءِ مِنَ الْغِشِّ وَالشَّوَائِبِ الْغَرِيبَة، وَهُوَ مُلَاقٍ في الاشْتقَاقِ الْأَكْبَرِ لنَصحَ إِذَا خَلَصَ، فَالنُّصْحُ فِي التَّوْبَةِ وَالعِبَادَةِ وَالْمَشُورَةِ تَخْلِيصُهَا مِنْ كُلِّ غِشٍّ وَنَقْصٍ وَفَسَادٍ، وَإِيقَاعُهَا عَلَىٰ أَكْمَلِ الْوُجُوهِ، وَالنُّصْحُ ضِدُّ الْغِشِّ.

وَقَد اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ السَّلَفِ عَنْهَا، وَمَرْجِعُهَا إِلَىٰ شَيْءٍ وَاحد، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب، وَأُبَيُّ بْنُ كَعْب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- : التَّوْبَةُ النَّصُوحُ أَنْ يَتُوبَ مِنَ الذَّنْب ثُمَّ لَا يَعُودَ إِلَيْهِ، كَمَا لَا يَعُودُ اللَّبَنُ إِلَىٰ الضَّرْعِ .

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: هِيَ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ نَادمًا عَلَىٰ مَا مَضَى، مُجْمِعًا عَلَىٰ أَنْ لَا يَعُودَ فِيهِ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: أَنْ يَسْتَغْفِرَ بِاللِّسَانِ، وَيَنْدَمَ بِالْقَلْب، وَيُمْسِكَ بِالْبَدَنِ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّب: تَوْبَةً نَصُوحًا، تَنْصَحُونَ بِهَا أَنْفُسَكُمْ، جَعَلَهَا بِمَعْنَىٰ نَاصِحَةٍ لِلتَّائِبِ، كَضَرُوبِ الْمَعْدُولِ عَنْ ضَارِبٍ.

وَأَصْحَابُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ يَجْعَلُونَهَا بِمَعْنَىٰ الْمَفْعُولِ، أَيْ قَدْ نَصَحَ فِيهَا التَّائِبُ وَلَمْ يَشُبْهَا بِغِشٍّ، فَهِيَ إِمَّا بِمَعْنَىٰ مَنْصُوحٍ فِيهَا، كَرَكُوبَةٍ وَحَلُوبَةٍ، بِمَعْنَىٰ مَرْكُوبَةٍ وَمَحْلُوبَةٍ، أَوْ بِمَعْنَىٰ الْفَاعِلِ، أَيْ نَاصِحَةٌ كَخَالِصَةٍ وَصَادِقَةٍ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ: يَجْمَعُهَا أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ: الِاسْتِغْفَارُ بِاللِّسَانِ، وَالْإِقْلَاعُ بِالْأَبْدَانِ، وَإِضْمَارُ تَرْكِ الْعَوْدِ بِالْجَنَانِ، وَمُهَاجَرَةُ سَيْءِ الْإِخْوَانِ.

قُلْتُ: النُّصْحُ فِي التَّوْبَةِ يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ:

الْأَوَّلُ: تَعْمِيمُ جَمِيعِ الذُّنُوبِ وَاسْتِغْرَاقُهَا بِهَا بِحَيْثُ لَا تَدَعُ ذَنْبًا إِلَّا تَنَاوَلَتْهُ.

وَالثَّانِي: إِجْمَاعُ الْعَزْمِ وَالصِّدْقِ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَيْهَا، بِحَيْثُ لَا يَبْقَىٰ عِنْدَهُ تَرَدُّدٌ، وَلَا تَلَوُّمٌ وَلَا انْتِظَارٌ،بَلْ يَجْمَعُ عَلَيْهَا كُلَّ إِرَادَتِهِ وَعَزِيمَتِهِ مُبَادِرًا بِهَا.

الثَّالِثُ: تَخْلِيصُهَا مِنَ الشَّوَائِبِ وَالْعِلَلِ الْقَادِحَةِ فِي إِخْلَاصِهَا، وَوُقُوعُهَا لِمَحْضِ الْخَوْفِ مِنَ اللهِ وَخَشْيَتِهِ، وَالرَّغْبَةِ فِيمَا لَدَيْهِ، وَالرَّهْبَةِ مِمَّا عِنْدَهُ، لَا كَمَنْ يَتُوبُ لِحِفْظِ جَاهِهِ وَحُرْمَتِهِ، وَمَنْصِبِهِ وَرِيَاسَتِهِ، وَلِحِفْظِ حَالِهِ، أَوْ لِحِفْظِ قُوَّتِهِ وَمَالِهِ، أَوِ اسْتِدْعَاءِ حَمْدِ النَّاسِ، أَوِ الْهَرَبِ مِنْ ذَمِّهِمْ، أَوْ لِئَلَّا يَتَسَلَّطَ عَلَيْهِ السُّفَهَاءُ، أَوْ لِقَضَاءِ نَهْمَتِهِ مِنَ الدُّنْيَا،

أَوْ لِإِفْلَاسِهِ وَعَجْزِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْعِلَلِ الَّتِي تَقْدَحُ فِي صِحَّتِهَا وَخُلُوصِهَا لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

فَالْأَوَّلُ يَتَعَلَّقُ بِمَا يَتُوبُ مِنْهُ، وَالثَّالِثُ يَتَعَلَّقُ بِمَنْ يَتُوبُ إِلَيْهِ، وَالْأَوْسَطُ يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ التَّائِبِ وَنَفْسِهِ، فَنُصْحُ التَّوْبَةِ الصِّدْقُ فِيهَا، وَالْإِخْلَاصُ، وَتَعْمِيمُ الذُّنُوبِ بِهَا، وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذِهِ التَّوْبَةَ تَسْتَلْزِمُ الِاسْتِغْفَارَ وَتَتَضَمَّنُهُ، وَتَمْحُو جَمِيعَ الذُّنُوبِ، وَهِيَ أَكْمَلُ مَا يَكُونُ مِنَ التَّوْبَةِ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

الْفَرْقُ بَيْنَ تَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ وَمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ :

وَقَدْ جَاءَ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُمَا مُقْتَرِنَيْنِ ، وَذِكْرُ كُلًّا مِنْهُمَا مُنْفَرِدًا عَنِ الْآخَرِ ، فَالْمُقْتَرِنَانِ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ حَاكِيًا عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ [آل عِمْرَان : ١٩٣] ، وَالْمُنْفَرِدُ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ [مُحَمَّد :٢] ، وَقَوْلِهِ فِي الْمَغْفِرَةِ ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [مُحَمَّد :١٥] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ﴾ [آل عِمْرَان :١٤٧] ، وَنَظَائِرِهِ .

فَهَاهُنَا أَرْبَعَةُ أُمُورٍ : ذُنُوبٌ ، وَسَيِّئَاتٌ ، وَمَغْفِرَةٌ ، وَتَكْفِيرٌ :

فَالذُّنُوبُ : الْمُرَادُ بِهَا الْكَبَائِرُ ، وَالْمُرَادُ بِالسَّيِّئَاتِ : الصَّغَائِرُ ، وَهِيَ مَا تَعْمَلُ فِيهِ الْكَفَّارَةُ ، مِنَ الْخَطَأِ وَمَا جَرَىٰ مَجْرَاهُ ، وَلِهَذَا جُعِلَ لَهَا التَّكْفِيرُ، وَمِنْهُ أُخِذَتِ الْكَفَّارَةُ ، وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا سُلْطَانٌ وَلَا عَمَلٌ فِي الْكَبَائِرِ فِي أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ ، فَلَا تَعْمَلُ فِي قَتْلِ الْعَمْدِ ، وَلَا فِي الْيَمِينِ الْغَمُوسِ فِي ظَاهِرِ مَذْهَبِ أَحْمَدَ وَأَبِي حَنِيفَةَ .

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ أَنَّ السَّيِّئَاتِ هِيَ الصَّغَائِرُ وَالتَّكْفِيرِ لَهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [النِّسَاء :٣١] ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ يَقُولُ : « **الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَىٰ رَمَضَانَ ؛ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ** »(١) .

وَلَفْظُ الْمَغْفِرَةِ أَكْمَلُ مِنْ لَفْظِ التَّكْفِيرِ وَلِهَذَا كَانَ مِنَ الْكَبَائِرِ ، وَالتَّكْفِيرُ مَعَ الصَّغَائِرِ ، فَإِنَّ لَفْظَ الْمَغْفِرَةِ يَتَضَمَّنُ الْوِقَايَةَ وَالْحِفْظَ ، وَلَفْظَ التَّكْفِيرِ يَتَضَمَّنُ السَّتْرَ وَالْإِزَالَةَ ، وَعِنْدَ الْإِفْرَادِ يَدْخُلُ كُلٌّ مِنْهُمَا فِي الْآخَرِ كَمَا تَقَدَّمَ ، فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ [مُحَمَّد :٢] ، يَتَنَاوَلُ

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٣٣) ، وَالتِّرْمِذِيّ (٢١٤) .

صَغَائِرَهَا وَكَبَائِرَهَا ، وَمَحْوَهَا وَوِقَايَةَ شَرِّهَا ، بَلِ التَّكْفِيرُ الْمُفْرَدُ يَتَنَاوَلُ أَسْوَأَ الأَعْمَالِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ﴾ [الزُّمُر :٣٥] .

وَإِذَا فُهِمَ هَذَا فَهِمَ السِّرَّ فِي الْوَعْدِ عَلَىٰ الْمَصَائِبِ وَالْهُمُومِ وَالْغُمُومِ وَالنَّصَبِ وَالْوَصَبِ بِالتَّكْفِيرِ دُونَ الْمَغْفِرَةِ ، كَقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ «**مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ هَمٍّ وَلَا غَمٍّ وَلَا أَذًى- حَتَّىٰ الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا- إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**» (١) ، فَإِنَّ الْمَصَائِبَ لَا تَسْتَقِلُّ بِمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ ، وَلَا تُغْفَرُ الذُّنُوبُ جَمِيعُهَا إِلَّا بِالتَّوْبَةِ ، أَوْ بِحَسَنَاتٍ تَتَضَاءَلُ وَتَتَلَاشَىٰ فِيهَا الذُّنُوبُ ، فَهِيَ كَالْبَحْرِ لَا يَتَغَيَّرُ بِالْجِيَفِ ، وَإِذَا بَلَغَ الْمَاءُ قُلَّتَيْنِ لَمْ يَحْمِلِ الْخَبَثَ .

أَنْهَارُ أَهْلِ الذُّنُوبِ:

فَلِأَهْلِ الذُّنُوبِ ثَلَاثَةُ أَنْهَارٍ عِظَامٍ يَتَطَهَّرُونَ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، فَإِنْ لَمْ تَفِ بِطُهْرِهِمْ طُهِّرُوا فِي نَهْرِ الْجَحِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : نَهْرُ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ ، وَنَهْرُ الْحَسَنَاتِ الْمُسْتَغْرِقَةِ لِلْأَوْزَارِ الْمُحِيطَةِ بِهَا ، وَنَهْرُ الْمَصَائِبِ الْعَظِيمَةِ الْمُكَفِّرَةِ ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ خَيْرًا أَدْخَلَهُ أَحَدَ هَذِهِ الْأَنْهَارِ الثَّلَاثَةِ ، فَوَرَدَ الْقِيَامَةَ طَيِّبًا طَاهِرًا ، فَلَمْ يَحْتَجْ إِلَىٰ التَّطْهِيرِ الرَّابِعِ .

---

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٦٤١ - ٥٦٤٢) ، وَمُسْلِمٌ (٢٥٧٣) .

تَوْبَةُ الْعَبْدِ مَحْفُوفَةٌ بِتَوْبَةٍ مِنَ اللهِ :

وَتَوْبَةُ الْعَبْدِ إِلَىٰ اللهِ مَحْفُوفَةٌ بِتَوْبَةٍ مِنَ اللهِ عَلَيْه قَبْلَهَا، وَتَوْبَة مِنْهُ بَعْدَهَا، فَتَوْبَتُهُ بَيْنَ تَوْبَتَيْنِ مِنْ رَبِّهِ، سَابِقَة وَلَاحِقَة، فَإِنَّهُ تَابَ عَلَيْهِ أَوَّلًا إِذْنًا وَتَوْفِيقًا وَإِلْهَامًا، فَتَابَ الْعَبْدُ، فَتَابَ اللهُ عَلَيْهِ ثَانِيًا، قَبُولًا وَإِثَابَةً، قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التَّوْبَة:١١٧-١١٨] ، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ تَوْبَتَهُ عَلَيْهِمْ سَبَقَتْ تَوْبَتَهُمْ، وَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي جَعَلَتْهُمْ تَائِبِينَ، فَكَانَتْ سَبَبًا مُقْتَضِيًا لِتَوْبَتِهِمْ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ مَا تَابُوا حَتَّىٰ تَابَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ، وَالْحُكْمُ يَنْتَفِي لِانْتِفَاءِ عِلَّتِهِ.

وَنَظِيرُ هَذَا هِدَايَتُهُ لِعَبْدِهِ قَبْلَ الِاهْتِدَاءِ، فَيَهْتَدِي بِهِدَايَتِهِ، فَتُوجِبُ لَهُ تِلْكَ الْهِدَايَةُ هِدَايَةً أُخْرَىٰ يُثِيبُهُ اللهُ بِهَا هِدَايَةً عَلَىٰ هِدَايَتِهِ، فَإِنَّ مِنْ ثَوَابِ الْهُدَىٰ الْهُدَىٰ بَعْدَهُ، كَمَا أَنَّ مِنْ عُقُوبَةِ الضَّلَالَةِ الضَّلَالَةُ بَعْدَهَا، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدٗى ﴾ [مُحَمَّد:١٧] ، أَولًا فَاهْتَدَوْا، فَزَادَهُمْ هُدًى ثَانِيًا، وَعَكْسُهُ فِي أَهْلِ الزَّيْغِ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ

أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصَّف :٥] ، فَهَذِهِ الْإِزَاغَةُ الثَّانِيَةُ عُقُوبَةٌ لَهُمْ عَلَىٰ زَيْغِهِمْ.

وَهَذَا الْقَدْرُ مِنْ سِرِّ اسْمَيْهِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ، فَهُوَ الْمُعِدُّ، وَهُوَ الْمُمِدُّ، وَمِنْهُ السَّبَبُ وَالْمُسَبَّبُ، وَهُوَ الَّذِي يُعِيذُ مِنْ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ، كَمَا قَالَ أَعْرَفُ الْخَلْقِ بِهِ: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ** »[1] ، وَالْعَبْدُ تَوَّابٌ، وَاللهُ تَوَّابٌ، فَتَوْبَةُ الْعَبْدِ رُجُوعُهُ إِلَىٰ سَيِّدِهِ بَعْدَ الْإِبَاقِ، وَتَوْبَةُ اللهِ نَوْعَانِ: إِذْنٌ وَتَوْفِيقٌ، وَقَبُولٌ وَإِمْدَادٌ.

بِدَايَةُ التَّوْبَةِ وَنِهَايَتُهَا :

وَالتَّوْبَةُ لَهَا مَبْدَأٌ وَمُنْتَهًى، فَمَبْدَؤُهَا الرُّجُوعُ إِلَىٰ اللهِ بِسُلُوكِ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي نَصَبَهُ لِعِبَادِهِ، مُوصِلًا إِلَىٰ رِضْوَانِهِ، وَأَمَرَهُمْ بِسُلُوكِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ** ﴾ [الأَنْعَامُ : ١٥٣] ، وَبِقَوْلِهِ: ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ** ﴾ [الشُّورَىٰ : ٥٣] ، وَبِقَوْلِهِ: ﴿ **وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ۝٢٤** ﴾ [الحَجُّ : ٢٤] .

وَنِهَايَتُهَا الرُّجُوعُ إِلَيْهِ فِي الْمَعَادِ، وَسُلُوكُ صِرَاطِهِ الَّذِي نَصَبَهُ مُوصِلًا

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٤٨٦) وَأَبُو دَاوُد (٨٧٢) .

إِلَىٰ جَنَّتِه، فَمَنْ رَجعَ إِلَىٰ اللهِ في هَذِهِ الدَّارِ بالتَّوْبَةِ رَجعَ إِلَيْهِ في الْمَعَادِ بِالثَّوَابِ، وَهَذَا هُوَ أَحَدُ التَّأْويلَاتِ في قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الفُرْقَان : ٧١] قَالَ الْبَغَوِيُّ وَغَيْرُهُ: ﴿ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ يَعُودُ إِلَيْهِ بَعْدَ الْمَوْتِ، مَتَابًا حَسَنًا يُفَضَّلُ عَلَىٰ غَيْرِهِ فَالتَّوْبَةُ الأُولَىٰ - وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿ وَمَن تَابَ ﴾ - رُجُوعٌ عَنِ الشِّرْكِ، وَالثَّانِيَةُ: رُجُوعٌ إِلَىٰ اللهِ لِلْجَزَاءِ وَالْمُكَافَأَةِ.

أَقْسَامُ الذُّنُوبِ :

وَالذُّنُوبُ تَنْقَسِمُ إِلَىٰ صَغَائِرَ وَكَبَائِرَ بِنَصِّ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ وَبِالاعْتِبَارِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النِّسَاء:٣١] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ [النَّجم:٣٢] ، وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ : « **الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَىٰ رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ** »[1] .

تَعْرِيفُ اللَّمَمِ :

اللَّمَمُ صَغَائِرُ الذُّنُوبِ، كَالنَّظْرَةِ، وَالْغَمْزَةِ، وَالْقُبْلَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ،

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٣٣) وَالتِّرْمِذِيّ (٢١٤) .

هَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الصَّحَابَةِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَمَسْرُوقٍ، وَالشَّعْبِيِّ، وَلَا يُنَافِي هَذَا قَوْلُ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَابْنِ عَبَّاسٍ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى: «**إِنَّهُ يُلِمُّ بِالْكَبِيرَةِ ثُمَّ لَا يَعُودُ إِلَيْهَا**» ، فَإِنَّ اللَّمَمَ إِمَّا أَنَّهُ يَتَنَاوَلُ هَذَا وَهَذَا، وَيَكُونُ عَلَىٰ وَجْهَيْنِ، كَمَا قَالَ الْكَلْبِيُّ، أَوْ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، وَابْنَ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم - أَلْحَقَا مَنِ ارْتَكَبَ الْكَبِيرَةَ مَرَّةً وَاحِدَةً - وَلَمْ يُصِرَّ عَلَيْهَا، بَلْ حَصَلَتْ مِنْهُ فَلْتَةٌ فِي عُمْرِهِ - بِاللَّمَمِ، وَرَأَيَا أَنَّهَا إِنَّمَا تَتَغَلَّظُ وَتَكْبُرُ وَتَعْظُمُ فِي حَقِّ مَنْ تَكَرَّرَتْ مِنْهُ مِرَارًا عَدِيدَةً، وَهَذَا مِنْ فِقْهِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَغَوْرِ عُلُومِهِمْ .

الأَحَادِيْثُ وأَقْوَالُ السَّلَفِ فِي الكَبَائِرِ :

وَأَمَّا الْكَبَائِرُ فَاخْتَلَفَ السَّلَفُ فِيهَا اخْتِلَافًا لَا يَرْجِعُ إِلَىٰ تَبَايُنٍ وَتَضَادٍّ، وَأَقْوَالُهُمْ مُتَقَارِبَةٌ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ الشَّعْبِيِّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ : « **الْكَبَائِرُ : الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ** » (١).

وَفِيهِمَا عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٦٧٥) وَالتِّرْمِذِيّ (٣٠٢٤) .

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ؟ - ثَلَاثًا - قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: « **الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ - وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا- فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ**، فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّىٰ قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ» [١] .

وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُرَحْبِيلَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، « أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ: **أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**، قَالَ قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ ؟ **قَالَ: أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**، قَالَ قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ ؟ **قَالَ: أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ** فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ تَصْدِيقَ قَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ﴿ **وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا** ﴿٦٨﴾ ﴾ [الفُرْقَان:٦٨] [٢].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : « **اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ** ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ ؟، **قَالَ: الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ،**

---

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٦٥٤) ، وَمُسْلِمٌ (٨٧) .
(٢) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٤٧٧) ، وَمُسْلِمٌ (٨٦) .

وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ» (١) .

وَرَوَىٰ شُعْبَةُ عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ سَمِعْتُ حُمَيْدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ يُحَدِّثُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: « **مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَسُبَّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ**، قَالُوا: وَكَيْفَ يَسُبُّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ ؟ **قَالَ: يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ** » (٢) .

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: « **إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ : اسْتِطَالَةَ الرَّجُلِ فِي عِرْضِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ**» (٣) .

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ:الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: سَأَلَ رَجُلٌ ابْنَ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- عَنِ الْكَبَائِرِ أَسَبْعٌ هُنَّ؟ ، قَالَ: هُنَّ إِلَىٰ السَّبْعِمَائَةِ أَقْرَبُ، إِلَّا أَنَّهُ لَا كَبِيرَةَ مَعَ الِاسْتِغْفَارِ، وَلَا صَغِيرَةَ مَعَ الْإِصْرَارِ، وَقَالَ: كُلُّ شَيْءٍ عُصِيَ اللهُ بِهِ فَهُوَ

---

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٧٦٦) ، وَمُسْلِمٌ (٨٩) .

(٢) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٩٧٣) ، وَمُسْلِمٌ (٩٠) .

(٣) (صَحِيْحٌ) صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي«صَحِيْحِ الجَامِع » (٢٢٠٣) حَدِيْثًا قَرِيْبًا مِنْ هَذَا : « **إِنَّ مِنْ أَرْبَىٰ الرِّبَا ...** » .

كَبِيرَةٌ، مَنْ عَمِلَ شَيْئًا مِنْهَا فَلْيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُخَلِّدُ فِي النَّارِ مِنَ الْأُمَّةِ إِلَّا مَنْ كَانَ رَاجِعًا عَنِ الْإِسْلَامِ، أَوْ جَاحِدًا فَرِيضَةً، أَوْ مُكَذِّبًا بِالْقَدَرِ.

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النِّسَاء :٣١] ،فَهُوَ كَبِيرَةٌ، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ: هِيَ كُلُّ ذَنْبٍ خَتَمَهُ اللهُ بِنَارٍ، أَوْ غَضَبٍ، أَوْ لَعْنَةٍ، أَوْ عَذَابٍ.

الأَحْوَالُ والصِّفَاتُ الَّتِي تَكُونُ مَعَهَا الكَبِيْرَةُ صَغِيْرَةً وَبالعَكْسِ:

وَهَاهُنَا أَمْرٌ يَنْبَغِي التَّفَطُّنُ لَهُ، وَهُوَ أَنَّ الْكَبِيرَةَ قَدْ يَقْتَرِنُ بِهَا - مِنَ الْحَيَاءِ وَالْخَوْفِ، وَالِاسْتِعْظَامِ لَهَا - مَا يُلْحِقُهَا بِالصَّغَائِرِ، وَقَدْ يَقْتَرِنُ بِالصَّغِيرَةِ - مِنْ قِلَّةِ الْحَيَاءِ، وَعَدَمِ الْمُبَالَاةِ، وَتَرْكِ الْخَوْفِ، وَالِاسْتِهَانَةِ بِهَا - مَا يُلْحِقُهَا بِالْكَبَائِرِ، بَلْ يَجْعَلُهَا فِي أَعْلَىٰ رُتَبِهَا.

وَهَذَا أَمْرٌ مَرْجِعُهُ إِلَىٰ مَا يَقُومُ بِالْقَلْبِ، وَهُوَ قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَىٰ مُجَرَّدِ الْفِعْلِ، وَالْإِنْسَانُ يَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْ غَيْرِهِ.

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ يُعْفَىٰ لِلْمُحِبِّ، وَلِصَاحِبِ الْإِحْسَانِ الْعَظِيمِ، مَا لَا يُعْفَىٰ لِغَيْرِهِ، وَيُسَامَحُ بِمَا لَا يُسَامَحُ بِهِ غَيْرُهُ.

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ - يَقُولُ: انْظُرْ

إِلَىٰ مُوسَىٰ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - رَمَىٰ الْأَلْوَاحَ الَّتِي فِيهَا كَلَامُ اللهِ الَّذِي كَتَبَهُ بِيَدِهِ فَكَسَرَهَا، وَجَرَّ بِلِحْيَةِ نَبِيٍّ مِثْلِهِ، وَهُوَ هَارُونُ، وَلَطَمَ عَيْنَ مَلَكِ الْمَوْتِ فَفَقَأَهَا، وَعَاتَبَ رَبَّهُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ فِي مُحَمَّدٍ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَرَفَعَهُ عَلَيْهِ، وَرَبُّهُ تَعَالَىٰ يَحْتَمِلُ لَهُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَيُحِبُّهُ وَيُكْرِمُهُ وَيُدَلِّلُهُ، لِأَنَّهُ قَامَ لِلَّهِ تِلْكَ الْمَقَامَاتِ الْعَظِيمَةَ فِي مُقَابَلَةِ أَعْدَىٰ عَدُوٍّ لَهُ، وَصَدَعَ بِأَمْرِهِ، وَعَالَجَ أُمَّتَي الْقِبْطِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَكَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ كَالشَّعْرَةِ فِي الْبَحْرِ.

وَانْظُرْ إِلَىٰ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ لَهُ هَذِهِ الْمَقَامَاتُ الَّتِي لِمُوسَى، غَاضَبَ رَبَّهُ مَرَّةً، فَأَخَذَهُ وَسَجَنَهُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، وَلَمْ يَحْتَمِلْ لَهُ مَا احْتَمَلَ لِمُوسَى، وَفَرْقٌ بَيْنَ مَنْ إِذَا أَتَىٰ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْإِحْسَانِ وَالْمَحَاسِنِ مَا يَشْفَعُ لَهُ، وَبَيْنَ مَنْ إِذَا أَتَىٰ بِذَنْبٍ جَاءَتْ مَحَاسِنُهُ بِكُلِّ شَفِيعٍ، كَمَا قِيلَ:

وَإِذَا الْحَبِيبُ أَتَىٰ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ... جَاءَتْ مَحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيعِ

فَالْأَعْمَالُ تَشْفَعُ لِصَاحِبِهَا عِنْدَ اللهِ، وَتُذَكِّرُ بِهِ إِذَا وَقَعَ فِي الشَّدَائِدِ، قَالَ تَعَالَىٰ عَنْ ذِي النُّونِ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصَّافَّات: ١٤٣-١٤٤]، وَفِرْعَوْنُ لَمَّا لَمْ تَكُنْ لَهُ سَابِقَةُ خَيْرٍ تَشْفَعُ لَهُ وَقَالَ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ

بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ : ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يُونُس: ٩٠-٩١].

وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: « **إِنَّ مَا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللهِ - مِنَ التَّسْبِيحِ، وَالتَّكْبِيرِ، وَالتَّحْمِيدِ - يَتَعَاطَفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ، لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، يُذَكِّرْنَ بِصَاحِبِهِنَّ، أَفَلَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَنْ يُذَكِّرُ بِهِ ؟** » [١] .

وَلِهَذَا مَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَىٰ سَيِّئَاتِهِ أَفْلَحَ وَلَمْ يُعَذَّبْ، وَوُهِبَتْ لَهُ سَيِّئَاتُهُ لِأَجْلِ حَسَنَاتِهِ، وَلِأَجْلِ هَذَا يُغْفَرُ لِصَاحِبِ التَّوْحِيدِ مَا لَا يُغْفَرُ لِصَاحِبِ الْإِشْرَاكِ، لِأَنَّهُ قَدْ قَامَ بِهِ مِمَّا يُحِبُّهُ اللهُ مَا اقْتَضَىٰ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، وَيُسَامِحَهُ مَا لَا يُسَامِحُ بِهِ الْمُشْرِكَ، وَكَمَا كَانَ تَوْحِيدُ الْعَبْدِ أَعْظَمَ، كَانَتْ مَغْفِرَةُ اللهِ لَهُ أَتَمَّ، فَمَنْ لَقِيَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا الْبَتَّةَ غَفَرَ لَهُ ذُنُوبَهُ كُلَّهَا، كَائِنَةً مَا كَانَتْ، وَلَمْ يُعَذِّبْ بِهَا.

وَلَسْنَا نَقُولُ: إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ، بَلْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَدْخُلُ بِذُنُوبِهِ، وَيُعَذَّبُ عَلَىٰ مِقْدَارِ جُرْمِهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا، وَلَا تَنَافِيَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ لِمَنْ أَحَاطَ عِلْمًا بِمَا قَدَّمْنَاهُ.

---

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيْحِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ» (٣٠٧١) .

كَلِمَةُ التَّوْحِيْد تُبَدِّدُ مِنْ ضَبَابِ الذُّنُوبِ:

اعْلَمْ أَنَّ أَشعَّةَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُبَدِّدُ مِنْ ضَبَابِ الذُّنُوبِ وَغُيُومِهَا بِقَدْرِ قُوَّةِ ذَلِكَ الشُّعَاعِ وَضَعْفِهِ، فَلَهَا نُورٌ، وَتَفَاوُتُ أَهْلِهَا فِي ذَلِكَ النُّورِ -قُوَّةً، وَضَعْفًا - لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللهُ تَعَالَى.

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ نُورُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ فِي قَلْبِهِ كَالشَّمْسِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهَا فِي قَلْبِهِ كَالْكَوْكَبِ الدُّرِّيِّ.

وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهَا فِي قَلْبِهِ كَالْمَشْعَلِ الْعَظِيمِ.

وَآخَرُ كَالسِّرَاجِ الْمُضِيءِ، وَآخَرُ كَالسِّرَاجِ الضَّعِيفِ.

وَلِهَذَا تَظْهَرُ الْأَنْوَارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَيْمَانِهِمْ، وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ، عَلَىٰ هَذَا الْمِقْدَارِ، بِحَسَبِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ نُورِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، عِلْمًا وَعَمَلًا، وَمَعْرِفَةً وَحَالًا.

وَكُلَّمَا عَظُمَ نُورُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَاشْتَدَّ أَحْرَقَ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ بِحَسَبِ قُوَّتِهِ وَشِدَّتِهِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ رُبَّمَا وَصَلَ إِلَىٰ حَالٍ لَا يُصَادِفُ مَعَهَا شُبْهَةً وَلَا شَهْوَةً، وَلَا ذَنْبًا، إِلَّا أَحْرَقَهُ، وَهَذَا حَالُ الصَّادِقِ فِي تَوْحِيدِهِ، الَّذِي لَمْ يُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئًا، فَأَيُّ ذَنْبٍ أَوْ شَهْوَةٍ أَوْ شُبْهَةٍ دَنَتْ مِنْ هَذَا النُّورِ أَحْرَقَهَا، فَسَمَاءُ إِيمَانِهِ قَدْ حُرِسَتْ بِالنُّجُومِ مِنْ كُلِّ سَارِقٍ لِحَسَنَاتِهِ، فَلَا يَنَالُ مِنْهَا السَّارِقُ إِلَّا عَلَىٰ غِرَّةٍ وَغَفْلَةٍ لَا بُدَّ مِنْهَا لِلْبَشَرِ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ

وَعَلِمَ مَا سُرِقَ مِنْهُ اسْتَنْقَذَهُ مِنْ سَارِقِهِ، أَوْ حَصَّلَ أَضْعَافَهُ بِكَسْبِهِ، فَهُوَ هَكَذَا أَبَدًا مَعَ لُصُوصِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ، لَيْسَ كَمَنْ فَتَحَ لَهُمْ خِزَانَتَهُ، وَوَلَّىٰ الْبَابَ ظَهْرَهُ.

وَلَيْسَ التَّوْحِيدُ مُجَرَّدَ إِقْرَارِ الْعَبْدِ بِأَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ اللهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، كَمَا كَانَ عُبَّادُ الْأَصْنَامِ مُقِرِّينَ بِذَلِكَ وَهُمْ مُشْرِكُونَ، بَلِ التَّوْحِيدُ يَتَضَمَّنُ - مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ، وَالْخُضُوعِ لَهُ، وَالذُّلِّ لَهُ، وَكَمَالِ الانْقِيَادِ لِطَاعَتِهِ، وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ، وَإِرَادَةِ وَجْهِهِ الْأَعْلَىٰ بِجَمِيعِ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ، وَالْمَنْعِ، وَالْعَطَاءِ، وَالْحُبِّ، وَالْبُغْضِ - مَا يَحُولُ بَيْنَ صَاحِبِهِ وَبَيْنَ الْأَسْبَابِ الدَّاعِيَةِ إِلَىٰ الْمَعَاصِي، وَالْإِصْرَارِ عَلَيْهَا، وَمَنْ عَرَفَ هَذَا عَرَفَ قَوْلَ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ** »[1] ، وَقَوْلَهُ: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»[2] ، وَمَا جَاءَ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي أَشْكَلَتْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، حَتَّىٰ ظَنَّهَا بَعْضُهُمْ مَنْسُوخَةً، وَظَنَّهَا بَعْضُهُمْ قِيلَتْ قَبْلَ وُرُودِ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَاسْتِقْرَارِ الشَّرْعِ، وَحَمَلَهَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ نَارِ الْمُشْرِكِينَ وَالْكُفَّارِ، وَأَوَّلَ بَعْضُهُمُ الدُّخُولَ بِالْخُلُودِ، وَقَالَ: الْمَعْنَىٰ لَا يَدْخُلُهَا خَالِدًا، وَنَحْوَ ذَلِكَ

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٢٥)، وَمُسْلِمٌ (٣٣)، (٢٦٣).
(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٤٨)، وَأَبُو دَاوُد (٤٠٩١).

مِنَ التَّأْوِيلَاتِ الْمُسْتَكْرَهَةِ.

وَالشَّارِعُ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ حَاصِلًا بِمُجَرَّدِ قَوْلِ اللِّسَانِ فَقَطْ، فَإِنَّ هَذَا خِلَافُ الْمَعْلُومِ بِالاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّ الْمُنَافِقِينَ يَقُولُونَهَا بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَهُمْ تَحْتَ الْجَاحِدِينَ لَهَا فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، فَلَا بُدَّ مِنْ قَوْلِ الْقَلْبِ، وَقَوْلِ اللِّسَانِ، وَقَوْلُ الْقَلْبِ يَتَضَمَّنُ مِنْ مَعْرِفَتِهَا، وَالتَّصْدِيقِ بِهَا، وَمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ مَا تَضَمَّنَتْهُ - مِنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْمَنْفِيَّةِ عَنْ غَيْرِ اللهِ، الْمُخْتَصَّةِ بِهِ، الَّتِي يَسْتَحِيلُ ثُبُوتُهَا لِغَيْرِهِ، وَقِيَامُ هَذَا الْمَعْنَىٰ بِالْقَلْبِ عِلْمًا وَمَعْرِفَةً وَيَقِينًا، وَحَالًا - مَا يُوجِبُ تَحْرِيمَ قَائِلِهَا عَلَىٰ النَّارِ، وَكُلُّ قَوْلٍ رَتَّبَ الشَّارِعُ مَا رَتَّبَ عَلَيْهِ مِنَ الثَّوَابِ، فَإِنَّمَا هُوَ الْقَوْلُ التَّامُّ، كَقَوْلِهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- « **مَنْ قَالَ فِي يَوْمٍ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ - أَوْ غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ - وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ** »[1] ، وَلَيْسَ هَذَا مُرَتَّبًا عَلَىٰ مُجَرَّدِ قَوْلِ اللِّسَانِ.

نَعَمْ مَنْ قَالَهَا بِلِسَانِهِ، غَافِلًا عَنْ مَعْنَاهَا، مُعْرِضًا عَنْ تَدَبُّرِهَا، وَلَمْ يُوَاطِئْ قَلْبُهُ لِسَانَهُ، وَلَا عَرَفَ قَدْرَهَا وَحَقِيقَتَهَا، رَاجِيًا مَعَ ذَلِكَ ثَوَابَهَا، حَطَّتْ مِنْ خَطَايَاهُ بِحَسَبِ مَا فِي قَلْبِهِ، فَإِنَّ الْأَعْمَالَ لَا تَتَفَاضَلُ بِصُوَرِهَا وَعَدَدِهَا، وَإِنَّمَا تَتَفَاضَلُ بِتَفَاضُلِ مَا فِي الْقُلُوبِ، فَتَكُونُ صُورَةُ الْعَمَلَيْنِ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢١٩١) وَالتِّرْمِذِيّ (٥١٢) وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ .

وَاحِدَةً، وَبَيْنَهُمَا فِي التَّفَاضُلِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالرَّجُلَانِ يَكُونُ مَقَامُهُمَا فِي الصَّفِّ وَاحِدًا، وَبَيْنَ صَلَاتَيْهِمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

وَتَأَمَّلْ حَدِيثَ الْبِطَاقَةِ الَّتِي تُوضَعُ فِي كِفَّةٍ، وَيُقَابِلُهَا تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِنْهَا مَدُّ الْبَصَرِ، فَتَثْقُلُ الْبِطَاقَةُ وَتَطِيشُ السِّجِلَّاتُ، فَلَا يُعَذَّبُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ مُوَحِّدٍ لَهُ مِثْلُ هَذِهِ الْبِطَاقَةِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَدْخُلُ النَّارَ بِذُنُوبِهِ، وَلَكِنَّ السِّرَّ الَّذِي ثَقَّلَ بِطَاقَةَ ذَلِكَ الرَّجُلِ، وَطَاشَتْ لِأَجْلِهِ السِّجِلَّاتُ لَمَّا لَمْ يَحْصُلْ لِغَيْرِهِ مِنْ أَرْبَابِ الْبِطَاقَاتِ، انْفَرَدَتْ بِطَاقَتُهُ بِالثِّقَلِ وَالرَّزَانَةِ.

وَإِذَا أَرَدْتَ زِيَادَةَ الْإِيضَاحِ لِهَذَا الْمَعْنَى، فَانْظُرْ إِلَىٰ ذِكْرِ مَنْ قَلْبُهُ مَلْآنٌ بِمَحَبَّتِكَ، وَذِكْرِ مَنْ هُوَ مُعْرِضٌ عَنْكَ غَافِلٌ سَاهٍ، مَشْغُولٌ بِغَيْرِكَ، قَدِ انْجَذَبَتْ دَوَاعِي قَلْبِهِ إِلَىٰ مَحَبَّةِ غَيْرِكَ، وَإِيثَارِهِ عَلَيْكَ، هَلْ يَكُونُ ذِكْرُهُمَا وَاحِدًا ؟ ، أَمْ هَلْ يَكُونُ وَلَدَاكَ اللَّذَانِ هُمَا بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ، أَوْ عَبْدَاكَ، أَوْ زَوْجَتَاكَ، عِنْدَكَ سَوَاءً ؟.

وَتَأَمَّلْ مَا قَامَ بِقَلْبِ قَاتِلِ الْمِائَةِ مِنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ الَّتِي لَمْ تَشْغَلْهُ عِنْدَ السِّيَاقِ عَنِ السَّيْرِ إِلَىٰ الْقَرْيَةِ، وَحَمَلَتْهُ - وَهُوَ فِي تِلْكَ الْحَالِ - عَلَىٰ أَنْ جَعَلَ يَنُوءُ بِصَدْرِهِ، وَيُعَالِجُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، فَهَذَا أَمْرٌ آخَرُ، وَإِيمَانٌ

آخَرُ، وَلَا جَرَمَ أَنْ أُلْحِق بِالْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ، وَجُعِلَ مِنْ أَهْلِهَا.

وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا مَا قَامَ بِقَلْبِ الْبَغِيِّ الَّتِي رَأَتْ ذَلِكَ الْكَلْبَ - وَقَدِ اشْتَدَّ بِهِ الْعَطَشُ يَأْكُلُ الثَّرَىٰ - فَقَامَ بِقَلْبِهَا ذَلِكَ الْوَقْتَ - مَعَ عَدَمِ الْآلَةِ، وَعَدَمِ الْمُعِينِ وَعَدَمِ مَنْ تُرَائِيهِ بِعَمَلِهَا - مَا حَمَلَهَا عَلَىٰ أَنْ غَرَّرَتْ بِنَفْسِهَا فِي نُزُولِ الْبِئْرِ، وَمَلْءِ الْمَاءِ فِي خُفِّهَا، وَلَمْ تَعْبَأْ بِتَعَرُّضِهَا لِلتَّلَفِ، وَحَمْلِهَا خُفَّهَا بِفِيهَا، وَهُوَ مَلْآنُ، حَتَّىٰ أَمْكَنَهَا الرُّقِيُّ مِنَ الْبِئْرِ، ثُمَّ تَوَاضُعُهَا لِهَذَا الْمَخْلُوقِ الَّذِي جَرَتْ عَادَةُ النَّاسِ بِضَرْبِهِ، فَأَمْسَكَتْ لَهُ الْخُفَّ بِيَدِهَا حَتَّىٰ شَرِبَ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تَرْجُوَ مِنْهُ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا، فَأَحْرَقَتْ أَنْوَارُ هَذَا الْقَدْرِ مِنَ التَّوْحِيدِ مَا تَقَدَّمَ مِنْهَا مِنَ الْبِغَاءِ، فَغُفِرَ لَهَا.

فَهَكَذَا الْأَعْمَالُ وَالْعُمَّالُ عِنْدَ اللهِ، وَالْغَافِلُ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا الْإِكْسِيرِ الْكِيمَاوِيِّ، الَّذِي إِذَا وُضِعَ مِنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ عَلَىٰ قَنَاطِيرَ مِنْ نُحَاسِ الْأَعْمَالِ قَلَبَهَا ذَهَبًا، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

عُلُو المَنْزِلَةُ تُوجِبُ زِيَادَةَ الإِنْتِبَاهُ :

فَإِنْ قِيلَ: قَدْ ذَكَرْتُمْ أَنَّ الْمُحِبَّ يُسَامَحُ بِمَا لَا يُسَامَحُ بِهِ غَيْرُهُ، وَيُعْفَىٰ لِلْوَلِيِّ عَمَّا لَا يُعْفَىٰ لِسِوَاهُ، وَكَذَلِكَ الْعَالِمُ أَيْضًا، يُغْفَرُ لَهُ مَا لَا يُغْفَرُ لِلْجَاهِلِ، كَمَا رَوَىٰ الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ - مَرْفُوعًا إِلَىٰ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « **إِنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ - إِذَا جَمَعَ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي**

صَعِيد وَاحد، قَالَ للْعُلَمَاء: إِنِّي كُنْتُ أُعْبَدُ بفَتْوَاكُمْ، وَقَدْ عَلمْتُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْلطُونَ كَمَا يَخْلطُ النَّاسُ، وَإِنِّي لَمْ أَضَعْ عِلْمِي فِيكُمْ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُعَذِّبَكُمْ، اذْهَبُوا فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ »(١) ، هَذَا مَعْنَى الْحَدِيثِ، وَقَدْ رُوِيَ مُسْنَدًا وَمُرْسَلًا.

فَهَذَا الَّذِي ذَكَرْتُمْ صَحِيحٌ، وَهُوَ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ وَالْجُودِ وَالْإِحْسَانِ، وَلَكِنْ مَاذَا تَصْنَعُونَ بِالْعُقُوبَةِ الْمُضَاعَفَةِ الَّتِي وَرَدَ التَّهْدِيدُ بِهَا فِي حَقِّ أُولَئِكَ إِنْ وَقَعَ مِنْهُمْ مَا يُكْرَهُ ؟ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ [الأَحْزَاب: ٣٠] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [الإِسْرَاء: ٧٤-٧٥] ، أَيْ لَوْلَا تَثْبِيتُنَا لَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ بَعْضَ الشَّيْءِ ، وَلَوْ فَعَلْتَ لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ عَذَابِ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ عَذَابِ الْمَمَاتِ ، أَيْ ضَاعَفْنَا لَكَ الْعَذَابَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحَاقَّةُ : ٤٤-٤٦] ، أَيْ لَوْ أَتَى بِشَيْءٍ مِنْ عِنْد نَفْسه لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِيَمِينه، وَقَطَعْنَا نِيَاطَ قَلْبِه وَأَهْلَكْنَاهُ، وَقَدْ أَعَاذَهُ اللهُ مِنَ الرُّكُونِ إِلَى أَعْدَائِهِ بِذَرَّةٍ مِنْ قَلْبِهِ، وَمِنَ التَّقَوُّلِ عَلَيْهِ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الكَبِيرِ» (١٣٨١) .

سُبْحَانَهُ، وَكَمْ مِنْ رَاكِنٍ إِلَىٰ أَعْدَائِهِ وَمُتَقَوِّلٍ عَلَيْهِ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ قَدْ أَمْهَلَهُ وَلَمْ يَعْبَأْ بِهِ، كَأَرْبَابِ الْبِدَعِ كُلِّهِمْ، الْمُتَقَوِّلِينَ عَلَىٰ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَدِينِهِ.

وَمَا ذَكَرْتُمْ فِي قِصَّةِ يُونُسَ هُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُسَامَحْ بِغَضْبَةٍ، وَسُجِنَ لِأَجْلِهَا فِي بَطْنِ الْحُوتِ، وَيَكْفِي حَالُ أَبِي الْبَشَرِ حَيْثُ لَمْ يُسَامَحُ بِلُقْمَةٍ، وَكَانَتْ سَبَبَ إِخْرَاجِهِ مِنَ الْجَنَّةِ.

فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا أَيْضًا حَقٌّ، وَلَا تَنَافِيَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، فَإِنَّ مَنْ كَمُلَتْ عَلَيْهِ نِعْمَةُ اللهِ، وَاخْتَصَّهُ مِنْهَا بِمَا لَمْ يَخْتَصَّ بِهِ غَيْرَهُ فِي إِعْطَائِهِ مِنْهَا مَا حُرِمَهُ غَيْرُهُ، فَحُبِيَ بِالْإِنْعَامِ، وَخُصَّ بِالْإِكْرَامِ، وَخُصَّ بِمَزِيدِ التَّقْرِيبِ، وَجُعِلَ فِي مَنْزِلَةِ الْوَلِيِّ الْحَبِيبِ، اقْتَضَتْ حَالُهُ مِنْ حِفْظِ مَرْتَبَةِ الْوِلَايَةِ وَالْقُرْبِ وَالِاخْتِصَاصِ بِأَنْ يُرَاعِيَ مَرْتَبَتَهُ مِنْ أَدْنَىٰ مُشَوِّشٍ وَقَاطِعٍ، فَلِشِدَّةِ الِاعْتِنَاءِ بِهِ، وَمَزِيدِ تَقْرِيبِهِ، وَاتِّخَاذِهِ لِنَفْسِهِ، وَاصْطِفَائِهِ عَلَىٰ غَيْرِهِ، تَكُونُ حُقُوقُ وَلِيِّهِ وَسَيِّدِهِ عَلَيْهِ أَتَمَّ، وَنِعَمُهُ عَلَيْهِ أَكْمَلَ، وَالْمَطْلُوبُ مِنْهُ فَوْقَ الْمَطْلُوبِ مِنْ غَيْرِهِ، فَهُوَ إِذَا غَفَلَ وَأَخَلَّ بِمُقْتَضَىٰ مَرْتَبَتِهِ نُبِّهَ بِمَا لَمْ يُنَبَّهْ عَلَيْهِ الْبَعِيدُ الْبَرَّانِيُّ، مَعَ كَوْنِهِ يُسَامَحُ بِمَا لَمْ يُسَامَحْ بِهِ ذَلِكَ أَيْضًا، فَيَجْتَمِعُ فِي حَقِّهِ الْأَمْرَانِ.

وَإِذَا أَرَدْتَ مَعْرِفَةَ اجْتِمَاعِهِمَا، وَعَدَمِ تَنَاقُضِهِمَا، فَالْوَاقِعُ شَاهِدٌ بِهِ، فَإِنَّ الْمَلِكَ يُسَامِحُ خَاصَّتَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ بِمَا لَمْ يُسَامِحْ بِهِ مَنْ لَيْسَ فِي مَنْزِلَتِهِمْ،

وَيَأْخُذُهُمْ، وَيُؤَدِّبُهُمْ بِمَا لَمْ يَأْخُذْ بِهِ غَيْرَهُمْ، وَقَدْ ذَكَرْنَا شَوَاهِدَ هَذَا وَهَذَا، وَلَا تَنَاقُضَ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ.

وَأَنْتَ إِذَا كَانَ لَكَ عَبْدَانِ، أَوْ وَلَدَانِ، أَوْ زَوْجَتَانِ، أَحَدُهُمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنَ الْآخَرِ، وَأَقْرَبُ إِلَىٰ قَلْبِكَ، وَأَعَزُّ عَلَيْكَ عَامَلْتَهُ بِهَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ، وَاجْتَمَعَ فِي حَقِّهِ الْمُعَامَلَتَانِ بِحَسَبِ قُرْبِهِ مِنْكَ، وَحُبِّكَ لَهُ، وَعِزَّتِهِ عَلَيْكَ، فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَىٰ كَمَالِ إِحْسَانِكَ إِلَيْهِ، وَإِتْمَامِ نِعْمَتِكَ عَلَيْهِ اقْتَضَتْ مُعَامَلَتُهُ بِمَا لَا تُعَامِلُ بِهِ مَنْ دُونَهُ، مِنَ التَّنْبِيهِ وَعَدَمِ الْإِهْمَالِ، وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَىٰ إِحْسَانِهِ وَمَحَبَّتِهِ لَكَ، وَطَاعَتِهِ وَخِدْمَتِهِ، وَكَمَالِ عُبُودِيَّتِهِ وَنُصْحِهِ وَهَبْتَ لَهُ وَسَامَحْتَهُ، وَعَفَوْتَ عَنْهُ، بِمَا لَا تَفْعَلُهُ مَعَ غَيْرِهِ، فَالْمُعَامَلَتَانِ بِحَسَبِ مَا مِنْكَ وَمَا مِنْهُ.

وَقَدْ ظَهَرَ اعْتِبَارُ هَذَا الْمَعْنَىٰ فِي الشَّرْعِ، حَيْثُ جَعَلَ حَدَّ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالتَّزَوُّجِ إِذَا تَعَدَّاهُ إِلَىٰ الزِّنَا الرَّجْمَ، وَحَدَّ مَنْ لَمْ يُعْطِهِ هَذِهِ النِّعْمَةَ الْجَلْدَ، وَكَذَلِكَ ضَاعَفَ الْحَدَّ عَلَىٰ الْحُرِّ الَّذِي قَدْ مَلَّكَهُ نَفْسَهُ، وَأَتَمَّ عَلَيْهِ نِعْمَتَهُ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مَمْلُوكًا لِغَيْرِهِ، وَجَعَلَ حَدَّ الْعَبْدِ الْمَنْقُوصِ بِالرِّقِّ، الَّذِي لَمْ يَحْصُلْ لَهُ هَذِهِ النِّعْمَةُ نِصْفَ ذَلِكَ.

فَسُبْحَانَ مَنْ بَهَرَتْ حِكْمَتُهُ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ وَجَزَائِهِ عُقُولَ الْعَالَمِينَ، وَشَهِدَتْ بِأَنَّهُ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ.

لِلَّهِ سِرٌّ تَحْتَ كُلِّ لَطِيفَةٍ فَأَخُو الْبَصَائِرِ غَائِصٌ يَتَمَلَّقُ

فِي أَجْنَاسِ مَا يُتَابُ مِنْهُ :

وَلَا يَسْتَحِقُّ الْعَبْدُ اسْمَ التَّائِبِ حَتَّىٰ يَتَخَلَّصَ مِنْهَا.

وَهِيَ اثْنَا عَشَرَ جِنسًا مَذْكُورَةٌ فِي كِتَابِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، هِيَ أَجْنَاسُ الْمُحَرَّمَاتِ: الْكُفْرُ، وَالشِّرْكُ، وَالنِّفَاقُ، وَالْفُسُوقُ، وَالْعِصْيَانُ، وَالْإِثْمُ، وَالْعُدْوَانُ، وَالْفَحْشَاءُ، وَالْمُنْكَرُ، وَالْبَغْيُ، وَالْقَوْلُ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ، وَاتِّبَاعُ غَيْرِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ.

فَهَذِهِ الِاثْنَا عَشَرَ جِنْسًا عَلَيْهَا مَدَارُ كُلِّ مَا حَرَّمَ اللهُ، وَإِلَيْهَا انْتِهَاءُ الْعَالَمِ بِأَسْرِهِمْ إِلَّا أَتْبَاعَ الرُّسُلِ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ يَكُونُ فِي الرَّجُلِ أَكْثَرُهَا وَأَقَلُّهَا، أَوْ وَاحِدَةٌ مِنْهَا، وَقَدْ يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَقَدْ لَا يَعْلَمُ.

فَالتَّوْبَةُ النَّصُوحُ هِيَ بِالتَّخَلُّصِ مِنْهَا، وَالتَّحَصُّنِ وَالتَّحَرُّزِ مِنْ مُوَاقَعَتِهَا، وَإِنَّمَا يُمْكِنُ التَّخَلُّصُ مِنْهَا لِمَنْ عَرَفَهَا.

وَنَحْنُ نَذْكُرُهَا، وَنَذْكُرُ مَا اجْتَمَعَتْ فِيهِ وَمَا افْتَرَقَتْ، لِتَتَبَيَّنَ حُدُودَهَا وَحَقَائِقَهَا، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ لِمَا وَرَاءَ ذَلِكَ، كَمَا وَفَّقَ لَهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

وَهَذَا الْفَصْلُ مِنْ أَنْفَعِ فُصُولِ الْكِتَابِ، وَالْعَبْدُ أَحْوَجُ شَيْءٍ إِلَيْهِ.

الْكُفْرُ :

فَأَمَّا الْكُفْرُ فَنَوْعَانِ: كُفْرٌ أَكْبَرُ، وَكُفْرٌ أَصْغَرُ.

فَالْكَفْرُ الْأَكْبَرُ هُوَ الْمُوجِبُ لِلْخُلُودِ فِي النَّارِ.

وَالْأَصْغَرُ مُوجِبٌ لِاسْتِحْقَاقِ الْوَعِيدِ دُونَ الْخُلُودِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ - وَكَانَ مِمَّا يُتْلَىٰ فَنُسِخَ لَفْظُهُ - « **لَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ ، فَإِنَّهُ كُفْرٌ بِكُمْ** » [١] ،وَقَوْلِهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الْحَدِيثِ : « **اثْنَتَانِ فِي أُمَّتِي، هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ** » [٢] ، وَقَوْلُهُ فِي السُّنَنِ : «**مَنْ أَتَىٰ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ** » [٣] ، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ «**مَنْ أَتَىٰ كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ** » [٤] ، وَقَوْلِهِ: «**لَا تَرْجِعُوا بِعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ** » [٥].

---

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٧٦٨) ، وَمُسْلِمٌ (٦٢) .

(٢) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٦٧) ، والتِّرْمذِيّ (١٠٠١) .

(٣) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ (١٣٥) ، وابْنُ مَاجَهْ (٦٣٩) ، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيح سُنن وابْنُ مَاجَهْ » (٥٢٢) .

(٤) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ أَحْمَدُ (٢/ ٤٠٨) ، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيْحِ الجَامع » (٥٩٣٩) .

(٥) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (١٧٤١) ، وَمُسْلِمٌ (٦٦) .

وَهَذَا تَأْوِيلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَامَّةِ الصَّحَابَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المَائِدَةُ: ٤٤]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - : لَيْسَ بِكُفْرٍ يَنْقُلُ عَنِ الْمِلَّةِ، بَلْ إِذَا فَعَلَهُ فَهُوَ بِهِ كُفْرٌ، وَلَيْسَ كَمَنْ كَفَرَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَكَذَلِكَ قَالَ طَاوُسٌ، وَقَالَ عَطَاءٌ: هُوَ كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ، وَظُلْمٌ دُونَ ظُلْمٍ، وَفِسْقٌ دُونَ فِسْقٍ.

وَمِنْهُمْ : مَنْ تَأَوَّلَ الْآيَةَ عَلَىٰ تَرْكِ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ جَاحِدًا لَهُ، وَهُوَ قَوْلُ عِكْرِمَةَ، وَهُوَ تَأْوِيلٌ مَرْجُوحٌ، فَإِنَّ نَفْسَ جُحُودِهِ كُفْرٌ، سَوَاءٌ حَكَمَ أَوْ لَمْ يَحْكُمْ.

وَمِنْهُمْ : مَنْ تَأَوَّلَهَا عَلَىٰ تَرْكِ الْحُكْمِ بِجَمِيعِ مَا أَنْزَلَ اللهُ، قَالَ: وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْحُكْمُ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِسْلَامِ، وَهَذَا تَأْوِيلُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْكِنَانِيِّ، وَهُوَ أَيْضًا بَعِيدٌ، إِذِ الْوَعِيدُ عَلَىٰ نَفْيِ الْحُكْمِ بِالْمُنَزَّلِ، وَهُوَ يَتَنَاوَلُ تَعْطِيلَ الْحُكْمِ بِجَمِيعِهِ وَبِبَعْضِهِ.

وَمِنْهُمْ : مَنْ تَأَوَّلَهَا عَلَىٰ الْحُكْمِ بِمُخَالَفَةِ النَّصِّ، تَعَمُّدًا مِنْ غَيْرِ جَهْلٍ بِهِ وَلَا خَطَأٍ فِي التَّأْوِيلِ، حَكَاهُ الْبَغَوِيُّ عَنِ الْعُلَمَاءِ عُمُومًا.

وَمِنْهُمْ : مَنْ تَأَوَّلَهَا عَلَىٰ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ، وَالضَّحَّاكِ وَغَيْرِهِمَا، وَهُوَ بَعِيدٌ، وَهُوَ خِلَافُ ظَاهِرِ اللَّفْظِ، فَلَا يُصَارُ إِلَيْهِ.

وَمِنْهُمْ : مَنْ جَعَلَهُ كُفْرًا يَنْقُلُ عَنِ الْمِلَّةِ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْحُكْمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ يَتَنَاوَلُ الْكُفْرَيْنِ، الأَصْغَرَ وَالأَكْبَرَ بِحَسَبِ حَالِ الْحَاكِمِ، فَإِنَّهُ إِنِ اعْتَقَدَ وُجُوبَ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ، وَعَدَلَ عَنْهُ عِصْيَانًا، مَعَ اعْتِرَافِهِ بِأَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِلْعُقُوبَةِ، فَهَذَا كُفْرٌ أَصْغَرُ، وَإِنِ اعْتَقَدَ أَنَّهُ غَيْرُ وَاجِبٍ، وَأَنَّهُ مُخَيَّرٌ فِيهِ، مَعَ تَيَقُّنِهِ أَنَّهُ حُكْمُ اللهِ، فَهَذَا كُفْرٌ أَكْبَرُ، وَإِنْ جَهِلَهُ وَأَخْطَأَهُ فَهَذَا مُخْطِئٌ، لَهُ حُكْمُ الْمُخْطِئِينَ.

وَالْقَصْدُ أَنَّ الْمَعَاصِيَ كُلَّهَا مِنْ نَوْعِ الْكُفْرِ الأَصْغَرِ، فَإِنَّهَا ضِدُّ الشُّكْرِ، الَّذِي هُوَ الْعَمَلُ بِالطَّاعَةِ، فَالسَّعْيُ إِمَّا شُكْرٌ، وَإِمَّا كُفْرٌ، وَإِمَّا ثَالِثٌ، لَا مِنْ هَذَا وَلَا مِنْ هَذَا، وَاللهُ أَعْلَمُ.

الْكُفْرُ الأَكْبَرُ :

وَأَمَّا الْكُفْرُ الأَكْبَرُ، فَخَمْسَةُ أَنْوَاعٍ: كُفْرُ تَكْذِيبٍ، وَكُفْرُ اسْتِكْبَارٍ وَإِبَاءٍ مَعَ التَّصْدِيقِ، وَكُفْرُ إِعْرَاضٍ، وَكُفْرُ شَكٍّ، وَكُفْرُ نِفَاقٍ.

فَأَمَّا كُفْرُ التَّكْذِيبِ : فَهُوَ اعْتِقَادُ كَذِبِ الرُّسُلِ، وَهَذَا الْقِسْمُ قَلِيلٌ فِي الْكُفَّارِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَيَّدَ رُسُلَهُ، وَأَعْطَاهُمْ مِنَ الْبَرَاهِينِ وَالآيَاتِ عَلَى صِدْقِهِمْ مَا أَقَامَ بِهِ الْحُجَّةَ، وَأَزَالَ بِهِ الْمَعْذِرَةَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النَّمل:١٤]، وَقَالَ لِرَسُولِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ

ﱡٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣ﱠ [الأَنْعام:٣٣] .

وَإِنَّ سُمِّيَ هَذَا كُفرَ تَكْذِيبٍ أَيْضًا فَصَحِيحٌ، إِذْ هُوَ تَكْذِيبٌ بِاللِّسَانِ.

وَأَمَّا كُفْرُ الْإِبَاءِ وَالِاسْتِكْبَارِ: فَنَحْوُ كُفْـرِ إِبْلِيسَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَجْحَدْ أَمْرَ اللهِ وَلَا قَابَلَهُ بِالْإِنْكَارِ، وَإِنَّمَا تَلَقَّاهُ بِالْإِبَـاءِ وَالاسْتِكْبَـارِ، وَمِنْ هَذَا كُفْرُ مَنْ عَرَفَ صِدْقَ الرَّسُولِ، وَأَنَّهُ جَـاءَ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَلَمْ يَنْقَدْ لَهُ إِبَاءً وَاسْتِكْبَارًا ، وَهُوَ الْغَالِبُ عَلَىٰ كُفْرِ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ، كَمَا حَكَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﱡ**فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ** ٤٧ﱠ [المُؤْمِنُون:٤٧] ، وَقَوْلِ الْأُمَمِ لِرُسُلِهِمْ : ﱡ**إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا**ﱠ [إِبْرَاهِيمُ :١٠] ،وَقَوْلِهِ: ﱡ**كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ** ١١ﱠ [الشَّمْسُ: ١١] ، وَهُوَ كُفْرُ الْيَهُودِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ ﱡ **فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ** ﱠ [البَقَرَةُ:٨٩] ، وَقَالَ ﱡ **يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ** ﱠ [البَقَرَةُ: ١٤٦]، وَهُوَ كُفْرُ أَبِي طَالِبٍ أَيْضًا، فَإِنَّهُ صَدَّقَهُ وَلَمْ يَشُكَّ فِي صِدْقِهِ، وَلَكِنْ أَخَذَتْهُ الْحَمِيَّةُ، وَتَعْظِيمُ آبَائِهِ أَنْ يَرْغَبَ عَنْ مِلَّتِهِمْ، وَيَشْهَدَ عَلَيْهِمْ بِالْكُفْرِ.

وَأَمَّا كُفْرُ الْإِعْرَاضِ : فَأَنْ يُعْرِضَ بِسَمْعِهِ وَقَلْبِهِ عَنِ الرَّسُولِ، لَا يُصَدِّقُهُ وَلَا يُكَذِّبُهُ، وَلَا يُوَالِيهِ وَلَا يُعَادِيهِ، وَلَا يُصْغِي إِلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ

الْبَتَّةَ، كَمَا قَالَ أَحَدُ بَنِي عَبْدِ يَا لِيلَ لِلنَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «وَاللهِ أَقُولُ لَكَ كَلِمَةً، إِنْ كُنْتَ صَادِقًا، فَأَنْتَ أَجَلُّ فِي عَيْنِي مِنْ أَنْ أَرُدَّ عَلَيْكَ، وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا، فَأَنْتَ أَحْقَرُ مِنْ أَنْ أُكَلِّمَكَ» .

وَأَمَّا كُفْرُ الشَّكِّ : فَإِنَّهُ لَا يَجْزِمُ بِصِدْقِهِ وَلَا يُكَذِّبُهُ، بَلْ يَشُكُّ فِي أَمْرِهِ، وَهَذَا لَا يَسْتَمِرُّ شَكُّهُ إِلَّا إِذَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ الْإِعْرَاضَ عَنِ النَّظَرِ فِي آيَاتِ صِدْقِ الرَّسُولِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جُمْلَةً، فَلَا يَسْمَعُهَا وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، وَأَمَّا مَعَ الْتِفَاتِهِ إِلَيْهَا، وَنَظَرِهِ فِيهَا فَإِنَّهُ لَا يَبْقَىٰ مَعَهُ شَكٌّ، لِأَنَّهَا مُسْتَلْزِمَةٌ لِلصِّدْقِ، وَلَا سِيَّمَا بِمَجْمُوعِهَا، فَإِنَّ دَلَالَتَهَا عَلَىٰ الصِّدْقِ كَدَلَالَةِ الشَّمْسِ عَلَىٰ النَّهَارِ.

وَأَمَّا كُفْرُ النِّفَاقِ : فَهُوَ أَنْ يُظْهِرَ بِلِسَانِهِ الْإِيمَانَ، وَيَنْطَوِيَ بِقَلْبِهِ عَلَىٰ التَّكْذِيبِ، فَهَذَا هُوَ النِّفَاقُ الْأَكْبَرُ، وَسَيَأْتِي بَيَانُ أَقْسَامِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ.

كُفْرُ الجُحُودِ :

وَكُفْرُ الْجُحُودِ نَوْعَانِ: كُفْرٌ مُطْلَقٌ عَامٌّ، وَكُفْرٌ مُقَيَّدٌ خَاصٌّ.

فَالْمُطْلَقُ: أَنْ يَجْحَدَ جُمْلَةَ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ، وَإِرْسَالَهُ الرَّسُولَ.

وَالْخَاصُّ الْمُقَيَّدُ أَنْ يَجْحَدَ فَرْضًا مِنْ فُرُوضِ الْإِسْلَامِ، أَوْ تَحْرِيمَ مُحَرَّمٍ

مِنْ مُحَرَّمَاتِه، أَوْ صِفَةٍ وَصَفَ اللهُ بِهَا نَفْسَهُ، أَوْ خَبَرًا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ، عَمْدًا، أَوْ تَقْدِيمًا لِقَوْلِ مَنْ خَالَفَهُ عَلَيْهِ لِغَرَضٍ مِنَ الْأَغْرَاضِ.

وَأَمَّا جَحْدُ ذَلِكَ جَهْلًا، أَوْ تَأْوِيلًا يُعْذَرُ فِيهِ صَاحِبُهُ فَلَا يُكَفَّرُ صَاحِبُهُ بِهِ، كَحَدِيثِ الَّذِي جَحَدَ قُدْرَةَ اللهِ عَلَيْهِ وَأَمَرَ أَهْلَهُ أَنْ يُحَرِّقُوهُ وَيَذْرُوهُ فِي الرِّيحِ، وَمَعَ هَذَا « **فَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَهُ، وَرَحِمَهُ لِجَهْلِهِ**» [1] ، إِذْ كَانَ ذَلِكَ الَّذِي فَعَلَهُ مَبْلَغَ عِلْمِهِ، وَلَمْ يَجْحَدْ قُدْرَةَ اللهِ عَلَى إِعَادَتِهِ عِنَادًا أَوْ تَكْذِيبًا.

الشِّرْكُ :

وَأَمَّا الشِّرْكُ، فَهُوَ نَوْعَانِ: أَكْبَرُ وَأَصْغَرُ، فَالْأَكْبَرُ لَا يَغْفِرُهُ اللهُ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنْهُ، وَهُوَ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا، يُحِبُّهُ كَمَا يُحِبُّ اللهَ، وَهُوَ الشِّرْكُ الَّذِي تَضَمَّنَ تَسْوِيَةَ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلِهَذَا قَالُوا لِآلِهَتِهِمْ فِي النَّارِ ﴿ **تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾** ﴾ [الشُّعَرَاءُ : ٩٧-٩٨] ، مَعَ إِقْرَارِهِمْ بِأَنَّ اللهَ وَحْدَهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ، وَأَنَّ آلِهَتَهُمْ لَا تَخْلُقُ وَلَا تَرْزُقُ، وَلَا تُحْيِي وَلَا تُمِيتُ، وَإِنَّمَا كَانَتْ هَذِهِ التَّسْوِيَةُ فِي الْمَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ وَالْعِبَادَةِ كَمَا هُوَ حَالُ أَكْثَرِ مُشْرِكِي الْعَالَمِ، بَلْ كُلُّهُمْ يُحِبُّونَ مَعْبُودَاتِهِمْ وَيُعَظِّمُونَهَا وَيُوَالُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ - بَلْ أَكْثَرُهُمْ - يُحِبُّونَ آلِهَتَهُمْ

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٤٨١) ، وَمُسْلِمٌ (٢٧٥٧) .

أَعْظَمَ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِذِكْرِهِمْ أَعْظَمَ مِنِ اسْتِبْشَارِهِمْ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ، وَيَغْضَبُونَ لِمُنْتَقِصِ مَعْبُودِيهِمْ وَآلِهَتِهِمْ - مِنَ الْمَشَايِخِ - أَعْظَمَ مِمَّا يَغْضَبُونَ إِذَا انْتَقَصَ أَحَدٌ رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَإِذَا انْتُهِكَتْ حُرْمَةٌ مِنْ حُرُمَاتِ آلِهَتِهِمْ وَمَعْبُودَاتِهِمْ غَضِبُوا غَضَبَ اللَّيْثِ إِذَا حَرِدَ، وَإِذَا انْتُهِكَتْ حُرُمَاتُ اللهِ لَمْ يَغْضَبُوا لَهَا، بَلْ إِذَا قَامَ الْمُنْتَهِكُ لَهَا بِإِطْعَامِهِمْ شَيْئًا رَضُوا عَنْهُ، وَلَمْ تَتَنَكَّرْ لَهُ قُلُوبُهُمْ، وَقَدْ شَاهَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَغَيْرُنَا مِنْهُمْ جَهْرَةً، وَتَرَىٰ أَحَدَهُمْ قَدِ اتَّخَذَ ذِكْرَ إِلَهِهِ وَمَعْبُودِهِ مِنْ دُونِ اللهِ عَلَىٰ لِسَانِهِ دَيْدَنًا لَهُ إِنْ قَامَ وَإِنْ قَعَدَ، وَإِنْ عَثَرَ وَإِنْ مَرِضَ وَإِنِ اسْتَوْحَشَ، فَذِكْرُ إِلَهِهِ وَمَعْبُودِهِ مِنْ دُونِ اللهِ هُوَ الْغَالِبُ عَلَىٰ قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ، وَهُوَ لَا يُنْكِرُ ذَلِكَ ، وَيَزْعُمُ أَنَّهُ بَابُ حَاجَتِهِ إِلَىٰ اللهِ، وَشَفِيعُهُ عِنْدَهُ، وَوَسِيلَتُهُ إِلَيْهِ.

وَهَكَذَا كَانَ عُبَّادُ الْأَصْنَامِ سَوَاءً، وَهَذَا الْقَدْرُ هُوَ الَّذِي قَامَ بِقُلُوبِهِمْ، وَتَوَارَثَهُ الْمُشْرِكُونَ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ آلِهَتِهِمْ، فَأُولَئِكَ كَانَتْ آلِهَتُهُمْ مِنَ الْحَجَرِ وَغَيْرُهُمُ اتَّخَذُوهَا مِنَ الْبَشَرِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى، حَاكِيًا عَنْ أَسْلَافِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ﴾ [الزُّمَر: ٣]، ثُمَّ شَهِدَ عَلَيْهِمْ بِالْكُفْرِ وَالْكَذِبِ، وَأَخْبَرَ

أَنَّهُ لَا يَهْدِيهِمْ فقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزُّمُر: ٣].

فَهَذِه حَالُ مَن اتَّخَذَ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا، يَزْعُمُ أَنَّهُ يُقَرِّبُهُ إِلَىٰ اللهِ، وَمَا أَعَزَّ مَنْ يَخْلُصُ مِنْ هَذَا؟ بَلْ مَا أَعَزَّ مَنْ لَا يُعَادِي مَنْ أَنْكَرَهُ!.

وَالَّذِي فِي قُلُوبِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَسَلَفِهِمْ أَنَّ آلِهَتَهُمْ تَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ، وَهَذَا عَيْنُ الشِّرْكِ، وَقَدْ أَنْكَرَ اللهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ وَأَبْطَلَهُ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّهَا لَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ اللهُ أَنْ يَشْفَعَ فِيهِ، وَرَضِيَ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ، وَهُمْ أَهْلُ التَّوْحِيدِ، الَّذِينَ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَأْذَنُ لِمَنْ شَاءَ فِي الشَّفَاعَةِ لَهُمْ، حَيْثُ لَمْ يَتَّخِذْهُمْ شُفَعَاءَ مِنْ دُونِهِ، فَيَكُونُ أَسْعَدَ النَّاسِ بِشَفَاعَةِ مَنْ يَأْذَنُ اللهُ لَهُ صَاحِبُ التَّوْحِيدِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ شَفِيعًا مِنْ دُونِ اللهِ رَبِّهِ وَمَوْلَاهُ.

وَالشَّفَاعَةُ الَّتِي أَثْبَتَهَا اللهُ وَرَسُولُهُ هِيَ الشَّفَاعَةُ الصَّادِرَةُ عَنْ إِذْنِهِ لِمَنْ وَحَّدَهُ، وَالَّتِي نَفَاهَا اللهُ هِيَ الشَّفَاعَةُ الشِّرْكِيَّةُ، الَّتِي فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ، الْمُتَّخِذِينَ مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ، فَيُعَامَلُونَ بِنَقِيضِ قَصْدِهِمْ مِنْ شُفَعَائِهِمْ، وَيَفُوزُ بِهَا الْمُوَحِّدُونَ.

وَتَأَمَّلْ قَوْلَ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِأَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وَقَدْ سَأَلَهُ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ - قَالَ:

«أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ» (١)، كَيْفَ جَعَلَ أَعْظَمَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُنَالُ بِهَا شَفَاعَتُهُ تَجْرِيدَ التَّوْحِيدِ، عَكْسَ مَا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ تُنَالُ بِاتِّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَهُمْ شُفَعَاءَ، وَعِبَادَتِهِمْ وَمُوَالَاتِهِمْ مِنْ دُونِ اللهِ، فَقَلَبَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَا فِي زَعْمِهِمُ الْكَاذِبِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ سَبَبَ الشَّفَاعَةِ هُوَ تَجْرِيدُ التَّوْحِيدِ، فَحِينَئِذٍ يَأْذَنُ اللهُ لِلشَّافِعِ أَنْ يُشَفَّعَ.

المُشْرِكُ :

وَمِنْ جَهْلِ الْمُشْرِكِ اعْتِقَادُهُ أَنَّ مَنِ اتَّخَذَهُ وَلِيًّا أَوْ شَفِيعًا أَنَّهُ يَشْفَعُ لَهُ، وَيَنْفَعُهُ عِنْدَ اللهِ، كَمَا يَكُونُ خَوَاصُّ الْمُلُوكِ وَالْوُلَاةِ تَنْفَعُ شَفَاعَتُهُمْ مَنْ وَالَاهُمْ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا يَأْذَنُ فِي الشَّفَاعَةِ إِلَّا لِمَنْ رَضِيَ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البَقَرَةُ:٢٥٥] ، وَفِي الْفَصْلِ الثَّانِي : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأَنْبِيَاء :٢٨]، وَبَقِيَ فَصْلٌ ثَالِثٌ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ إِلَّا التَّوْحِيدَ، وَاتِّبَاعَ الرَّسُولِ، وَعَنْ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ يَسْأَلُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، كَمَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: كَلِمَتَانِ يُسْأَلُ عَنْهُمَا الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ: مَاذَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ؟ وَمَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ؟.

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٩٩) .

فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أُصُولٍ، تَقْطَعُ شَجَرَةَ الشِّرْكِ مِنْ قَلْبِ مَنْ وَعَاهَا وَعَقَلَهَا لَا شَفَاعَةَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا يَأْذَنُ إِلَّا لِمَنْ رَضِيَ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ، وَلَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ إِلَّا تَوْحِيدَهُ، وَاتِّبَاعَ رَسُولِهِ، فَاللهُ تَعَالَىٰ لَا يَغْفِرُ شِرْكَ الْعَادِلِينَ بِهِ غَيْرَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأَنْعَام: ١] ، وَأَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ أَنَّهُمْ يَعْدِلُونَ بِهِ غَيْرَهُ فِي الْعِبَادَةِ وَالْمُوَالَاةِ وَالْمَحَبَّةِ، كَمَا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الشُّعَرَاءُ: ٩٧-٩٨] ، وَكَمَا فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البَقَرَةُ: ١٦٥].

وَتَرَىٰ الْمُشْرِكَ يُكَذِّبُ حَالَهُ وَعَمَلَهُ قَوْلُهُ، فَإِنَّهُ يَقُولُ: لَا نُحِبُّهُمْ كَحُبِّ اللهِ، وَلَا نُسَوِّيهِمْ بِاللهِ، ثُمَّ يَغْضَبُ لَهُمْ وَلِحُرُمَاتِهِمْ - إِذَا انْتُهِكَتْ - أَعْظَمَ مِمَّا يَغْضَبُ لِلَّهِ، وَيَسْتَبْشِرُ بِذِكْرِهِمْ، وَيَتَبَشْبَشُ بِهِ، سِيَّمَا إِذَا ذُكِرَ عَنْهُمْ مَا لَيْسَ فِيهِمْ مِنْ إِغَاثَةِ اللَّهَفَاتِ، وَكَشْفِ الْكُرُبَاتِ، وَقَضَاءِ الْحَاجَاتِ، وَأَنَّهُمُ الْبَابُ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، فَإِنَّكَ تَرَىٰ الْمُشْرِكَ يَفْرَحُ وَيُسَرُّ وَيَحِنُّ قَلْبُهُ، وَتَهِيجُ مِنْهُ لَوَاعِجُ التَّعْظِيمِ وَالْخُضُوعِ لَهُمْ وَالْمُوَالَاةِ، وَإِذَا ذَكَرْتَ لَهُ اللهَ وَحْدَهُ، وَجَرَّدْتَ تَوْحِيدَهُ لَحِقَتْهُ وَحْشَةٌ، وَضِيقٌ، وَحَرَجٌ وَرَمَاكَ بِنَقْصِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي لَهُ، وَرُبَّمَا عَادَاكَ.

رَأَيْنَا وَاللهِ مِنْهُمْ هَذَا عِيَانًا، وَرَمَوْنَا بِعَدَاوَتِهِمْ، وَبَغَوْا لَنَا الْغَوَائِلَ، وَاللهُ مُخْزِيهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَمْ تَكُنْ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا، كَمَا قَالَ إِخْوَانُهُمْ: عَابَ آلِهَتَنَا، فَقَالَ هَؤُلَاءِ: تَنَقَّصْتُمْ مَشَايِخَنَا، وَأَبْوَابَ حَوَائِجِنَا إِلَى اللهِ، وَهَكَذَا قَالَ النَّصَارَى لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، لَمَّا قَالَ لَهُمْ: «**إِنَّ الْمَسِيحَ عَبْدُ اللهِ**»، قَالُوا: تَنَقَّصْتَ الْمَسِيحَ وَعِبْتَهُ، وَهَكَذَا قَالَ أَشْبَاهُ الْمُشْرِكِينَ لِمَنْ مَنَعَ اتِّخَاذَ الْقُبُورِ أَوْثَانًا تُعْبَدُ، وَمَسَاجِدَ تُقْصَدُ، وَأَمَرَ بِزِيَارَتِهَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَذِنَ اللهُ فِيهِ وَرَسُولُهُ، قَالُوا: تَنَقَّصْتَ أَصْحَابَهَا.

الشِّرْكُ الأَصْغَرُ:

وَأَمَّا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ فَكَيَسِيرِ الرِّيَاءِ، وَالتَّصَنُّعِ لِلْخَلْقِ، وَالْحَلِفِ بِغَيْرِ اللهِ، كَمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ**»[1]، وَقَوْلِ الرَّجُلِ لِلرَّجُلِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَهَذَا مِنَ اللهِ وَمِنْكَ، وَإِنَّا بِاللهِ وَبِكَ، وَمَا لِي إِلَّا اللهُ وَأَنْتَ، وَأَنَا مُتَوَكِّلٌ عَلَى اللهِ وَعَلَيْكَ، وَلَوْلَا أَنْتَ لَمْ يَكُنْ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا شِرْكًا أَكْبَرَ، بِحَسَبِ قَائِلِهِ وَمَقْصِدِهِ، وَصَحَّ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ لِرَجُلٍ قَالَ لَهُ: مَا شَاءَ اللهُ وَمَا شِئْتَ: «**أَجَعَلْتَنِي**

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ (١٥٣٥)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيّ» (١٢٤١).

لِلَّهِ نِدًّا ؟ **قُلْ : مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ** »[١] ، وَهَذَا اللَّفْظُ أَخَفُّ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الأَلْفَاظِ .

وَمِنْ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ: سُجُودُ الْمُرِيدِ لِلشَّيْخِ ، فَإِنَّهُ شِرْكٌ مِنَ السَّاجِدِ وَالْمَسْجُودِ لَهُ ، وَالْعَجَبُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : لَيْسَ هَذَا بِسُجُودٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ وَضْعُ الرَّأْسِ قُدَّامَ الشَّيْخِ احْتِرَامًا وَتَوَاضُعًا ، فَيُقَالُ لِهَؤُلَاءِ : وَلَوْ سَمَّيْتُمُوهُ مَا سَمَّيْتُمُوهُ ، فَحَقِيقَةُ السُّجُودِ وَضْعُ الرَّأْسِ لِمَنْ يُسْجَدُ لَهُ ، وَكَذَلِكَ السُّجُودُ لِلصَّنَمِ ، وَلِلشَّمْسِ ، وَلِلنَّجْمِ ، وَلِلْحَجَرِ ، كُلُّهُ وَضْعُ الرَّأْسِ قُدَّامَهُ .

وَمِنْ أَنْوَاعِهِ : رُكُوعُ الْمُتَعَمِّمِينَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ عِنْدَ الْمُلَاقَاةِ ، وَهَذَا سُجُودٌ فِي اللُّغَةِ ، وَبِهِ فُسِّرَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ ﴿ **وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا** ﴾ [البَقَرَة:٥٨] ، أَيْ مُنْحَنِينَ، وَإِلَّا فَلَا يُمْكِنُ الدُّخُولُ بِالْجَبْهَةِ عَلَىٰ الأَرْضِ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْعَرَبِ : سَجَدَتِ الأَشْجَارُ ، إِذَا أَمَالَتْهَا الرِّيحُ .

وَمِنْ أَنْوَاعِهِ حَلْقُ الرَّأْسِ لِلشَّيْخِ ، فَإِنَّهُ تَعَبُّدٌ لِغَيْرِ اللهِ ، وَلَا يُتَعَبَّدُ بِحَلْقِ الرَّأْسِ إِلَّا فِي النُّسُكِ لِلَّهِ خَاصَّةً .

وَمِنْ أَنْوَاعِهِ التَّوْبَةُ لِلشَّيْخِ ، فَإِنَّهَا شِرْكٌ عَظِيمٌ ، فَإِنَّ التَّوْبَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ ، كَالصَّلَاةِ ، وَالصِّيَامِ ، وَالْحَجِّ ، وَالنُّسُكِ ، فَهِيَ خَالِصُ حَقِّ اللهِ .

---

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي الأَدَبِ المُفْرَدِ (٧٨٧) ، صَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «السِّلْسِلَة الصَّحِيْحَة » (١٣٩).

وَفِي الْمُسْنَدِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أُتِيَ بِأَسِيرٍ ، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ ، وَلَا أَتُوبُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «**عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ**»[1] .

فَالتَّوْبَةُ عِبَادَةٌ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِلَّهِ ، كَالسُّجُودِ وَالصِّيَامِ .

وَمِنْ أَنْوَاعِهِ : النَّذْرُ لِغَيْرِ اللهِ ، فَإِنَّهُ شِرْكٌ ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْحَلِفِ بِغَيْرِ اللهِ ، فَإِذَا كَانَ مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ ، فَكَيْفَ بِمَنْ نَذَرَ لِغَيْرِ اللهِ ؟، مَعَ أَنَّ فِي السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنْهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- «**النَّذْرُ حَلْفَةٌ**»[2] .

وَمِنْ أَنْوَاعِهِ : الْخَوْفُ مِنْ غَيْرِ اللهِ ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَىٰ غَيْرِ اللهِ ، وَالْعَمَلُ لِغَيْرِ اللهِ ، وَالْإِنَابَةُ وَالْخُضُوعُ ، وَالذُّلُّ لِغَيْرِ اللهِ ، وَابْتِغَاءُ الرِّزْقِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِ ، وَحَمْدُ غَيْرِهِ عَلَىٰ مَا أَعْطَىٰ ، وَالْغُنْيَةُ بِذَلِكَ عَنْ حَمْدِهِ سُبْحَانَهُ ، وَالذَّمُّ وَالسَّخَطُ عَلَىٰ مَا لَمْ يَقْسِمْهُ ، وَلَمْ يَجْرِ بِهِ الْقَدَرُ ، وَإِضَافَةُ نِعَمِهِ إِلَىٰ غَيْرِهِ ، وَاعْتِقَادُ أَنْ يَكُونَ فِي الْكَوْنِ مَا لَا يَشَاؤُهُ .

وَمِنْ أَنْوَاعِهِ: طَلَبُ الْحَوَائِجِ مِنَ الْمَوْتَى، وَالِاسْتِغَاثَةُ بِهِمْ، وَالتَّوَجُّهُ إِلَيْهِمْ.

---

(١) (ضَعِيفٌ) : رَوَاهُ السُّيُوطِيُّ فِي «الجَامِعِ الصَّغِيرِ» وَضَعَّفَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «الجَامِعِ الصَّغِيرِ» (٣٧٠٥) .

(٢) (ضَعِيفٌ) : ضَعَّفَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «الجَامِعِ الصَّغِيرِ» (٥٩٨٩) بِلَفْظٍ مُخْتَلِفٍ .

وَهَذَا أَصْلُ شِرْكِ الْعَالَمِ ، فَإِنَّ الْمَيِّتَ قَدِ انْقَطَعَ عَمَلُهُ ، وَهُوَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، فَضْلًا عَمَّنِ اسْتَغَاثَ بِهِ وَسَأَلَهُ قَضَاءَ حَاجَتِهِ ، أَوْ سَأَلَهُ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ إِلَىٰ اللهِ فِيهَا ، وَهَذَا مِنْ جَهْلِهِ بِالشَّافِعِ وَالْمَشْفُوعِ لَهُ عِنْدَهُ، كَمَا تَقَدَّمَ ، فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ عِنْدَ اللهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَاللهُ لَمْ يَجْعَلِ اسْتِغَاثَتَهُ وَسُؤَالَهُ سَبَبًا لِإِذْنِهِ ، وَإِنَّمَا السَّبَبُ لِإِذْنِهِ كَمَالُ التَّوْحِيدِ، فَجَاءَ هَذَا الْمُشْرِكُ بِسَبَبٍ يَمْنَعُ الْإِذْنَ ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنِ اسْتَعَانَ فِي حَاجَةٍ بِمَا يَمْنَعُ حُصُولَهَا ، وَهَذِهِ حَالَةُ كُلِّ مُشْرِكٍ ، وَالْمَيِّتُ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ مَنْ يَدْعُو لَهُ ، وَيَتَرَحَّمُ عَلَيْهِ ، وَيَسْتَغْفِرُ لَهُ ، كَمَا أَوْصَانَا النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِذَا زُرْنَا قُبُورَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ نَتَرَحَّمَ عَلَيْهِمْ ، وَنَسْأَلَ لَهُمُ الْعَافِيَةَ وَالْمَغْفِرَةَ ، فَعَكَسَ الْمُشْرِكُونَ هَذَا ، وَزَارُوهُمْ زِيَارَةَ الْعِبَادَةِ ، وَاسْتِقْضَاءِ الْحَوَائِجِ ، وَالِاسْتِغَاثَةِ بِهِمْ ، وَجَعَلُوا قُبُورَهُمْ أَوْثَانًا تُعْبَدُ ، وَسَمَّوْا قَصْدَهَا حَجًّا ، وَاتَّخَذُوا عِنْدَهَا الْوَقْفَةَ وَحَلْقَ الرَّأْسِ ، فَجَمَعُوا بَيْنَ الشِّرْكِ بِالْمَعْبُودِ الْحَقِّ ، وَتَغْيِيرِ دِينِهِ ، وَمُعَادَاةِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ ، وَنِسْبَةِ أَهْلِهِ إِلَىٰ التَّنَقُّصِ لِلْأَمْوَاتِ ، وَهُمْ قَدْ تَنَقَّصُوا الْخَالِقَ بِالشِّرْكِ ، وَأَوْلِيَاءَهُ الْمُوَحِّدِينَ لَهُ ، الَّذِينَ لَمْ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا بِذَمِّهِمْ وَعَيْبِهِمْ وَمُعَادَاتِهِمْ ، وَتَنَقَّصُوا مَنْ أَشْرَكُوا بِهِ غَايَةَ التَّنَقُّصِ ، إِذْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ رَاضُونَ مِنْهُمْ بِهَذَا، وَأَنَّهُمْ أَمَرُوهُمْ بِهِ ، وَأَنَّهُمْ يُوَالُونَهُمْ عَلَيْهِ ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَعْدَاءُ

الرُّسُلِ وَالتَّوْحِيدِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، وَمَا أَكْثَرَ الْمُسْتَجِيبِينَ لَهُمْ ! وَللهِ خَلِيلُهُ إِبْرَاهِيمُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٦] .

وَمَا نَجَا مِنْ شَرَكِ هَذَا الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ إِلَّا مَنْ جَرَّدَ تَوْحِيدَهُ للهِ، وَعَادَى الْمُشْرِكِينَ فِي اللهِ ، وَتَقَرَّبَ بِمَقْتِهِمْ إِلَى اللهِ،وَاتَّخَذَ اللهَ وَحْدَهُ وَلِيَّهُ وَإِلَهَهُ وَمَعْبُودَهُ ، فَجَرَّدَ حُبَّهُ للهِ ، وَخَوْفَهُ للهِ ، وَرَجَاءَهُ للهِ ، وَذُلَّهُ للهِ، وَتَوَكُّلَهُ عَلَى اللهِ ، وَاسْتِعَانَتَهُ بِاللهِ ، وَالْتِجَاءَهُ إِلَى اللهِ ، وَاسْتِغَاثَتَهُ بِاللهِ ، وَأَخْلَصَ قَصْدَهُ للهِ ، مُتَّبِعًا لِأَمْرِهِ ، مُتَطَلِّبًا لِمَرْضَاتِهِ ، إِذَا سَأَلَ سَأَلَ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَانَ اسْتَعَانَ بِاللهِ ، وَإِذَا عَمِلَ عَمِلَ للهِ ، فَهُوَ للهِ ، وَبِاللهِ ، وَمَعَ اللهِ .

وَالشِّرْكُ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ ، لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللهُ .

وَلَوْ ذَهَبْنَا نَذْكُرُ أَنْوَاعَهُ لَاتَّسَعَ الْكَلَامُ أَعْظَمَ اتِّسَاعٍ ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُسَاعِدَ بِوَضْعِ كِتَابٍ فِيهِ ، وَفِي أَقْسَامِهِ ، وَأَسْبَابِهِ وَمَبَادِيهِ ، وَمَضَرَّتِهِ ، وَمَا يَنْدَفِعُ بِهِ .

فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا نَجَا مِنْهُ وَمِنَ التَّعْطِيلِ وَهُمَا الدَّاءَانِ اللَّذَانِ هَلَكَتْ بِهِمَا الْأُمَمُ فَمَا بَعْدَهُمَا أَيْسَرُ مِنْهُمَا ، وَإِنْ هَلَكَ بِهِمَا فَبِسَبِيلِ مَنْ هَلَكَ ، وَلَا آسَى عَلَى الْهَالِكِينَ .

النِّفَاقُ :

وَأَمَّا النِّفَاقُ: فَالدَّاءُ الْعُضَالُ الْبَاطِنُ، الَّذِي يَكُونُ الرَّجُلُ مُمْتَلِئًا مِنْهُ، وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، فَإِنَّهُ أَمْرٌ خَفِيٌّ عَلَىٰ النَّاسِ، وَكَثِيرًا مَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ مَنْ تَلَبَّسَ بِهِ، فَيَزْعُمُ أَنَّهُ مُصْلِحٌ وَهُوَ مُفْسِدٌ.

وَهُوَ نَوْعَانِ: أَكْبَرُ، وَأَصْغَرُ.

فَالْأَكْبَرُ: يُوجِبُ الْخُلُودَ فِي النَّارِ فِي دَرْكِهَا الْأَسْفَلِ، وَهُوَ أَنْ يُظْهِرَ لِلْمُسْلِمِينَ إِيمَانَهُ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ مُنْسَلِخٌ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ مُكَذِّبٌ بِهِ، لَا يُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ أَنْزَلَهُ عَلَىٰ بَشَرٍ جَعَلَهُ رَسُولًا لِلنَّاسِ، يَهْدِيهِمْ بِإِذْنِهِ، وَيُنْذِرُهُمْ بَأْسَهُ، وَيُخَوِّفُهُمْ عِقَابَهُ.

فَضَحَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ :

وَقَدْ هَتَكَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَسْتَارَ الْمُنَافِقِينَ، وَكَشَفَ أَسْرَارَهُمْ فِي الْقُرْآنِ، وَجَلَّىٰ لِعِبَادِهِ أُمُورَهُمْ، لِيَكُونُوا مِنْهَا وَمِنْ أَهْلِهَا عَلَىٰ حَذَرٍ، وَذَكَرَ طَوَائِفَ الْعَالَمِ الثَّلَاثَةَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: الْمُؤْمِنِينَ، وَالْكُفَّارَ، وَالْمُنَافِقِينَ، فَذَكَرَ فِي الْمُؤْمِنِينَ أَرْبَعَ آيَاتٍ، وَفِي الْكُفَّارِ آيَتَيْنِ، وَفِي الْمُنَافِقِينَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ آيَةً، لِكَثْرَتِهِمْ وَعُمُومِ الِابْتِلَاءِ بِهِمْ، وَشِدَّةِ فِتْنَتِهِمْ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، فَإِنَّ بَلِيَّةَ الْإِسْلَامِ بِهِمْ شَدِيدَةٌ جِدًّا، لِأَنَّهُمْ مَنْسُوبُونَ إِلَيْهِ، وَإِلَىٰ نُصْرَتِهِ

وَمُوَالَاته، وَهُمْ أَعْدَاؤُهُ فِي الْحَقِيقَة، يُخْرِجُونَ عَدَاوَتَهُ فِي كُلِّ قَالَبٍ يَظُنُّ الْجَاهِلُ أَنَّهُ عِلْمٌ وَإِصْلَاحٌ، وَهُوَ غَايَةُ الْجَهْلِ وَالْإِفْسَادِ.

فَلِلَّه كَمْ مِنْ مَعْقِلٍ لِلْإِسْلَامِ قَدْ هَدَمُوهُ ؟ ! ، وَكَمْ مِنْ حِصْنٍ لَهُ قَدْ قَلَعُوا أَسَاسَهُ وَخَرَّبُوهُ ؟ ! ، وَكَمْ مِنْ عِلْمٍ لَهُ قَدْ طَمَسُوهُ ؟ ! ، وَكَمْ مِنْ لِوَاءٍ لَهُ مَرْفُوعٍ قَدْ وَضَعُوهُ ؟ ! ، وَكَمْ ضَرَبُوا بِمَعَاوِلِ الشُّبَهِ فِي أُصُولِ غِرَاسِهِ لِيَقْلَعُوهَا ؟! ، وَكَمْ عَمَّوْا عُيُونَ مَوَارِدِهِ بِآرَائِهِمْ لِيَدْفِنُوهَا وَيَقْطَعُوهَا ؟!.

مِحْنَةُ الإِسْلَامِ مِنَ المُنَافِقِينَ :

فَلَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ وَأَهْلُهُ مِنْهُمْ فِي مِحْنَةٍ وَبَلِيَّةٍ، وَلَا يَزَالُ يَطْرُقُهُ مِنْ شُبَهِهِمْ سَرِيَّةٌ بَعْدَ سَرِيَّةٍ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ مُصْلِحُونَ ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة:١٢] ، ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصَّفُ :٨] .

اجْتِمَاعُ المُنَافِقِينَ عَلَى مُفَارَقَةِ الهُدَى :

اتَّفَقُوا عَلَىٰ مُفَارَقَةِ الْوَحْيِ، فَهُمْ عَلَىٰ تَرْكِ الاهْتِدَاءِ بِهِ مُجْتَمِعُونَ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلِأَجْلِ ذَلِكَ اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا.

خُلو قُلُوبِهِمْ مِنْ مَعَالِمِ الإِيمَانِ :

دَرَسَتْ مَعَالِمُ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِهِمْ فَلَيْسُوا يَعْرِفُونَهَا، وَدَثَرَتْ مَعَاهِدُهُ عِنْدَهُمْ فَلَيْسُوا يَعْمُرُونَهَا، وَأَفَلَتْ كَوَاكِبُهُ النَّيِّرَةُ مِنْ قُلُوبِهِمْ فَلَيْسُوا يُحِبُّونَهَا، وَكَسَفَتْ شَمْسُهُ عِنْدَ اجْتِمَاعِ ظُلَمِ آرَائِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ فَلَيْسُوا يُبْصِرُونَهَا، لَمْ يَقْبَلُوا هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ رَسُولَهُ، وَلَمْ يَرْفَعُوا بِهِ رَأْسًا، وَلَمْ يَرَوْا بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ إِلَىٰ آرَائِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ بَأْسًا، خَلَعُوا نُصُوصَ الْوَحْيِ عَنْ سَلْطَنَةِ الْحَقِيقَةِ، وَعَزَلُوهَا عَنْ وِلَايَةِ الْيَقِينِ، وَشَنُّوا عَلَيْهَا غَارَاتِ التَّأْوِيلَاتِ الْبَاطِلَةِ، فَلَا يَزَالُ يَخْرُجُ عَلَيْهَا مِنْهُمْ كَمِينٌ بَعْدَ كَمِينٍ، نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ نُزُولَ الضَّيْفِ عَلَىٰ أَقْوَامٍ لِئَامٍ، فَقَابَلُوهَا بِغَيْرِ مَا يَنْبَغِي لَهَا مِنَ الْقَبُولِ وَالْإِكْرَامِ، وَتَلَقَّوْهَا مِنْ بَعِيدٍ، وَلَكِنْ بِالدَّفْعِ فِي الصُّدُورِ مِنْهَا وَالْأَعْجَازِ.

وَقَالُوا: مَا لَكَ عِنْدَنَا مِنْ عُبُورٍ وَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَعَلَىٰ سَبِيلِ الِاجْتِيَازِ، أَعَدُّوا لِدَفْعِهَا أَصْنَافَ الْعُدَدِ وَضُرُوبَ الْقَوَانِينِ، وَقَالُوا لَمَّا حَلَّتْ بِسَاحَتِهِمْ: مَا لَنَا وَلِظَوَاهِرَ لَفْظِيَّةٍ لَا تُفِيدُنَا شَيْئًا مِنَ الْيَقِينِ، وَعَوَامُّهُمْ قَالُوا: حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ خَلَفَنَا مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ، فَإِنَّهُمْ أَعْلَمُ بِهَا مِنَ السَّلَفِ الْمَاضِينَ، وَأَقْوَمُ بِطَرَائِقِ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ، وَأُولَئِكَ غَلَبَتْ عَلَيْهِمُ السَّذَاجَةُ وَسَلَامَةُ الصُّدُورِ، وَلَمْ يَتَفَرَّغُوا لِتَمْهِيدِ قَوَاعِدِ النَّظَرِ، وَلَكِنْ صَرَفُوا هِمَمَهُمْ إِلَىٰ فِعْلِ الْمَأْمُورِ وَتَرْكِ الْمَحْظُورِ، فَطَرِيقَةُ الْمُتَأَخِّرِينَ

أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ، وَطَرِيقَةُ السَّلَفِ الْمَاضِينَ أَجْهَلُ، لَكِنَّهَا أَسْلَمُ.

أَنْزَلُوا نُصُوصَ السُّنَّةِ وَالْقُرْآنِ مَنْزِلَةَ الْخَلِيفَةِ فِي هَذَا الزَّمَانِ، اسْمُهُ عَلَىٰ السِّكَّةِ وَفِي الْخُطْبَةِ فَوْقَ الْمَنَابِرِ مَرْفُوعٌ، وَالْحُكْمُ النَّافِذُ لِغَيْرِهِ، فَحُكْمُهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ وَلَا مَسْمُوعٍ.

لَبِسُوا ثِيَابَ أَهْلِ الْإِيمَانِ عَلَىٰ قُلُوبِ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالْخُسْرَانِ، وَالْغِلِّ وَالْكُفْرَانِ، فَالظَّوَاهِرُ ظَوَاهِرُ الْأَنْصَارِ، وَالْبَوَاطِنُ قَدْ تَحَيَّزَتْ إِلَىٰ الْكُفَّارِ، فَأَلْسِنَتُهُمْ أَلْسِنَةُ الْمُسَالِمِينَ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الْمُحَارِبِينَ، ﴿ **يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ** ﴿٨﴾ ﴾ [البَقَرَةُ:٨] .

بِضَاعَتُهُمُ الْخَدِيعَةُ وَالْمَكْرُ :

رَأْسُ مَالِهِمُ الْخَدِيعَةُ وَالْمَكْرُ، وَبِضَاعَتُهُمُ الْكَذِبُ وَالْخَتْرُ، وَعِنْدَهُمُ الْعَقْلُ الْمَعِيشِيُّ أَنَّ الْفَرِيقَيْنِ عَنْهُمْ رَاضُونَ، وَهُمْ بَيْنَهُمْ آمِنُونَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ ﴿ **يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴿٩﴾ ﴾ [البَقَرَةُ:٩] .

فَسَادُ قُلُوبِهِمْ :

قَدْ نَهَكَتْ أَمْرَاضُ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ قُلُوبَهُمْ فَأَهْلَكَتْهَا، وَغَلَبَتِ الْقُصُودُ السَّيِّئَةُ عَلَىٰ إِرَادَاتِهِمْ وَنِيَّاتِهِمْ فَأَفْسَدَتْهَا، فَفَسَادُهُمْ قَدْ تَرَامَىٰ إِلَىٰ الْهَلَاكِ، فَعَجَزَ عَنْهُ الْأَطِبَّاءُ الْعَارِفُونَ ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ**

مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة:١٠] .

مَنْ عَلقَتْ مَخالبُ شُكُوكِهِمْ بأَدِيم إيمانِه مَزَّقَتْهُ كُلَّ تَمْزيق، وَمَنْ تَعلَّقَ شَرَرُ فِتْنَتِهِمْ بِقَلْبِهِ أَلْقَاهُ في عَذَابِ الْحَرِيق ، وَمَنْ دَخَلَتْ شُبُهَاتُ تَلْبِيسِهِمْ في مَسَامِعه حَالَ بَيْنَ قَلْبه وَبَيْنَ التَّصْدِيق ، فَفَسَادُهُمْ في الْأَرْضِ كَثِيرٌ، وَأَكْثَرُ النَّاس عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة : ١١-١٢].

أَصْحَابُ ظَوَاهِر :

الْمُتَمَسِّكُ عِنْدَهُمْ بِالْكِتَاب وَالسُّنَّةِ صَاحِبُ ظَوَاهِرَ، مَبْخُوسٌ حَظُّهُ مِنَ الْمَعْقُول، وَالدَّائِرُ مَعَ النُّصُوص عِنْدَهُمْ كَحِمَارٍ يَحْمِلُ أَسْفَارًا، فَهَمُّهُ في حَمْلِ الْمَنْقُول، وَبِضَاعَةُ تَاجِرِ الْوَحْيِ لَدَيْهِمْ كَاسِدَةٌ، وَمَا هُوَ عِنْدَهُمْ بِمَقْبُولٍ، وَأَهْلُ الاتِّبَاع عِنْدَهُمْ سُفَهَاءُ فَهُمْ في خَلَوَاتِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ بِهِمْ يَتَطَيَّرُونَ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [البقرة : ١٣].

أَصْحَابُ وُجُوهٍ :

لِكُلٍّ مِنْهُمْ وَجْهَانِ، وَجْهٌ يَلْقَى بِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَجْهٌ يَنْقَلِبُ بِهِ إِلَى إِخْوَانِهِ مِنَ الْمُلْحِدِينَ، وَلَهُ لِسَانَانِ: أَحَدُهُمَا يَقْبَلُهُ بِظَاهِرِهِ الْمُسْلِمُونَ،

وَالْآخَرُ يُتَرْجِمُ بِهِ عَنْ سِرِّهِ الْمَكْنُونِ ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [البَقَرَةُ: ١٤].

إِعْرَاضُهُمْ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ:

قَدْ أَعْرَضُوا عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ اسْتِهْزَاءً بِأَهْلِهِمَا وَاسْتِحْقَارًا، وَأَبَوْا أَنْ يَنْقَادُوا لِحُكْمِ الْوَحْيَيْنِ فَرَحًا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ الِاسْتِكْثَارُ مِنْهُ أَشَرًا وَاسْتِكْبَارًا، فَتَرَاهُمْ أَبَدًا بِالْمُتَمَسِّكِينَ بِصَرِيحِ الْوَحْيِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البَقَرَةُ: ١٥].

خَرَجُوا فِي طَلَبِ التِّجَارَةِ الْبَائِرَةِ فِي بِحَارِ الظُّلُمَاتِ، فَرَكِبُوا مَرَاكِبَ الشُّبَهِ وَالشُّكُوكِ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجِ الْخَيَالَاتِ، فَلَعِبَتْ بِسُفُنِهِمُ الرِّيحُ الْعَاصِفُ، فَأَلْقَتْهَا بَيْنَ سُفُنِ الْهَالِكِينَ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [البَقَرَةُ: ١٦].

أَضَاءَتْ لَهُمْ نَارُ الْإِيمَانِ فَأَبْصَرُوا فِي ضَوْئِهَا مَوَاقِعَ الْهُدَىٰ وَالضَّلَالِ، ثُمَّ طُفِئَ ذَلِكَ النُّورُ، وَبَقِيَتْ نَارٌ تَأَجَّجُ ذَاتُ لَهَبٍ وَاشْتِعَالٍ، فَهُمْ بِتِلْكَ النَّارِ مُعَذَّبُونَ، وَفِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ يَعْمَهُونَ ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [البَقَرَةُ: ١٧].

لا تفقه قلوبهم ولا تعي:

أَسْمَاعُ قُلُوبِهِمْ قَدْ أَثْقَلَهَا الْوَقْرُ، فَهِيَ لَا تَسْمَعُ مُنَادِيَ الْإِيمَانِ، وَعُيُونُ بَصَائِرِهِمْ عَلَيْهَا غِشَاوَةُ الْعَمَى، فَهِيَ لَا تُبْصِرُ حَقَائِقَ الْقُرْآنِ، وَأَلْسِنَتُهُمْ بِهَا خَرَسٌ عَنِ الْحَقِّ فَهُمْ بِهِ لَا يَنْطِقُونَ ﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ** ﴿١٨﴾ ﴾[البَقَرَةُ: ١٧].

صَابَ عَلَيْهِمْ صَيِّبُ الْوَحْيِ، وَفِيهِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ وَالْأَرْوَاحِ، فَلَمْ يَسْمَعُوا مِنْهُ إِلَّا رَعْدَ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ وَالتَّكَالِيفِ الَّتِي وُظِّفَتْ عَلَيْهِمْ فِي الْمَسَاءِ وَالصَّبَاحِ، فَجَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ، وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ، وَجَدُّوا فِي الْهَرَبِ، وَالطَّلَبُ فِي آثَارِهِمْ وَالصِّيَاحُ، فَنُودِيَ عَلَيْهِمْ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ، وَكُشِفَتْ حَالُهُمْ لِلْمُسْتَبْصِرِينَ، وَضُرِبَ لَهُمْ مَثَلَانِ بِحَسَبِ حَالِ الطَّائِفَتَيْنِ مِنْهُمْ: الْمُنَاظِرِينَ، وَالْمُقَلِّدِينَ، فَقِيلَ ﴿ **أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ** ﴿١٩﴾ ﴾ [البَقَرَةُ: ١٩].

ضَعُفَتْ أَبْصَارُ بَصَائِرِهِمْ عَنِ احْتِمَالِ مَا فِي الصَّيِّبِ مِنْ بُرُوقِ أَنْوَارِهِ وَضِيَاءِ مَعَانِيهِ، وَعَجَزَتْ أَسْمَاعُهُمْ عَنْ تَلَقِّي رُعُودِ وُعُودِهِ وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، فَقَامُوا عِنْدَ ذَلِكَ حَيَارَىٰ فِي أَوْدِيَةِ التِّيهِ، لَا يَنْتَفِعُ بِسَمْعِهِ السَّامِعُ، وَلَا يَهْتَدِي بِبَصَرِهِ الْبَصِيرُ، ﴿ **كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ**

أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [البَقَرَةُ: ٢٠].

عَلامَاتُهُمْ:

لَهُمْ عَلَامَاتٌ يُعْرَفُونَ بِهَا مُبَيَّنَةٌ فِي السُّنَّةِ وَالْقُرْآنِ، بَادِيَةٌ لِمَنْ تَدَبَّرَهَا مِنْ أَهْلِ بَصَائِرِ الْإِيمَانِ، قَامَ بِهِمْ -وَاللهِ- الرِّيَاءُ، وَهُوَ أَقْبَحُ مَقَامٍ قَامَهُ الْإِنْسَانُ، وَقَعَدَ بِهِمُ الْكَسَلُ عَمَّا أُمِرُوا بِهِ مِنْ أَوَامِرِ الرَّحْمَنِ، فَأَصْبَحَ الْإِخْلَاصُ عَلَيْهِمْ لِذَلِكَ ثَقِيلًا ﴿ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النِّسَاء: ١٤٢].

أَحَدُهُمْ كَالشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ، تَيْعَرُ إِلَىٰ هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَىٰ هَذِهِ مَرَّةً، وَلَا تَسْتَقِرُّ مَعَ إِحْدَىٰ الْفِئَتَيْنِ [(١)]، فَهُمْ وَاقِفُونَ بَيْنَ الْجَمْعَيْنِ، يَنْظُرُونَ أَيُّهُمْ أَقْوَىٰ وَأَعَزُّ قَبِيلًا ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ [النِّسَاء: ١٤٣].

يَكِيْدُونَ لِلمُؤْمِنِيْنَ:

يَتَرَبَّصُونَ الدَّوَائِرَ بِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْقُرْآنِ، فَإِنْ كَانَ لَهُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ، قَالُوا: أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ؟ وَأَقْسَمُوا عَلَىٰ ذَلِكَ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ، وَإِنْ كَانَ لِأَعْدَاءِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنَ النُّصْرَةِ نَصِيبٌ، قَالُوا: أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ عَقْدَ

(١) يُشِيرُ إِلَىٰ الحَدِيْثِ الصَّحِيْحِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٧٨٤).

الْإِخَاءِ بَيْنَنَا مُحْكَمٌ، وَأَنَّ النَّسَبَ بَيْنَنَا قَرِيبٌ ؟ ، فَيَا مَنْ يُرِيدُ مَعْرِفَتَهُمْ، خُذْ صِفَاتِهِمْ مِنْ كَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَلَا تَحْتَاجُ بَعْدَهُ دَلِيلًا ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾[النِّسَاء : ١٤١].

لَهُم مَنْطِقٌ :

يُعْجِبُ السَّامِعَ قَوْلُ أَحَدِهِمْ لِحَلَاوَتِهِ وَلِينِهِ ، وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ مِنْ كَذِبِهِ وَمَيْنِهِ ، فَتَرَاهُ عِنْدَ الْحَقِّ نَائِمًا ، وَفِي الْبَاطِلِ عَلَىٰ الْأَقْدَامِ، فَخُذْ وَصْفَهُمْ مِنْ قَوْلِ الْقُدُّوسِ السَّلَامِ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٤].

لَا يَأْتِي مِنْهُمُ إِلَّا الفَسَادُ :

أَوَامِرُهُمُ الَّتِي يَأْمُرُونَ بِهَا أَتْبَاعَهُمْ مُتَضَمِّنَةٌ لِفَسَادِ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، وَنَوَاهِيهِمْ عَمَّا فِيهِ صَلَاحُهُمْ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ ، وَأَحَدُهُمْ تَلْقَاهُ بَيْنَ جَمَاعَةِ أَهْلِ الْإِيمَانِ فِي الصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ وَالزُّهْدِ وَالِاجْتِهَادِ ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٥].

فَهُمْ جِنْسٌ بَعْضُهُ يُشْبِهُ بَعْضًا، يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ بَعْدَ أَنْ يَفْعَلُوهُ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ بَعْدَ أَنْ يَتْرُكُوهُ، وَيَبْخَلُونَ بِالْمَالِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَرْضَاتِهِ أَنْ يُنْفِقُوهُ، كَمْ ذَكَّرَهُمُ اللهُ بِنِعَمِهِ فَأَعْرَضُوا عَنْ ذِكْرِهِ وَنَسُوهُ؟، وَكَمْ كَشَفَ حَالَهُمْ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَجْتَنِبُوهُ؟فَاسْمَعُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[التَّوْبَة : ٦١] .

يَنْفِرُونَ مِنَ الحَقِّ:

إِنْ حَاكَمْتَهُمْ إِلَىٰ صَرِيحِ الْوَحْيِ وَجَدْتَهُمْ عَنْهُ نَافِرِينَ، وَإِنْ دَعَوْتَهُمْ إِلَىٰ حُكْمِ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَأَيْتَهُمْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ، فَلَوْ شَهِدْتَ حَقَائِقَهُ لَرَأَيْتَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْهُدَىٰ أَمَدًا بَعِيدًا، وَرَأَيْتَهَا مُعْرِضَةً عَنِ الْوَحْيِ إِعْرَاضًا شَدِيدًا ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ [النِّسَاء : ٦١].

فَكَيْفَ لَهُمْ بِالْفَلَاحِ وَالْهُدَىٰ ! بَعْدَمَا أُصِيبُوا فِي عُقُولِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ ؟ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّخَلُّصُ مِنَ الضَّلَالِ وَالرَّدَىٰ ! وَقَدِ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِإِيمَانِهِمْ؟ فَمَا أَخْسَرَ تِجَارَتَهُمُ الْبَائِرَةَ!وَقَدِ اسْتَبْدَلُوا بِالرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ حَرِيقًا

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [النِّسَاء: ٦٢].

نَشَبَ زَقُّومُ الشُّبَهِ وَالشُّكُوكِ فِي قُلُوبِهِمْ، فَلَا يَجِدُونَ لَهُ مُسِيغًا ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [النِّسَاء: ٦٣].

تَبًّا لَهُمْ، مَا أَبْعَدَهُمْ عَنْ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ! وَمَا أَكْذَبَ دَعْوَاهُمْ لِلتَّحْقِيقِ وَالْعِرْفَانِ، فَالْقَوْمُ فِي شَأْنٍ وَأَتْبَاعُ الرَّسُولِ فِي شَأْنٍ، لَقَدْ أَقْسَمَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ فِي كِتَابِهِ بِنَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ قَسَمًا عَظِيمًا، يَعْرِفُ مَضْمُونَهُ أُولُو الْبَصَائِرِ، فَقُلُوبُهُمْ مِنْهُ عَلَىٰ حَذَرٍ إِجْلَالًا لَهُ وَتَعْظِيمًا، فَقَالَ تَعَالَىٰ تَحْذِيرًا لِأَوْلِيَائِهِ، وَتَنْبِيهًا عَلَىٰ حَالِ هَؤُلَاءِ وَتَفْهِيمًا ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النِّسَاء: ٦٥].

تَسْبِقُ يَمِينُ أَحَدِهِمْ كَلَامَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُعْتَرَضَ عَلَيْهِ، لِعِلْمِهِ أَنَّ قُلُوبَ أَهْلِ الْإِيمَانِ لَا تَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ، فَيَتَبَرَّأُ بِيَمِينِهِ مِنْ سُوءِ الظَّنِّ بِهِ وَكَشْفِ مَا لَدَيْهِ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ الرِّيبَةِ يَكْذِبُونَ، وَيَحْلِفُونَ لِيَحْسَبَ السَّامِعُ أَنَّهُمْ صَادِقُونَ، ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الْمُنَافِقُونَ: ٢].

تبًّا لَهُمْ ! برَزُوا إلىٰ البَيْدَاءِ مَعَ رَكْبِ الإِيمَانِ، فَلَمَّا رَأَوْا طُولَ الطَّرِيقِ وَبُعْدَ الشُّقَّةِ نَكَصُوا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ وَرَجَعُوا، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ يَتَمَتَّعُونَ بِطِيبِ الْعَيْشِ وَلَذَّةِ الْمَنَامِ فِي دِيَارِهِمْ، فَمَا مُتِّعُوا بِهِ وَلَا بِتِلْكَ الْهَجْعَةِ انْتَفَعُوا، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ صَاحَ بِهِمُ الصَّائِحُ فَقَامُوا عَنْ مَوَائِدِ أَطْعِمَتِهِمْ وَالْقَوْمُ جِيَاعٌ مَا شَبِعُوا، فَكَيْفَ حَالُهُمْ عِنْدَ اللِّقَاءِ ؟ ، وَقَدْ عَرَفُوا ثُمَّ أَنْكَرُوا، وَعَمُوا بَعْدَمَا عَايَنُوا الْحَقَّ وَأَبْصَرُوا ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المُنَافِقُونَ : ٣].

حُسْنُ المَظْهَرِ مَعَ تَتَبُّعِ الجَوْهَرِ :

أَحْسَنُ النَّاسِ أَجْسَامًا، وَأَخْلَبُهُمْ لِسَانًا، وَأَلْطَفُهُمْ بَيَانًا، وَأَخْبَثُهُمْ قُلُوبًا، وَأَضْعَفُهُمْ جَنَانًا، فَهُمْ كَالْخُشُبِ الْمُسَنَّدَةِ الَّتِي لَا ثَمَرَ لَهَا، قَدْ قُلِعَتْ مِنْ مَغَارِسِهَا فَتَسَانَدَتْ إِلَىٰ حَائِطٍ يُقِيمُهَا، لِئَلَّا يَطَأَهَا السَّالِكُونَ ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [المُنَافِقُونَ : ٤].

يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا الْأَوَّلِ إِلَىٰ شَرَقِ الْمَوْتَىٰ فَالصُّبْحُ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَالْعَصْرُ عِنْدَ الْغُرُوبِ، وَيَنْقُرُونَهَا نَقْرَ الْغُرَابِ، إِذْ هِيَ صَلَاةُ الأَبْدَانِ، لَا صَلَاةُ الْقُلُوبِ، وَيَلْتَفِتُونَ فِيهَا الْتِفَاتَ الثَّعْلَبِ، إِذْ

يَتَيَقَّنُ أَنَّهُ مَطْرُودٌ مَطْلُوبٌ، وَلَا يَشْهَدُونَ الْجَمَاعَةَ، بَلْ إِنْ صَلَّىٰ أَحَدُهُمْ فَفِي الْبَيْتِ أَوِ الدُّكَّانِ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ، هَذِهِ مُعَامَلَتُهُمْ لِلْخَلْقِ، وَتِلْكَ مُعَامَلَتُهُمْ لِلْخَالِقِ، فَخُذْ وَصْفَهُمْ مِنْ أَوَّلِ الْمُطَفِّفِينَ، وَآخِرِ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ فَلَا يُنَبِّئُكَ عَنْ أَوْصَافِهِمْ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التَّوْبَةُ: ٧٣] فَمَا أَكْثَرَهُمْ! وَهُمُ الْأَقَلُّونَ، وَمَا أَجْبَرَهُمْ! وَهُمُ الْأَذَلُّونَ، وَمَا أَجْهَلَهُمْ! وَهُمُ الْمُتَعَالِمُونَ، وَمَا أَغَرَّهُمْ بِاللهِ! إِذْ هُمْ بِعَظَمَتِهِ جَاهِلُونَ ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التَّوْبَةُ: ٥٦].

إِنْ أَصَابَ أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَافِيَةٌ وَنَصْرٌ وَظُهُورٌ سَاءَهُمْ ذَلِكَ وَغَمَّهُمْ، وَإِنْ أَصَابَهُمُ ابْتِلَاءٌ مِنَ اللهِ وَامْتِحَانٌ يُمَحِّصُ بِهِ ذُنُوبَهُمْ، وَيُكَفِّرُ بِهِ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ أَفْرَحَهُمْ ذَلِكَ وَسَرَّهُمْ، وَهَذَا يُحَقِّقُ إِرْثَهُمْ وَإِرْثَ مَنْ عَدَاهُمْ، وَلَا يَسْتَوِي مَنْ مَوْرُوثُهُ الْمُنَافِقُونَ: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التَّوْبَةُ: ٥٠-٥١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي شَأْنِ السَّلَفَيْنِ الْمُخْتَلِفَيْنِ، وَالْحَقُّ لَا يَنْدَفِعُ بِمُكَابَرَةِ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالتَّخْلِيطِ: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عِمْرَان: ١٢٠].

لا يُؤمِنُونَ لِفَسَادِ بَاطِنِهِمْ:

كَرِهَ اللهُ طَاعَاتِهِمْ، لِخُبْثِ قُلُوبِهِمْ وَفَسَادِ نِيَّاتِهِمْ، فَثَبَّطَهُمْ عَنْهَا وَأَقْعَدَهُمْ، وَأَبْغَضَ قُرْبَهُمْ مِنْهُ وَجِوَارَهُ، لِمَيْلِهِمْ إِلَىٰ أَعْدَائِهِ، فَطَرَدَهُمْ عَنْهُ وَأَبْعَدَهُمْ، وَأَعْرَضُوا عَنْ وَحْيِهِ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ، وَأَشْقَاهُمْ وَمَا أَسْعَدَهُمْ، وَحَكَمَ عَلَيْهِمْ بِحُكْمٍ عَدْلٍ لَا مَطْمَعَ لَهُمْ فِي الْفَلَاحِ بَعْدَهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونُوا مِنَ التَّائِبِينَ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التَّوْبَة: ٤٦] ثُمَّ ذَكَرَ حِكْمَتَهُ فِي تَثْبِيطِهِمْ وَإِقْعَادِهِمْ، وَطَرْدِهِمْ عَنْ بَابِهِ وَإِبْعَادِهِمْ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ لُطْفِهِ بِأَوْلِيَائِهِ وَإِسْعَادِهِمْ، فَقَالَ، وَهُوَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التَّوْبَة: ٤٧].

ثُقْلُ الحقِّ لَدَيْهِمْ :

ثَقُلَتْ عَلَيْهِمُ النُّصُوصُ فكَرِهُوهَا، وَأَعْيَاهُمْ حَمْلُهَا فَأَلْقَوْهَا عَنْ أَكْتَافِهِمْ وَوَضَعُوهَا، وَتَفَلَّتَتْ مِنْهُمُ السُّنَنُ أَنْ يَحْفَظُوهَا فَأَهْمَلُوهَا، وَصَالَتْ عَلَيْهِمْ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَوَضَعُوا لَهَا قَوَانِينَ رَدُّوهَا بِهَا وَدَفَعُوهَا، وَقَدْ هَتَكَ اللهُ أَسْتَارَهُمْ، وَكَشَفَ أَسْرَارَهُمْ، وَضَرَبَ لِعِبَادِهِ أَمْثَالَهُمْ، وَأَعْلَمَ أَنَّهُ كُلَّمَا انْقَرَضَ مِنْهُمْ طَوَائِفُ خَلَفَهُمْ أَمْثَالُهُمْ، فَذَكَرَ أَوْصَافَهُمْ، لِأَوْلِيَائِهِ لِيَكُونُوا مِنهَا عَلَىٰ حَذَرٍ، وَبَيَّنَهَا لَهُمْ، فَقَالَ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾ [مُحَمَّد: ٩].

هَذَا شَأْنُ مَنْ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ، فَرَآهَا حَائِلَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ بِدْعَتِهِ وَهَوَاهُ، فَهِيَ فِي وَجْهِهِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ، فَبَاعَهَا بِمُحَصَّلٍ مِنَ الْكَلَامِ الْبَاطِلِ، وَاسْتَبْدَلَ مِنْهَا بِالْفُصُوصِ فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ أَنْ أَفْسَدَ عَلَيْهِمْ إِعْلَانَهُمْ وَإِسْرَارَهُمْ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [مُحَمَّد: ٢٦-٢٨].

تَعْرِفُهُم بِسِيْمَاهُم :

أَسَرُّوا سَرَائِرَ النِّفَاقِ، فَأَظْهَرَهَا اللهُ عَلَىٰ صَفَحَاتِ الْوُجُوهِ مِنْهُمْ، وَفَلَتَاتِ اللِّسَانِ، وَوَسَمَهُمْ لأَجْلِهَا بِسِيمَاءَ لَا يَخْفَوْنَ بِهَا عَلَىٰ أَهْلِ الْبَصَائِرِ وَالْإِيمَانِ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِذْ كَتَمُوا كُفْرَهُمْ وَأَظْهَرُوا إِيمَانَهُمْ رَاجُوا عَلَىٰ الصَّيَارِفِ وَالنُّقَّادِ، كَيْفَ وَالنَّاقِدُ الْبَصِيرُ قَدْ كَشَفَهَا لَكُمْ ؟ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [مُحَمَّد : ٢٩-٣٠].

فَكَيْفَ إِذَا جُمِعُوا لِيَوْمِ التَّلَاقِ، وَتَجَلَّىٰ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ لِلْعِبَادِ وَقَدْ كُشِفَ عَنْ سَاقٍ ؟ ، وَدُعُوا إِلَىٰ السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[القَلَم : ٤٣].

تَسَاقُطُهُم عَلَى الجِسْرِ :

أَمْ كَيْفَ بِهِمْ إِذَا حُشِرُوا إِلَىٰ جِسْرِ جَهَنَّمَ ؟ وَهُوَ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ، وَأَحَدُّ مِنَ الْحُسَامِ، وَهُوَ دَحْضٌ مَزِلَّةٌ، مُظْلِمٌ لَا يَقْطَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا بِنُورٍ يُبْصِرُ بِهِ مَوَاطِئَ الْأَقْدَامِ، فَقُسِّمَتْ بَيْنَ النَّاسِ الْأَنْوَارُ، وَهُمْ عَلَىٰ قَدْرِ تَفَاوُتِهَا فِي الْمُرُورِ وَالذَّهَابِ، وَأُعْطُوا نُورًا ظَاهِرًا مَعَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، كَمَا كَانُوا بَيْنَهُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ يَأْتُونَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَالصِّيَامِ، فَلَمَّا

تَوَسَّطُوا الْجِسْرَ عَصَفَتْ عَلَىٰ أَنْوَارِهِمْ أَهْوِيَةُ النِّفَاقِ، فَأَطْفَأَتْ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْمَصَابِيحِ، فَوَقَفُوا حَيَارَىٰ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْمُرُورَ، فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ، وَلَكِنْ قَدْ حِيلَ بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ الْمَفَاتِيحِ، بَاطِنُهُ الَّذِي يَلِي الْمُؤْمِنِينَ فِيهِ الرَّحْمَةُ، وَمَا يَلِيهِمْ مِنْ قِبَلِهِمُ الْعَذَابُ وَالنِّقْمَةُ، يُنَادُونَ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنْ وَفْدِ الْإِيمَانِ، وَمَشَاعِلُ الرَّكْبِ تَلُوحُ عَلَىٰ بُعْدٍ كَالنُّجُومِ، تَبْدُو لِنَاظِرِ الْإِنْسَانِ انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ لِنَتَمَكَّنَ فِي هَذَا الْمَضِيقِ مِنَ الْعُبُورِ، فَقَدْ طُفِئَتْ أَنْوَارُنَا، وَلَا جَوَازَ الْيَوْمَ إِلَّا بِمِصْبَاحٍ مِنَ النُّورِ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا حَيْثُ قُسِّمَتِ الْأَنْوَارُ، فَهَيْهَاتَ الْوُقُوفُ لِأَحَدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمِضْمَارِ ! كَيْفَ نَلْتَمِسُ الْوُقُوفَ فِي هَذَا الْمَضِيقِ؟، فَهَلْ يَلْوِي الْيَوْمَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ فِي هَذَا الطَّرِيقِ؟، وَهَلْ يَلْتَفِتُ الْيَوْمَ رَفِيقٌ إِلَىٰ رَفِيقٍ؟، فَذَكَّرُوهُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ مَعَهُمْ وَصُحْبَتِهِمْ لَهُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ، كَمَا يُذَكِّرُ الْغَرِيبُ صَاحِبَ الْوَطَنِ بِصُحْبَتِهِ لَهُ فِي الْأَسْفَارِ، أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ نَصُومُ كَمَا تَصُومُونَ، وَنُصَلِّي كَمَا تُصَلُّونَ، وَنَقْرَأُ كَمَا تَقْرَءُونَ، وَنَتَصَدَّقُ كَمَا تَتَصَدَّقُونَ، وَنَحُجُّ كَمَا تَحُجُّونَ ؟ فَمَا الَّذِي فَرَّقَ بَيْنَنَا الْيَوْمَ، حَتَّىٰ انْفَرَدْتُمْ دُونَنَا بِالْمُرُورِ ؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ

هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ [الحَدِيْد: ١٤-١٥].

هُمْ كَثِيْرٌ ـ لا كَثَّرَهُمُ اللهُ ـ:

لَا تَسْتَطِلْ أَوْصَافَ الْقَوْمِ، فَالْمَتْرُوكُ وَاللهِ أَكْثَرُ مِنَ الْمَذْكُورِ، كَادَ الْقُرْآنُ أَنْ يَكُونَ كُلُّهُ فِي شَأْنِهِمْ، لِكَثْرَتِهِمْ عَلَىٰ ظَهْرِ الأَرْضِ وَفِي أَجْوَافِ الْقُبُورِ، فَلَا خَلَتْ بِقَاعُ الأَرْضِ مِنْهُمْ لِئَلَّا يَسْتَوْحِشَ الْمُؤْمِنُونَ فِي الطُّرُقَاتِ، وَتَتَعَطَّلَ بِهِمْ أَسْبَابُ الْمَعَايِشِ، وَتَخْطَفَهُمُ الْوُحُوشُ وَالسِّبَاعُ فِي الْفَلَوَاتِ، سَمِعَ حُذَيْفَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- رَجُلًا يَقُولُ: اللهُمَّ أَهْلِكِ الْمُنَافِقِينَ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، لَوْ هَلَكَ الْمُنَافِقُونَ لَاسْتَوْحَشْتُمْ فِي طُرُقَاتِكُمْ مِنْ قِلَّةِ السَّالِكِ.

خَوْفُ الْمُؤْمِنِيْنَ الصَّادِقِيْنَ مِنَ النِّفَاقِ:

تَاللهِ لَقَدْ قَطَّعَ خَوْفُ النِّفَاقِ قُلُوبَ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ، لِعِلْمِهِمْ بِدِقِّهِ وَجِلِّهِ وَتَفَاصِيلِهِ وَجُمَلِهِ، سَاءَتْ ظُنُونُهُمْ بِنُفُوسِهِمْ حَتَّىٰ خَشُوا أَنْ يَكُونُوا مِنْ جُمْلَةِ الْمُنَافِقِينَ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِحُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: يَا حُذَيْفَةُ، نَشَدْتُكَ بِاللهِ، هَلْ سَمَّانِي لَكَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْهُمْ؟ قَالَ: لَا، وَلَا أُزَكِّي بَعْدَكَ أَحَدًا.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَىٰ نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّ

إِيمَانُهُ كَإِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ.

وَذُكِرَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: مَا أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ، وَمَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَقَدْ ذُكِرَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِه: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ خُشُوعِ النِّفَاقِ، قِيلَ: وَمَا خُشُوعُ النِّفَاقِ ؟، قَالَ: أَنْ يُرَىٰ الْبَدَنُ خَاشِعًا وَالْقَلْبُ لَيْسَ بِخَاشِعٍ.

تَاللهِ لَقَدْ مُلِئَتْ قُلُوبُ الْقَوْمِ إِيمَانًا وَيَقِينًا، وَخَوْفُهُمْ مِنَ النِّفَاقِ شَدِيدٌ، وَهَمُّهُمْ لِذَلِكَ ثَقِيلٌ، وَسِوَاهُمْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، وَهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّ إِيمَانَهُمْ كَإِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ.

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْبُتُ النِّفَاقُ :

زَرْعُ النِّفَاقِ يَنْبُتُ عَلَىٰ سَاقِيَتَيْنِ: سَاقِيَةِ الْكَذِبِ، وَسَاقِيَةِ الرِّيَاءِ، وَمَخْرَجُهُمَا مِنْ عَيْنَيْنِ: عَيْنِ ضَعْفِ الْبَصِيرَةِ، وَعَيْنِ ضَعْفِ الْعَزِيمَةِ، فَإِذَا تَمَّتْ هَذِهِ الأَرْكَانُ الأَرْبَعُ اسْتَحْكَمَ نَبَاتُ النِّفَاقِ وَبُنْيَانُهُ، وَلَكِنَّهُ بِمَدَارِجِ السُّيُولِ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ، فَإِذَا شَاهَدُوا سَيْلَ الْحَقَائِقِ يَوْمَ تُبْلَىٰ السَّرَائِرُ، وَكُشِفَ الْمَسْتُورُ، وَبُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ، تَبَيَّنَ حِينَئِذٍ لِمَنْ كَانَتْ بِضَاعَتُهُ النِّفَاقَ أَنَّ حَوَاصِلَهُ الَّتِي حَصَّلَهَا كَانَتْ كَالسَّرَابِ ﴿ **يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ** ﴾ [النُّور:٣٩] .

قُلُوبُهُمْ عَنِ الْخَيْرَاتِ لَاهِيَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ إِلَيْهَا سَاعِيَةٌ، وَالْفَاحِشَةُ فِي فِجَاجِهِمْ فَاشِيَةٌ، وَإِذَا سَمِعُوا الْحَقَّ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ سَمَاعِهِ قَاسِيَةً، وَإِذَا حَضَرُوا الْبَاطِلَ وَشَهِدُوا الزُّورَ انْفَتَحَتْ أَبْصَارُ قُلُوبِهِمْ، وَكَانَتْ آذَانُهُمْ وَاعِيَةً

فَهَذِهِ -وَاللهِ- أَمَارَاتُ النِّفَاقِ، فَاحْذَرْهَا أَيُّهَا الرَّجُلُ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ بِكَ الْقَاضِيَةُ، إِذَا عَاهَدُوا لَمْ يَفُوا، وَإِنْ وَعَدُوا أَخْلَفُوا، وَإِنْ قَالُوا لَمْ يُنْصِفُوا، وَإِنْ دُعُوا إِلَىٰ الطَّاعَةِ وَقَفُوا، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ صَدَفُوا، وَإِذَا دَعَتْهُمْ أَهْوَاؤُهُمْ إِلَىٰ أَغْرَاضِهِمْ أَسْرَعُوا إِلَيْهَا وَانْصَرَفُوا، فَذَرْهُمْ وَمَا اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْهَوَانِ، وَالْخِزْيِ وَالْخُسْرَانِ، فَلَا تَثِقْ بِعُهُودِهِمْ، وَلَا تَطْمَئِنَّ إِلَىٰ وُعُودِهِمْ، فَإِنَّهُمْ فِيهَا كَاذِبُونَ، وَهُمْ لِمَا سِوَاهَا مُخَالِفُونَ ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التَّوْبَةُ: ٧٥-٧٧].

الْفُسُوقُ:

وَأَمَّا الْفُسُوقُ: فَهُوَ فِي كِتَابِ اللهِ نَوْعَانِ: مُفْرَدٌ مُطْلَقٌ، وَمَقْرُونٌ بِالْعِصْيَانِ.

وَالْمُفْرَدُ نَوْعَانِ أَيْضًا: فُسُوقُ كُفْرٍ، يُخْرِجُ عَنِ الإِسْلَامِ، وَفُسُوقٌ لَا يُخْرِجُ عَنِ الإِسْلَامِ، فَالْمَقْرُونُ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الحُجُرَات : ٧] .

وَالْمُفْرَدُ الَّذِي هُوَ فُسُوقُ كُفْرٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ [البَقَرَة : ٢٦-٢٧] ، وَقَوْلِهِ -عَزَّ وَجَلَّ- ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [البَقَرَة : ٩٩] ، وَقَوْلِهِ: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا ﴾ [السَّجْدَة : ٢٠] ، فَهَذَا كُلُّهُ فُسُوقُ كُفْرٍ.

وَأَمَّا الْفُسُوقُ الَّذِي لَا يُخْرِجُ عَنِ الإِسْلَامِ فَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ ﴾[البَقَرَة : ٢٨٢]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ ﴾ [الحُجُرَات : ٦] .

فَإِنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ لَمَّا بَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَىٰ بَنِي الْمُصْطَلَقِ بَعْدَ الْوَقْعَةِ مُصَدِّقًا، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَدَاوَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا سَمِعَ الْقَوْمُ بِمَقْدَمِهِ تَلَقَّوْهُ، تَعْظِيمًا

لأَمْرِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَحَدَّثَهُ الشَّيْطَانُ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ قَتْلَهُ، فَهَابَهُمْ فَرَجَعَ مِنَ الطَّرِيقِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ: إِنَّ بَنِي الْمُصْطَلَقِ مَنَعُوا صَدَقَاتِهِمْ، وَأَرَادُوا قَتْلِي، فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَهَمَّ أَنْ يَغْزُوَهُمْ، فَبَلَغَ الْقَوْمَ رُجُوعُهُ فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، سَمِعْنَا بِرَسُولِكَ، فَخَرَجْنَا نَتَلَقَّاهُ وَنُكْرِمُهُ، وَنُؤَدِّي إِلَيْهِ مَا قَبِلْنَا مِنْ حَقِّ اللهِ، فَبَدَا لَهُ فِي الرُّجُوعِ، فَخَشِينَا أَنَّهُ إِنَّمَا رَدَّهُ مِنَ الطَّرِيقِ كِتَابٌ جَاءَ مِنْكَ لِغَضَبٍ غَضِبْتَهُ عَلَيْنَا، وَإِنَّا نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ غَضَبِهِ وَغَضَبِ رَسُولِهِ، فَاتَّهَمَهُمْ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَبَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ خُفْيَةً فِي عَسْكَرٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُخْفِيَ عَلَيْهِمْ قُدُومَهُ، وَقَالَ لَهُ: انْظُرْ، فَإِنْ رَأَيْتَ مِنْهُمْ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ إِيمَانِهِمْ فَخُذْ مِنْهُمْ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، وَإِنْ لَمْ تَرَ ذَلِكَ فَاسْتَعْمِلْ فِيهِمْ مَا تَسْتَعْمِلُ فِي الْكُفَّارِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ خَالِدٌ، وَوَافَاهُمْ، فَسَمِعَ مِنْهُمْ أَذَانَ صَلَاتَيِ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، فَأَخَذَ مِنْهُمْ صَدَقَاتِهِمْ، وَلَمْ يَرَ مِنْهُمْ إِلَّا الطَّاعَةَ وَالْخَيْرَ، فَرَجَعَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَنَزَلَ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾[1] [الحُجُرَات: ٦].

وَالنَّبَأُ هُوَ الْخَبَرُ الْغَائِبُ عَنِ الْمُخْبَرِ إِذَا كَانَ لَهُ شَأْنٌ، وَالتَّبَيُّنُ طَلَبُ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ أَحْمَدُ (٤/ ٢٧٩)، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي «الكَبِيرِ» (٣٣٩٥).

بَيَانِ حَقِيقَتِهِ وَالْإِحَاطَةِ بِهَا عِلْمًا.

فَائِدَةٌ فِي خَبَرِ الفَاسِقِ :

وَهَاهُنَا فَائِدَةٌ لَطِيفَةٌ، وَهِيَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَأْمُرْ بِرَدِّ خَبَرِ الْفَاسِقِ وَتَكْذِيبِهِ وَرَدِّ شَهَادَتِهِ جُمْلَةً، وَإِنَّمَا أَمَرَ بِالتَّبَيُّنِ، فَإِنْ قَامَتْ قَرَائِنُ وَأَدِلَّةٌ مِنْ خَارِجٍ تَدُلُّ عَلَىٰ صِدْقِهِ عُمِلَ بِدَلِيلِ الصِّدْقِ، وَلَوْ أَخْبَرَ بِهِ مَنْ أَخْبَرَ، فَهَكَذَا يَنْبَغِي الاعْتِمَادُ فِي رِوَايَةِ الْفَاسِقِ وَشَهَادَتِهِ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْفَاسِقِينَ يَصْدُقُونَ فِي أَخْبَارِهِمْ وَرِوَايَاتِهِمْ وَشَهَادَاتِهِمْ، بَلْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَتَحَرَّىٰ الصِّدْقَ غَايَةَ التَّحَرِّي، وَفِسْقُهُ مِنْ جِهَاتٍ أُخَرَ، فَمِثْلُ هَذَا لَا يُرَدُّ خَبَرُهُ وَلَا شَهَادَتُهُ، وَلَوْ رُدَّتْ شَهَادَةُ مِثْلِ هَذَا وَرِوَايَتُهُ لَتَعَطَّلَتْ أَكْثَرُ الْحُقُوقِ، وَبَطَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَخْبَارِ الصَّحِيحَةِ، وَلَاسِيَّمَا مَنْ فِسْقُهُ مِنْ جِهَةِ الاعْتِقَادِ وَالرَّأْيِ، وَهُوَ مُتَحَرٍّ لِلصِّدْقِ، فَهَذَا لَا يُرَدُّ خَبَرُهُ وَلَا شَهَادَتُهُ.

وَأَمَّا مَنْ فِسْقُهُ مِنْ جِهَةِ الْكَذِبِ فَإِنْ كَثُرَ مِنْهُ وَتَكَرَّرَ، بِحَيْثُ يَغْلِبُ كَذِبُهُ عَلَىٰ صِدْقِهِ، فَهَذَا لَا يُقْبَلُ خَبَرُهُ وَلَا شَهَادَتُهُ، وَإِنْ نَدُرَ مِنْهُ مَرَّةً وَمَرَّتَيْنِ، فَفِي رَدِّ شَهَادَتِهِ وَخَبَرِهِ بِذَلِكَ قَوْلَانِ لِلْعُلَمَاءِ، وَهُمَا رِوَايَتَانِ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ -رَحِمَهُ اللهُ- .

وَالْمَقْصُودُ ذِكْرُ الْفُسُوقِ الَّذِي لَا يَخْرُجُ إِلَىٰ الْكُفْرِ.

التَّوْبَةُ مِنَ الفُسُوقِ :

وَالْفُسُوقُ الَّذِي تَجِبُ التَّوْبَةُ مِنْهُ أَعَمُّ مِنَ الْفُسُوقِ الَّذِي تُرَدُّ بِهِ الرِّوَايَةُ وَالشَّهَادَةُ.

وَكَلَامُنَا الْآنَ فِيمَا تَجِبُ التَّوْبَةُ مِنْهُ، وَهُوَ قِسْمَانِ: فِسْقٌ مِنْ جِهَةِ الْعَمَلِ، وَفِسْقٌ مِنْ جِهَةِ الاعْتِقَادِ.

فَفِسْقُ الْعَمَلِ نَوْعَانِ: مَقْرُونٌ بِالْعِصْيَانِ وَمُفْرَدٌ.

فَالْمَقْرُونُ بِالْعِصْيَانِ: هُوَ ارْتِكَابُ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ، وَالْعِصْيَانُ: هُوَ عِصْيَانُ أَمْرِهِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ **لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ** ﴾ [التَّحْرِيم: ٦] ، وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- ﴿ **مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾** ﴾ [طَه: ٩٢-٩٣] ، وَقَالَ الشَّاعِرُ:

أَمَرْتُكَ أَمْرًا جَازِمًا فَعَصَيْتَنِي ... فَأَصْبَحْتَ مَسْلُوبَ الْإِمَارَةِ نَادِمًا

فَالْفِسْقُ أَخَصُّ بِارْتِكَابِ النَّهْيِ، وَلِهَذَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ كَثِيرًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْ** ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢] ، وَالْمَعْصِيَةُ أَخَصُّ بِمُخَالَفَةِ الْأَمْرِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَيُطْلَقُ كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ [الكَهْف: ٥٠] ، فَسَمَّى مُخَالَفَتَهُ لِلْأَمْرِ فِسْقًا، وَقَالَ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى فَسَمَّى ارْتِكَابَهُ

لِلنَّهْيِ مَعْصِيَةً، فَهَذَا عِنْدَ الْإِفْرَادِ، فَإِذَا اقْتَرَنَا كَانَ أَحَدُهُمَا لِمُخَالَفَةِ الْأَمْرِ، وَالْآخَرُ لِمُخَالَفَةِ النَّهْيِ.

وَالتَّقْوَىٰ اتِّقَاءُ مَجْمُوعِ الْأَمْرَيْنِ، وَبِتَحْقِيقِهَا تَصِحُّ التَّوْبَةُ مِنَ الْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، بِأَنْ يَعْمَلَ الْعَبْدُ بِطَاعَةِ اللهِ عَلَىٰ نُورٍ مِنَ اللهِ، يَرْجُو ثَوَابَ اللهِ، وَيَتْرُكُ مَعْصِيَةَ اللهِ، عَلَىٰ نُورٍ مِنَ اللهِ، يَخَافُ عِقَابَ اللهِ.

وَفِسْقُ الِاعْتِقَادِ كَفِسْقِ أَهْلِ الْبِدَعِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ، وَيُوجِبُونَ مَا أَوْجَبَ اللهُ، وَلَكِنْ يَنْفُونَ كَثِيرًا مِمَّا أَثْبَتَ اللهُ وَرَسُولُهُ، جَهْلًا وَتَأْوِيلًا، وَتَقْلِيدًا لِلشُّيُوخِ، وَيُثْبِتُونَ مَا لَمْ يُثْبِتْهُ اللهُ وَرَسُولُهُ كَذَلِكَ.

وَهَؤُلَاءِ كَالْخَوَارِجِ الْمَارِقَةِ، وَكَثِيرٍ مِنَ الرَّوَافِضِ، وَالْقَدَرِيَّةِ، وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَكَثِيرٍ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ الَّذِينَ لَيْسُوا غُلَاةً فِي التَّجَهُّمِ.

وَأَمَّا غَالِيَةُ الْجَهْمِيَّةِ فَكَغُلَاةِ الرَّافِضَةِ، لَيْسَ لِلطَّائِفَتَيْنِ فِي الْإِسْلَامِ نَصِيبٌ.

وَلِذَلِكَ أَخْرَجَهُمْ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ مِنَ الثِّنْتَيْنِ وَالسَّبْعِينَ فِرْقَةً، وَقَالُوا: هُمْ مُبَايِنُونَ لِلْمِلَّةِ.

وَلَيْسَ مَقْصُودُنَا الْكَلَامَ فِي أَحْكَامِ هَؤُلَاءِ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ تَحْقِيقُ التَّوْبَةِ مِنْ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ الْعَشَرَةِ.

فَالتَّوْبَةُ مِنْ هَذَا الْفُسُوقِ: بِإِثْبَاتِ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ وَرَسُولُهُ، مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ وَلَا تَمْثِيلٍ، وَتَنْزِيهِهِ عَمَّا نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْهُ وَنَزَّهَهُ عَنْهُ رَسُولُهُ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَتَلَقِّي النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ مِنْ مِشْكَاةِ الْوَحْيِ، لَا مِنْ آرَاءِ الرِّجَالِ وَنَتَائِجِ أَفْكَارِهِمُ الَّتِي هِيَ مَنْشَأُ الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ.

شُرُوطُ تَوْبَةِ الْفُسَّاقِ مِنْ جِهَةِ الِاعْتِقَادِ:

فَتَوْبَةُ هَؤُلَاءِ الْفُسَّاقِ مِنْ جِهَةِ الِاعْتِقَادَاتِ الْفَاسِدَةِ بِمَحْضِ اتِّبَاعِ السُّنَّةِ، وَلَا يُكْتَفَىٰ مِنْهُمْ بِذَلِكَ أَيْضًا حَتَّىٰ يُبَيِّنُوا فَسَادَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْبِدْعَةِ، إِذِ التَّوْبَةُ مِنْ ذَنْبٍ هِيَ بِفِعْلِ ضِدِّهِ، وَلِهَذَا شَرَطَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي تَوْبَةِ الْكَاتِمِينَ ﴿مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ الْبَيَانَ، لِأَنَّ ذَنْبَهُمْ لَمَّا كَانَ بِالْكِتْمَانِ، كَانَتْ تَوْبَتُهُمْ مِنْهُ بِالْبَيَانِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠]، وَذَنْبُ الْمُبْتَدِعِ فَوْقَ ذَنْبِ الْكَاتِمِ، لِأَنَّ ذَاكَ كَتَمَ الْحَقَّ، وَهَذَا كَتَمَهُ وَدَعَا إِلَّا خِلَافِهِ، فَكُلُّ مُبْتَدِعٍ كَاتِمٌ وَلَا يَنْعَكِسُ.

شُرُوطُ تَوْبَةِ الْمُنَافِقِينَ:

وَشَرَطَ فِي تَوْبَةِ الْمُنَافِقِ الْإِخْلَاصَ؛ لِأَنَّ ذَنْبَهُ بِالرِّيَاءِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النِّسَاء: ١٤٥-١٤٦].

شُرُوطُ تَوْبَةِ القَاذِفِ:

تَوْبَةَ الْقَاذِف إِكْذَابُهُ نَفْسَهُ، لأَنَّهُ ضِدُّ الذَّنْب الَّذِي ارْتَكَبَهُ، وَهَتَكَ بِهِ عِرْضَ الْمُسْلِمِ الْمُحْصَنِ، فَلَا تَحْصُلُ التَّوْبَةُ مِنْهُ إِلَّا بِإِكْذَابِهِ نَفْسَهُ، لِيَنْتَفِيَ عَنِ الْمَقْذُوفِ الْعَارُ الَّذِي أَلْحَقَهُ بِهِ بِالْقَذْفِ، وَهُوَ مَقْصُودُ التَّوْبَةِ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ: إِنَّ تَوْبَتَهُ أَنْ يَقُولَ أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنَ الْقَذْفِ، وَيَعْتَرِفَ بِتَحْرِيمِهِ، فَقَوْلٌ ضَعِيفٌ لأَنَّ هَذَا لَا مَصْلَحَةَ فِيهِ لِلْمَقْذُوفِ، وَلَا يَحْصُلُ لَهُ بِهِ بَرَاءَةُ عِرْضِهِ مِمَّا قَذَفَهُ بِهِ، فَلَا يَحْصُلُ بِهِ مَقْصُودُ التَّوْبَةِ مِنْ هَذَا الذَّنْبِ، فَإِنَّ فِيهِ حَقَّيْنِ: حَقًّا للهِ، وَهُوَ تَحْرِيمُ الْقَذْفِ، فَتَوْبَتُهُ مِنْهُ بِاسْتِغْفَارِهِ، وَاعْتِرَافِهِ بِتَحْرِيمِ الْقَذْفِ، وَنَدَمِهِ عَلَيْهِ، وَعَزْمِهِ عَلَىٰ أَنْ لَا يَعُودَ، وَحَقًّا لِلْعَبْدِ، وَهُوَ إِلْحَاقُ الْعَارِ بِهِ، فَتَوْبَتُهُ مِنْهُ بِتَكْذِيبِهِ نَفْسَهُ، فَالتَّوْبَةُ مِنْ هَذَا الذَّنْبِ بِمَجْمُوعِ الأَمْرَيْنِ.

تَوْبَةُ السَّارِقِ:

وَاخْتُلِفَ فِي تَوْبَةِ السَّارِقِ إِذَا قُطِعَتْ يَدُهُ، هَلْ مِنْ شَرْطِهَا ضَمَانُ

الْعَيْنِ الْمَسْرُوقَةِ لِرَبِّهَا ؟ .

وَأَجْمَعُوا عَلَىٰ أَنَّ مِنْ شَرْطِ صِحَّةِ تَوْبَتِهِ أَدَاؤُهَا إِلَيْهِ، إِذَا كَانَتْ مَوْجُودَةً بِعَيْنِهَا، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا إِذَا كَانَتْ تَالِفَةً، فَقَالَ الشَّافِعِيُّ، وَأَحْمَدُ: مِنْ تَمَامِ تَوْبَتِهِ ضَمَانُهَا لِمَالِكِهَا، وَيَلْزَمُهُ ذَلِكَ، مُوسِرًا كَانَ أَوْ مُعْسِرًا .

الإِثْمُ والعُدْوَانِ:

وَأَمَّا الإِثْمُ وَالْعُدْوَانُ فَهُمَا قَرِينَانِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ **وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ** ﴾ [المائدة: ٢]، وَكُلٌّ مِنْهُمَا إِذَا أُفْرِدَ تَضَمَّنَ الآخَرَ، فَكُلُّ إِثْمٍ عُدْوَانٌ، إِذْ هُوَ فِعْلُ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ، أَوْ تَرْكُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، فَهُوَ عُدْوَانٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَكُلُّ عُدْوَانٍ إِثْمٌ، فَإِنَّهُ يَأْثَمُ بِهِ صَاحِبُهُ، وَلَكِنْ عِنْدَ اقْتِرَانِهِمَا فَهُمَا شَيْئَانِ بِحَسَبِ مُتَعَلِّقِهِمَا وَوَصْفِهِمَا.

تَعْرِيفُ الإِثْمِ :

فَالإِثْمُ: مَا كَانَ مُحَرَّمَ الْجِنْسِ كَالْكَذِبِ، وَالزِّنَا، وَشُرْبِ الْخَمْرِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَالْعُدْوَانُ مَا كَانَ مُحَرَّمَ الْقَدْرِ وَالزِّيَادَةِ.

تَعْرِيفُ الْعُدْوَانِ :

فَالعُدْوَانُ: تَعَدِّي مَا أُبِيحَ مِنْهُ إِلَىٰ الْقَدْرِ الْمُحَرَّمِ وَالزِّيَادَةِ، كَالاعْتِدَاءِ

فِي أَخْذِ الْحَقِّ مِمَّنْ هُوَ عَلَيْهِ، إِمَّا بِأَنْ يَتَعَدَّىٰ عَلَىٰ مَالِهِ، أَوْ بَدَنِهِ أَوْ عِرْضِهِ، فَإِذَا غَصَبَهُ خَشَبَةً لَمْ يَرْضَ عِوَضَهَا إِلَّا دَارَهُ، وَإِذَا أَتْلَفَ عَلَيْهِ شَيْئًا أَتْلَفَ عَلَيْهِ أَضْعَافَهُ، وَإِذَا قَالَ فِيهِ كَلِمَةً قَالَ فِيهِ أَضْعَافَهَا، فَهَذَا كُلُّهُ عُدْوَانٌ وَتَعَدٍّ لِلْعَدْلِ .

أَنْوَاعُ الْعُدْوَانِ :

وَهَذَا الْعُدْوَانُ نَوْعَانِ: عُدْوَانٌ فِي حَقِّ اللهِ، وَعُدْوَانٌ فِي حَقِّ الْعَبْدِ، فَالْعُدْوَانُ فِي حَقِّ اللهِ كَمَا إِذَا تَعَدَّىٰ مَا أَبَاحَ اللهُ لَهُ مِنَ الْوَطْءِ الْحَلَالِ فِي الْأَزْوَاجِ وَالْمَمْلُوكَاتِ إِلَىٰ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ مِنْ سِوَاهُمَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ ﴾ [الْمُؤْمِنُون: ٥-٧] ، وَكَذَلِكَ تَعَدَّىٰ مَا أُبِيحَ لَهُ مِنْهُ قَدْرٌ مُعَيَّنٌ، فَتَعَدَّاهُ إِلَىٰ أَكْثَرَ مِنْهُ، فَهُوَ مِنَ الْعُدْوَانِ، كَمَنْ أُبِيحَ لَهُ إِسَاغَةُ الْغُصَّةِ بِجُرْعَةٍ مِنْ خَمْرٍ، فَتَنَاوَلَ الْكَأْسَ كُلَّهَا، أَوْ أُبِيحَ لَهُ نَظْرَةُ الْخِطْبَةِ، وَالسَّوْمُ، وَالشَّهَادَةُ، وَالْمُعَامَلَةُ، وَالْمُدَاوَاةُ، فَأَطْلَقَ عِنَانَ طَرْفِهِ فِي مَيَادِينِ مَحَاسِنِ الْمَنْظُورِ، وَأَسَامَ طَرْفَ نَاظِرِهِ فِي تِلْكَ الرِّيَاضِ وَالزُّهُورِ، فَتَعَدَّىٰ الْمُبَاحَ إِلَىٰ الْقَدْرِ الْمَحْظُورِ، وَحَامَ حَوْلَ الْحِمَىٰ الْمَحُوطِ الْمَحْجُورِ، فَصَارَ ذَا بَصَرٍ حَائِرٍ، وَقَلْبٍ عَنْ مَكَانِهِ طَائِرٍ.

الْفَحْشَاءُ وَالْمُنْكَرُ :

وَأَمَّا الْفَحْشَاءُ وَالْمُنْكَرُ فَالْفَحْشَاءُ صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ قَدْ حُذِفَ تَجْرِيدًا لِقَصْدِ الصِّفَةِ، وَهِيَ الْفِعْلَةُ الْفَحْشَاءُ، وَالْخَصْلَةُ الْفَحْشَاءُ، وَهِيَ مَا ظَهَرَ قُبْحُهَا لِكُلِّ أَحَدٍ، وَاسْتَفْحَشَهُ كُلُّ ذِي عَقْلٍ سَلِيمٍ، وَلِهَذَا فُسِّرَتْ بِالزِّنَا وَاللِّوَاطِ، وَسَمَّاهَا اللهُ فَاحِشَةً لِتَنَاهِي قُبْحِهِمَا، وَكَذَلِكَ الْقَبِيحُ مِنَ الْقَوْلِ يُسَمَّىٰ فُحْشًا، وَهُوَ مَا ظَهَرَ قُبْحُهُ جِدًّا مِنَ السَّبِّ الْقَبِيحِ، وَالْقَذْفِ وَنَحْوِهِ.

وَأَمَّا الْمُنْكَرُ فَصِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ أَيْضًا، أَيِ الْفِعْلُ الْمُنْكَرُ، وَهُوَ الَّذِي تَسْتَنْكِرُهُ الْعُقُولُ وَالْفِطَرُ، وَنِسْبَتُهُ إِلَيْهَا كَنِسْبَةِ الرَّائِحَةِ الْقَبِيحَةِ إِلَىٰ حَاسَّةِ الشَّمِّ، وَالْمَنْظَرِ الْقَبِيحِ إِلَىٰ الْعَيْنِ، وَالطَّعْمِ الْمُسْتَكْرَهِ إِلَىٰ الذَّوْقِ، وَالصَّوْتِ الْمُسْتَنْكَرِ إِلَىٰ الْأُذُنِ، فَمَا اشْتَدَّ إِنْكَارُ الْعُقُولِ وَالْفِطَرِ لَهُ فَهُوَ فَاحِشَةٌ، كَمَا فَحُشَ إِنْكَارُ الْحَوَاسِّ لَهُ مِنْ هَذِهِ الْمُدْرَكَاتِ.

فَالْمُنْكَرُ لَهَا مَا لَمْ تَعْرِفْهُ وَلَمْ تَأْلَفْهُ، وَالْقَبِيحُ الْمُسْتَكْرَهُ لَهَا الَّذِي تَشْتَدُّ نَفْرَتُهَا عَنْهُ هُوَ الْفَاحِشَةُ، وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْفَاحِشَةُ الزِّنَا، وَالْمُنْكَرُ مَا لَمْ يُعْرَفْ فِي شَرِيعَةٍ وَلَا سُنَّةٍ.

فَتَأَمَّلْ تَفْرِيقَهُ بَيْنَ مَا لَمْ يُعْرَفْ حُسْنُهُ وَلَمْ يُؤْلَفْ، وَبَيْنَ مَا اسْتَقَرَّ قُبْحُهُ فِي الْفِطَرِ وَالْعُقُولِ.

التَّوْبَةُ مِنَ البِدَعِ :

فَذُنُوبُ أَهْلِ الْبِدَعِ كُلُّهَا دَاخِلَةٌ تَحْتَ هَذَا الْجِنْسِ فَلَا تَتَحَقَّقُ التَّوْبَةُ مِنْهُ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنَ الْبِدَعِ.

وَأَنَّىٰ بِالتَّوْبَةِ مِنْهَا لِمَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهَا بِدْعَةٌ، أَوْ يَظُنُّهَا سُنَّةً، فَهُوَ يَدْعُو إِلَيْهَا، وَيَحُضُّ عَلَيْهَا ؟ فَلَا تَنْكَشِفُ لِهَذَا ذُنُوبُهُ الَّتِي تَجِبُ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ مِنْهَا إِلَّا بِتَضَلُّعِهِ مِنَ السُّنَّةِ، وَكَثْرَةِ اطِّلَاعِهِ عَلَيْهَا، وَدَوَامِ الْبَحْثِ عَنْهَا وَالتَّفْتِيشِ عَلَيْهَا، وَلَا تَرَىٰ صَاحِبَ بِدْعَةٍ كَذَلِكَ أَبَدًا.

فَإِنَّ السُّنَّةَ بِالذَّاتِ تَمْحَقُ الْبِدْعَةَ، وَلَا تَقُومُ لَهَا، وَإِذَا طَلَعَتْ شَمْسُهَا فِي قَلْبِ الْعَبْدِ قَطَعَتْ مِنْ قَلْبِهِ ضَبَابَ كُلِّ بِدْعَةٍ، وَأَزَالَتْ ظُلْمَةَ كُلِّ ضَلَالَةٍ، إِذْ لَا سُلْطَانَ لِلظُّلْمَةِ مَعَ سُلْطَانِ الشَّمْسِ، وَلَا يَرَىٰ الْعَبْدُ الْفَرْقَ بَيْنَ السُّنَّةِ وَالْبِدْعَةِ، وَيُعِينُهُ عَلَىٰ الْخُرُوجِ مِنْ ظُلْمَتِهَا إِلَىٰ نُورِ السُّنَّةِ، إِلَّا الْمُتَابَعَةُ، وَالْهِجْرَةُ بِقَلْبِهِ كُلَّ وَقْتٍ إِلَىٰ اللهِ، بِالاسْتِعَانَةِ وَالْإِخْلَاصِ، وَصِدْقِ اللَّجْإِ إِلَىٰ اللهِ، وَالْهِجْرَةِ إِلَىٰ رَسُولِهِ، بِالْحِرْصِ عَلَىٰ الْوُصُولِ إِلَىٰ أَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ وَهَدْيِهِ وَسُنَّتِهِ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ هَاجَرَ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ حَظُّهُ وَنَصِيبُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

التَّوْبَةُ مِنْ حُقُوقِ العِبَادِ الَّتِي تَعَذَّرَ رَدُّهَا :

وَأَمَّا فِي حُقُوقِ الْعِبَادِ فَيُتَصَوَّرُ فِي مَسَائِلَ:

إِحْدَاهَا: مَنْ غَصَبَ أَمْوَالًا ثُمَّ تَابَ وَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ رَدُّهَا إِلَىٰ أَصْحَابِهَا أَوْ إِلَىٰ وَرَثَتِهِمْ لِجَهْلِهِ بِهِمْ أَوْ لِانْقِرَاضِهِمْ أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ، فَاخْتُلِفَ فِي تَوْبَةِ مِثْلِ هَذَا.

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: لَا تَوْبَةَ لَهُ إِلَّا بِأَدَاءِ هَذِهِ الْمَظَالِمِ إِلَىٰ أَرْبَابِهَا، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ قَدْ تَعَذَّرَ عَلَيْهِ فَقَدْ تَعَذَّرَتْ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ، وَالْقِصَاصُ أَمَامَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَيْسَ إِلَّا.

قَالُوا: فَإِنَّ هَذَا حَقٌّ لِآدَمِيٍّ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ لَا يَتْرُكُ مِنْ حُقُوقِ عِبَادِهِ شَيْئًا، بَلْ يَسْتَوْفِيهَا لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، وَلَا يُجَاوِزُهُ ظُلْمُ ظَالِمٍ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَأْخُذَ لِلْمَظْلُومِ حَقَّهُ مِنْ ظَالِمِهِ، وَلَوْ لَطْمَةً وَلَوْ كَلِمَةً وَلَوْ رَمْيَةً بِحَجَرٍ.

قَالُوا: وَأَقْرَبُ مَا لِهَذَا فِي تَدَارُكِ الْفَارِطِ مِنْهُ أَنْ يُكْثِرَ مِنَ الْحَسَنَاتِ لِيَتَمَكَّنَ مِنَ الْوَفَاءِ مِنْهَا يَوْمَ لَا يَكُونُ الْوَفَاءُ بِدِينَارٍ وَلَا بِدِرْهَمٍ فَيَتَّجِرُ تِجَارَةً يُمْكِنُهُ الْوَفَاءُ مِنْهَا، وَمِنْ أَنْفَعِ مَا لَهُ: الصَّبْرُ عَلَىٰ ظُلْمِ غَيْرِهِ لَهُ وَأَذَاهُ وَغِيبَتِهِ وَقَذْفِهِ، فَلَا يَسْتَوْفِي حَقَّهُ فِي الدُّنْيَا وَلَا يُقَابِلُهُ لِيُحِيلَ خَصْمَهُ عَلَيْهِ إِذَا أَفْلَسَ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنَّهُ كَمَا يُؤْخَذُ مِنْهُ مَا عَلَيْهِ يَسْتَوْفِي أَيْضًا مَا لَهُ،

وَقَدْ يَتَسَاوَيَانِ، وَقَدْ يَزِيدُ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ فِي حُكْمِ مَا بِيَدِهِ مِنَ الْأَمْوَالِ.

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: يُوقَفُ أَمْرُهَا وَلَا يَتَصَرَّفُ فِيهَا الْبَتَّةَ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: يَدْفَعُهَا إِلَىٰ الْإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ؛ لِأَنَّهُ وَكِيلُ أَرْبَابِهَا فَيَحْفَظُهَا لَهُمْ، وَيَكُونُ حُكْمُهَا حُكْمَ الْأَمْوَالِ الضَّائِعَةِ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى: بَلْ بَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ لِهَذَا وَلَمْ يُغْلِقْهُ اللهُ عَنْهُ وَلَا عَنْ مُذْنِبٍ، وَتَوْبَتُهُ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِتِلْكَ الْأَمْوَالِ عَنْ أَرْبَابِهَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ اسْتِيفَاءِ الْحُقُوقِ كَانَ لَهُمُ الْخِيَارُ بَيْنَ أَنْ يُجِيزَا مَا فَعَلَ وَتَكُونَ أُجُورُهَا لَهُمْ، وَبَيْنَ أَنْ لَا يُجِيزُوا وَيَأْخُذُوا مِنْ حَسَنَاتِهِ بِقَدْرِ أَمْوَالِهِمْ وَيَكُونَ ثَوَابُ تِلْكَ الصَّدَقَةِ لَهُ إِذْ لَا يُبْطِلُ اللهُ سُبْحَانَهُ ثَوَابَهَا، وَلَا يَجْمَعُ لِأَرْبَابِهَا بَيْنَ الْعِوَضِ وَالْمُعَوَّضِ، فَيُغَرِّمُهُ إِيَّاهَا وَيَجْعَلُ أَجْرَهَا لَهُمْ وَقَدْ غُرِّمَ مِنْ حَسَنَاتِهِ بِقَدْرِهَا.

وَهَذَا مَذْهَبُ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ كَمَا هُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَمُعَاوِيَةَ، وَحَجَّاجِ بْنِ الشَّاعِرِ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ اشْتَرَىٰ مِنْ رَجُلٍ جَارِيَةً وَدَخَلَ يَزِنُ لَهُ الثَّمَنَ، فَذَهَبَ رَبُّ الْجَارِيَةِ، فَانْتَظَرَهُ حَتَّىٰ يَئِسَ مِنْ عَوْدِهِ، فَتَصَدَّقَ بِالثَّمَنِ وَقَالَ: اللهُمَّ هَذَا عَنْ رَبِّ الْجَارِيَةِ فَإِنْ رَضِيَ فَالْأَجْرُ لَهُ، وَإِنْ أَبَىٰ فَالْأَجْرُ لِي وَلَهُ مِنْ حَسَنَاتِي بِقَدْرِهِ، وَغَلَّ

رَجُلٌ مِنَ الْغَنِيمَةِ ثُمَّ تَابَ فَجَاءَ بِمَا غَلَّهُ إِلَىٰ أَمِيرِ الْجَيْشِ فَأَبَىٰ أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ وَقَالَ: كَيْفَ لِي بِإِيصَالِهِ إِلَىٰ الْجَيْشِ وَقَدْ تَفَرَّقُوا ؟ ، فَأَتَىٰ حَجَّاجَ بْنَ الشَّاعِرِ فَقَالَ: يَا هَذَا إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ الْجَيْشَ وَأَسْمَاءَهُمْ وَأَنْسَابَهُمْ، فَادْفَعْ خُمُسَهُ إِلَىٰ صَاحِبِ الْخُمُسِ وَتَصَدَّقْ بِالْبَاقِي عَنْهُمْ، فَإِنَّ اللهَ يُوصِلُ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ أَوْ كَمَا قَالَ فَفَعَلَ، فَلَمَّا أَخْبَرَ مُعَاوِيَةَ قَالَ: لَأَنْ أَكُونَ أَفْتَيْتُكَ بِذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نِصْفِ مُلْكِي.

فِي الْعِوَضِ الْمُحَرَّمِ يُتَصَدَّقَ بِهِ :

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : إِذَا عَاوَضَ غَيْرَهُ مُعَاوَضَةً مُحَرَّمَةً ، وَقَبَضَ الْعِوَضَ كَالزَّانِيَةِ وَالْمُغَنِّي وَبَائِعِ الْخَمْرِ وَشَاهِدِ الزُّورِ وَنَحْوِهِمْ ثُمَّ تَابَ وَالْعِوَضُ بِيَدِهِ .

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : يَرُدُّهُ إِلَىٰ مَالِكِهِ إِذْ هُوَ عَيْنُ مَالِهِ ، وَلَمْ يَقْبِضْهُ بِإِذْنِ الشَّارِعِ وَلَا حَصَلَ لِرَبِّهِ فِي مُقَابَلَتِهِ نَفْعٌ مُبَاحٌ .

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : بَلْ تَوْبَتُهُ بِالتَّصَدُّقِ بِهِ ، وَلَا يَدْفَعُهُ إِلَىٰ مَنْ أَخَذَهُ مِنْهُ، وَهُوَ اخْتِيَارُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ ، وَهُوَ أَصْوَبُ الْقَوْلَيْنِ ، فَإِنَّ قَابِضَهُ إِنَّمَا قَبَضَهُ بِبَذْلِ مَالِكِهِ لَهُ وَرِضَاهُ بِبَذْلِهِ ، وَقَدِ اسْتَوْفَىٰ عِوَضَهُ الْمُحَرَّمَ ، فَكَيْفَ يَجْمَعُ لَهُ بَيْنَ الْعِوَضِ وَالْمُعَوَّضِ ؟، وَكَيْفَ يَرُدُّ عَلَيْهِ مَالًا قَدِ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَىٰ مَعَاصِي اللهِ ، وَرَضِيَ بِإِخْرَاجِهِ فِيمَا يَسْتَعِينُ بِهِ

عَلَيْهَا ثَانِيًا وَثَالِثًا ؟، وَهَلْ هَذَا إِلَّا مَحْضُ إِعَانَته عَلَىٰ الْإِثْم وَالْعُدْوَان ؟، وَهَلْ يُنَاسِبُ هَذَا مَحَاسِنَ الشَّرْع أَنْ يُقْضَىٰ لِلزَّانِي بِكُلِّ مَا دَفَعَهُ إِلَىٰ مَنْ زَنَىٰ بِهَا، وَيُؤْخَذ مِنْهَا ذَلِك طَوْعًا أَوْ كَرْهًا فَيُعْطَاهُ وَقَدْ نَالَ عِوَضَهُ ؟ .

وَهَبْ أَنَّ هَذَا الْمَالَ لَمْ يَمْلِكْهُ الْآخِذُ ، فَمِلْكُ صَاحِبه قَدْ زَالَ عَنْهُ بِإِعْطَائِهِ لِمَنْ أَخَذَهُ ، وَقَدْ سَلَّمَ لَهُ مَا فِي قُبَالَتِهِ مِنَ النَّفْع ، فَكَيْفَ يُقَالُ : مِلْكُهُ بَاقٍ عَلَيْهِ وَيَجِبُ رَدُّهُ إِلَيْهِ ؟ ، وَهَذَا بِخِلَاف أَمْرِه بِالصَّدَقَة بِه فَإِنَّهُ قَدْ أَخَذَهُ مِنْ وَجْه خَبِيث بِرِضَىٰ صَاحِبه وَبَذْلِه لَهُ بِذَلِك ، وَصَاحِبُهُ قَدْ رَضِيَ بِإِخْرَاجِه عَنْ مِلْكِه بِذَلِك ، وَأَنْ لَا يَعُودَ إِلَيْه فَكَانَ أَحَقَّ الْوُجُوه بِه صَرْفُهُ فِي الْمَصْلَحَة الَّتِي يَنْتَفِعُ بِهَا مَنْ قَبَضَهُ وَيُخَفَّفُ عَنْهُ الْإِثْمُ وَلَا يُقَوَّىٰ الْفَاجِرُ بِهِ وَيُعَانُ ، وَيُجْمَعُ لَهُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ .

وَهَكَذَا تَوْبَةُ مَن اخْتَلَطَ مَالُهُ الْحَلَالُ بِالْحَرَام ، وَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ تَمْيِيزُهُ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِقَدْرِ الْحَرَامِ وَيُطَيِّبَ بَاقِي مَالِهِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

فِي تَوْبَةِ الْغَاصِبِ وَتَعَذُّرُ رَدِّهُ عَلَيْهِ :

إِذَا غَصَبَ مَالًا وَمَاتَ رَبُّهُ وَتَعَذَّرَ رَدُّهُ عَلَيْهِ تَعَيَّنَ عَلَيْه رَدُّهُ إِلَىٰ وَارِثه، فَإِنْ مَاتَ الْوَارِثُ رَدَّهُ إِلَىٰ وَارِثه وَهَلُمَّ جَرًّا ، فَإِنْ لَمْ يَرُدَّهُ إِلَىٰ رَبِّه وَلَا إِلَىٰ أَحَد وَرَثَته فَهَلْ تَكُونُ الْمُطَالَبَةُ بِهِ فِي الْآخِرَة لِلْمَوْرُوث إِذْ هُوَ رَبُّهُ الْأَصْلِيُّ وَقَدْ غَصَبَهُ عَلَيْهِ أَوْ لِلْوَارِثِ الْأَخِيرِ إِذِ الْحَقُّ قَدِ انْتَقَلَ إِلَيْهِ ؟ .

فِيهِ قَوْلَانِ لِلْفُقَهَاءِ ، وَهُمْ وَجْهَانِ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ .

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ : الْمُطَالَبَةُ لِلْمَوْرُوثِ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْوَرَثَةِ ، إِذْ كُلُّ مِنْهُمْ قَدْ كَانَ يَسْتَحِقُّهُ وَيَجِبُ عَلَيْهِ الدَّفْعُ إِلَيْهِ فَقَدْ ظَلَمَهُ بِتَرْكِ إِعْطَائِهِ مَا وَجَبَ عَلَيْهِ دَفْعُهُ إِلَيْهِ ، فَيَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ الْمُطَالَبَةُ فِي الْآخِرَةِ لَهُ .

فَإِنْ قِيلَ : فَكَيْفَ يَتَخَلَّصُ بِالتَّوْبَةِ مِنْ حُقُوقِ هَؤُلَاءِ .

قِيلَ : طَرِيقُ التَّوْبَةِ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَنْهُمْ بِمَالٍ تَجْرِي مَنَافِعُ ثَوَابِهِ عَلَيْهِمْ بِقَدْرِ مَا فَاتَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنْ مَنْفَعَةِ ذَلِكَ الْمَالِ لَوْ صَارَ إِلَيْهِ مُتَحَرِّيًا لِلْمُمْكِنِ مِنْ ذَلِكَ ، وَهَكَذَا لَوْ تَطَاوَلَتْ عَلَى الْمَالِ سُنُونَ، وَقَدْ كَانَ يُمْكِنُ رَبَّهُ أَنْ يُنَمِّيَهُ بِالرِّبْحِ ، فَتَوْبَتُهُ بِأَنْ يُخْرِجَ الْمَالَ وَمِقْدَارَ مَا فَوَّتَهُ مِنْ رِبْحِ مَالِهِ .

فَإِنْ كَانَ قَدْ رَبِحَ فِيهِ بِنَفْسِهِ ، فَقِيلَ : الرِّبْحُ كُلُّهُ لِلْمَالِكِ ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ وَظَاهِرُ مَذْهَبِ أَحْمَدَ رَحِمَهُمَا اللهُ .

وَقِيلَ : كُلُّهُ لِلْغَاصِبِ ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ رَحِمَهُمَا اللهُ .

وَكَذَلِكَ لَوْ أَوْدَعَهُ مَالًا فَاتَّجَرَ بِهِ وَرَبِحَ ، فَرِبْحُهُ لَهُ دُونَ مَالِكِهِ عِنْدَهُمَا وَضَمَانُهُ عَلَيْهِ .

وَفِيهَا قَوْلٌ ثَالِثٌ : أَنَّهُمَا شَرِيكَانِ فِي الرِّبْحِ ، وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللهُ ، وَاخْتِيَارُ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللهُ ، وَهُوَ أَصَحُّ الْأَقْوَالِ ، فَتُضَمُّ حِصَّةُ

الْمَالِكِ مِنَ الرِّبْحِ إِلَىٰ أَصْلِ الْمَالِ وَيُتَصَدَّقُ بِذَلِكَ .

تَوْبَةُ القَاتِلِ :

إِذَا تَابَ الْقَاتِلُ مِنْ حَقِّ اللهِ، وَسَلَّمَ نَفْسَهُ طَوْعًا إِلَىٰ الْوَارِثِ لِيَسْتَوْفِيَ مِنْهُ حَقَّ مَوْرُوثِهِ سَقَطَ عَنْهُ الْحَقَّانِ، وَبَقِيَ حَقُّ الْمَوْرُوثِ لَا يُضَيِّعُهُ اللهُ، وَيَجْعَلُ مِنْ تَمَامِ مَغْفِرَتِهِ لِلْقَاتِلِ تَعْوِيضَ الْمَقْتُولِ ؛ لِأَنَّ مُصِيبَتَهُ لَمْ تَنْجَبِرْ بِقَتْلِ قَاتِلِهِ، وَالتَّوْبَةُ النَّصُوحُ تَهْدِمُ مَا قَبْلَهَا، فَيُعَوَّضُ هَذَا عَنْ مَظْلَمَتِهِ، وَلَا يُعَاقَبُ هَذَا لِكَمَالِ تَوْبَتِهِ، وَصَارَ هَذَا كَالْكَافِرِ الْمُحَارِبِ للهِ وَلِرَسُولِهِ إِذَا قَتَلَ مُسْلِمًا فِي الصَّفِّ ثُمَّ أَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يُعَوِّضُ هَذَا الشَّهِيدَ الْمَقْتُولَ، وَيَغْفِرُ لِلْكَافِرِ بِإِسْلَامِهِ وَلَا يُؤَاخِذُهُ بِقَتْلِ الْمُسْلِمِ ظُلْمًا فَإِنَّ هَدْمَ التَّوْبَةِ لِمَا قَبْلَهَا كَهَدْمِ الْإِسْلَامِ لِمَا قَبْلَهُ.

وَعَلَىٰ هَذَا إِذَا سَلَّمَ نَفْسَهُ وَانْقَادَ فَعَفَا عَنْهُ الْوَلِيُّ وَتَابَ الْقَاتِلُ تَوْبَةً نَصُوحًا فَاللهُ تَعَالَىٰ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ وَيُعَوِّضُ الْمَقْتُولَ.

فَهَذَا الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ نَظَرُ الْعَالِمِ وَاجْتِهَادُهُ، وَالْحُكْمُ بَعْدَ ذَلِكَ للهِ -عَزَّ وَجَلَّ- ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النَّمْلُ: ٧٨] .

فِي مَشَاهِدِ الْخَلْقِ فِي الْمَعْصِيَةِ :

وَهِيَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ مَشْهَدًا:

١- مَشْهَدُ الْحَيَوَانِيَّةِ وَقَضَاءِ الشَّهْوَةِ.

٢- وَمَشْهَدُ اقْتِضَاءِ رُسُومِ الطَّبِيعَةِ وَلَوَازِمِ الْخِلْقَةِ.

٣- وَمَشْهَدُ الْجَبْرِ.

٤- وَمَشْهَدُ الْقَدَرِ.

٥- وَمَشْهَدُ الْحِكْمَةِ.

٦- وَمَشْهَدُ التَّوْفِيقِ وَالْخِذْلَانِ.

٧- وَمَشْهَدُ التَّوْحِيدِ.

٨- وَمَشْهَدُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

٩- وَمَشْهَدُ الْإِيمَانِ وَتَعَدُّدِ شَوَاهِدِهِ.

١٠- وَمَشْهَدُ الرَّحْمَةِ.

١١- وَمَشْهَدُ الْعَجْزِ وَالضَّعْفِ.

١٢- وَمَشْهَدُ الذُّلِّ وَالِافْتِقَارِ.

١٣- وَمَشْهَدُ الْمَحَبَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ.

فَالْأَرْبَعَةُ الْأُوَلُ لِلْمُنْحَرِفِينَ، وَالثَّمَانِيَةُ الْبَوَاقِي لِأَهْلِ الِاسْتِقَامَةِ، وَأَعْلَاهَا الْمَشْهَدُ الْعَاشِرُ.

وَهَذَا الْفَصْلُ مِنْ أَجَلِّ فُصُولِ الْكِتَابِ وَأَنْفَعِهَا لِكُلِّ أَحَدٍ، وَهُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ تُثْنَىٰ عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ، وَلَعَلَّكَ لَا تَظْفَرُ بِهِ فِي كِتَابٍ سِوَاهُ إِلَّا مَا ذَكَرْنَاهُ فِي كِتَابِنَا الْمُسَمَّىٰ «سَفَرُ الْهِجْرَتَيْنِ فِي طَرِيقِ السَّعَادَتَيْنِ».

١ ـ مَشْهَدُ الْحَيَوَانِيَّةِ:

فَأَمَّا مَشْهَدُ الْحَيَوَانِيَّةِ وَقَضَاءِ الشَّهْوَةِ: فَمَشْهَدُ الْجُهَّالِ الَّذِينَ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَائِرِ الْحَيَوَانِ إِلَّا فِي اعْتِدَالِ الْقَامَةِ وَنُطْقِ اللِّسَانِ، لَيْسَ هَمُّهُمْ إِلَّا مُجَرَّدَ نَيْلِ الشَّهْوَةِ بِأَيِّ طَرِيقٍ أَفْضَتْ إِلَيْهَا، فَهَؤُلَاءِ نُفُوسُهُمْ نُفُوسٌ حَيَوَانِيَّةٌ لَمْ تَتَرَقَّ عَنْهَا إِلَىٰ دَرَجَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فَضْلًا عَنْ دَرَجَةِ الْمَلَائِكَةِ، فَهَؤُلَاءِ حَالُهُمْ أَخَسُّ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ، وَهُمْ فِي أَحْوَالِهِمْ مُتَفَاوِتُونَ بِحَسَبِ تَفَاوُتِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي هُمْ عَلَىٰ أَخْلَاقِهَا وَطِبَاعِهَا.

فَمِنْهُمْ: مَنْ نَفْسُهُ كَلْبِيَّةٌ، لَوْ صَادَفَ جِيفَةً تُشْبِعُ أَلْفَ كَلْبٍ لَوَقَعَ عَلَيْهَا وَحَمَاهَا مِنْ سَائِرِ الْكِلَابِ وَنَبَحَ كُلَّ كَلْبٍ يَدْنُو مِنْهَا، فَلَا تَقْرَبُهَا الْكِلَابُ إِلَّا عَلَىٰ كُرْهٍ مِنْهُ وَغَلَبَةٍ، وَلَا يَسْمَحُ لِكَلْبٍ بِشَيْءٍ مِنْهَا وَهَمُّهُ شِبَعُ بَطْنِهِ مِنْ أَيِّ طَعَامٍ اتَّفَقَ: مَيْتَةٍ أَوْ مُذَكًّى، خَبِيثٍ أَوْ طَيِّبٍ، وَلَا يَسْتَحِي مِنْ قَبِيحٍ، إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ، إِنْ أَطْعَمْتَهُ

بَصْبَصَ بِذَنَبِهِ وَدَارَ حَوْلَكَ، وَإِنْ مَنَعْتَهُ هَرَّكَ وَنَبَحَكَ.

وَمِنْهُمْ : مَنْ نَفْسُهُ حِمَارِيَّةٌ لَمْ تُخْلَقْ إِلَّا لِلْكَدِّ وَالْعَلَفِ، كُلَّمَا زِيدَ فِي عَلَفِهِ زِيدَ فِي كَدِّهِ، أَبْكَمُ الْحَيَوَانِ وَأَقَلُّهُ بَصِيرَةً، وَلِهَذَا مَثَّلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِهِ مَنْ حَمَلَهُ كِتَابَهُ فَلَمْ يَحْمِلْهُ مَعْرِفَةً وَلَا فِقْهًا وَلَا عَمَلًا، وَمَثَّلَ بِالْكَلْبِ عَالِمَ السُّوءِ الَّذِي آتَاهُ اللهُ آيَاتِهِ فَانْسَلَخَ مِنْهَا وَأَخْلَدَ إِلَىٰ الْأَرْضِ وَاتَّبَعْ هَوَاهُ، وَفِي هَذَيْنِ الْمَثَلَيْنِ أَسْرَارٌ عَظِيمَةٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ ذِكْرِهَا.

وَمِنْهُمْ : مَنْ نَفْسُهُ سَبُعِيَّةٌ غَضَبِيَّةٌ هِمَّتُهُ الْعُدْوَانُ عَلَىٰ النَّاسِ وَقَهْرُهُمْ بِمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ قُدْرَتُهُ، طَبِيعَتُهُ تَتَقَاضَىٰ ذَلِكَ كَتَقَاضِي طَبِيعَةِ السَّبُعِ لِمَا يَصْدُرُ مِنْهُ.

وَمِنْهُمْ : مَنْ نَفْسُهُ فَأْرِيَّةٌ فَاسِقٌ بِطَبْعِهِ مُفْسِدٌ لِمَا جَاوَرَهُ، تَسْبِيحُهُ بِلِسَانِ الْحَالِ: سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَهُ لِلْفَسَادِ.

وَمِنْهُمْ: مَنْ نَفْسُهُ عَلَىٰ نُفُوسِ ذَوَاتِ السُّمُومِ وَالْحُمَاتِ ، كَالْحَيَّةِ وَالْعَقْرَبِ وَغَيْرِهِمَا، وَهَذَا الضَّرْبُ هُوَ الَّذِي يُؤْذِي بِعَيْنِهِ فَيُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ وَالْجَمَلَ الْقِدْرَ، وَالْعَيْنُ وَحْدَهَا لَمْ تَفْعَلْ شَيْئًا وَإِنَّمَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ السُّمِّيَّةُ تَكَيَّفَتْ بِكَيْفِيَّةٍ غَضَبِيَّةٍ مَعَ شِدَّةِ حَسَدٍ وَإِعْجَابٍ، وَقَابَلَتِ الْمَعِينَ عَلَىٰ غِرَّةٍ مِنْهُ وَغَفْلَةٍ وَهُوَ أَعْزَلُ مِنْ سِلَاحِهِ فَلَدَغَتْهُ كَالْحَيَّةِ الَّتِي تَنْظُرُ إِلَىٰ مَوْضِعٍ مَكْشُوفٍ مِنْ بَدَنِ الْإِنْسَانِ فَتَنْهَشُهُ، فَإِمَّا عَطَبٌ وَإِمَّا أَذًى،

وَلِهَذَا لَا يَتَوَقَّفُ أَذَىٰ الْعَائِنِ عَلَىٰ الرُّؤْيَةِ وَالْمُشَاهَدَةِ بَلْ إِذَا وُصِفَ لَهُ الشَّيْءُ الْغَائِبُ عَنْهُ وَصَلَ إِلَيْهِ أَذَاهُ وَالذَّنْبُ لِجَهْلِ الْمَعِينِ وَغَفْلَتِهِ وَغِرَّتِهِ عَنْ حَمْلِ سِلَاحِهِ كُلَّ وَقْتٍ، فَالْعَائِنُ لَا يُؤَثِّرُ فِي شَاكِي السِّلَاحِ كَالْحَيَّةِ إِذَا قَابَلَتْ دِرْعًا سَابِغًا عَلَىٰ جَمِيعِ الْبَدَنِ لَيْسَ فِيهِ مَوْضِعٌ مَكْشُوفٌ، فَحَقٌّ عَلَىٰ مَنْ أَرَادَ حِفْظَ نَفْسِهِ وَحِمَايَتَهَا أَنْ لَا يَزَالَ مُتَدَرِّعًا مُتَحَصِّنًا لَابِسًا أَدَاةَ الْحَرْبِ مُوَاظِبًا عَلَىٰ أَوْرَادِ التَّعَوُّذَاتِ وَالتَّحْصِينَاتِ النَّبَوِيَّةِ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ وَالَّتِي فِي السُّنَّةِ.

حُكْمُ مَنْ عُرِفَ الرَّجُلُ بِالْأَذَى بِالْعَيْنِ :

وَإِذَا عُرِفَ الرَّجُلُ بِالْأَذَىٰ بِالْعَيْنِ سَاغَ بَلْ وَجَبَ حَبْسُهُ وَإِفْرَادُهُ عَنِ النَّاسِ وَيُطْعَمُ وَيُسْقَىٰ حَتَّىٰ يَمُوتَ، ذَكَرَ ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْفُقَهَاءِ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ خِلَافٌ ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ نَصِيحَةِ الْمُسْلِمِينَ وَدَفْعِ الْأَذَىٰ عَنْهُمْ، وَلَوْ قِيلَ فِيهِ غَيْرُ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بَعِيدًا مِنْ أُصُولِ الشَّرْعِ.

٢ـ مَشْهَدُ رُسُومِ الطَّبِيعَةِ :

مَشْهَدُ رُسُومِ الطَّبِيعَةِ وَلَوَازِمِ الْخِلْقَةِ: كَمَشْهَدِ زَنَادِقَةِ الْفَلَاسِفَةِ وَالْأَطِبَّاءِ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ لَوَازِمِ الْخِلْقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَأَنَّ تَرْكِيبَ الْإِنْسَانِ مِنَ الطَّبَائِعِ الْأَرْبَعِ وَامْتِزَاجِهَا وَاخْتِلَاطِهَا كَمَا يَقْتَضِي

بَغْيَ بَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ وَخُرُوجِهِ عَنِ الاعْتِدَالِ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ هَذِهِ الْأَخْلَاطِ ، فَكَذَلِكَ تَرْكِيبُهُ مِنَ الْبَدَنِ وَالنَّفْسِ وَالطَّبِيعَةِ وَالْأَخْلَاطِ الْحَيَوَانِيَّةِ تَتَقَاضَاهُ آثَارُ هَذِهِ الْخِلْقَةِ وَرُسُومُ تِلْكَ الطَّبِيعَةِ، وَلَا تَنْقَهِرُ إِلَّا بِقَاهِرٍ إِمَّا مِنْ نَفْسِهِ وَإِمَّا مِنْ خَارِجٍ عَنْهُ، وَأَكْثَرُ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ لَيْسَ لَهُ قَاهِرٌ مِنْ نَفْسِهِ فَاحْتِيَاجُهُ إِلَىٰ قَاهِرٍ فَوْقَهُ يُدْخِلُهُ تَحْتَ سِيَاسَةٍ وَإِيَالَةٍ يَنْتَظِمُ بِهَا أَمْرُهُ ضَرُورَةً كَحَاجَتِهِ إِلَىٰ مَصَالِحِهِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَاللِّبَاسِ.

وَعِنْدَ هَؤُلَاءِ أَنَّ الْعَاقِلَ مَتَىٰ كَانَ لَهُ وَازِعٌ مِنْ نَفْسِهِ قَاهِرٌ لَمْ يَحْتَجْ إِلَىٰ أَمْرِ غَيْرِهِ وَنَهْيِهِ وَضَبْطِهِ.

٣ـ مَشْهَدُ أَصْحَابِ الْجَبْرِ :

مَشْهَدُ أَصْحَابِ الْجَبْرِ: وَهُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّهُمْ مَجْبُورُونَ عَلَىٰ أَفْعَالِهِمْ، وَأَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِغَيْرِ قُدْرَتِهِمْ، بَلْ لَا يَشْهَدُونَ أَنَّهَا أَفْعَالُهُمُ الْبَتَّةَ.

يَقُولُونَ: إِنَّ أَحَدَهُمْ غَيْرُ فَاعِلٍ فِي الْحَقِيقَةِ وَلَا قَادِرٍ، وَأَنَّ الْفَاعِلَ فِيهِ غَيْرُهُ وَالْمُحَرِّكَ لَهُ سِوَاهُ، وَأَنَّهُ آلَةٌ مَحْضَةٌ، وَحَرَكَاتُهُ بِمَنْزِلَةِ هُبُوبِ الرِّيَاحِ، وَحَرَكَاتِ الْأَشْجَارِ.

وَهَؤُلَاءِ إِذَا أَنْكَرْتَ عَلَيْهِمْ أَفْعَالَهُمُ احْتَجُّوا بِالْقَدَرِ، وَحَمَلُوا ذُنُوبَهُمْ عَلَيْهِ .

٤ـ مَشْهَدُ الْقَدَرِيَّةِ النُّفَاةِ:

مَشْهَدُ الْقَدَرِيَّةِ النُّفَاةِ: يَشْهَدُونَ أَنَّ هَذِهِ الْجِنَايَاتِ وَالذُّنُوبَ هُمُ الَّذِينَ أَحْدَثُوهَا، وَأَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِمَشِيئَتِهِمْ دُونَ مَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى، وَأَنَّ اللهَ لَمْ يُقَدِّرْ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَكْتُبْهُ، وَلَا شَاءَ، وَلَا خَلَقَ أَفْعَالَهُمْ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَهْدِيَ أَحَدًا وَلَا يُضِلَّهُ إِلَّا بِمُجَرَّدِ الْبَيَانِ، لَا أَنَّهُ يُلْهِمُهُ الْهُدَىٰ وَالضَّلَالَ، وَالْفُجُورَ وَالتَّقْوَى، فَيَجْعَلُ ذَلِكَ فِي قَلْبِهِ.

وَيَشْهَدُونَ أَنَّهُ يَكُونُ فِي مُلْكِ اللهِ مَا لَا يَشَاؤُهُ، وَأَنَّهُ يَشَاءُ مَا لَا يَكُونُ، وَأَنَّ الْعِبَادَ خَالِقُونَ لِأَفْعَالِهِمْ بِدُونِ مَشِيئَةِ اللهِ.

٥ـ مَشْهَدُ الْحِكْمَةِ:

وَهُوَ أَحَدُ مَشَاهِدِ أَهْلِ الاسْتِقَامَةِ: مَشْهَدُ الْحِكْمَةِ، وَهُوَ مَشْهَدُ حِكْمَةِ اللهِ فِي تَقْدِيرِهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ مَا يُبْغِضُهُ سُبْحَانَهُ وَيَكْرَهُهُ، وَيَلُومُ وَيُعَاقِبُ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَعَصَمَهُ مِنْهُ، وَلَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُعْصَىٰ قَسْرًا، وَأَنَّهُ لَا يَكُونُ فِي الْعَالَمِ شَيْءٌ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ ﴿**أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [الأعراف: ٥٤].

وَهَؤُلَاءِ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ- لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا عَبَثًا وَلَا سُدًى، وَأَنَّهُ لَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي كُلِّ مَا قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَطَاعَةٍ وَمَعْصِيَةٍ، وَحِكْمَةٍ بَاهِرَةٍ تَعْجِزُ الْعُقُولُ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِكُنْهِهَا، وَتَكِلُّ

الْأَلْسُنُ عَنِ التَّعْبِيرِ عَنْهَا.

٦ـ مَشْهَدُ التَّوْحِيدِ :

وَهُوَ أَنْ يَشْهَدَ انْفِرَادَ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالْخَلْقِ وَالْحُكْمِ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ لَا تَتَحَرَّكُ ذَرَّةٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَأَنَّ الْخَلْقَ مَقْهُورُونَ تَحْتَ قَبْضَتِهِ، وَأَنَّهُ مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِهِ، إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ، فَالْقُلُوبُ بِيَدِهِ، وَهُوَ مُقَلِّبُهَا وَمُصَرِّفُهَا كَيْفَ شَاءَ وَكَيْفَ أَرَادَ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي آتَىٰ نُفُوسَ الْمُؤْمِنِينَ تَقْوَاهَا، وَهُوَ الَّذِي هَدَاهَا وَزَكَّاهَا، وَأَلْهَمَ نُفُوسَ الْفُجَّارِ فُجُورَهَا وَأَشْقَاهَا، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ بِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ، هَذَا فَضْلُهُ وَعَطَاؤُهُ، وَمَا فَضْلُ الْكَرِيمِ بِمَمْنُونٍ، وَهَذَا عَدْلُهُ وَقَضَاؤُهُ ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأَنْبِيَاء : ٢٣]

٧ـ مَشْهَدُ التَّوْفِيقِ وَالْخِذْلَانِ :

وَهُوَ مِنْ تَمَامِ هَذَا الْمَشْهَدِ وَفُرُوعِهِ، وَلَكِنْ أُفْرِدَ بِالذِّكْرِ لِحَاجَةِ الْعَبْدِ إِلَىٰ شُهُودِهِ وَانْتِفَاعِهِ بِهِ، وَقَدْ أَجْمَعَ الْعَارِفُونَ بِاللهِ أَنَّ التَّوْفِيقَ هُوَ أَنْ لَا يَكِلَكَ اللهُ إِلَىٰ نَفْسِكَ، وَأَنَّ الْخِذْلَانَ هُوَ أَنْ يُخَلِّيَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ نَفْسِكَ، فَالْعَبِيدُ مُتَقَلِّبُونَ بَيْنَ تَوْفِيقِهِ وَخِذْلَانِهِ، بَلِ الْعَبْدُ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ

يَنَالُ نَصِيبَهُ مِنْ هَذَا وَهَذَا، فَيُطِيعُهُ وَيُرْضِيه، وَيَذْكُرُهُ وَيَشْكُرُهُ بِتَوْفِيقِه لَهُ ثُمَّ يَعْصِيهِ وَيُخَالِفُهُ وَيُسْخِطُهُ وَيَغْفُلُ عَنْهُ بِخِذْلَانِه لَهُ، فَهُوَ دَائِرٌ بَيْنَ تَوْفِيقِهِ وَخِذْلَانِه، فَإِنْ وَفَّقَهُ فَبِفَضْلِه وَرَحْمَتِه، وَإِنْ خَذَلَهُ فَبِعَدْلِه وَحِكْمَتِه، وَهُوَ الْمَحْمُودُ عَلَىٰ هَذَا وَهَذَا، لَهُ أَتَمُّ حَمْدٍ وَأَكْمَلُهُ، وَلَمْ يَمْنَع الْعَبْدَ شَيْئًا هُوَ لَهُ، وَإِنَّمَا مَنَعَهُ مَا هُوَ مُجَرَّدُ فَضْلِهِ وَعَطَائِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَضَعُهُ وَأَيْنَ يَجْعَلُهُ ؟ .

٨ ـ مَشْهَدُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ :

وَهُوَ مِنْ أَجَلِّ الْمَشَاهِدِ، وَهُوَ أَعْلَىٰ مِمَّا قَبْلَهُ وَأَوْسَعُ.

وَالْمَطْلَعُ عَلَى هَذَا الْمَشْهَدِ: مَعْرِفَةُ تَعَلُّقِ الْوُجُودِ خَلْقًا وَأَمْرًا بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَالصِّفَاتِ الْعُلَا، وَارْتِبَاطِهِ بِهَا، وَإِنْ كَانَ الْعَالَمُ بِمَا فِيهِ مِنْ بَعْضِ آثَارِهَا وَمُقْتَضَيَاتِهَا.

وَهَذَا مِنْ أَجَلِّ الْمَعَارِفِ وَأَشْرَفِهَا، وَكُلُّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ سُبْحَانَهُ لَهُ صِفَةٌ خَاصَّةٌ، فَإِنَّ أَسْمَاءَهُ أَوْصَافُ مَدْحٍ وَكَمَالٍ، وَكُلُّ صِفَةٍ لَهَا مُقْتَضًى وَفِعْلٌ إِمَّا لَازِمٌ، وَإِمَّا مُتَعَدٍّ، وَلِذَلِكَ الْفِعْلِ تَعَلُّقٌ بِمَفْعُولٍ هُوَ مِنْ لَوَازِمِهِ، وَهَذَا فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، وَثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ، كُلُّ ذَلِكَ آثَارُ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَىٰ وَمُوجِبَاتُهَا.

٩ـ مَشْهَدُ زِيَادَةِ الإِيمَانِ :

وَهَذَا مِنْ أَلْطَفِ الْمَشَاهِدِ، وَأَخَصِّهَا بِأَهْلِ الْمَعْرِفَةِ، وَلَعَلَّ سَامِعَهُ يُبَادِرُ إِلَىٰ إِنْكَارِهِ، وَيَقُولُ: كَيْفَ يَشْهَدُ زِيَادَةَ الإِيمَانِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي ؟ وَلَا سِيَّمَا ذُنُوبَ الْعَبْدِ وَمَعَاصِيهِ، وَهَلْ ذَلِكَ إِلَّا مُنْقِصٌ لِلإِيمَانِ، فَإِنَّهُ بِإِجْمَاعِ السَّلَفِ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ.

فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا حَاصِلٌ مِنَ الْتِفَاتِ الْعَارِفِ إِلَىٰ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ وَإِلَىٰ تَرَتُّبِ آثَارِهَا عَلَيْهَا، وَتَرَتُّبُ هَذِهِ الآثَارِ عَلَيْهَا عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ، وَبُرْهَانٌ مِنْ بَرَاهِينِ صِدْقِ الرُّسُلِ، وَصِحَّةِ مَا جَاءُوا بِهِ، فَإِنَّ الرُّسُلَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَمَرُوا الْعِبَادَ بِمَا فِيهِ صَلَاحُ ظَوَاهِرِهِمْ وَبَوَاطِنِهِمْ، فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ، وَنَهَوْهُمْ عَمَّا فِيهِ فَسَادُ ظَوَاهِرِهِمْ وَبَوَاطِنِهِمْ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ ، وَأَخْبَرُوهُمْ عَنِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- أَنَّهُ يُحِبُّ كَذَا وَكَذَا، وَيُثِيبُ عَلَيْهِ بِكَذَا وَكَذَا ، وَأَنَّهُ يُبْغِضُ كَيْتَ وَكَيْتَ، وَيُعَاقِبُ عَلَيْهِ بِكَيْتَ وَكَيْتَ، وَأَنَّهُ إِذَا أُطِيعَ بِمَا أَمَرَ بِهِ شَكَرَ عَلَيْهِ بِالْإِمْدَادِ وَالزِّيَادَةِ، وَالنِّعَمِ، فِي الْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ وَالْأَمْوَالِ، وَوَجَدَ الْعَبْدُ زِيَادَتَهُ وَقُوَّتَهُ فِي حَالِهِ كُلِّهَا، وَأَنَّهُ إِذَا خُولِفَ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ، تَرَتَّبَ عَلَيْهِ مِنَ النَّقْصِ، وَالْفَسَادِ، وَالضَّعْفِ، وَالذُّلِّ وَالْمَهَانَةِ، وَالْحَقَارَةِ، وَضِيقِ الْعَيْشِ وَتَنَكُّدِ الْحَيَاةِ مَا تَرَتَّبَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَنْ عَمِلَ

صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النَّحل: ٩٧] .

وَقَالَ ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ ﴾ [النَّحل: ٣٠] ، وَقَالَ تَعَالَىٰ ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ ﴾ [هُود : ٣] ، وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه : ١٢٤] ، وَفُسِّرَت الْمَعِيشَةُ الضَّنْكُ بعَذَاب الْقَبْر، وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا في الدُّنْيَا وَفي الْبَرْزَخ، فَإِنَّ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِهِ الَّذي أَنْزَلَهُ، فَلَهُ مِنْ ضيق الصَّدْر، وَنكَد الْعَيْش، وَكَثْرَةِ الْخَوْف، وَشدَّة الْحِرْص وَالتَّعَب عَلَىٰ الدُّنْيَا، وَالتَّحسُّر عَلَىٰ فَوَاتها قَبْلَ حُصُولهَا وَبَعْدَ حُصُولهَا، وَالآلَام الَّتي في خِلَال ذَلكَ مَا لَا يَشْعُرُ به الْقَلْبُ، لسَكْرَته، وَانْغمَاسه في السُّكْر، فَهُوَ لا يَصْحُو سَاعَةً إلَّا أَحسَّ وَشَعَرَ بهَذَا الأَلَم، فَبَادَرَ إِلَىٰ إِزَالَته بسُكْر ثَانٍ، فَهُوَ هَكَذَا مُدَّةَ حَيَاته، وَأَيُّ عِيشَةٍ أَضْيَقُ منْ هَذه لَوْ كَانَ لِلْقَلْب شُعُورٌ ؟.

حَال قُلُوبِ أَهْلِ الْبِدَعِ :

فَقُلُوبُ أَهْلِ الْبِدَعِ، وَالْمُعْرِضِينَ عَنِ الْقُرْآنِ، وَأَهْلِ الْغَفْلَةِ عَنِ اللهِ، وَأَهْلِ الْمَعَاصِي فِي جَحِيمٍ قَبْلَ الْجَحِيمِ الْأَكْبَرِ، وَقُلُوبُ الْأَبْرَارِ فِي نَعِيمٍ قَبْلَ النَّعِيمِ الْأَكْبَرِ ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الإنفطار: ١٣-١٤] ، هَذَا فِي دُورِهِمُ الثَّلَاثِ، لَيْسَ مُخْتَصًّا بِالدَّارِ الْآخِرَةِ، وَإِنْ كَانَ تَمَامُهُ وَكَمَالُهُ وَظُهُورُهُ: إِنَّمَا هُوَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَفِي الْبَرْزَخِ دُونَ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ [الطور: ٤٧] ،وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [النمل: ٧١-٧٢].

وَفِي هَذِهِ الدَّارِ دُونَ مَا فِي الْبَرْزَخِ، وَلَكِنْ يَمْنَعُ مِنَ الْإِحْسَاسِ بِهِ الِاسْتِغْرَاقُ فِي سَكْرَةِ الشَّهَوَاتِ، وَطَرْحُ ذَلِكَ عَنِ الْقَلْبِ، وَعَدَمُ التَّفَكُّرِ فِيهِ.

وَالْعَبْدُ قَدْ يُصِيبُهُ أَلَمٌ حِسِّيٌّ فَيَطْرَحُهُ عَنْ قَلْبِهِ، وَيَقْطَعُ الْتِفَاتَهُ عَنْهُ، وَيَجْعَلُ إِقْبَالَهُ عَلَىٰ غَيْرِهِ، لِئَلَّا يَشْعُرَ بِهِ جُمْلَةً، فَلَوْ زَالَ عَنْهُ ذَلِكَ الِالْتِفَاتُ، لَصَاحَ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ، فَمَا الظَّنُّ بِعَذَابِ الْقُلُوبِ وَآلَامِهَا ؟ !.

لَذَّةُ الطَّاعَاتِ :

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِلْحَسَنَاتِ وَالطَّاعَاتِ آثَارًا مَحْبُوبَةً لَذِيذَةً طَيِّبَةً، لَذَّتُهَا فَوْقَ لَذَّةِ الْمَعْصِيَةِ بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ، لا نِسْبَةَ لَهَا إِلَيْهَا، وَجَعَلَ لِلسَّيِّئَاتِ وَالْمَعَاصِي آلامًا وَآثَارًا مَكْرُوهَةً، وَحَزَازَاتٍ تُرْبِي عَلَىٰ لَذَّةِ تَنَاوُلِهَا بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - : إِنَّ لِلْحَسَنَةِ نُورًا فِي الْقَلْبِ، وَضِيَاءً فِي الْوَجْهِ، وَقُوَّةً فِي الْبَدَنِ، وَزِيَادَةً فِي الرِّزْقِ، وَمَحَبَّةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَإِنَّ لِلسَّيِّئَةِ سَوَادًا فِي الْوَجْهِ، وَظُلْمَةً فِي الْقَلْبِ وَوَهَنًا فِي الْبَدَنِ، وَنَقْصًا فِي الرِّزْقِ، وَبُغْضَةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَهَذَا يَعْرِفُهُ صَاحِبُ الْبَصِيرَةِ، وَيَشْهَدُهُ مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْ غَيْرِهِ.

عَاقِبَةُ المَعَاصِي :

فَمَا حَصَلَ لِلْعَبْدِ حَالٌ مَكْرُوهَةٌ قَطُّ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَمَا يَعْفُو اللهُ عَنْهُ أَكْثَرُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿ **وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ** ﴾ [الشُّورَىٰ : ٣٠] ، وَقَالَ لِخِيَارِ خَلْقِهِ وَأَصْحَابِ نَبِيِّهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : ﴿ **أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ** ﴾ [آل عِمْرَان : ١٦٥] ،

وَقَالَ: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ ﴾

[النِّسَاء : ٧٩] .

وَالْمُرَادُ بِالْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ هُنَا النِّعَمُ وَالْمَصَائِبُ الَّتِي تُصِيبُ الْعَبْدَ مِنَ اللهِ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ « مَا أَصَبْتَ » .

فَكُلُّ نَقْصٍ وَبَلَاءٍ وَشَرٍّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَسَبَبُهُ الذُّنُوبُ، وَمُخَالَفَةُ أَوَامِرِ الرَّبِّ، فَلَيْسَ فِي الْعَالَمِ شَرٌّ قَطُّ إِلَّا الذُّنُوبَ وَمُوجِبَاتِهَا.

وَآثَارُ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ فِي الْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ وَالْأَمْوَالِ أَمْرٌ مَشْهُودٌ فِي الْعَالَمِ، لَا يُنْكِرُهُ ذُو عَقْلٍ سَلِيمٍ، بَلْ يَعْرِفُهُ الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ.

١٠ ـ مَشْهَدُ الرَّحْمَةِ :

فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وَقَعَ فِي الذَّنْبِ خَرَجَ مِنْ قَلْبِهِ تِلْكَ الْغِلْظَةُ وَالْقَسْوَةُ، وَالْكَيْفِيَّةُ الْغَضَبِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهُ لِمَنْ صَدَرَ مِنْهُ ذَنْبٌ، حَتَّىٰ لَوْ قَدَرَ عَلَيْهِ لَأَهْلَكَهُ، وَرُبَّمَا دَعَا اللَّهَ عَلَيْهِ أَنْ يُهْلِكَهُ وَيَأْخُذَهُ، غَضَبًا مِنْهُ لِلَّهِ، وَحِرْصًا عَلَىٰ أَنْ لَا يَعْصِيَ، فَلَا يَجِدُ فِي قَلْبِهِ رَحْمَةً لِلْمُذْنِبِينَ الْخَاطِئِينَ، وَلَا يَرَاهُمْ إِلَّا بِعَيْنِ الِاحْتِقَارِ وَالِازْدِرَاءِ، وَلَا يَذْكُرُهُمْ إِلَّا بِلِسَانِ الطَّعْنِ فِيهِمْ، وَالْعَيْبِ لَهُمْ وَالذَّمِّ، فَإِذَا جَرَتْ عَلَيْهِ الْمَقَادِيرُ وَخُلِّيَ وَنَفْسَهُ اسْتَغَاثَ اللَّهَ وَالْتَجَأَ إِلَيْهِ، وَتَمَلْمَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَمَلْمُلَ السَّلِيمِ، وَدَعَاهُ دُعَاءَ

الْمُضْطَرِّ، فَتَبَدَّلَتْ تِلْكَ الْغِلْظَةُ عَلَىٰ الْمُذْنِبِينَ رِقَّةً، وَتِلْكَ الْقَسَاوَةُ عَلَىٰ الْخَاطِئِينَ رَحْمَةً وَلِينًا، مَعَ قِيَامِهِ بِحُدُودِ اللهِ، وَتَبَدَّلَ دُعَاؤُهُ عَلَيْهِمْ دُعَاءً لَهُمْ، وَجَعَلَ لَهُمْ وَظِيفَةً مِنْ عُمُرِهِ، يَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ.

فَمَا أَنْفَعَهُ لَهُ مِنْ مَشْهَدٍ ! وَمَا أَعْظَمَ جَدْوَاهُ عَلَيْهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

١١ـ مَشْهَدُ الْعَجْزِ وَالضَّعْفِ :

وَهُوَ مَشْهَدُ الْعَجْزِ وَالضَّعْفِ، وَأَنَّهُ أَعْجَزُ شَيْءٍ عَنْ حِفْظِ نَفْسِهِ وَأَضْعَفُهُ، وَأَنَّهُ لَا قُوَّةَ لَهُ وَلَا قُدْرَةَ وَلَا حَوْلَ إِلَّا بِرَبِّهِ، فَيَشْهَدُ قَلْبُهُ كَرِيشَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ تُقَلِّبُهَا الرِّيَاحُ يَمِينًا وَشِمَالًا، وَيَشْهَدُ نَفْسَهُ كَرَاكِبِ سَفِينَةٍ فِي الْبَحْرِ تَهِيجُ بِهَا الرِّيَاحُ وَتَتَلَاعَبُ بِهَا الْأَمْوَاجُ، تَرْفَعُهَا تَارَةً، وَتَخْفِضُهَا تَارَةً أُخْرَى، تَجْرِي عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْقَدَرِ، وَهُوَ كَالْآلَةِ طَرِيحًا بَيْنَ يَدَيْ وَلِيِّهِ، مُلْقًىٰ بِبَابِهِ، وَاضِعًا خَدَّهُ عَلَىٰ ثَرَىٰ أَعْتَابِهِ، لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضُرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا، لَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ إِلَّا الْجَهْلُ وَالظُّلْمُ وَآثَارُهُمَا وَمُقْتَضَيَاتُهُمَا، فَالْهَلَاكُ أَدْنَىٰ إِلَيْهِ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ كَشَاةٍ مُلْقَاةٍ بَيْنَ الذِّئَابِ وَالسِّبَاعِ، لَا يَرُدُّهَا عَنْهَا إِلَّا الرَّاعِي، فَلَوْ تَخَلَّىٰ عَنْهَا طَرْفَةَ عَيْنٍ لَتَقَاسَمُوهَا أَعْضَاءً.

وَهَكَذَا حَالُ الْعَبْدِ مُلْقًىٰ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ،مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَإِنْ حَمَاهُ مِنْهُمْ وَكَفَّهُمْ عَنْهُ لَمْ يَجِدُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا،وَإِنْ تَخَلَّىٰ عَنْهُ وَوَكَلَهُ

إِلَىٰ نَفْسِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ لَمْ يَنْقَسِمْ عَلَيْهِمْ،بَلْ هُوَ نَصِيبُ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ.

١٢ ـ مَشْهَدُ الذُّلِّ وَالِانْكِسَارِ وَالْخُضُوعِ:

وَهُوَ مَشْهَدُ الذُّلِّ، وَالِانْكِسَارِ، وَالْخُضُوعِ، وَالِافْتِقَارِ لِلرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، فَيَشْهَدُ فِي كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِهِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ ضَرُورَةً تَامَّةً، وَافْتِقَارًا تَامًّا إِلَىٰ رَبِّهِ وَوَلِيِّهِ، وَمَنْ بِيَدِهِ صَلَاحُهُ وَفَلَاحُهُ، وَهُدَاهُ وَسَعَادَتُهُ، وَهَذِهِ الْحَالُ الَّتِي تَحْصُلُ لِقَلْبِهِ لَا تَنَالُ الْعِبَارَةُ حَقِيقَتَهَا، وَإِنَّمَا تُدْرَكُ بِالْحُصُولِ، فَيَحْصُلُ لِقَلْبِهِ كَسْرَةٌ خَاصَّةٌ لَا يُشْبِهُهَا شَيْءٌ، بِحَيْثُ يَرَىٰ نَفْسَهُ كَالْإِنَاءِ الْمَرْضُوضِ تَحْتَ الْأَرْجُلِ، الَّذِي لَا شَيْءَ فِيهِ، وَلَا بِهِ وَلَا مِنْهُ، وَلَا فِيهِ مَنْفَعَةٌ، وَلَا يُرْغَبُ فِي مِثْلِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَصْلُحُ لِلِانْتِفَاعِ إِلَّا بِجَبْرٍ جَدِيدٍ مِنْ صَانِعِهِ وَقَيِّمِهِ، فَحِينَئِذٍ يَسْتَكْثِرُ فِي هَذَا الْمَشْهَدِ مَا مِنْ رَبِّهِ إِلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَرَىٰ أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ قَلِيلًا مِنْهُ وَلَا كَثِيرًا، فَأَيُّ خَيْرٍ لَهُ مِنَ اللهِ اسْتَكْثَرَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَعَلِمَ أَنَّ قَدْرَهُ دُونَهُ، وَأَنَّ رَحْمَةَ رَبِّهِ هِيَ الَّتِي اقْتَضَتْ ذِكْرَهُ بِهِ، وَسِيَاقَتَهُ إِلَيْهِ، وَاسْتَقَلَّ مَا مِنْ نَفْسِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ لِرَبِّهِ، وَرَآهَا وَلَوْ سَاوَتْ طَاعَاتِ الثَّقَلَيْنِ مِنْ أَقَلِّ مَا يَنْبَغِي لِرَبِّهِ عَلَيْهِ، وَاسْتَكْثَرَ قَلِيلَ مَعَاصِيهِ وَذُنُوبِهِ، فَإِنَّ الْكَسْرَةَ الَّتِي حَصَلَتْ لِقَلْبِهِ أَوْجَبَتْ لَهُ هَذَا كُلَّهُ.

١٣ـ مَشْهَدُ الْعُبُودِيَّةِ وَالْمَحَبَّةِ :

وَهُوَ الْغَايَةُ الَّتِي شَمَّرَ إِلَيْهَا السَّالِكُونَ، وَأَمَّهَا الْقَاصِدُونَ، وَلَحَظَ إِلَيْهَا الْعَامِلُونَ.

وَهُوَ مَشْهَدُ الْعُبُودِيَّةِ وَالْمَحَبَّةِ، وَالشَّوْقِ إِلَىٰ لِقَائِهِ، وَالابْتِهَاجِ بِهِ، وَالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ بِهِ، فَتَقَرُّ بِهِ عَيْنُهُ، وَيَسْكُنُ إِلَيْهِ قَلْبُهُ، وَتَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ جَوَارِحُهُ وَيَسْتَوْلِي ذِكْرُهُ عَلَىٰ لِسَانِ مُحِبِّهِ وَقَلْبِهِ، فَتَصِيرُ خَطَرَاتُ الْمَحَبَّةِ مَكَانَ خَطَرَاتِ الْمَعْصِيَةِ، وَإِرَادَاتُ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ وَإِلَىٰ مَرْضَاتِهِ مَكَانَ إِرَادَةِ مَعَاصِيهِ وَمَسَاخِطِهِ، وَحَرَكَاتُ اللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ بِالطَّاعَاتِ مَكَانَ حَرَكَاتِهَا بِالْمَعَاصِي، قَدِ امْتَلأَ قَلْبُهُ مِنْ مَحَبَّتِهِ، وَلَهَجَ لِسَانُهُ بِذِكْرِهِ، وَانْقَادَتِ الْجَوَارِحُ لِطَاعَتِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْكَسْرَةَ الْخَاصَّةَ لَهَا تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي الْمَحَبَّةِ لَا يُعَبَّرُ عَنْهُ.

وَيُحْكَىٰ عَنْ بَعْضِ الْعَارِفِينَ، أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ أَبْوَابِ الطَّاعَاتِ كُلِّهَا، فَمَا دَخَلْتُ مِنْ بَابٍ إِلَّا رَأَيْتُ عَلَيْهِ الزِّحَامَ، فَلَمْ أَتَمَكَّنْ مِنَ الدُّخُولِ، حَتَّىٰ جِئْتُ بَابَ الذُّلِّ وَالافْتِقَارِ، فَإِذَا هُوَ أَقْرَبُ بَابٍ إِلَيْهِ وَأَوْسَعُهُ، وَلَا مُزَاحِمَ فِيهِ وَلَا مُعَوِّقَ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ وَضَعْتُ قَدَمِي فِي عَتَبَتِهِ، فَإِذَا هُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَخَذَ بِيَدِي وَأَدْخَلَنِي عَلَيْهِ.

وَكَانَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يَقُولُ: مَنْ أَرَادَ السَّعَادَةَ الأَبَدِيَّةَ، فَلْيَلْزَمْ عَتَبَةَ الْعُبُودِيَّةِ.

مَنْزِلَةُ الإِنَابَةِ :

قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ مَنْ نَزَلَ مِنْ مَنْزِلِ التَّوْبَةِ وَقَامَ فِي مَقَامِهَا نَزَلَ فِي جَمِيعِ مَنَازِلِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّ التَّوْبَةَ الْكَامِلَةَ مُتَضَمِّنَةٌ لَهَا، وَهِيَ مُنْدَرِجَةٌ فِيهَا، وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ إِفْرَادِهَا بِالذِّكْرِ وَالتَّفْصِيلِ، تَبْيِينًا لِحَقَائِقِهَا وَخَوَاصِّهَا وَشُرُوطِهَا.

فَإِذَا اسْتَقَرَّتْ قَدَمُهُ فِي مَنْزِلِ التَّوْبَةِ نَزَلَ بَعْدَهُ مَنْزِلَ الْإِنَابَةِ ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَأَثْنَىٰ عَلَىٰ خَلِيلِهِ بِهَا ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ [الزُّمَر :٥٤] ،وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هُود: ٧٥] ، وَأَخْبَرَ أَنَّ آيَاتِهِ إِنَّمَا يَتَبَصَّرُ بِهَا وَيَتَذَكَّرُ أَهْلُ الْإِنَابَةِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ [ق : ٦] ، إِلَىٰ أَنْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق : ٨]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [غافِر:١٣] ،وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الرُّوم: ٣١] .

﴿ مُنِيبِينَ ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَىٰ الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ الْمُسْتَكِنِّ فِي قَوْلِهِ ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ [الرُّوم: ٣٠] ، لِأَنَّ هَذَا الْخِطَابَ لَهُ وَلِأُمَّتِهِ، أَيْ أَقِمْ وَجْهَكَ أَنْتَ وَأُمَّتُكَ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ .

الرُّجُوعُ إِلَى اللهِ إِنَّمَا تَتِمُّ بِالطَّاعَةِ :

لَمَّا كَانَ التَّائِبُ قَدْ رَجَعَ إِلَىٰ اللهِ بِالِاعْتِذَارِ وَالْإِقْلَاعِ عَنْ مَعْصِيَتِهِ ، كَانَ مِنْ تَتِمَّةِ ذَلِكَ رُجُوعُهُ إِلَيْهِ بِالِاجْتِهَادِ ، وَالنُّصْحِ فِي طَاعَتِهِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾[الفُرْقَان : ٧٠]، وَقَالَ:﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ ﴾ [البَقَرَةُ : ١٦٠] ، فَلَا تَنْفَعُ تَوْبَةٌ وَبَطَالَةٌ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَوْبَةٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ ، تَرْكٍ لِمَا يَكْرَهُ ، وَفِعْلٍ لِمَا يُحِبُّ ، تَخَلٍّ عَنْ مَعْصِيَتِهِ ، وَتَحَلٍّ بِطَاعَتِهِ .

عَلَامَاتُ الْإِنَابَةِ :

وَمِنْ عَلَامَاتِ الْإِنَابَةِ تَرْكُ الِاسْتِهَانَةِ بِأَهْلِ الْغَفْلَةِ وَالْخَوْفُ عَلَيْهِمْ، مَعَ فَتْحِكَ بَابَ الرَّجَاءِ لِنَفْسِكَ، فَتَرْجُو لِنَفْسِكَ الرَّحْمَةَ، وَتَخْشَىٰ عَلَىٰ أَهْلِ الْغَفْلَةِ النِّقْمَةَ، وَلَكِنِ ارْجُ لَهُمُ الرَّحْمَةَ، وَاخْشَ عَلَىٰ نَفْسِكَ النِّقْمَةَ، فَإِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ مُسْتَهِينًا بِهِمْ مَاقِتًا لَهُمْ لِانْكِشَافِ أَحْوَالِهِمْ لَكَ، وَرُؤْيَةِ مَا هُمْ عَلَيْهِ، فَكُنْ لِنَفْسِكَ أَشَدَّ مَقْتًا مِنْكَ لَهُمْ، وَكُنْ أَرْجَىٰ لَهُمْ لِرَحْمَةِ اللهِ مِنْكَ لِنَفْسِكَ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : لَنْ تَفْقَهَ كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّىٰ تَمْقُتَ النَّاسَ فِي ذَاتِ اللهِ، ثُمَّ تَرْجِعَ إِلَىٰ نَفْسِكَ فَتَكُونَ لَهَا أَشَدَّ مَقْتًا.

وَهَذَا الْكَلَامُ لَا يَفْقَهُ مَعْنَاهُ إِلَّا الْفَقِيهُ فِي دِينِ اللهِ، فَإِنَّ مَنْ شَهِدَ حَقِيقَةَ

الْخَلْق، وَعَجْزَهُمْ وَضَعْفَهُمْ وَتَقْصِيرَهُمْ، بَلْ تَفْرِيطَهُمْ، وَإِضَاعَتَهُمْ لِحَقِّ اللهِ، وَإِقْبَالَهُمْ عَلَىٰ غَيْرِه، وَبَيْعَهُمْ حَظَّهُمْ مِنَ اللهِ بِأَبْخَس الثَّمَن مِنْ هَذَا الْعَاجِلِ الْفَانِي لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ مَقْتِهِمْ، وَلَا يُمْكِنُهُ غَيْرُ ذَلِكَ الْبَتَّةَ، وَلَكِنْ إِذَا رَجَعَ إِلَىٰ نَفْسِهِ وَحَالِهِ وَتَقْصِيرِه، وَكَانَ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ مِنْ ذَلِكَ كَانَ لِنَفْسِهِ أَشَدَّ مَقْتًا وَاسْتِهَانَةً، فَهَذَا هُوَ الْفَقِيهُ.

حُظُوظُ النَّفْس:

فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَمْ فِي النُّفُوس مِنْ عِلَلٍ وَأَغْرَاض وَحُظُوظ تَمْنَعُ الْأَعْمَالَ أَنْ تَكُونَ للهِ خَالِصَةً، وَأَنْ تَصِلَ إِلَيْه؟ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ الْعَمَلَ حَيْثُ لَا يَرَاهُ بَشَرٌ الْبَتَّةَ، وَهُوَ غَيْرُ خَالِصٍ للهِ، وَيَعْمَلُ الْعَمَلَ وَالْعُيُونُ قَد اسْتَدَارَتْ عَلَيْهِ نِطَاقًا، وَهُوَ خَالِصٌ لِوَجْهِ اللهِ، وَلَا يُمَيِّزُ هَذَا إِلَّا أَهْلُ الْبَصَائِرِ وَأَطِبَّاءُ الْقُلُوبِ الْعَالِمُونَ بِأَدْوَائِهَا وَعِلَلِهَا.

وُصُولُ أَثَرِ العَمَلِ إِلَى القَلْبِ:

فَبَيْنَ الْعَمَلِ وَبَيْنَ الْقَلْبِ مَسَافَةٌ، وَفِي تِلْكَ الْمَسَافَةِ قُطَّاعٌ تَمْنَعُ وُصُولَ الْعَمَلِ إِلَىٰ الْقَلْبِ، فَيَكُونُ الرَّجُلُ كَثِيرَ الْعَمَلِ، وَمَا وَصَلَ مِنْهُ إِلَىٰ قَلْبِهِ مَحَبَّةٌ وَلَا خَوْفٌ وَلَا رَجَاءٌ، وَلَا زُهْدٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا رَغْبَةٌ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا نُورٌ يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللهِ وَأَعْدَائِه، وَبَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَا قُوَّةٌ فِي أَمْرِهِ، فَلَوْ وَصَلَ أَثَرُ الْأَعْمَالِ إِلَىٰ قَلْبِهِ لَاسْتَنَارَ وَأَشْرَقَ، وَرَأَىٰ

الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ، وَمَيَّزَ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللهِ وَأَعْدَائِهِ، وَأَوْجَبَ لَهُ ذَلِكَ الْمَزِيدَ مِنَ الْأَحْوَالِ.

عَوَائِقُ فِي طَرِيقِ وُصُولِ الْعَمَلِ إِلَى اللهِ :

بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ الرَّبِّ مَسَافَةٌ، وَعَلَيْهَا قُطَّاعٌ تَمْنَعُ وَصُولَ الْعَمَلِ إِلَيْهِ، مِنْ كِبْرٍ وَإِعْجَابٍ وَإِدْلَالٍ، وَرُؤْيَةِ الْعَمَلِ، وَنِسْيَانِ الْمِنَّةِ، وَعِلَلٍ خَفِيَّةٍ لَو اسْتَقْصَى فِي طَلَبِهَا لَرَأَى الْعَجَبَ، وَمِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى سَتْرُهَا عَلَى أَكْثَرِ الْعُمَّالِ، إِذْ لَوْ رَأَوْهَا وَعَايَنُوهَا لَوَقَعُوا فِيمَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهَا، مِنَ الْيَأْسِ وَالْقُنُوطِ وَالِاسْتِحْسَارِ، وَتَرْكِ الْعَمَلِ، وَخُمُودِ الْعَزْمِ، وَفُتُورِ الْهِمَّةِ، وَلِهَذَا لَمَّا ظَهَرَتْ « رِعَايَةُ » أَبِي عَبْدِ اللهِ الْحَارِثِ بْنِ أَسَدٍ الْمُحَاسِبِيِّ وَاشْتَغَلَ بِهَا الْعُبَّادُ عُطِّلَتْ مِنْهُمْ مَسَاجِدُ كَانُوا يَعْمُرُونَهَا بِالْعِبَادَةِ ، وَالطَّبِيبُ الْحَاذِقُ يَعْلَمُ كَيْفَ يُطَبِّبُ النُّفُوسَ، فَلَا يَعْمُرُ قَصْرًا وَيَهْدِمُ مِصْرًا.

أَقْسَامُ النَّاسِ فِي الإِنْتِفَاعِ بِالآيَاتِ :

قَالَ – سُبْحَانَهُ وتَعَالَى – فِي آيَاتِهِ الْمَشْهُودَةِ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق : ٣٦-٣٧].

وَالنَّاسُ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ قَلْبُهُ مَيِّتٌ، فَذَلِكَ الَّذِي لَا قَلْبَ لَهُ، فَهَذَا لَيْسَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ذِكْرَىٰ فِي حَقِّهِ.

الثَّانِي: رَجُلٌ لَهُ قَلْبٌ حَيٌّ مُسْتَعِدٌّ، لَكِنَّهُ غَيْرُ مُسْتَمِعٍ لِلْآيَاتِ الْمَتْلُوَّةِ الَّتِي يُخْبِرُ بِهَا اللهُ عَنِ الْآيَاتِ الْمَشْهُودَةِ إِمَّا لِعَدَمِ وُرُودِهَا، أَوْ لِوُصُولِهَا إِلَيْهِ وَلَكِنَّ قَلْبَهُ مَشْغُولٌ عَنْهَا بِغَيْرِهَا، فَهُوَ غَائِبُ الْقَلْبِ، لَيْسَ حَاضِرًا، فَهَذَا أَيْضًا لَا تَحْصُلُ لَهُ الذِّكْرَىٰ مَعَ اسْتِعْدَادِهِ وَوُجُودِ قَلْبِهِ.

الثَّالِثُ: رَجُلٌ حَيُّ الْقَلْبِ مُسْتَعِدٌّ، تُلِيَتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ، فَأَصْغَىٰ بِسَمْعِهِ، وَأَلْقَىٰ السَّمْعَ وَأَحْضَرَ قَلْبَهُ، وَلَمْ يَشْغَلْهُ بِغَيْرِ فَهْمِ مَا يَسْمَعُهُ، فَهُوَ شَاهِدُ الْقَلْبِ، مُلْقٍ السَّمْعَ، فَهَذَا الْقِسْمُ هُوَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِالْآيَاتِ الْمَتْلُوَّةِ وَالْمَشْهُودَةِ.

فَالْأَوَّلُ: بِمَنْزِلَةِ الْأَعْمَىٰ الَّذِي لَا يُبْصِرُ.

وَالثَّانِي: بِمَنْزِلَةِ الْبَصِيرِ الطَّامِحِ بِبَصَرِهِ إِلَىٰ غَيْرِ جِهَةِ الْمَنْظُورِ إِلَيْهِ، فَكِلَاهُمَا لَا يَرَاهُ.

وَالثَّالِثُ: بِمَنْزِلَةِ الْبَصِيرِ الَّذِي قَدْ حَدَّقَ إِلَىٰ جِهَةِ الْمَنْظُورِ، وَأَتْبَعَهُ بَصَرَهُ، وَقَابَلَهُ عَلَىٰ تَوَسُّطٍ مِنَ الْبُعْدِ وَالْقُرْبِ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَرَاهُ.

فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ كَلَامَهُ شِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ.

تَأْثِيْرُ أَسْمَاءِ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ فِي حَيَاةِ الْقَلْبِ :

مِنْ تَجْرِيبَاتِ السَّالِكِينَ الَّتِي جَرَّبُوهَا فَأَلْفَوْهَا صَحِيحَةً أَنَّ مَنْ أَدْمَنَ «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**» أَوْرَثَهُ ذَلِكَ حَيَاةَ الْقَلْبِ وَالْعَقْلِ .

وَكَانَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ- شَدِيدَ اللَّهْجِ بِهَا جِدًّا ، وَقَالَ لِي يَوْمًا : لِهَذَيْنِ الاسْمَيْنِ وَهُمَا «**الْحَيُّ الْقَيُّومُ**» تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ فِي حَيَاةِ الْقَلْبِ ، وَكَانَ يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُمَا الاسْمُ الْأَعْظَمُ ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : مَنْ وَاظَبَ عَلَى أَرْبَعِينَ مَرَّةً كُلَّ يَوْمٍ بَيْنَ سُنَّةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ**» حَصَلَتْ لَهُ حَيَاةُ الْقَلْبِ ، وَلَمْ يَمُتْ قَلْبُهُ .

وَمَنْ عَلِمَ عُبُودِيَّاتِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَىٰ وَالدُّعَاءَ بِهَا ، وَسِرَّ ارْتِبَاطِهَا بِالْخَلْقِ وَالْأَمْرِ ، وَبِمَطَالِبِ الْعَبْدِ وَحَاجَاتِهِ عَرَفَ ذَلِكَ وَتَحَقَّقَهُ ، فَإِنَّ كُلَّ مَطْلُوبٍ يُسْأَلُ بِالْمُنَاسِبِ لَهُ ، فَتَأَمَّلْ أَدْعِيَةَ الْقُرْآنِ وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ تَجِدْهَا كَذَلِكَ .

خُطُورَةُ اتِّبَاعِ الْهَوَى :

وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ إِلَّا بِالسَّلَامَةِ مِنَ الْأَغْرَاضِ ، وَهِيَ مُتَابَعَةُ الْهَوَىٰ وَالانْقِيَادُ لِدَاعِي النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ ، فَإِنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَىٰ يَطْمِسُ نُورَ الْعَقْلِ ، وَيُعْمِي بَصِيرَةَ الْقَلْبِ ، وَيَصُدُّ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، وَيُضِلُّ عَنِ

الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ ، فَلَا تَحْصُلُ بَصِيرَةُ الْعِبْرَةِ مَعَهُ الْبَتَّةَ ، وَالْعَبْدُ إِذَا اتَّبَعَ هَوَاهُ فَسَدَ رَأْيُهُ وَنَظَرُهُ ، فَأَرَتْهُ نَفْسُهُ الْحَسَنَ فِي صُورَةِ الْقَبِيحِ ، وَالْقَبِيحَ فِي صُورَةِ الْحَسَنِ ، فَالْتَبَسَ عَلَيْهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ ، فَأَنَّىٰ لَهُ الِانْتِفَاعُ بِالتَّذَكُّرِ، أَوْ بِالتَّفَكُّرِ ، أَوْ بِالْعِظَةِ ؟ .

قِصَرُ الْأَمَلِ :

فَأَمَّا قِصَرُ الْأَمَلِ: فَهُوَ الْعِلْمُ بِقُرْبِ الرَّحِيلِ، وَسُرْعَةِ انْقِضَاءِ مُدَّةِ الْحَيَاةِ، وَهُوَ مِنْ أَنْفَعِ الْأُمُورِ لِلْقَلْبِ، فَإِنَّهُ يَبْعَثُهُ عَلَىٰ مُعَاصَفَةِ الْأَيَّامِ، وَانْتِهَازِ الْفُرَصِ الَّتِي تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ، وَمُبَادَرَةِ طَيِّ صَحَائِفِ الْأَعْمَالِ، وَيُثِيرُ سَاكِنَ عَزَمَاتِهِ إِلَىٰ دَارِ الْبَقَاءِ، وَيَحُثُّهُ عَلَىٰ قَضَاءِ جِهَازِ سَفَرِهِ، وَتَدَارُكِ الْفَارِطِ، وَيُزَهِّدُهُ فِي الدُّنْيَا، وَيُرَغِّبُهُ فِي الْآخِرَةِ .

أَسَاسُ قِصَرِ الْأَمَلِ :

وَقِصَرُ الْأَمَلِ بِنَاؤُهُ عَلَى أَمْرَيْنِ: تَيَقُّنِ زَوَالِ الدُّنْيَا وَمُفَارَقَتِهَا، وَتَيَقُّنِ لِقَاءِ الْآخِرَةِ وَبَقَائِهَا وَدَوَامِهَا، ثُمَّ يُقَايِسُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ وَيُؤْثِرُ أَوْلَاهُمَا بِالْإِيثَارِ.

سَيْرُ الْقَلْبِ إِلَى اللهِ :

اعْلَمْ أَنَّ الْقَلْبَ يَسِيرُ إِلَىٰ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، وَيَكْشِفُ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَنَهْجِهِ، وَآفَاتِ النَّفْسِ وَالْعَمَلِ، وَقِطَاعِ الطَّرِيقِ

بِنُورِهِ وَحَيَاتِهِ وَقُوَّتِهِ، وَصِحَّتِهِ وَعَزْمِهِ، وَسَلَامَةِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ، وَغَيْبَةِ الشَّوَاغِلِ وَالْقَوَاطِعِ عَنْهُ، وَهَذِهِ الْخَمْسَةُ تُطْفِئُ نُورَهُ، وَتُعْوِرُ عَيْنَ بَصِيرَتِهِ، وَتُثْقِلُ سَمْعَهُ، إِنْ لَمْ تَصُمَّهُ وَتُبْكِمْهُ وَتُضْعِفُ قُوَاهُ كُلَّهَا، وَتُوهِنُ صِحَّتَهُ وَتُفَتِّرُ عَزِيمَتَهُ، وَتُوقِفُ هِمَّتَهُ، وَتُنْكِسُهُ إِلَىٰ وَرَائِهِ، وَمَنْ لَا شُعُورَ لَهُ بِهَذَا فَمَيِّتُ الْقَلْبِ، وَمَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامٌ، فَهِيَ عَائِقَةٌ لَهُ عَنْ نَيْلِ كَمَالِهِ، قَاطِعَةٌ لَهُ عَنِ الْوُصُولِ إِلَىٰ مَا خُلِقَ لَهُ، وَجُعِلَ نَعِيمُهُ وَسَعَادَتُهُ وَابْتِهَاجُهُ وَلَذَّتُهُ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

نَعِيمُ الْقَلْبِ:

فَإِنَّهُ لَا نَعِيمَ لَهُ وَلَا لَذَّةَ، وَلَا ابْتِهَاجَ، وَلَا كَمَالَ، إِلَّا بِمَعْرِفَةِ اللهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَالطُّمَأْنِينَةِ بِذِكْرِهِ، وَالْفَرَحِ وَالابْتِهَاجِ بِقُرْبِهِ، وَالشَّوْقِ إِلَىٰ لِقَائِهِ، فَهَذِهِ جَنَّتُهُ الْعَاجِلَةُ، كَمَا أَنَّهُ لَا نَعِيمَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا فَوْزَ إِلَّا بِجِوَارِهِ فِي دَارِ النَّعِيمِ فِي الْجَنَّةِ الْآجِلَةِ، فَلَهُ جَنَّتَانِ لَا يَدْخُلُ الثَّانِيَةَ مِنْهُمَا إِنْ لَمْ يَدْخُلِ الْأُولَىٰ.

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ -قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ- يَقُولُ: إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً، مَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا لَمْ يَدْخُلْ جَنَّةَ الْآخِرَةِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: إِنَّهُ لَيَمُرُّ بِالْقَلْبِ أَوْقَاتٌ، أَقُولُ: إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا، إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ.

وَقَالَ بَعْضُ الْمُحِبِّينَ: مَسَاكِينُ أَهْلِ الدُّنْيَا خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا ذَاقُوا أَطْيَبَ مَا فِيهَا، قَالُوا: وَمَا أَطْيَبُ مَا فِيهَا ؟ قَالَ: مَحَبَّةُ اللهِ، وَالْأُنْسُ بِهِ، وَالشَّوْقُ إِلَىٰ لِقَائِهِ، وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ، وَالْإِعْرَاضُ عَمَّا سِوَاهُ أَوْ نَحْوُ هَذَا مِنَ الْكَلَامِ.

وَكُلُّ مَنْ لَهُ قَلْبٌ حَيٌّ يَشْهَدُ هَذَا وَيَعْرِفُهُ ذَوْقًا.

وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْخَمْسَةُ: قَاطِعَةٌ عَنْ هَذَا، حَائِلَةٌ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَهُ، عَائِقَةٌ لَهُ عَنْ سَيْرِهِ، وَمُحْدِثَةٌ لَهُ أَمْرَاضًا وَعِلَلًا إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهَا الْمَرِيضُ خِيفَ عَلَيْهِ مِنْهَا.

مُفْسِدَاتُ الْقَلْبِ :

١ - الْخُلْطَةُ:

فَأَمَّا مَا تُؤْثِرُهُ كَثْرَةُ الْخُلْطَةِ: فَامْتِلَاءُ الْقَلْبِ مِنْ دُخَانِ أَنْفَاسِ بَنِي آدَمَ حَتَّىٰ يَسْوَدَّ، يُوجِبُ لَهُ تَشَتُّتًا وَتَفَرُّقًا، وَهَمًّا وَغَمًّا، وَضَعْفًا، وَحَمْلًا لِمَا يَعْجِزُ عَنْ حَمْلِهِ مِنْ مُؤْنَةِ قُرَنَاءِ السُّوءِ ، وَإِضَاعَةَ مَصَالِحِهِ، وَالِاشْتِغَالَ عَنْهَا بِهِمْ وَبِأُمُورِهِمْ، وَتَقَسُّمَ فِكْرِهِ فِي أَوْدِيَةِ مَطَالِبِهِمْ وَإِرَادَاتِهِمْ، فَمَاذَا يَبْقَىٰ مِنْهُ لِلَّهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ ؟.

ضَرُورَةُ الخُلْطَةِ فِي الدِّيْنِ :

وَكَمْ جَلَبَتْ خُلْطَةُ النَّاسِ مِنْ نِقْمَةٍ، وَدَفَعَتْ مِنْ نِعْمَةٍ ؟ ، وَأَنْزَلَتْ

مِنْ مِحْنَةٍ، وَعَطَّلَتْ مِنْ مِنْحَةٍ، وَأَحَلَّتْ مِنْ رَزِيَّةٍ، وَأَوْقَعَتْ فِي بَلِيَّةٍ ؟ ، وَهَلْ آفَةُ النَّاسِ إِلَّا النَّاسُ ؟ ، وَهَلْ كَانَ عَلَىٰ أَبِي طَالِبٍ عِنْدَ الْوَفَاةِ أَضَرَّ مِنْ قُرَنَاءِ السُّوءِ ؟ ، لَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّىٰ حَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ تُوجِبُ لَهُ سَعَادَةَ الْأَبَدِ.

الْخُلْطَةُ النَّافِعَةُ وَضَوَابِطُهَا :

وَالضَّابِطُ النَّافِعُ فِي أَمْرِ الْخُلْطَةِ أَنْ يُخَالِطَ النَّاسَ فِي الْخَيْرِ كَالْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَالْأَعْيَادِ وَالْحَجِّ، وَتَعَلُّمِ الْعِلْمِ، وَالْجِهَادِ ، وَالنَّصِيحَةِ وَيَعْتَزِلُهُمْ فِي الشَّرِّ، وَفُضُولِ الْمُبَاحَاتِ، فَإِنْ دَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَىٰ خُلْطَتِهِمْ فِي الشَّرِّ، وَلَمْ يُمْكِنْهُ اعْتِزَالُهُمْ فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَنْ يُوَافِقَهُمْ، وَلْيَصْبِرْ عَلَىٰ أَذَاهُمْ، فَإِنَّهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يُؤْذُوهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ قُوَّةٌ وَلَا نَاصِرٌ، وَلَكِنْ أَذًىٰ يَعْقُبُهُ عِزٌّ وَمَحَبَّةٌ لَهُ وَتَعْظِيمٌ، وَثَنَاءٌ عَلَيْهِ مِنْهُمْ وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَمُوَافَقَتُهُمْ يَعْقُبُهَا ذُلٌّ وَبُغْضٌ لَهُ، وَمَقْتٌ، وَذَمٌّ مِنْهُمْ وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَالصَّبْرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً، وَأَحْمَدُ مَآلًا، وَإِنْ دَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَىٰ خُلْطَتِهِمْ فِي فُضُولِ الْمُبَاحَاتِ، فَلْيَجْتَهِدْ أَنْ يَقْلِبَ ذَلِكَ الْمَجْلِسَ طَاعَةً لِلَّهِ إِنْ أَمْكَنَهُ، وَيُشَجِّعَ نَفْسَهُ وَيُقَوِّيَ قَلْبَهُ، وَلَا يَلْتَفِتْ إِلَىٰ الْوَارِدِ الشَّيْطَانِيِّ الْقَاطِعِ لَهُ عَنْ ذَلِكَ، بِأَنَّ هَذَا رِيَاءٌ وَمَحَبَّةٌ لِإِظْهَارِ

عِلْمكَ وَحَالِكَ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَلْيُحَارِبْهُ، وَلْيَسْتَعِنْ بِاللهِ، وَيُؤَثِّرْ فِيهِمْ مِنَ الْخَيْرِ مَا أَمْكَنَهُ.

٢-التَّمَنِّي:

وَهُوَ بَحْرٌ لَا سَاحِلَ لَهُ، وَهُوَ الْبَحْرُ الَّذِي يَرْكَبُهُ مَفَالِيسُ الْعَالَمِ، كَمَا قِيلَ: إِنَّ الْمُنَىٰ رَأْسُ أَمْوَالِ الْمَفَالِيسِ، وَبِضَاعَةُ رُكَّابِهِ مَوَاعِيدُ الشَّيَاطِينِ، وَخَيَالَاتُ الْمُحَالِ وَالْبُهْتَانِ، فَلَا تَزَالُ أَمْوَاجُ الْأَمَانِي الْكَاذِبَةِ، وَالْخَيَالَاتُ الْبَاطِلَةُ، تَتَلَاعَبُ بِرَاكِبِهِ كَمَا تَتَلَاعَبُ الْكِلَابُ بِالْجِيفَةِ، وَهِيَ بِضَاعَةُ كُلِّ نَفْسٍ مَهِينَةٍ خَسِيسَةٍ سُفْلِيَّةٍ، لَيْسَتْ لَهَا هِمَّةٌ تَنَالُ بِهَا الْحَقَائِقَ الْخَارِجِيَّةَ، بَلِ اعْتَاضَتْ عَنْهَا بِالْأَمَانِي الذِّهْنِيَّةِ، وَكُلٌّ بِحَسَبِ حَالِهِ مِنْ مُتَمَنٍّ لِلْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ، وَلِلضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ وَالتَّطْوَافِ فِي الْبُلْدَانِ، أَوْ لِلْأَمْوَالِ وَالْأَثْمَانِ، أَوْ لِلنِّسْوَانِ وَالْمُرْدَانِ، فَيُمَثِّلُ الْمُتَمَنِّي صُورَةَ مَطْلُوبِهِ فِي نَفْسِهِ وَقَدْ فَازَ بِوُصُولِهَا، وَالْتَذَّ بِالظَّفَرِ بِهَا، فَبَيْنَا هُوَ عَلَىٰ هَذِهِ الْحَالِ إِذِ اسْتَيْقَظَ فَإِذَا يَدُهُ وَالْحَصِيرُ.

وَصَاحِبُ الْهِمَّةِ الْعَلِيَّةِ أَمَانِيهِ حَائِمَةٌ حَوْلَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ، وَالْعَمَلِ الَّذِي يُقَرِّبُهُ إِلَىٰ اللهِ، وَيُدْنِيهِ مِنْ جِوَارِهِ.

فَأَمَانِيُّ هَذَا إِيمَانٌ وَنُورٌ وَحِكْمَةٌ، وَأَمَانِيُّ أُولَئِكَ خُدَعٌ وَغُرُورٌ.

وَقَدْ مَدَحَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مُتَمَنِّي الْخَيْرِ، وَرُبَّمَا جَعَلَ

أَجْرَهُ فِي بَعْضِ الأَشْيَاءِ كَأَجْرِ فَاعِلِهِ، كَالْقَائِلِ: « **لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ الَّذِي يَتَّقِي فِي مَالِهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَقَّهُ**، وَقَالَ: « **هُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ** » [١] ، وَتَمَنَّىٰ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ تَمَتَّعَ وَحَلَّ وَلَمْ يَسُقِ الْهَدْيَ، وَكَانَ قَدْ قَرَنَ، فَأَعْطَاهُ اللهُ ثَوَابَ الْقِرَانِ بِفِعْلِهِ، وَثَوَابَ التَّمَتُّعِ الَّذِي تَمَنَّاهُ بِأُمْنِيَتِهِ، فَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ الأَجْرَيْنِ.

٣- التَّعَلُّقُ بِغَيْرِ اللهِ -تَبَارَكَ تَعَالَى-:

وَهَذَا أَعْظَمُ مُفْسِدَاتِهِ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ.

فَلَيْسَ عَلَيْهِ أَضَرُّ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا أَقْطَعُ لَهُ عَنْ مَصَالِحِهِ وَسَعَادَتِهِ مِنْهُ، فَإِنَّهُ إِذَا تَعَلَّقَ بِغَيْرِ اللهِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَىٰ مَا تَعَلَّقَ بِهِ، وَخَذَلَهُ مِنْ جِهَةِ مَا تَعَلَّقَ بِهِ، وَفَاتَهُ تَحْصِيلُ مَقْصُودِهِ مِنَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- بِتَعَلُّقِهِ بِغَيْرِهِ وَالْتِفَاتِهِ إِلَىٰ سِوَاهُ، فَلَا عَلَىٰ نَصِيبِهِ مِنَ اللهِ حَصَلَ، وَلَا إِلَىٰ مَا أَمَّلَهُ مِمَّنْ تَعَلَّقَ بِهِ وَصَلَ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾** ﴾ [مريم: ٨١-٨٢]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ**

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٣٢٥) وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (١٨٩٤).

مُحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [يس : ٧٤-٧٥] .

فَأَعْظَمُ النَّاسِ خِذْلَانًا مَنْ تَعَلَّقَ بِغَيْرِ اللهِ، فَإِنَّ مَا فَاتَهُ مِنْ مَصَالِحِهِ وَسَعَادَتِهِ وَفَلَاحِهِ أَعْظَمُ مِمَّا حَصَلَ لَهُ مِمَّنْ تَعَلَّقَ بِهِ، وَهُوَ مُعَرَّضٌ لِلزَّوَالِ وَالْفَوَاتِ ، وَمَثَلُ الْمُتَعَلِّقِ بِغَيْرِ اللهِ كَمَثَلِ الْمُسْتَظِلِّ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ بِبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ، وَأَوْهَنِ الْبُيُوتِ.

وَبِالْجُمْلَةِ فَأَسَاسُ الشِّرْكِ وَقَاعِدَتُهُ الَّتِي بُنِيَ عَلَيْهَا التَّعَلُّقُ بِغَيْرِ اللهِ، وَلِصَاحِبِهِ الذَّمُّ وَالْخِذْلَانُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء :٢٢] ، ﴿ مَذْمُومًا ﴾ لَا حَامِدَ لَكَ، ﴿ مَّخْذُولًا ﴾ مَخْذُولًا لَا نَاصِرَ لَكَ، إِذْ قَدْ يَكُونُ بَعْضُ النَّاسِ مَقْهُورًا مَحْمُودًا كَالَّذِي قُهِرَ بِبَاطِلٍ، وَقَدْ يَكُونُ مَذْمُومًا مَنْصُورًا، كَالَّذِي قَهَرَ وَتُسُلِّطَ عَلَيْهِ بِبَاطِلٍ، وَقَدْ يَكُونُ مَحْمُودًا مَنْصُورًا كَالَّذِي تَمَكَّنَ وَمَلَكَ بِحَقٍّ، وَالْمُشْرِكُ الْمُتَعَلِّقُ بِغَيْرِ اللهِ قِسْمُهُ أَرْدَأُ الْأَقْسَامِ الْأَرْبَعَةِ، لَا مَحْمُودٌ وَلَا مَنْصُورٌ.

٤ـ كَثْرَةُ الطَّعَامِ :

وَالْمُفْسِدُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ نَوْعَانِ : أَحَدُهُمَا مَا يُفْسِدُهُ لِعَيْنِهِ وَذَاتِهِ كَالْمُحَرَّمَاتِ، وَهِيَ نَوْعَانِ: مُحَرَّمَاتٌ لِحَقِّ اللهِ، كَالْمَيْتَةِ وَالدَّمِ، وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ، وَذِي النَّابِ مِنَ السِّبَاعِ وَالْمِخْلَبِ مِنَ الطَّيْرِ، وَمُحَرَّمَاتٌ لِحَقِّ الْعِبَادِ، كَالْمَسْرُوقِ

وَالْمَغْصُوبِ وَالْمَنْهُوبِ، وَمَا أُخِذَ بِغَيْرِ رِضَا صَاحِبِهِ، إِمَّا قَهْرًا وَإِمَّا حَيَاءً وَتَذَمُّمًا.

وَالثَّانِي: مَا يُفْسِدُهُ بِقَدْرِهِ وَتَعَدِّي حَدِّهِ، كَالْإِسْرَافِ فِي الْحَلَالِ، وَالشِّبَعِ الْمُفْرِطِ، فَإِنَّهُ يُثْقِلُهُ عَنِ الطَّاعَاتِ، وَيَشْغَلُهُ بِمُزَاوَلَةِ مُؤْنَةِ الْبِطْنَةِ وَمُحَاوَلَتِهَا، حَتَّىٰ يَظْفَرَ بِهَا، فَإِذَا ظَفِرَ بِهَا شَغَلَهُ بِمُزَاوَلَةِ تَصَرُّفِهَا وَوِقَايَةِ ضَرَرِهَا، وَالتَّأَذِّي بِثِقَلِهَا، وَقَوَّىٰ عَلَيْهِ مَوَادَّ الشَّهْوَةِ، وَطُرُقَ مَجَارِي الشَّيْطَانِ وَوَسَّعَهَا، فَإِنَّهُ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَىٰ الدَّمِ، فَالصَّوْمُ يُضَيِّقُ مَجَارِيَهُ وَيَسُدُّ عَلَيْهِ طُرُقَهُ، وَالشِّبَعُ يَطْرُقُهَا وَيُوَسِّعُهَا، وَمَنْ أَكَلَ كَثِيرًا شَرِبَ كَثِيرًا، فَنَامَ كَثِيرًا، فَخَسِرَ كَثِيرًا، وَفِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ: « **مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ** »[(١)].

٥ـ كَثْرَةُ النَّوْمِ:

فَإِنَّهُ يُمِيتُ الْقَلْبَ، وَيُثَقِّلُ الْبَدَنَ، وَيُضِيعُ الْوَقْتَ، وَيُورِثُ كَثْرَةَ الْغَفْلَةِ وَالْكَسَلِ، وَمِنْهُ الْمَكْرُوهُ جِدًّا، وَمِنْهُ الضَّارُّ غَيْرُ النَّافِعِ لِلْبَدَنِ، وَأَنْفَعُ النَّوْمِ مَا كَانَ عِنْدَ شِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَنَوْمُ أَوَّلِ اللَّيْلِ أَحْمَدُ وَأَنْفَعُ مِنْ آخِرِهِ، وَنَوْمُ وَسَطِ النَّهَارِ أَنْفَعُ مِنْ طَرَفَيْهِ، وَكُلَّمَا قَرُبَ النَّوْمُ مِنَ

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٣٨١) وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (١٩٣٩).

الطَّرَفَيْنِ قَلَّ نَفْعُهُ، وَكَثُرَ ضَرَرُهُ، وَلَاسِيَّمَا نَوْمُ الْعَصْرِ، وَالنَّوْمُ أَوَّلَ النَّهَارِ إِلَّا لِسَهْرَانَ.

النَّوْمُ المَكْرُوهِ :

وَمِنَ الْمَكْرُوهِ عِنْدَهُمُ النَّوْمُ بَيْنَ صَلَاةِ الصُّبْحِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ، فَإِنَّهُ وَقْتُ غَنِيمَةٍ، وَلِلسَّيْرِ ذَلِكَ الْوَقْتَ عِنْدَ السَّالِكِينَ مَزِيَّةٌ عَظِيمَةٌ، حَتَّىٰ لَوْ سَارُوا طُولَ لَيْلِهِمْ لَمْ يَسْمَحُوا بِالْقُعُودِ عَنِ السَّيْرِ ذَلِكَ الْوَقْتَ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ النَّهَارِ وَمِفْتَاحُهُ، وَوَقْتُ نُزُولِ الْأَرْزَاقِ، وَحُصُولِ الْقَسْمِ، وَحُلُولِ الْبَرَكَةِ، وَمِنْهُ يَنْشَأُ النَّهَارُ، وَيَنْسَحِبُ حُكْمُ جَمِيعِهِ عَلَىٰ حُكْمِ تِلْكَ الْحِصَّةِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ نَوْمُهَا كَنَوْمِ الْمُضْطَرِّ.

أَنْفَعُ النَّوْمِ :

وَبِالْجُمْلَةِ فَأَعْدَلُ النَّوْمِ وَأَنْفَعُهُ نَوْمُ نِصْفِ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ، وَسُدُسِهِ الْأَخِيرِ، وَهُوَ مِقْدَارُ ثَمَانِ سَاعَاتٍ، وَهَذَا أَعْدَلُ النَّوْمِ عِنْدَ الْأَطِبَّاءِ، وَمَا زَادَ عَلَيْهِ أَوْ نَقَصَ مِنْهُ أَثَّرَ عِنْدَهُمْ فِي الطَّبِيعَةِ انْحِرَافًا بِحَسَبِهِ.

النَّوْمُ الضَّارُّ :

وَمِنَ النَّوْمِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ أَيْضًا النَّوْمُ أَوَّلَ اللَّيْلِ، عَقِيبَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، حَتَّىٰ تَذْهَبَ فَحْمَةُ الْعِشَاءِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ- يَكْرَهُهُ ، فَهُوَ مَكْرُوهٌ شَرْعًا وَطَبْعًا.

آفَاتُ كَثْرَةِ النَّوْمِ :

وَكَمَا أَنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ مُورِثَةٌ لِهَذِهِ الآفَاتِ، فَمُدَافَعَتُهُ وَهَجْرُهُ مُورِثٌ لِآفَاتٍ أُخْرَىٰ عِظَامٍ: مِنْ سُوءِ الْمِزَاجِ وَيُبْسِهِ، وَانْحِرَافِ النَّفْسِ، وَجَفَافِ الرَّطُوبَاتِ الْمُعِينَةِ عَلَىٰ الْفَهْمِ وَالْعَمَلِ، وَيُورِثُ أَمْرَاضًا مُتْلِفَةً لَا يَنْتَفِعُ صَاحِبُهَا بِقَلْبِهِ وَلَا بَدَنِهِ مَعَهَا، وَمَا قَامَ الْوُجُودُ إِلَّا بِالْعَدْلِ، فَمَنِ اعْتَصَمَ بِهِ فَقَدْ أَخَذَ بِحَظِّهِ مِنْ مَجَامِعِ الْخَيْرِ، وَبِاللهِ الْمُسْتَعَانُ.

حَقِيقَةُ الزُّهْدِ :

قِيلَ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ : أَيَكُونُ الرَّجُلُ زَاهِدًا ، وَمَعَهُ أَلْفُ دِينَارٍ ؟، قَالَ : نَعَمْ عَلَىٰ شَرِيطَةِ أَلَّا يَفْرَحَ إِذَا زَادَتْ وَلَا يَحْزَنَ إِذَا نَقَصَتْ ، وَلِهَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ أَزْهَدَ الْأُمَّةِ مَعَ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ .

وَقِيلَ لِسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ : أَيَكُونُ ذُو الْمَالِ زَاهِدًا ؟ قَالَ : نَعَمْ إِنْ كَانَ إِذَا زِيدَ فِي مَالِهِ شَكَرَ ، وَإِنْ نَقَصَ شَكَرَ وَصَبَرَ .

الفِرَارُ إِلَى اللهِ :

هُرُوبُ الْعَبْدِ مِنْ ضِيقِ صَدْرِهِ بِالْهُمُومِ وَالْغُمُومِ وَالْأَحْزَانِ وَالْمَخَاوِفِ الَّتِي تَعْتَرِيهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ، وَمَا هُوَ خَارِجٌ عَنْ نَفْسِهِ مِمَّا

يَتَعَلَّقُ بِأَسْبَابِ مَصَالِحِهِ، وَمَصَالِحِ مَنْ يَتَعَلَّقُ بِهِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِمَالِهِ وَبَدَنِهِ وَأَهْلِهِ وَعَدُوِّهِ، يَهْرُبُ مِنْ ضِيقِ صَدْرِهِ بِذَلِكَ كُلِّهِ إِلَىٰ سَعَةِ فَضَاءِ الثِّقَةِ بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَصِدْقِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَحُسْنِ الرَّجَاءِ لِجَمِيلِ صُنْعِهِ بِهِ، وَتَوَقُّعِ الْمَرْجُوِّ مِنْ لُطْفِهِ وَبِرِّهِ، وَمِنْ أَحْسَنِ كَلَامِ الْعَامَّةِ قَوْلُهُمْ: لَا هَمَّ مَعَ اللهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطَّلَاقُ: ٢-٣].

قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ: يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا مِنْ كُلِّ مَا ضَاقَ عَلَىٰ النَّاسِ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: مَخْرَجًا مِنْ كُلِّ شِدَّةٍ، وَهَذَا جَامِعٌ لِشَدَائِدِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَضَايِقِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِنَّ اللهَ يَجْعَلُ لِلْمُتَّقِي مِنْ كُلِّ مَا ضَاقَ عَلَىٰ النَّاسِ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَخْرَجًا، وَقَالَ الْحَسَنُ: مَخْرَجًا مِمَّا نَهَاهُ عَنْهُ، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلَاقُ: ٣] أَيْ كَافِي مَنْ يَثِقُ بِهِ فِي نَوَائِبِهِ وَمُهِمَّاتِهِ، يَكْفِيهِ كُلَّ مَا أَهَمَّهُ، وَالْحَسْبُ الْكَافِي حَسْبُنَا اللهُ كَافِينَا اللهُ.

الصِّدْقُ مَعَ اللهِ:

وَكُلَّمَا كَانَ الْعَبْدُ حَسَنَ الظَّنِّ بِاللهِ، حَسَنَ الرَّجَاءِ لَهُ، صَادِقَ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُخَيِّبُ أَمَلَهُ فِيهِ الْبَتَّةَ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُخَيِّبُ أَمَلَ آمِلٍ، وَلَا يُضَيِّعُ عَمَلَ عَامِلٍ.

الْفِرَارُ مِنْ حُظُوظِ النَّفْسِ :

الْفِرَارَ مِنْ حُظُوظِ النُّفُوسِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ مَرَاتِبِهَا ، فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُهَا لَا الْمُعْتَنُونَ بِمَعْرِفَةِ اللهِ وَمُرَادِهِ ، وَحَقِّهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ ، وَمَعْرِفَةِ نُفُوسِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَآفَاتِهَا وَرُبَّ مُطَالِبَ عَالِيَةٍ لِقَوْمٍ مِنَ الْعِبَادِ هِيَ حُظُوظٌ لِقَوْمٍ آخَرِينَ يَسْتَغْفِرُونَ اللهَ مِنْهَا وَيَفِرُّونَ إِلَيْهِ مِنْهَا ، يَرَوْنَهَا حَائِلَةً بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَطْلُوبِهِمْ .

عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ :

فَالْقَلْبُ يَعْرِضُ لَهُ حَالَتَانِ: حَالَةُ حَزْنٍ وَأَسَفٍ عَلَىٰ مَفْقُودٍ، وَحَالَةُ فَرَحٍ وَرِضًىٰ بِمَوْجُودٍ، وَلَهُ بِمُقْتَضَىٰ هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ عُبُودِيَّتَانِ.

وَلَهُ بِمُقْتَضَىٰ الْحَالَةِ الأُولَىٰ عُبُودِيَّةُ الرِّضَاءِ، وَهِيَ لِلسَّابِقِينَ، وَالصَّبْرِ وَهِيَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ.

وَلَهُ بِمُقْتَضَىٰ الْحَالَةِ الثَّانِيَةِ عُبُودِيَّةُ الشُّكْرِ، وَالشَّاكِرُونَ فِيهَا أَيْضًا نَوْعَانِ: سَابِقُونَ، وَأَصْحَابُ يَمِينٍ، فَاقْتَطَعَتْهُ النَّفْسُ وَالشَّيْطَانُ عَنْ هَاتَيْنِ الْعُبُودِيَّتَيْنِ، بِصَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ فَاجِرَيْنِ، هُمَا لِلشَّيْطَانِ لَا لِلرَّحْمَنِ: صَوْتِ النَّدْبِ وَالنِّيَاحَةِ عِنْدَ الْحُزْنِ وَفَوَاتِ الْمَحْبُوبِ، وَصَوْتِ اللَّهْوِ وَالْمِزْمَارِ وَالْغِنَاءِ عِنْدَ الْفَرَحِ وَحُصُولِ الْمَطْلُوبِ، فَعَوَّضَهُ الشَّيْطَانُ

بِهَذَيْنِ الصَّوْتَيْنِ عَنْ تَيْنِكَ الْعُبُودِيَّتَيْنِ.

وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَىٰ هَذَا الْمَعْنَىٰ بِعَيْنِهِ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- «**إِنَّمَا نَهَيْتُ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ، فَاجِرَيْنِ: صَوْتِ وَيْلٍ عِنْدَ مُصِيبَةٍ، وَصَوْتِ مِزْمَارٍ عِنْدَ نِعْمَةٍ**» (١) .

الْمُسْلِمُ بَيْنَ نِعْمَتَيْنِ :

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: نِعْمَتُهُ فِيمَا زَوَىٰ عَنِّي مِنَ الدُّنْيَا أَعْظَمُ مِنْ نِعْمَتِهِ فِيمَا بَسَطَ لِي مِنْهَا، إِنِّي رَأَيْتُهُ أَعْطَاهَا قَوْمًا فَاغْتَرُّوا.

إِذَا عَمَّ بِالسَّرَّاءِ أَعْقَبَ شُكْرَهَا ... وَإِنْ مَسَّ بِالضَّرَّاءِ أَعْقَبَهَا الْأَجْرُ

وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا لَهُ فِيهِ نِعْمَةٌ ... تَضِيقُ بِهَا الْأَوْهَامُ وَالْبَرُّ وَالْبَحْرُ

الْحُزْنُ غَيْرُ مَحْمُودٍ :

الْحُزْنُ مُوقِفٌ غَيْرُ مُسَيِّرٍ، وَلَا مَصْلَحَةَ فِيهِ لِلْقَلْبِ، وَأَحَبُّ شَيْءٍ إِلَىٰ الشَّيْطَانِ أَنْ يَحْزَنَ الْعَبْدُ لِيَقْطَعَهُ عَنْ سَيْرِهِ، وَيُوقِفَهُ عَنْ سُلُوكِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الْمُجَادَلَةُ: ١٠] ، وَنَهَىٰ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- «**الثَّلَاثَةَ أَنْ يَتَنَاجَىٰ اثْنَانِ**

---

(١) أَخْرَجَهُ الحَاكِمُ (٤/ ٤٠)وَسَكَتَ عَنْهُ،وَلِهَذَا الحَدِيْث شَاهِدٌ آخَرَ وَهُوَ «**نُهِيتُ لَمْ أَنْهَ عَنِ الْبُكَاءِ...**»،وَقَدْ صَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ-رَحِمَهُ اللهُ-فِي«السِّلْسِلَةِ الصَّحِيْحَةِ» (٤٢٧).

مِنْهُمْ دُونَ الثَّالِثِ، لأَنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ »[١] .

فَالْحُزْنُ لَيْسَ بِمَطْلُوبٍ، وَلَا مَقْصُودٍ، وَلَا فِيهِ فَائِدَةٌ، وَقَدِ اسْتَعَاذَ مِنْهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ: « **اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ** »[٢] ، فَهُوَ قَرِينُ الْهَمِّ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْمَكْرُوهَ الَّذِي يَرِدُ عَلَى الْقَلْبِ، إِنْ كَانَ لِمَا يُسْتَقْبَلُ أَوْرَثَهُ الْهَمَّ، وَإِنْ كَانَ لِمَا مَضَى أَوْرَثَهُ الْحُزْنَ، وَكِلَاهُمَا مُضْعِفٌ لِلْقَلْبِ عَنِ السَّيْرِ، مُفَتِّرٌ لِلْعَزْمِ.

مَنْزِلَةُ الْخَوْفِ :

وَمِنْ مَنَازِلِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ مَنْزِلَةُ الْخَوْفِ.

وَهِيَ مِنْ أَجَلِّ مَنَازِلِ الطَّرِيقِ وَأَنْفَعِهَا لِلْقَلْبِ، وَهِيَ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ، قَالَ اللهُ - تَعَالَى -: ﴿ **فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران:١٧٥] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ **وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ** ﴾ [البقرة: ٤٠] ،وَقَالَ: ﴿ **فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ** ﴾ [المائدة: ٤٤] ، وَمَدَحَ أَهْلَهُ فِي كِتَابِهِ وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ، فَقَالَ - تَعَالَى - : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧** ﴾ -إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى - : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١** ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١] .

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٢٩٠) ، وَمُسْلِمٌ (٢١٨٤) .

(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ أَبُو دَاوُد (١٥٤١) وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيحِ سُنَنِ أَبُو دَاوُد» (١٣٦٣) .

وَفِي الْمُسْنَدِ وَالتِّرْمِذِيِّ عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، « قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المُؤْمِنُون:٦٠] ، أَهُوَ الَّذِي يَزْنِي، وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ، وَيَسْرِقُ ؟ قَالَ: **لَا يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ، وَيَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ**» (١) ، قَالَ الْحَسَنُ: عَمِلُوا وَاللهِ بِالطَّاعَاتِ، وَاجْتَهَدُوا فِيهَا، وَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِمْ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ جَمَعَ إِحْسَانًا وَخَشْيَةً، وَالْمُنَافِقَ جَمَعَ إِسَاءَةً وَأَمْنًا.

تَعْرِيفُ الْخَوْفِ :

الْخَوْفُ اضْطِرَابُ الْقَلْبِ وَحَرَكَتُهُ مِنْ تَذَكُّرِ الْمَخُوفِ.

تَعْرِيفُ الْخَشْيَةِ :

وَ « الْخَشْيَةُ » أَخَصُّ مِنَ الْخَوْفِ، فَإِنَّ الْخَشْيَةَ لِلْعُلَمَاءِ بِاللهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨] ، فَهِيَ خَوْفٌ مَقْرُونٌ بِمَعْرِفَةٍ، وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **إِنِّي أَتْقَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً** » (٢) .

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وابْنُ مَاجَهْ (٤١٩٨) وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «السِّلْسِلَة الصَّحِيْحَة » (١٦٢) .

(٢) (صَحِيْحٌ) صَحَحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «السِّلْسِلَة الصَّحِيْحَة » (١٣٣٦) .

تَعْرِيْفُ الرَّهْبَةِ :

الرَّهْبَةُ فَهِيَ الْإِمْعَانُ فِي الْهَرَبِ مِنَ الْمَكْرُوهِ، وَهِيَ ضِدُّ الرَّغْبَةِ الَّتِي هِيَ سَفَرُ الْقَلْبِ فِي طَلَبِ الْمَرْغُوبِ فِيهِ.

تَعْرِيْفُ الوَجَلِ :

وَأَمَّا الْوَجَلُ فَرَجَفَانُ الْقَلْبِ، وَانْصِدَاعُهُ لِذِكْرِ مَنْ يُخَافُ سُلْطَانُهُ وَعُقُوبَتُهُ، أَوْ لِرُؤْيَتِهِ.

تَعْرِيْفُ الْهَيْبَةِ :

وَأَمَّا الْهَيْبَةُ فَخَوْفٌ مُقَارِنٌ لِلتَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ، وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ مَعَ الْمَحَبَّةِ وَالْمَعْرِفَةِ ، وَالْإِجْلَالُ: تَعْظِيمٌ مَقْرُونٌ بِالْحُبِّ.

فَالْخَوْفُ لِعَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْخَشْيَةُ لِلْعُلَمَاءِ الْعَارِفِينَ، وَالْهَيْبَةُ لِلْمُحِبِّينَ، وَالْإِجْلَالُ لِلْمُقَرَّبِينَ، وَعَلَىٰ قَدْرِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ يَكُونُ الْخَوْفُ وَالْخَشْيَةُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **إِنِّي لَأَعْلَمُكُمْ بِاللهِ، وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً** - وَفِي رِوَايَةٍ - **خَوْفًا** ، وَقَالَ : **لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَىٰ الْفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَىٰ الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ** » [(١)] .

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وابْنُ مَاجَهْ (٤١٩٠) وَصَحَحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «السِّلْسِلَةِ الصَّحِيْحَةِ » (١٧٢٢) .

فَصَاحِبُ الْخَوْفِ يَلْتَجِئُ إِلَىٰ الْهَرَبِ، وَالْإِمْسَاكِ، وَصَاحِبُ الْخَشْيَةِ يَلْتَجِئُ إِلَىٰ الِاعْتِصَامِ بِالْعِلْمِ، وَمَثَلُهُمَا مَثَلُ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالطِّبِّ، وَمَثَلُ الطَّبِيبِ الْحَاذِقِ، فَالْأَوَّلُ يَلْتَجِئُ إِلَىٰ الْحِمْيَةِ وَالْهَرَبِ، وَالطَّبِيبُ يَلْتَجِئُ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ بِالْأَدْوِيَةِ وَالْأَدْوَاءِ.

قَالَ أَبُو حَفْصٍ: الْخَوْفُ سَوْطُ اللهِ، يُقَوِّمُ بِهِ الشَّارِدِينَ عَنْ بَابِهِ، وَقَالَ: الْخَوْفُ سِرَاجٌ فِي الْقَلْبِ، بِهِ يُبْصَرُ مَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَكُلُّ أَحَدٍ إِذَا خِفْتَهُ هَرَبْتَ مِنْهُ إِلَّا اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ-، فَإِنَّكَ إِذْ خِفْتَهُ هَرَبْتَ إِلَيْهِ.

الْخَوْفُ الْمَحْمُودِ:

وَالْخَوْفُ الْمَحْمُودُ الصَّادِقُ: مَا حَالَ بَيْنَ صَاحِبِهِ وَبَيْنَ مَحَارِمِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- ، فَإِذَا تَجَاوَزَ ذَلِكَ خِيفَ مِنْهُ الْيَأْسُ وَالْقُنُوطُ.

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ : صِدْقُ الْخَوْفِ هُوَ الْوَرَعُ عَنِ الْآثَامِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ -قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ- يَقُولُ: الْخَوْفُ الْمَحْمُودُ مَا حَجَزَكَ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- .

سَيْرُ الْقَلْبِ إِلَى اللهِ :

الْقَلْبُ فِي سَيْرِهِ إِلَىٰ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- بِمَنْزِلَةِ الطَّائِرِ، فَالْمَحَبَّةُ رَأْسُهُ، وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ جَنَاحَاهُ ، فَمَتَىٰ سَلِمَ الرَّأْسُ وَالْجَنَاحَانِ فَالطَّائِرُ

جَيِّدُ الطَّيَرَانِ ، وَمَتَىٰ قُطِعَ الرَّأْسُ مَاتَ الطَّائِرُ ، وَمَتَىٰ فُقِدَ الْجَنَاحَانِ فَهُوَ عُرْضَةٌ لِكُلِّ صَائِدٍ وَكَاسِرٍ ، وَلَكِنَّ السَّلَفَ اسْتَحَبُّوا أَنْ يَقْوَىٰ فِي الصِّحَّةِ جَنَاحُ الْخَوْفِ عَلَىٰ جَنَاحِ الرَّجَاءِ ، وَعِنْدَ الْخُرُوجِ مِنَ الدُّنْيَا يَقْوَىٰ جَنَاحُ الرَّجَاءِ عَلَىٰ جَنَاحِ الْخَوْفِ ، هَذِهِ طَرِيقَةُ أَبِي سُلَيْمَانَ وَغَيْرِهِ، قَالَ : يَنْبَغِي لِلْقَلْبِ أَنْ يَكُونَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ الْخَوْفَ ، فَإِنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الرَّجَاءُ فَسَدَ .

وَقَالَ غَيْرُهُ : أَكْمَلُ الْأَحْوَالِ : اعْتِدَالُ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ ، وَغَلَبَةُ الْحُبِّ ، فَالْمَحَبَّةُ هِيَ الْمَرْكَبُ ، وَالرَّجَاءُ حَادٍ ، وَالْخَوْفُ سَائِقٌ ، وَاللهُ الْمُوَصِّلُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

مِنْ مُفْسِدَاتِ الْعَمَلِ :

فَالْعُجْبُ : يُفْسِدُ الْعَمَلَ كَمَا يُفْسِدُهُ الرِّيَاءُ ، فَيُشْفِقُ عَلَىٰ سَعْيِهِ مِنْ هَذَا الْمُفْسِدِ شَفَقَةً تَصُونُهُ عَنْهُ .

مِنْ مُفْسِدَاتِ الْأَخْلَاقِ :

وَالْمُخَاصَمَةُ لِلْخَلْقِ مُفْسِدَةٌ لِلْخُلُقِ ، فَيُشْفِقُ عَلَىٰ خُلُقِهِ مِنْ هَذَا الْمُفْسِدِ شَفَقَةً تَصُونُهُ عَنْهُ .

مِنْ مُفْسِدَاتِ الْإِرَادَةِ :

وَالْإِرَادَةُ يُفْسِدُهَا عَدَمُ الْجِدِّ ، وَهُوَ الْهَزْلُ وَاللَّعِبُ ، فَيُشْفِقُ عَلَىٰ إِرَادَتِهِ مِمَّا يُفْسِدُهَا .

حَقِيْقَةُ الخُشُوعِ :

وَقِيلَ: الْخُشُوعُ خُمُودُ نِيرَانِ الشَّهْوَةِ، وَسُكُونُ دُخَانِ الصُّدُورِ، وَإِشْرَاقُ نُورِ التَّعْظِيمِ فِي الْقَلْبِ .

إِخْفَاءُ العَمَلِ :

إِنَّمَا الْمُرَادُ أَنْ يُخْفِيَ أَحْوَالَهُ عَنِ الْخَلْقِ جُهْدَهُ ، كَخُشُوعِهِ وَذُلِّهِ وَانْكِسَارِهِ ، لِئَلَّا يَرَاهَا النَّاسُ فَيُعْجِبُهُ اطِّلَاعُهُمْ عَلَيْهَا ، وَرُؤْيَتُهُمْ لَهَا ، فَيُفْسِدُ عَلَيْهِ وَقْتَهُ وَقَلْبَهُ وَحَالَهُ مَعَ اللهِ ، وَكَمْ قَدِ اقْتَطَعَ فِي هَذِهِ الْمَفَازَةِ مِنْ سَالِكٍ ؟ وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ ، فَلَا شَيْءَ أَنْفَعُ لِلصَّادِقِ مِنَ التَّحَقُّقِ بِالْمَسْكَنَةِ وَالْفَاقَةِ وَالذُّلِّ ، وَأَنَّهُ لَا شَيْءَ ، وَأَنَّهُ مِمَّنْ لَمْ يَصِحَّ لَهُ بَعْدُ الْإِسْلَامُ حَتَّىٰ يَدَّعِيَ الشَّرَفَ فِيهِ .

وَلَقَدْ شَاهَدْتُ مِنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ -قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ- مِنْ ذَلِكَ أَمْرًا لَمْ أُشَاهِدْهُ مِنْ غَيْرِهِ ، وَكَانَ يَقُولُ كَثِيرًا : مَا لِي شَيْءٌ ، وَلَا مِنِّي شَيْءٌ ، وَلَا فِيَّ شَيْءٌ ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَتَمَثَّلُ بِهَذَا الْبَيْتِ :

أَنَـا الْمُكَـدِّي وَابْـنُ الْمُكَـدِّي وَهَـكَـذَا كَـانَ أَبِي وَجَـدِّي

وَكَانَ إِذَا أُثْنِي عَلَيْه في وَجْهِه يَقُولُ : وَالله إِنِّي إِلَىٰ الْآنَ أُجَدِّدُ إِسْلَامِي كُلَّ وَقْتٍ ، وَمَا أَسْلَمْتُ بَعْدُ إِسْلَامًا جَيِّدًا .

وَبَعَثَ إِلَيَّ فِي آخِرِ عُمُرِه قَاعِدَةً فِي التَّفْسِيرِ بِخَطِّه ، وَعَلَى ظَهْرِهَا أَبْيَاتٌ بِخَطِّه مِنْ نَظْمِه :

أَنَـا الْفَقِيرُ إِلَىٰ رَبِّ الْبَرِيَّاتِ أَنَا الْمُسَيْكِينُ فِي مَجْمُوعِ حَالَاتِي

أَنَا الظَّلُومُ لِنَفْسِي وَهِيَ ظَالِمَتِي وَالْخَيْرُ إِنْ يَأْتِنَا مِنْ عِنْدِهِ يَأْتِي

لَا أَسْتَطِيعُ لِنَفْسِي جَلْبَ مَنْفَعَةٍ وَلَا عَنِ النَّفْسِ لِي دَفْعُ الْمَضَرَّاتِ

وَلَيْسَ لِي دُونَـهُ مَـوْلًىٰ يُدَبِّرُنِي وَلَا شَفِيعٌ إِذَا حَاطَتْ خَطِيئَاتِي

إِلَّا بِـإِذْنٍ مِنَ الرَّحْمَنِ خَالِقِنَا إِلَىٰ الشَّفِيعِ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْآيَاتِ

وَلَسْتُ أَمْلِكُ شَيْئًا دُونَهُ أَبَدًا وَلَا شَرِيكٌ أَنَا فِي بَعْضِ ذَرَّاتِ

وَلَا ظَهِيرٌ لَهُ كَيْ يَسْتَعِينَ بِهِ كَمَا يَكُونُ لِأَرْبَـابِ الْوِلَايَاتِ

وَالْفَقْرُ لِي وَصْفُ ذَاتٍ لَازِمٍ أَبَدًا كَمَا الْغِنَىٰ أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي

وَهَذِهِ الْحَالُ حَالُ الْخَلْقِ أَجْمَعِهِمْ وَكُلُّهُمْ عِـنْـدَهُ عَبْدٌ لَـهُ آتِي

فَمَنْ بَغَىٰ مَطْلَبًا مِنْ غَيْرِ خَالِقِهِ فَهُوَ الْجَهُولُ الظَّلُومُ الْمُشْرِكُ الْعَاتِي
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِلْءَ الْكَوْنِ أَجْمَعِهِ مَا كَانَ مِنْهُ وَمَا مِنْ بَعْدُ قَدْ يَاتِي

أَهَمِيَّةُ الخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ :

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : الصَّلَاةُ كَجَارِيَةٍ تُهْدَىٰ إِلَىٰ مَلِكٍ مِنَ الْمُلُوكِ ، فَمَا الظَّنُّ بِمَنْ يَهْدِي إِلَيْهِ جَارِيَةً شَلَّاءَ ، أَوْ عَوْرَاءَ ، أَوْ عَمْيَاءَ ، أَوْ مَقْطُوعَةَ الْيَدِ وَالرِّجْلِ ، أَوْ مَرِيضَةً ، أَوْ دَمِيمَةً ، أَوْ قَبِيحَةً ، حَتَّىٰ يُهْدِيَ إِلَيْهِ جَارِيَةً مَيِّتَةً بِلَا رُوحٍ وَجَارِيَةً قَبِيحَةً ، فَكَيْفَ بِالصَّلَاةِ الَّتِي يُهْدِيهَا الْعَبْدُ، وَيَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَىٰ رَبِّهِ تَعَالَىٰ ؟ ، وَاللهُ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ، وَلَيْسَ مِنَ الْعَمَلِ الطَّيِّبِ صَلَاةٌ لَا رُوحَ فِيهَا ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْعِتْقِ الطَّيِّبِ عِتْقُ عَبْدٍ لَا رُوحَ فِيهِ .

مِنْ عَلامَاتِ انْقِطَاعِ القَلْبِ عَنِ اللهِ :

الْوُقُوفُ عِنْدَ مَدْحِ النَّاسِ وَذَمِّهِمْ ؛ عَلَامَةُ انْقِطَاعِ الْقَلْبِ ، وَخُلُوِّهِ مِنَ اللهِ ، وَأَنَّهُ لَمْ تُبَاشِرْهُ رُوحُ مَحَبَّتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ ، وَلَمْ يَذُقْ حَلَاوَةَ التَّعَلُّقِ بِهِ وَالطُّمَأْنِينَةِ إِلَيْهِ .

عَقَبَةُ النَّفْسِ :

فَالنَّفْسُ جَبَلٌ عَظِيمٌ شَاقٌّ فِي طَرِيقِ السَّيْرِ إِلَىٰ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَكُلُّ

سَائِرٍ لَا طَرِيقَ لَهُ إِلَّا عَلَىٰ ذَلِكَ الْجَبَلِ ، فَلَابُدَّ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَيْهِ ، وَلَكِنَّ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ شَاقٌّ عَلَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ سَهْلٌ عَلَيْهِ ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَىٰ مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ .

وَفِي ذَلِكَ الْجَبَلِ أَوْدِيَةٌ وَشُعُوبٌ ، وَعَقَبَاتٌ وَوُهُودٌ ، وَشَوْكٌ وَعَوْسَجٌ ، وَعَلِيقٌ وَشَبْرَقٌ ، وَلُصُوصٌ يَقْتَطِعُونَ الطَّرِيقَ عَلَىٰ السَّائِرِينَ ، وَلَا سِيَّمَا أَهْلَ اللَّيْلِ الْمُدْلِجِينَ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ عُدَدُ الْإِيمَانِ ، وَمَصَابِيحُ الْيَقِينِ تَتَّقِدُ بِزَيْتِ الْإِخْبَاتِ ، وَإِلَّا تَعَلَّقَتْ بِهِمْ تِلْكَ الْمَوَانِعُ ، وَتَشَبَّثَتْ بِهِمْ تِلْكَ الْقَوَاطِعُ وَحَالَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّيْرِ .

فَإِنَّ أَكْثَرَ السَّائِرِينَ فِيهِ رَجَعُوا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ لَمَّا عَجَزُوا عَنْ قَطْعِهِ وَاقْتِحَامِ عَقَبَاتِهِ ، وَالشَّيْطَانُ عَلَىٰ قُلَّةِ ذَلِكَ الْجَبَلِ يُحَذِّرُ النَّاسَ مِنْ صُعُودِهِ وَارْتِفَاعِهِ ، وَيُخَوِّفُهُمْ مِنْهُ ، فَيَتَّفِقُ مَشَقَّةُ الصُّعُودِ وَقُعُودُ ذَلِكَ الْمُخَوِّفِ عَلَىٰ قُلَّتِهِ ، وَضَعْفُ عَزِيمَةِ السَّائِرِ وَنِيَّتِهِ ، فَيَتَوَلَّدُ مِنْ ذَلِكَ الِانْقِطَاعُ وَالرُّجُوعُ ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ .

وَكُلَّمَا رَقَىٰ السَّائِرُ فِي ذَلِكَ الْجَبَلِ اشْتَدَّ بِهِ صِيَاحُ الْقَاطِعِ ، وَتَحْذِيرُهُ وَتَخْوِيفُهُ ، فَإِذَا قَطَعَهُ وَبَلَغَ قُلَّتَهُ : انْقَلَبَتْ تِلْكَ الْمَخَاوِفُ كُلُّهُنَّ أَمَانًا ، وَحِينَئِذٍ يَسْهُلُ السَّيْرُ ، وَتَزُولُ عَنْهُ عَوَارِضُ الطَّرِيقِ ، وَمَشَقَّةُ عَقَبَاتِهَا ، وَيَرَىٰ طَرِيقًا وَاسِعًا آمِنًا ، يُفْضِي بِهِ إِلَىٰ الْمَنَازِلِ وَالْمَنَاهِلِ ، وَعَلَيْهِ الْأَعْلَامُ .

وَفِيهِ الْإِقَامَاتُ ، قَدْ أُعِدَّتْ لِرَكْبِ الرَّحْمَنِ .

عَقَبَةٌ فِي طَرِيقِ السَّعَادَةِ وَالفَلَاحِ :

فَبَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ السَّعَادَةِ وَالْفَلَاحِ قُوَّةُ عَزِيمَةٍ ، وَصَبْرُ سَاعَةٍ ، وَشَجَاعَةُ نَفْسٍ ، وَثَبَاتُ قَلْبٍ ، ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحَدِيد : ٢٩] .

مِنْ عَلَامَاتِ التَّوْفِيقِ :

وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنَ التَّزْهِيدِ فِي الدُّنْيَا، وَالْإِخْبَارِ بِخِسَّتِهَا، وَقِلَّتِهَا وَانْقِطَاعِهَا، وَسُرْعَةِ فَنَائِهَا ، وَالتَّرْغِيبِ فِي الْآخِرَةِ، وَالْإِخْبَارِ بِشَرَفِهَا وَدَوَامِهَا ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا أَقَامَ فِي قَلْبِهِ شَاهِدًا يُعَايِنُ بِهِ حَقِيقَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيُؤْثِرُ مِنْهُمَا مَا هُوَ أَوْلَىٰ بِالْإِيثَارِ.

أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي تَعْرِيفِ الزُّهْدِ :

وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ مِنَ الْكَلَامِ فِي الزُّهْدِ وَكُلٌّ أَشَارَ إِلَىٰ ذَوْقِهِ ، وَنَطَقَ عَنْ حَالِهِ وَشَاهِدِهِ ، فَإِنَّ غَالِبَ عِبَارَاتِ الْقَوْمِ عَنْ أَذْوَاقِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ، وَالْكَلَامُ بِلِسَانِ الْعِلْمِ أَوْسَعُ مِنَ الْكَلَامِ بِلِسَانِ الذَّوْقِ، وَأَقْرَبُ إِلَىٰ الْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ.

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ – قَدَّسَ اللهُ رَوْحَهُ – يَقُولُ: الزُّهْدُ

تَرْكُ مَا لَا يَنْفَعُ فِي الآخِرَةِ، وَالْوَرَعُ تَرْكُ مَا تَخَافُ ضَرَرُهُ فِي الْآخِرَةِ.

وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ مِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي الزُّهْدِ وَالْوَرَعِ وَأَجْمَعِهَا.

أَوْجُهُ الزُّهْدِ:

وَقَدْ قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: الزُّهْدُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

الْأَوَّلُ تَرْكُ الْحَرَامِ، وَهُوَ زُهْدُ الْعَوَامِّ.

وَالثَّانِي تَرْكُ الْفُضُولِ مِنَ الْحَلَالِ، وَهُوَ زُهْدُ الْخَوَاصِّ.

وَالثَّالِثُ تَرْكُ مَا يَشْغَلُ عَنِ اللهِ، وَهُوَ زُهْدُ الْعَارِفِينَ.

مُتَعَلِّقَاتُ الزُّهْدِ:

وَمُتَعَلِّقُهُ سِتَّةُ أَشْيَاءَ، لَا يَسْتَحِقُّ الْعَبْدُ اسْمَ الزُّهْدِ حَتَّىٰ يَزْهَدَ فِيهَا، وَهِيَ الْمَالُ، وَالصُّوَرُ، وَالرِّيَاسَةُ، وَالنَّاسُ، وَالنَّفْسُ، وَكُلُّ مَا دُونَ اللهِ.

وَلَيْسَ الْمُرَادُ رَفْضَهَا مِنَ الْمُلْكِ، فَقَدْ كَانَ سُلَيْمَانُ وَدَاوُدُ -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- مِنْ أَزْهَدِ أَهْلِ زَمَانِهِمَا، وَلَهُمَا مِنَ الْمَالِ وَالْمُلْكِ وَالنِّسَاءِ مَا لَهُمَا، وَكَانَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ أَزْهَدِ الْبَشَرِ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ، وَلَهُ تِسْعُ نِسْوَةٍ، وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَالزُّبَيْرُ وَعُثْمَانُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - مِنَ الزُّهَّادِ، مَعَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ، وَكَانَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- مِنَ الزُّهَّادِ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَكْثَرِ

الْأُمَّةِ مَحَبَّةً لِلنِّسَاءِ وَنِكَاحًا لَهُنَّ، وَأَغْنَاهُمْ.

وَكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ مِنَ الْأَئِمَّةِ الزُّهَّادِ، مَعَ مَالٍ كَثِيرٍ، وَكَذَلِكَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ مِنْ أَئِمَّةِ الزُّهَّادِ، وَكَانَ لَهُ رَأْسُ مَالٍ يَقُولُ: لَوْلَا هُوَ لَتَمَنْدَلَ بِنَا هَؤُلَاءِ.

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي الزُّهْدِ، كَلَامُ الْحَسَنِ أَوْ غَيْرِهِ: لَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ، وَلَا إِضَاعَةِ الْمَالِ، وَلَكِنْ أَنْ تَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللهِ أَوْثَقُ مِنْكَ بِمَا فِي يَدِكَ، وَأَنْ تَكُونَ فِي ثَوَابِ الْمُصِيبَةِ - إِذَا أُصِبْتَ بِهَا - أَرْغَبُ مِنْكَ فِيهَا لَوْ لَمْ تُصِبْكَ، فَهَذَا مِنْ أَجْمَعِ كَلَامٍ فِي الزُّهْدِ وَأَحْسَنِهِ، وَقَدْ رُوِيَ مَرْفُوعًا [١].

فَالشُّبُهَاتُ بَرْزَخٌ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ:

فَالشُّبُهَاتُ بَرْزَخٌ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- بَيْنَ كُلِّ مُتَبَايِنَيْنِ بَرْزَخًا، كَمَا جَعَلَ الْمَوْتَ وَمَا بَعْدَهُ بَرْزَخًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَجَعَلَ الْمَعَاصِيَ بَرْزَخًا بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، وَجَعَلَ الْأَعْرَافَ بَرْزَخًا بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

وَكَذَلِكَ جَعَلَ بَيْنَ كُلِّ مَشْعَرَيْنِ مِنْ مَشَاعِرِ الْمَنَاسِكِ بَرْزَخًا حَاجِزًا بَيْنَهُمَا لَيْسَ مِنْ هَذَا وَلَا مِنْ هَذَا، فَمُحَسِّرٌ بَرْزَخٌ بَيْنَ مِنًى وَمُزْدَلِفَةَ، لَيْسَ

---

(١) (ضَعِيفٌ جِدًّا): خَرَّجَهُ الْأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «ضَعِيفِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ» (٨٩٣).

مِنْ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، فَلَا يَبِيتُ بِهِ الْحَاجُّ لَيْلَةَ جَمْعٍ، وَلَا لَيَالِيَ مِنًى، وَبَطْنُ عُرَنَةَ بَرْزَخٌ بَيْنَ عَرَفَةَ وَبَيْنَ الْحَرَمِ، فَلَيْسَ مِنَ الْحَرَمِ وَلَا مِنْ عَرَفَةَ، وَكَذَلِكَ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ بَرْزَخٌ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، لَيْسَ مِنَ اللَّيْلِ، لِتَصَرُّمِهِ بِطُلُوعِ الْفَجْرِ، وَلَا مِنَ النَّهَارِ لِأَنَّهُ مِنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَإِنْ دَخَلَ فِي اسْمِ الْيَوْمِ شَرْعًا.

وَكَذَلِكَ مَنَازِلُ السَّيْرِ بَيْنَ كُلِّ مَنْزِلَتَيْنِ بَرْزَخٌ يَعْرِفُهُ السَّائِرُ فِي تِلْكَ الْمَنَازِلِ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْوَارِدَاتِ تَكُونُ بَرَازِخَ، فَيَظُنُّهَا صَاحِبُهَا غَايَةً، وَهَذَا لَمْ يَتَخَلَّصْ مِنْهُ إِلَّا فُقَهَاءُ الطَّرِيقِ، وَالْعُلَمَاءُ هُمُ الْأَدِلَّةُ فِيهَا.

لَا تُشَارِكِ الْفُسَّاقَ مَوْرِدَهُم :

الْفُسَّاقُ يَزْدَحِمُونَ عَلَىٰ مَوَاضِعِ الرَّغْبَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَلِتِلْكَ الْمَوَاقِفِ بِهِمْ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ، فَالزَّاهِدُ يَأْنَفُ مِنْ مُشَارَكَتِهِمْ فِي تِلْكَ الْمَوَاقِفِ، وَيَرْفَعُ نَفْسَهُ عَنْهَا، لِخِسَّةِ شُرَكَائِهِ فِيهَا، كَمَا قِيلَ لِبَعْضِهِمْ: مَا الَّذِي زَهَّدَكَ فِي الدُّنْيَا؟ ، قَالَ: قِلَّةُ وَفَائِهَا، وَكَثْرَةُ جَفَائِهَا، وَخِسَّةُ شُرَكَائِهَا.

إِذَا لَمْ أَتْرُكِ الْمَاءَ اتِّقَاءً تَرَكْتُ لِكَثْرَةِ الشُّرَكَاءِ فِيهِ
إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ عَلَىٰ طَعَامٍ رَفَعْتُ يَدَيْ وَنَفْسِي تَشْتَهِيهِ
وَتَجْتَنِبُ الْأُسُودُ وُرُودَ مَاءٍ إِذَا كَانَ الْكِلَابُ يَلِغْنَ فِيهِ

حَقِيْقَةُ الورَع :

وَقَدْ جَمَعَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- الْوَرَعَ كُلَّهُ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَة، فَقَالَ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**» [١]،فَهَذَا يَعُمُّ التَّرْكَ لِمَا لَا يَعْنِي مِنَ الْكَلَامِ، وَالنَّظَرِ، وَالاسْتِمَاعِ، وَالْبَطْشِ، وَالْمَشْيِ، وَالْفِكْرِ، وَسَائِرِ الْحَرَكَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ كَافِيَةٌ شَافِيَةٌ فِي الْوَرَعِ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ -رَحِمَهُ اللهُ- : الْوَرَعُ تَرْكُ كُلِّ شُبْهَةٍ، وَتَرْكُ مَالَا يَعْنِيكَ هُوَ تَرْكُ الْفَضَلَاتِ ، وَفِي التِّرْمِذِيِّ مَرْفُوعًا إِلَىٰ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:« **يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كُنْ وَرِعًا، تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ** » [٢] .

حَالُ مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ:

فَإِنَّ مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْه نَفْسُهُ وَكَبُرَتْ عِنْدَهُ صَانَهَا وَحَمَاهَا، وَزَكَّاهَا وَعَلَّاهَا، وَوَضَعَهَا فِي أَعْلَىٰ الْمَحَالِّ، وَزَاحَمَ بِهَا أَهْلَ الْعَزَائِمِ وَالْكَمَالَاتِ، وَمَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَصَغُرَتْ عِنْدَهُ أَلْقَاهَا فِي الرَّذَائِلِ ، وَأَطْلَقَ شِنَاقَهَا، وَحَلَّ زِمَامَهَا وَأَرْخَاهُ، وَدَسَّاهَا وَلَمْ يَصُنْهَا عَنْ قَبِيحٍ، فَأَقَلُّ مَا فِي تَجَنُّبِ الْقَبَائِحِ: صَوْنُ النَّفْسِ.

---

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ التِّرْمِذِيِّ وَابْن مَاجَهْ (٣٩٧٦) وَصَحَحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيْح سُنَن ابْن مَاجَهْ » (٣٢١١) .

(٢) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ ابْن مَاجَهْ (٤٢١٧) وَصَحَحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيْحِ سُنَنِ ابْن مَاجَهْ » (٣٣٩٨) .

إِضْعَافُ المَعَاصِي لِلإِيْمَانِ :

الْإِيمَانَ عِنْدَ جَمِيعِ أَهْلِ السُّنَّةِ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ، وَقَدْ حَكَاهُ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ، وَإِضْعَافُ الْمَعَاصِي لِلْإِيمَانِ أَمْرٌ مَعْلُومٌ بِالذَّوْقِ وَالْوُجُودِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ - كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ- : « **إِذَا أَذْنَبَ نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، فَإِنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ عَادَ فَأَذْنَبَ نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ أُخْرَى، حَتَّىٰ تَعْلُوَ قَلْبَهُ ، وَذَلِكَ الرَّانُّ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾** [الْمُطَفِّفِينَ :١٤] [(١)] .

فَالْقَبَائِحُ تُسَوِّدُ الْقَلْبَ، وَتُطْفِئُ نُورَهُ ، وَالْإِيمَانُ هُوَ نُورٌ فِي الْقَلْبِ، وَالْقَبَائِحُ تَذْهَبُ بِهِ أَوْ تُقَلِّلُهُ قَطْعًا، فَالْحَسَنَاتُ تَزِيدُ نُورَ الْقَلْبِ، وَالسَّيِّئَاتُ تُطْفِئُ نُورَ الْقَلْبِ،وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-أَنَّ كَسْبَ الْقُلُوبِ سَبَبٌ لِلرَّانِّ الَّذِي يَعْلُوهَا،وَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَرْكَسَ الْمُنَافِقِينَ بِمَا كَسَبُوا، فَقَالَ: ﴿ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ [النِّسَاء:٨٨] ،وَأَخْبَرَ أَنَّ نَقْضَ الْمِيثَاقِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ سَبَبٌ لِتَقْسِيَةِ الْقَلْبِ ، فَقَالَ: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ [الْمَائِدَة : ١٣]، فَجَعَلَ ذَنْبَ

---

(١) (حَسَنٌ) رَوَاهُ ابْن مَاجَهْ (٤٢٤٤) وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيحِ سُنَنِ ابْن مَاجَهْ » (٣٤٢٢) .

النَّقْصِ مُوجِبًا لِهَذِهِ الْآثَارِ مِنْ تَقْسِيَةِ الْقَلْبِ، وَاللَّعْنَةِ، وَتَحْرِيفِ الْكَلِمِ، وَنِسْيَانِ الْعِلْمِ.

فَالْمَعَاصِي لِلْإِيمَانِ كَالْمَرَضِ وَالْحُمَّىٰ لِلْقُوَّةِ، سَوَاءً بِسَوَاءٍ ، وَلِذَلِكَ قَالَ السَّلَفُ: الْمَعَاصِي بَرِيدُ الْكُفْرِ، كَمَا أَنَّ الْحُمَّىٰ بَرِيدُ الْمَوْتِ. فَإِيمَانُ صَاحِبِ الْقَبَائِحِ كَقُوَّةِ الْمَرِيضِ عَلَىٰ حَسَبِ قُوَّةِ الْمَرَضِ وَضَعْفِهِ.

مَعْرِفَةُ حُدُودِ اللهِ :

فَالْحُدُودُ هِيَ النِّهَايَاتُ ، وَهِيَ مَقَاطِعُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، فَحَيْثُ يَنْقَطِعُ وَيَنْتَهِي ، فَذَلِكَ حَدُّهُ ، فَمَنِ اقْتَحَمَهُ وَقَعَ فِي الْمَعْصِيَةِ ، وَقَدْ نَهَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْ تَعَدِّي حُدُودِهِ وَقُرْبَانِهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ [البَقَرَة :١٨٧] .

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البَقَرَة :٢٢٩] ، فَإِنَّ الْحُدُودَ يُرَادُ بِهَا أَوَاخِرُ الْحَلَالِ، وَحَيْثُ نَهَىٰ عَنِ الْقُرْبَانِ فَالْحُدُودُ هُنَاكَ: أَوَائِلُ الْحَرَامِ.

يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : « لَا تَتَعَدَّوا مَا أَبَحْتُ لَكُمْ، وَلَا تَقْرَبُوا مَا حَرَّمْتُ عَلَيْكُمْ » .

فَالْوَرِعُ يُخَلِّصُ الْعَبْدَ مِنْ قُرْبَانِ هَذِهِ وَتَعَدِّي هَذِهِ ، وَهُوَ اقْتِحَامُ الْحُدُودِ.

عَلامَةُ قَبُولِ العَمَلِ :

عَلامَةُ رِضَىٰ اللهِ عَنْكَ: إِعْرَاضُكَ عَنْ نَفْسِكَ، وَعَلامَةُ قَبُولِ عَمَلِكَ احْتِقَارُهُ وَاسْتِقْلالُهُ، وَصِغَرُهُ فِي قَلْبِكَ، حَتَّىٰ إِنَّ الْعَارِفَ لَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ عُقَيْبَ طَاعَتِهِ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- « **إِذَا سَلَّمَ مِنَ الصَّلَاةِ اسْتَغْفَرَ اللَّهَ ثَلَاثًا** »[١].

وَأَمَرَ اللهُ عِبَادَهُ بِالاسْتِغْفَارِ عُقَيْبَ الْحَجِّ، وَمَدَحَهُمْ عَلَىٰ الاسْتِغْفَارِ عُقَيْبَ قِيَامِ اللَّيْلِ، وَشَرَعَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عُقَيْبَ الطُّهُورِ التَّوْبَةَ وَالاسْتِغْفَارَ[٢].

فَمَنْ شَهِدَ وَاجِبَ رَبِّهِ وَمِقْدَارَ عَمَلِهِ، وَعَيْبَ نَفْسِهِ لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنَ اسْتِغْفَارِ رَبِّهِ مِنْهُ، وَاحْتِقَارِهِ إِيَّاهُ وَاسْتِصْغَارِهِ.

تَعْرِيفُ الْمُرَاقَبَةِ :

وَالْمُرَاقَبَةُ هِيَ التَّعَبُّدُ بِاسْمِهِ الرَّقِيبِ، الْحَفِيظِ، الْعَلِيمِ، السَّمِيعِ، الْبَصِيرِ، فَمَنْ عَقَلَ هَذِهِ الأَسْمَاءَ، وَتَعَبَّدَ بِمُقْتَضَاهَا: حَصَلَتْ لَهُ الْمُرَاقَبَةُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٥٩١)، وَأَبُو دَاوُد (١٥١٣).

(٢) إِشَارَةٌ إِلَىٰ حَدِيثِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- « **مَنْ تَوَضَّأَ ...** » رَوَاهُ النَّسَائِي فِي « عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ »، (ص ٨١ -٨٣)، وَالحَاكِم (١/ ٥٦٤) وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي « صَحِيحِ الجَامِعِ الصَّغِيرِ » (٦١٧٢).

حَلَاوَةُ الْإِيمَانِ :

سُرُورُ الْقَلْبِ بِاللهِ وَفَرَحُهُ بِهِ ، وَقُرَّةُ الْعَيْنِ بِهِ ، لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا أَلْبَتَّةَ ، وَلَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ يُقَاسُ بِهِ، وَهُوَ حَالٌ مِنْ أَحْوَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّىٰ قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: إِنَّهُ لَتَمُرُّ بِي أَوْقَاتٌ أَقُولُ فِيهَا : إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا، إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا السُّرُورَ يَبْعَثُهُ عَلَىٰ دَوَامِ السَّيْرِ إِلَىٰ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ، وَبَذْلِ الْجُهْدِ فِي طَلَبِهِ، وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَذَا السُّرُورَ، وَلَا شَيْئًا مِنْهُ، فَلْيَتَّهِمْ إِيمَانَهُ وَأَعْمَالَهُ ، فَإِنَّ لِلْإِيمَانِ حَلَاوَةً، مَنْ لَمْ يَذُقْهَا فَلْيَرْجِعْ، وَلْيَقْتَبِسْ نُورًا يَجِدُ بِهِ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ.

وَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذَوْقَ طَعْمِ الْإِيمَانِ وَوَجْدَ حَلَاوَتِهِ ، فَذَكَرَ الذَّوْقَ وَالْوَجْدَ، وَعَلَّقَهُ بِالْإِيمَانِ، فَقَالَ: « **ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا** » [١].

وَقَالَ : « **ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ - بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ - كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ** » [٢] .

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللهُ رَوْحَهُ - يَقُولُ: إِذَا لَمْ

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٣٤) .
(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٦-٢١) ، وَمُسْلِمٌ (٤٣) .

تَجِدْ لِلْعَمَلِ حَلَاوَةً فِي قَلْبِكَ وَانْشِرَاحًا، فَاتَّهِمْهُ، فَإِنَّ الرَّبَّ تَعَالَىٰ شَكُورٌ، يَعْنِي أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُثِيبَ الْعَامِلَ عَلَىٰ عَمَلِهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ حَلَاوَةٍ يَجِدُهَا فِي قَلْبِهِ، وَقُوَّةِ انْشِرَاحٍ وَقُرَّةِ عَيْنٍ ، فَحَيْثُ لَمْ يَجِدْ ذَلِكَ فَعَمَلُهُ مَدْخُولٌ.

الْحُرُمَاتُ الَّتِي يَجِبِ تَعْظِيمُهَا :

وَالصَّوَابُ: أَنَّ الْحُرُمَاتِ تَعُمُّ هَذَا كُلَّهُ ، وَهِيَ جَمْعُ حُرْمَةٍ وَهِيَ مَا يَجِبُ احْتِرَامُهُ، وَحِفْظُهُ مِنَ الْحُقُوقِ، وَالْأَشْخَاصِ، وَالْأَزْمِنَةِ، وَالْأَمَاكِنِ، فَتَعْظِيمُهَا تَوْفِيَتُهَا حَقَّهَا، وَحِفْظُهَا مِنَ الْإِضَاعَةِ.

نَعِيمُ الْجَنَّةِ :

الْجَنَّةُ لَيْسَت اسْمًا لِمُجَرَّدِ الْأَشْجَارِ وَالْفَوَاكِهِ ، وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَالْحُورِ الْعِينِ ، وَالْأَنْهَارِ وَالْقُصُورِ ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَغْلَطُونَ فِي مُسَمَّىٰ الْجَنَّةِ ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ اسْمٌ لِدَارِ النَّعِيمِ الْمُطْلَقِ الْكَامِلِ ، وَمِنْ أَعْظَمِ نَعِيمِ الْجَنَّةِ التَّمَتُّعُ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِ اللهِ الْكَرِيمِ ، وَسَمَاعُ كَلَامِهِ ، وَقُرَّةُ الْعَيْنِ بِالْقُرْبِ مِنْهُ وَبِرِضْوَانِهِ ، فَلَا نِسْبَةَ لِلَذَّةِ مَا فِيهَا مِنَ الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ وَالْمَلْبُوسِ وَالصُّوَرِ ، إِلَىٰ هَذِهِ اللَّذَّةِ أَبَدًا ، فَأَيْسَرُ يَسِيرٍ مِنْ رِضْوَانِهِ أَكْبَرُ مِنَ الْجِنَانِ وَمَا فِيهَا مِنْ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التَّوْبَةُ : ٧٢] ، وَأَتَىٰ بِهِ مُنَكَّرًا فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ ؛ أَيْ : أَيُّ شَيْءٍ كَانَ مِنْ رِضَاهُ عَنْ عَبْدِهِ : فَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْجَنَّةِ .

قَلِيلٌ مِنْكَ يُقْنِعُنِي وَلَكِنْ قَلِيلُكَ لَا يُقَالُ لَهُ قَلِيلُ

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ - حَدِيثِ الرُّؤْيَةِ - « **فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِهِ** »[1] ، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ « **أَنَّهُ سُبْحَانَهُ إِذَا تَجَلَّىٰ لَهُمْ ، وَرَأَوْا وَجْهَهُ عِيَانًا نَسُوا مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ ، وَذَهَلُوا عَنْهُ ، وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ** »[2] ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْأَمْرَ هَكَذَا ، وَهُوَ أَجَلُّ مِمَّا يَخْطُرُ بِالْبَالِ ، أَوْ يَدُورُ فِي الْخَيَالِ ، وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ فَوْزِ الْمُحِبِّينَ هُنَاكَ بِمَعِيَّةِ الْمَحْبُوبِ ، فَإِنَّ الْمَرْءَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ ، وَلَا تَخْصِيصَ فِي هَذَا الْحُكْمِ ، بَلْ هُوَ ثَابِتٌ شَاهِدًا وَغَائِبًا .

فَأَيُّ نَعِيمٍ ، وَأَيُّ لَذَّةٍ ، وَأَيُّ قُرَّةِ عَيْنٍ ، وَأَيُّ فَوْزٍ يُدَانِي نَعِيمَ تِلْكَ الْمَعِيَّةِ وَلَذَّتَهَا ، وَقُرَّةَ الْعَيْنِ بِهَا ؟ .

تَعْرِيفُ الإِخْلَاصِ وَالصِّدْقِ :

الإِخْلَاصُ هُوَ : التَّوَقِّي مِنْ مُلَاحَظَةِ الْخَلْقِ حَتَّىٰ عَنْ نَفْسِكَ ، وَالصِّدْقُ التَّنَقِّي مِنْ مُطَالَعَةِ النَّفْسِ ، فَالْمُخْلِصُ لَا رِيَاءَ لَهُ ، وَالصَّادِقُ لَا إِعْجَابَ لَهُ ، وَلَا يَتِمُّ الإِخْلَاصُ إِلَّا بِالصِّدْقِ ، وَلَا الصِّدْقُ إِلَّا بِالإِخْلَاصِ ، وَلَا يَتِمَّانِ إِلَّا بِالصَّبْرِ .

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٨٠) ، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ .
(٢) (ضَعِيفٌ): ضَعَّفَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «ضَعِيفِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ» (٣٣).

الْإِخْلَاصُ أَعَزُّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا :

وَقَالَ يُوسُفُ بْنُ الْحُسَيْنِ : أَعَزُّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا : الْإِخْلَاصُ ، وَكَمْ أَجْتَهِدُ فِي إِسْقَاطِ الرِّيَاءِ عَنْ قَلْبِي ، فَكَأَنَّهُ يَنْبُتُ عَلَىٰ لَوْنٍ آخَرَ .

الْإِخْلَاصُ سَبَبٌ لِانْقِطَاعِ الْوَسَاوِسِ :

وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ : إِذَا أَخْلَصَ الْعَبْدُ انْقَطَعَتْ عَنْهُ كَثْرَةُ الْوَسَاوِسِ وَالرِّيَاءِ .

الْإِنْسَانُ بِاللهِ لَا بِنَفْسِهِ :

النَّفْسُ جَاهِلَةٌ ظَالِمَةٌ ، طَبْعُهَا الْكَسَلُ ، وَإِيثَارُ الشَّهَوَاتِ وَالْبَطَالَةِ ، وَهِيَ مَنْبَعُ كُلِّ شَرٍّ ، وَمَأْوَىٰ كُلِّ سُوءٍ ،وَمَا كَانَ هَكَذَا لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُ خَيْرٌ، وَلَا هُوَ مِنْ شَأْنِهِ .

فَالْخَيْرُ الَّذِي يَصْدُرُ مِنْهَا إِنَّمَا هُوَ مِنَ اللهِ وَبِهِ ، لَا مِنَ الْعَبْدِ ، وَلَا بِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ [النُّور : ٢١] ، وَقَالَ أَهْلُ الْجَنَّةِ : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾ [الأَعْرَاف : ٤٣] ، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإِسْرَاء : ٧٤]، وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحُجُرَات : ٧] .

فَكُلُّ خَيْرٍ فِي الْعَبْدِ فَهُوَ مُجَرَّدُ فَضْلِ اللهِ وَمِنَّتِه ، وَإِحْسَانِه وَنِعْمَتِه ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ عَلَيْهِ ، فَرُؤْيَةُ الْعَبْدِ لِأَعْمَالِه فِي الْحَقِيقَةِ ، كَرُؤْيَتِهِ لِصِفَاتِه الْخِلْقِيَّةِ : مِنْ سَمْعِه وَبَصَرِه ، وَإِدْرَاكِه وَقُوَّتِه ، بَلْ مِنْ صِحَّتِه ، وَسَلامَةِ أَعْضَائِهِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَالْكُلُّ مُجَرَّدُ عَطَاءِ اللهِ وَنِعْمَتِهِ وَفَضْلِهِ .

آفَةُ الْعَبْدِ رِضَاهُ عَنْ نَفْسِهِ :

قَالَ بَعْضُهُمْ : آفَةُ الْعَبْدِ رِضَاهُ عَنْ نَفْسِه ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَىٰ نَفْسِه بِاسْتِحْسَانِ شَيْءٍ مِنْهَا فَقَدْ أَهْلَكَهَا ، وَمَنْ لَمْ يَتَّهِمْ نَفْسَهُ عَلَىٰ دَوَامِ الْأَوْقَاتِ فَهُوَ مَغْرُورٌ .

تَعْرِيفُ الاسْتِقَامَةِ :

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– : الِاسْتِقَامَةُ : أَنْ تَسْتَقِيمَ عَلَىٰ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَلَا تَرُوغُ رَوَغَانَ الثَّعَالِبِ .

حَقِيقَةُ الاسْتِقَامَةِ :

فَالِاسْتِقَامَةُ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ ، آخِذَةٌ بِمَجَامِعِ الدِّينِ ، وَهِيَ الْقِيَامُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عَلَىٰ حَقِيقَةِ الصِّدْقِ ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ .

وَالِاسْتِقَامَةُ تَتَعَلَّقُ بِالْأَقْوَالِ ، وَالْأَفْعَالِ ، وَالْأَحْوَالِ ، وَالنِّيَّاتِ ، فَالِاسْتِقَامَةُ فِيهَا : وُقُوعُهَا لِلَّهِ ، وَبِاللهِ ، وَعَلَىٰ أَمْرِ اللهِ .

قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ : كُنْ صَاحِبَ الِاسْتِقَامَةِ ، لَا طَالِبَ الْكَرَامَةِ ، فَإِنَّ نَفْسَكَ مُتَحَرِّكَةٌ فِي طَلَبِ الْكَرَامَةِ ، وَرَبَّكَ يُطَالِبُكَ بِالِاسْتِقَامَةِ .

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ – قَدَّسَ اللهُ تَعَالَىٰ رَوْحَهُ – يَقُولُ: أَعْظَمُ الْكَرَامَةِ لُزُومُ الِاسْتِقَامَةِ .

مَنْزِلَةُ الصَّبْرِ:

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ -رَحِمَهُ اللّٰهُ تَعَالَى- :

الصَّبْرُ فِي الْقُرْآنِ فِي نَحْوِ تِسْعِينَ مَوْضِعًا ،وَهُوَ وَاجِبٌ بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ، وَهُوَ نِصْفُ الْإِيمَانِ .

فَإِنَّ الْإِيمَانَ نِصْفَانِ: نِصْفُ صَبْرٍ ، وَنِصْفُ شُكْرٍ ، وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي الْقُرْآنِ عَلَىٰ سِتَّةَ عَشَرَ نَوْعًا .

الْأَوَّلُ: الْأَمْرُ بِهِ ، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾ [البَقَرَةُ:٣٢]،وَقَوْلِهِ: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾ [البَقَرَةُ : ٤٥] ،وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾ [آل عِمْرَان : ٢٠٠] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ [النَّحل : ١٢٧] .

الثَّانِي : النَّهْيُ عَنْ ضِدِّهِ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ ﴾ [الأَحْقَاف : ٣٥] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ

﴿ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥]، فَإِنَّ تَوْلِيَةَ الْأَدْبَارِ: تَرْكٌ لِلصَّبْرِ وَالْمُصَابَرَةِ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، فَإِنَّ إِبْطَالَهَا تَرْكُ الصَّبْرِ عَلَىٰ إِتْمَامِهَا، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ [البقرة: ١٣٩]، فَإِنَّ الْوَهْنَ مِنْ عَدَمِ الصَّبْرِ.

الثَّالِثُ: الثَّنَاءُ عَلَىٰ أَهْلِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧]، وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ.

الرَّابِعُ: إِيجَابُهُ سُبْحَانَهُ مَحَبَّتَهُ لَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

الْخَامِسُ: إِيجَابُ مَعِيَّتِهِ لَهُمْ، وَهِيَ مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ، تَتَضَمَّنُ حِفْظَهُمْ وَنَصْرَهُمْ، وَتَأْيِيدَهُمْ، لَيْسَتْ مَعِيَّةً عَامَّةً، وَهِيَ مَعِيَّةُ الْعِلْمِ وَالْإِحَاطَةِ. كَقَوْلِهِ: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

السَّادِسُ: إِخْبَارُهُ بِأَنَّ الصَّبْرَ خَيْرٌ لِأَصْحَابِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ [النحل: ١٢٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۗ﴾ [النساء: ٢٥].

السَّابعُ : إيجابُ الْجَزاءِ لَهُمْ بأَحْسَنِ أَعْمالِهِمْ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النَّحل : ٩٦] .

الثَّامنُ : إيجابُهُ سُبْحانَهُ الْجَزاءَ لَهُمْ بغَيْرِ حِسابٍ ، كَقَوْلِهِ تَعالَىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزُّمر : ١٠] .

التَّاسعُ : إطْلاقُ الْبُشْرَىٰ لأَهْلِ الصَّبْرِ ، كَقَوْلِهِ تَعالَىٰ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [البَقَرة : ١٥٥] .

الْعاشرُ : ضَمانُ النَّصْرِ وَالْمَدَدِ لَهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعالَىٰ : ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [آل عِمْران : ١٢٥] ، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ**» (١) .

الْحادي عَشَرَ : الْإخْبارُ مِنْهُ تَعالَىٰ بأَنَّ أَهْلَ الصَّبْرِ هُمْ أَهْلُ الْعَزائِمِ، كَقَوْلِهِ تَعالَىٰ : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشُّورَىٰ : ٤٣].

الثَّاني عَشَرَ: الْإخْبارُ أَنَّهُ ما يَلْقَىٰ الْأَعْمالَ الصَّالِحَةَ وَجَزاءَها وَالْحُظُوظَ الْعَظيمَةَ إِلَّا أَهْلُ الصَّبْرِ ، كَقَوْلِهِ تَعالَىٰ : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ

(١) هُوَ جُزْءٌ مِنْ حَديثِ ابْنِ عَبَّاس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُما- المَشْهُور : «**يا غُلامُ : إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِماتٍ ...**» ، وَهُوَ صَحيحٌ ، صَحَّحَهُ أَحْمَدُ شاكِرٌ بِرَقْم (١٨٠٤) .

ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القَصَص : ٨٠]، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فُصِّلَت : ٣٥].

الثَّالِثَ عَشَرَ : الْإِخْبَارُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِالْآيَاتِ وَالْعِبَرِ أَهْلُ الصَّبْرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ لِمُوسَىٰ : ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾ [إبْرَاهِيم : ٥]، وَقَوْلِهِ فِي أَهْلِ سَبَإٍ : ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [سَبَأ : ١٩]، وَقَوْلِهِ : فِي سُورَةِ الشُّورَىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشُّورَى:٣٢-٣٣].

الرَّابِعَ عَشَرَ : الْإِخْبَارُ بِأَنَّ الْفَوْزَ الْمَطْلُوبَ الْمَحْبُوبَ، وَالنَّجَاةَ مِنَ الْمَكْرُوهِ الْمَرْهُوبِ، وَدُخُولَ الْجَنَّةِ، إِنَّمَا نَالُوهُ بِالصَّبْرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرَّعْدُ : ٢٣-٢٤].

الْخَامِسَ عَشَرَ : أَنَّهُ يُورِثُ صَاحِبَهُ دَرَجَةَ الْإِمَامَةِ، سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللهُ رَوْحَهُ - يَقُولُ : بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تُنَالُ

الْإِمَامَةُ فِي الدِّين ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[السَّجْدَة : ٢٤] .

السَّادِسَ عَشَرَ : اقْتِرَانُهُ بِمَقَامَاتِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ ، كَمَا قَرَنَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِالْيَقِينِ وَبِالْإِيمَانِ ، وَالتَّقْوَىٰ وَالتَّوَكُّلِ ، وَبِالشُّكْرِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالرَّحْمَةِ .

وَلِهَذَا كَانَ الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ ، وَلَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ ، كَمَا أَنَّهُ لَا جَسَدَ لِمَنْ لَا رَأْسَ لَهُ ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: خَيْرُ عَيْشٍ أَدْرَكْنَاهُ بِالصَّبْرِ ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ ضِيَاءٌ ، وَقَالَ : « **مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ** » (١) .

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : « **عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ** » (٢) .

وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ السَّوْدَاءِ الَّتِي كَانَتْ تُصْرَعُ فَسَأَلَتْهُ أَنْ يَدْعُوَ لَهَا : « **إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ** » ، فَقَالَتْ:

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٤٦٩) ، وَمُسْلِمٌ (١٠٥٣) هُوَ جُزْءٌ مِنْ حَدِيثِ : «**مَا يَكُونُ عِنْدِي ...**» .
(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٩٩٩) ، وَأَحْمَدُ (٤/ ٣٣٢) .

إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ ، فَدَعَا لَهَا (١) .

وَأَمَرَ الْأَنْصَارَ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ - بِأَنْ يَصْبِرُوا عَلَىٰ الْأَثَرَةِ الَّتِي يَلْقَوْنَهَا بَعْدَهُ ، حَتَّىٰ يَلْقَوْهُ عَلَىٰ الْحَوْضِ .

وَأَمَرَ عِنْدَ مُلَاقَاةِ الْعَدُوِّ بِالصَّبْرِ ، وَأَمَرَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ « **عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَىٰ** » (٢) .

وَأَمَرَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْمُصَابَ بِأَنْفَعِ الْأُمُورِ لَهُ ، وَهُوَ «**الصَّبْرُ وَالاحْتِسَابُ** » (٣) ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُخَفِّفُ مُصِيبَتَهُ ، وَيُوَفِّرُ أَجْرَهُ ، وَالْجَزَعُ وَالتَّسَخُّطُ وَالتَّشَكِّي يَزِيدُ فِي الْمُصِيبَةِ ، وَيُذْهِبُ الْأَجْرَ .

وَأَخْبَرَ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّ الصَّبْرَ خَيْرٌ كُلُّهُ ، فَقَالَ : «**مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا لَهُ وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**» (٤) .

صَبْرُ يُوسُفَ :

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللهُ رَوْحَهُ - يَقُولُ: كَانَ صَبْرُ يُوسُفَ عَنْ مُطَاوَعَةِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ عَلَىٰ شَأْنِهَا : أَكْمَلُ مِنْ صَبْرِهِ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٦٥٢) ، وَمُسْلِمٌ (٢٥٧٦) .
(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٢٨٣) ، وَمُسْلِمٌ (٩٢٦) .
(٣) (صَحِيحٌ) وَهُوَ حَدِيثُ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لابْنَتِه - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- : «... فَلْتَصْبِر وَلْتَحْتَسِبْ» وَهُوَ عِنْدَ الْبُخَارِيُّ (١٢٨٤) ، وَمُسْلِمٌ (٩٢٣) .
(٤) هُوَ جُزْءٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - الْمَشْهُورِ : «**يَا غُلَامُ : إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ ...** » ، وَهُوَ صَحِيحٌ ، صَحَّحَهُ أَحْمَدُ شَاكِرٌ بِرَقَم (١٨٠٤) .

عَلَىٰ إِلْقَاءِ إِخْوَتِه لَهُ فِي الْجُبِّ ، وَبَيْعِه وَتَفْرِيقِهِمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ ، فَإِنَّ هَذِهِ أُمُورٌ جَرَتْ عَلَيْهِ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ ، لَا كَسْبَ لَهُ فِيهَا ، لَيْسَ لِلْعَبْدِ فِيهَا حِيلَةٌ غَيْرَ الصَّبْرِ ، وَأَمَّا صَبْرُهُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ: فَصَبْرُ اخْتِيَارٍ وَرِضًا وَمُحَارَبَةٍ لِلنَّفْسِ، وَلَا سِيَّمَا مَعَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَقْوَىٰ مَعَهَا دَوَاعِي الْمُوَافَقَةِ ، فَإِنَّهُ كَانَ شَابًّا، وَدَاعِيَةُ الشَّبَابِ إِلَيْهَا قَوِيَّةٌ ، وَعَزَبًا لَيْسَ لَهُ مَا يُعَوِّضُهُ وَيَرُدُّ شَهْوَتَهُ، وَغَرِيبًا ، وَالْغَرِيبُ لَا يَسْتَحِي فِي بَلَدِ غُرْبَتِهِ مِمَّا يَسْتَحِي مِنْهُ مَنْ بَيْنَ أَصْحَابِهِ وَمَعَارِفِهِ وَأَهْلِهِ ، وَمَمْلُوكًا ، وَالْمَمْلُوكُ أَيْضًا لَيْسَ وَازِعُهُ كَوَازِعِ الْحُرِّ ، وَالْمَرْأَةُ جَمِيلَةٌ ، وَذَاتُ مَنْصِبٍ ، وَهِيَ سَيِّدَتُهُ، وَقَدْ غَابَ الرَّقِيبُ، وَهِيَ الدَّاعِيَةُ لَهُ إِلَىٰ نَفْسِهَا ، وَالْحَرِيصَةُ عَلَىٰ ذَلِكَ أَشَدَّ الْحِرْصِ ، وَمَعَ ذَلِكَ تَوَعَّدَتْهُ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ بِالسِّجْنِ وَالصَّغَارِ، وَمَعَ هَذِهِ الدَّوَاعِي كُلِّهَا صَبَرَ اخْتِيَارًا ، وَإِيثَارًا لِمَا عِنْدَ اللهِ ، وَأَيْنَ هَذَا مِنْ صَبْرِهِ فِي الْجُبِّ عَلَىٰ مَا لَيْسَ مِنْ كَسْبِهِ؟.

أَنْوَاعُ الصَّبْرِ :

وَهُوَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ: صَبْرٌ بِاللهِ ، وَصَبْرٌ لِلَّهِ ، وَصَبْرٌ مَعَ اللهِ.

فَالْأَوَّلُ: صَبْرُ الِاسْتِعَانَةِ بِهِ : وَرُؤْيَتُهُ أَنَّهُ هُوَ الْمُصَبِّرُ ، وَأَنَّ صَبْرَ الْعَبْدِ بِرَبِّهِ لَا بِنَفْسِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النَّحل : ١٢٧] ، يَعْنِي إِنْ لَمْ يُصَبِّرْكَ هُوَ لَمْ تَصْبِرْ.

وَالثَّانِي: الصَّبْرُ للَّهِ : وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْبَاعِثُ لَهُ عَلَىٰ الصَّبْرِ مَحَبَّةَ اللهِ، وَإِرَادَةَ وَجْهِهِ ، وَالتَّقَرُّبَ إِلَيْهِ ، لَا لِإِظْهَارِهِ قُوَّةَ النَّفْسِ ، وَالِاسْتِحْمَادَ إِلَىٰ الْخَلْقِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْرَاضِ.

وَالثَّالِثُ: الصَّبْرُ مَعَ اللهِ : وَهُوَ دَوَرَانُ الْعَبْدِ مَعَ مُرَادِ اللهِ الدِّينِيِّ مِنْهُ ، وَمَعَ أَحْكَامِهِ الدِّينِيَّةِ ، صَابِرًا نَفْسَهُ مَعَهَا ، سَائِرًا بِسَيْرِهَا ، مُقِيمًا بِإِقَامَتِهَا، يَتَوَجَّهُ مَعَهَا أَيْنَ تَوَجَّهَتْ رَكَائِبُهَا ، وَيَنْزِلُ مَعَهَا أَيْنَ اسْتَقَلَّتْ مَضَارِبُهَا.

فَهَذَا مَعْنَىٰ كَوْنِهِ صَابِرًا مَعَ اللهِ ؛ أَيْ قَدْ جَعَلَ نَفْسَهُ وَقْفًا عَلَىٰ أَوَامِرِهِ وَمَحَابِّهِ ، وَهُوَ أَشَدُّ أَنْوَاعِ الصَّبْرِ وَأَصْعَبِهَا ، وَهُوَ صَبْرُ الصِّدِّيقِينَ.

النَّعِيمُ لَا يُدْرَكُ بِالنَّعِيمِ :

وَأَجْمَعَ عُقَلَاءُ كُلِّ أُمَّةٍ عَلَىٰ أَنَّ النَّعِيمَ لَا يُدْرَكُ بِالنَّعِيمِ، وَأَنَّ مَنْ رَافَقَ الرَّاحَةَ فَارَقَ الرَّاحَةَ ، وَحَصَلَ عَلَىٰ الْمَشَقَّةِ وَقْتَ الرَّاحَةِ فِي دَارِ الرَّاحَةِ، فَإِنَّ قَدْرَ التَّعَبِ تَكُونُ الرَّاحَةُ.

الرِّضَى نِهَايَةُ التَّوَكُّلِ :

وَقَالَ النَّبِيُّ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– : « **ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا** » [١] .

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٣٤) .

وَقَالَ: مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: « **رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا ، غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُهُ** »(١) .

وَهَذَانِ الْحَدِيثَانِ عَلَيْهِمَا مَدَارُ مَقَامَاتِ الدِّينِ ، وَإِلَيْهِمَا يَنْتَهِي ، وَقَدْ تَضَمَّنَا الرِّضَا بِرُبُوبِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَأُلُوهِيَّتِهِ ، وَالرِّضَا بِرَسُولِه ، وَالانْقِيَادَ لَهُ، وَالرِّضَا بِدِينِهِ ، وَالتَّسْلِيمَ لَهُ ، وَمَنِ اجْتَمَعَتْ لَهُ هَذِهِ الْأَرْبَعَةُ: فَهُوَ الصِّدِّيقُ حَقًّا ، وَهِيَ سَهْلَةٌ بِالدَّعْوَىٰ وَاللِّسَانِ ، وَهِيَ مِنْ أَصْعَبِ الْأُمُورِ عِنْدَ الْحَقِيقَةِ وَالامْتِحَانِ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا جَاءَ مَا يُخَالِفُ هَوَىٰ النَّفْسِ وَمُرَادَهَا ، مِنْ ذَلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ الرِّضَا كَانَ لِسَانُهُ بِهِ نَاطِقًا، فَهُوَ عَلَىٰ لِسَانِهِ لَا عَلَىٰ حَالِهِ.

الْمُتَوَكِّلُ لَا يَسْتَوْحِشُ مِنَ الْغُرْبَةِ :

فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْتَوْحِشَ مِنَ الاغْتِرَابِ وَالتَّفَرُّدِ ، فَإِنَّهُ وَاللهِ عَيْنُ الْعِزَّةِ ، وَالصُّحْبَةَ مَعَ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَرُوحُ الْأُنْسِ بِهِ، وَالرِّضَا بِهِ رَبًّا ، وَبِمُحَمَّدٍ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَسُولًا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا.

حَلَاوَةُ الْغُرْبَةِ :

بَلِ الصَّادِقُ كُلَّمَا وَجَدَ مَسَّ الاغْتِرَابِ ، وَذَاقَ حَلَاوَتَهُ ، وَتَنَسَّمَ رُوحَهُ ، قَالَ: اللهُمَّ زِدْنِي اغْتِرَابًا ، وَوَحْشَةً مِنَ الْعَالَمِ ، وَأُنْسًا بِكَ ،

(١)(صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٣٨٦) وَأَبُو دَاوُد (٥٢٥) ، وَ ابْنُ مَاجَهْ (٧٢١).

وَكُلَّمَا ذَاقَ حَلَاوَةَ هَذَا الاغْتِرَابِ، وَهَذَا التَّفَرُّدِ: رَأَىٰ الْوَحْشَةَ عَيْنَ الْأُنْسِ بِالنَّاسِ، وَالذُّلَّ عَيْنَ الْعِزِّ بِهِمْ، وَالْجَهْلَ عَيْنَ الْوُقُوفِ مَعَ آرَائِهِمْ وَزُبَالَةِ أَذْهَانِهِمْ، وَالانْقِطَاعَ عَيْنَ التَّقَيُّدِ بِرُسُومِهِمْ وَأَوْضَاعِهِمْ، فَلَمْ يُؤْثِرْ بِنَصِيبِهِ مِنَ اللهِ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ، وَلَمْ يَبِعْ حَظَّهُ مِنَ اللهِ بِمُوَافَقَتِهِمْ فِيمَا لَا يُجْدِي عَلَيْهِ إِلَّا الْحِرْمَانَ.

وَغَايَتُهُ: مَوَدَّةُ بَيْنِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَإِذَا انْقَطَعَتِ الْأَسْبَابُ، وَحَقَّتِ الْحَقَائِقُ، وَبُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ، وَبُلِيَتِ السَّرَائِرُ، وَلَمْ يَجِدْ مِنْ دُونِ مَوْلَاهُ الْحَقِّ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ: تَبَيَّنَ لَهُ حِينَئِذٍ مَوَاقِعُ الرِّبْحِ وَالْخُسْرَانِ، وَمَا الَّذِي يَخِفُّ أَوْ يَرْجَحُ بِهِ الْمِيزَانُ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ.

مَقَامُ الغُرْبَةِ :

قِيلَ لِيَحْيَىٰ بْنِ مُعَاذٍ: مَتَىٰ يَبْلُغُ الْعَبْدُ إِلَىٰ مَقَامِ الرِّضَا؟ ، فَقَالَ: إِذَا أَقَامَ نَفْسَهُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أُصُولٍ فِيمَا يُعَامِلُ بِهِ رَبَّهُ ، فَيَقُولُ: إِنْ أَعْطَيْتَنِي قَبِلْتُ، وَإِنْ مَنَعْتَنِي رَضِيتُ، وَإِنْ تَرَكْتَنِي عَبَدْتُ، وَإِنْ دَعَوْتَنِي أَجَبْتُ.

ثَمَرَةُ الرِّضَى :

فَطَرِيقُ الرِّضَا وَالْمَحَبَّةِ: تُسَيِّرُ الْعَبْدَ وَهُوَ مُسْتَلْقٍ عَلَىٰ فِرَاشِهِ، فَيُصْبِحُ أَمَامَ الرَّكْبِ بِمَرَاحِلَ.

وَثَمَرَةُ الرِّضَا: الْفَرَحُ وَالسُّرُورُ بِالرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَرَأَيْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَةَ- قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ - فِي الْمَنَامِ، وَكَأَنِّي ذَكَرْتُ لَهُ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِ الْقَلْبِ، وَأَخَذْتُ فِي تَعْظِيمِهِ وَمَنْفَعَتِهِ - لَا أَذْكُرُهُ الْآنَ - فَقَالَ: أَمَّا أَنَا فَطَرِيقَتِي: الْفَرَحُ بِاللهِ ، وَالسُّرُورُ بِهِ ، أَوْ نَحْوَ هَذَا مِنَ الْعِبَارَةِ ، وَهَكَذَا كَانَتْ حَالُهُ فِي الْحَيَاةِ ، يَبْدُو ذَلِكَ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ ، وَيُنَادِي بِهِ عَلَيْهِ حَالُهُ.

حَقِيْقَةُ المَحَبَّةِ للهِ :

وَلَمَّا كَانَتِ الْمَحَبَّةُ التَّامَّةُ مَيْلَ الْقَلْبِ بِكُلِّيَّتِهِ إِلَىٰ الْمَحْبُوبِ: كَانَ ذَلِكَ الْمَيْلُ حَامِلًا عَلَىٰ طَاعَتِهِ وَتَعْظِيمِهِ ، وَكُلَّمَا كَانَ الْمَيْلُ أَقْوَى: كَانَتِ الطَّاعَةُ أَتَمَّ ، وَالتَّعْظِيمُ أَوْفَرَ، وَهَذَا الْمَيْلُ يُلَازِمُ الْإِيمَانَ ، بَلْ هُوَ رُوحُ الْإِيمَانِ وَلُبُّهُ، فَأَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ أَعْلَىٰ مِنْ أَمْرٍ يَتَضَمَّنُ أَنْ يَكُونَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَىٰ الْعَبْدِ ، وَأَوْلَىٰ الْأَشْيَاءِ بِالتَّعْظِيمِ ، وَأَحَقَّ الْأَشْيَاءِ بِالطَّاعَةِ؟.

وَبِهَذَا يَجِدُ الْعَبْدُ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: « **ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ الْكُفْرِ - بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ - كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ** »[1] .

---

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٦-٢١) ، وَمُسْلِمٌ (٤٣) .

فَعَلَّقَ ذَوْقَ الْإِيمَانِ بِالرِّضَا بِاللهِ رَبًّا ، وَعَلَّقَ وُجُودَ حَلَاوَتِهِ بِمَا هُوَ مَوْقُوفٌ عَلَيْهِ ، وَلَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ ، وَهُوَ كَوْنُهُ سُبْحَانَهُ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَىٰ الْعَبْدِ هُوَ وَرَسُولُهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- .

وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْحُبُّ التَّامُّ ، وَالْإِخْلَاصُ - الَّذِي هُوَ ثَمَرَتُهُ - أَعْلَىٰ مِنْ مُجَرَّدِ الرِّضَا بِرُبُوبِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ: كَانَتْ ثَمَرَتُهُ أَعْلَى، وَهُوَ وَجْدُ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ.

وَثَمَرَةُ الرِّضَا: ذَوْقُ طَعْمِ الْإِيمَانِ ، فَهَذَا وَجْدُ حَلَاوَةٍ ، وَذَلِكَ ذَوْقُ طَعْمٍ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

مَنْزِلَةُ الرِّضَى :

الرِّضَىٰ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ ، نَظِيرُ الْجِهَادِ مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ ، فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ذُرْوَةُ سَنَامِ الْإِيمَانِ ، قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ذُرْوَةُ سَنَامِ الْإِيمَانِ: الصَّبْرُ لِلْحُكْمِ ، وَالرِّضَا بِالْقَدَرِ .

عَدَمُ الرِّضَى أَوَّلُ مَعْصِيَةٍ عُصِيَ اللهُ بِهَا :

أَوَّلُ مَعْصِيَةٍ عُصِيَ اللهُ بِهَا فِي هَذَا الْعَالَمِ : إِنَّمَا نَشَأَتْ مِنْ عَدَمِ الرِّضَى، فَإِبْلِيسُ لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ اللهِ الَّذِي حَكَمَ بِهِ كَوْنًا ، مِنْ تَفْضِيلِ آدَمَ وَتَكْرِيمِهِ ، وَلَا بِحُكْمِهِ الدِّينِيِّ ، مِنْ أَمْرِهِ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ ، وَآدَمُ لَمْ يَرْضَ بِمَا أُبِيحَ لَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، حَتَّىٰ ضَمَّ إِلَيْهِ الْأَكْلَ مِنْ شَجَرَةِ الْحِمَىٰ ،

ثُمَّ تَرَتَّبَتْ مَعَاصِي الذُّرِّيَّةِ عَلَىٰ عَدَمِ الصَّبْرِ وَعَدَمِ الرِّضَا .

مَنْعُ اللهِ إِيَّاكَ عَطَاءٌ :

مَنْعُ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- لِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنَ الْمُحِبِّ عَطَاءٌ ، وَابْتِلَاءَهُ إِيَّاهُ عَافِيَةٌ ، قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : مَنْعُهُ عَطَاءٌ ، وَذَلِكَ : أَنَّهُ لَمْ يَمْنَعْ عَنْ بُخْلٍ وَلَا عَدَمٍ ، وَإِنَّمَا نَظَرَ فِي خَيْرِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ فَمَنَعَهُ اخْتِيَارًا وَحُسْنَ نَظَرٍ .

رِضَا اللهِ عَنِ الْعَبْدِ أَكْبَرُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا :

رِضَا اللهِ عَنِ الْعَبْدِ أَكْبَرُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا ، لِأَنَّ الرِّضَا صِفَةُ اللهِ وَالْجَنَّةَ خَلْقُهُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [التَّوْبَةُ : ٧٢] .

وَهَذَا الرِّضَا جَزَاءٌ عَلَىٰ رِضَاهُمْ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْجَزَاءُ أَفْضَلَ الْجَزَاءِ ، كَانَ سَبَبُهُ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ .

عَلَامَةُ حُبِّ اللهِ :

قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ -رَحِمَهُ اللهُ- :

عَلَامَةُ حُبِّ اللهِ: كَثْرَةُ ذِكْرِهِ ، فَإِنَّكَ لَا تُحِبُّ شَيْئًا إِلَّا أَكْثَرْتَ مِنْ ذِكْرِهِ.

وَعَلَامَةُ الدِّينِ : الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ .

وَعَلَامَةُ الشُّكْرِ : الرِّضَا بِقَدَرِ اللهِ وَالتَّسْلِيمُ لِقَضَائِهِ .

الصُّوفِيَّةُ يَعْبُدُونَ أَنْفُسَهُمْ:

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَام ابْنَ تَيْمِيَةَ - قَدَّسَ اللهُ رَوْحَهُ - يَحْكِي عَنْ بَعْضِ الْعَارِفِينَ أَنَّهُ قَالَ: النَّاسُ يَعْبُدُونَ اللهَ،وَالصُّوفِيَّةُ يَعْبُدُونَ أَنْفُسَهُمْ.

أَرَادَ هَذَا الْمَعْنَىٰ الْمُتَقَدِّمَ ، وَأَنَّهُمْ وَاقِفُونَ مَعَ مُرَادِهِمْ مِنَ اللهِ ، لَا مَعَ مُرَادِ اللهِ مِنْهُمْ ، وَهَذَا عَيْنُ عِبَادَةِ النَّفْسِ، فَلْيَتَأَمَّلِ اللَّبِيبُ هَذَا الْمَوْضِعَ حَقَّ التَّأَمُّلِ ، فَإِنَّهُ مِحَكٌّ وَمِيزَانٌ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

عَلَامَةُ الشِّقْوَةِ :

وَقَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: خَمْسٌ مِنْ عَلَامَاتِ الشِّقْوَةِ: الْقَسْوَةُ فِي الْقَلْبِ، وَجُمُودُ الْعَيْنِ، وَقِلَّةُ الْحَيَاءِ، وَالرَّغْبَةُ فِي الدُّنْيَا، وَطُولُ الْأَمَلِ.

حَيَاءُ الرَّبِّ ـ سُبْحَانَهُ تَعَالَى ـ مِنْ عَبْدِهِ :

وَأَمَّا حَيَاءُ الرَّبِّ تَعَالَىٰ مِنْ عَبْدِهِ: فَذَاكَ نَوْعٌ آخَرُ ،لَا تُدْرِكُهُ الْأَفْهَامُ، وَلَا تُكَيِّفُهُ الْعُقُولُ، فَإِنَّهُ حَيَاءُ كَرَمٍ وَبِرٍّ وُجُودٍ وَجَلَالٍ،«**فَإِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا**» [(١)] ،

(١) جَاءَ فِي مَعْنَىٰ ذَلِكَ فِيمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد (١٤٨٨) ، صَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُد» (١٣٢٠) .

وَيَسْتَحْيِي أَنْ يُعَذِّبَ ذَا شَيْبَةٍ شَابَتْ فِي الْإِسْلَامِ [(١)].

أَقْسَامُ الحَيَاءِ:

وَقَدْ قَسَّمَ الْحَيَاءَ عَلَى عَشَرَةِ أَوْجُه: حَيَاءُ جِنَايَةٍ، وَحَيَاءُ تَقْصِيرٍ، وَحَيَاءُ إِجْلَالٍ، وَحَيَاءُ كَرَمٍ، وَحَيَاءُ حِشْمَةٍ، وَحَيَاءُ اسْتِصْغَارٍ لِلنَّفْسِ وَاحْتِقَارٍ لَهَا، وَحَيَاءُ مَحَبَّةٍ، وَحَيَاءُ عُبُودِيَّةٍ، وَحَيَاءُ شَرَفٍ وَعِزَّةٍ، وَحَيَاءُ الْمُسْتَحْيِي مِنْ نَفْسِهِ.

فَأَمَّا حَيَاءُ الْجِنَايَةِ: فَمِنْهُ حَيَاءُ آدَمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لَمَّا فَرَّ هَارِبًا فِي الْجَنَّةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَفِرَارًا مِنِّي يَا آدَمُ؟، قَالَ: لَا يَا رَبِّ، بَلْ حَيَاءً مِنْكَ.

وَحَيَاءُ التَّقْصِيرِ: كَحَيَاءِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قَالُوا: سُبْحَانَكَ! مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ.

وَحَيَاءُ الْإِجْلَالِ: هُوَ حَيَاءُ الْمَعْرِفَةِ، وَعَلَىٰ حَسَبِ مَعْرِفَةِ الْعَبْدِ بِرَبِّهِ يَكُونُ حَيَاؤُهُ مِنْهُ.

وَحَيَاءُ الْكَرَمِ: كَحَيَاءِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ دَعَاهُمْ إِلَىٰ وَلِيمَةِ زَيْنَبَ، وَطَوَّلُوا الْجُلُوسَ عِنْدَهُ، فَقَامَ وَاسْتَحْيَا أَنْ

---

(١) جَاءَ فِي مَعْنَىٰ ذَلِكَ فِيمَا أَوْرَدَهُ الهَيْثَمِيُّ فِي «مُجمَعِ الزَّوَائِدِ وَضَعَّفَهُ» (٥/ ١٩٥).

يَقُولَ لَهُمْ: انْصَرِفُوا [١].

وَحَيَاءُ الْحِشْمَةِ: كَحَيَاءِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنْ يَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنِ الْمَذْيِ لِمَكَانِ ابْنَتِهِ مِنْهُ [٢].

وَحَيَاءُ الاسْتِحْقَارِ وَاسْتِصْغَارِ النَّفْسِ: كَحَيَاءِ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- حِينَ يَسْأَلُهُ حَوَائِجَهُ، احْتِقَارًا لِشَأْنِ نَفْسِهِ، وَاسْتِصْغَارًا لَهَا، وَفِي أَثَرٍ إِسْرَائِيلِيٍّ: إِنَّ مُوسَىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- قَالَ: يَا رَبِّ، إِنَّهُ لَتُعْرَضُ لِي الْحَاجَةُ مِنَ الدُّنْيَا، فَأَسْتَحْيِي أَنْ أَسْأَلَكَ هِيَ يَا رَبِّ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: سَلْنِي حَتَّىٰ مِلْحَ عَجِينَتِكَ، وَعَلَفَ شَاتِكَ.

وَقَدْ يَكُونُ لِهَذَا النَّوْعِ سَبَبَانِ:

أَحَدُهُمَا: اسْتِحْقَارُ السَّائِلِ نَفْسَهُ، وَاسْتِعْظَامُ ذُنُوبِهِ وَخَطَايَاهُ.

الثَّانِي: اسْتِعْظَامُ مَسْئُولِهِ.

وَأَمَّا حَيَاءُ الْمَحَبَّةِ: فَهُوَ حَيَاءُ الْمُحِبِّ مِنْ مَحْبُوبِهِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ إِذَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِهِ فِي غَيْبَتِهِ هَاجَ الْحَيَاءُ مِنْ قَلْبِهِ، وَأَحَسَّ بِهِ فِي وَجْهِهِ، وَلَا يَدْرِي مَا سَبَبُهُ، وَكَذَلِكَ يَعْرِضُ لِلْمُحِبِّ عِنْدَ مُلَاقَاتِهِ مَحْبُوبَهُ وَمُفَاجَأَتِهِ لَهُ رَوْعَةٌ شَدِيدَةٌ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: جَمَالٌ رَائِعٌ، وَسَبَبُ هَذَا الْحَيَاءِ وَالرَّوْعَةِ مِمَّا لَا يَعْرِفُهُ أَكْثَرُ النَّاسِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ لِلْمَحَبَّةِ سُلْطَانًا قَاهِرًا لِلْقَلْبِ

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥١٦٨)، وَمُسْلِمٌ (١٤٢٨).
(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٦٩)، وَمُسْلِمٌ (٣٠٣).

أَعْظَمَ مِنْ سُلْطَانِ مَنْ يَقْهَرُ الْبَدَنَ ، فَأَيْنَ مَنْ يَقْهَرُ قَلْبَكَ وَرُوحَكَ إِلَىٰ مَنْ يَقْهَرُ بَدَنَكَ؟ ،وَلِذَلِكَ تَعَجَّبَتِ الْمُلُوكُ وَالْجَبَابِرَةُ مِنْ قَهْرِهِمْ لِلْخَلْقِ وَقَهْرِ الْمَحْبُوبِ لَهُمْ ، وَذُلِّهِمْ لَهُ ، فَإِذَا فَاجَأَ الْمَحْبُوبُ مُحِبَّهُ ، وَرَآهُ بَغْتَةً: أَحَسَّ الْقَلْبُ بِهُجُومِ سُلْطَانِهِ عَلَيْهِ ، فَاعْتَرَاهُ رَوْعَةٌ وَخَوْفٌ.

وَسَأَلْنَا يَوْمًا شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَةَ – قَدَّسَ اللهُ رَوْحَهُ – عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ؟ فَذَكَرْتُ أَنَا هَذَا الْجَوَابَ ، فَتَبَسَّمَ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا.

وَأَمَّا الْحَيَاءُ الَّذِي يَعْتَرِيهِ مِنْهُ ، وَإِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَيْهِ – كَأَمَتِهِ وَزَوْجَتِهِ – فَسَبَبُهُ – وَاللهُ أَعْلَمُ – أَنَّ هَذَا السُّلْطَانَ لَمَّا زَالَ خَوْفُهُ عَنِ الْقَلْبِ بَقِيَتْ هَيْبَتُهُ وَاحْتِشَامُهُ ، فَتَوَلَّدَ مِنْهَا الْحَيَاءُ ، وَأَمَّا حُصُولُ ذَلِكَ لَهُ فِي غَيْبَةِ الْمَحْبُوبِ: فَظَاهِرٌ ، لِاسْتِيلَائِهِ عَلَىٰ قَلْبِهِ ، فَوَهْمُهُ يُغَالِطُهُ عَلَيْهِ وَيُكَابِرُهُ ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ مَعَهُ.

وَأَمَّا حَيَاءُ الْعُبُودِيَّةِ: فَهُوَ حَيَاءٌ مُمْتَزِجٌ مِنْ مَحَبَّةٍ وَخَوْفٍ ، وَمُشَاهَدَةِ عَدَمِ صَلَاحِ عُبُودِيَّتِهِ لِمَعْبُودِهِ ، وَأَنَّ قَدْرَهُ أَعْلَىٰ وَأَجَلُّ مِنْهَا، فَعُبُودِيَّتُهُ لَهُ تُوجِبُ اسْتِحْيَاءَهُ مِنْهُ لَا مَحَالَةَ .

وَأَمَّا حَيَاءُ الشَّرَفِ وَالْعِزَّةِ: فَحَيَاءُ النَّفْسِ الْعَظِيمَةِ الْكَبِيرَةِ إِذَا صَدَرَ مِنْهَا مَا هُوَ دُونَ قَدْرِهَا مِنْ بَذْلٍ أَوْ عَطَاءٍ وَإِحْسَانٍ ، فَإِنَّهُ يَسْتَحْيِي مَعَ بَذْلِهِ حَيَاءَ شَرَفِ نَفْسٍ وَعِزَّةٍ ، وَهَذَا لَهُ سَبَبَانِ.

أَحَدُهُمَا هَذَا ، وَالثَّانِي: اسْتِحْيَاؤُهُ مِنَ الْآخِذِ ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ هُوَ الْآخِذُ السَّائِلُ، حَتَّىٰ إِنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْكَرَمِ لَا تُطَاوِعُهُ نَفْسُهُ بِمُوَاجَهَتِهِ لِمَنْ يُعْطِيهِ حَيَاءً مِنْهُ ، وَهَذَا يَدْخُلُ فِي حَيَاءِ التَّلَوُّمِ ، لِأَنَّهُ يَسْتَحْيِي مِنْ خَجْلَةِ الْآخِذِ.

وَأَمَّا حَيَاءُ الْمَرْءِ مِنْ نَفْسِهِ: فَهُوَ حَيَاءُ النُّفُوسِ الشَّرِيفَةِ الْعَزِيزَةِ الرَّفِيعَةِ مِنْ رِضَاهَا لِنَفْسِهَا بِالنَّقْصِ ، وَقَنَاعَتِهَا بِالدُّونِ ، فَيَجِدُ نَفْسَهُ مُسْتَحِيًا مِنْ نَفْسِهِ ، حَتَّىٰ كَأَنَّ لَهُ نَفْسَيْنِ ، يَسْتَحْيِي بِإِحْدَاهُمَا مِنَ الْأُخْرَى، وَهَذَا أَكْمَلُ مَا يَكُونُ مِنَ الْحَيَاءِ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اسْتَحْيَىٰ مِنْ نَفْسِهِ ، فَهُوَ بِأَنْ يَسْتَحْيِيَ مِنْ غَيْرِهِ أَجْدَرُ.

إِنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ :

فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا صَدَقَ اللَّهَ : رَضِيَ اللهُ بِعَمَلِهِ ، وَحَالِهِ وَيَقِينِهِ ، وَقَصْدِهِ .

الصَّادِقُ غَرِيبٌ أَيْنَمَا حَلَّ :

وَمِنْ هَاهُنَا يُفَارِقُ الصَّادِقُ أَكْثَرَ السَّالِكِينَ ، بَلْ يَسْتَوْحِشُ فِي طَرِيقِهِ، وَذَلِكَ لِقِلَّةِ سَالِكِهَا ، فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ سَائِرُونَ عَلَىٰ طُرُقِ أَذْوَاقِهِمْ ، وَتَجْرِيدِ أَنْفَاسِهِمْ لِنُفُوسِهِمْ ، وَمُتَابَعَةِ رُسُومِ شُيُوخِهِمْ ، وَالصَّادِقُ فِي وَادٍ ، وَهَؤُلَاءِ فِي وَادٍ .

لَا إِيْثَارَ فِي الْقُرْبِ :

وَكُلُّ سَبَبٍ يَعُودُ عَلَيْكَ بِصَلَاحِ قَلْبِكَ وَوَقْتِكَ وَحَالِكَ مَعَ اللهِ : فَلَا تُؤْثِرْ بِهِ أَحَدًا ، فَإِنْ آثَرْتَ بِهِ فَإِنَّمَا تُؤْثِرُ الشَّيْطَانَ عَلَىٰ اللهِ ، وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ.

وَتَأَمَّلْ أَحْوَالَ أَكْثَرِ الْخَلْقِ فِي إِيثَارِهِمْ عَلَىٰ اللهِ مَنْ يَضُرُّهُمْ إِيثَارُهُمْ لَهُ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَأَيُّ جَهَالَةٍ وَسَفَهٍ فَوْقَ هَذَا ؟ .

وَمِنْ هَذَا تَكَلَّمَ الْفُقَهَاءُ فِي الْإِيثَارِ بِالْقُرَبِ ، وَقَالُوا : إِنَّهُ مَكْرُوهٌ أَوْ حَرَامٌ ، كَمَنْ يُؤْثِرُ بِالصَّفِّ الْأَوَّلِ غَيْرَهُ وَيَتَأَخَّرُ هُوَ ، أَوْ يُؤْثِرُهُ بِقُرْبِهِ مِنَ الْإِمَامِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، أَوْ يُؤْثِرُ غَيْرَهُ بِالْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ ، أَوْ يُؤْثِرُهُ بِعِلْمٍ يَحْرِمُهُ نَفْسَهُ ، وَيَرْفَعُهُ عَلَيْهِ ، فَيَفُوزُ بِهِ دُونَهُ .

وَتَكَلَّمُوا فِي إِيثَارِ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - بِدَفْنِهِ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي حُجْرَتِهَا .

وَأَجَابُوا عَنْهُ بِأَنَّ الْمَيِّتَ يَنْقَطِعُ عَمَلُهُ بِمَوْتِهِ وَبِقُرْبِهِ ، فَلَا يُتَصَوَّرُ فِي حَقِّهِ الْإِيثَارُ بِالْقُرَبِ بَعْدَ الْمَوْتِ، إِذْ لَا تَقَرُّبَ فِي حَقِّ الْمَيِّتِ ، وَإِنَّمَا هَذَا إِيثَارٌ بِمَسْكَنٍ شَرِيفٍ فَاضِلٍ لِمَنْ هُوَ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْهَا ، فَالْإِيثَارُ بِهِ قُرْبَةٌ إِلَىٰ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- لِلْمُؤْثِرِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

لَا تُؤْثِرَنَّ عَلَى اللهِ أَحَدًا :

وَقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ اللهِ - الَّتِي لَا تَبْدِيلَ لَهَا - أَنَّ مَنْ آثَرَ مَرْضَاةَ الْخَلْقِ عَلَىٰ مَرْضَاتِهِ : أَنْ يُسْخِطَ عَلَيْهِ مَنْ آثَرَ رِضَاهُ، وَيَخْذُلَهُ مِنْ جِهَتِهِ، وَيَجْعَلَ مِحْنَتَهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ، فَيَعُودَ حَامِدُهُ ذَامًّا، وَمَنْ آثَرَ مَرْضَاتَهُ سَاخِطًا، فَلَا عَلَىٰ مَقْصُودِهِ مِنْهُمْ حَصَلَ، وَلَا إِلَىٰ ثَوَابِ مَرْضَاةِ رَبِّهِ وَصَلَ، وَهَذَا أَعْجَزُ الْخَلْقِ وَأَحْمَقُهُمْ .

هَذَا مَعَ أَنَّ رِضَا الْخَلْقِ : لَا مَقْدُورٌ، وَلَا مَأْمُورٌ، وَلَا مَأْثُورٌ، فَهُوَ مُسْتَحِيلٌ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ سُخْطِهِمْ عَلَيْكَ، فَلَأَنْ يَسْخَطُوا عَلَيْكَ وَتَفُوزَ بِرِضَا اللهِ عَنْكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ وَأَنْفَعُ لَكَ مِنْ أَنْ يَسْخَوْا عَلَيْكَ وَاللهُ عَنْكَ غَيْرُ رَاضٍ، فَإِذَا كَانَ سُخْطُهُمْ لَا بُدَّ مِنْهُ - عَلَىٰ التَّقْدِيرَيْنِ - فَآثِرْ سُخْطَهُمُ الَّذِي يُنَالُ بِهِ رِضَا اللهِ، فَإِنْ هُمْ رَضُوا عَنْكَ بَعْدَ هَذَا، وَإِلَّا فَأَهْوَنُ شَيْءٍ رِضَا مَنْ لَا يَنْفَعُكَ رِضَاهُ، وَلَا يَضُرُّكَ سُخْطُهُ فِي دِينِكَ، وَلَا فِي إِيمَانِكَ، وَلَا فِي آخِرَتِكَ، فَإِنْ ضَرَّكَ فِي أَمْرٍ يَسِيرٍ فِي الدُّنْيَا فَمَضَرَّةُ سُخْطِ اللهِ أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ .

الْمُؤْثِرَ لِرِضَا اللهِ تُصَوَّبُ نَحْوَهُ السِّهَامِ :

مِنَ الْمَعْلُومِ : أَنَّ الْمُؤْثِرَ لِرِضَا اللهِ مُتَصَدٍّ لِمُعَادَاةِ الْخَلْقِ وَأَذَاهُمْ، وَسَعْيِهِمْ فِي إِتْلَافِهِ وَلَا بُدَّ، هَذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي خَلْقِهِ، وَإِلَّا فَمَا ذَنْبُ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ،

وَالَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ، وَالْقَائِمِينَ بِدِينِ اللهِ ، الذَّابِّينَ عَنْ كِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ عِنْدَهُمْ ؟ .

فَمَنْ آثَرَ رِضَا اللهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يُعَادِيَهُ رَذَالَةُ الْعَالَمِ وَسَقْطُهُمْ ، وَغَرْثَاهُمْ وَجُهَّالُهُمْ ، وَأَهْلُ الْبِدَعِ وَالْفُجُورِ مِنْهُمْ ، وَأَهْلُ الرِّيَاسَاتِ الْبَاطِلَةِ ، وَكُلُّ مَنْ يُخَالِفُ هَدْيُهُ هَدْيَهُ ، فَمَا يَقْدَمُ عَلَىٰ مُعَادَاةِ هَؤُلَاءِ إِلَّا طَالِبُ الرُّجُوعِ إِلَىٰ اللهِ ، عَامِلٌ عَلَىٰ سَمَاعِ خِطَابِ ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفجر:٢٧-٢٨] ، وَمَنْ إِسْلَامُهُ صُلْبٌ كَامِلٌ لَا تُزَعْزِعُهُ الرِّجَالُ ، وَلَا تُقَلْقِلُهُ الْجِبَالُ ، وَمَنْ عَقْدُ عَزِيمَةِ صَبْرِهِ مُحْكَمٌ لَا تَحُلُّهُ الْمِحَنُ وَالشَّدَائِدُ وَالْمَخَاوِفُ .

تَزْكِيَةُ النُّفُوسِ :

تَزْكِيَةُ النُّفُوسِ : أَصْعَبُ مِنْ عِلَاجِ الْأَبْدَانِ وَأَشَدُّ ، فَمَنْ زَكَّىٰ نَفْسَهُ بِالرِّيَاضَةِ وَالْمُجَاهَدَةِ وَالْخَلْوَةِ ، الَّتِي لَمْ يَجِئْ بِهَا الرُّسُلُ : فَهُوَ كَالْمَرِيضِ الَّذِي عَالَجَ نَفْسَهُ بِرَأْيِهِ ، وَأَيْنَ يَقَعُ رَأْيُهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الطَّبِيبِ ؟ ، فَالرُّسُلُ أَطِبَّاءُ الْقُلُوبِ ، فَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ تَزْكِيَتِهَا وَصَلَاحِهَا إِلَّا مِنْ طَرِيقِهِمْ ، وَعَلَىٰ أَيْدِيهِمْ ، وَبِمَحْضِ الِانْقِيَادِ ، وَالتَّسْلِيمِ لَهُمْ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ .

فَإِنْ قُلْتَ : هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ الْخُلُقُ كَسْبِيًّا ، أَوْ هُوَ أَمْرٌ خَارِجٌ عَنِ الْكَسْبِ ؟ .

قُلْتُ : يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ كَسْبِيًّا بِالتَّخَلُّقِ وَالتَّكَلُّفِ ، حَتَّىٰ يَصِيرَ لَهُ سَجِيَّةً وَمَلَكَةً ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: « **إِنْ فِيكَ لَخُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ : الْحِلْمُ ، وَالأَنَاةُ** »، فَقَالَ: أَخُلُقَيْنِ تَخَلَّقْتُ بِهِمَا ، أَمْ جَبَلَنِي اللهُ عَلَيْهِمَا ؟، فَقَالَ: « **بَلْ جَبَلَكَ اللهُ عَلَيْهِمَا** » ، فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَىٰ خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ[١] .

فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ مِنَ الْخُلُقِ : مَا هُوَ طَبِيعَةٌ وَجِبِلَّةٌ ، وَمَا هُوَ مُكْتَسَبٌ ، وَكَانَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ فِي دُعَاءِ الاسْتِفْتَاحِ: « **اللهُمَّ اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الأَخْلَاقِ ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ** »[٢] ، فَذَكَرَ الْكَسْبَ وَالْقَدَرَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

تَجْدِيدُ التَّوْبَةِ :

فَعَلَىٰ الْعَبْدِ أَنْ يَتَعَذَّرَ إِلَىٰ رَبِّهِ مِنْ كُلِّ مَا يَأْتِي بِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، أَمَّا الشَّرُّ : فَظَاهِرٌ ، وَأَمَّا الْخَيْرُ : فَيَعْتَذِرُ مِنْ نُقْصَانِهِ ، وَلَا يَرَاهُ صَالِحًا لِرَبِّهِ .

فَهُوَ - مَعَ إِحْسَانِهِ - مُعْتَذِرٌ فِي إِحْسَانِهِ ، وَلِذَلِكَ مَدَحَ اللهُ أَوْلِيَاءَهُ بِالْوَجَلِ مِنْهُ مَعَ إِحْسَانِهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ** ﴾

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٧) وَأَبُو دَاوُد (٥٢٢٥) .
(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٧٧١) وَأَبُو دَاوُد (٧٦٠) .

[المُؤْمِنِيْن : ٦٠]، وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **هُوَ الرَّجُلُ يَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُ ، وَيَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ** » [١] ، فَإِذَا خَافَ فَهُوَ بِالاعْتِذَارِ أَوْلَىٰ .

وَالحَامِلُ لَهُ عَلَى هَذَا الاعْتِذَارِ أَمْرَانِ :

أَحَدُهُمَا : شُهُودُ تَقْصِيرِهِ وَنُقْصَانِهِ .

وَالثَّانِي : صِدْقُ مَحَبَّتِهِ ، فَإِنَّ الْمُحِبَّ الصَّادِقَ يَتَقَرَّبُ إِلَىٰ مَحْبُوبِهِ بِغَايَةِ إِمْكَانِهِ ، وَهُوَ مُعْتَذِرٌ إِلَيْهِ ، مُسْتَحْيٍ مِنْهُ : أَنْ يُوَاجِهَهُ بِمَا وَاجَهَهُ بِهِ ، وَهُوَ يَرَىٰ أَنَّ قَدْرَهُ فَوْقَهُ وَأَجَلُّ مِنْهُ ، وَهَذَا مُشَاهَدٌ فِي مَحَبَّةِ الْمَخْلُوقِينَ .

أَوَّلُ ذَنْبٍ عَصَى اللَّهَ بِهِ أَبَوَا الثَّقَلَيْنِ :

أَوَّلُ ذَنْبٍ عَصَىٰ اللَّهَ بِهِ أَبَوَا الثَّقَلَيْنِ : الْكِبْرُ وَالْحِرْصُ ، فَكَانَ الْكِبْرُ ذَنْبَ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ ، فَآلَ أَمْرُهُ إِلَىٰ مَا آلَ إِلَيْهِ ، وَذَنْبُ آدَمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَ-عَلَيْهِ السَّلَامُ- : كَانَ مِنَ الْحِرْصِ وَالشَّهْوَةِ ، فَكَانَ عَاقِبَتُهُ التَّوْبَةَ وَالْهِدَايَةَ ، وَذَنْبُ إِبْلِيسَ حَمَلَهُ عَلَىٰ الاحْتِجَاجِ بِالْقَدَرِ وَالْإِصْرَارِ ، وَذَنْبُ آدَمَ أَوْجَبَ لَهُ إِضَافَتَهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ ، وَالاعْتِرَافَ بِهِ وَالاسْتِغْفَارَ .

فَأَهْلُ الْكِبْرِ وَالْإِصْرَارِ ، وَالاحْتِجَاجِ بِالْأَقْدَارِ : مَعَ شَيْخِهِمْ وَقَائِدِهِمْ

---

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ التِّرمذِيُّ (٣١٧٤) ، وَصَحَّحَهُ العَلَّامَةُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «السِّلْسِلَةِ الصَحِيْحَةِ »(١٦٢).

إِلَىٰ النَّارِ إِبْلِيسَ، وَأَهْلُ الشَّهْوَةِ: الْمُسْتَغْفِرُونَ التَّائِبُونَ الْمُعْتَرِفُونَ بِالذُّنُوبِ، الَّذِينَ لا يَحْتَجُّونَ عَلَيْهَا بِالْقَدَرِ : مَعَ أَبِيهِمْ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ .

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَةَ - رَحِمَهُ اللهُ - يَقُولُ : التَّكَبُّرُ شَرٌّ مِنَ الشِّرْكِ فَإِنَّ الْمُتَكَبِّرَ يَتَكَبَّرُ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَىٰ ، وَالْمُشْرِكَ يَعْبُدُ اللَّهَ وَغَيْرَهُ .

تَعْرِيفُ البَصِيْرَةِ :

وَالْبَصِيرَةُ نُورٌ يَجْعَلُهُ اللهُ فِي عَيْنِ الْقَلْبِ ، يُفَرِّقُ بِهِ الْعَبْدُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَنِسْبَتُهُ إِلَىٰ الْقَلْبِ : كَنِسْبَةِ ضَوْءِ الْعَيْنِ إِلَىٰ الْعَيْنِ .

وَهَذِهِ الْبَصِيرَةُ وَهْبِيَّةٌ وَكَسْبِيَّةٌ ، فَمَنْ أَدَارَ النَّظَرَ فِي أَعْلَامِ الْحَقِّ وَأَدِلَّتِهِ، وَتَجَرَّدَ لِلَّهِ مِنْ هَوَاهُ : اسْتَنَارَتْ بَصِيرَتُهُ ، وَرُزِقَ فُرْقَانًا يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ .

حَدُّ الخَوْفِ :

سَمِعْتُ شَيْخَ الإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللهُ - يَقُولُ : حَدُّ الْخَوْفِ مَا حَجَزَكَ عَنْ مَعَاصِي اللهِ ، فَمَا زَادَ عَلَىٰ ذَلِكَ : فَهُوَ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِ .

حَدُّ الرَّجَاءِ :

حَدُّ الرَّجَاءِ : مَا طَيَّبَ لَكَ الْعِبَادَةَ ، وَحَمَلَكَ عَلَىٰ السَّيْرِ ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الرِّيَاحِ الَّتِي تُسَيِّرُ السَّفِينَةَ ، فَإِذَا انْقَطَعَتْ وَقَفَتِ السَّفِينَةُ ، وَإِذَا زَادَتْ

أَلْقَتْهَا إِلَىٰ الْمَهَالِكِ ، وَإِذَا كَانَتْ بِقَدْرٍ : أَوْصَلَتْهَا إِلَىٰ الْبُغْيَةِ .

النَّفْسُ قَرِينَةُ الشَّيْطَانِ :

وَالنَّفْسُ قَرِينَةُ الشَّيْطَانِ وَمُصَاحِبَتُهُ ، وَتُشْبِهُهُ فِي صِفَاتِه ، وَمَوَاهِبُ الرَّبِّ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- تَنْزِلُ عَلَىٰ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ ، فَالنَّفْسُ تَسْتَرِقُ السَّمْعَ، فَإِذَا نَزَلَتْ عَلَىٰ الْقَلْبِ تِلْكَ الْمَوَاهِبُ : وَثَبَتْ لِتَأْخُذَ قِسْطَهَا مِنْهَا ، وَتُصَيِّرَهُ مِنْ عِدَّتِهَا وَحَوَاصِلِهَا ، فَالْمُسْتَرْسِلُ مَعَهَا ، الْجَاهِلُ بِهَا فَيَدَعُهَا تَسْتَوْفِي ذَلِكَ ، فَبَيْنَا هُوَ فِي مَوْهِبَةِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَعِدَّةٍ وَقُوَّةٍ لَهُ ، إِذْ صَارَ ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ حَاصِلِ النَّفْسِ وَآلَتِهَا ، وَعُدَدِهَا ، فَصَالَتْ بِهِ وَطَغَتْ ، لِأَنَّهَا رَأَتْ غِنَاهَا بِهِ ، وَالْإِنْسَانُ يَطْغَىٰ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ بِالْمَالِ ، فَكَيْفَ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ خَطَرًا ، وَأَجَلُّ قَدْرًا مِنَ الْمَالِ ، بِمَا لَا نِسْبَةَ بَيْنَهُمَا : مَنْ عِلْمٍ ، أَوْ حَالٍ ، أَوْ مَعْرِفَةٍ ، أَوْ كَشْفٍ ؟ ، فَإِذَا صَارَ ذَلِكَ مِنْ حَاصِلِهَا: انْحَرَفَ الْعَبْدُ بِهِ وَلَا بُدَّ إِلَىٰ طَرَفٍ مَذْمُومٍ مِنْ جُرْأَةٍ ، أَوْ شَطْحٍ ، أَوْ إِدْلَالٍ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ .

فَوَاللهِ كَمْ هَاهُنَا مِنْ قَتِيلٍ ، وَسَلِيبٍ ، وَجَرِيحٍ يَقُولُ : مِنْ أَيْنَ أُتِيتُ؟ وَمِنْ أَيْنَ دُهِيتُ ؟ ، وَمِنْ أَيْنَ أُصِبْتُ ؟ ، وَأَقَلُّ مَا يُعَاقَبُ بِهِ مِنَ الْحِرْمَانِ بِذَلِكَ : أَنْ يُغْلَقَ عَنْهُ بَابُ الْمَزِيدِ ، وَلِهَذَا كَانَ الْعَارِفُونَ وَأَرْبَابُ الْبَصَائِرِ: إِذَا نَالُوا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ انْحَرَفُوا إِلَىٰ طَرَفِ الذُّلِّ وَالِانْكِسَارِ،

وَمُطَالَعَةِ عُيُوبِ النَّفْسِ، وَاسْتَدْعَوْا حَارِسَ الْخَوْفِ ، وَحَافَظُوا عَلَىٰ الرِّبَاطِ بِمُلازَمَةِ الثَّغْرِ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ النَّفْسِ، وَنَظَرُوا إِلَىٰ أَقْرَبِ الْخَلْقِ مِنَ اللهِ ، وَأَكْرَمِهِمْ عَلَيْهِ ، وَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ وَسِيلَةً ، وَأَعْظَمِهِمْ عِنْدَهُ جَاهًا، وَقَدْ دَخَلَ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ ، وَذَقْنُهُ تَمَسُّ قَرْبُوسَ سَرْجِهِ: انْخِفَاضًا وَانْكِسَارًا، وَتَوَاضُعًا لِرَبِّهِ تَعَالَىٰ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ ، الَّتِي عَادَةُ النُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ فِيهَا: أَنْ يَمْلِكَهَا سُرُورُهَا ، وَفَرَحُهَا بِالنَّصْرِ ، وَالظَّفَرِ ، وَالتَّأْيِيدِ، وَيَرْفَعُهَا إِلَىٰ عَنَانِ السَّمَاءِ .

فَالرَّجُلُ : مَنْ صَانَ فَتْحَهُ وَنَصِيبَهُ مِنَ اللهِ ، وَوَارَاهُ عَنِ اسْتِرَاقِ نَفْسِهِ، وَبَخِلَ عَلَيْهَا بِهِ ، وَالْعَاجِزُ : مَنْ جَادَ لَهَا بِهِ ، فَيَا لَهُ مِنْ جُودٍ مَا أَقْبَحَهُ ، وَسَمَاحَةٍ مَا أَسْفَهَ صَاحِبَهَا ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ .

مَنْزِلَةُ الْيَقِينِ :

هُوَ مِنَ الْإِيمَانِ مَنْزِلَةُ الرُّوحِ مِنَ الْجَسَدِ ، وَبِهِ تَفَاضَلَ الْعَارِفُونَ ، وَفِيهِ تَنَافَسَ الْمُتَنَافِسُونَ ، وَإِلَيْهِ شَمَّرَ الْعَامِلُونَ ، وَعَمَلُ الْقَوْمِ إِنَّمَا كَانَ عَلَيْهِ ، وَإِشَارَاتُهُمْ كُلُّهَا إِلَيْهِ ، وَإِذَا تَزَوَّجَ الصَّبْرُ بِالْيَقِينِ : وُلِدَ بَيْنَهُمَا حُصُولُ الْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ ، وَبِقَوْلِهِ : يَهْتَدِي الْمُهْتَدُونَ ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السَّجْدَة : ٢٤] .

وَخصَّ سُبْحَانَهُ أَهْلَ الْيَقِين بِالانْتِفَاع بالْآيَاتِ وَالْبَرَاهِين ، فَقَالَ تَعَالَىٰ ، وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الذَّارِيَاتُ : ٢٠].

وَخصَّ أَهْلَ الْيَقِين بِالْهُدَىٰ وَالْفَلَاحِ مِنْ بَيْنِ الْعَالَمِينَ ، فَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [البَقَرَة :٥] .

وَأَخْبَرَ عَنْ أَهْلِ النَّار : بأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْيَقِين ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الجَاثِيَة :٣٢] .

فَالْيَقِينُ رُوحُ أَعْمَالِ الْقُلُوب الَّتِي هِيَ أَرْوَاحُ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ ، وَهُوَ حَقِيقَةُ الصِّدِّيقِيَّةِ ، وَهُوَ قُطْبُ هَذَا الشَّأْنِ الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُهُ .

مِنْ أَعْلَامِ الْيَقِين :

ثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ الْيَقِين : قِلَّةُ مُخَالَطَة النَّاس فِي الْعِشْرَة ، وَتَرْكُ الْمَدْحِ لَهُمْ فِي الْعَطِيَّةِ ، وَالتَّنَزُّهُ عَنْ ذَمِّهِمْ عِنْدَ الْمَنْع ، وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِه أَيْضًا: النَّظَرُ إِلَىٰ اللهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَالرُّجُوعُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ ، وَالاسْتِعَانَةُ بِهِ فِي كُلِّ حَالٍ .

حَقِيْقَةُ الفَقْرِ :

الْفَقْرُ الْحَقِيقِيُّ : دَوَامُ الافْتِقَارِ إِلَىٰ اللهِ فِي كُلِّ حَالٍ ، وَأَنْ يَشْهَدَ الْعَبْدُ - فِي كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ - فَاقَةً تَامَّةً إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ .

فَالْفَقْرُ ذَاتِيٌّ لِلْعَبْدِ ، وَإِنَّمَا يَتَجَدَّدُ لَهُ لِشُهُودِهِ وَوُجُودِهِ حَالًا ، وَإِلَّا فَهُوَ حَقِيقَةٌ ، كَمَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ - :

وَالْفَقْرُ لِي وَصْفُ ذَاتٍ لَازِمٌ أَبَدًا ... كَمَا الْغِنَىٰ أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِيُّ

أَرْكَانُ الْفَقْرِ :

أَرْكَانُ الْفَقْرِ أَرْبَعَةٌ : عِلْمٌ يَسُوسُهُ ، وَوَرَعٌ يَحْجِزُهُ ، وَيَقِينٌ يَحْمِلُهُ ، وَذِكْرٌ يُؤْنِسُهُ .

الفَقْرُ والغِنَى ابْتِلَاءٌ :

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ - :

وَالْفَقْرُ وَالْغِنَىٰ ابْتِلَاءٌ مِنَ اللهِ لِعَبْدِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾ [الفجر : ١٥-١٧] ، أَيْ لَيْسَ كُلُّ مَنْ وَسَّعْتُ عَلَيْهِ وَأَعْطَيْتُهُ : أَكُونُ قَدْ أَكْرَمْتُهُ ، وَلَا كُلُّ مَنْ ضَيَّقْتُ

عَلَيْهِ وَقَتَّرْتُ : أَكُونُ قَدْ أَهَنْتُهُ ، فَالْإِكْرَامُ : أَنْ يُكْرِمَ اللهُ الْعَبْدَ بِطَاعَتِهِ ، وَالْإِيمَانِ بِهِ ، وَمَحَبَّتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ ، وَالْإِهَانَةُ : أَنْ يَسْلُبَهُ ذَلِكَ .

قَالَ- يَعْنِي ابْنَ تَيْمِيَّةَ -: وَلَا يَقَعُ التَّفَاضُلُ بِالْغِنَىٰ وَالْفَقْرِ، بَلْ بِالتَّقْوَى، فَإِنِ اسْتَوَيَا فِي التَّقْوَىٰ اسْتَوَيَا فِي الدَّرَجَةِ ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ ذَلِكَ.

هِجْرَةُ الْقَلْبِ :

لِلَّهِ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ هِجْرَتَانِ ، وَهُمَا فَرْضٌ لَازِمٌ لَهُ عَلَىٰ الْأَنْفَاسِ :

* هِجْرَةٌ إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ ، وَالْإِنَابَةِ وَالْحُبِّ ، وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالْعُبُودِيَّةِ .

* وَهِجْرَةٌ إِلَىٰ رَسُولِهِ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: بِالتَّحْكِيمِ لَهُ وَالتَّسْلِيمِ وَالتَّفْوِيضِ ، وَالانْقِيَادِ لِحُكْمِهِ ، وَتَلَقِّي أَحْكَامِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ مِنْ مِشْكَاتِهِ ، فَيَكُونُ تَعَبُّدُهُ بِهِ أَعْظَمَ مِنْ تَعَبُّدِ الرَّكْبِ بِالدَّلِيلِ الْمَاهِرِ فِي ظُلَمِ اللَّيْلِ ، وَمَتَاهَاتِ الطَّرِيقِ .

فَمَا لَمْ يَكُنْ لِقَلْبِهِ هَاتَانِ الْهِجْرَتَانِ فَلْيَحْثُ عَلَىٰ رَأْسِهِ الرَّمَادَ ، وَلْيُرَاجِعِ الْإِيمَانَ مِنْ أَصْلِهِ ، فَيَرْجِعَ وَرَاءَهُ لِيَقْتَبِسَ نُورًا ، قَبْلَ أَنْ يُحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، وَيُقَالَ لَهُ ذَلِكَ عَلَىٰ الصِّرَاطِ مِنْ وَرَاءِ السُّورِ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ .

مَنْزِلَةُ الطُّمَأْنِيْنَةِ :

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرَّعْد: ٢٨] ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفَجْر: ٢٧-٣٠] .

الطُّمَأْنِينَةُ سُكُونُ الْقَلْب إِلَىٰ الشَّيْءِ ، وَعَدَمُ اضْطِرَابِهِ وَقَلَقِهِ ، وَمِنْهُ الْأَثَرُ الْمَعْرُوفُ «**الصِّدْقُ طُمَأْنِينَةٌ ، وَالْكَذِبُ رِيبَةٌ**»[١] ، أَي الصِّدْقُ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ قَلْبُ السَّامِعِ ، وَيَجِدُ عِنْدَهُ سُكُونًا إِلَيْهِ ، وَالْكَذِبُ يُوجِبُ لَهُ اضْطِرَابًا وَارْتِيَابًا ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ : -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ** »[٢] ، أَيْ سَكَنَ إِلَيْهِ وَزَالَ عَنْهُ اضْطِرَابُهُ وَقَلَقُهُ .

هِمَّتُكَ عَلَى قَدْرِ مَا أَهَمَّكَ :

أَنَّ هِمَّةَ الْعَبْدِ إِذَا تَعَلَّقَتْ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ طَلَبًا صَادِقًا خَالِصًا مَحْضًا ، فَتِلْكَ هِيَ الْهِمَّةُ الْعَالِيَةُ ، الَّتِي لَا يَتَمَالَكُ صَاحِبُهَا أَيْ : لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ الْمُهْلَةِ ، وَلَا يَتَمَالَكُ صَبْرُهُ ؛ لِغَلَبَةِ سُلْطَانِهِ عَلَيْهِ ، وَشِدَّةِ إِلْزَامِهَا إِيَّاهُ

---

(١)(صَحِيْحٌ) رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ (٦٠) ، وَصَحَّحَهُ العَلَّامَةُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي«سُنَنِ التِّرمِذِيِّ »(٢٠٤٥).

(٢) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ أَحْمَدُ (٤/ ٢٢٨)،صَحَّحَهُ العَلَّامَةُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيْحِ الجَامِع» (٢٨٨١) بِنَحْوِهِ .

بِطَلَبِ الْمَقْصُودِ ، وَلَا يَلْتَفِتُ عَنْهَا إِلَىٰ مَا سِوَىٰ أَحْكَامِهَا ، وَصَاحِبُ هَذِهِ الْهِمَّةِ : سَرِيعٌ وُصُولُهُ وَظَفَرُهُ بِمَطْلُوبِهِ ، مَا لَمْ تَعُقْهُ الْعَوَائِقُ ، وَتَقْطَعْهُ الْعَلَائِقُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ

مَنْزِلَةُ الْمَحَبَّةِ :

وَهِيَ الْمَنْزِلَةُ الَّتِي فِيهَا تَنَافَسَ الْمُتَنَافِسُونَ ، وَإِلَيْهَا شَخَصَ الْعَامِلُونَ، وَإِلَىٰ عِلْمِهَا شَمَّرَ السَّابِقُونَ ، وَعَلَيْهَا تَفَانَىٰ الْمُحِبُّونَ ، وَبِرُوحِ نَسِيمِهَا تَرَوَّحَ الْعَابِدُونَ ، فَهِيَ قُوتُ الْقُلُوبِ ، وَغِذَاءُ الْأَرْوَاحِ ، وَقُرَّةُ الْعُيُونِ، وَهِيَ الْحَيَاةُ الَّتِي مَنْ حُرِمَهَا فَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَمْوَاتِ ، وَالنُّورُ الَّذِي مَنْ فَقَدَهُ فَهُوَ فِي بِحَارِ الظُّلُمَاتِ ، وَالشِّفَاءُ الَّذِي مَنْ عَدِمَهُ حَلَّتْ بِقَلْبِهِ جَمِيعُ الْأَسْقَامِ ، وَاللَّذَّةُ الَّتِي مَنْ لَمْ يَظْفَرْ بِهَا فَعَيْشُهُ كُلُّهُ هُمُومٌ وَآلَامٌ .

وَهِيَ رُوحُ الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ، وَالْمَقَامَاتِ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي مَتَىٰ خَلَتْ مِنْهَا فَهِيَ كَالْجَسَدِ الَّذِي لَا رُوحَ فِيهِ ، تَحْمِلُ أَثْقَالَ السَّائِرِينَ إِلَىٰ بِلَادٍ لَمْ يَكُونُوا إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ بَالِغِيهَا ، وَتُوصِلُهُمْ إِلَىٰ مَنَازِلَ لَمْ يَكُونُوا بِدُونِهَا أَبَدًا وَاصِلِيهَا ، وَتُبَوِّؤُهُمْ مِنْ مَقَاعِدِ الصِّدْقِ مَقَامَاتٍ لَمْ يَكُونُوا لَوْلَاهَا دَاخِلِيهَا ، وَهِيَ مَطَايَا الْقَوْمِ الَّتِي مَسْرَاهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهَا دَائِمًا إِلَىٰ الْحَبِيبِ ، وَطَرِيقُهُمُ الْأَقْوَمُ الَّذِي يُبَلِّغُهُمْ إِلَىٰ مَنَازِلِهِمُ الْأُولَىٰ مِنْ قَرِيبٍ .

تَاللهِ لَقَدْ ذَهَبَ أَهْلُهَا بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، إِذْ لَهُمْ مِنْ مَعِيَّةِ مَحْبُوبِهِمْ أَوْفَرُ نَصِيبٍ ، وَقَدْ قَضَىٰ اللهُ - يَوْمَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ بِمَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ - : أَنَّ الْمَرْءَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ ، فَيَا لَهَا مِنْ نِعْمَةٍ عَلَىٰ الْمُحِبِّينَ سَابِغَةٍ .

تَاللهِ لَقَدْ سَبَقَ الْقَوْمُ السُّعَاةَ ، وَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِ الْفُرُشِ نَائِمُونَ ، وَقَدْ تَقَدَّمُوا الرَّكْبَ بِمَرَاحِلَ ، وَهُمْ فِي سَيْرِهِمْ وَاقِفُونَ .

مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِكَ الْمُدَلَّلِ تَمْشِي رُوَيْدًا وَتَجِي فِي الْأَوَّلِ

أَجَابُوا مُنَادِيَ الشَّوْقِ إِذْ نَادَى بِهِمْ: حَيَّ عَلَىٰ الْفَلَاحِ،وَبَذَلُوا نُفُوسَهُمْ فِي طَلَبِ الْوُصُولِ إِلَىٰ مَحْبُوبِهِمْ ، وَكَانَ بَذْلُهُمْ بِالرِّضَا وَالسَّمَاحِ ، وَوَاصَلُوا إِلَيْهِ الْمَسِيرَ بِالْإِدْلَاجِ وَالْغُدُوِّ وَالرَّوَاحِ ، تَاللهِ لَقَدْ حَمِدُوا عِنْدَ الْوُصُولِ سُرَاهُمْ ، وَشَكَرُوا مَوْلَاهُمْ عَلَىٰ مَا أَعْطَاهُمْ ، وَإِنَّمَا يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَىٰ عِنْدَ الصَّبَاحِ .

فَحَيَّهَلَا إِنْ كُنْتَ ذَا هِمَّةٍ فَقَدْ حَدَا بِكَ حَادِي الشَّوْقِ فَاطْوِ الْمَرَاحِلَا

وَقُلْ لِمُنَادِي حُبِّهِمْ وَرِضَاهُمْ إِذَا مَا دَعَا لَبَّيْكَ أَلْفًا كَوَامِلَا

وَلَا تَنْظُرِ الْأَطْلَالَ مِنْ دُونِهِمْ فَإِنْ نَظَرْتَ إِلَىٰ الْأَطْلَالِ عُدْنَ حَوَائِلَا

دَعْوَى المحَبَّةِ :

لَمَّا كَثُرَ الْمُدَّعُونَ لِلْمَحَبَّةِ طُولِبُوا بِإِقَامَةِ الْبَيِّنَةِ عَلَىٰ صِحَّةِ الدَّعْوَىٰ ، فَلَوْ يُعْطَىٰ النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادَّعَىٰ الْخَلِيُّ حُرْقَةَ الشَّجِيِّ ، فَتَنَوَّعَ الْمُدَّعُونَ فِي الشُّهُودِ ، فَقِيلَ : لَا تُقْبَلُ هَذِهِ الدَّعْوَىٰ إِلَّا بِبَيِّنَةٍ ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾ [آل عِمْرَان :٣١] .

فَتَأَخَّرَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ ، وَثَبَتَ أَتْبَاعُ الْحَبِيبِ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَخْلَاقِهِ، فَطُولِبُوا بِعَدَالَةِ الْبَيِّنَةِ بِتَزْكِيَةِ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ .

فَتَأَخَّرَ أَكْثَرُ الْمُحِبِّينَ وَقَامَ الْمُجَاهِدُونَ ، فَقِيلَ لَهُمْ : إِنَّ نُفُوسَ الْمُحِبِّينَ وَأَمْوَالَهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ ، فَهَلُمُّوا إِلَىٰ بَيْعَةِ ﴿ ۞ **إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ** ﴾ [التَّوْبَة:١١١] .

فَلَمَّا عَرَفُوا عَظَمَةَ الْمُشْتَرِي ، وَفَضْلَ الثَّمَنِ ، وَجَلَالَةَ مَنْ جَرَىٰ عَلَىٰ يَدَيْهِ عَقْدُ التَّبَايُعِ : عَرَفُوا قَدْرَ السِّلْعَةِ ، وَأَنَّ لَهَا شَأْنًا ، فَرَأَوْا مِنْ أَعْظَمِ الْغَبْنِ أَنْ يَبِيعُوهَا لِغَيْرِهِ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ، فَعَقَدُوا مَعَهُ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ بِالتَّرَاضِي ، مِنْ غَيْرِ ثُبُوتِ خِيَارٍ ، وَقَالُوا : وَاللهِ لَا نُقِيلُكَ وَلَا نَسْتَقِيلُكَ.

فَلَمَّا تَمَّ الْعَقْدُ وَسَلَّمُوا الْمَبِيعَ ،قِيلَ لَهُمْ : مُذْ صَارَتْ نُفُوسُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ لَنَا رَدَدْنَاهَا عَلَيْكُمْ أَوْفَرَ مَا كَانَتْ ، وَأَضْعَافَهَا مَعًا ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ**

قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ [آل عِمْرَان: ١٦٩-١٧٠] .

شَجَرَةُ الْمَحَبَّةِ :

إِذَا غُرِسَتْ شَجَرَةُ الْمَحَبَّةِ فِي الْقَلْبِ ، وَسُقِيَتْ بِمَاءِ الْإِخْلَاصِ ، وَمُتَابَعَةِ الْحَبِيبِ ، أَثْمَرَتْ أَنْوَاعَ الثِّمَارِ ، وَآتَتْ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا، أَصْلُهَا ثَابِتٌ فِي قَرَارِ الْقَلْبِ ، وَفَرْعُهَا مُتَّصِلٌ بِسِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ .

لَا يَزَالُ سَعْيُ الْمُحِبِّ صَاعِدًا إِلَىٰ حَبِيبِهِ ، لَا يَحْجُبُهُ دُونَهُ شَيْءٌ ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ .

الْأَسْبَابُ الْجَالِبَةُ لِلْمَحَبَّةِ :

الْأَسْبَابُ الْجَالِبَةُ لِلْمَحَبَّةِ ، وَالْمُوجِبَةُ لَهَا وَهِيَ عَشَرَةٌ :

أَحَدُهَا : قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّدَبُّرِ وَالتَّفَهُّمِ لِمَعَانِيهِ وَمَا أُرِيدَ بِهِ ، كَتَدَبُّرِ الْكِتَابِ الَّذِي يَحْفَظُهُ الْعَبْدُ وَيَشْرَحُهُ ، لِيَتَفَهَّمَ مُرَادَ صَاحِبِهِ مِنْهُ .

الثَّانِي : التَّقَرُّبُ إِلَىٰ اللهِ بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ ، فَإِنَّهَا تُوَصِّلُهُ إِلَىٰ دَرَجَةِ الْمَحْبُوبِيَّةِ بَعْدَ الْمَحَبَّةِ .

الثَّالِثُ : دَوَامُ ذِكْرِهِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ : بِاللِّسَانِ وَالْقَلْبِ ، وَالْعَمَلِ وَالْحَالِ ، فَنَصِيبُهُ مِنَ الْمَحَبَّةِ عَلَىٰ قَدْرِ نَصِيبِهِ مِنْ هَذَا الذِّكْرِ .

الرَّابِعُ : إِيثَارُ مَحَابِّهِ عَلَىٰ مَحَابِّكَ عِنْدَ غَلَبَاتِ الْهَوَىٰ ، وَالتَّسَنُّمُ إِلَىٰ مَحَابِّهِ، وَإِنْ صَعُبَ الْمُرْتَقَىٰ .

الْخَامِسُ : مُطَالَعَةُ الْقَلْبِ لِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَمُشَاهَدَتُهَا وَمَعْرِفَتُهَا ، وَتَقَلُّبُهُ فِي رِيَاضِ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ وَمَبَادِيهَا ، فَمَنْ عَرَفَ اللهَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ : أَحَبَّهُ لَا مَحَالَةَ ، وَلِهَذَا كَانَتِ الْمُعَطِّلَةُ وَالْفِرْعَوْنِيَّةُ وَالْجَهْمِيَّةُ قُطَّاعَ الطَّرِيقِ عَلَىٰ الْقُلُوبِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْوُصُولِ إِلَىٰ الْمَحْبُوبِ .

السَّادِسُ : مُشَاهَدَةُ بِرِّهِ وَإِحْسَانِهِ وَآلَائِهِ ، وَنِعَمِهِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ ، فَإِنَّهَا دَاعِيَةٌ إِلَىٰ مَحَبَّتِهِ .

السَّابِعُ : وَهُوَ مِنْ أَعْجَبِهَا ، انْكِسَارُ الْقَلْبِ بِكُلِّيَّتِهِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَعَالَى، وَلَيْسَ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ هَذَا الْمَعْنَىٰ غَيْرُ الْأَسْمَاءِ وَالْعِبَارَاتِ .

الثَّامِنُ : الْخَلْوَةُ بِهِ وَقْتَ النُّزُولِ الْإِلَهِيِّ ، لِمُنَاجَاتِهِ وَتِلَاوَةِ كَلَامِهِ ، وَالْوُقُوفِ بِالْقَلْبِ وَالتَّأَدُّبِ بِأَدَبِ الْعُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ خَتْمِ ذَلِكَ بِالِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ .

التَّاسِعُ : مُجَالَسَةُ الْمُحِبِّينَ الصَّادِقِينَ ، وَالْتِقَاطُ أَطَايِبِ ثَمَرَاتِ كَلَامِهِمْ كَمَا يَنْتَقِي أَطَايِبَ الثَّمَرِ ، وَلَا تَتَكَلَّمْ إِلَّا إِذَا تَرَجَّحَتْ مَصْلَحَةُ الْكَلَامِ ، وَعَلِمْتَ أَنَّ فِيهِ مَزِيدًا لِحَالِكَ ، وَمَنْفَعَةً لِغَيْرِكَ .

الْعَاشِرُ : مُبَاعَدَةُ كُلِّ سَبَبٍ يَحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- .

فمن هذه الأسباب العشرة : وَصَلَ الْمُحِبُّونَ إِلَىٰ مَنَازِلِ الْمَحَبَّةِ ، وَدَخَلُوا عَلَىٰ الْحَبِيبِ ، وَمِلَاكُ ذَلِكَ كُلِّه أَمْرَانِ : اسْتِعْدَادُ الرُّوحِ لِهَذَا الشَّأْنِ ، وَانْفِتَاحُ عَيْنِ الْبَصِيرَةِ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

آيةُ المحبَّةِ :

قَالَ اللهُ –تَعَالَى-: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** ﴾ [آل عِمْرَان :٣١] وَهِيَ تُسَمَّىٰ آيَةُ الْمَحَبَّةِ ، قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ : لَمَّا ادَّعَتِ الْقُلُوبُ مَحَبَّةَ اللهِ : أَنْزَلَ اللهُ لَهَا مِحْنَةً ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** ﴾ .

قال بعض السَّلف : ادَّعَىٰ قَوْمٌ مَحَبَّةَ اللهِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ آيَةَ الْمِحْنَةِ ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ **يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** ﴾ إِشَارَةٌ إِلَىٰ دَلِيلِ الْمَحَبَّةِ وَثَمَرَتِهَا ، وَفَائِدَتِهَا، فَدَلِيلُهَا وَعَلَامَتُهَا : اتِّبَاعُ الرَّسُولِ ، وَفَائِدَتُهَا وَثَمَرَتُهَا : مَحَبَّةُ الْمُرْسِلِ لَكُمْ ، فَمَا لَمْ تَحْصُلِ الْمُتَابَعَةُ ، فَلَيْسَتْ مَحَبَّتُكُمْ لَهُ حَاصِلَةً ، وَمَحَبَّتُهُ لَكُمْ مُنْتَفِيَةً .

مَراتِبُ المحبَّةِ:

أَوَّلُها : الْعَلَاقَةُ ، وَسُمِّيَتْ عَلَاقَةً لِتَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِالْمَحْبُوبِ .

قَالَ الشَّاعِرُ:

أَعَـلَاقَـةً أُمَّ الْوَلِيدِ بُعَيْدَ مَا أَفْنَانُ رَأْسِكِ كَالثَّغَامِ الْمُخْلِسِ

الثَّانِيَةُ: الْإِرَادَةُ، وَهِيَ مَيْلُ الْقَلْبِ إِلَىٰ مَحْبُوبِهِ وَطَلَبُهُ لَهُ.

الثَّالِثَةُ: الصَّبَابَةُ، وَهِيَ انْصِبَابُ الْقَلْبِ إِلَيْهِ، بِحَيْثُ لَا يَمْلِكُهُ صَاحِبُهُ، كَانْصِبَابِ الْمَاءِ فِي الْحُدُورِ، فَاسْمُ الصِّفَةِ مِنْهَا صَبٌّ وَالْفِعْلُ صَبَا إِلَيْهِ يَصْبُو صَبًا، وَصَبَابَةً، فَعَاقَبُوا بَيْنَ الْمُضَاعِفِ وَالْمُعْتَلِّ، وَجَعَلُوا الْفِعْلَ مِنَ الْمُعْتَلِّ وَالصِّفَةَ مِنَ الْمُضَاعَفِ.

وَيُقَالُ: صَبَا وَصَبْوَةً، وَصَبَابَةً، فَالصَّبَا: أَصْلُ الْمَيْلِ، وَالصَّبْوَةُ: فَوْقَهُ، وَالصَّبَابَةُ: الْمَيْلُ اللَّازِمُ، وَانْصِبَابُ الْقَلْبِ بِكُلِّيَّتِهِ.

الرَّابِعَةُ: الْغَرَامُ وَهُوَ الْحُبُّ اللَّازِمُ لِلْقَلْبِ، الَّذِي لَا يُفَارِقُهُ، بَلْ يُلَازِمُهُ كَمُلَازَمَةِ الْغَرِيمِ لِغَرِيمِهِ، وَمِنْهُ سُمِّيَ عَذَابُ النَّارِ غَرَامًا لِلُزُومِهِ لِأَهْلِهِ، وَعَدَمِ مُفَارَقَتِهِ لَهُمْ، قَالَ -تَعَالَى-: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفُرْقَان:٦٥].

الْخَامِسَةُ: الْوِدَادُ وَهُوَ صَفْوُ الْمَحَبَّةِ، مَرَاتِبُهَا عَشَرَةٌ وَخَالِصُهَا وَلُبُّهَا، وَالْوَدُودُ مِنْ أَسْمَاءِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ، وَفِيهِ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ الْمَوْدُودُ، قَالَ الْبُخَارِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي صَحِيحِهِ:

الْوَدُودُ الْحَبِيبُ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُ الْوَادُّ لِعِبَادِهِ ، أَيِ الْمُحِبُّ لَهُمْ ، وَقَرَنَهُ بِاسْمِهِ الْغَفُورِ إِعْلَامًا بِأَنَّهُ يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيُحِبُّ التَّائِبَ مِنْهُ ، وَيَوَدُّهُ ، فَحَظُّ التَّائِبِ : نَيْلُ الْمَغْفِرَةِ مِنْهُ .

وَعَلَىٰ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ " الْوَدُودُ " فِي مَعْنًىٰ يَكُونُ سِرُّ الِاقْتِرَانِ ، أَيِ اقْتِرَانُ " الْوَدُودِ بِالْغَفُورِ " اسْتِدْعَاءَ مَوَدَّةِ الْعِبَادِ لَهُ ، وَمَحَبَّتِهِمْ إِيَّاهُ بِاسْمِ الْغَفُورِ .

السَّادِسَةُ : الشَّغَفُ يُقَالُ : شُغِفَ بِكَذَا ، فَهُوَ مَشْغُوفٌ بِهِ ، وَقَدْ شَغَفَهُ الْمَحْبُوبُ ، أَيْ وَصَلَ حُبُّهُ إِلَىٰ شَغَافِ قَلْبِهِ ، كَمَا قَالَ النِّسْوَةُ عَنِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [يُوسُف : ٣٠] .

وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ :

أَحَدُهَا : أَنَّهُ الْحُبُّ الْمُسْتَوْلِي عَلَىٰ الْقَلْبِ ، بِحَيْثُ يَحْجُبُهُ عَنْ غَيْرِهِ ، قَالَ الْكَلْبِيُّ : حَجَبَ حُبُّهُ قَلْبَهَا حَتَّىٰ لَا تَعْقِلَ سِوَاهُ .

الثَّانِي : الْحُبُّ الْوَاصِلُ إِلَىٰ دَاخِلِ الْقَلْبِ ، قَالَ صَاحِبُ هَذَا الْقَوْلِ : الْمَعْنَىٰ أَحَبَّتْهُ حَتَّىٰ دَخَلَ حُبُّهُ شَغَافَ قَلْبِهَا ، أَيْ دَاخِلَهُ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ الْحُبُّ الْوَاصِلُ إِلَىٰ غِشَاءِ الْقَلْبِ ، وَالشَّغَافُ غِشَاءُ الْقَلْبِ إِذَا وَصَلَ الْحُبُّ إِلَيْهِ بَاشَرَ الْقَلْبَ ، قَالَ السُّدِّيُّ : الشَّغَافُ جِلْدَةُ

رَقِيقَةٌ عَلَىٰ الْقَلْبِ ، يَقُولُ : دَخَلَهُ الْحُبُّ حَتَّىٰ أَصَابَ الْقَلْبَ .

وَقَرَأَ بَعْضُ السَّلَفِ " شَعَفَهَا " بِالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ ، وَمَعْنَاهُ : ذَهَبَ الْحُبُّ بِهَا كُلَّ مَذْهَبٍ ، وَبَلَغَ بِهَا أَعْلَىٰ مَرَاتِبِهِ ، وَمِنْهُ : شَعَفُ الْجِبَالِ ، لِرُءُوسِهَا.

السَّابِعَةُ : الْعِشْقُ وَهُوَ الْحُبُّ الْمُفْرِطُ الَّذِي يُخَافُ عَلَىٰ صَاحِبِهِ مِنْهُ، وَعَلَيْهِ تَأَوَّلَ إِبْرَاهِيمُ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ ﴿ **وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ** ﴾ [الْبَقَرَةُ : ٢٨٦] ، قَالَ مُحَمَّدٌ : هُوَ الْعِشْقُ .

وَرُفِعَ إِلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - شَابٌّ وَهُوَ يَعْرِفُهُ - قَدْ صَارَ كَالْخَلَالِ ، فَقَالَ : مَا بِهِ ؟ ، قَالُوا : الْعِشْقُ ، فَجَعَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - عَامَّةَ دُعَائِهِ بِعَرَفَةَ : الِاسْتِعَاذَةَ مِنَ الْعِشْقِ .

وَفِي اشْتِقَاقِهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ مِنَ الْعَشَقَةِ - مُحَرَّكَةً - وَهِيَ نَبْتٌ أَصْفَرُ يَلْتَوِي عَلَىٰ الشَّجَرِ ، فَشُبِّهَ بِهِ الْعَاشِقُ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُ مِنَ الْإِفْرَاطِ ، وَعَلَىٰ الْقَوْلَيْنِ : فَلَا يُوصَفُ بِهِ الرَّبُّ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -، وَلَا الْعَبْدُ فِي مَحَبَّةِ رَبِّهِ ، وَإِنْ أَطْلَقَهُ سَكْرَانُ مِنَ الْمَحَبَّةِ قَدْ أَفْنَاهُ الْحُبُّ عَنْ تَمْيِيزِهِ ، كَانَ فِي خِفَارَةِ صِدْقِهِ وَمَحَبَّتِهِ .

الثَّامِنَةُ : التَّتَيُّمُ وَهُوَ التَّعَبُّدُ ، وَالتَّذَلُّلُ ، يُقَالُ : تَيَّمَهُ الْحُبُّ أَيْ ذَلَّلَهُ وَعَبَّدَهُ ، وَتَيْمُ اللهِ : عَبْدُ اللهِ ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْيُتْمِ - الَّذِي هُوَ الِانْفِرَادُ - تَلَاقٍ فِي الِاشْتِقَاقِ الْأَوْسَطِ ، وَتَنَاسُبٌ فِي الْمَعْنَىٰ ، فَإِنَّ الْمُتَيَّمَ الْمُنْفَرِدُ

بِحُبِّهِ وَشَجْوِهِ ، كَانْفِرَادِ الْيَتِيمِ بِنَفْسِهِ عَنْ أَبِيهِ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا مَكْسُورٌ ذَلِيلٌ، هَذَا كَسْرَهُ يُتْمٌ ، وَهَذَا كَسْرَهُ تَتَيُّمٌ .

التَّاسِعَةُ : التَّعَبُّدُ وَهُوَ فَوْقَ التَّتَيُّمِ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ هُوَ الَّذِي قَدْ مَلَكَ الْمَحْبُوبُ رِقَّهُ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ نَفْسِهِ أَلْبَتَّةَ ، بَلْ كُلُّهُ عَبْدٌ لِمَحْبُوبِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ ، وَمَنْ كَمَّلَ ذَلِكَ فَقَدْ كَمَّلَ مَرْتَبَتَهَا .

وَلَمَّا كَمَّلَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ : وَصَفَهُ اللهُ بِهَا فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهِ، مَقَامِ الْإِسْرَاءِ، كَقَوْلِهِ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإِسْرَاء : ١]، وَمَقَامِ الدَّعْوَةِ ، كَقَوْلِهِ ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجنّ :١٩] ، وَمَقَامِ التَّحَدِّي ، كَقَوْلِهِ ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البَقَرَة : ٢٣] ، وَبِذَلِكَ اسْتَحَقَّ التَّقْدِيمَ عَلَى الْخَلَائِقِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَكَذَلِكَ يَقُولُ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَهُمْ ، إِذَا طَلَبُوا مِنْهُ الشَّفَاعَةَ - بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - « **اذْهَبُوا إِلَىٰ مُحَمَّدٍ ، عَبْدٍ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ** » [١] .

سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَةَ - قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ - يَقُولُ: فَحَصَلَتْ لَهُ تِلْكَ الْمَرْتَبَةُ ، بِتَكْمِيلِ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ ، وَكَمَالِ مَغْفِرَةِ اللهِ لَهُ .

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٣٤٠) ، وَمُسْلِمٌ (١٩٤) .

وَحَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ : الْحُبُّ التَّامُّ ، مَعَ الذُّلِّ التَّامِّ وَالْخُضُوعِ لِلْمَحْبُوبِ، تَقُولُ الْعَرَبُ طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ أَيْ قَدْ ذَلَّلَتْهُ الأَقْدَامُ وَسَهَّلَتْهُ .

الْعَاشِرَةُ : مَرْتَبَةُ الْخُلَّةِ الَّتِي انْفَرَدَ بِهَا الْخَلِيلَانِ - إِبْرَاهِيمُ وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ - كَمَا صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : « **إِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا ، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا** » (١) .

وَقَالَ : « **لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا ؛ لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ** » (٢) ، وَالْحَدِيثَانِ فِي الصَّحِيحِ.

وَهُمَا يُبْطِلَانِ قَوْلَ مَنْ قَالَ: الْخُلَّةُ لِإِبْرَاهِيمَ ، وَالْمَحَبَّةُ لِمُحَمَّدٍ ، فَإِبْرَاهِيمُ خَلِيلُهُ وَمُحَمَّدٌ حَبِيبُهُ .

عَلَامَةُ مَحَبَّةِ اللهِ لِلْعَبْدِ :

إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا أَنْشَأَ فِي قَلْبِهِ مَحَبَّتَهُ .

الْوَقْتُ عِنْدَ الْعَابِدِ :

فَالْوَقْتُ مُنْقَضٍ بِذَاتِهِ ، مُنْصَرِمٌ بِنَفْسِهِ، فَمَنْ غَفَلَ عَنْ نَفْسِهِ تَصَرَّمَتْ أَوْقَاتُهُ ، وَعَظُمَ فَوَاتُهُ ، وَاشْتَدَّتْ حَسَرَاتُهُ ، فَكَيْفَ حَالُهُ إِذَا عَلِمَ عِنْدَ

---

(١) (ضَعِيفٌ) : رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ (١٤١) ، وَضَعَّفَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «ضَعِيفِ سُنَنِ ابْنُ مَاجَهْ » (٢٦) .

(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٦٥٤) ، وَمُسْلِمٌ (٢٣٨٣) .

تَحَقُّق الْفَوْتِ مِقْدَارَ مَا أَضَاعَ ، وَطَلَبَ الرُّجْعَىٰ فَحِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الِاسْتِرْجَاعِ وَطَلَبِ تَنَاوُلِ الْفَائِتِ .

وَكَيْفَ يُرَدُّ الْأَمْسُ فِي الْيَوْمِ الْجَدِيدِ ؟ ، ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴾ [سَبَأ : ٥٢] .

أَنْوَاعُ الْوِلَادَةِ :

سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَةَ -رَحِمَهُ اللهُ - يَذْكُرُ ذَلِكَ ، وَيُفَسِّرُهُ بِأَنَّ الْوِلَادَةَ نَوْعَانِ :

أَحَدُهُمَا : هَذِهِ الْمَعْرُوفَةُ .

وَالثَّانِيَةُ : وِلَادَةُ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَخُرُوجُهُمَا مِنْ مَشِيمَةِ النَّفْسِ ، وَظُلْمَةِ الطَّبْعِ .

قَالَ : وَهَذِهِ الْوِلَادَةُ لَمَّا كَانَتْ بِسَبَبِ الرَّسُولِ كَانَ كَالْأَبِ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَقَدْ قَرَأَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[الأَحْزَاب:٦] ، وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ .

قَالَ : وَمَعْنَىٰ هَذِهِ الْآيَةِ وَالْقِرَاءَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ [الأَحْزَاب:٦] إِذْ ثُبُوتُ أُمُومَةِ أَزْوَاجِهِ لَهُمْ : فَرْعٌ عَنْ ثُبُوتِ أُبُوَّتِهِ .

قَالَ : فَالشَّيْخُ وَالْمُعَلِّمُ وَالْمُؤَدِّبُ أَبُ الرُّوحِ ، وَالْوَالِدُ أَبُ الْجِسْمِ .

أَقْسَامُ النَّاسِ فِي السَّيْرِ إِلَى اللهِ :

وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْمَقَامِ ثَلَاثَةٌ : عَبْدٌ مَحْضٌ ، وَحُرٌّ مَحْضٌ ، وَمُكَاتِبٌ قَدْ أَدَّىٰ بَعْضَ كِتَابَتِهِ ، وَهُوَ يَسْعَىٰ فِي بَقِيَّةِ الْأَدَاءِ .

فَالْعَبْدُ الْمَحْضُ : عَبْدُ الْمَاءِ وَالطِّينِ الَّذِي قَدِ اسْتَعْبَدَتْهُ نَفْسُهُ وَشَهْوَتُهُ، وَمَلَكَتْهُ وَقَهَرَتْهُ ، فَانْقَادَ لَهَا انْقِيَادَ الْعَبْدِ إِلَىٰ سَيِّدِهِ الْحَاكِمِ عَلَيْهِ .

وَالْحُرُّ الْمَحْضُ : هُوَ الَّذِي قَهَرَ شَهْوَتَهُ وَنَفْسَهُ وَمَلَكَهَا ، فَانْقَادَتْ مَعَهُ، وَذَلَّتْ لَهُ وَدَخَلَتْ تَحْتَ رِقِّهِ وَحُكْمِهِ .

وَالْمُكَاتِبُ : مَنْ قَدْ عُقِدَ لَهُ سَبَبُ الْحُرِّيَّةِ ، وَهُوَ يَسْعَىٰ فِي كَمَالِهَا ، فَهُوَ عَبْدٌ مِنْ وَجْهٍ حُرٌّ مِنْ وَجْهٍ ، وَبِالْبَقِيَّةِ الَّتِي بَقِيَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَدَاءِ يَكُونُ عَبْدًا مَا بَقِيَ عَلَيْهِ دِرْهَمٌ ، فَهُوَ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ حَظٌّ مِنْ حُظُوظِ نَفْسِهِ .

فَالْحُرُّ مَنْ تَخَلَّصَ مِنْ رِقِّ الْمَاءِ وَالطِّينِ ، وَفَازَ بِعُبُودِيَّةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَاجْتَمَعَتْ لَهُ الْعُبُودِيَّةُ وَالْحُرِّيَّةُ ، فَعُبُودِيَّتُهُ مِنْ كَمَالِ حُرِّيَّتِهِ ، وَحُرِّيَّتُهُ مِنْ كَمَالِ عُبُودِيَّتِهِ .

حَلَاوَةُ الْإِيمَانِ :

وَالْمَقْصُودُ : إِنَّ ذَوْقَ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ ، أَمْرٌ يَجِدُهُ الْقَلْبُ ،

تَكُونُ نِسْبَتُهُ إِلَيْهِ كَنِسْبَةِ ذَوْقِ حَلَاوَةِ الطَّعَامِ إِلَىٰ الْفَمِ ، وَذَوْقِ حَلَاوَةِ الْجِمَاعِ إِلَىٰ إِلْفَةِ النَّفْسِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «**حَتَّىٰ تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ ، وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ**»[1] .

فَلِلْإِيمَانِ طَعْمٌ وَحَلَاوَةٌ يَتَعَلَّقُ بِهِمَا ذَوْقٌ وَوَجْدٌ ، وَلَا تَزُولُ الشُّبَهُ وَالشُّكُوكُ عَنِ الْقَلْبِ إِلَّا إِذَا وَصَلَ الْعَبْدُ إِلَىٰ هَذِهِ الْحَالِ ، فَبَاشَرَ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ حَقِيقَةَ الْمُبَاشَرَةِ ، فَيَذُوقَ طَعْمَهُ وَيَجِدَ حَلَاوَتَهُ ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ .

مَا يَقْطَعُ الأَمَلَ :

قُوَّةُ رَغْبَتِهِ فِي الْمَطْلَبِ الْأَعْلَىٰ ، الَّذِي لَيْسَ شَيْءٌ أَعْلَىٰ مِنْهُ ، وَمَعْرِفَتُهُ بِخِسَّةِ مَا يُؤَمَّلُ دُونَهُ، وَسُرْعَةِ ذَهَابِهِ ، فَيُوشِكُ انْقِطَاعُهُ ، وَأَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ كَخَيَالِ طَيْفٍ ، أَوْ سَحَابَةِ صَيْفٍ ، فَهُوَ ظِلٌّ زَائِلٌ ، وَنَجْمٌ قَدْ تَدَلَّىٰ لِلْغُرُوبِ ، فَهُوَ عَنْ قَرِيبٍ آفِلٌ .

قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **مَا لِي وَلِلدُّنْيَا ؟ ، إِنَّمَا أَنَا كَرَاكِبٍ قَالَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»[2] ،وَقَالَ : « **مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ؛ إِلَّا كَمَا يُدْخِلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ ، فَلْيَنْظُرْ: بِمَ تَرْجِعُ ؟**»[3]، فَشَبَّهَ الدُّنْيَا

---

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٦٣٩) ، وَمُسْلِمٌ (١٤٣٣) .

(٢) (صَحِيْحٌ) : رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٤٤) ، وَابْنُ مَاجَهْ (٤١٠٩) ،وَصَحَّحَهُ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ ابْنُ مَاجَهْ » (٣٣١٧) .

(٣) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٨٥٨) ، وَالتِّرْمِذِيُّ (١٥) .

فِي جَنْبِ الْآخِرَةِ بِمَا يَعْلَقُ عَلَىٰ الْإِصْبَعِ مِنَ الْبَلَلِ حِينَ تُغْمَسُ فِي الْبَحْرِ .

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – : لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَىٰ آخِرِهَا أُوتِيهَا رَجُلٌ ، ثُمَّ جَاءَهُ الْمَوْتُ : لَكَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ رَأَىٰ فِي مَنَامِهِ مَا يَسُرُّهُ ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ فَإِذَا لَيْسَ فِي يَدِهِ شَيْءٌ .

تَفَاوُتُ الهِمَمِ فِي السَّيْرِ إِلَى اللهِ :

فَلِلَّهِ هِمَّةُ نَفْسٍ قَطَعَتْ جَمِيعَ الْأَكْوَانِ، وَسَارَتْ فَمَا أَلْقَتْ عَصَا السَّيْرِ إِلَّا بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَسَجَدَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ سَجْدَةَ الشُّكْرِ عَلَىٰ الْوُصُولِ إِلَيْهِ ، فَلَمْ تَزَلْ سَاجِدَةً حَتَّىٰ قِيلَ لَهَا ﴿ **يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى (٢٩) وَٱدْخُلِى جَنَّتِى (٣٠)** ﴾ [الفَجْرُ : ٢٧-٣٠] .

فَسُبْحَانَ مَنْ فَاوَتَ بَيْنَ الْخَلْقِ فِي هِمَمِهِمْ، حَتَّىٰ تَرَىٰ بَيْنَ الْهِمَّتَيْنِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقَيْنِ وَالْمَغْرِبَيْنِ، بَلْ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ أَسْفَلِ سَافِلِينَ وَأَعْلَىٰ عِلِّيِّينَ، وَتِلْكَ مَوَاهِبُ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿ **ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٢١)** ﴾ [الحَدِيْد : ٢١].

الفَرَحُ بِاللهِ :

وَمِنْ أَعْظَمِ مَقَامَاتِ الْإِيمَانِ : الْفَرَحُ بِاللهِ ، وَالسُّرُورُ بِهِ ، فَيَفْرَحُ بِهِ إِذْ هُوَ عَبْدُهُ وَمُحِبُّهُ ، وَيَفْرَحُ بِهِ سُبْحَانَهُ رَبًّا وَإِلَهًا ، وَمُنْعِمًا وَمُرَبِّيًا ، أَشَدَّ مِنْ

فَرَح الْعَبْدِ بِسَيِّدِه الْمَخْلُوق الْمُشْفق عَلَيْهِ ، الْقَادر عَلَىٰ مَا يُرِيدُهُ الْعَبْدُ وَيَطْلُبُهُ مِنْهُ ، الْمُتَنَوِّعُ فِي الإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَالذَّبِّ عَنْهُ .

مَنْ وُكِلَ إِلَى نَفْسِهِ فَقَدْ هَلَكَ :

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ -رَحِمَهُ اللَّهُ- : حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ - مَوْلَىٰ بَنِي هَاشِمٍ- حَدَّثَنَا الصَّلْتُ بْنُ طَرِيفٍ الْمَعْوَلِيِّ حَدَّثَنَا غَيْلَانُ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ مُطَرِّفٍ قَالَ : وَجَدْتُ هَذَا الإِنْسَانَ مُلْقًىٰ بَيْنَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَبَيْنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنْ يَعْلَمِ اللهُ تَعَالَىٰ فِي قَلْبِهِ خَيْرًا : جَبَذَهُ إِلَيْهِ ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ فِيهِ خَيْرًا : وَكَلَهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ ، وَمَنْ وَكَلَهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ فَقَدْ هَلَكَ .

نُورُ الإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ وَالإِحْسَانِ :

فَالإِسْلَامُ لَهُ نُورٌ ، وَالإِيمَانُ لَهُ نُورٌ أَقْوَىٰ مِنْهُ ، وَالإِحْسَانُ لَهُ نُورٌ أَقْوَىٰ مِنْهُمَا ، فَإِذَا اجْتَمَعَ الإِسْلَامُ وَالإِيمَانُ وَالإِحْسَانُ ، وَزَالَتِ الْحُجُبُ الشَّاغِلَةُ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ : امْتَلأَ الْقَلْبُ وَالْجَوَارِحُ بِذَلِكَ النُّورِ.

تَفَاوُتُ السَّالِكِينَ فِي السَّيْرِ إِلَى اللهِ :

فَمِنَ السَّالِكِينَ : مَنْ يَكُونُ سَيْرُهُ بِبَدَنِهِ وَجَوَارِحِهِ أَغْلَبَ عَلَيْهِ مِنْ سَيْرِهِ بِقَلْبِهِ وَرُوحِهِ .

وَمِنْهُمْ : مَنْ سَيْرُهُ بِقَلْبِهِ أَغْلَبُ عَلَيْهِ ، أَعْنِي قُوَّةَ سَيْرِهِ وَحِدَّتَهُ .

وَمِنْهُمْ : - وَهُمُ الْكُمَّلُ الْأَقْوِيَاءُ - مَنْ يُعْطِي كُلَّ مَرْتَبَةٍ حَقَّهَا ، فَيَسِيرُ إِلَىٰ اللهِ بِبَدَنِهِ وَجَوَارِحِهِ ، وَقَلْبِهِ وَرُوحِهِ .

لا تَنْفَعُ رُسُومُ الصُّوفِيَّةِ ولاَ شَطَحَاتِهِمْ :

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ : رَأَيْتُ الْجُنَيْدَ فِي النَّوْمِ ، فَقُلْتُ : مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟، فَقَالَ : طَاحَتْ تِلْكَ الإِشَارَاتُ ، وَغَابَتْ تِلْكَ الْعِبَارَاتُ ، وَفَنِيَتْ تِلْكَ الْعُلُومُ ، وَنَفِدَتْ تِلْكَ الرُّسُومُ ، وَمَا نَفَعَنَا إِلَّا رَكَعَاتٌ كُنَّا نَرْكَعُهَا فِي الْأَسْحَارِ .

وَتَذَاكَرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ أَهْلَ الْمَعْرِفَةِ ، وَمَا اسْتَهَانُوا بِهِ مِنَ الْأَوْرَادِ وَالْعِبَادَاتِ بَعْدَمَا وَصَلُوا إِلَيْهِ ؟ فَقَالَ الْجُنَيْدُ : الْعِبَادَةُ عَلَىٰ الْعَارِفِينَ أَحْسَنُ مِنَ التِّيجَانِ عَلَىٰ رُءُوسِ الْمُلُوكِ ، وَقَالَ : الطُّرُقُ كُلُّهَا مَسْدُودَةٌ عَلَىٰ الْخَلْقِ ، إِلَّا مَنِ اقْتَفَىٰ أَثَرَ الرَّسُولِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ، وَاتَّبَعَ سُنَّتَهُ ، وَلَزِمَ طَرِيقَتَهُ ، فَإِنَّ طُرُقَ الْخَيْرَاتِ كُلَّهَا مَفْتُوحَةٌ عَلَيْهِ ، وَقَالَ : مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَصِلُ بِبَذْلِ الْمَجْهُودِ فَمُتَعَنٍّ ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَصِلُ بِغَيْرِ بَذْلِ الْمَجْهُودِ فَمُتَمَنٍّ .

وَقَالَ أَبُو نُعَيْمٍ : سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ : سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ جَعْفَرِ بْنِ هَانِئٍ يَقُولُ: سَأَلْتُ الْجُنَيْدَ، مَا عَلَامَةُ الإِيمَانِ؟، فَقَالَ : عَلَامَتُهُ طَاعَةُ مَنْ آمَنْتَ بِهِ ، وَالْعَمَلُ بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، وَتَرْكُ التَّشَاغُلِ عَنْهُ بِمَا يَنْقَضِي وَيَزُولُ.

فَرَحْمَةُ اللهِ عَلَىٰ أَبِي الْقَاسِمِ الْجُنَيْدِ وَرَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، مَا أَتْبَعهُ لِسُنَّةِ الرَّسُولِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَمَا أَقْفَاهُ لِطَرِيْقَةِ أَصْحَابِهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - .

مَقَامُكَ حَيْثُ الْمَوْلَى أَقَامَكَ :

وَالصَّادِقُ : يَنْتَظِرُ الْفَرَجَ ، وَلَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ ، وَيُلْقِي نَفْسَهُ بِالْبَابِ طَرِيحًا ذَلِيلًا مِسْكِينًا مُسْتَكِينًا ، كَالْإِنَاءِ الْفَارِغِ الَّذِي لَا شَيْءَ فِيهِ أَلْبَتَّةَ ، يَنْتَظِرُ أَنْ يَضَعَ فِيهِ مَالِكُ الْإِنَاءِ وَصَانِعُهُ مَا يَصْلُحُ لَهُ ، لَا بِسَبَبٍ مِنَ الْعَبْدِ - وَإِنْ كَانَ هَذَا الِافْتِقَارُ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ - لَكِنْ لَيْسَ هُوَ مِنْكَ ، بَلْ هُوَ الَّذِي مَنَّ عَلَيْكَ بِهِ ، وَجَرَّدَكَ مِنْكَ ، وَأَخْلَاكَ عَنْكَ ، وَهُوَ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .

فَإِذَا رَأَيْتَهُ قَدْ أَقَامَكَ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَرْحَمَكَ وَيَمْلَأَ إِنَاءَكَ ، فَإِنْ وَضَعْتَ الْقَلْبَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ قَلْبٌ مُضَيَّعٌ، فَسَلْ رَبَّهُ وَمَنْ هُوَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ : أَنْ يَرُدَّهُ عَلَيْكَ وَيَجْمَعَ شَمْلَكَ بِهِ .

وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ :

إِذَا مَا وَضَعْتَ الْقَلْبَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ   بِغَيْرِ إِنَـاءٍ فَهُوَ قَلْبٌ مُضَيَّعُ

أَحْسَنُ مَا عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ :

قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - : صَحِبْتُ الصُّوفِيَّةَ ، فَمَا انْتَفَعْتُ مِنْهُمْ إِلَّا بِكَلِمَتَيْنِ ، سَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ : الْوَقْتُ سَيْفٌ ، فَإِنْ قَطَعْتَهُ وَإِلَّا قَطَعَكَ ، وَنَفْسُكَ إِنْ لَمْ تَشْغَلْهَا بِالْحَقِّ ، وَإِلَّا شَغَلَتْكَ بِالْبَاطِلِ .

نِعْمَةُ الإِنْتِفَاعِ بِالوَقْتِ :

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِالْعَبْدِ خَيْرًا : أَعَانَهُ بِالْوَقْتِ ، وَجَعَلَ وَقْتَهُ مُسَاعِدًا لَهُ ، وَإِذَا أَرَادَ بِهِ شَرًّا : جَعَلَ وَقْتَهُ عَلَيْهِ ، وَنَاكَدَهُ وَقْتَهُ ، فَكُلَّمَا أَرَادَ التَّأَهُّبَ لِلْمَسِيرِ : لَمْ يُسَاعِدْهُ الْوَقْتُ ، وَالأَوَّلُ : كُلَّمَا هَمَّتْ نَفْسُهُ بِالْقُعُودِ أَقَامَهُ الْوَقْتُ وَسَاعَدَهُ .

أَقْصَرُ طَرِيْقٍ إِلَى اللهِ :

فَالطَّرِيقُ مَسْدُودَةٌ إِلَّا عَلَىٰ مَنِ اقْتَفَىٰ آثَارَ الرَّسُولِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ، وَاقْتَدَىٰ بِهِ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ .

فَلَا يَتَعَنَّىٰ السَّالِكُ عَلَىٰ غَيْرِ هَذَا الطَّرِيقِ ، فَلَيْسَ حَظُّهُ مِنْ سُلُوكِهِ إِلَّا التَّعَبَ ، وَأَعْمَالُهُ ﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

[النُّور:٣٩] .

وَلَا يَتَعَنَّىٰ السَّالكُ عَلَىٰ هَذَا الطَّرِيق ، فَإِنَّهُ وَاصِلٌ وَلَوْ زَحفَ زَحْفًا، فَأَتْبَاعُ الرَّسُولِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِذَا قَعَدَتْ بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ ، قَامَتْ بِهِمْ عَزَائِمُهُمْ وَهِمَمُهُمْ وَمُتَابَعَتُهُمْ لِنَبِيِّهِمْ .

كَمَا قِيلَ :

مَـنْ لِي بِمِثْلِ سَـيْرِكَ الْمُدَلَّلِ ... تَمْـشِي رُوَيْـدًا وَتَجِـي فِي الْأَوَّلِ

هِمَّةُ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ :

وَأَعْلَى الْهِمَم : هِمَّةٌ اتَّصَلَتْ بِالْحَقِّ سُبْحَانَهُ طَلَبًا وَقَصْدًا ، وَأَوْصَلَتِ الْخَلْقَ إِلَيْهِ دَعْوَةً وَنُصْحًا ، وَهَذِهِ هِمَّةُ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ ، وَصِحَّتُهَا : بِتَمْيِيزِهَا مِن انْقِسَام طَلَبِهَا وَانْقِسَام مَطْلُوبِهَا وَانْقِسَام طَرِيقِهَا ، بَلْ تَوَحَّدَ مَطْلُوبُهَا بِالْإِخْلَاصِ ، وَطَلَبُهَا بِالصِّدْق ، وَطَرِيقُهَا بِالسُّلُوكِ خَلْفَ الدَّلِيلِ الَّذِي نَصَبَهُ اللَّهُ دَلِيلًا ، لَا مَنْ نَصَبَهُ هُوَ دَلِيلًا لِنَفْسِهِ .

وَلِلَّهِ الْهِمَمُ ! مَا أَعْجَبَ شَأْنَهَا ، وَأَشَدَّ تَفَاوُتَهَا ، فَهِمَّةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَنْ فَوْقَ الْعَرْشِ ، وَهِمَّةٌ حَائِمَةٌ حَوْلَ الْأَنْتَانِ وَالْحُشِّ ، وَالْعَامَّةُ تَقُولُ : قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ . وَالْخَاصَّةُ تَقُولُ : قِيمَةُ الْمَرْءِ مَا يَطْلُبُهُ ، وَخَاصَّةُ الْخَاصَّةِ تَقُولُ : هِمَّةُ الْمَرْءِ إِلَى مَطْلُوبِهِ .

وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ مَرَاتِبَ الْهِمَم ، فَانْظُرْ إِلَى هِمَّة رَبِيعَةَ بْن كَعْب الْأَسْلَمِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَدْ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ -: « سَلْنِي ، فَقَالَ : أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ » . وَكَانَ غَيْرُهُ يَسْأَلُهُ مَا يَمْلأُ بَطْنَهُ ، أَوْ يُوَارِي جِلْدَهُ .

وَانْظُرْ إِلَى هِمَّةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حِينَ عُرِضَتْ عَلَيْهِ مَفَاتِيحُ كُنُوزِ الْأَرْضِ - فَأَبَاهَا .

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَوْ أَخَذَهَا لأَنْفَقَهَا فِي طَاعَةِ رَبِّهِ تَعَالَى،فَأَبَتْ لَهُ تِلْكَ الْهِمَّةُ الْعَالِيَةُ : أَنْ يَتَعَلَّقَ مِنْهَا بِشَيْءٍ مِمَّا سِوَى اللَّهِ وَمَحَابِّهِ، وَعُرِضَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَصَرَّفَ بِالْمُلْكِ، فَأَبَاهُ ،وَاخْتَارَ التَّصَرُّفَ بِالْعُبُودِيَّةِ الْمَحْضَةِ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، خَالِقُ هَذِهِ الْهِمَّةِ ، وَخَالِقُ نَفْسٍ تَحْمِلُهَا ، وَخَالِقُ هِمَمٍ لَا تَعْدُو هِمَمَ أَخَسِّ الْحَيَوَانَاتِ .

الْفَرَحُ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ :

فَالْفَرَحُ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ : دَلِيلٌ عَلَىٰ تَعْظِيمِهِ عِنْدَ صَاحِبِهِ ، وَمَحَبَّتِهِ لَهُ ، وَإِيثَارِهِ لَهُ عَلَىٰ غَيْرِهِ ، فَإِنَّ فَرَحَ الْعَبْدِ بِالشَّيْءِ عِنْدَ حُصُولِهِ لَهُ: عَلَىٰ قَدْرِ مَحَبَّتِهِ لَهُ ، وَرَغْبَتِهِ فِيهِ ، فَمَنْ لَيْسَ لَهُ رَغْبَةٌ فِي الشَّيْءِ لَا يُفْرِحُهُ حُصُولُهُ لَهُ ، وَلَا يُحْزِنُهُ فَوَاتُهُ ، فَالْفَرَحُ تَابِعٌ لِلْمَحَبَّةِ وَالرَّغْبَةِ .

الْحُزْنُ يَتَوَلَّدُ مِنْ مُفَارَقَةِ الْمَحْبُوبِ :

الْحُزْنُ يَتَوَلَّدُ مِنْ مُفَارَقَةِ الْمَحْبُوبِ، لَيْسَ لَهُ سَبَبٌ سِوَاهُ ، وَإِنْ تَوَلَّدَ مِنْ حُصُولِ مَكْرُوهٍ، فَذَلِكَ الْمَكْرُوهُ : إِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ لِمَا فَاتَ بِهِ مِنَ

الْمَحْبُوب، فَلَا حُزْنَ إِذًا وَلَا هَمَّ وَلَا غَمَّ ،وَلَا أَذَىٰ وَلَا كَرْبَ إِلَّا فِي مُفَارَقَةِ الْمَحْبُوبِ، وَلِهَذَا كَانَ حُزْنُ الْفَقْرِ وَالْمَرَضِ وَالْأَلَمِ وَالْجَهْلِ وَالْخُمُولِ وَالضِّيقِ وَسُوءِ الْحَالِ وَنَحْوِ ذَلِكَ : عَلَىٰ فِرَاقِ الْمَحْبُوبِ مِنَ الْمَالِ وَالْوَجْدِ وَالْعَافِيَةِ ، وَالْعِلْمِ وَالسِّعَةِ وَحُسْنِ الْحَالِ ، وَلِهَذَا جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُفَارَقَةَ الْمُشْتَهَيَاتِ مِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوبَاتِ ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سبأ: ٥٤] ، فَالْفَرَحُ وَالسُّرُورُ بِالظَّفَرِ بِالْمَحْبُوبِ، وَالْهَمُّ وَالْغَمُّ وَالْحُزْنُ وَالْأَسَفُ بِفَوَاتِ الْمَحْبُوبِ ، فَأَطْيَبُ الْعَيْشِ عَيْشُ الْمُحِبِّ الْوَاصِلِ إِلَىٰ مَحْبُوبِهِ،وَأَمَرُّ الْعَيْشِ عَيْشُ مَنْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَحْبُوبِهِ.

هُمُ الْغُرَبَاءُ:

أَهْلُ الْإِسْلَامِ فِي النَّاسِ غُرَبَاءُ ، وَالْمُؤْمِنُونَ فِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ غُرَبَاءُ ، وَأَهْلُ الْعِلْمِ فِي الْمُؤْمِنِينَ غُرَبَاءُ .

وَأَهْلُ السُّنَّةِ الَّذِينَ يُمَيِّزُونَهَا مِنَ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ فَهُمْ غُرَبَاءُ ، وَالدَّاعُونَ إِلَيْهَا الصَّابِرُونَ عَلَىٰ أَذَىٰ الْمُخَالِفِينَ هُمْ أَشَدُّ هَؤُلَاءِ غُرْبَةً، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ اللهِ حَقًّا ، فَلَا غُرْبَةَ عَلَيْهِمْ ، وَإِنَّمَا غُرْبَتُهُمْ بَيْنَ الْأَكْثَرِينَ ، الَّذِينَ قَالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- فِيهِمْ : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[الأنعام: ١١٦] ، فَأُولَئِكَ هُمُ

الْغُرَبَاءُ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَدِينِهِ ، وَغُرْبَتُهُمْ هِيَ الْغُرْبَةُ الْمُوحِشَةُ ، وَإِنْ كَانُوا هُمُ الْمَعْرُوفِينَ الْمُشَارُ إِلَيْهِمْ .

كَمَا قِيلَ :

فَلَيْسَ غَرِيبًا مَنْ تَنَاءَتْ دِيَارُهُ   وَلَكِنَّ مَنْ تَنْأَيْنَ عَنْهُ غَرِيبُ

أَنْوَاعُ الْغُرْبَةِ :

الْغُرْبَةُ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ :

١ ـ غُرْبَةُ أَهْلِ اللهِ وَأَهْلِ سُنَّةِ رَسُولِهِ :

غُرْبَةُ أَهْلِ اللهِ وَأَهْلِ سُنَّةِ رَسُولِهِ بَيْنَ هَذَا الْخَلْقِ،وَهِيَ الْغُرْبَةُ الَّتِي مَدَحَ رَسُولُ اللهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَهْلَهَا، وَأَخْبَرَ عَنِ الدِّينِ الَّذِي جَاءَ بِهِ: أَنَّهُ بَدَأَ غَرِيبًا وَأَنَّهُ سَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ وَأَنَّ أَهْلَهُ يَصِيرُونَ غُرَبَاءَ .

وَهَذِهِ الْغُرْبَةُ قَدْ تَكُونُ فِي مَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ ، وَوَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ ، وَبَيْنَ قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ ، وَلَكِنَّ أَهْلَ هَذِهِ الْغُرْبَةِ هُمْ أَهْلُ اللهِ حَقًّا ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَأْوُوا إِلَى غَيْرِ اللهِ ، وَلَمْ يَنْتَسِبُوا إِلَى غَيْرِ رَسُولِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ، وَلَمْ يَدْعُوا إِلَى غَيْرِ مَا جَاءَ بِهِ ، وَهُمُ الَّذِينَ فَارَقُوا النَّاسَ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِمْ ، فَإِذَا انْطَلَقَ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ آلِهَتِهِمْ بَقُوا فِي مَكَانِهِمْ ، فَيُقَالُ لَهُمْ : « **أَلَا تَنْطَلِقُونَ حَيْثُ انْطَلَقَ النَّاسُ ؟ فَيَقُولُونَ : فَارَقْنَا النَّاسَ**

وَنَحْنُ أَحْوَجُ إِلَيْهِمْ مِنَّا الْيَوْمَ،وَإِنَّا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا الَّذِي كُنَّا نَعْبُدُهُ » [(١)].

فَهَذِهِ الْغُرْبَةُ لَا وَحْشَةَ عَلَىٰ صَاحِبِهَا ، بَلْ وَآنَسُ مَا يَكُونُ إِذَا اسْتَوْحَشَ النَّاسُ ، وَأَشَدُّ مَا تَكُونُ وَحْشَتُهُ إِذَا اسْتَأْنَسُوا ، فَوَلِيُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَإِنْ عَادَاهُ أَكْثَرُ النَّاسِ وَجَفَوْهُ.

مِنْ صِفَاتِ هَؤُلَاءِ الْغُرَبَاءِ :

وَمِنْ صِفَاتِ هَؤُلَاءِ الْغُرَبَاءِ الَّذِينَ غَبَطَهُمُ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : التَّمَسُّكُ بِالسُّنَّةِ ، إِذَا رَغِبَ عَنْهَا النَّاسُ ، وَتَرْكُ مَا أَحْدَثُوهُ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَهُمْ وَتَجْرِيدُ التَّوْحِيدِ ، وَإِنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ أَكْثَرُ النَّاسِ ، وَتَرْكُ الِانْتِسَابِ إِلَىٰ أَحَدٍ غَيْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ ، لَا شَيْخَ وَلَا طَرِيقَةَ وَلَا مَذْهَبَ وَلَا طَائِفَةَ ، بَلْ هَؤُلَاءِ الْغُرَبَاءُ مُنْتَسِبُونَ إِلَىٰ اللهِ بِالْعُبُودِيَّةِ لَهُ وَحْدَهُ ، وَإِلَىٰ رَسُولِهِ بِالِاتِّبَاعِ لِمَا جَاءَ بِهِ وَحْدَهُ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْقَابِضُونَ عَلَىٰ الْجَمْرِ حَقًّا ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ بَلْ كُلُّهُمْ لَائِمٌ لَهُمْ .

فَلِغُرْبَتِهِمْ بَيْنَ هَذَا الْخَلْقِ : يَعُدُّونَهُمْ أَهْلَ شُذُوذٍ وَبِدْعَةٍ ، وَمُفَارَقَةٍ لِلسَّوَادِ الْأَعْظَمِ .

٢ـ غُرْبَةُ أَهْلِ الْبَاطِلِ:

النَّوْعُ الثَّانِي مِنَ الْغُرْبَةِ : غُرْبَةٌ مَذْمُومَةٌ وَهِيَ غُرْبَةُ أَهْلِ الْبَاطِلِ

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٨٢) .

وَأَهْلِ الْفُجُور بَيْنَ أَهْلِ الْحَقِّ ، فَهِيَ غُرْبَةٌ بَيْنَ حِزْبِ اللهِ الْمُفْلِحِينَ وَإِنْ كَثُرَ أَهْلُهَا فَهُمْ غُرَبَاءُ عَلَىٰ كَثْرَةِ أَصْحَابِهِمْ وَأَشْيَاعِهِمْ ، أَهْلُ وَحْشَةٍ عَلَىٰ كَثْرَةِ مُؤْنِسِهِمْ ، يُعْرَفُونَ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَيَخْفَوْنَ عَلَىٰ أَهْلِ السَّمَاءِ .

٣ــ الْغُرْبَةُ عَنِ الْوَطَنِ :

النَّوْعُ الثَّالِثُ : غُرْبَةٌ مُشْتَرَكَةٌ لَا تُحْمَدُ وَلَا تُذَمُّ وَهِيَ الْغُرْبَةُ عَنِ الْوَطَنِ؛ فَإِنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ غُرَبَاءُ ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارِ مَقَامٍ ، وَلَا هِيَ الدَّارُ الَّتِي خُلِقُوا لَهَا ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- : « **كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ** » [(١)] . وَهَكَذَا هُوَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ؛ لِأَنَّهُ أُمِرَ أَنْ يُطَالِعَ ذَلِكَ بِقَلْبِهِ وَيَعْرِفَهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ .

طُغْيَانُ الْمَعَاصِي أَسْلَمُ عَاقِبَةً مِنْ طُغْيَانِ الطَّاعَةِ :

فَانْظُرْ إِلَىٰ السَّجَّادِ الْعَبَّادِ الزَّاهِدِ الَّذِي بَيْنَ عَيْنَيْهِ أَثَرُ السُّجُودِ ، كَيْفَ أَوْرَثَهُ طُغْيَانُ عَمَلِهِ أَنْ أَنْكَرَ عَلَىٰ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ، وَأَوْرَثَ أَصْحَابَهُ احْتِقَارَ الْمُسْلِمِينَ ، حَتَّىٰ سَلُّوا عَلَيْهِمْ سُيُوفَهُمْ ، وَاسْتَبَاحُوا دِمَاءَهُمْ .

وَانْظُرْ إِلَىٰ الشِّرِّيبِ السِّكِّيرِ الَّذِي كَانَ كَثِيرًا مَا يُؤْتَىٰ بِهِ إِلَىٰ النَّبِيِّ

---

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٤١٦) .

-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ، فَيَحُدُّهُ عَلَىٰ الشَّرَابِ ، كَيْفَ قَامَتْ بِهِ قُوَّةُ إِيمَانِهِ وَيَقِينِهِ، وَمَحَبَّتِهِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتَوَاضُعِهِ وَانْكِسَارِهِ لِلَّهِ حَتَّىٰ نَهَىٰ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنْ لَعْنَتِهِ .

فَظَهَرَ بِهَذَا : أَنَّ طُغْيَانَ الْمَعَاصِي أَسْلَمُ عَاقِبَةً مِنْ طُغْيَانِ الطَّاعَاتِ .

الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ لِأَهْلِ الإِيمَانِ :

جَعَلَ اللهُ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ لِأَهْلِ مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ ، فَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النَّحْلُ : ٩٧] ، وَقَدْ فُسِّرَتِ «**الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ**» بِالْقَنَاعَةِ وَالرِّضَا ، وَالرِّزْقِ الْحَسَنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَالصَّوَابُ : أَنَّهَا حَيَاةُ الْقَلْبِ وَنَعِيمُهُ ، وَبَهْجَتُهُ وَسُرُورُهُ بِالْإِيمَانِ وَمَعْرِفَةُ اللهِ ، وَمَحَبَّتُهُ ، وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ لَا حَيَاةَ أَطْيَبُ مِنْ حَيَاةِ صَاحِبِهَا ، وَلَا نَعِيمَ فَوْقَ نَعِيمِهِ إِلَّا نَعِيمَ الْجَنَّةِ ، كَمَا كَانَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ يَقُولُ : إِنَّهُ لَتَمُرُّ بِي أَوْقَاتٌ أَقُولُ فِيهَا إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : إِنَّهُ لَيَمُرُّ بِالْقَلْبِ أَوْقَاتٌ يَرْقُصُ فِيهَا طَرَبًا .

وَإِذَا كَانَتْ حَيَاةُ الْقَلْبِ حَيَاةً طَيِّبَةً تَبِعَتْهُ حَيَاةُ الْجَوَارِحِ ، فَإِنَّهُ مَلِكُهَا، وَلِهَذَا جَعَلَ اللهُ الْمَعِيشَةَ الضَّنْكَ لِمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِهِ ، وَهِيَ عَكْسُ

الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ .

وَهَذِهِ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ تَكُونُ فِي الدُّورِ الثَّلَاثِ ، أَعْنِي : دَارَ الدُّنْيَا ، وَدَارَ الْبَرْزَخِ ، وَدَارَ الْقَرَارِ ، وَالْمَعِيشَةُ الضَّنْكُ أَيْضًا تَكُونُ فِي الدُّورِ الثَّلَاثِ، فَالْأَبْرَارُ فِي النَّعِيمِ هُنَا وَهُنَالِكَ ، وَالْفُجَّارُ فِي الْجَحِيمِ هُنَا وَهُنَالِكَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ ﴾ [النَّحل: ٣٠] ، وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ ﴾[هُود: ٣]، فَذِكْرُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، وَمَحَبَّتُهُ وَطَاعَتُهُ ، وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ ضَامِنٌ لِأَطْيَبِ الْحَيَاةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَالْإِعْرَاضُ عَنْهُ وَالْغَفْلَةُ وَمَعْصِيَتُهُ كَفِيلٌ بِالْحَيَاةِ الْمُنَغَّصَةِ ، وَالْمَعِيشَةِ الضَّنْكِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

الحيَاةُ الطَّيِّبَةُ إنَّمَا تُنَالُ بالهِمَّةِ العَالِيَةِ :

كُلَّمَا كَانَ الْقَلْبُ أَتَمَّ حَيَاةً ، كَانَتْ هِمَّتُهُ أَعْلَىٰ وَإِرَادَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ أَقْوَى، فَإِنَّ الْإِرَادَةَ وَالْمَحَبَّةَ تَتْبَعُ الشُّعُورَ بِالْمُرَادِ الْمَحْبُوبِ ، وَسَلَامَةُ الْقَلْبِ مِنَ الْآفَةِ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ طَلَبِهِ وَإِرَادَتِهِ ، فَضَعْفُ الطَّلَبِ ، وَفُتُورُ الْهِمَّةِ إِمَّا مِنْ نُقْصَانِ الشُّعُورِ وَالْإِحْسَاسِ ، وَإِمَّا مِنْ وُجُودِ الْآفَةِ الْمُضْعِفَةِ لِلْحَيَاةِ ، فَقُوَّةُ الشُّعُورِ ، وَقُوَّةُ الْإِرَادَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ قُوَّةِ الْحَيَاةِ ، وَضَعْفُهَا دَلِيلٌ عَلَىٰ ضَعْفِهَا ، وَكَمَا أَنَّ عُلُوَّ الْهِمَّةِ ، وَصِدْقَ الْإِرَادَةِ وَالطَّلَبِ مِنْ

كَمَالِ الْحَيَاة : فَهُوَ سَبَبٌ إِلَىٰ حُصُولِ أَكْمَلِ الْحَيَاةِ وَأَطْيَبِهَا ، فَإِنَّ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ إِنَّمَا تُنَالُ بِالْهِمَّةِ الْعَالِيَةِ ، وَالْمَحَبَّةِ الصَّادِقَةِ ، وَالْإِرَادَةِ الْخَالِصَةِ ، فَعَلَىٰ قَدْرِ ذَلِكَ تَكُونُ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ ، وَأَخَسُّ النَّاسِ حَيَاةً أَخَسُّهُمْ هِمَّةً ، وَأَضْعَفُهُمْ مَحَبَّةً وَطَلَبًا ، وَحَيَاةُ الْبَهَائِمِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاتِهِ .

كَمَا قِيلَ :

نَهَارُكَ يَا مَغْرُورُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ وَلَيْلُكَ نَوْمٌ وَالرَّدَىٰ لَكَ لَازِمُ

وَتَكْدَحُ فِيمَا سَوْفَ تُنْكِرُ غِبَّهُ كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا تَعِيشُ الْبَهَائِمُ

تُسَرُّ بِمَا يَفْنَىٰ وَتَفْرَحُ بِالْمُنَى كَمَا غُرَّ بِاللَّذَّاتِ فِي النَّوْمِ حَالِمُ

وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ حَيَاةَ الْقَلْبِ بِالْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ وَالْهِمَّةِ ، وَالنَّاسُ إِذَا شَاهَدُوا ذَلِكَ مِنَ الرَّجُلِ قَالُوا : هُوَ حَيُّ الْقَلْبِ ، وَحَيَاةُ الْقَلْبِ بِدَوَامِ الذِّكْرِ ، وَتَرْكِ الذُّنُوبِ ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ - رَحِمَهُ اللهُ - :

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا

وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُو كُ وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

وَبَاعُوا النُّفُوسَ وَلَمْ يَرْبَحُوا وَلَمْ يَغْلُ فِي الْبَيْعِ أَثْمَانُهَا

فَقَدْ رَتَعَ الْقَوْمُ فِي جِيفَةٍ يَبِينُ لِذِي اللُّبِّ خُسرانُهَا

حيَاةُ الْقَلْبِ بِدَوَامِ الذِّكْرِ:

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَام ابْنَ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ- يَقُولُ: مَنْ وَاظَبَ عَلَىٰ «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**» كُلَّ يَوْمٍ بَيْنَ سُنَّةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ أَرْبَعِينَ مَرَّةً أَحْيَىٰ اللهُ بِهَا قَلْبَهُ.

وَكَمَا أَنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ- جَعَلَ حَيَاةَ الْبَدَنِ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَحَيَاةُ الْقَلْبِ بِدَوَامِ الذِّكْرِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَىٰ اللهِ، وَتَرْكِ الذُّنُوبِ، وَالْغَفْلَةُ الْجَاثِمَةُ عَلَىٰ الْقَلْبِ، وَالتَّعَلُّقُ بِالرَّذَائِلِ وَالشَّهَوَاتِ الْمُنْقَطِعَةِ عَنْ قَرِيبٍ يُضْعِفُ هَذِهِ الْحَيَاةَ، وَلَا يَزَالُ الضَّعْفُ يَتَوَالَىٰ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمُوتَ، وَعَلَامَةُ مَوْتِهِ: أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ أَتَدْرُونَ مَنْ مَيِّتُ الْقَلْبِ الَّذِي قِيلَ فِيهِ:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيِّتٍ إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ

قَالُوا: وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا.

كَيْفَ يَمُوتُ الْقَلْبُ؟:

وَالرَّجُلُ: هُوَ الَّذِي يَخَافُ مَوْتَ قَلْبِهِ، لَا مَوْتَ بَدَنِهِ، إِذْ أَكْثَرُ هَؤُلَاءِ الْخَلْقِ يَخَافُونَ مَوْتَ أَبْدَانِهِمْ، وَلَا يُبَالُونَ بِمَوْتِ قُلُوبِهِمْ، وَلَا يَعْرِفُونَ

مِنَ الْحَيَاةِ إِلَّا الْحَيَاةَ الطَّبِيعِيَّةَ ، وَذَلِكَ مِنْ مَوْتِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الطَّبِيعِيَّةَ شَبِيهَةٌ بِالظِّلِّ الزَّائِلِ ، وَالنَّبَاتِ السَّرِيعِ الْجَفَافِ ، وَالْمَنَامِ الَّذِي يُخَيَّلُ كَأَنَّهُ حَقِيقَةٌ ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ عَرَفَ أَنَّهُ كَانَ خَيَالًا ، كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - : لَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَىٰ آخِرِهَا أُوتِيَهَا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، ثُمَّ جَاءَهُ الْمَوْتُ : لَكَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ رَأَىٰ فِي مَنَامِهِ مَا يَسُرُّهُ ثُمَّ اسْتَيْقَظَ ، فَإِذَا لَيْسَ فِي يَدِهِ شَيْءٌ .

وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ الْمَوْتَ مَوْتَانِ : مَوْتٌ إِرَادِيٌّ ، وَمَوْتٌ طَبِيعِيٌّ ، فَمَنْ أَمَاتَ نَفْسَهُ مَوْتًا إِرَادِيًّا كَانَ مَوْتُهُ الطَّبِيعِيُّ حَيَاةً لَهُ ، وَمَعْنَىٰ هَذَا أَنَّ الْمَوْتَ الإِرَادِيَّ : هُوَ قَمْعُ الشَّهَوَاتِ الْمُرْدِيَةِ ، وَإِخْمَادُ نِيرَانِهَا الْمُحْرِقَةِ ، وَتَسْكِينُ هَوَائِجِهَا الْمُتْلِفَةِ، فَحِينَئِذٍ يَتَفَرَّغُ الْقَلْبُ وَالرُّوحُ لِلتَّفَكُّرِ فِيمَا فِيهِ كَمَالُ الْعَبْدِ ، وَمَعْرِفَتِهِ، وَالاشْتِغَالِ بِهِ .

وَيَرَىٰ حِينَئِذٍ أَنَّ إِيثَارَ الظِّلِّ الزَّائِلِ عَنْ قَرِيبٍ عَلَىٰ الْعَيْشِ اللَّذِيذِ الدَّائِمِ أَخْسَرُ الْخُسْرَانِ ، فَأَمَّا إِذَا كَانَتِ الشَّهَوَاتُ وَافِدَةً ، وَاللَّذَّاتُ مُؤْثَرَةً ، وَالْعَوَائِدُ غَالِبَةً ، وَالطَّبِيعَةُ حَاكِمَةً ، فَالْقَلْبُ حِينَئِذٍ إِمَّا أَنْ يَكُونَ أَسِيرًا ذَلِيلًا ، أَوْ مَهْزُومًا مُخْرَجًا عَنْ وَطَنِهِ وَمُسْتَقَرِّهِ الَّذِي لَا قَرَارَ لَهُ إِلَّا فِيهِ أَوْ قَتِيلًا مَيِّتًا ، وَمَا لِجُرْحٍ بِهِ إِيلَامٌ ، وَأَحْسَنُ أَحْوَالِهِ : أَنْ يَكُونَ فِي حَرْبٍ ، يُدَالُ لَهُ فِيهَا مَرَّةً ، وَيُدَالُ عَلَيْهِ مَرَّةً ، فَإِذَا مَاتَ الْعَبْدُ مَوْتَهُ الطَّبِيعِيَّ ، كَانَتْ بَعْدَهُ حَيَاةُ رُوحِهِ بِتِلْكَ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ ، وَالأَعْمَالِ

الصَّالِحَةِ ، وَالْأَحْوَالِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي حَصَلَتْ لَهُ بِإِمَاتَةِ نَفْسِهِ ، فَتَكُونُ حَيَاتُهُ هَاهُنَا عَلَىٰ حَسَبِ مَوْتِهِ الْإِرَادِيِّ فِي هَذِهِ الدَّارِ .

وَهَذَا مَوْضِعٌ لَا يَفْهَمُهُ إِلَّا أَلِبَّاءُ النَّاسِ وَعُقَلَاؤُهُمْ ، وَلَا يَعْمَلُ بِمُقْتَضَاهُ إِلَّا أَهْلُ الْهِمَمِ الْعَلِيَّةِ ، وَالنُّفُوسِ الزَّكِيَّةِ الْأَبِيَّةِ .

حَيَاةُ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ :

حَيَاةُ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ ، وَقُرَّةُ الْعَيْنِ بِاللهِ ، وَهَذِهِ الْحَيَاةُ إِنَّمَا تَكُونُ بَعْدَ الظَّفَرِ بِالْمَطْلُوبِ ، الَّذِي تَقَرُّ بِهِ عَيْنُ طَالِبِهِ ، فَلَا حَيَاةَ نَافِعَةً لَهُ بِدُونِهِ ، وَحَوْلَ هَذِهِ الْحَيَاةِ يُدَنْدِنُ النَّاسُ كُلُّهُمْ ، وَكُلُّهُمْ قَدْ أَخْطَأَ طَرِيقَهَا ، وَسَلَكَ طُرُقًا لَا تُفْضِي إِلَيْهَا ، بَلْ تَقْطَعُهُ عَنْهَا ، إِلَّا أَقَلَّ الْقَلِيلِ .

فَدَارَ طَلَبُ الْكُلِّ حَوْلَ هَذِهِ الْحَيَاةِ ، وَحُرِمَهَا أَكْثَرُهُمْ .

وَسَبَبُ حِرْمَانِهِمْ إِيَّاهَا : ضَعْفُ الْعَقْلِ وَالتَّمْيِيزِ وَالْبَصِيرَةِ ، وَضَعْفُ الْهِمَّةِ وَالْإِرَادَةِ ، فَإِنَّ مَادَّتَهَا بَصِيرَةٌ وَقَادَةٌ ، وَهِمَّةٌ نَقَّادَةٌ ، وَالْبَصِيرَةُ كَالْبَصَرِ تَكُونُ عَمًى وَعَوَرًا وَعَمَشًا وَرَمَدًا ، وَتَامَّةَ النُّورِ وَالضِّيَاءِ ، وَهَذِهِ الْآفَاتُ قَدْ تَكُونُ لَهَا بِالْخِلْقَةِ فِي الْأَصْلِ ، وَقَدْ تَحْدُثُ فِيهَا بِالْعَوَارِضِ الْكَسْبِيَّةِ .

وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ مِنْ مَرَاتِبِ الْحَيَاةِ هِيَ أَعْلَىٰ مَرَاتِبِهَا ، وَلَكِنْ كَيْفَ يَصِلُ إِلَيْهَا مَنْ عَقْلُهُ مَسْبِيٌّ فِي بِلَادِ الشَّهَوَاتِ ، وَأَمَلُهُ مَوْقُوفٌ عَلَىٰ اجْتِنَاءِ اللَّذَّاتِ ، وَسِيرَتُهُ جَارِيَةٌ عَلَىٰ أَسْوَأِ الْعَادَاتِ ، وَدِينُهُ مُسْتَهْلَكٌ

بالْمَعَاصي وَالْمُخَالَفَات ، وَهِمَّتُهُ وَاقِفَةٌ مَعَ السُّفْلِيَّاتِ ، وَعَقِيدَتُهُ غَيْرُ مُتَلَقَّاةٍ مِنْ مِشْكَاةِ النُّبُوَّاتِ ؟ !

فَهُوَ في الشَّهَوَات مُنْغَمِسٌ ، وَفي الشُّبْهَاتِ مُنْتَكِسٌ ، وَعَنِ النَّاصِحِ مُعْرِضٌ ، وَعَلَىٰ الْمُرْشِدِ مُعْتَرِضٌ ، وَعَنِ السَّرَّاءِ نَائِمٌ ، وَقَلْبُهُ في كُلِّ وَادٍ هَائِمٌ ، فَلَوْ أَنَّهُ تَجَرَّدَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَرَغِبَ عَنْ مُشَارَكَةِ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ ، وَخَرَجَ مِنْ ضِيقِ الْجَهْلِ إِلَىٰ فَضَاءِ الْعِلْمِ ، وَمِنْ سِجْنِ الْهَوَىٰ إِلَىٰ سَاحَةِ الْهُدَىٰ ، وَمِنْ نَجَاسَةِ النَّفْسِ ، إِلَىٰ طَهَارَةِ الْقُدْسِ لَرَأَىٰ الإِلْفَ الَّذِي نَشَأَ بِنَشْأَتِهِ ، وَزَادَ بِزِيَادَتِهِ ، وَقَوِيَ بِقُوَّتِهِ ، وَشَرُفَ عِنْدَ نَفْسِهِ وَأَبْنَاءِ جِنْسِهِ بِحُصُولِهِ ، وَسَدَّ قَذًىٰ في عَيْنِ بَصِيرَتِهِ ، وَشَجًا في حَلْقِ إِيمَانِهِ ، وَمَرَضًا مُتَرَامِيًا إِلَىٰ هَلَاكِهِ .

فَإِنْ قُلْتَ : قَدْ أَشَرْتَ إِلَىٰ حَيَاةٍ غَيْرِ مَعْهُودَةٍ بَيْنَ أَمْوَاتِ الْأَحْيَاءِ ، فَهَلْ يُمْكِنُكَ وَصْفُ طَرِيقِهَا ، لِأَصِلَ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْ أَذْوَاقِهَا ، فَقَدْ بَانَ لِي أَنَّ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْحَيَاةِ حَيَاةٌ بَهِيمِيَّةٌ ، رُبَّمَا زَادَتْ عَلَيْنَا فِيهِ الْبَهَائِمُ بِخُلُوِّهَا عَنِ الْمُنْكَرَاتِ وَالْمُنَغِّصَاتِ وَسَلَامَةِ الْعَاقِبَةِ ؟.

قُلْتُ : لَعَمْرُ اللهِ إِنَّ اشْتِيَاقَكَ إِلَىٰ هَذِهِ الْحَيَاةِ ، وَطَلَبَ عِلْمِهَا وَمَعْرِفَتِهَا : لَدَلِيلٌ عَلَىٰ حَيَاتِكَ ، وَأَنَّكَ لَسْتَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَمْوَاتِ .

فَأَوَّلُ طَرِيقِهَا : أَنْ تَعْرِفَ اللهَ ، وَتَهْتَدِيَ إِلَيْهِ طَرِيقًا يُوَصِّلُكَ إِلَيْهِ ،

وَيُحرقُ ظُلُمَاتِ الطَّبْعِ بأشعَّةِ الْبَصِيرَةِ ، فَيَقُومُ بقَلْبِه شَاهِدٌ مِنْ شَوَاهِدِ الْآخِرَةِ ، فَيَنْجَذِبُ إِلَيْهَا بِكُلِّيَّتِهِ ، وَيَزْهَدُ فِي التَّعَلُّقَاتِ الْفَانِيَةِ ، وَيَدْأَبُ فِي تَصْحِيحِ التَّوْبَةِ ، وَالْقِيَامِ بِالْمَأْمُورَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ ، وَتَرْكِ الْمَنْهِيَّاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ ، ثُمَّ يَقُومُ حَارِسًا عَلَىٰ قَلْبِهِ ، فَلَا يُسَامِحُهُ بِخَطْرَةٍ يَكْرَهُهَا اللهُ ، وَلَا بِخَطْرَةِ فُضُولٍ لَا تَنْفَعُهُ ، فَيَصْفُو بِذَلِكَ قَلْبُهُ عَنْ حَدِيثِ النَّفْسِ وَوَسْوَاسِهَا ، فَيُفْدَىٰ مِنْ أَسْرِهَا ، وَيَصِيرُ طَلِيقًا ، فَحِينَئِذٍ يَخْلُو قَلْبُهُ بِذِكْرِ رَبِّهِ ، وَمَحَبَّتِهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ ، وَيَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ بُيُوتِ طَبْعِهِ وَنَفْسِهِ ، إِلَىٰ فَضَاءِ الْخُلْوَةِ بِرَبِّهِ وَذِكْرِهِ ، كَمَا قِيلَ :

وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الْبُيُوتِ لَعَلَّنِي أُحَدِّثُ عَنْكَ النَّفْسَ فِي السِّرِّ خَالِيًا

فَحِينَئِذٍ يَجْتَمِعُ قَلْبُهُ وَخَوَاطِرُهُ وَحَدِيثُ نَفْسِهِ عَلَىٰ إِرَادَةِ رَبِّهِ ، وَطَلَبِهِ وَالشَّوْقِ إِلَيْهِ .

فَإِذَا صَدَقَ فِي ذَلِكَ رُزِقَ مَحَبَّةَ الرَّسُولِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ، وَاسْتَوْلَتْ رُوحَانِيَّتُهُ عَلَىٰ قَلْبِهِ ، فَجَعَلَهُ إِمَامَهُ وَمُعَلِّمَهُ، وَأُسْتَاذَهُ وَشَيْخَهُ وَقُدْوَتَهُ ، كَمَا جَعَلَهُ اللهُ نَبِيَّهُ وَرَسُولَهُ وَهَادِيًا إِلَيْهِ ، فَيُطَالِعُ سِيرَتَهُ وَمَبَادِئَ أَمْرِهِ ، وَكَيْفِيَّةَ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ ، وَيَعْرِفُ صِفَاتِهِ وَأَخْلَاقَهُ ، وَآدَابَهُ فِي حَرَكَاتِهِ وَسُكُونِهِ وَيَقَظَتِهِ وَمَنَامِهِ ، وَعِبَادَتِهِ وَمُعَاشَرَتِهِ لِأَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ، حَتَّىٰ يَصِيرَ كَأَنَّهُ مَعَهُ مِنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ .

فإذا رسخ قلبه في ذلك : فَتحَ عَلَيْه بفَهْم الْوَحْي الْمُنَزَّل عَلَيْه مِنْ رَبِّه، بحَيْثُ لَوْ قَرَأَ السُّورَةَ شَاهَدَ قَلْبُهُ مَا أُنْزِلَتْ فيه ، وَمَا أُرِيدَ بهَا ، وَحَظَّهُ الْمُخْتَصَّ به مِنْهَا منَ الصِّفَات وَالْأَخْلَاق وَالْأَفْعَال الْمَذْمُومَة ، فَيَجْتَهِدُ في التَّخَلُّص مِنْهَا كَمَا يَجْتَهِدُ في الشِّفَاءِ مِنَ الْمَرَض الْمَخُوف ، وَشَاهَدَ حَظَّهُ مِنَ الصِّفَات وَالْأَفْعَال الْمَمْدُوحَة ، فَيَجْتَهِدُ في تَكْمِيلِهَا وَإِتْمَامِهَا .

فَإِذَا تَمَكَّنَ مِنْ ذَلكَ انْفَتَحَ في قَلْبِه عَيْنٌ أُخْرَىٰ ، يُشَاهِدُ بهَا صفَات الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ، حَتَّىٰ تَصِيرَ لِقَلْبِه بمَنْزِلَة الْمَرْئِيِّ لِعَيْنِه ، فَيَشْهَدُ عُلُوَّ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ فَوْقَ خَلْقه ، وَاسْتوَاءَهُ عَلَىٰ عَرْشه ، وَنُزُولَ الْأَمْر مِنْ عِنْده بتَدْبير مَمْلَكَته ، وَتَكْلِيمَهُ بالْوَحْي ، وَتَكْلِيمَهُ لِعَبْدِه جبْرِيلَ بِه ، وَإِرْسَالَهُ إِلَىٰ مَنْ يَشَاءُ بِمَا يَشَاءُ ، وَصُعُودَ الْأُمُور إِلَيْه ، وَعَرْضَهَا عَلَيْه .

فَيُشَاهِدُ قَلْبُهُ رَبًّا قَاهِرًا فَوْقَ عِبَاده ، آمِرًا نَاهِيًا ، بَاعِثًا لِرُسُله ، مُنْزِلًا لِكُتُبِه ، مَعْبُودًا مُطَاعًا ، لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَا مَثِيلَ ، وَلَا عَدْلَ لَهُ ، لَيْسَ لِأَحَد مَعَهُ مِنَ الْأَمْر شَيْءٌ ، بَلِ الْأَمْرُ كُلُّهُ لَهُ ، فَيَشْهَدُ رَبَّهُ سُبْحَانَهُ قَائِمًا بِالْمُلْك وَالتَّدْبِير ، فَلَا حَرَكَةَ وَلَا سُكُونَ ، وَلَا نَفْعَ وَلَا ضَرَّ ، وَلَا عَطَاءَ وَلَا مَنْعَ ، وَلَا قَبْضَ وَلَا بَسْطَ إِلَّا بقُدْرَته وَتَدْبِيره ، فَيَشْهَدُ قِيَامَ الْكَوْن كُلِّه بِه ، وَقِيَامَهُ سُبْحَانَهُ بِنَفْسِه ، فَهُوَ الْقَائِمُ بِنَفْسِه ، الْمُقِيمُ لِكُلِّ مَا سِوَاهُ.

فَإِذَا رَسَخَ قَلْبُهُ فِي ذَلِكَ: شَهِدَ الصِّفَةَ الْمُصَحِّحَةَ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَهِيَ الْحَيَاةُ الَّتِي كَمَالُهَا يَسْتَلْزِمُ كَمَالَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْكَلَامِ وَسَائِرِ صِفَاتِ الْكَمَالِ ، وَصِفَةَ الْقَيُّومِيَّةِ الصَّحِيحَةِ الْمُصَحِّحَةِ لِجَمِيعِ الْأَفْعَالِ ، فَالْحَيُّ الْقَيُّومُ : مَنْ لَهُ كُلُّ صِفَةِ كَمَالٍ ، وَهُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ .

فَإِذَا رَسَخَ قَلْبُهُ فِي ذَلِكَ : فَتَحَ لَهُ مَشْهَدَ الْقُرْبِ وَالْمَعِيَّةِ فَيَشْهَدُهُ سُبْحَانَهُ مَعَهُ ، غَيْرَ غَائِبٍ عَنْهُ ، قَرِيبًا غَيْرَ بَعِيدٍ ، مَعَ كَوْنِهِ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَىٰ عَرْشِهِ ، بَائِنًا مِنْ خَلْقِهِ ، قَائِمًا بِالصُّنْعِ وَالتَّدْبِيرِ ، وَالْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، فَيَحْصُلُ لَهُ مَعَ التَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ الْأُنْسُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ ، فَيَأْنَسُ بِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُسْتَوْحِشًا ، وَيَقْوَىٰ بِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ ضَعِيفًا ، وَيَفْرَحُ بِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ حَزِينًا ، وَيَجِدُ بَعْدَ أَنْ كَانَ فَاقِدًا ، فَحِينَئِذٍ يَجِدُ طَعْمَ قَوْلِهِ : «**وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**» [(١)] .

فَأَطْيَبُ الْحَيَاةِ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ حَيَاةُ هَذَا الْعَبْدِ ، فَإِنَّهُ مُحِبٌّ مَحْبُوبٌ ، مُتَقَرِّبٌ إِلَىٰ رَبِّهِ ، وَرَبُّهُ قَرِيبٌ مِنْهُ ، قَدْ صَارَ لَهُ حَبِيبُهُ لِفَرْطِ اسْتِيلَائِهِ عَلَىٰ قَلْبِهِ وَلَهَجِهِ بِذِكْرِهِ وَعُكُوفِ هِمَّتِهِ عَلَىٰ مَرْضَاتِهِ بِمَنْزِلَةِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٥٠٢) .

وَيَدِهِ وَرِجْلِه ، وَهَذِهِ آلَاتُ إِدْرَاكِه وَعَمَلِه وَسَعْيِهِ ، فَإِنْ سَمِعَ سَمِعَ بِحَبِيبِهِ ، وَإِنْ أَبْصَرَ أَبْصَرَ بِهِ ، وَإِنْ بَطَشَ بَطَشَ بِهِ ، وَإِنْ مَشَىٰ مَشَىٰ بِهِ .

فَإِنْ صَعُبَ عَلَيْكَ فَهْمُ هَذَا الْمَعْنَىٰ ، وَكَوْنُ الْمُحِبِّ الْكَامِلِ الْمَحَبَّةِ يَسْمَعُ وَيُبْصِرُ وَيَبْطِشُ وَيَمْشِي بِمَحْبُوبِهِ ، وَذَاتُهُ غَائِبَةٌ عَنْهُ ، فَاضْرِبْ عَنْهُ صَفْحًا ، وَخَلِّ هَذَا الشَّأْنَ لِأَهْلِهِ .

خَلِّ الْهَوَىٰ لِأُنَاسٍ يُعْرَفُونَ بِهِ قَدْ كَابَدُوا الْحُبَّ حَتَّىٰ لَانَ أَصْعَبُهُ

لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةٌ :

فَإِنَّ السَّالِكَ إِلَىٰ رَبِّهِ لَا تَزَالُ هِمَّتُهُ عَاكِفَةً عَلَىٰ أَمْرَيْنِ ؛ اسْتِفْرَاغُ الْقَلْبِ فِي صِدْقِ الْحُبِّ ، وَبَذْلُ الْجُهْدِ فِي امْتِثَالِ الْأَمْرِ ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّىٰ يَبْدُوَ عَلَىٰ سِرِّهِ شَوَاهِدُ مَعْرِفَتِهِ ، وَآثَارُ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ ، وَلَكِنْ يَتَوَارَىٰ عَنْهُ ذَلِكَ أَحْيَانًا ، وَيَبْدُو أَحْيَانًا ، يَبْدُو مِنْ عَيْنِ الْجُودِ ، وَيَتَوَارَىٰ بِحُكْمِ الْفَتْرَةِ ، وَالْفَتَرَاتُ أَمْرٌ لَازِمٌ لِلْعَبْدِ ، فَكُلُّ عَامِلٍ لَهُ شِرَّةٌ ، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَأَعْلَاهَا فَتْرَةُ الْوَحْيِ ؛ وَهِيَ لِلْأَنْبِيَاءِ ، وَفَتْرَةُ الْحَالِ الْخَاصِّ لِلْعَارِفِينَ ، وَفَتْرَةُ الْهِمَّةِ لِلْمُرِيدِينَ ، وَفَتْرَةُ الْعَمَلِ لِلْعَابِدِينَ ، وَفِي هَذِهِ الْفَتَرَاتِ أَنْوَاعٌ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ ، وَالتَّعَرُّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَتَعْرِيفِ قَدْرِ النِّعْمَةِ ، وَتَجْدِيدِ الشَّوْقِ إِلَيْهَا ، وَمَحْضِ التَّوَاجُدِ إِلَيْهَا وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَلَا تَزَالُ تِلْكَ الشَّوَاهِدُ تَتَكَرَّرُ وَتَتَزَايَدُ ، حَتَّىٰ تَسْتَقِرَّ ، وَيَنْصَبِغَ بِهَا

قَلْبُهُ ، وَتَصِيرُ الْفَتْرَةُ غَيْرَ قَاطِعَةٍ لَهُ ، بَلْ تَكُونُ نِعْمَةً عَلَيْهِ ، وَرَاحَةً لَهُ ، وَتَرْوِيحًا وَتَنْفِيسًا عَنْهُ .

فَهِمَّةُ الْمُحِبِّ إِذَا تَعَلَّقَتْ رُوحُهُ بِحَبِيبِهِ ، عَاكِفًا عَلَىٰ مَزِيدِ مَحَبَّتِهِ ، وَأَسْبَابِ قُوَّتِهَا ، فَهُوَ يَعْمَلُ عَلَىٰ هَذَا ، ثُمَّ يَتَرَقَّىٰ مِنْهُ إِلَىٰ طَلَبِ مَحَبَّةِ حَبِيبِهِ لَهُ ، فَيَعْمَلُ عَلَىٰ حُصُولِ ذَلِكَ ، وَلَا يُعْدَمُ الطَّلَبَ الْأَوَّلَ ، وَلَا يُفَارِقُهُ أَلْبَتَّةَ ، بَلْ يَنْدَرِجُ فِي هَذَا الطَّلَبِ الثَّانِي ، فَتَتَعَلَّقُ هِمَّتُهُ بِالْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَحْصُلُ لَهُ مَنْزِلَةُ " **كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ** " بِهَذَا الْأَمْرِ الثَّانِي ، وَهُوَ كَوْنُهُ مَحْبُوبًا لِحَبِيبِهِ ، كَمَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ " **فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ** " إِلَخْ ، فَهُوَ يَتَقَرَّبُ إِلَىٰ رَبِّهِ حِفْظًا لِمَحَبَّتِهِ لَهُ ، وَاسْتِدْعَاءً لِمَحَبَّةِ رَبِّهِ لَهُ .

فَحِينَئِذٍ يَشُدُّ مِئْزَرَ الْجِدِّ فِي طَلَبِ مَحَبَّةِ حَبِيبِهِ لَهُ بِأَنْوَاعِ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ ، فَقَلْبُهُ ؛ لِلْمَحَبَّةِ وَالْإِنَابَةِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، وَلِسَانُهُ ؛ لِلذِّكْرِ وَتِلَاوَةِ كَلَامِ حَبِيبِهِ ، وَجَوَارِحُهُ : لِلطَّاعَاتِ ، فَهُوَ لَا يَفْتُرُ عَنِ التَّقَرُّبِ مِنْ حَبِيبِهِ .

وَهَذَا هُوَ السَّيْرُ الْمُفْضِي إِلَىٰ هَذِهِ الْغَايَةِ الَّتِي لَا تُنَالُ إِلَّا بِهِ،وَلَا يُتَوَصَّلُ إِلَيْهَا إِلَّا مِنْ هَذَا الْبَابِ ، وَهَذِهِ الطَّرِيقِ، وَحِينَئِذٍ تُجْمَعُ لَهُ فِي سَيْرِهِ جَمِيعُ مُتَفَرِّقَاتِ السُّلُوكِ مِنَ الْحُضُورِ وَالْهَيْبَةِ وَالْمُرَاقَبَةِ وَنَفْيِ الْخَوَاطِرِ وَتَخْلِيَةِ الْبَاطِنِ .

التَّقَرُّبُ إِلَى اللهِ بِالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ :

فَإِنَّ الْمُحبَّ يَشْرَعُ أَوَّلًا فِي التَّقَرُّبَاتِ بِالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ ، وَهِيَ ظَاهِرُ التَّقَرُّبِ ، ثُمَّ يَتَرَقَّىٰ مِنْ ذَلِكَ إِلَىٰ حَالِ التَّقَرُّبِ ، وَهُوَ الانْجِذَابُ إِلَىٰ حَبِيبِهِ بِكُلِّيَّتِهِ بِرُوحِهِ وَقَلْبِهِ ، وَعَقْلِهِ وَبَدَنِهِ ، ثُمَّ يَتَرَقَّىٰ مِنْ ذَلِكَ إِلَىٰ حَالِ الْإِحْسَانِ ، فَيَعْبُدُ اللهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ ، فَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ حِينَئِذٍ مِنْ بَاطِنِهِ بِأَعْمَالِ الْقُلُوبِ ؛ مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالْإِنَابَةِ وَالتَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ وَالْخَشْيَةِ ، فَيَنْبَعِثُ حِينَئِذٍ مِنْ بَاطِنِهِ الْجُودُ بِبَذْلِ الرُّوحِ وَالْجُودُ فِي مَحَبَّةِ حَبِيبِهِ بِلَا تَكَلُّفٍ، فَيَجُودُ بِرُوحِهِ وَنَفْسِهِ ، وَأَنْفَاسِهِ وَإِرَادَتِهِ ، وَأَعْمَالِهِ لِحَبِيبِهِ حَالًا لَا تَكَلُّفًا، فَإِذَا وَجَدَ الْمُحِبُّ ذَلِكَ فَقَدْ ظَفِرَ بِحَالِ التَّقَرُّبِ وَسِرِّهِ وَبَاطِنِهِ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْهُ فَهُوَ يَتَقَرَّبُ بِلِسَانِهِ وَبَدَنِهِ وَظَاهِرِهِ فَقَطْ ، فَلْيَدُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَلْيَتَكَلَّفِ التَّقَرُّبَ بِالْأَذْكَارِ وَالْأَعْمَالِ عَلَىٰ الدَّوَامِ ، فَعَسَاهُ أَنْ يَحْظَىٰ بِحَالِ الْقُرْبِ .

لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشَ الْمُحِبِّينَ :

فَلَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشَ الْمُحِبِّينَ ، الَّذِينَ قَرَّتْ أَعْيُنُهُمْ بِحَبِيبِهِمْ ، وَسَكَنَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهِ ، وَاطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ بِهِ ، وَاسْتَأْنَسُوا بِقُرْبِهِ ، وَتَنَعَّمُوا بِحُبِّهِ، فَفِي الْقَلْبِ فَاقَةٌ لَا يَسُدُّهَا إِلَّا مَحَبَّةُ اللهِ وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ ، وَلَا يُلَمُّ شَعَثُهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ أَلْبَتَّةَ ، وَمَنْ لَمْ يَظْفَرْ بِذَلِكَ : فَحَيَاتُهُ كُلُّهَا هُمُومٌ

وَغُمُومٌ ، وَآلامٌ وَحَسَرَاتٌ ، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ ذَا هِمَّةٍ عَالِيَةٍ تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ عَلَىٰ الدُّنْيَا حَسَرَات ، فَإِنَّ هِمَّتَهُ لا تَرْضَىٰ فِيهَا بالدُّون وَإِنْ كَانَ مَهِينًا خَسِيسًا ، فَعَيْشُهُ كَعَيْشِ أَخَسِّ الْحَيَوَانَاتِ ، فَلا تَقَرُّ الْعُيُونُ إِلَّا بِمَحَبَّةِ الْحَبِيبِ الأَوَّلِ .

نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى ... مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى ... وَحَنِينُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلِ

حَيَاةُ الْأَرْوَاحِ :

حَيَاةُ الْأَرْوَاحِ بَعْدَ مُفَارَقَتِهَا الْأَبْدَانَ وَخَلاصِهَا مِنْ هَذَا السِّجْنِ وَضِيقِهِ ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِ فَضَاءً وَرَوْحًا وَرَيْحَانًا وَرَاحَةً ، نِسْبَةُ هَذِهِ الدَّارِ إِلَيْهِ كَنِسْبَةِ بَطْنِ الأُمِّ إِلَىٰ هَذِهِ الدَّارِ ، أَوْ أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ ، قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ : لِتَكُنْ مُبَادَرَتُكَ إِلَىٰ الْخُرُوجِ مِنَ الدُّنْيَا كَمُبَادَرَتِكَ إِلَىٰ الْخُرُوجِ مِنَ السِّجْنِ الضَّيِّقِ إِلَىٰ أَحِبَّتِكَ ، وَالاجْتِمَاعِ بِهِمْ فِي الْبَسَاتِينِ الْمُونِقَةِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ : ﴿ **فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾** ﴾ [الوَاقِعَةُ : ٨٨-٨٩] .

وَيَكْفِي فِي طِيبِ هَذِهِ الْحَيَاةِ : مُرَافَقَةُ الرَّفِيقِ الأَعْلَىٰ ، وَمُفَارَقَةُ الرَّفِيقِ الْمُؤْذِي الْمُنَكِّد ، الَّذِي تُنَغِّصُ رُؤْيَتُهُ وَمُشَاهَدَتُهُ الْحَيَاةَ ، فَضْلًا عَنْ مُخَالَطَتِهِ وَعِشْرَتِهِ إِلَىٰ الرَّفِيقِ الأَعْلَىٰ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ

وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ، فِي جِوَارِ الرَّبِّ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

قَدْ قُلْتُ :

إِذْ مَدَحُوا الْحَيَاةَ فَأَسْرَفُوا — فِي الْمَوْتِ أَلْفُ فَضِيلَةٍ
لَا تُعْرَفُ مِنْهَا أَمَانُ لِقَائِهِ بِلِقَائِهِ — وَفِرَاقُ كُلِّ مُعَاشِرٍ لَا يُنْصِفُ

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْمَوْتِ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا أَنَّهُ بَابُ الدُّخُولِ إِلَىٰ هَذِهِ الْحَيَاةِ ، وَجِسْرٌ يُعْبَرُ مِنْهُ إِلَيْهَا : لَكَفَىٰ بِهِ تُحْفَةً لِلْمُؤْمِنِ .

جَزَىٰ اللهُ عَنَّا الْمَوْتَ خَيْرًا فَإِنَّهُ — أَبَرُّ بِنَا مِنْ كُلِّ بِرٍّ وَأَلْطَفُ
يُعَجِّلُ تَخْلِيصَ النُّفُوسِ مِنَ الْأَذَى — وَيُدْنِي إِلَىٰ الدَّارِ الَّتِي هِيَ أَشْرَفُ

فَالاجْتِهَادُ فِي هَذَا الْعُمْرِ الْقَصِيرِ ، وَالْمُدَّةِ الْقَلِيلَةِ ، وَالسَّعْيِ وَالْكَدْحِ ، وَتَحَمُّلِ الْأَثْقَالِ ، وَالتَّعَبِ وَالْمَشَقَّةِ إِنَّمَا هُوَ لِهَذِهِ الْحَيَاةِ ، وَالْعُلُومُ وَالْأَعْمَالُ وَسِيلَةٌ إِلَيْهَا ، وَهِيَ يَقَظَةٌ ، وَمَا قَبْلَهَا مِنَ الْحَيَاةِ نَوْمٌ ، وَهِيَ عَيْنٌ ، وَمَا قَبْلَهَا أَثَرٌ ، وَهِيَ حَيَاةٌ جَامِعَةٌ بَيْنَ فَقْدِ الْمَكْرُوهِ ، وَحُصُولِ الْمَحْبُوبِ فِي مَقَامِ الْأُنْسِ ، وَحَضْرَةِ الْقُدْسِ ، حَيْثُ لَا يَتَعَذَّرُ مَطْلُوبٌ ، وَلَا يُفْقَدُ مَحْبُوبٌ ؛ حَيْثُ الطُّمَأْنِينَةُ وَالرَّاحَةُ ، وَالْبَهْجَةُ وَالسُّرُورُ ، حَيْثُ لَا عِبَارَةَ لِلْعَبْدِ عَنْ حَقِيقَةِ كُنْهِهَا ؛ لِأَنَّهَا فِي بَلَدٍ لَا عَهْدَ لَنَا بِهِ ، وَلَا إِلْفَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ

سَاكنه ، فَالنَّفْسُ لإلْفِهَا لِهَذَا السِّجْنِ الضَّيِّقِ النَّكِد زَمَانًا طَويلًا تَكْرَهُ الانْتِقَالَ مِنْهُ إِلَىٰ ذَلِكَ الْبَلَدِ ، وَتَسْتَوْحِشُ إِذَا اسْتَشْعَرَتْ مُفَارَقَتَهُ .

وَحُصُولُ الْعِلْمِ بِهَذِهِ الْحَيَاةِ إِنَّمَا وَصَلَ إِلَيْنَا بِخَبَرٍ إِلَهِيٍّ عَلَىٰ يَدِ أَكْمَلِ الْخَلْقِ وَأَعْلَمِهِمْ وَأَنْصَحِهِمْ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ، فَقَامَتْ شَوَاهِدُهَا فِي قُلُوبِ أَهْلِ الإِيمَانِ ، حَتَّىٰ صَارَتْ لَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْعِيَانِ ، فَفَرَّتْ نُفُوسُهُمْ مِنْ هَذَا الظِّلِّ الزَّائِلِ ، وَالْخَيَالِ الْمُضْمَحِلِّ ، وَالْعَيْشِ الْفَانِي الْمَشُوبِ بِالتَّنْغِيصِ وَأَنْوَاعِ الْغُصَصِ، رَغْبَةً عَنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ ، وَشَوْقًا إِلَىٰ ذَلِكَ الْمَلَكُوتِ ، وَوَجْدًا بِهَذَا السُّرُورِ ، وَطَرَبًا عَلَىٰ هَذَا الْحَدِّ، وَاشْتِيَاقًا لِهَذَا النَّسِيمِ الْوَارِدِ مِنْ مَحَلِّ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ .

وَلَعَمْرُ اللهِ إِنَّ مَنْ سَافَرَ إِلَىٰ بَلَدِ الْعَدْلِ وَالْخِصْبِ وَالأَمْنِ وَالسُّرُورِ صَبَرَ فِي طَرِيقِهِ عَلَىٰ كُلِّ مَشَقَّةٍ وَإِعْوَازٍ وَجَدْبٍ ، وَفَارَقَ الْمُتَخَلِّفِينَ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهِمْ ، وَأَجَابَ الْمُنَادِي إِذَا نَادَىٰ بِهِ حَيَّ عَلَىٰ الْفَلَاحِ ، وَبَذَلَ نَفْسَهُ فِي الْوُصُولِ بَذْلَ الْمُحِبِّ بِالرِّضَا وَالسَّمَاحِ ، وَوَاصَلَ السَّيْرَ بِالْغُدُوِّ وَالرَّوَاحِ ، فَحَمِدَ عِنْدَ الْوُصُولِ مَسْرَاهُ ، وَإِنَّمَا يَحْمَدُ الْمُسَافِرُ السُّرَىٰ عِنْدَ الصَّبَاحِ .

عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى ... وَفِي الْمَمَاتِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ اللِّقَا

وَمَا هَذَا وَاللهِ بِالصَّعْبِ وَلَا بِالشَّدِيدِ ، مَعَ هَذَا الْعُمْرِ الْقَصِيرِ،

الَّذِي هُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ تِلْكَ الدَّارِ كَسَاعَةٍ مِنْ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وَقَالَ تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يُونُس: ٤٥]، وقال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النَّازعات: ٤٦]، وَقَالَ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الرُّوم: ٥٥]، قَالَ تعالىٰ: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المُؤْمنون: ١١٢-١١٤]، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَنَا يُجَرُّ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَتَّقِي بِهِ الشَّوْكَ وَالْحِجَارَةَ إِلَىٰ هَذِهِ الْحَيَاةِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ كَثِيرًا وَلَا غَبْنًا فِي جَنْبِ مَا يُوَقَّاهُ.

فَوَاحَسْرَتَاهُ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ شَاهَدَتْ هَاتَيْنِ الْحَيَاتَيْنِ عَلَىٰ مَا هُمَا عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ هِمَّةٍ تُؤْثِرُ الْأَدْنَىٰ عَلَىٰ الْأَعْلَىٰ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِتَوْفِيقِ مَنْ أَزِمَّةُ الْأُمُورِ بِيَدَيْهِ، وَمِنْهُ ابْتِدَاءُ كُلِّ شَيْءٍ وَانْتِهَاؤُهُ إِلَيْهِ، أَقْعَدَ نُفُوسَ مَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَاوَةُ عَنِ السَّفَرِ إِلَىٰ هَذِهِ الدَّارِ، وَجَذَبَ قُلُوبَ مَنْ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْهُ الْحُسْنَىٰ، وَأَقَامَهُمْ فِي الطَّرِيقِ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِمْ رُكُوبَ الْأَخْطَارِ، فَأَضَاعَ أُولَئِكَ مَرَاحِلَ أَعْمَارِهِمْ مَعَ الْمُتَخَلِّفِينَ وَقَطَعَ هَؤُلَاءِ مَرَاحِلَ أَعْمَارِهِمْ مَعَ السَّائِرِينَ، وَعُقِدَتِ الْغَبَرَةُ وَثَارَ الْعَجَاجُ، فَتَوَارَىٰ عَنْهُ السَّائِرُونَ وَالْمُتَخَلِّفُونَ، وَسَيَنْجَلِي عَنْ قَرِيبٍ، فَيَفُوزُ الْعَامِلُونَ،

وَيَخْسرُ الْمُبْطِلُونَ .

حَيَاةُ الشُّهَدَاءِ :

وَفِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ تُعْلَمُ حَيَاةُ الشُّهَدَاءِ ، وَأَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، وَأَنَّهَا أَكْمَلُ مِنْ حَيَاتِهِمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَأَتَمُّ وَأَطْيَبُ ، وَإِنْ كَانَتْ أَجْسَادُهُمْ مُتَلَاشِيَةً ، وَلُحُومُهُمْ مُتَمَزِّقَةً ، وَأَوْصَالُهُمْ مُتَفَرِّقَةً ، وَعِظَامُهُمْ نَخِرَةً، فَلَيْسَ الْعَمَلُ عَلَى الطَّلَلِ إِنَّمَا الشَّأْنُ فِي السَّاكِنِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ **وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ** ﴿١٥٤﴾ ﴾ [البقرة : ١٥٤] ، وَإِذَا كَانَ الشُّهَدَاءُ إِنَّمَا نَالُوا هَذِهِ الْحَيَاةَ بِمُتَابَعَةِ الرُّسُلِ وَعَلَى أَيْدِيهِمْ ، فَمَا الظَّنُّ بِحَيَاةِ الرُّسُلِ فِي الْبَرْزَخِ ؟ .

وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ :

فَالْعَيْشُ نَـوْمٌ وَالْمَنِيَّةُ يَقْظَةٌ ... وَالْمَـرْءُ بَيْنَهُمَا خَيَالٌ سَـارِي

فَلِلرُّسُلِ وَالشُّهَدَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ الَّتِي هِيَ يَقْظَةٌ مِنْ نَوْمِ الدُّنْيَا أَكْمَلُهَا وَأَتَمُّهَا ، وَعَلَى قَدْرِ حَيَاةِ الْعَبْدِ فِي هَذَا الْعَالَمِ يَكُونُ شَوْقُهُ إِلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ ، وَسَعْيُهُ وَحِرْصُهُ عَلَى الظَّفَرِ بِهَا ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ .

الْحيَاةُ الْبَاقِيَة :

الْحَيَاةُ الدَّائِمَةُ الْبَاقِيَةُ بَعْدَ طَيِّ هَذَا الْعَالَمِ ، وَذَهَاب الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا في دَار الْحَيَوَانِ ، وَهِيَ الْحَيَاةُ الَّتِي شَمَّرَ إِلَيْهَا الْمُشَمِّرُونَ ، وَسَابَقَ إِلَيْهَا الْمُتَسَابِقُونَ ، وَنَافَسَ فِيهَا الْمُتَنَافِسُونَ ، وَهِيَ الَّتِي أَجْرَيْنَا الْكَلَامَ إِلَيْهَا، وَنَادَتِ الْكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ وَرُسُلُ اللهِ جَمِيعُهُمْ عَلَيْهَا ، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ مَنْ فَاتَهُ الاسْتِعْدَادُ لَهَا ﴿ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفَجْرُ : ٢١-٢٦].

وَهِيَ الَّتِي قَالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- فِيهَا : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العَنْكَبُوت: ٦٤] .

وَالْحَيَاةُ الْمُتَقَدِّمَةُ كَالنَّوْمِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا ، وَكُلُّ مَا تَقَدَّمَ مِنْ وَصْفِ السَّيْرِ وَمَنَازِلِهِ ، وَأَحْوَالِ السَّائِرِينَ ، وَعُبُودِيَّتِهِمُ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ فَوَسِيلَةٌ إِلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ ، وَإِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يُدْخِلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ ؟** » [(١)] .

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٨٥٨) وَالتِّرْمِذِيُّ (١٥) .

وَكَمَا قِيلَ : تَنَفَّسَتِ الْآخِرَةُ فَكَانَتِ الدُّنْيَا نَفَسًا مِنْ أَنْفَاسِهَا ، فَأَصَابَ أَهْلُ السَّعَادَةِ نَفَسَ نَعِيمِهَا ، فَهُمْ عَلَىٰ هَذَا النَّفَسِ يَعْمَلُونَ ، وَأَصَابَ أَهْلُ الشَّقَاوَةِ نَفَسَ عَذَابِهَا ، فَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ النَّفَسِ يَعْمَلُونَ .

غَيْرَةُ المَوْلَى ـ جَلَّ جلالُهُ ـ :

الْحَقَّ جَلَّ جَلَالُهُ غَيُورٌ لَا يَرْضَىٰ مِمَّنْ عَرَفَهُ وَوَجَدَ حَلَاوَةَ مَعْرِفَتِهِ ، وَاتَّصَلَ قَلْبُهُ بِمَحَبَّتِهِ وَالْأُنْسِ بِهِ ، وَتَعَلَّقَتْ رُوحُهُ بِإِرَادَةِ وَجْهِهِ الْأَعْلَىٰ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْتِفَاتٌ إِلَىٰ غَيْرِهِ أَلْبَتَّةَ .

وَمِنْ غَيْرَتِهِ سُبْحَانَهُ : حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ يَغَارُ أَشَدَّ الْغَيْرَةِ عَلَىٰ عَبْدِهِ : أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَىٰ سِوَاهُ ، فَإِذَا أَذَاقَهُ حَلَاوَةَ مَحَبَّتِهِ ، وَلَذَّةَ الشَّوْقِ إِلَيْهِ ، وَأُنْسَ مَعْرِفَتِهِ ، ثُمَّ سَاكَنَ غَيْرَهُ بَاعَدَهُ مِنْ قُرْبِهِ ، وَقَطَعَهُ مِنْ وَصْلِهِ ، وَأَوْحَشَ سِرَّهُ ، وَشَتَّتَ قَلْبَهُ ، وَنَغَّصَ عَيْشَهُ ، وَأَلْبَسَهُ رِدَاءَ الذُّلِّ وَالصَّغَارِ وَالْهَوَانِ ، فَنَادَىٰ عَلَيْهِ حَالُهُ، إِنْ لَمْ يُصَرِّحْ بِهِ قَالُهُ : هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَعَوَّضَ عَنْ وَلِيِّهِ وَإِلَهِهِ وَفَاطِرِهِ ، وَمَنْ لَا حَيَاةَ لَهُ إِلَّا بِهِ بِغَيْرِهِ وَآثَرَ غَيْرَهُ عَلَيْهِ ، فَاتَّخَذَ سِوَاهُ لَهُ حَبِيبًا ، وَرَضِيَ بِغَيْرِهِ أَنِيسًا ، وَاتَّخَذَ سِوَاهُ وَلِيًّا ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ

لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف: ٥٠].

فَإِذَا ضُرِبَ هَذَا الْقَلْبُ بِسَوْطِ الْبُعْدِ وَالْحِجَابِ، وَسُلِّطَ عَلَيْهِ مَنْ يَسُومُهُ سُوءَ الْعَذَابِ، وَمُلِئَ مِنَ الْهُمُومِ وَالْغُمُومِ وَالأَحْزَانِ، وَصَارَ مَحَلًّا لِلْجِيَفِ وَالأَقْذَارِ وَالأَنْتَانِ، وَبُدِّلَ بِالأُنْسِ وَحْشَةً، وَبِالْعِزِّ ذُلًّا، وَبِالْقَنَاعَةِ حِرْصًا، وَبِالْقُرْبِ بُعْدًا وَطَرْدًا، وَبِالْجَمْعِ شَتَاتًا وَتَفْرِقَةً كَانَ هَذَا بَعْضَ جَزَائِهِ، فَحِينَئِذٍ تَطْرُقُهُ الطَّوَارِقُ وَالْمُؤْلِمَاتُ، وَتَعْتَرِيهِ وُفُودُ الأَحْزَانِ وَالْهُمُومِ بَعْدَ وُفُودِ الْمَسَرَّاتِ.

قَرَأَ قَارِئٌ بَيْنَ يَدَيِ السَّرِيِّ: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٥]، فَقَالَ السَّرِيُّ: تَدْرُونَ مَا هَذَا الْحِجَابُ؟، هُوَ حِجَابُ الْغَيْرَةِ، وَلَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ، فَمَنْ عَرَفَهُ وَذَاقَ حَلَاوَةَ قُرْبِهِ وَمَحَبَّتِهِ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْهُ إِلَىٰ مُسَاكَنَةِ غَيْرِهِ: ثَبَّطَ جَوَارِحَهُ عَنْ طَاعَتِهِ، وَعَقَلَ قَلْبَهُ عَنْ إِرَادَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَأَخَّرَهُ عَنْ مَحَلِّ قُرْبِهِ، وَوَلَّاهُ مَا اخْتَارَهُ لِنَفْسِهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: احْذَرْهُ، فَإِنَّهُ غَيُورٌ، لَا يُحِبُّ أَنْ يَرَىٰ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ سِوَاهُ.

وَمِنْ غَيْرَتِهِ: أَنَّ صَفِيَّهُ آدَمَ لَمَّا سَاكَنَ بِقَلْبِهِ الْجَنَّةَ، وَحَرَصَ عَلَىٰ الْخُلُودِ فِيهَا أَخْرَجَهُ مِنْهَا، وَمِنْ غَيْرَتِهِ سُبْحَانَهُ: أَنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَهُ لَمَّا أَخَذَ إِسْمَاعِيلُ شُعْبَةً مِنْ قَلْبِهِ أَمَرَهُ بِذَبْحِهِ، حَتَّىٰ يُخْرِجَ مِنْ قَلْبِهِ ذَلِكَ الْمُزَاحِمَ.

إِنَّما كَانَ الشِّرْكُ عِنْدَهُ ذَنْبًا لَا يُغْفَرُ لِتَعَلُّقِ قَلْبِ الْمُشْرِكِ بِهِ وَبِغَيْرِهِ ، فَكَيْفَ بِمَنْ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ كُلُّهُ بِغَيْرِهِ ، وَأَعْرَضَ عَنْهُ بِكُلِّيَّتِهِ ؟.

إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ مَا حَلَّ بِكَ مِنْ بَلَاءِ الِانْفِصَالِ ، وَذُلِّ الْحِجَابِ، فَانْظُرْ لِمَنِ اسْتَعْبَدَ قَلْبَكَ ، وَاسْتَخْدَمَ جَوارِحَكَ ، وَبِمَنْ شَغَلَ سِرَّكَ ، وَأَيْنَ يَبِيتُ قَلْبُكَ إِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ ؟ وَإِلَىٰ أَيْنَ يَطِيرُ إِذَا اسْتَيْقَظْتَ مِنْ مَنَامِكَ؟،فَذَلِكَ هُوَ مَعْبُودُكَ وَإِلَهُكَ،فَإِذَا سَمِعْتَ النِّدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لِيَنْطَلِقَ كُلُّ وَاحِدٍ مَعَ مَنْ كَانَ يَعْبُدُهُ، انْطَلَقْتَ مَعَهُ كَائِنًا مَنْ كَانَ .

لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ! مَا أَشَدَّ غَبْنَ مَنْ بَاعَ أَطْيَبَ الْحَيَاةِ فِي هَذِهِ الدَّارِ الْمُتَّصِلَةَ بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ هُنَاكَ ، وَالنَّعِيمَ الْمُقِيمَ بِالْحَيَاةِ الْمُنَغَّصَةِ الْمُنَكَّدَةِ الْمُتَّصِلَةِ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ ، وَالْمُدَّةُ سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ ، أَوْ عَشِيَّةٌ أَوْ ضُحَاهَا ، أَوْ يَوْمٌ أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ ، فِيهِ رِبْحُ الْأَبَدِ أَوْ خَسَارَةُ الْأَبَدِ .

فَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ ثُمَّ تَنْقَضِي   وَيَذْهَبُ هَذَا كُلُّهُ وَيَزُولُ

أَوْلِيَاءُ اللهِ هُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالِاسْتِقَامَةِ :

لَا يَكُونُ وَلِيٌّ لِلَّهِ كَامِلُ الْوِلَايَةِ مِنْ غَيْرِ أُولِي الْعِلْمِ أَبَدًا ، فَمَا اتَّخَذَ اللهُ وَلَا يَتَّخِذُ وَلِيًّا جَاهِلًا ، وَالْجَهْلُ رَأْسُ كُلِّ بِدْعَةٍ وَضَلَالَةٍ وَنَقْصٍ ، وَالْعِلْمُ أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ وَهُدًىٰ وَكَمَالٍ .

بِمَاذَا نَعْرِفُ رَبَّنَا :

قِيلَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُبَارَكِ: بِمَاذَا نَعْرِفُ رَبَّنَا؟،قَالَ: بِأَنَّهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَىٰ عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، فَأَتَىٰ عَبْدُ اللهِ بِأَصْلِ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي لَا يَصِحُّ لِأَحَدٍ مَعْرِفَةٌ وَلَا إِقْرَارٌ بِاللهِ سُبْحَانَهُ إِلَّا بِهِ،وَهُوَ الْمُبَايَنَةُ وَالْعُلُوُّ عَلَىٰ الْعَرْشِ.

مَنْ هُوَ الْعَارِفُ :

الْعَارِفُ ابْنُ وَقْتِهِ ، وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ الْكَلَامِ وَأَخْصَرِهِ ، فَهُوَ مَشْغُولٌ بِوَظِيفَةِ وَقْتِهِ عَمَّا مَضَىٰ ، وَصَارَ فِي الْعَدَمِ ، وَعَمَّا لَمْ يَدْخُلْ بَعْدُ فِي الْوُجُودِ، فَهَمُّهُ عِمَارَةُ وَقْتِهِ الَّذِي هُوَ مَادَّةُ حَيَاتِهِ الْبَاقِيَةِ .

وَمِنْ عَلَامَاتِهِ : أَنَّهُ مُسْتَأْنِسٌ بِرَبِّهِ ، مُسْتَوْحِشٌ مِمَّنْ يَقْطَعُهُ عَنْهُ ، وَلِهَذَا قِيلَ : الْعَارِفُ مَنْ أَنِسَ بِاللهِ ، فَأَوْحَشَهُ مِنَ الْخَلْقِ ، وَافْتَقَرَ إِلَىٰ اللهِ فَأَغْنَاهُ عَنْهُمْ ، وَذَلَّ لِلَّهِ فَأَعَزَّهُ فِيهِمْ ، وَتَوَاضَعَ لِلَّهِ فَرَفَعَهُ بَيْنَهُمْ ، وَاسْتَغْنَىٰ بِاللهِ فَأَحْوَجَهُمْ إِلَيْهِ .

أَدَبٌ

مِنْ مُفْسِدَاتِ الأَخْلَاقِ :

وَالْمُخَاصَمَةُ لِلْخَلْقِ مُفْسِدَةٌ لِلْخُلُقِ، فَيُشْفِقُ عَلَىٰ خُلُقِهِ مِنْ هَذَا الْمُفْسِدِ شَفَقَةً تَصُونُهُ عَنْهُ.

مُرَاعَاةُ حُقُوقِ النَّاسِ :

أَنْ تُرَاعِيَ حُقُوقَ النَّاسِ فَتُؤَدِّيَهَا ، وَلَا تَرَىٰ أَنَّ مَا فَعَلُوهُ مِنْ حُقُوقِكَ عَلَيْهِمْ ، فَلَا تُعَاوِضَهُمْ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ رُعُونَاتِ النَّفْسِ وَحَمَاقَاتِهَا،وَلَا تُطَالِبُهُمْ بِحُقُوقِ نَفْسِكَ ، وَتَعْتَرِفُ بِفَضْلِ ذِي الْفَضْلِ مِنْهُمْ ، وَتَنْسَىٰ فَضْلَ نَفْسِكَ .

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ -قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ - يَقُولُ : الْعَارِفُ لَا يَرَىٰ لَهُ عَلَىٰ أَحَدٍ حَقًّا ، وَلَا يَشْهَدُ عَلَىٰ غَيْرِهِ فَضْلًا ، وَلِذَلِكَ لَا يُعَاتِبُ، وَلَا يُطَالِبُ ، وَلَا يُضَارِبُ .

ظُلْمُ المَسْأَلَةِ :

وَالْمَسْأَلَةُ فِي الْأَصْلِ حَرَامٌ ، وَإِنَّمَا أُبِيحَتْ لِلْحَاجَةِ وَالضَّرُورَةِ ، لِأَنَّهَا

ظُلْمٌ فِي حَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ ، وَظُلْمٌ فِي حَقِّ الْمَسْئُولِ ، وَظُلْمٌ فِي حَقِّ السَّائِلِ .

أَمَّا الْأَوَّلُ : فَلِأَنَّهُ بَذَلَ سُؤَالَهُ وَفَقْرَهُ وَذُلَّهُ وَاسْتِعْطَاءَهُ لِغَيْرِ اللهِ ، وَذَلِكَ نَوْعُ عُبُودِيَّةٍ ، فَوَضَعَ الْمَسْأَلَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ، وَأَنْزَلَهَا بِغَيْرِ أَهْلِهَا ، وَظَلَمَ تَوْحِيدَهُ وَإِخْلَاصَهُ ، وَفَقْرَهُ إِلَىٰ اللهِ ، وَتَوَكُّلَهُ عَلَيْهِ وَرِضَاهُ بِقَسْمِهِ ، وَاسْتَغْنَىٰ بِسُؤَالِ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَةِ رَبِّ النَّاسِ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ يَهْضِمُ مِنْ حَقِّ التَّوْحِيدِ ، وَيُطْفِئُ نُورَهُ وَيُضْعِفُ قُوَّتَهُ .

وَأَمَّا ظُلْمُهُ لِلْمَسْئُولِ : فَلِأَنَّهُ سَأَلَهُ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ ، فَأَوْجَبَ لَهُ بِسُؤَالِهِ عَلَيْهِ حَقًّا لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِ ، وَعَرَّضَهُ لِمَشَقَّةِ الْبَذْلِ ، أَوْ لَوْمِ الْمَنْعِ ، فَإِنْ أَعْطَاهُ ، أَعْطَاهُ عَلَىٰ كَرَاهَةٍ ، وَإِنْ مَنَعَهُ ، مَنَعَهُ عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ وَإِغْمَاضٍ ، هَذَا إِذَا سَأَلَهُ مَا لَيْسَ عَلَيْهِ ، وَأَمَّا إِذَا سَأَلَهُ حَقًّا هُوَ لَهُ عِنْدَهُ : فَلَمْ يَدْخُلْ فِي ذَلِكَ ، وَلَمْ يَظْلِمْهُ بِسُؤَالِهِ .

وَأَمَّا ظُلْمُهُ لِنَفْسِهِ : فَإِنَّهُ أَرَاقَ مَاءَ وَجْهِهِ ، وَذَلَّ لِغَيْرِ خَالِقِهِ ، وَأَنْزَلَ نَفْسَهُ أَدْنَىٰ الْمَنْزِلَتَيْنِ ، وَرَضِيَ لَهَا بِأَبْخَسِ الْحَالَتَيْنِ ، وَرَضِيَ بِإِسْقَاطِ شَرَفِ نَفْسِهِ ، وَعِزَّةِ تَعَفُّفِهِ ، وَرَاحَةِ قَنَاعَتِهِ ، وَبَاعَ صَبْرَهُ وَرِضَاهُ وَتَوَكُّلَهُ ، وَقَنَاعَتَهُ بِمَا قُسِمَ لَهُ ، وَاسْتِغْنَاءَهُ عَنِ النَّاسِ بِسُؤَالِهِمْ ، وَهَذَا عَيْنُ ظُلْمِهِ لِنَفْسِهِ ، إِذْ وَضَعَهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ، وَأَخْمَلَ شَرَفَهَا ، وَوَضَعَ قَدْرَهَا ، وَأَذْهَبَ عِزَّهَا ، وَصَغَّرَهَا وَحَقَّرَهَا ، وَرَضِيَ أَنْ تَكُونَ نَفْسُهُ تَحْتَ نَفْسِ

الْمَسْئُولِ ، وَيَدُهُ تَحْتَ يَدِهِ ، وَلَوْلَا الضَّرُورَةُ لَمْ يُبَحْ ذَلِكَ فِي الشَّرْعِ .

قَوَاعِدُ الشُّكْرِ:

وَالشُّكْرُ مَبْنِيٌ عَلَى خَمْسِ قَوَاعِدَ : خُضُوعُ الشَّاكِرِ لِلْمَشْكُورِ ، وَحُبُّهُ لَهُ ، وَاعْتِرَافُهُ بِنِعْمَتِهِ ، وَثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ بِهَا ، وَأَنْ لَا يَسْتَعْمِلَهَا فِيمَا يَكْرَهُ .

الشُّكْرُ مَعَهُ الْمَزِيدُ أَبَدًا :

وَالشُّكْرُ مَعَهُ الْمَزِيدُ أَبَـدا ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إِبْرَاهِيمُ :٧] ، فَمَتَىٰ لَمْ تَرَ حَالَكَ فِي مَزِيدٍ ، فَاسْتَقْبِلِ الشُّكْرَ.

مِمَّا يَكُونُ الشُّكْرُ :

وَمَعْنَىٰ هَذَا : أَنَّ الشُّكْرَ يَكُونُ بِالْقَلْبِ خُضُوعًا وَاسْتِكَانَةً ، وَبِاللِّسَانِ ثَنَاءً وَاعْتِرَافًا ، وَبِالْجَوَارِحِ طَاعَةً وَانْقِيَادًا .

شُكْرُ نِعْمَةِ اللهِ نِعْمَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى شُكْرٍ آخَرَ:

وَأَمَّا إِنْعَامُ الرَّبِّ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عَبْدِهِ : فَإِحْسَانٌ إِلَيْهِ ، وَتَفَضُّلٌ عَلَيْهِ ، وَمُجَرَّدُ امْتِنَانٍ ، لَا لِحَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهِ ، وَلَا لِمُعَاوَضَةٍ ، وَلَا لِاسْتِعَانَةٍ بِهِ ، وَلَا لِيَتَكَثَّرَ بِهِ مِنْ قِلَّةٍ ، وَلَا لِيَتَعَزَّزَ بِهِ مِنْ ذِلَّةٍ ، وَلَا لِيَقْوَىٰ بِهِ مِنْ ضَعْفٍ ، سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ .

وَأَمْرُهُ لَهُ بِالشُّكْرِ أَيْضًا : إِنْعَامٌ آخَرُ عَلَيْهِ ، وَإِحْسَانٌ مِنْهُ إِلَيْهِ ، إِذْ مَنْفَعَةُ

الشُّكْر تَرْجِعُ إِلَى الْعَبْد دُنْيَا وَآخِرَةً ، لَا إِلَى الله ، وَالْعَبْدُ هُوَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِشُكْرِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ [لُقْمَان: ١٢] ، فَشُكْرُ الْعَبْد إِحْسَانٌ مِنْهُ إِلَى نَفْسه دُنْيَا وَأُخْرَى ، فَلَا يُذَمُّ مَا أَتَى بِهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَ لَا يُحْسِنُ مُقَابَلَةَ الْمُنْعِم بِهِ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ شُكْرَهُ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا هُوَ مُحْسِنٌ إِلَى نَفْسه بِالشُّكْرِ ، لَا أَنَّهُ مُكَافِئٌ بِهِ لِنِعَم الرَّبِّ ، فَالرَّبُّ تَعَالَى لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُكَافِئَ نِعَمَهُ أَبَدًا ، وَلَا أَقَلَّهَا ، وَلَا أَدْنَى نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِه ، فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ ، الْخَالِقُ لِلشُّكْرِ وَالشَّاكِرِ ، وَمَا يُشْكَرُ عَلَيْه ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُحْصِيَ ثَنَاءً عَلَيْه ، فَإِنَّهُ هُوَ الْمُحْسِنُ إِلَى عَبْدِهِ بِنِعَمِه، وَأَحْسَنَ إِلَيْه بِأَنْ أَوْزَعَهُ شُكْرَهَا ، فَشُكْرُهُ نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْه ، تَحْتَاجُ إِلَى شُكْرٍ آخَرَ ، وَهَلُمَّ جَرًّا .

أَسَاسُ الصِّدْقِ وَأَسَاسُ الْكَذِبِ:

وَالْإِيمَانُ أَسَاسُهُ الصِّدْقُ ، وَالنِّفَاقُ أَسَاسُهُ الْكَذِبُ ، فَلَا يَجْتَمِعُ كَذِبٌ وَإِيمَانٌ إِلَّا وَأَحَدُهُمَا مُحَارِبٌ لِلْآخَرِ .

وَمِنْ عَلَامَاتِ الصِّدْقِ وَ الْكَذِبِ:

وَمِنْ عَلَامَاتِ الصِّدْقِ : طُمَأْنِينَةُ الْقَلْب إِلَيْه ، وَمِنْ عَلَامَاتِ الْكَذِب: حُصُولُ الرِّيبَة ، كَمَا فِي التِّرْمِذِيِّ - مَرْفُوعًا - مِنْ حَدِيث الْحَسَن بْن عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ : « **الصِّدْقُ**

طُمَأْنِينَةٌ ، وَالْكَذِبُ رِيبَةٌ » [(١)] .

ثُقْلُ الصِّدْقِ وَخِفَّةُ الْكَذِبِ :

فَحِمْلُ الصِّدْقِ كَحِمْلِ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي، لَا يُطِيقُهُ إِلَّا أَصْحَابُ الْعَزَائِمِ، فَهُمْ يَتَقَلَّبُونَ تَحْتَهُ تَقَلُّبَ الْحَامِلِ بِحِمْله الثَّقِيلِ، وَالرِّيَاءُ وَالْكَذِبُ خَفِيفٌ كَالرِّيشَةِ لَا يَجِدُ لَهُ صَاحِبُهُ ثِقَلًا أَلْبَتَّةَ ، فَهُوَ حَامِلٌ لَهُ فِي أَيِّ مَوْضِعٍ اتَّفَقَ ، بِلَا تَعَبٍ وَلَا مَشَقَّةٍ وَلَا كُلْفَةٍ ، فَهُوَ لَا يَتَقَلَّبُ تَحْتَ حِمْلِهِ وَلَا يَجِدُ ثِقَلَهُ .

أَفْضَلُ السَّخَاءِ وَأَحْمَدُهُ :

السَّخَاءُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ هُوَ السَّخَاءُ ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ سَخَاءِ الْبَذْلِ .

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ -رَحِمَهُ اللهُ- : سَخَاءُ النَّفْسِ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ أَفْضَلُ مِنْ سَخَاءِ النَّفْسِ بِالْبَذْلِ .

وَهَذَا الْمَنْزِلُ : هُوَ مَنْزِلُ الْجُودِ وَالسَّخَاءِ وَالْإِحْسَانِ .

وَسُمِّيَ بِمَنْزِلِ الْإِيثَارِ لِأَنَّهُ أَعْلَى مَرَاتِبِهِ ، فَإِنَّ الْمَرَاتِبَ ثَلَاثَةٌ .

إِحْدَاهَا : أَنْ لَا يَنْقُصَهُ الْبَذْلُ ، وَلَا يَصْعُبَ عَلَيْهِ ، فَهُوَ مَنْزِلَةُ السَّخَاءِ .

---

(١) (صَحِيحٌ) : رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٦٠) وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (٢٠٤٥).

الثَّانِيَةُ : أَنْ يُعْطِيَ الْأَكْثَرَ ، وَيُبْقِيَ لَهُ شَيْئًا ، أَوْ يُبْقِيَ مِثْلَ مَا أَعْطَىٰ ، فَهُوَ الْجُودُ .

الثَّالِثَةُ : أَنْ يُؤْثِرَ غَيْرَهُ بِالشَّيْءِ مَعَ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ ، وَهُوَ مَرْتَبَةُ الْإِيثَارِ وَعَكْسُهَا الْأَثَرَةُ وَهُوَ اسْتِئْثَارُهُ عَنْ أَخِيهِ بِمَا هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ ، وَهِيَ الْمَرْتَبَةُ الَّتِي قَالَ فِيهَا رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِلْأَنْصَارِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- : « **إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً ، فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ تَلْقَوْنِي عَلَىٰ الْحَوْضِ** »[1] ، وَالْأَنْصَارُ : هُمُ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللهُ بِالْإِيثَارِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾ [الحشر : ٩] .

مَرَاتِبُ الْجُودِ :

وَالْجُودُ عَشْرُ مَرَاتِبَ :

إِحْدَاهَا : الْجُودُ بِالنَّفْسِ ، وَهُوَ أَعْلَىٰ مَرَاتِبِهِ .

كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

يَجُودُ بِالنَّفْسِ ، إِذْ ضَنَّ الْبَخِيلُ بِهَا وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَىٰ غَايَةِ الْجُودِ

الثَّانِيَةُ : الْجُودُ بِالرِّيَاسَةِ ، وَهُوَ ثَانِي مَرَاتِبِ الْجُودِ ، فَيَحْمِلُ الْجَوَادَ جُودُهُ عَلَىٰ امْتِهَانِ رِيَاسَتِهِ ، وَالْجُودِ بِهَا ، وَالْإِيثَارِ فِي قَضَاءِ حَاجَاتِ الْمُلْتَمِسِ .

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٧٩٢) ، وَمُسْلِمٌ (١٨٤٥) .

الثَّالِثَةُ : الْجُودُ بِرَاحَتِهِ وَرَفَاهِيَتِهِ ، وَإِجْمَامِ نَفْسِهِ ، فَيَجُودُ بِهَا تَعَبًا وَكَدًّا فِي مَصْلَحَةِ غَيْرِهِ ، وَمِنْ هَذَا جُودُ الْإِنْسَانِ بِنَوْمِهِ وَلَذَّتِهِ لِمُسَامِرِهِ، كَمَا قِيلَ :

مُتَيَّمٌ بِالنَّدَىٰ ، لَوْ قَالَ سَائِلُهُ : هَبْ لِي جَمِيعَ كَرَىٰ عَيْنَيْكَ ، لَمْ يَنَمِ

الرَّابِعَةُ : الْجُودُ بِالْعِلْمِ وَبَذْلِهِ ، وَهُوَ مِنْ أَعْلَىٰ مَرَاتِبِ الْجُودِ ، وَالْجُودُ بِهِ أَفْضَلُ مِنَ الْجُودِ بِالْمَالِ ، لِأَنَّ الْعِلْمَ أَشْرَفُ مِنَ الْمَالِ .

وَالنَّاسُ فِي الْجُودِ بِهِ عَلَىٰ مَرَاتِبَ مُتَفَاوِتَةٍ ، وَقَدِ اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ وَتَقْدِيرُهُ النَّافِذُ : أَنْ لَا يَنْفَعَ بِهِ بَخِيلًا أَبَدًا .

وَمِنَ الْجُودِ بِهِ : أَنْ تَبْذُلَهُ لِمَنْ يَسْأَلُكَ عَنْهُ ، بَلْ تَطْرَحُهُ عَلَيْهِ طَرْحًا .

وَمِنَ الْجُودِ بِالْعِلْمِ : أَنَّ السَّائِلَ إِذَا سَأَلَكَ عَنْ مَسْأَلَةٍ : اسْتَقْصَيْتَ لَهُ جَوَابَهَا جَوَابًا شَافِيًا ، لَا يَكُونُ جَوَابُكَ لَهُ بِقَدْرِ مَا تُدْفَعُ بِهِ الضَّرُورَةُ ، كَمَا كَانَ بَعْضُهُمْ يَكْتُبُ فِي جَوَابِ الْفُتْيَا : نَعَمْ ، أَوْ : لَا ، مُقْتَصِرًا عَلَيْهَا .

وَلَقَدْ شَاهَدْتُ مِنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَةَ - قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ - فِي ذَلِكَ أَمْرًا عَجِيبًا :

كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ حُكْمِيَّةٍ ، ذَكَرَ فِي جَوَابِهَا مَذَاهِبَ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ ، إِذَا قَدَرَ ، وَمَأْخَذَ الْخِلَافِ ، وَتَرْجِيحَ الْقَوْلِ الرَّاجِحِ ، وَذَكَرَ

مُتَعَلَّقَات الْمَسْأَلَة الَّتِي رُبَّمَا تكُونُ أَنْفَعَ لِلسَّائِلِ مِنْ مَسْأَلَتِه ، فَيَكُونُ فَرَحُهُ بِتِلْكَ الْمُتَعَلَّقَاتِ ، وَاللَّوَازِم : أَعْظَمَ مِنْ فَرَحِه بِمَسْأَلَتِه ، وَهَذِهِ فَتَاوِيهِ - رَحِمَهُ اللهُ - بَيْنَ النَّاسِ ، فَمَنْ أَحَبَّ الْوُقُوفَ عَلَيْهَا رَأَىٰ ذَلِكَ .

فَمِنْ جُودِ الْإِنْسَانِ بِالْعِلْمِ : أَنَّهُ لَا يَقْتَصِرُ عَلَىٰ مَسْأَلَةِ السَّائِلِ ، بَلْ يَذْكُرُ لَهُ نَظَائِرَهَا وَمُتَعَلِّقَهَا وَمَأْخَذَهَا ، بِحَيْثُ يَشْفِيهِ وَيَكْفِيهِ .

وَقَدْ سَأَلَ الصَّحَابَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمُ- النَّبِيَّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنِ الْمُتَوَضِّئِ بِمَاءِ الْبَحْرِ؟، فَقَالَ: « **هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ** » [1]، فَأَجَابَهُمْ عَنْ سُؤَالِهِمْ ، وَجَادَ عَلَيْهِمْ بِمَا لَعَلَّهُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ إِلَيْهِ أَحْوَجُ مِمَّا سَأَلُوهُ عَنْهُ .

وَكَانُوا إِذَا سَأَلُوهُ عَنِ الْحُكْمِ نَبَّهَهُمْ عَلَىٰ عِلَّتِه وَحِكْمَتِه ، كَمَا سَأَلُوهُ عَنْ بَيْعِ الرُّطَبِ بِالتَّمْرِ ؟ ، فَقَالَ : « **أَيَنْقُصُ الرُّطَبُ إِذَا جَفَّ ؟** ، قَالُوا: نَعَمْ ، **قَالَ : فَلَا إِذَنْ** » [2] ، وَلَمْ يَكُنْ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نُقْصَانُ الرُّطَبِ بِجَفَافِه ، وَلَكِنْ نَبَّهَهُمْ عَلَىٰ عِلَّةِ الْحُكْمِ ، وَهَذَا كَثِيرٌ جِدًّا فِي أَجْوِبَتِه -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ، مِثْلَ قَوْلِهِ : « **إِنْ بِعْتَ مِنْ أَخِيكَ ثَمَرَةً، فَأَصَابَتْهَا جَائِحَةٌ فَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَأْخُذَ مِنْ مَالِ أَخِيكَ شَيْئًا، بِمَ**

---
(١) (صَحِيْحٌ): رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ (٦٩) وَصَحَّحَهُ العَلَّامَةُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- (٥٩).
(٢)(صَحِيْحٌ):رَوَاهُ أَبُو دَاوُد (٣٣٥٩)وَصَحَّحَهُ العَلَّامَةُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- (٢٨٧١).

يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مَالَ أَخِيهِ بِغَيْرِ حَقٍّ؟ »[(١)] ، وَفِي لَفْظ : « **أَرَأَيْتَ إِنْ مَنَعَ اللهُ الثَّمَرَةَ : بِمَ يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مَالَ أَخِيهِ بِغَيْرِ حَقٍّ؟** »، فَصَرَّحَ بِالْعِلَّةِ الَّتِي يَحْرُمُ لِأَجْلِهَا إِلْزَامُهُ بِالثَّمَنِ ، وَهِيَ مَنْعُ اللهِ الثَّمَرَةَ الَّتِي لَيْسَ لِلْمُشْتَرِي فِيهَا صُنْعٌ .

وَكَانَ خُصُومُهُ - يَعْنِي شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَةَ - يَعِيبُونَهُ بِذَلِكَ ، وَيَقُولُونَ : سَأَلَهُ السَّائِلُ عَنْ طَرِيقِ مِصْرَ - مَثَلًا - فَيَذْكُرُ لَهُ مَعَهَا طَرِيقَ مَكَّةَ ، وَالْمَدِينَةِ ، وَخُرَاسَانَ ، وَالْعِرَاقِ ، وَالْهِنْدِ ، وَأَيُّ حَاجَةٍ بِالسَّائِلِ إِلَىٰ ذَلِكَ ؟ .

وَلَعَمْرُ اللهِ لَيْسَ ذَلِكَ بِعَيْبٍ ، وَإِنَّمَا الْعَيْبُ : الْجَهْلُ وَالْكِبْرُ .

وَهَذَا مَوْضِعُ الْمَثَلِ الْمَشْهُورِ :

لَقَّبُوهُ بِحَامِضٍ وَهْوَ خَلٌّ مِثْلَ مَنْ لَمْ يَصِلْ إِلَىٰ الْعُنْقُودِ

الْخَامِسَةُ : الْجُودُ بِالنَّفْعِ بِالْجَاهِ ، كَالشَّفَاعَةِ وَالْمَشْيِ مَعَ الرَّجُلِ إِلَىٰ ذِي سُلْطَانٍ وَنَحْوِهِ ، وَذَلِكَ زَكَاةُ الْجَاهِ الْمُطَالَبُ بِهَا الْعَبْدُ ، كَمَا أَنَّ التَّعْلِيمَ وَبَذْلَ الْعِلْمِ زَكَاتُهُ .

السَّادِسَةُ : الْجُودُ بِنَفْعِ الْبَدَنِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ ، كَمَا قَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **يُصْبِحُ عَلَىٰ كُلِّ سُلَامَىٰ مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ ، كُلُّ**

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٥٥٤) .

يَوْم تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ ، يَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ : صَدَقَةٌ ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ ، فَيَحْمِلُهُ عَلَيْهَا ، أَوْ يَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ : صَدَقَةٌ ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ : صَدَقَةٌ ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ يُمْشِيهَا الرَّجُلُ إِلَى الصَّلَاةِ : صَدَقَةٌ ، وَيُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، صَدَقَةٌ »[1] مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

السَّابِعَةُ : الْجُودُ بِالْعِرْضِ ، كَجُودِ أَبِي ضَمْضَمٍ مِنَ الصَّحَابَةِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- ، كَانَ إِذَا أَصْبَحَ قَالَ : اللهُمَّ إِنَّهُ لَا مَالَ لِي أَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَى النَّاسِ ، وَقَدْ تَصَدَّقْتُ عَلَيْهِمْ بِعِرْضِي ، فَمَنْ شَتَمَنِي ، أَوْ قَذَفَنِي : فَهُوَ فِي حِلٍّ ، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **مَنْ يَسْتَطِيعُ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ كَأَبِي ضَمْضَمٍ ؟** »[2] .

وَفِي هَذَا الْجُودِ مِنْ سَلَامَةِ الصَّدْرِ ، وَرَاحَةِ الْقَلْبِ ، وَالتَّخَلُّصِ مِنْ مُعَادَاةِ الْخَلْقِ مَا فِيهِ .

الثَّامِنَةُ : الْجُودُ بِالصَّبْرِ ، وَالِاحْتِمَالِ ، وَالْإِغْضَاءِ ، وَهَذِهِ مَرْتَبَةٌ شَرِيفَةٌ مِنْ مَرَاتِبِهِ ، وَهِيَ أَنْفَعُ لِصَاحِبِهَا مِنَ الْجُودِ بِالْمَالِ ، وَأَعَزُّ لَهُ وَأَنْصَرُ ، وَأَمْلَكُ لِنَفْسِهِ ، وَأَشْرَفُ لَهَا ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا النُّفُوسُ الْكِبَارُ .

فَمَنْ صَعُبَ عَلَيْهِ الْجُودُ بِمَالِهِ فَعَلَيْهِ بِهَذَا الْجُودِ ، فَإِنَّهُ يَجْتَنِي ثَمَرَةَ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٧٢٠) .
(٢) (ضَعِيفٌ) رَوَاهُ أَبُو دَاوُد(٤٨٨٧) ، وَضَعَّفَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «ضَعِيفِ سُنَنِ أَبِي دَاوُد » (١٠٤٢).

عَواقبه الْحَميدَة في الدُّنْيا قَبْلَ الآخرَة ، وَهَذا جُودُ الْفُتُوَّة ، قَالَ تَعالَى: ﴿ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾ [المَائِدَة:٤٥] ، وَفي هَذا الْجُود قَالَ تَعالَى ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشُّورَى:٤٠] ، فَذَكَرَ الْمَقَامَات الثَّلاثَة في هَذه الآيَة : مَقَامَ الْعَدْل ، وَأَذنَ فيه ، وَمَقَامَ الْفَضْل ، وَنَدَبَ إِلَيْه ، وَمَقَامَ الظُّلْم ، وَحَرَّمَهُ .

التَّاسعَةُ : الْجُودُ بِالْخُلُق وَالْبِشْر وَالْبَسْطَة ، وَهُوَ فَوْقَ الْجُود بِالصَّبْر، وَالاحْتمَال وَالْعَفْو ، وَهُوَ الَّذي بَلَغَ بِصَاحبه دَرَجَةَ الصَّائم الْقَائم ، وَهُوَ أَثْقَلُ مَا يُوضَعُ في الْميزَان ، قَالَ النَّبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- : «**لَا تَحْقرَنَّ منَ الْمَعْرُوف شَيْئًا ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ مُنْبَسطٌ إِلَيْه**» [١] ، وَفي هَذَا الْجُود منَ الْمَنَافع وَالْمَسَارِّ ، وَأَنْوَاع الْمَصَالح مَا فيه ، وَالْعَبْدُ لَا يُمْكنُهُ أَنْ يَسَعَهُمْ بِخُلُقه وَاحْتمَاله .

الْعَاشرَةُ : الْجُودُ بِتَرْكه مَا في أَيْدي النَّاس عَلَيْهِمْ ، فَلَا يَلْتَفتُ إِلَيْه ، وَلَا يَسْتَشْرفُ لَهُ بِقَلْبه ، وَلَا يَتَعَرَّضُ لَهُ بِحَاله ، وَلَا لسَانه ، وَهَذَا الَّذي قَالَ عَبْدُ الله بْنُ الْمُبَارَك : إِنَّهُ أَفْضَلُ منْ سَخَاء النَّفْس بِالْبَذْل .

فَلسَانُ حَال الْقَدَر يَقُولُ للْفَقير الْجَوَاد : وَإِنْ لَمْ أُعْطكَ مَا تَجُودُ به عَلَى النَّاس ، فَجُدْ عَلَيْهِمْ بِزُهْدكَ في أَمْوَالهمْ ، وَمَا في أَيْديهِمْ ، تُفَضَّلْ

(١) (صَحيحٌ) رَوَاهُ مُسْلمٌ (٢٦٢٦) وَأَبُو دَاوُد(٤٠٨٤) .

عَلَيْهِمْ ، وَتُزَاحِمُهُمْ فِي الْجُودِ ، وَتَنْفَرِدُ عَنْهُمْ بِالرَّاحَةِ .

وَلِكُلِّ مَرْتَبَةٍ مِنْ مَرَاتِبِ الْجُودِ مَزِيدٌ وَتَأْثِيرٌ خَاصٌّ فِي الْقَلْبِ وَالْحَالِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ قَدْ ضَمِنَ الْمَزِيدَ لِلْجَوَادِ ، وَالْإِتْلَافَ لِلْمُمْسِكِ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ .

حُسْنُ الْخُلُقِ هُوَ الدِّيْنُ كُلُّهُ :

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ ؟، فَقَالَ : «**الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ**» (١) .

فَقَابَلَ الْبِرَّ بِالْإِثْمِ ، وَأَخْبَرَ : أَنَّ الْبِرَّ حُسْنُ الْخُلُقِ ، وَالْإِثْمَ : حَوَازُ الصُّدُورِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ : هُوَ الدِّينُ كُلُّهُ ، وَهُوَ حَقَائِقُ الْإِيمَانِ ، وَشَرَائِعُ الْإِسْلَامِ ، وَلِهَذَا قَابَلَهُ بِالْإِثْمِ .

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ : « **الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الصَّدْرِ** » (٢) ، وَقَدْ فُسِّرَ حُسْنُ الْخُلُقِ بِأَنَّهُ الْبِرُّ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ: طُمَأْنِينَةُ النَّفْسِ وَالْقَلْبِ ، وَالْإِثْمُ حَوَازُ الصُّدُورِ ، وَمَا حَاكَ

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢١٥٠) وَ أَبُو دَاوُد (٤٧٧٣) .

(٢) (صَحِيْحٌ) : وَرَوَاهُ أَحْمَدُ (٤/ ٢٢٨) ، وَصَحَحَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي «صَحِيْحِ الجَامِعِ» (٢٨٨٠) .

فِيهَا ، وَاسْتَرَابَتْ بِهِ ، وَهَذَا غَيْرُ حُسْنِ الْخُلُقِ وَسُوئِهِ فِي عُرْفِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ ، كَمَا سَيَأْتِي فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- « **خِيَارُكُمْ : أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا** »[١] .

أَرْكَانُ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ :

وَحُسْنُ الْخُلُقِ يَقُومُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَرْكَانٍ لَا يُتَصَوَّرُ قِيَامُ سَاقِهِ إِلَّا عَلَيْهَا: الصَّبْرُ ، وَالْعِفَّةُ ، وَالشَّجَاعَةُ ، وَالْعَدْلُ .

فَالصَّبْرُ : يَحْمِلُهُ عَلَىٰ الاحْتِمَالِ وَكَظْمِ الْغَيْظِ ، وَكَفِّ الأَذَىٰ ، وَالْحِلْمِ وَالْأَنَاةِ وَالرِّفْقِ ، وَعَدَمِ الطَّيْشِ وَالْعَجَلَةِ .

وَالْعِفَّةُ : تَحْمِلُهُ عَلَىٰ اجْتِنَابِ الرَّذَائِلِ وَالْقَبَائِحِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، وَتَحْمِلُهُ عَلَىٰ الْحَيَاءِ ، وَهُوَ رَأْسُ كُلِّ خَيْرٍ ، وَتَمْنَعُهُ مِنَ الْفَحْشَاءِ ، وَالْبُخْلِ وَالْكَذِبِ ، وَالْغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ .

وَالشَّجَاعَةُ : تَحْمِلُهُ عَلَىٰ عِزَّةِ النَّفْسِ ، وَإِيثَارِ مَعَالِي الأَخْلَاقِ وَالشِّيَمِ، وَعَلَىٰ الْبَذْلِ وَالنَّدَىٰ ، الَّذِي هُوَ شَجَاعَةُ النَّفْسِ وَقُوَّتُهَا عَلَىٰ إِخْرَاجِ الْمَحْبُوبِ وَمُفَارَقَتِهِ ، وَتَحْمِلُهُ عَلَىٰ كَظْمِ الْغَيْظِ وَالْحِلْمِ ، فَإِنَّهُ بِقُوَّةِ نَفْسِهِ وَشَجَاعَتِهَا يُمْسِكُ عِنَانَهَا ، وَيَكْبَحُهَا بِلِجَامِهَا عَنِ النَّزْغِ وَالْبَطْشِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « **لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، إِنَّمَا**

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٥٥٩) ، وَمُسْلِمٌ (٢٣٢١) .

الشَّدِيدُ: **الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ** »[1]، وَهُوَ حَقِيقَةُ الشَّجَاعَةِ، وَهِيَ مَلَكَةٌ يَقْتَدِرُ بِهَا الْعَبْدُ عَلَىٰ قَهْرِ خَصْمِهِ .

وَالْعَدْلُ : يَحْمِلُهُ عَلَىٰ اعْتِدَالِ أَخْلَاقِه ، وَتَوَسُّطِه فِيهَا بَيْنَ طَرَفِي الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ ، فَيَحْمِلُهُ عَلَىٰ خُلُقِ الْجُودِ وَالسَّخَاءِ الَّذِي هُوَ تَوَسُّطٌ بَيْنَ الذُّلِّ وَالْقِحَةِ ، وَعَلَىٰ خُلُقِ الشَّجَاعَةِ ، الَّذِي هُوَ تَوَسُّطٌ بَيْنَ الْجُبْنِ وَالتَّهَوُّرِ ، وَعَلَىٰ خُلُقِ الْحِلْمِ ، الَّذِي هُوَ تَوَسُّطٌ بَيْنَ الْغَضَبِ وَالْمَهَانَةِ وَسُقُوطِ النَّفْسِ .

أَرْكَانُ الْأَخْلَاقِ السَّافِلَةِ :

وَمَنْشَأُ جَمِيعِ الْأَخْلَاقِ السَّافِلَةِ ، وَبِنَاؤُهَا عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَرْكَانٍ : الْجَهْلُ ، وَالظُّلْمُ ، وَالشَّهْوَةُ ، وَالْغَضَبُ .

فَالْجَهْلُ : يُرِيهِ الْحَسَنَ فِي صُورَةِ الْقَبِيحِ ، وَالْقَبِيحَ فِي صُورَةِ الْحَسَنِ ، وَالْكَمَالَ نَقْصًا وَالنَّقْصَ كَمَالًا .

وَالظُّلْمُ : يَحْمِلُهُ عَلَىٰ وَضْعِ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِه ، فَيَغْضَبُ فِي مَوْضِعِ الرِّضَا ، وَيَرْضَىٰ فِي مَوْضِعِ الْغَضَبِ ، وَيَجْهَلُ فِي مَوْضِعِ الْأَنَاةِ ، وَيَبْخَلُ فِي مَوْضِعِ الْبَذْلِ ، وَيَبْذُلُ فِي مَوْضِعِ الْبُخْلِ ، وَيُحْجِمُ فِي مَوْضِعِ الْإِقْدَامِ ، وَيُقْدِمُ فِي مَوْضِعِ الْإِحْجَامِ ، وَيَلِينُ فِي مَوْضِعِ الشِّدَّةِ ، وَيَشْتَدُّ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦١١٤) ، وَمُسْلِمٌ (٢٦٠٩) .

فِي مَوْضِعِ اللِّينِ ، وَيَتَوَاضَعُ فِي مَوْضِعِ الْعِزَّةِ ، وَيَتَكَبَّرُ فِي مَوْضِعِ التَّوَاضُعِ .

وَالشَّهْوَةُ : تَحْمِلُهُ عَلَىٰ الْحِرْصِ وَالشُّحِّ وَالْبُخْلِ ، وَعَدَمِ الْعِفَّةِ وَالنَّهْمَةِ وَالْجَشَعِ ، وَالذُّلِّ وَالدَّنَاءَاتِ كُلِّهَا .

وَالْغَضَبُ : يَحْمِلُهُ عَلَىٰ الْكِبْرِ وَالْحِقْدِ وَالْحَسَدِ ، وَالْعُدْوَانِ وَالسَّفَهِ .

وَيَتَرَكَّبُ مِنْ بَيْنِ كُلِّ خُلُقَيْنِ مِنْ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ : أَخْلَاقٌ مَذْمُومَةٌ .

وَمَلَاكُ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ أَصْلَانِ : إِفْرَاطُ النَّفْسِ فِي الضَّعْفِ ، وَإِفْرَاطُهَا فِي الْقُوَّةِ ، فَيَتَوَلَّدُ مِنْ إِفْرَاطِهَا فِي الضَّعْفِ : الْمَهَانَةُ وَالْبُخْلُ ، وَالْخِسَّةُ وَاللُّؤْمُ ، وَالذُّلُّ وَالْحِرْصُ ، وَالشُّحُّ وَسَفْسَافُ الْأُمُورِ وَالْأَخْلَاقِ .

وَيَتَوَلَّدُ مِنْ إِفْرَاطِهَا فِي الْقُوَّةِ : الظُّلْمُ وَالْغَضَبُ وَالْحِدَّةُ ، وَالْفُحْشُ وَالطَّيْشُ .

وَيَتَوَلَّدُ مِنْ تَزَوُّجِ أَحَدِ الْخُلُقَيْنِ بِالْآخَرِ أَوْلَادُ غَيَّةٍ كَثِيرُونَ ، فَإِنَّ النَّفْسَ قَدْ تَجْمَعُ قُوَّةً وَضَعْفًا ، فَيَكُونُ صَاحِبُهَا أَجْبَرَ النَّاسِ إِذَا قَدَرَ ، وَأَذَلَّهُمْ إِذَا قُهِرَ ، ظَالِمًا عَنُوفًا جَبَّارًا ، فَإِذَا قُهِرَ صَارَ أَذَلَّ مِنِ امْرَأَةٍ : جَبَانًا عَنِ الْقَوِيِّ ، جَرِيئًا عَلَىٰ الضَّعِيفِ .

فَالْأَخْلَاقُ الذَّمِيمَةُ : يُوَلِّدُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، كَمَا أَنَّ الْأَخْلَاقَ الْحَمِيدَةَ : يُوَلِّدُ بَعْضُهَا بَعْضًا .

كُلُّ خُلُقٍ وَسَطٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ :

خُلُق مَحْمُودٍ مُكْتَنَفٌ بِخُلُقَيْنِ ذَمِيمَيْنِ، وَهُوَ وَسَطٌ بَيْنَهُمَا ، وَطَرَفَاهُ خُلُقَانِ ذَمِيمَانِ ، كَالْجُودِ : الَّذِي يَكْتَنِفُهُ خُلُقَا الْبُخْلِ وَالتَّبْذِيرِ.

وَالتَّوَاضُعِ: الَّذِي يَكْتَنِفُهُ خُلُقَا الذُّلِّ وَالْمَهَانَةِ ، وَالْكِبْرِ وَالْعُلُوِّ .

فَإِنَّ النَّفْسَ مَتَىٰ انْحَرَفَتْ عَنِ التَّوَسُّطِ انْحَرَفَتْ إِلَىٰ أَحَدِ الْخُلُقَيْنِ الذَّمِيمَيْنِ وَلَا بُدَّ ، فَإِذَا انْحَرَفَتْ عَنْ خُلُقِ التَّوَاضُعِ انْحَرَفَتْ : إِمَّا إِلَىٰ كِبْرٍ وَعُلُوٍّ ، وَإِمَّا إِلَىٰ ذُلٍّ وَمَهَانَةٍ وَحَقَارَةٍ ، وَإِذَا انْحَرَفَتْ عَنْ خُلُقِ الْحَيَاءِ انْحَرَفَتْ : إِمَّا إِلَىٰ قِحَةٍ وَجُرْأَةٍ ، وَإِمَّا إِلَىٰ عَجْزٍ وَخَوَرٍ وَمَهَانَةٍ ، بِحَيْثُ يُطْمِعُ فِي نَفْسِهِ عَدُوَّهُ ، وَيَفُوتُهُ كَثِيرٌ مِنْ مَصَالِحِهِ ، وَيَزْعُمُ أَنَّ الْحَامِلَ لَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ الْحَيَاءُ ، وَإِنَّمَا هُوَ الْمَهَانَةُ وَالْعَجْزُ ، وَمَوْتُ النَّفْسِ .

وَكَذَلِكَ إِذَا انْحَرَفَتْ عَنْ خُلُقِ الصَّبْرِ الْمَحْمُودِ انْحَرَفَتْ : إِمَّا إِلَىٰ جَزَعٍ وَهَلَعٍ وَجَشَعٍ وَتَسَخُّطٍ ، وَإِمَّا إِلَىٰ غِلْظَةِ كَبِدٍ ، وَقَسْوَةِ قَلْبٍ ، وَتَحَجُّرِ طَبْعٍ ، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ :

تَبْكِي عَلَيْنَا وَلَا نَبْكِي عَلَىٰ أَحَدٍ فَنَحْنُ أَغْلَظُ أَكْبَادًا مِنَ الْإِبِلِ

وَإِذَا انْحَرَفَتْ عَنْ خُلُقِ الْحِلْمِ انْحَرَفَتْ : إِمَّا إِلَىٰ الطَّيْشِ وَالتَّرَفِ وَالْحِدَّةِ وَالْخِفَّةِ ، وَإِمَّا إِلَىٰ الذُّلِّ وَالْمَهَانَةِ وَالْحَقَارَةِ ، فَفَرْقٌ بَيْنَ مَنْ حِلْمُهُ حِلْمُ ذُلٍّ وَمَهَانَةٍ وَحَقَارَةٍ وَعَجْزٍ ، وَبَيْنَ مَنْ حِلْمُهُ حِلْمُ اقْتِدَارٍ وَعِزَّةٍ

وَشَرَفٍ ، كَمَا قِيلَ :

كُلُّ حِلْمٍ أَتَىٰ بِغَيْرِ اقْتِدَارٍ حُجَّةٌ لَاجِـئٌ إِلَيْهَا اللِّئَامُ

وَإِذَا انْحَرَفَتْ عَنْ خُلُقِ الْأَنَاةِ وَالرِّفْقِ انْحَرَفَتْ : إِمَّا إِلَىٰ عَجَلَةٍ وَطَيْشٍ وَعُنْفٍ ، وَإِمَّا إِلَىٰ تَفْرِيطٍ وَإِضَاعَةٍ ، وَالرِّفْقُ وَالْأَنَاةُ بَيْنَهُمَا .

وَإِذَا انْحَرَفَتْ عَنْ خُلُقِ الْعِزَّةِ الَّتِي وَهَبَهَا اللهُ لِلْمُؤْمِنِينَ ، انْحَرَفَتْ : إِمَّا إِلَىٰ كِبْرٍ ، وَإِمَّا إِلَىٰ ذُلٍّ ، وَالْعِزَّةُ الْمَحْمُودَةُ بَيْنَهُمَا .

وَإِذَا انْحَرَفَتْ عَنْ خُلُقِ الشَّجَاعَةِ انْحَرَفَتْ : إِمَّا إِلَىٰ تَهَوُّرٍ وَإِقْدَامٍ غَيْرِ مَحْمُودٍ ، وَإِمَّا إِلَىٰ جُبْنٍ وَتَأَخُّرٍ مَذْمُومٍ .

وَإِذَا انْحَرَفَتْ عَنْ خُلُقِ الْمُنَافَسَةِ فِي الْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ وَالْغِبْطَةِ انْحَرَفَتْ: إِمَّا إِلَىٰ حَسَدٍ ، وَإِمَّا إِلَىٰ مَهَانَةٍ ، وَعَجْزٍ وَذُلٍّ وَرِضًا بِالدُّونِ .

وَإِذَا انْحَرَفَتْ عَنِ الْقَنَاعَةِ انْحَرَفَتْ : إِمَّا إِلَىٰ حِرْصٍ وَكَلَبٍ ، وَإِمَّا إِلَىٰ خِسَّةٍ وَمَهَانَةٍ وَإِضَاعَةٍ .

وَإِذَا انْحَرَفَتْ عَنْ خُلُقِ الرَّحْمَةِ انْحَرَفَتْ : إِمَّا إِلَىٰ قَسْوَةٍ ، وَإِمَّا إِلَىٰ ضَعْفِ قَلْبٍ وَجُبْنِ نَفْسٍ ، كَمَنْ لَا يَقْدَمُ عَلَىٰ ذَبْحِ شَاةٍ ، وَلَا إِقَامَةِ حَدٍّ، وَتَأْدِيبِ وَلَدٍ ، وَيَزْعُمُ أَنَّ الرَّحْمَةَ تَحْمِلُهُ عَلَىٰ ذَلِكَ ، وَقَدْ ذَبَحَ أَرْحَمُ الْخَلْقِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِيَدِهِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ

بَدَنَةً ، وَقَطَعَ الْأَيْدِيَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، وَضَرَبَ الْأَعْنَاقَ ، وَأَقَامَ الْحُدُودَ وَرَجَمَ بِالْحِجَارَةِ حَتَّىٰ مَاتَ الْمَرْجُومُ ، وَكَانَ أَرْحَمَ خَلْقِ اللهِ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ وَأَرْأَفَهُمْ .

وَكَذَلِكَ طَلَاقَةُ الْوَجْهِ ، وَالْبِشْرُ الْمَحْمُودُ ، فَإِنَّهُ وَسَطٌ بَيْنَ التَّعْبِيسِ وَالتَّقْطِيبِ وَتَصْعِيرِ الْخَدِّ ، وَطَيِّ الْبِشْرِ عَنِ الْبَشَرِ ، وَبَيْنَ الِاسْتِرْسَالِ بِذَلِكَ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ ، بِحَيْثُ يُذْهِبُ الْهَيْبَةَ ، وَيُزِيلُ الْوَقَارَ ، وَيُطْمِعُ فِي الْجَانِبِ ، كَمَا أَنَّ الِانْحِرَافَ الْأَوَّلَ يُوقِعُ الْوَحْشَةَ وَالْبِغْضَةَ ، وَالنُّفْرَةَ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ .

وَصَاحِبُ الْخُلُقِ الْوَسَطِ : مَهِيبٌ مَحْبُوبٌ ، عَزِيزٌ جَانِبُهُ ، حَبِيبٌ لِقَاؤُهُ ، وَفِي صِفَةِ نَبِيِّنَا -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَنْ رَآهُ بَدِيهَةً هَابَهُ ، وَمَنْ خَالَطَهُ عِشْرَةً أَحَبَّهُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

فَوائِدُ الصَّبْرِ عَلَى أَذَى الخَلْقِ :

وَهَاهُنَا لِلْعَبْدِ أَحَدَ عَشَرَ مَشْهَدًا فِيمَا يُصِيبُهُ مِنْ أَذَىٰ الْخَلْقِ وَجِنَايَتِهِمْ عَلَيْهِ .

مَشْهَدُ الْقَدَرِ :

أَحَدُهَا : الْمَشْهَدُ الَّذِي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ ، وَهُوَ مَشْهَدُ الْقَدَرِ وَأَنَّ مَا جَرَىٰ عَلَيْهِ بِمَشِيئَةِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ، فَيَرَاهُ كَالتَّأَذِّي بِالْحَرِّ وَالْبَرْدِ ،

وَالْمَرَض وَالأَلَم ، وَهُبُوب الرِّيَاح ، وَانْقِطَاع الأَمْطَار ، فَإِنَّ الْكُلَّ أَوْجَبَتْهُ مَشِيئَةُ اللهِ ، فَمَا شَاءَ اللهُ كَانَ ، وَوَجَبَ وُجُودُهُ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَامْتَنَعَ وُجُودُهُ ، وَإِذَا شَهِدَ هَذَا : اسْتَرَاحَ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ، فَمَا لِلْجَزَعِ مِنْهُ وَجْهٌ ، وَهُوَ كَالْجَزَعِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْمَرَضِ وَالْمَوْتِ .

مَشْهَدُ الصَّبْرِ :

الْمَشْهَدُ الثَّانِي : مَشْهَدُ الصَّبْرِ فَيَشْهَدُهُ وَيَشْهَدُ وُجُوبَهُ ، وَحُسْنَ عَاقِبَتِهِ ، وَجَزَاءَ أَهْلِهِ ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْغِبْطَةِ وَالسُّرُور ، وَيُخَلِّصُهُ مِنْ نَدَامَةِ الْمُقَابَلَةِ وَالانْتِقَام ، فَمَا انْتَقَمَ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ قَطُّ إِلَّا أَعْقَبَهُ ذَلِكَ نَدَامَةٌ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَصْبِرِ اخْتِيَارًا عَلَى هَذَا - وَهُوَ مَحْمُودٌ - صَبَرَ اضْطِرَارًا عَلَى أَكْبَرَ مِنْهُ ، وَهُوَ مَذْمُومٌ .

مَشْهَدُ الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ وَالْحِلْمِ :

الْمَشْهَدُ الثَّالِثُ : مَشْهَدُ الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ وَالْحِلْمِ فَإِنَّهُ مَتَى شَهِدَ ذَلِكَ وَفَضْلَهُ وَحَلَاوَتَهُ وَعِزَّتَهُ: لَمْ يَعْدِلْ عَنْهُ إِلَّا لِعَشًى فِي بَصِيرَتِهِ، فَإِنَّهُ مَا «**زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا**» (١) ،كَمَا صَحَّ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-،وَعُلِمَ بِالتَّجْرِبَةِ وَالْوُجُودِ، وَمَا انْتَقَمَ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ إِلَّا ذَلَّ .

هَذَا ، وَفِي الصَّفْحِ وَالْعَفْوِ وَالْحِلْمِ : مِنَ الْحَلَاوَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ وَالسَّكِينَةِ،

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٨٨) وَالتِّرْمِذِيُّ فِي التَّوَاضُعِ .

وَشَرَفِ النَّفْسِ ، وَعِزِّهَا وَرِفْعَتِهَا عَنْ تَشَفِّيهَا بِالِانْتِقَامِ : مَا لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهُ فِي الْمُقَابَلَةِ وَالِانْتِقَامِ .

مَشْهَدُ الرِّضَى :

الْمَشْهَدُ الرَّابِعُ : مَشْهَدُ الرِّضَا وَهُوَ فَوْقَ مَشْهَدِ الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا لِلنُّفُوسِ الْمُطْمَئِنَّةِ ، سِيَّمَا إِنْ كَانَ مَا أُصِيبَتْ بِهِ سَبَبُهُ الْقِيَامُ للهِ ، فَإِذَا كَانَ مَا أُصِيبَ بِهِ فِي اللهِ ، وَفِي مَرْضَاتِهِ وَمَحَبَّتِهِ : رَضِيَتْ بِمَا نَالَهَا فِي اللهِ ، وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ مُحِبٍّ صَادِقٍ ، يَرْضَىٰ بِمَا يَنَالُهُ فِي رِضَا مَحْبُوبِهِ مِنَ الْمَكَارِهِ ، وَمَتَىٰ تَسَخَّطَ بِهِ وَتَشَكَّىٰ مِنْهُ ، كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَىٰ كَذِبِهِ فِي مَحَبَّتِهِ ، وَالْوَاقِعُ شَاهِدٌ بِذَلِكَ ، وَالْمُحِبُّ الصَّادِقُ كَمَا قِيلَ :

مِنْ أَجْلِكَ جَعَلْتُ خَدِّيَ أَرْضًا لِلشَّامِتِ وَالْحَسُودِ حَتَّىٰ تَرْضَى

وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِمَا يُصِيبُهُ فِي سَبِيلِ مَحْبُوبِهِ ، فَلْيَنْزِلْ عَنْ دَرَجَةِ الْمَحَبَّةِ ، وَلْيَتَأَخَّرْ فَلَيْسَ مِنْ ذَا الشَّأْنِ .

مَشْهَدُ الْإِحْسَانِ :

الْمَشْهَدُ الْخَامِسُ : مَشْهَدُ الْإِحْسَانِ وَهُوَ أَرْفَعُ مِمَّا قَبْلَهُ ، وَهُوَ أَنْ يُقَابِلَ إِسَاءَةَ الْمُسِيءِ إِلَيْهِ بِالْإِحْسَانِ ، فَيُحْسِنَ إِلَيْهِ كُلَّمَا أَسَاءَ هُوَ إِلَيْهِ ، وَيُهَوِّنُ هَذَا عَلَيْهِ عِلْمُهُ بِأَنَّهُ قَدْ رَبِحَ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ قَدْ أَهْدَىٰ إِلَيْهِ حَسَنَاتِهِ ، وَمَحَاهَا

مِنْ صَحِيفَتِه ، وَأَثْبَتَهَا فِي صَحِيفَةِ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْه ، فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَشْكُرَهُ، وَتُحْسِنَ إِلَيْه بِمَا لَا نِسْبَةَ لَهُ إِلَىٰ مَا أَحْسَنَ بِهِ إِلَيْكَ .

وَهَاهُنَا يَنْفَعُ اسْتِحْضَارُ مَسْأَلَةِ اقْتِضَاءِ الْهِبَةِ الثَّوَابَ ، وَهَذَا الْمِسْكِينُ قَدْ وَهَبَكَ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْكَرَمِ فَأَثِبْهُ عَلَيْهَا ، لِتُثْبِتَ الْهِبَةَ، وَتَأْمَنَ رُجُوعَ الْوَاهِبِ فِيهَا .

وَفِي هَذَا حِكَايَاتٌ مَعْرُوفَةٌ عَنْ أَرْبَابِ الْمَكَارِمِ ، وَأَهْلِ الْعَزَائِمِ .

وَيُهَوِّنُهُ عَلَيْكَ أَيْضًا : عِلْمُكَ بِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، فَإِنْ كَانَ هَذَا عَمَلَكَ فِي إِسَاءَةِ الْمَخْلُوقِ إِلَيْكَ عَفَوْتَ عَنْهُ ، وَأَحْسَنْتَ إِلَيْه ، مَعَ حَاجَتِكَ وَضَعْفِكَ وَفَقْرِكَ وَذُلِّكَ ، فَهَكَذَا يَفْعَلُ الْمُحْسِنُ الْقَادِرُ الْعَزِيزُ الْغَنِيُّ بِكَ فِي إِسَاءَتِكَ ، يُقَابِلُهَا بِمَا قَابَلْتَ بِهِ إِسَاءَةَ عَبْدِهِ إِلَيْكَ ، فَهَذَا لَا بُدَّ مِنْهُ ، وَشَاهِدُهُ فِي السُّنَّةِ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ لِمَنْ تَأَمَّلَهَا .

مَشْهَدُ السَّلَامَةِ وَبَرْدِ الْقَلْبِ:

الْمَشْهَدُ السَّادِسُ : مَشْهَدُ السَّلَامَةِ وَبَرْدِ الْقَلْبِ وَهَذَا مَشْهَدٌ شَرِيفٌ جِدًّا لِمَنْ عَرَفَهُ ، وَذَاقَ حَلَاوَتَهُ ، وَهُوَ أَنْ لَا يَشْتَغِلَ قَلْبُهُ وَسِرُّهُ بِمَا نَالَهُ مِنَ الْأَذَىٰ ، وَطَلَبِ الْوُصُولِ إِلَىٰ دَرْكِ ثَأْرِهِ ، وَشِفَاءِ نَفْسِهِ ، بَلْ يُفَرِّغُ قَلْبَهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَيَرَىٰ أَنَّ سَلَامَتَهُ وَبَرْدَهُ وَخُلُوَّهُ مِنْهُ أَنْفَعُ لَهُ ، وَأَلَذُّ وَأَطْيَبُ ، وَأَعْوَنُ عَلَىٰ مَصَالِحِهِ ، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا اشْتَغَلَ بِشَيْءٍ فَاتَهُ مَا هُوَ

أَهَمُّ عِنْدَهُ ، وَخَيْرٌ لَهُ مِنْهُ ، فَيَكُونُ بِذَلِكَ مَغْبُونًا ، وَالرَّشِيدُ لَا يَرْضَىٰ بِذَلِكَ ، وَيَرَىٰ أَنَّهُ مِنْ تَصَرُّفَاتِ السَّفِيهِ ، فَأَيْنَ سَلَامَةُ الْقَلْبِ مِنِ امْتِلَائِهِ بِالْغِلِّ وَالْوَسَاوِسِ ، وَإِعْمَالِ الْفِكْرِ فِي إِدْرَاكِ الِانْتِقَامِ ؟ .

مَشْهَدُ الْأَمْنِ :

الْمَشْهَدُ السَّابِعُ : مَشْهَدُ الْأَمْنِ فَإِنَّهُ إِذَا تَرَكَ الْمُقَابَلَةَ وَالِانْتِقَامَ : أَمِنَ مَاهُو شَرٌّ مِنْ ذَلِكَ، وَإِذَا انْتَقَمَ : وَاقَعَهُ الْخَوْفُ وَلَا بُدَّ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَزْرَعُ الْعَدَاوَةَ ، وَالْعَاقِلُ لَا يَأْمَنُ عَدُوَّهُ ، وَلَوْ كَانَ حَقِيرًا، فَكَمْ مِنْ حَقِيرٍ أَرْدَىٰ عَدُوَّهُ الْكَبِيرَ ؟، فَإِذَا غَفَرَ ، وَلَمْ يَنْتَقِمْ ،وَلَمْ يُقَابِلْ: أَمِنَ مِنْ تَوَلُّدِ الْعَدَاوَةِ، أَوْ زِيَادَتِهَا ، وَلَا بُدَّ أَنَّ عَفْوَهُ وَحِلْمَهُ وَصَفْحَهُ يَكْسِرُ عَنْهُ شَوْكَةَ عَدُوِّهِ، وَيَكُفُّ مِنْ جَزَعِهِ ، بِعَكْسِ الِانْتِقَامِ ، وَالْوَاقِعُ شَاهِدٌ بِذَلِكَ أَيْضًا .

مَشْهَدُ الْجِهَادِ :

الْمَشْهَدُ الثَّامِنُ : مَشْهَدُ الْجِهَادِ وَهُوَ أَنْ يَشْهَدَ تَوَلُّدَ أَذَىٰ النَّاسِ لَهُ مِنْ جِهَادِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَإِقَامَةِ دِينِ اللهِ ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَاتِهِ .

وَصَاحِبُ هَذَا الْمَقَامِ : قَدِ اشْتَرَىٰ اللهُ مِنْهُ نَفْسَهُ وَمَالَهُ وَعِرْضَهُ بِأَعْظَمِ الثَّمَنِ ، فَإِنْ أَرَادَ أَنْ يُسَلِّمَ إِلَيْهِ الثَّمَنَ فَلْيُسَلِّمْ هُوَ السِّلْعَةَ لِيَسْتَحِقَّ ثَمَنَهَا، فَلَا حَقَّ لَهُ عَلَىٰ مَنْ آذَاهُ ، وَلَا شَيْءَ لَهُ قَبْلَهُ ، إِنْ كَانَ قَدْ رَضِيَ بِعَقْدِ هَذَا

التَّبَايُعِ ، فَإِنَّهُ قَدْ وَجَبَ أَجْرُهُ عَلَىٰ اللهِ .

وَهَذَا ثَابتٌ بِالنَّصِّ وَإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ-، وَلِهَذَا مَنَعَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْمُهَاجِرِينَ مِنْ سُكْنَىٰ مَكَّةَ - أَعَزَّهَا اللهُ - وَلَمْ يَرُدَّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ دَارَهُ وَلَا مَالَهُ الَّذِي أَخَذَهُ الْكُفَّارُ ، وَلَمْ يُضَمِّنْهُمْ دِيَةَ مَنْ قَتَلُوهُ فِي سَبِيلِ اللهِ .

وَلَمَّا عَزَمَ الصِّدِّيقُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عَلَىٰ تَضْمِينِ أَهْلِ الرِّدَّةِ مَا أَتْلَفُوهُ مِنْ نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ ، قَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - بِمَشْهَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - تِلْكَ دِمَاءٌ وَأَمْوَالٌ ذَهَبَتْ فِي اللهِ ، وَأُجُورُهَا عَلَىٰ اللهِ ، وَلَا دِيَةَ لِشَهِيدٍ فَأَصْفَقَ الصَّحَابَةُ عَلَىٰ قَوْلِ عُمَرَ ، وَوَافَقَهُ عَلَيْهِ الصِّدِّيقُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-.

فَمَنْ قَامَ لِلَّهِ حَتَّىٰ أُوذِيَ فِي اللهِ : حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الِانْتِقَامَ ، كَمَا قَالَ لُقْمَانُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لِابْنِهِ ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان: ١٧] .

مَشْهَدُ النِّعْمَةِ:

الْمَشْهَدُ التَّاسِعُ : مَشْهَدُ النِّعْمَةِ وَذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ .

أَحَدُهَا : أَنْ يَشْهَدَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ فِي أَنْ جَعَلَهُ مَظْلُومًا يَتَرَقَّبُ النَّصْرَ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ ظَالِمًا يَتَرَقَّبُ الْمَقْتَ وَالْأَخْذَ ، فَلَوْ خُيِّرَ الْعَاقِلُ بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ

-وَلَا بُدَّ مِنْ إِحْدَاهُمَا - لَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ مَظْلُومًا .

وَمِنْهَا : أَنْ يَشْهَدَ نِعْمَةَ اللهِ فِي التَّكْفِيرِ بِذَلِكَ مِنْ خَطَايَاهُ ، فَإِنَّهُ مَا أَصَابَ الْمُؤْمِنَ هَمٌّ وَلَا غَمٌّ وَلَا أَذًى إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهِ مِنْ خَطَايَاهُ ، فَذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ دَوَاءٌ يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنْهُ دَاءُ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبِ ، وَمَنْ رَضِيَ أَنْ يَلْقَى اللهَ بِأَدْوَائِهِ كُلِّهَا وَأَسْقَامِهِ ، وَلَمْ يُدَاوِهِ فِي الدُّنْيَا بِدَوَاءٍ يُوجِبُ لَهُ الشِّفَاءَ : فَهُوَ مَغْبُونٌ سَفِيهٌ ، فَأَذَى الْخَلْقِ لَكَ كَالدَّوَاءِ الْكَرِيهِ مِنَ الطَّبِيبِ الْمُشْفِقِ عَلَيْكَ ، فَلَا تَنْظُرْ إِلَى مَرَارَةِ الدَّوَاءِ وَكَرَاهَتِهِ وَمَنْ كَانَ عَلَى يَدَيْهِ ، وَانْظُرْ إِلَى شَفَقَةِ الطَّبِيبِ الَّذِي رَكَّبَهُ لَكَ ، وَبَعَثَهُ إِلَيْكَ عَلَى يَدَيْ مَنْ نَفَعَكَ بِمَضَرَّتِهِ .

وَمِنْهَا : أَنْ يَشْهَدَ كَوْنَ تِلْكَ الْبَلِيَّةِ أَهْوَنَ وَأَسْهَلَ مِنْ غَيْرِهَا ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ مِحْنَةٍ إِلَّا وَفَوْقَهَا مَا هُوَ أَقْوَى مِنْهَا وَأَمَرُّ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَوْقَهَا مِحْنَةٌ فِي الْبَدَنِ وَالْمَالِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى سَلَامَةِ دِينِهِ وَإِسْلَامِهِ وَتَوْحِيدِهِ ، وَأَنَّ كُلَّ مُصِيبَةٍ دُونَ مُصِيبَةِ الدِّينِ فَهَيِّنَةٌ ، وَأَنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ نِعْمَةٌ ، وَالْمُصِيبَةُ الْحَقِيقِيَّةُ مُصِيبَةُ الدِّينِ .

وَمِنْهَا : تَوَفِيَةُ أَجْرِهَا وَثَوَابِهَا يَوْمَ الْفَقْرِ وَالْفَاقَةِ .

وَفِي بَعْضِ الْآثَارِ : أَنَّهُ يَتَمَنَّى أُنَاسٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ تُقْرَضُ بِالْمَقَارِيضِ ، لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ثَوَابِ أَهْلِ الْبَلَاءِ .

هَذَا ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَشْتَدُّ فَرَحُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا لَهُ قِبَلَ النَّاسِ مِنَ الْحُقُوقِ فِي الْمَالِ وَالنَّفْسِ وَالْعِرْضِ ، فَالْعَاقِلُ يَعُدُّ هَذَا ذُخْرًا لِيَوْمِ الْفَقْرِ وَالْفَاقَةِ، وَلَا يُبْطِلُهُ بِالانْتِقَامِ الَّذِي لَا يُجْدِي عَلَيْهِ شَيْئًا .

مَشْهَدُ الْأُسْوَةِ:

الْمَشْهَدُ الْعَاشِرُ : مَشْهَدُ الْأُسْوَةِ وَهُوَ مَشْهَدٌ شَرِيفٌ لَطِيفٌ جِدًّا ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ اللَّبِيبَ يَرْضَىٰ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْوَةٌ بِرُسُلِ اللهِ ، وَأَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ ، وَخَاصَّتِهِ مِنْ خَلْقِهِ ، فَإِنَّهُمْ أَشَدُّ الْخَلْقِ امْتِحَانًا بِالنَّاسِ ، وَأَذَىٰ النَّاسِ إِلَيْهِمْ أَسْرَعُ مِنَ السَّيْلِ فِي الْحُدُورِ .

وَيَكْفِي تَدَبُّرُ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - مَعَ أُمَمِهِمْ وَشَأْنِ نَبِيِّنَا -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَذَىٰ أَعْدَائِهِ لَهُ بِمَا لَمْ يُؤْذَهُ مَنْ قَبْلَهُ ، وَقَدْ قَالَ لَهُ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ لَتُكَذَّبَنَّ وَلَتُخْرَجَنَّ وَلَتُؤْذَيَنَّ ، وَقَالَ لَهُ : مَا جَاءَ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ ، وَهَذَا مُسْتَمِرٌّ فِي وَرَثَتِهِ كَمَا كَانَ فِي مُوَرِّثِهِمْ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- .

أَفَلَا يَرْضَىٰ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْوَةٌ بِخِيَارِ خَلْقِ اللهِ ، وَخَوَاصِّ عِبَادِهِ: الْأَمْثَلِ فَالْأَمْثَلِ ؟ .

وَمَنْ أَحَبَّ مَعْرِفَةَ ذَلِكَ فَلْيَقِفْ عَلَىٰ مِحَنِ الْعُلَمَاءِ ، وَأَذَىٰ الْجُهَّالِ لَهُمْ، وَقَدْ صَنَّفَ فِي ذَلِكَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ كِتَابًا سَمَّاهُ مِحَنَ الْعُلَمَاءِ .

مَشْهَدُ التَّوْحِيدِ:

المَشْهَدُ الحَادِيَ عشَرَ: مَشْهَدُ التَّوْحِيدِ وَهُوَ أَجَلُّ المَشَاهِدِ وَأَرْفَعُهَا، فَإِذَا امْتَلَأَ قَلْبُهُ بِمَحَبَّةِ اللهِ، وَالإِخْلَاصِ لَهُ وَمُعَامَلَتِهِ، وَإِيثَارِ مَرْضَاتِهِ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، وَقُرَّةِ العَيْنِ بِهِ، وَالأُنْسِ بِهِ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ، وَسَكَنَ إِلَيْهِ، وَاشْتَاقَ إِلَىٰ لِقَائِهِ، وَاتَّخَذَهُ وَلِيًّا دُونَ مَنْ سِوَاهُ، بِحَيْثُ فَوَّضَ إِلَيْهِ أُمُورَهُ كُلَّهَا، وَرَضِيَ بِهِ وَبِأَقْضِيَتِهِ، وَفَنِيَ بِحُبِّهِ وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ وَذِكْرِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ: فَإِنَّهُ لَا يَبْقَىٰ فِي قَلْبِهِ مُتَّسَعٌ لِشُهُودِ أَذَىٰ النَّاسِ لَهُ أَلْبَتَّةَ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَشْتَغِلَ قَلْبُهُ وَفِكْرُهُ وَسِرُّهُ بِتَطَلُّبِ الانْتِقَامِ وَالمُقَابَلَةِ، فَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ قَلْبٍ لَيْسَ فِيهِ مَا يُغْنِيهِ عَنْ ذَلِكَ وَيُعَوِّضُهُ مِنْهُ، فَهُوَ قَلْبٌ جَائِعٌ غَيْرُ شَبْعَانَ، فَإِذَا رَأَىٰ أَيَّ طَعَامٍ رَآهُ هَفَتْ إِلَيْهِ نَوَازِعُهُ، وَانْبَعَثَتْ إِلَيْهِ دَوَاعِيهِ، وَأَمَّا مَنِ امْتَلَأَ قَلْبُهُ بِأَعْلَى الأَغْذِيَةِ وَأَشْرَفِهَا: فَإِنَّهُ لَا يَلْتَفِتُ إِلَىٰ مَا دُونَهَا. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجُمُعَة: ٤].

حَقِيقَةُ التَّوَاضُعِ:

التَّوَاضُعُ: أَنْ يَتَوَاضَعَ العَبْدُ لِصَوْلَةِ الحَقِّ.

يَعْنِي: أَنْ يَتَلَقَّىٰ سُلْطَانَ الحَقِّ بِالخُضُوعِ لَهُ، وَالذُّلِّ، وَالانْقِيَادِ، وَالدُّخُولِ تَحْتَ رِقِّهِ، بِحَيْثُ يَكُونُ الحَقُّ مُتَصَرِّفًا فِيهِ تَصَرُّفَ المَالِكِ فِي

مَمْلُوكِهِ ، فَبِهَذَا يَحْصُلُ لِلْعَبْدِ خُلُقُ التَّوَاضُعِ ، وَلِهَذَا فَسَّرَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْكِبْرَ بِضِدِّهِ ، فَقَالَ : « **الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ ، وَغَمْصُ النَّاسِ** »[(١)] ، « **فَبَطَرُ الْحَقِّ** » : رَدُّهُ وَجَحْدُهُ ، وَالدَّفْعُ فِي صَدْرِهِ ، كَدَفْعِ الصَّائِلِ ، «**وَغَمْصُ النَّاسِ**» : احْتِقَارُهُمْ وَازْدِرَاؤُهُمْ ، وَمَتَىٰ احْتَقَرَهُمْ وَازْدَرَاهُمْ : دَفَعَ حُقُوقَهُمْ ، وَجَحَدَهَا ، وَاسْتَهَانَ بِهَا .

وَلَمَّا كَانَ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالٌ وَصَوْلَةٌ : كَانَتِ النُّفُوسُ الْمُتَكَبِّرَةُ لَا تَقَرُّ لَهُ بِالصَّوْلَةِ عَلَىٰ تِلْكَ الصَّوْلَةِ الَّتِي فِيهَا ، وَلَا سِيَّمَا النُّفُوسَ الْمُبْطِلَةَ، فَتَصُولُ عَلَىٰ صَوْلَةِ الْحَقِّ بِكِبْرِهَا وَبَاطِلِهَا ، فَكَانَ حَقِيقَةُ التَّوَاضُعِ : خُضُوعَ الْعَبْدِ لِصَوْلَةِ الْحَقِّ ، وَانْقِيَادُهُ لَهَا ، فَلَا يُقَابِلُهَا بِصَوْلَتِهِ عَلَيْهَا .

التَّوَاضُعُ لِلدِّينِ :

التَّوَاضُعُ لِلدِّينِ ، هُوَ الانْقِيَادُ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ، وَالاسْتِسْلَامُ لَهُ ، وَالإِذْعَانُ ، وَذَلِكَ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ :

الْأَوَّلُ : أَنْ لَا يُعَارِضَ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الْمُعَارَضَاتِ الْأَرْبَعَةِ السَّارِيَةِ فِي الْعَالَمِ ، الْمُسَمَّاةِ : بِالْمَعْقُولِ ، وَالْقِيَاسِ ، وَالذَّوْقِ ، وَالسِّيَاسَةِ .

فَالْأُولَى : لِلْمُنْحَرِفِينَ أَهْلِ الْكِبْرِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ،الَّذِينَ عَارَضُوا نُصُوصَ الْوَحْيِ بِمَعْقُولَاتِهِمُ الْفَاسِدَةِ،وَقَالُوا: إِذَا تَعَارَضَ الْعَقْلُ

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٩١) .

وَالنَّقْلُ: قَدَّمْنَا الْعَقْلَ، وَعَزَلْنَا النَّقْلَ، إِمَّا عَزْلَ تَفْوِيضٍ، وَإِمَّا عَزْلَ تَأْوِيلٍ.

وَالثَّانِي : لِلْمُتَكَبِّرِينَ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَىٰ الْفِقْهِ، قَالُوا: إِذَا تَعَارَضَ الْقِيَاسُ وَالرَّأْيُ وَالنُّصُوصُ: قَدَّمْنَا الْقِيَاسَ عَلَىٰ النَّصِّ، وَلَمْ نَلْتَفِتْ إِلَيْهِ.

وَالثَّالِثُ : لِلْمُتَكَبِّرِينَ الْمُنْحَرِفِينَ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَىٰ التَّصَوُّفِ وَالزُّهْدِ، فَإِذَا تَعَارَضَ عِنْدَهُمُ الذَّوْقُ وَالْأَمْرُ، قَدَّمُوا الذَّوْقَ وَالْحَالَ، وَلَمْ يَعْبَأُوا بِالْأَمْرِ.

وَالرَّابِعُ : لِلْمُتَكَبِّرِينَ الْمُنْحَرِفِينَ مِنَ الْوُلَاةِ وَالْأُمَرَاءِ الْجَائِرِينَ، إِذَا تَعَارَضَتْ عِنْدَهُمُ الشَّرِيعَةُ وَالسِّيَاسَةُ، قَدَّمُوا السِّيَاسَةَ، وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَىٰ حُكْمِ الشَّرِيعَةِ.

فَهَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةُ : هُمْ أَهْلُ الْكِبْرِ، وَالتَّوَاضُعُ: التَّخَلُّصُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

الثَّانِي : أَنْ لَا يَتَّهِمَ دَلِيلًا مِنْ أَدِلَّةِ الدِّينِ، بِحَيْثُ يَظُنُّهُ فَاسِدَ الدَّلَالَةِ، أَوْ نَاقِصَ الدَّلَالَةِ، أَوْ قَاصِرَهَا، أَوْ أَنَّ غَيْرَهُ كَانَ أَوْلَىٰ مِنْهُ، وَمَتَىٰ عَرَضَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَتَّهِمْ فَهْمَهُ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْآفَةَ مِنْهُ، وَالْبَلِيَّةَ فِيهِ، كَمَا قِيلَ:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا ... وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ
وَلَكِنْ تَأْخُذُ الْأَذْهَانُ مِنْهُ ... عَلَىٰ قَدْرِ الْقَرَائِحِ وَالْفُهُومِ

وَهَكَذَا الْوَاقِعُ فِي الْوَاقِعِ حَقِيقَةً : أَنَّهُ مَا اتَّهَمَ أَحَدٌ دَلِيلًا لِلدِّينِ إِلَّا وَكَانَ الْمُتَّهَمُ هُوَ الْفَاسِدَ الذِّهْنِ ، الْمَأْفُونَ فِي عَقْلِهِ وَذِهْنِهِ ، فَالْآفَةُ مِنَ الذِّهْنِ الْعَلِيلِ ، لَا فِي نَفْسِ الدَّلِيلِ .

وَإِذَا رَأَيْتَ مِنْ أَدِلَّةِ الدِّينِ مَا يُشْكِلُ عَلَيْكَ ، وَيَنْبُو فَهْمُكَ عَنْهُ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لِعَظَمَتِهِ وَشَرَفِهِ اسْتَعْصَىٰ عَلَيْكَ ، وَأَنَّ تَحْتَهُ كَنْزًا مِنْ كُنُوزِ الْعِلْمِ ، وَلَمْ تُؤْتَ مِفْتَاحَهُ بَعْدُ ، هَذَا فِي حَقِّ نَفْسِكَ .

وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِكَ : فَاتَّهِمْ آرَاءَ الرِّجَالِ عَلَىٰ نُصُوصِ الْوَحْيِ ، وَلْيَكُنْ رَدُّهَا أَيْسَرَ شَيْءٍ عَلَيْكَ لِلنُّصُوصِ ، فَمَا لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَسْتَ عَلَىٰ شَيْءٍ ، وَلَوْ . . وَلَوْ . . وَهَذَا لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ .

قَالَ الشَّافِعِيُّ - قَدَّسَ اللهُ رَوْحَهُ - : أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ أَنَّ مَنِ اسْتَبَانَتْ لَهُ سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : لَمْ يَحِلَّ لَهُ أَنْ يَدَعَهَا لِقَوْلِ أَحَدٍ .

الثَّالِثُ : أَنْ لَا يَجِدَ إِلَىٰ خِلَافِ النَّصِّ سَبِيلًا أَلْبَتَّةَ ، لَا بِبَاطِنِهِ ، وَلَا بِلِسَانِهِ وَلَا بِفِعْلِهِ ، وَلَا بِحَالِهِ ، بَلْ إِذَا أَحَسَّ بِشَيْءٍ مِنَ الْخِلَافِ : فَهُوَ كَخِلَافِ الْمُقْدِمِ عَلَىٰ الزِّنَا ، وَشُرْبِ الْخَمْرِ ، وَقَتْلِ النَّفْسِ ، بَلْ هَذَا الْخِلَافُ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ دَاعٍ إِلَىٰ النِّفَاقِ ، وَهُوَ الَّذِي خَافَهُ الْكِبَارُ ، وَالْأَئِمَّةُ عَلَىٰ نُفُوسِهِمْ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُخَالِفَ لِلنَّصِّ - لِقَوْلِ مَتْبُوعِهِ وَشَيْخِهِ وَمُقَلِّدِهِ ، أَوْ لِرَأْيِهِ وَمَعْقُولِهِ ، وَذَوْقِهِ ، وَسِيَاسَتِهِ ، إِنْ كَانَ عِنْدَ اللهِ مَعْذُورًا ، وَلَا وَاللهِ مَا هُوَ بِمَعْذُورٍ - فَالْمُخَالِفُ لِقَوْلِهِ ، لِنُصُوصِ الْوَحْيِ أَوْلَىٰ بِالْعُذْرِ عِنْدَ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ عِبَادِهِ .

فَوَاعَجَبًا إِذَا اتَّسَعَ بُطْلَانُ الْمُخَالِفِينَ لِلنُّصُوصِ لِعُذْرِ مَنْ خَالَفَهَا تَقْلِيدًا ، أَوْ تَأْوِيلًا ، أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ ، فَكَيْفَ ضَاقَ عَنْ عُذْرِ مَنْ خَالَفَ أَقْوَالَهُمْ ، وَأَقْوَالَ شُيُوخِهِمْ ، لِأَجْلِ مُوَافَقَةِ النُّصُوصِ ؟، وَكَيْفَ نَصَبُوا لَهُ الْحَبَائِلَ ، وَبَغَوْهُ الْغَوَائِلَ ، وَرَمَوْهُ بِالْعَظَائِمِ ، وَجَعَلُوهُ أَسْوَأَ حَالًا مِنْ أَرْبَابِ الْجَرَائِمِ ؟ ،فَرَمَوْهُ بِدَائِهِمْ وَانْسَلُّوا مِنْهُ لِوَاذًا ، وَقَذَفُوهُ بِمُصَابِهِمْ، وَجَعَلُوا تَعْظِيمَ الْمَتْبُوعِينَ مَلَاذًا لَهُمْ وَمَعَاذًا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

مِنَ التَّوَاضُعِ قُبُولُ الْعُذْرِ :

إِنَّ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ ، ثُمَّ جَاءَ يَعْتَذِرُ مِنْ إِسَاءَتِهِ ، فَإِنَّ التَّوَاضُعَ يُوجِبُ عَلَيْكَ قَبُولَ مَعْذِرَتِهِ ، حَقًّا كَانَتْ أَوْ بَاطِلًا، وَتَكِلُ سَرِيرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْهُ فِي الْغَزْوِ ، فَلَمَّا قَدِمَ جَاءُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ ، فَقَبِلَ أَعْذَارَهُمْ ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ .

وَعَلَامَةُ الْكَرَمِ وَالتَّوَاضُعِ : أَنَّكَ إِذَا رَأَيْتَ الْخَلَلَ فِي عُذْرِهِ لَا تُوقِفُهُ

عَلَيْهِ وَلَا تُحَاجُّهُ ، وَقُلْ : يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ ، وَلَوْ قُضِيَ شَيْءٌ لَكَانَ ، وَالْمَقْدُورُ لَا مَدْفَعَ لَهُ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ .

حَقِيقَةُ الْمُرُوءَةِ :

الْمُرُوءَةُ فُعُولَةٌ مِنْ لَفَظِ الْمَرْءِ ، كَالْفُتُوَّةِ مِنَ الْفَتَىٰ ، وَالْإِنْسَانِيَّةُ مِنَ الْإِنْسَانِ ، وَلِهَذَا كَانَ حَقِيقَتُهَا : اتِّصَافَ النَّفْسِ بِصِفَاتِ الْإِنْسَانِ الَّتِي فَارَقَ بِهَا الْحَيَوَانَ الْبَهِيمَ ، وَالشَّيْطَانَ الرَّجِيمَ ، فَإِنَّ فِي النَّفْسِ ثَلَاثَةَ دَوَاعٍ مُتَجَاذِبَةٍ : دَاعٍ يَدْعُوهَا إِلَىٰ الْإِنْصَافِ بِأَخْلَاقِ الشَّيْطَانِ : مِنَ الْكِبْرِ ، وَالْحَسَدِ ، وَالْعُلُوِّ ، وَالْبَغْيِ ، وَالشَّرِّ ، وَالْأَذَىٰ ، وَالْفَسَادِ ، وَالْغِشِّ .

وَدَاعٍ يَدْعُوهَا إِلَىٰ أَخْلَاقِ الْحَيَوَانِ ، وَهُوَ دَاعِي الشَّهْوَةِ .

وَدَاعٍ يَدْعُوهَا إِلَىٰ أَخْلَاقِ الْمَلَكِ : مِنَ الْإِحْسَانِ ، وَالنُّصْحِ ، وَالْبِرِّ ، وَالْعِلْمِ ، وَالطَّاعَةِ .

فَحَقِيقَةُ الْمُرُوءَةِ : بُغْضُ ذَيْنِكَ الدَّاعِيَيْنِ ، وَإِجَابَةُ الدَّاعِي الثَّالِثِ ، وَقِلَّةُ الْمُرُوءَةِ وَعَدَمُهَا : هُوَ الِاسْتِرْسَالُ مَعَ ذَيْنِكَ الدَّاعِيَيْنِ ، وَالتَّوَجُّهُ لِدَعْوَتِهِمَا أَيْنَ كَانَتْ .

فَالْإِنْسَانِيَّةُ ، وَالْمُرُوءَةُ ، وَالْفُتُوَّةُ : كُلُّهَا فِي عِصْيَانِ الدَّاعِيَيْنِ ، وَإِجَابَةُ الدَّاعِي الثَّالِثِ ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : خَلَقَ اللهُ الْمَلَائِكَةَ عُقُولًا بِلَا شَهْوَةٍ ، وَخَلَقَ الْبَهَائِمَ شَهْوَةً بِلَا عُقُولٍ ، وَخَلَقَ ابْنَ آدَمَ ، وَرَكَّبَ فِيهِ

الْعَقْلَ وَالشَّهْوَةَ ، فَمَنْ غَلَبَ عَقْلُهُ شَهْوَتَهُ : الْتَحَقَ بِالْمَلَائِكَةِ ، وَمَنْ غَلَبَتْ شَهْوَتُهُ عَقْلَهُ : الْتَحَقَ بِالْبَهَائِمِ .

وَلِهَذَا قِيلَ فِي حَدِّ الْمُرُوءَةِ : إِنَّهَا غَلَبَةُ الْعَقْلِ لِلشَّهْوَةِ .

وَقَالَ الْفُقَهَاءُ فِي حَدِّهَا : هِيَ اسْتِعْمَالُ مَا يُجَمِّلُ الْعَبْدَ وَيُزَيِّنُهُ ، وَتَرْكُ مَا يُدَنِّسُهُ وَيَشِينُهُ .

وَقِيلَ : الْمُرُوءَةُ اسْتِعْمَالُ كُلِّ خُلُقٍ حَسَنٍ ، وَاجْتِنَابُ كُلِّ خُلُقٍ قَبِيحٍ .

وَحَقِيقَةُ الْمُرُوءَةِ تَجَنُّبُ الدَّنَايَا وَالرَّذَائِلِ ،مِنَ الْأَقْوَالِ،وَالْأَخْلَاقِ، وَالْأَعْمَالِ.

فَمُرُوءَةُ اللِّسَانِ : حَلَاوَتُهُ وَطِيبُهُ وَلِينُهُ،وَاجْتِنَاءُ الثِّمَارِ مِنْهُ بِسُهُولَةٍ وَيُسْرٍ .

وَمُرُوءَةُ الْخُلُقِ : سَعَتُهُ وَبَسْطُهُ لِلْحَبِيبِ وَالْبَغِيضِ .

وَمُرُوءَةُ الْمَالِ : الْإِصَابَةُ بِبَذْلِهِ مَوَاقِعَهُ الْمَحْمُودَةَ عَقْلًا وَعُرْفًا وَشَرْعًا.

وَمُرُوءَةُ الْجَاهِ : بَذْلُهُ لِلْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ .

وَمُرُوءَةُ الْإِحْسَانِ : تَعْجِيلُهُ وَتَيْسِيرُهُ ، وَتَوْفِيرُهُ ، وَعَدَمُ رُؤْيَتِهِ حَالَ وُقُوعِهِ ، وَنِسْيَانُهُ بَعْدَ وُقُوعِهِ ، فَهَذِهِ مُرُوءَةُ الْبَذْلِ .

دَرَجَاتُ الْمُرُوءَةِ :

وَأَمَّا مُرُوءَةُ التَّرْكِ : فَتَرْكُ الْخِصَامِ ، وَالْمُعَاتَبَةِ ، وَالْمُطَالَبَةِ وَالْمُمَارَاةِ ، وَالْإِغْضَاءِ عَنْ عَيْبِ مَا يَأْخُذُهُ مِنْ حَقِّكَ ، وَتَرْكُ الِاسْتِقْصَاءِ فِي طَلَبِهِ،

وَالتَّغَافُلُ عَنْ عَثَرَاتِ النَّاسِ ، وَإِشْعَارُهُمْ أَنَّكَ لَا تَعْلَمُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ عَثْرَةً ، وَالتَّوْقِيرُ لِلْكَبِيرِ ، وَحِفْظُ حُرْمَةِ النَّظِيرِ ، وَرِعَايَةُ أَدَبِ الصَّغِيرِ ، وَهِيَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ .

الدَّرَجَةُ الْأُولَى : مُرُوءَةُ الْمَرْءِ مَعَ نَفْسِهِ ، وَهِيَ أَنْ يَحْمِلَهَا قَسْرًا عَلَىٰ مَا يُجَمِّلُ وَيُزَيِّنُ ، وَتَرْكُ مَا يُدَنِّسُ وَيَشِينُ ، لِيَصِيرَ لَهَا مَلَكَةٌ فِي الْعَلَانِيَةِ ، فَمَنْ أَرَادَ شَيْئًا فِي سِرِّهِ وَخَلْوَتِهِ : مَلَكَهُ فِي جَهْرِهِ وَعَلَانِيَتِهِ ، فَلَا يَكْشِفُ عَوْرَتَهُ فِي الْخَلْوَةِ ، وَلَا يَتَجَشَّأُ بِصَوْتٍ مُزْعِجٍ مَا وَجَدَ إِلَىٰ خِلَافِهِ سَبِيلًا، وَلَا يُخْرِجُ الرِّيحَ بِصَوْتٍ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَىٰ خِلَافِهِ ، وَلَا يَجْشَعُ وَيَنْهَمُ عِنْدَ أَكْلِهِ وَحْدَهُ .

وَبِالْجُمْلَةِ : فَلَا يَفْعَلُ خَالِيًا مَا يَسْتَحْيِي مِنْ فِعْلِهِ فِي الْمَلَأِ ، إِلَّا مَا لَا يَحْظُرُهُ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْخَلْوَةِ ، كَالْجِمَاعِ وَالتَّخَلِّي وَنَحْوِ ذَلِكَ .

الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : الْمُرُوءَةُ مَعَ الْخَلْقِ ، بِأَنْ يَسْتَعْمِلَ مَعَهُمْ شُرُوطَ الْأَدَبِ وَالْحَيَاءِ ، وَالْخُلُقِ الْجَمِيلِ ، وَلَا يُظْهِرُ لَهُمْ مَا يَكْرَهُهُ هُوَ مِنْ غَيْرِهِ لِنَفْسِهِ ، وَلِيَتَّخِذَ النَّاسَ مِرْآةً لِنَفْسِهِ ، فَكُلُّ مَا كَرِهَهُ وَنَفَرَ عَنْهُ ، مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ خُلُقٍ ، فَلْيَتَجَنَّبْهُ ، وَمَا أَحَبَّهُ مِنْ ذَلِكَ وَاسْتَحْسَنَهُ فَلْيَفْعَلْهُ .

وَصَاحِبُ هَذِهِ الْبَصِيرَةِ يَنْتَفِعُ بِكُلِّ مَنْ خَالَطَهُ وَصَاحَبَهُ مِنْ كَامِلٍ

وَنَاقِصٍ ، وَسَيِّئِ الْخُلُقِ وَحَسَنِهِ ، وَعَدِيمِ الْمُرُوءَةِ وَغَزِيرِهَا .

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : يَتَعَلَّمُ الْمُرُوءَةَ ،وَمَكَارِمَ الأَخْلَاقِ مِنَ الْمَوْصُوفِينَ بِأَضْدَادِهَا كَمَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِ الأَكَابِرِ: أَنَّهُ كَانَ لَهُ مَمْلُوكٌ سَيِّئُ الْخُلُقِ، فَظٌّ غَلِيظٌ، لَا يُنَاسِبُهُ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ؟ ، فَقَالَ:أَدْرُسُ عَلَيْهِ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ ، وَهَذَا يَكُونُ بِمَعْرِفَةِ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ فِي ضِدِّ أَخْلَاقِهِ ، وَيَكُونُ بِتَمْرِينِ النَّفْسِ عَلَىٰ مُصَاحَبَتِهِ وَمُعَاشَرَتِهِ ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ .

الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : الْمُرُوءَةُ مَعَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ ، بِالاسْتِحْيَاءِ مِنْ نَظَرِهِ إِلَيْكَ ، وَاطِّلَاعِهِ عَلَيْكَ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَنَفَسٍ ، وَإِصْلَاحِ عُيُوبِ نَفْسِكَ جَهْدَ الإِمْكَانِ ، فَإِنَّهُ قَدِ اشْتَرَاهَا مِنْكَ ، وَأَنْتَ سَاعٍ فِي تَسْلِيمِ الْمَبِيعِ ، وَتَقَاضِي الثَّمَنِ .

وَلَيْسَ مِنَ الْمُرُوءَةِ : تَسْلِيمُهُ عَلَىٰ مَا فِيهِ مِنَ الْعُيُوبِ، وَتَقَاضِي الثَّمَنِ كَامِلًا، أَوْ رُؤْيَةُ مِنَّتِهِ فِي هَذَا الإِصْلَاحِ،وَأَنَّهُ هُوَ الْمُتَوَلِّي لَهُ، لَا أَنْتَ، فَيُغْنِيكَ الْحَيَاءُ مِنْهُ عَنْ رُسُومِ الطَّبِيعَةِ،وَالاشْتِغَالُ بِإِصْلَاحِ عُيُوبِ نَفْسِكَ عَنِ الْتِفَاتِكَ إِلَىٰ عَيْبِ غَيْرِكَ، وَشُهُودِ الْحَقِيقَةِ عَنْ رُؤْيَةِ فِعْلِكَ وَصَلَاحِكَ.

كَيْفَ تُعَاشِرُ النَّاسَ :

وَالْبَصِيرُ الصَّادِقُ : يَضْرِبُ فِي كُلِّ غَنِيمَةٍ بِسَهْمٍ ، وَيُعَاشِرُ كُلَّ طَائِفَةٍ عَلَىٰ أَحْسَنِ مَا مَعَهَا ، وَلَا يَتَحَيَّزُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ ، وَيَنْأَىٰ عَنِ الأُخْرَىٰ بِالْكُلِّيَّةِ:

أَنْ لَا يَكُونَ مَعَهَا شَيْءٌ مِنَ الْحَقِّ ، فَهَذِهِ طَرِيقَةُ الصَّادِقِينَ ، وَدَعْوَىٰ الْجَاهِلِيَّةِ كَامِنَةٌ فِي النُّفُوسِ .

وَلَا أَعْنِي بِذَلِكَ أَصْغَرَيْهِمْ وَلَكِنِّي أُرِيدُ بِهِ الدُّوَيْنَا

مِنْ صِفَاتِ عُقَلاءِ أَهْلِ الدُّنْيَا :

الْعَاقِلُ يَقِفُ عَلَىٰ الْبِسَاطِ، وَيَحْذَرُ مِنْ الانْبِسَاطِ ، وَهَذَا شَأْنُ عُقَلَاءِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَرُؤَسَائِهِمْ : إِذَا مَا وَرَدَ عَلَيْهِمْ مَا يَسُرُّهُمْ وَيُبْسِطُهُمْ وَيُهَيِّجُ أَفْرَاحَهُمْ، قَابَلُوهُ بِالسُّكُونِ وَالثَّبَاتِ وَالِاسْتِقْرَارِ،حَتَّىٰ كَأَنَّهُ لَمْ يَهْجُمْ عَلَيْهِمْ .

وَقَالَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ فِي مَدْحِ الْمُهَاجِرِينَ :

لَيْسُوا مَفَارِيحَ إِنْ نَالَتْ رِمَاحُهُمُ قَوْمًا وَلَيْسُوا مَجَازِيعًا إِذَا نِيلُوا

حَاجَتُنَا إِلَى الأَدَبِ :

قَالَ ابْنُ مُبَارَك -رَحِمَهُ اللّه - : نَحْنُ إِلَىٰ قَلِيلٍ مِنَ الْأَدَبِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الْعِلْمِ .

مِنْ أَدَبِ أَنْبِيَاءِ اللّهِ :

وَتَأَمَّلْ أَحْوَالَ الرُّسُلِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ- مَعَ اللهِ ، وَخِطَابَهُمْ وَسُؤَالَهُمْ ، كَيْفَ تَجِدُهَا كُلَّهَا مَشْحُونَةً بِالْأَدَبِ قَائِمَةً بِهِ ؟.

قَالَ الْمَسِيحُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ [المَائِدَة: ١١٦] ، وَلَمْ يَقُلْ : لَمْ أَقُلْهُ ، وَفَرْقٌ بَيْنَ الْجَوَابَيْنِ فِي حَقِيقَةِ الأَدَبِ، ثُمَّ أَحَالَ الْأَمْرَ عَلَىٰ عِلْمِهِ سُبْحَانَهُ بِالْحَالِ وَسِرِّهِ ، فَقَالَ : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى ﴾ [المَائِدَة: ١١٦] ،ثُمَّ بَرَّأَ نَفْسَهُ عَنْ عِلْمِهِ بِغَيْبِ رَبِّهِ وَمَا يَخْتَصُّ بِهِ سُبْحَانَهُ، فَقَالَ : ﴿ وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ [المَائِدَة: ١١٦] ،ثُمَّ أَثْنَىٰ عَلَىٰ رَبِّهِ، وَوَصَفَهُ بِتَفَرُّدِهِ بِعِلْمِ الْغُيُوبِ كُلِّهَا ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المَائِدَة: ١١٦] ،ثُمَّ نَفَىٰ أَنْ يَكُونَ قَالَ لَهُمْ غَيْرَ مَا أَمَرَهُ رَبُّهُ بِهِ -وَهُوَ مَحْضُ التَّوْحِيدِ- فَقَالَ: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾[المَائِدَة: ١١٧] ،ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ شَهَادَتِهِ عَلَيْهِمْ مُدَّةَ مُقَامِهِ فِيهِمْ ، وَأَنَّهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَا اطِّلَاعَ لَهُ عَلَيْهِمْ،وَأَنَّ اللهَ-عَزَّ وَجَلَّ- وَحْدَهُ هُوَ الْمُنْفَرِدُ بَعْدَ الْوَفَاةِ بِالاطِّلَاعِ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المَائِدَة: ١١٧]، ثُمَّ وَصَفَهُ بِأَنَّ شَهَادَتَهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ كُلِّ شَهَادَةٍ وَأَعَمُّ، فَقَالَ : ﴿ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المَائِدَة: ١١٧] ،ثُمَّ قَالَ: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ ﴾ [المَائِدَة: ١١٧] ، وَهَذَا مِنْ أَبْلَغِ الأَدَبِ مَعَ اللهِ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ، أَيْ شَأْنُ السَّيِّدِ رَحْمَةُ عَبِيدِهِ وَالْإِحْسَانُ إِلَيْهِمْ، وَهَؤُلَاءِ عَبِيدُكَ لَيْسُوا عَبِيدًا لِغَيْرِكَ فَإِذَا عَذَّبْتَهُمْ - مَعَ كَوْنِهِمْ عَبِيدَكَ - فَلَوْلَا أَنَّهُمْ عَبِيدُ سُوءٍ مِنْ أَبْخَسِ الْعَبِيدِ ، وَأَعْتَاهُمْ عَلَىٰ سَيِّدِهِمْ ، وَأَعْصَاهُمْ لَهُ - لَمْ تُعَذِّبْهُمْ، لِأَنَّ قُرْبَةَ

الْعُبُودِيَّةَ تَسْتَدْعِي إِحْسَانَ السَّيِّدِ إِلَىٰ عَبْدِهِ وَرَحْمَتَهُ، فَلِمَاذَا يُعَذِّبُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ، وَأَعْظَمُ الْمُحْسِنِينَ إِحْسَانًا عَبِيدَهُ؟، لَوْلَا فَرْطُ عُتُوِّهِمْ، وَإِبَاؤُهُمْ عَنْ طَاعَتِهِ، وَكَمَالُ اسْتِحْقَاقِهِمْ لِلْعَذَابِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المَائِدَة: ١١٦]، أَيْ هُمْ عِبَادُكَ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِسِرِّهِمْ وَعَلَانِيَتِهِمْ، فَإِذَا عَذَّبْتَهُمْ: عَذَّبْتَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْكَ بِمَا تُعَذِّبُهُمْ عَلَيْهِ، فَهُمْ عِبَادُكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِمَا جَنَوْهُ وَاكْتَسَبُوهُ، فَلَيْسَ فِي هَذَا اسْتِعْطَافٌ لَهُمْ، كَمَا يَظُنُّهُ الْجُهَّالُ، وَلَا تَفْوِيضٌ إِلَىٰ مَحْضِ الْمَشِيئَةِ وَالْمُلْكِ الْمُجَرَّدِ عَنِ الْحِكْمَةِ، كَمَا تَظُنُّهُ الْقَدَرِيَّةُ، وَإِنَّمَا هُوَ إِقْرَارٌ وَاعْتِرَافٌ وَثَنَاءٌ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَكَمَالِ عِلْمِهِ بِحَالِهِمْ، وَاسْتِحْقَاقِهِمْ لِلْعَذَابِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ [المَائِدَة: ١١٨]، وَلَمْ يَقُلْ: الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَهَذَا مِنْ أَبْلَغِ الْأَدَبِ مَعَ اللهِ تَعَالَىٰ، فَإِنَّهُ قَالَهُ فِي وَقْتِ غَضَبِ الرَّبِّ عَلَيْهِمْ، وَالْأَمْرِ بِهِمْ إِلَىٰ النَّارِ، فَلَيْسَ هُوَ مَقَامَ اسْتِعْطَافٍ وَلَا شَفَاعَةٍ، بَلْ مَقَامُ بَرَاءَةٍ مِنْهُمْ، فَلَوْ قَالَ: فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ لَأَشْعَرَ بِاسْتِعْطَافِهِ رَبَّهُ عَلَىٰ أَعْدَائِهِ الَّذِينَ قَدِ اشْتَدَّ غَضَبُهُ عَلَيْهِمْ، فَالْمَقَامُ مَقَامُ مُوَافَقَةٍ لِلرَّبِّ فِي غَضَبِهِ عَلَىٰ مَنْ غَضِبَ الرَّبُّ عَلَيْهِمْ، فَعَدَلَ عَنْ ذِكْرِ الصِّفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ يُسْأَلُ بِهِمَا عَطْفُهُ وَرَحْمَتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ إِلَىٰ ذِكْرِ الْعِزَّةِ

وَالْحِكْمَةِ ، الْمُتَضَمِّنَتَيْنِ لِكَمَالِ الْقُدْرَةِ وَكَمَالِ الْعِلْمِ .

وَالْمَعْنَى: إِنْ غَفَرْتَ لَهُمْ فَمَغْفِرَتُكَ تَكُونُ عَنْ كَمَالِ الْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ، لَيْسَتْ عَنْ عَجْزٍ عَنْ الِانْتِقَامِ مِنْهُمْ،وَلَا عَنْ خَفَاءٍ عَلَيْكَ بِمِقْدَارِ جَرَائِمِهِمْ، وَهَذَا لِأَنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَغْفِرُ لِغَيْرِهِ لِعَجْزِهِ عَنْ الِانْتِقَامِ مِنْهُ، وَلِجَهْلِهِ بِمِقْدَارِ إِسَاءَتِهِ إِلَيْهِ، وَالْكَمَالُ: هُوَ مَغْفِرَةُ الْقَادِرِ الْعَالِمِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَكَانَ ذِكْرُ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ فِي هَذَا الْمَقَامِ عَيْنَ الْأَدَبِ فِي الْخِطَابِ.

وَفِي بَعْضِ الْآثَارِ حَمَلَةُ الْعَرْشِ أَرْبَعَةٌ : اثْنَانِ يَقُولَانِ : سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَىٰ حِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ ، وَاثْنَانِ يَقُولَانِ : سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَىٰ عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ .

وَلِهَذَا يَقْتَرِنُ كُلٌّ مِنْ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ بِالْأُخْرَىٰ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ **وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ** ﴾ [النِّسَاء :١٢] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ **فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا** ﴾ [النِّسَاء :١٤٩] .

وَكَذَلِكَ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : ﴿ **ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾** ﴾ [الشُّعَرَاءُ : ٧٨-٨٠] ، وَلَمْ يَقُلْ : وَإِذَا أَمْرَضَنِي ، حِفْظًا لِلْأَدَبِ مَعَ اللهِ .

وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْخَضِرِ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- فِي السَّفِينَةِ ﴿ **فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا** ﴾

[الكَهْفُ :٧٩] ، وَلَمْ يَقُلْ : فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ أَعِيبَهَا ، وَقَالَ فِي الْغُلَامَيْنِ : ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكَهْفُ :٨٢] .

وَكَذَلِكَ قَوْلُ مُؤْمِنِي الْجِنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجِنُّ :١٠]، وَلَمْ يَقُولُوا : أَرَادَهُ بِهِمْ ، ثُمَّ قَالُوا : ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجِنُّ :١٠] .

وَأَلْطَفُ مِنْ هَذَا قَوْلُ مُوسَىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القَصَصُ:٢٤] ، وَلَمْ يَقُلْ : أَطْعِمْنِي .

وَقَوْلُ آدَمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأَعْرَاف:٢٣] ، وَلَمْ يَقُلْ : رَبِّ قَدَّرْتَ عَلَيَّ وَقَضَيْتَ عَلَيَّ.

وَقَوْلُ أَيُّوبَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأَنْبِيَاء :٨٣] ، وَلَمْ يَقُلْ : فَعَافِنِي وَاشْفِنِي .

وَقَوْلُ يُوسُفَ لِأَبِيهِ -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- وَإِخْوَتِه : ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ [يُوسُف:١٠٠] ، وَلَمْ يَقُلْ: أَخْرَجَنِي مِنَ الْجُبِّ ، حِفْظًا لِلْأَدَبِ مَعَ إِخْوَتِهِ، وَتَفَتِّيًا عَلَيْهِمْ : أَنْ لَا يُخْجِلَهُمْ بِمَا جَرَىٰ فِي الْجُبِّ .

وَقَالَ : ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يُوسُف :١٠٠]، وَلَمْ يَقُلْ : رَفَعَ عَنْكُمْ

جُهْدَ الْجُوعِ وَالْحَاجَةِ، أَدَبًا مَعَهُمْ ، وَأَضَافَ مَا جَرَىٰ إِلَىٰ السَّبَبِ ، وَلَمْ يُضِفْهُ إِلَىٰ الْمُبَاشِرِ الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْهُ ، فَقَالَ : ﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ ﴾[يُوسُف :١٠٠] ، فَأَعْطَىٰ الْفُتُوَّةَ وَالْكَرَمَ وَالْأَدَبَ حَقَّهُ ، وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ كَمَالُ هَذَا الْخُلُقِ إِلَّا لِلرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ .

الْأَدَبُ مَعَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

الْأَدَبُ مَعَ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- هُوَ الْقِيَامُ بِدِينِهِ ، وَالتَّأَدُّبُ بِآدَابِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا .

وَلَا يَسْتَقِيمُ لِأَحَدٍ قَطُّ الْأَدَبُ مَعَ اللهِ إِلَّا بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : مَعْرِفَتُهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَمَعْرِفَتُهُ بِدِينِهِ وَشَرْعِهِ ، وَمَا يُحِبُّ وَمَا يَكْرَهُ ، وَنَفْسٌ مُسْتَعِدَّةٌ قَابِلَةٌ لَيِّنَةٌ ، مُتَهَيِّئَةٌ لِقَبُولِ الْحَقِّ عِلْمًا وَعَمَلًا وَحَالًا ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ .

الْأَدَبُ مَعَ الرَّسُولِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- :

وَأَمَّا الْأَدَبُ مَعَ الرَّسُولِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : فَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ بِهِ.

فَرَأْسُ الْأَدَبِ مَعَهُ : كَمَالُ التَّسْلِيمِ لَهُ ، وَالِانْقِيَادُ لِأَمْرِهِ ، وَتَلَقِّي خَبَرِهِ بِالْقَبُولِ وَالتَّصْدِيقِ ، دُونَ أَنْ يُحَمِّلَهُ مُعَارَضَةَ خَيَالٍ بَاطِلٍ ، يُسَمِّيهِ مَعْقُولًا ، أَوْ يُحَمِّلَهُ شُبْهَةً أَوْ شَكًّا ، أَوْ يُقَدِّمَ عَلَيْهِ آرَاءَ الرِّجَالِ ، وَزُبَالَاتِ أَذْهَانِهِمْ ، فَيُوَحِّدُهُ بِالتَّحْكِيمِ وَالتَّسْلِيمِ ، وَالِانْقِيَادِ وَالْإِذْعَانِ، كَمَا وَحَّدَ

الْمُرْسِلَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِالْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ وَالذُّلِّ ، وَالْإِنَابَةِ وَالتَّوَكُّلِ .

فَهُمَا تَوْحِيدَانِ ، لَا نَجَاةَ لِلْعَبْدِ مِنْ عَذَابِ اللهِ إِلَّا بِهِمَا : تَوْحِيدُ الْمُرْسِلِ، وَتَوْحِيدُ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ .

الْأَدَبُ مَعَ الْخَلْقِ :

وَأَمَّا الْأَدَبُ مَعَ الْخَلْقِ: فَهُوَ مُعَامَلَتُهُمْ - عَلَىٰ اخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ - بِمَا يَلِيقُ بِهِمْ ، فَلِكُلِّ مَرْتَبَةٍ أَدَبٌ، وَالْمَرَاتِبُ فِيهَا أَدَبٌ خَاصٌّ، فَمَعَ الْوَالِدَيْنِ: أَدَبٌ خَاصٌّ وَلِلْأَبِ مِنْهُمَا: أَدَبٌ هُوَ أَخَصُّ بِهِ، وَمَعَ الْعَالِمِ: أَدَبٌ آخَرُ، وَمَعَ السُّلْطَانِ: أَدَبٌ يَلِيقُ بِهِ، وَلَهُ مَعَ الْأَقْرَانِ أَدَبٌ يَلِيقُ بِهِمْ ، وَمَعَ الْأَجَانِبِ: أَدَبٌ غَيْرُ أَدَبِهِ مَعَ أَصْحَابِهِ وَذَوِي أُنْسِهِ، وَمَعَ الضَّيْفِ: أَدَبٌ غَيْرُ أَدَبِهِ مَعَ أَهْلِ بَيْتِهِ.

وَلِكُلِّ حَالٍ أَدَبٌ:

وَلِكُلِّ حَالٍ أَدَبٌ فَلِلْأَكْلِ آدَابٌ ، وَلِلشُّرْبِ آدَابٌ ، وَلِلرُّكُوبِ ، وَالدُّخُولِ وَالْخُرُوجِ ، وَالسَّفَرِ وَالْإِقَامَةِ ، وَالنَّوْمِ آدَابٌ ، وَلِلْبَوْلِ آدَابٌ، وَلِلْكَلَامِ آدَابٌ ، وَلِلسُّكُوتِ وَالِاسْتِمَاعِ آدَابٌ.

وَأَدَبُ الْمَرْءِ: عُنْوَانُ سَعَادَتِهِ:

وَأَدَبُ الْمَرْءِ: عُنْوَانُ سَعَادَتِهِ وَفَلَاحِهِ.

وَقِلَّةُ أَدَبِهِ: عُنْوَانُ شَقَاوَتِهِ وَبَوَارِهِ.

فَمَا اسْتُجْلِبَ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِمِثْلِ الْأَدَبِ، وَلَا اسْتُجْلِبَ حِرْمَانُهُمَا بِمِثْلِ قِلَّةِ الْأَدَبِ.

فَانْظُرْ إِلَىٰ الْأَدَبِ مَعَ الْوَالِدَيْنِ: كَيْفَ نَجَّىٰ صَاحِبَهُ مِنْ حَبْسِ الْغَارِ حِينَ أَطْبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ؟ وَالْإِخْلَالُ بِهِ مَعَ الْأُمِّ - تَأْوِيلًا وَإِقْبَالًا عَلَىٰ الصَّلَاةِ - كَيْفَ امْتُحِنَ صَاحِبُهُ بِهَدْمِ صَوْمَعَتِهِ وَضَرْبِ النَّاسِ لَهُ، وَرَمْيِهِ بِالْفَاحِشَةِ؟.

وَتَأَمَّلْ أَحْوَالَ كُلِّ شَقِيٍّ وَمُغْتَرٍّ وَمُدْبِرٍ: كَيْفَ تَجِدُ قِلَّةَ الْأَدَبِ هِيَ الَّتِي سَاقَتْهُ إِلَىٰ الْحِرْمَانِ؟ .

وَانْظُرْ قِلَّةَ أَدَبِ عَوْفٍ مَعَ خَالِدٍ: كَيْفَ حَرَمَهُ السَّلْبَ بَعْدَ أَنْ بَرَدَ بِيَدَيْهِ؟.

وَانْظُرْ أَدَبَ الصِّدِّيقِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- مَعَ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الصَّلَاةِ: أَنْ يَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: « **مَا كَانَ يَنْبَغِي لِابْنِ أَبِي قُحَافَةَ أَنْ يَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-** »[1]، كَيْفَ أَوْرَثَهُ مَقَامَهُ وَالْإِمَامَةَ بِالْأُمَّةِ بَعْدَهُ؟ ، فَكَانَ ذَلِكَ التَّأَخُّرُ إِلَىٰ خَلْفِهِ -وَقَدْ أَوْمَأَ إِلَيْهِ أَنِ اثْبُتْ مَكَانَكَ- جَمْزًا، وَسَعْيًا إِلَىٰ قُدَّامَ؟ ، بِكُلِّ خُطْوَةٍ إِلَىٰ وَرَاءَ مَرَاحِلُ إِلَىٰ قُدَّامَ ، تَنْقَطِعُ فِيهَا أَعْنَاقُ الْمَطِيِّ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

---

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٨٤) ، وَمُسْلِمٌ (٤٢١) .

حَدُّ الأَدَبِ :

هَذَا مِنْ أَحْسَنِ الْحُدُودِ، فَإِنَّ الانْحِرَافَ إِلَىٰ أَحَدِ طَرَفَيِ الْغُلُوِّ وَالْجَفَاءِ: هُوَ قِلَّةُ الأَدَبِ.

وَالأَدَبُ: الْوُقُوفُ فِي الْوَسَطِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، فَلَا يُقَصِّرُ بِحُدُودِ الشَّرْعِ عَنْ تَمَامِهَا، وَلَا يَتَجَاوَزُ بِهَا مَا جُعِلَتْ حُدُودًا لَهُ، فَكِلَاهُمَا عُدْوَانٌ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ، وَالْعُدْوَانُ: هُوَ سُوءُ الأَدَبِ.

أَدَبُ الصُّحْبَةِ :

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ النَّيْسَابُورِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: الصُّحْبَةُ مَعَ اللهِ: بِحُسْنِ الأَدَبِ، وَدَوَامِ الْهَيْبَةِ وَالْمُرَاقَبَةِ، وَالصُّحْبَةُ مَعَ الرَّسُولِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: بِاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ، وَلُزُومِ ظَاهِرِ الْعِلْمِ، وَمَعَ أَوْلِيَاءِ اللهِ: بِالاحْتِرَامِ وَالْخِدْمَةِ، وَمَعَ الأَهْلِ: بِحُسْنِ الْخُلُقِ، وَمَعَ الإِخْوَانِ: بِدَوَامِ الْبِشْرِ، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، وَمَعَ الْجُهَّالِ: بِالدُّعَاءِ لَهُمْ وَالرَّحْمَةِ.

زَادَ غَيْرُهُ: وَمَعَ الْحَافِظَيْنِ: بِإِكْرَامِهِمَا وَاحْتِرَامِهِمَا، وَإِمْلَائِهِمَا مَا يَحْمَدَانِكَ عَلَيْهِ، وَمَعَ النَّفْسِ: بِالْمُخَالَفَةِ، وَمَعَ الشَّيْطَانِ: بِالْعَدَاوَةِ.

الهِمَمُ العَالِيَةِ :

أَعْلَى الْهِمَمِ: مَا تَعَلَّقَ بِالْعَلِيِّ الأَعْلَىٰ، وَأَوْسَعُهَا: مَا تَعَلَّقَ بِصَلَاحِ

الْعِبَادِ ، وَهِيَ هِمَمُ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ ، وَوَرَثَتِهِمْ .

أَرْكَانُ الحِكْمَةِ :

وَلَهَا ثَلَاثَةُ أَرْكَانٍ : الْعِلْمُ ، وَالْحِلْمُ ، وَالْأَنَاةُ .

وَآفَاتُهَا وَأَضْدَادُهَا : الْجَهْلُ ، وَالطَّيْشُ ، وَالْعَجَلَةُ .

فَلَا حِكْمَةَ لِجَاهِلٍ ، وَلَا طَائِشٍ ، وَلَا عَجُولٍ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

الْفِرَاسَةُ الإِيمَانِيَّةُ :

وَسَبَبُهَا : نُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ ، يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالْحَالِي وَالْعَاطِلِ ، وَالصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ .

وَحَقِيقَتُهَا : أَنَّهَا خَاطِرٌ يَهْجُمُ عَلَىٰ الْقَلْبِ يَنْفِي مَا يُضَادُّهُ ، يَثِبُ عَلَىٰ الْقَلْبِ كَوُثُوبِ الْأَسَدِ عَلَىٰ الْفَرِيسَةِ ، لَكِنَّ الْفَرِيسَةَ فَعِيلَةٌ بِمَعْنَىٰ مُفْعُولَةٌ، وَبِنَاءُ الْفِرَاسَةِ كَبِنَاءِ الْوِلَايَةِ وَالْإِمَارَةِ وَالسِّيَاسَةِ ، وَهَذِهِ الْفِرَاسَةُ عَلَىٰ حَسَبِ قُوَّةِ الْإِيمَانِ ، فَمَنْ كَانَ أَقْوَىٰ إِيمَانًا فَهُوَ أَحَدُّ فِرَاسَةً .

أَفْرَسُ النَّاسِ :

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- : أَفْرَسُ النَّاسِ ثَلَاثَةٌ : الْعَزِيزُ فِي يُوسُفَ ، حَيْثُ قَالَ لِامْرَأَتِهِ : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ [يوسف: ٢١] ، وَابْنَةُ شُعَيْبٍ حِينَ قَالَتْ لِأَبِيهَا فِي مُوسَى:

﴿ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ﴾ [القصص: ٢٦]، وأَبُو بَكْرٍ فِي عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- حَيْثُ اسْتَخْلَفَهُ.

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ: وَامْرَأَةُ فِرْعَوْنَ حِينَ قَالَتْ: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ [القصص: ٩].

وَكَانَ الصِّدِّيقُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَعْظَمَ الْأُمَّةِ فِرَاسَةً، وَبَعْدَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، وَوَقَائِعُ فِرَاسَتِهِ مَشْهُورَةٌ، فَإِنَّهُ مَا قَالَ لِشَيْءٍ أَظُنُّهُ كَذَا إِلَّا كَانَ كَمَا قَالَ، وَيَكْفِي فِي فِرَاسَتِهِ: مُوَافَقَتُهُ رَبَّهُ فِي الْمَوَاضِعِ الْمَعْرُوفَةِ.

وَمَرَّ بِهِ سَوَّادُ بْنُ قَارِب، وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ، فَقَالَ: لَقَدْ أَخْطَأَ ظَنِّي، أَوْ أَنَّ هَذَا كَاهِنٌ، أَوْ كَانَ يَعْرِفُ الْكِهَانَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ ذَلِكَ عُمَرُ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا اسْتَقْبَلْتَ أَحَدًا مِنْ جُلَسَائِكَ بِمِثْلِ مَا اسْتَقْبَلْتَنِي بِهِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: مَا كُنَّا عَلَيْهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَخْبِرْنِي عَمَّا سَأَلْتُكَ عَنْهُ، فَقَالَ: صَدَقْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، كُنْتُ كَاهِنًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ ذَكَرَ الْقِصَّةَ.

فِرَاسَةُ الْأَطِبَّاءِ:

وَلِلْأَطِبَّاءِ فِرَاسَةٌ مَعْرُوفَةٌ مِنْ حِذْقِهِمْ فِي صِنَاعَتِهِمْ، وَمَنْ أَحَبَّ

الْوُقُوفَ عَلَيْهَا فَلْيُطَالِعْ تَارِيخَهُمْ وَأَخْبَارَهُمْ ، وَقَرِيبٌ مِنْ نِصْفِ الطِّبِّ فِرَاسَةٌ صَادِقَةٌ ، يَقْتَرِنُ بِهَا تَجْرِبَةٌ ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ .

الْفِرَاسَةُ الْخَلْقِيَّة :

الْفِرَاسَةُ الْخَلْقِيَّةُ : وَهِيَ الَّتِي صَنَّفَ فِيهَا الْأَطِبَّاءُ وَغَيْرُهُمْ ،وَاسْتَدَلُّوا بِالْخَلْقِ عَلَىٰ الْخُلُقِ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ الِارْتِبَاطِ الَّذِي اقْتَضَتْهُ حِكْمَةُ اللهِ ، كَالِاسْتِدْلَالِ بِصِغَرِ الرَّأْسِ الْخَارِجِ عَنِ الْعَادَةِ عَلَىٰ صِغَرِ الْعَقْلِ ، وَبِكِبَرِهِ ، وَبِسِعَةِ الصَّدْرِ ، وَبُعْدِ مَا بَيْنَ جَانِبَيْهِ : عَلَىٰ سَعَةِ خُلُقِ صَاحِبِهِ، وَاحْتِمَالِهِ وَبَسْطَتِهِ ، وَبِضِيقِهِ عَلَىٰ ضِيقِهِ ، وَبِخُمُودِ الْعَيْنِ وَكَلَالِ نَظَرِهَا عَلَىٰ بَلَادَةِ صَاحِبِهَا ، وَضَعْفِ حَرَارَةِ قَلْبِهِ ، وَبِشِدَّةِ بَيَاضِهَا مَعَ إِشْرَابِهِ بِحُمْرَةٍ - وَهُوَ الشَّكْلُ - عَلَىٰ شَجَاعَتِهِ وَإِقْدَامِهِ وَفِطْنَتِهِ ، وَبِتَدْوِيرِهَا مَعَ حُمْرَتِهَا وَكَثْرَةِ تَقَلُّبِهَا عَلَىٰ خِيَانَتِهِ وَمَكْرِهِ وَخِدَاعِهِ .

وَمُعْظَمُ تَعَلُّقِ الْفِرَاسَةِ بِالْعَيْنِ ، فَإِنَّهَا مِرْآةُ الْقَلْبِ وَعُنْوَانُ مَا فِيهِ ، ثُمَّ بِاللِّسَانِ ، فَإِنَّهُ رَسُولُهُ وَتُرْجُمَانُهُ ، وَبِالِاسْتِدْلَالِ بِزُرْقَتِهَا مَعَ شُقْرَةِ صَاحِبِهَا عَلَىٰ رَدَاءَتِهِ ، وَبِالْوَحْشَةِ الَّتِي تُرَىٰ عَلَيْهَا عَلَىٰ سُوءِ دَاخِلِهِ وَفَسَادِ طَوِيَّتِهِ .

وَكَالِاسْتِدْلَالِ بِإِفْرَاطِ الشَّعَرِ فِي السُّبُوطَةِ عَلَىٰ الْبَلَادَةِ ، وَبِإِفْرَاطِهِ فِي الْجُعُودَةِ عَلَىٰ الشَّرِّ ، وَبِاعْتِدَالِهِ عَلَىٰ اعْتِدَالِ صَاحِبِهِ .

أَصْلُ الْفِرَاسَةِ الْخَلْقِيَّةِ :

وَأَصْلُ هَذِهِ الْفِرَاسَةِ : أَنَّ اعْتِدَالَ الْخِلْقَةِ وَالصُّورَةِ : هُوَ مِن اعْتِدَالِ الْمِزَاجِ وَالرُّوحِ ، وَعَن اعْتِدَالِهَا يَكُونُ اعْتِدَالُ الْأَخْلَاقِ وَالْأَفْعَالِ ، وَبِحَسَبِ انْحِرَافِ الْخِلْقَةِ وَالصُّورَةِ عَنْ الاعْتِدَالِ : يَقَعُ الِانْحِرَافُ فِي الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ .

هَذَا إِذَا خُلِّيتِ النَّفْسُ وَطَبِيعَتَهَا .

وَلَكِنَّ صَاحِبَ الصُّورَةِ وَالْخِلْقَةِ الْمُعْتَدِلَةِ يَكْتَسِبُ بِالْمُقَارَنَةِ وَالْمُعَاشَرَةِ أَخْلَاقَ مَنْ يُقَارِنُهُ وَيُعَاشِرُهُ ، وَلَوْ أَنَّهُ مِنَ الْحَيَوَانِ الْبَهِيمِ ، فَيَصِيرُ مِنْ أَخْبَثِ النَّاسِ أَخْلَاقًا وَأَفْعَالًا ، وَتَعُودُ لَهُ تِلْكَ طِبَاعًا ، وَيَتَعَذَّرُ - أَوْ يَتَعَسَّرُ - عَلَيْهِ الِانْتِقَالُ عَنْهَا .

وَكَذَلِكَ صَاحِبُ الْخِلْقَةِ وَالصُّورَةِ الْمُنْحَرِفَةِ عَنْ الاعْتِدَالِ يَكْتَسِبُ بِصُحْبَةِ الْكَامِلِينَ بِخُلْطَتِهِمْ أَخْلَاقًا وَأَفْعَالًا شَرِيفَةً ، تَصِيرُ لَهُ كَالطَّبِيعَةِ ، فَإِنَّ الْعَوَائِدَ وَالْمُزَاوَلَاتِ تُعْطِي الْمَلَكَاتِ وَالْأَخْلَاقَ .

فَلْيَتَأَمَّلْ هَذَا الْمَوْضِعَ وَلَا يُعَجِّلْ بِالْقَضَاءِ بِالْفِرَاسَةِ دُونَهُ ، فَإِنَّ الْقَاضِيَ حِينَئِذٍ يَكُونُ خَطَؤُهُ كَثِيرًا ، فَإِنَّ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ أَسْبَابٌ لَا مُوجِبَةٌ ، وَقَدْ تَتَخَلَّفُ عَنْهَا أَحْكَامُهَا لِفَوَاتِ شَرْطٍ ، أَوْ لِوُجُودِ مَانِعٍ .

وَفِرَاسَةُ الْمُتَفرِّسِ تَتَعَلَّقُ بِثَلاثَةِ أَشْيَاءَ :

بِعَيْنِهِ ، وَأُذُنِهِ ، وَقَلْبِهِ ، فَعَيْنُهُ لِلسِّيمَاءِ وَالْعَلامَاتِ ، وَأُذُنُهُ : لِلْكَلَامِ وَتَصْرِيحِهِ وَتَعْرِيضِهِ ، وَمَنْطُوقِهِ ، وَمَفْهُومِهِ ، وَفَحْوَاهُ وَإِشَارَتِهِ ، وَلَحْنِهِ وَإِيمَانِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَقَلْبُهُ لِلْعُبُورِ : وَالاسْتِدْلَالِ مِنَ الْمَنْظُورِ وَالْمَسْمُوعِ إِلَىٰ بَاطِنِهِ وَخَفِيِّهِ ، فَيَعْبُرُ إِلَىٰ مَا وَرَاءَ ظَاهِرِهِ ، كَعُبُورِ النُّقَّادِ مِنْ ظَاهِرِ النَّقْشِ وَالسِّكَّةِ إِلَىٰ بَاطِنِ النَّقْدِ وَالاطِّلَاعِ عَلَيْهِ : هَلْ هُوَ صَحِيحٌ ، أَوْ زَغَلٌ ؟، وَكَذَلِكَ عُبُورُ الْمُتَفَرِّسِ مِنْ ظَاهِرِ الْهَيْئَةِ وَالدَّلِّ ، إِلَىٰ بَاطِنِ الرُّوحِ وَالْقَلْبِ ، فَنِسْبَةُ نَقْدِهِ لِلأَرْوَاحِ مِنَ الأَشْبَاحِ كَنِسْبَةِ نَقْدِ الصَّيْرَفِيِّ يَنْظُرُ لِلْجَوْهَرِ مِنْ ظَاهِرِ السِّكَّةِ وَالنَّقْدِ.

وَكَذَلِكَ نَقْدُ أَهْلِ الْحَدِيثِ ، فَإِنَّهُ يَمُرُّ إِسْنَادٌ ظَاهِرٌ كَالشَّمْسِ عَلَىٰ مَتْنٍ مَكْذُوبٍ ، فَيُخْرِجُهُ نَاقِدُهُمْ ، كَمَا يُخْرِجُ الصَّيْرَفِيُّ الزَّغَلَ مِنْ تَحْتِ الظَّاهِرِ مِنَ الْفِضَّةِ ، وَكَذَلِكَ فِرَاسَةُ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ .

وَلِلْفِرَاسَةِ سَبَبَانِ :

أَحَدُهُمَا : جَوْدَةُ ذِهْنِ الْمُتَفَرِّسِ ، وَحِدَّةُ قَلْبِهِ ، وَحُسْنُ فِطْنَتِهِ .

وَالثَّانِي : ظُهُورُ الْعَلَامَاتِ وَالأَدِلَّةِ عَلَىٰ الْمُتَفَرِّسِ فِيهِ ، فَإِذَا اجْتَمَعَ السَّبَبَانِ لَمْ تَكَدْ تُخْطِئُ لِلْعَبْدِ فِرَاسَةٌ ، وَإِذَا انْتَفَيَا لَمْ تَكَدْ تَصِحُّ لَهُ فِرَاسَةٌ ،

وَإِذَا قَوِيَ أَحَدُهُمَا وَضَعُفَ الْآخَرُ ، كَانَتْ فِرَاسَتُهُ بَيْنَ بَيْنَ .

وَكَانَ إِيَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ فِرَاسَةً ، وَلَهُ الْوَقَائِعُ الْمَشْهُورَةُ ، وَكَذَلِكَ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-، وَقِيلَ : إِنَّ لَهُ فِيهَا تَآلِيفُ .

وَلَقَدْ شَاهَدْتُ مِنْ فِرَاسَةِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللهُ - أُمُورًا عَجِيبَةً ، وَمَا لَمْ أُشَاهِدْهُ مِنْهَا أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ ، وَوَقَائِعُ فِرَاسَتِهِ تَسْتَدْعِي سِفْرًا ضَخْمًا .

أَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِدُخُولِ التَّتَارِ الشَّامَ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ ، وَأَنَّ جُيُوشَ الْمُسْلِمِينَ تُكْسَرُ ،وَأَنَّ دِمَشْقَ لَا يَكُونُ بِهَا قَتْلٌ عَامٌّ وَلَا سَبْيٌ عَامٌّ، وَأَنَّ كَلَبَ الْجَيْشِ وَحِدَّتَهُ فِي الْأَمْوَالِ،وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يَهُمَّ التَّتَارُ بِالْحَرَكَةِ .

ثُمَّ أَخْبَرَ النَّاسَ وَالْأُمَرَاءَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِمِائَةٍ لَمَّا تَحَرَّكَ التَّتَارُ وَقَصَدُوا الشَّامَ : أَنَّ الدَّائِرَةَ وَالْهَزِيمَةَ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ الظَّفَرَ وَالنَّصْرَ لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَقْسَمَ عَلَىٰ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ يَمِينًا، فَيُقَالُ لَهُ: قُلْ إِنْ شَاءَ اللهُ ، فَيَقُولُ : إِنْ شَاءَ اللهُ تَحْقِيقًا لَا تَعْلِيقًا، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ ذَلِكَ ، قَالَ : فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيَّ، قُلْتُ: لَا تُكْثِرُوا، كَتَبَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ، أَنَّهُمْ مَهْزُومُونَ فِي هَذِهِ الْكَرَّةِ ، وَأَنَّ النَّصْرَ لِجُيُوشِ الْإِسْلَامِ ، قَالَ : وَأَطْمَعْتُ بَعْضَ الْأُمَرَاءِ وَالْعَسْكَرِ حَلَاوَةَ النَّصْرِ قَبْلَ خُرُوجِهِمْ إِلَىٰ لِقَاءِ الْعَدُوِّ .

وَكَانَتْ فِرَاسَتُهُ الْجُزْئِيَّةُ فِي خِلَالِ هَاتَيْنِ الْوَاقِعَتَيْنِ مِثْلَ الْمَطَرِ .

وَلَمَّا طُلِبَ إِلَىٰ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَأُرِيدَ قَتْلُهُ - بَعْدَمَا أُنْضِجَتْ لَهُ الْقُدُورُ ، وَقُلِّبَتْ لَهُ الْأُمُورُ - اجْتَمَعَ أَصْحَابُهُ لِوَدَاعِهِ ، وَقَالُوا : قَدْ تَوَاتَرَتِ الْكُتُبُ بِأَنَّ الْقَوْمَ عَامِلُونَ عَلَىٰ قَتْلِكَ ، فَقَالَ : وَاللهِ لَا يَصِلُونَ إِلَىٰ ذَلِكَ أَبَدًا ، قَالُوا : أَفَتُحْبَسُ ؟، قَالَ: نَعَمْ ، وَيَطُولُ حَبْسِي ، ثُمَّ أَخْرُجُ وَأَتَكَلَّمُ بِالسُّنَّةِ عَلَىٰ رُءُوسِ النَّاسِ ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ ذَلِكَ .

وَلَمَّا تَوَلَّىٰ عَدُوُّهُ الْمُلَقَّبُ بِالْجَاشْنَكِيرِ الْمُلْكَ أَخْبَرُوهُ بِذَلِكَ ، وَقَالُوا : الْآنَ بَلَغَ مُرَادَهُ مِنْكَ ، فَسَجَدَ للهِ شُكْرًا وَأَطَالَ ، فَقِيلَ لَهُ : مَا سَبَبُ هَذِهِ السَّجْدَةُ ؟، فَقَالَ : هَذَا بِدَايَةُ ذُلِّهِ وَمُفَارَقَةُ عِزِّهِ مِنَ الْآنِ ، وَقُرْبُ زَوَالِ أَمْرِهِ ، فَقِيلَ : مَتَىٰ هَذَا ؟ فَقَالَ : لَا تُرْبَطُ خُيُولُ الْجُنْدِ عَلَىٰ الْقُرْطِ حَتَّىٰ تُغْلَبَ دَوْلَتُهُ ، فَوَقَعَ الْأَمْرُ مِثْلَ مَا أَخْبَرَ بِهِ ، سَمِعْتُ ذَلِكَ مِنْهُ .

وَقَالَ مَرَّةً : يَدْخُلُ عَلَيَّ أَصْحَابِي وَغَيْرُهُمْ ، فَأَرَىٰ فِي وُجُوهِهِمْ وَأَعْيُنِهِمْ أُمُورًا لَا أَذْكُرُهَا لَهُمْ . فَقُلْتُ لَهُ - أَوَ غَيْرِي - لَوْ أَخْبَرْتَهُمْ ؟ ، فَقَالَ : أَتُرِيدُونَ أَنْ أَكُونَ مُعَرِّفًا كَمُعَرَّفِ الْوُلَاةِ ؟ .

وَقُلْتُ لَهُ يَوْمًا: لَوْ عَامَلْتَنَا بِذَلِكَ لَكَانَ أَدْعَىٰ إِلَىٰ الاسْتِقَامَةِ وَالصَّلَاحِ، فَقَالَ : لَا تَصْبِرُونَ مَعِي عَلَىٰ ذَلِكَ جُمُعَةً ، أَوْ قَالَ : شَهْرًا .

وَأَخْبَرَنِي غَيْرَ مَرَّةٍ بِأُمُورٍ بَاطِنَةٍ تَخْتَصُّ بِي مِمَّا عَزَمْتُ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَنْطِقْ بِهِ لِسَانِي .

وَأَخْبَرَنِي بِبَعْضِ حَوَادِثَ كِبَارٍ تَجْرِي فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَلَمْ يُعَيِّنْ أَوْقَاتَهَا، وَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَهَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ بَقِيَّتَهَا ، وَمَا شَاهَدَهُ كِبَارُ أَصْحَابِهِ مِنْ ذَلِكَ أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا شَاهَدْتُهُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

مَا هِيَ السَّكِينَةُ :

وَأَصْلُ السَّكِينَةِ هِيَ الطُّمَأْنِينَةُ وَالْوَقَارُ ، وَالسُّكُونُ الَّذِي يُنْزِلُهُ اللهُ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ ، عِنْدَ اضْطِرَابِهِ مِنْ شِدَّةِ الْمَخَاوِفِ ، فَلَا يَنْزَعِجُ بَعْدَ ذَلِكَ لِمَا يَرِدُ عَلَيْهِ ، وَيُوجِبُ لَهُ زِيَادَةُ الْإِيمَانِ ، وَقُوَّةَ الْيَقِينِ وَالثَّبَاتِ .

وَلِهَذَا أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ إِنْزَالِهَا عَلَىٰ رَسُولِهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَعَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَوَاضِعِ الْقَلَقِ وَالِاضْطِرَابِ ، كَيَوْمِ الْهِجْرَةِ ، إِذْ هُوَ وَصَاحِبُهُ فِي الْغَارِ وَالْعَدُوُّ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ، لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ إِلَىٰ مَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَرَآهُمَا ، وَكَيَوْمِ حُنَيْنٍ، حِينَ وَلَّوْا مُدَبِّرِينَ مِنْ شِدَّةِ بَأْسِ الْكُفَّارِ، لَا يَلْوِي أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَكَيَوْمِ الْحُدَيْبِيَةِ حِينَ اضْطَرَبَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ تَحَكُّمِ الْكُفَّارِ عَلَيْهِمْ،وَدُخُولِهِمْ تَحْتَ شُرُوطِهِمُ الَّتِي لَا تَحْمِلُهَا النُّفُوسُ.

وَحَسْبُكَ بِضَعْفِ عُمَرَ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عَنْ حَمْلِهَا - وَهُوَ عُمَرُ - حَتَّىٰ ثَبَّتَهُ اللهُ بِالصِّدِّيقِ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - .

A